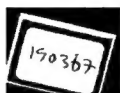


**THE BOOK WAS
DRENCHED**



لَا تُحِزُّكَ كِبَارُ السِّنِّ

إِلَى

الْتَدَعَى

تأليف

محمد حميد العديوي
مدرس اللغة العربية

كتاب إصلاح ورين وخلق . يحتاج إليه الوعاظ
ورجال السياسة والأخلاق . يتعزى به الصالح عما يناله
من أذى ، وما يوضع في سبيله من عقبات . ويجد
فيه المؤمن ما يقوى يقينه ، ويثبت فؤاده

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

فهرس

دعوة الرسل إلى الله تعالى

صحيفة

- ١ دعوة نوح عليه السلام الى الله تعالى
- ٢ التوحيد أول شيء يدعو إليه نوح وتدعو إليه الرسل
(اللائ) من قومه [الأشراف والسادة] يرمونه بالفضال ، وهم عقبة الاصلاح في كل زمان
وجبهة الشعب أنصار الرسل والمصلحين ، وحكمة ذلك ، كلمة هرقل لأبي سفيان في ذلك
- ٣ نوح يقابل صفه قومه بالحلم ، ويعكف على القيام بجهته ، ويقف من قومه موقف المدافع
عن نفسه
- ٤ نوح قدوة صالحة في الصبر وعدم الملل - ثقته بربه - عدم مبالاته بجماعة المبطلين
- ٥ نوح لا يطلب أجرا من قومه على الدعوة ، ويعمل بما يدعو الناس إليه ، وذلك برهان صدقه
- ٦ رسالة نوح وجدل قومه فيها بشبهة أنه بشر - تناقل هذه الشبهة من بعدهم - رد القرآن عليهم
(اللائ) من قوم نوح يعيبونه بأن أتباعه [أراذل] فقراء وأصحاب مهن حقيرة
- ٧ (اللائ) بأنفس أن يكون مع الفقراء تابعا لنوح - رد نوح عليهم في ذلك
- ٨ غلاة المستعمرين يحاولون الغش من قيمة الزعماء بما طعن به اللائ على نوح ليتخلصوا من
زعامتهم ، وفي الوقت نفسه يعملون لهم حسابا وألف حساب في بلادهم . و [الرعا] هم الذين
يقضون مضجعهم ولا يستطيعون إرضاءهم ، أما أرباب المصالح فهم دائما طوع أيديهم
- ٩ (اللائ) يرى نوحا بالجدل بعد عجزه عن رد حجته ويطلبه بالآتيان بعذاب الله فيقول لهم
نوح هذا شأن من شؤون الله تعالى
- ١٠ العذاب الذي يتوعد به نوح قومه وصفه بأنه مخز ، والفرق بين عذاب الرسل والمصلحين
في سبيل دفاعهم عن حقهم ، وبين عذاب المفسدين وأرباب الشهوات ، وأن الأول رافع
لرأس صاحبه ، والثاني خزي وعار عليه
- ١١ ولد نوح وهلاكه مع المالكين على الرغم من استشفاع أبيه فيه عند ربه حتى لا يعتمد
الناس على أنسابهم
- ١٢ النيب في قصة نوح دليل صدق الرسول ، ونسبة الله له بما وقع لنوح ، وأمره بالصبر كما صبر
نوح قبله لأن العاقبة للآتين
- ١٣ (اللائ) يرى نوحا بحب الرياسة [ومتى بدايها وانسلت] والواقع أنهم يخافون على رياستهم
- ١٤ اقتراح اللائ أنزل ملائكة تؤيد نوحا - رد الله عليهم في ذلك

صحيفة

- ١٢ محاولة إبطال دعوة نوح بأنهم لم يسمعوها في آياتهم الأولين - وهي نوح بالجنون وكذلك بقية الرسل رماهم أقوامهم به لأن نفوس المستكبرين متشابهة
- ١٣ العبرة في قصة نوح زاحة القول ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، واللجوء إلى الله تعالى عند الشدة ونصره للمصلحين ، وحذلائه للمفسدين
- ١٤ نوح يذكر قومه بأنه أمين في رسالته ، لا يسأل قومه أجرا على دعوته ليفكروا في صاحب هذا الخلق ، وأنه لابد أن يكون صادقا
- ١٥ (الملائكة) يلجأ إلى القوة المادية ويهدد نوحا بالقتل بعد أن عجز عن الحجية شأن المبتلين في كل زمان - نوح يطلب من ربه أن يفتح بينه وبين خصومه بالحق - استجابة الله له بأنجاهه هو ومن معه في الفلك وإغراق أعداء الحق
- ١٥ سورة نوح وفيها أنه رغب قومه في الطاعة ، وخوفهم من عصيان الله ، وأراهم أن أجل الله الذي حددته لعقوبة الأمم إذا جاء لا يمكن تأخيرها ، وشكواهم قومه إلى ربه ، وأنه لو نون لهم الخطأ ، ونوع الأساليب فلم يقدم شيء من ذلك
- ١٦ وذو سواع الخ : كانت أصناما يعبدها قوم نوح ، وأصلها رجال صالحون أوحى الشيطان إلى أقوامهم بعد أن ماتوا أن ينصبوا عليها أنصابا ويسموها بأسمائهم ، وبتطاول الزمن عبدت والعبرة في ذلك لمن يشيدون القباب ويضعون على قبور الصالحين توابيت وعمائم إعظاما لأصحابها ، وعاقبتها عبادة الناس لها
- ١٧ دعوة نوح أن لا يدع أحدا من الكافرين لأنهم مضلون ويفششون أولادهم على الضلال ، وطلبه من الله أن يغفر له وللمؤمنين - إجمال عقوبة قوم نوح في قوله (مما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً)

١٨ دعوة هود عليه السلام إلى الله تعالى

- ١٩ هود يدعو قومه إلى عبادة الله وحده (الملائكة) يرمي هودا بالسفاهة وسخافة العقل بسبب دعوته لهم ، ويرمونه بالكذب فيرد عليهم بأنه ليس به سفاهة ولكنه رسول الله الأمين ، ثم يقول لهم لا حق لكم في أن تعجبوا أن يجيشكم هود عظم من الله على لسان واحد منكم
- ١٩ هود يذكر قومه بنم الله عليهم ، وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، وسعة ملكهم وحضارتهم
- ٢٠ الملائكة من قوم هود ينكر عليه دعوتهم إلى التوحيد ، ويتحداه أن يأتيهم بما يهدمهم من العقاب
- ٢٠ هود يخبرهم بأنهم استحقوا عذاب الله وغضبه ، وينكر عليهم جداله في أسماء سموها هم
- ٢٠ العبرة في نجاة هود ومن معه ، وإرسال ربيع على أعدائه دمرت عليهم كل شيء
- ٢١ هود يصم خصومه بالافتراء باتخاذ الأوثان شركاء ، ويرجمهم إلى مقتضى العقل في دعوته
- ٢١ يهدم برسالة السماء عليهم بالأمطار ، وزيادتهم قوة إلى قوتهم إذا هم أطاعوا

٢١ (الملائكة) يقول لمود : ما جئنا بينة و يصرون على الشرك ، ويقولون له : إن آلهتهم مسته بسوء وتعيبه لهم من آثار ذلك

٢٢ هود يشهد الله ويشهدهم براءته من الأصنام ، ثم يطلب إليهم أن يعملوا به ما يستطيعون من

كيد ساخرا بهم وبوعيدهم ، لأنه متوكل على ربه معتصم بالحق

٢٣ هود يتوعد قومه باستخلاف غيرهم في ديارهم وأرضهم بعد هلاكهم

٢٤ العبرة في نجاة هود ومن معه ، وهلاك عاد ، وقول الله (وتلك عاد) يلفتنا إلى ما حل بهم بسبب جحودهم بآيات الله وعصيان الرسل

٢٥ عصيان رسول من الرسل عصيان لجميع الرسل ، لأنه عصيان من أجل رسالته مع قيام الحجة على حقيقة دعوته

٢٦ دعاء الله تعالى على عاد بالهلاك والبعد عن رحته

٢٧ هود ينكر على قومه تبذير المال والعبث به ، وفيه عبرة لأغنيانا المترفين ، ويصف قومه بأنهم غلاظ جبارة في بطشهم بالضعفاء

٢٨ غلاة المستعمرين كقوم هود (إذا بطشوا بطشوا جبارين) فيتموا الأطفال ، وهتكوا الحرمات ، ومنرقوا المصاحف ، وقتلوا الأبرياء

٢٩ عاد تؤيس هودا من سماعها لوعظه ، وتحتج بأن عملها هذا خلق الأولين ، وتدعى أنها لا تعذب على الشرك - فأهلكهم الله ، وكان هلاكهم آية وعبرة

٢٦ دعوة صالح عليه السلام إلى الله تعالى

٢٧ القرآن سمي صالحا أخا لقومه ثمود لأخوته لهم في النفس والوطن ، واليهودى والنصرانى يسمى أخا بذلك الاعتبار - ناقه صالح آية بينة من آيات الله بسبب توعد من تعرض لها بسوء أن يعذبه الله عذابا أليما - الناقة ابتلاء وقتنة من الله لثمود

٢٨ صالح يذكر قومه بنم الله عليهم ، وجعلهم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران ، وما ألهمهم من فنون الصناعة ، وهندسة البناء ، وفق النحت ، ووجههم من القوة والصبر

٢٩ من أساليب وعظ القرآن وربية النفوس تذكير المسيء باكرام الله له بنعمه عليه ، ولا ينبغي لمن كرمه الله أن يضع نفسه موضع المهانة ، وكثيرا ما ينفع ذلك الأسلوب ، وقد يدع الرجل السافس لأنه من بيت طيب وأرومة صالحة

٣٠ (الملائكة) للمستكبر من قوم صالح يعلن كفره بما أتى به صالح ، ويذبح الناقة التي نهوا عن مسها بسوء ، ويقولون لصالح : اتقنا بما تعدنا إن كنت صادقاً - عقاب الله لهم على ذلك التعدى

٣١ عقر الناقة كان من رجل منهم ، ولكنه نسب إليهم لرضام به ، ليرينا الله أن الراضى عن الظالم شريك له في الظلم ، وأن العقوبة لا تقع على المباشروحدة مادام في استطاعة الناس منعه من ظلمه ، وهى عبرة كبرى

صحيفة

- ٢٩ فليعتبر بذلك السلسلون الذين تحالطوا وابططهم وسكتوا على الظالمين ، وليعلموا أن بلادهم لم تملكها الأجانب إلا من طريق رضام بظلم الحاكمين
- ٣٠ الرحمة والصاعدة والسيحة كل ذلك وقع بقوم صالح - قيام صالح بما أوجبه الله عليه
- ٣٢ قوم صالح كانوا أصدقاء له قبل دعوتهم ، فلما دعاهم إلى الله عادوه ، على الرغم من سيرته المرضية عندهم ، شأن الناس لا يرضون عن أحد إلا إذا أطاعهم
- ٣٣ صالح يرى قومه أن لا غنى له عن تبليغ رسالة الله ، وأنه لأحد ينصره من عذابه إذا هو عصاه
- ٣٤ صالح يذكر قومه بتخليه الله لهم وما يتمتعون به من الجنات وغيرها مع الأمن والهدنة ، وهي من أجل نعم الله عليهم - وينهاهم أن يطيعوا أمر المفسدين
- ٣٥ قوم صالح يرمونه بأنه مسحر مغلوب على عقله ، ويقولون : انه بشر فلا يصلح للرسالة
- ٣٦ صالح يدعو قومه إلى الله فيفترقون فرقتين : إحداهما معه ، والأخرى تخصمه ، وتلك طبيعة الدعوة في كل زمان . وليست ذنبا للداعي ، ويدل ذلك افتراق الناس في العقيدة السياسية
- ٣٧ قوم صالح يطيطرون به وعن معه فيرد عليهم بأن طائرهم عند الله
- ٣٨ القسعة الرهط المفسدون في المدينة وتأمرهم على قتل صالح - الحيلة التي دروها للتخلص من ولي صالح ، وعاقبة مكر أولئك النفر ، تدمير الله لهم ولقومهم - خراب بيوتهم بسبب ظلمهم والعبرة في ذلك

٣٩ دعوة إبراهيم عليه السلام إلى الله تعالى

- ١٠ الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم فآتمها كالتحميد لجله إماما للناس - تفاوت الناس في أداء التكليف - أدب إبراهيم في الدعاء ، إذ طلب أن يكون من ذريته أئمة ، ولم يطلب إمامة لجميع البشرية
- ٤١ عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية ، للطائفتين والعاكفين والراكم السجود ، ليرينا كيف نهتم بأماكن العبادة ، ونظورها من الأرجاس الحسية والمعنوية
- ٤١ القدوة الحسنة بإبراهيم في تطهير المساجد من الشرك وذرائع الشرك
- ٤٢ تذكير الله بدعوة إبراهيم أن يجعل مكة بلدا آمنا لا يعتدى عليه أحد
- ٤٣ بناء إبراهيم وإسماعيل البيت ، والناسى بهما في بناء بيوت الله حتى لا يسفكف مسلم من السامعة في مثل ذلك العمل الخيرى - طلبهما قبول العمل من الله تعالى
- ٤٤ دعوة إبراهيم أن يبعث في ذريته رسولا من العرب يعلمهم الكتاب والحكمة ويركز نفوسهم ، إجابة دعوته - مله إبراهيم لا يرغب فيها إلا من امنهن نفسه - إسلام وجهه لله ، وتوصيته لبنه بالاسلام

صحيفة

٤٣ إبراهيم ينكر على آبيه وقومه عبادة الأصنام ، ولم تمنعه الابوة من إنكاره على آبيه ، ليرينا أنه ليس من الأدب مع الآباء تركهم على ضلالهم - إنذار محمد صلى الله عليه وسلم لمشيرته وأقاربه

٤٤ ندرج إبراهيم في حجة قومه ، فقال في الكوكب (هذا ربى) مسابقة لهم (فلما أفل قال لا أحب الآفلين) الخ

٤٤ إبراهيم ينكر على قومه مجادلهم له في الله الذى هدا

٤٥ حجة إبراهيم التى يعق الله بها عليه من فضل الله عليه ، والواجب على من آناه الله قوة الحجة أن لا يستعملها في إضعاف حق ، أو ترويج باطل ، وأن لا يعطلها عند الحاجة إليها ، وكثير من الناس لا يشكر الله على إعطائه حجة

٤٦ التأسى بإبراهيم في السماء ، وهو باب كبير من أبواب العبادة ، وكل دعاء إبراهيم موجه لله وحده ليس فيه وسيط أو شفيع

٤٦ فرة إبراهيم من الأصنام ، وقوله (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) والذى يضل الناس يجب أن يخضع

٤٦ إبراهيم يزىل أسباب الشرك وذرائع بتكسير الأصنام - ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بإزالة كل صنم حول البيت ، ويحمل خلفاء الراشدين أن لا يدعوا غملا إلا طمسوه ، ولا قبرا مشرفا إلا سوه - وعمر يقطع الشجرة التى كانت عندها البيعة حينما شعر أن الناس يتبركون بها ، ويزىل مظلة وضعها بعض الناس على ميت ، والسامعون في الصدر الأول يزىلون القباب فوق قبور الصالحين ، وملك الحجاز يتأسى بهم في إزالة القباب حتى يبقى التوحيد خالصا لله من الشرك وذوائع الشرك

٤٧ إبراهيم يدعو ربه أن يجعل قلوب الناس تهوى إلى أبنائه بمكة وأن يرزقهم من الثمرات

٤٨ (إن إبراهيم كان آتيا) من أبلغ من رسالة في المدح والثناء ، وحسبه هذه الكلمة من ربه ، قوته لله وعدم إشراكه - رد الله على أهل الكتاب الذين ينسبون إليه بأنهم مشركون وهو إمام الموحدين وقودتهم الصالحة

٤٩ أمس الله نبيه أن يقبل ملة إبراهيم ويتأسى به في الصبر والاحتبال وبجميع الرسل الذين سبقوه وخضع إبراهيم لأنه إمام الموحدين

٥٠ إبراهيم كان صديقا خلقه الصدق - حكمة تقديم الصدق على النبوة أنه ملاك أمر النبوة - جواز الكذب لمصلحة يفتح بابا من أبواب جهنم

٥١ تواضع إبراهيم في وعظه لآبيه بقوله (يا أبت لم تعبد الخ ، وأدبه معه - هضمه لنفسه في قوله (قد جئني من العلم مالم يأتك) - رد آبيه عليه بقوله (لئن لم تنته لأرجنك) الخ - قول إبراهيم لآبيه (سلام عليك)

صحيفة

٥١ إبراهيم يعزل أباه حين نصحه فلم ينتصح ، ليرينا أن من لم يزل للسكر ينجي له أن يزول عنه

٥٢ إبراهيم ينكر على قومه عبادة الأصنام فيعتفرون بعبادة آباءهم لما فيهمهم هم وآبائهم بالضللال الواضح ، تعطيلهم عقولهم ومواههم اعتادا على عقول الآباء

٥٣ من خصائص أهل جهنم أن لهم قابولا لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها الخ - التقليد سنة أعداء الرسل - كلمة الزمخشري في ذم التقليد وهي كلمة لها قيمتها

٥٤ إبراهيم يكسر الأصنام ويدع الصنم الأكبر عليهم يرجعون إليه ، ثم يسألونه فيقول لهم متهاكرا (فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فيرجعون إلى أنفسهم فيحككون بظلمها ، ثم ينقلبون على أعقابهم فينصبون لأهنتهم

٥٥ إبراهيم يعود فيضجر منهم ومن آهنتهم ويرمهم بعدم العقل

٥٥ لجوء خصوم إبراهيم إلى الحديد والنار بعد أن عجزوا عن الحججة ، شأن البطل في كل زمان أمصروا بتحريره ونصر آهنتهم ، فقال الله للنار (كوني بردا وسلاما) ومكروا به فكان مكر الله خيرا من مكروهم ، لأنه لتأييد الحق ، ومكروهم لمناصرة الباطل

٥٦ إبراهيم ينكر على قومه أن يعبدوا آلهة لا تسمعهم إذا دعواهم ، ولا ينفونهم إذا أطاعوهم ، ولا يضرونهم إذا عصوهم - اعتذارهم عن ذلك بتقليد الآباء

٥٦ إبراهيم يعلن عداوته لأهنتهم إلا الله ، وبين - ب ذلك بحلقه له وهدايته ، وإطعامه وسقايته وشفائه من مرضه ، وإماتته وإحيائه الخ في حدود إلهامه لأسباب الطعام والشراب وتعليمه لنا كيف يكون علاج الأمراض

٥٧ في قصة إبراهيم ولجونه لمولاه عبرة لمن يدعون من الوثني من لا يسمعهم ولا يملك أن يضرم أو ينفعهم ، وعبرة لمن يتكون الأطباء ويعملون في علاج أمراضهم لأسباب خرافية جهلية كتعليق شعورهم على باب زويلة لشفاء رهوسهم من الصداع ، ناسين قول الله تعالى (وأتوا البيوت من أبوابها)

٥٨ إبراهيم من شيعة نوح لأن الأنبياء يشاع بعضهم بضاً في الحق - سلامة قلب إبراهيم من أمراض القلوب - الأفك وتسمية آهنتهم به

٥٩ نظر إبراهيم في النجوم وسيرها وأقولها وطاوعها ، وأنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد - سقم قلبه من جهة عبادة الناس لها وكفرهم بحالقتها - ضرب إبراهيم لأهنتهم وتهكم بهم في قوله (ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون)

٥٩ إنكار إبراهيم عليهم أن ينحتوا حجارة بأيديهم ويمبدونها - إطالة المتكلمين في آية (والله خلقكم وما تعملون) من جهة دلالتها على أن العمل مخلوق لله - في غير جدوى لانها في العمل بمعنى للعمول

٦٠ خصوم إبراهيم يوصي بعضهم بضاً ببناء بئان يملأ بالنار وإلقائه فيه - إنجاء الله له - بشارة الله له بسلام .

صحيفة

٦٠ رؤيا إبراهيم أنه يذبح ولده في المنام ، واستشارته في ذلك ، غططت بقوله (يا بني) . وقوله له (فانظر ماذا ترى ؟) ومقدار تأثير هذه المحنة على النفس - إجابته له بقوله (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين)

٦١ استسلام الولد والوالدة لأمير الله تعالى ، وشروعهما في إنفاذ أمره - نداء الله له أنه قد حقق الرؤيا بذلك الاستسلام - فداؤه بمذبح معين جزاء من الله له على إحسانه

٦٢ ابتلاء الله لإبراهيم وولده بذلك العمل ابتلاء واضح - اذا قيس التكاليف بذلك الابتلاء صرت أمامها - القدوة الصالحة في إبراهيم وولده في إطاعة أمر الله وإن كان شاقا على النفوس

٦٣ قصة إبراهيم وولده الذبيح أجلها الله في كلمات تصد على الأصابع ، والوعاظ يضيفون إليها من الاسرائيليات في خطبة عيد الأنبيى ما تمجده النفوس ، ويمكنون في ذلك القصص زهاء نصف ساعة ، ونحن لانعلم من قصة إبراهيم وولده إلا ما علمنا الله على لسان رسوله الصادق

فلنسكت حيث سكت الله ، ولنفض في القول حيث أفاض

٦٤ لا ينهانا الله عن برّ من لم يقا لنا في الدين من الكفار ، إنما ينهانا عن برّ الدين قائلونا في الدين وأخرجونا من ديارنا وظاهرنا على إخراجنا

٦٥ التأسى بإبراهيم والذين معه في كراهة الشرك

٦٦ قول إبراهيم (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) هي دعوة ما أعظم شأنها وأجل قيمتها - بيان المراد منها ، وتحقيق معنى الفتنة - كلمة السيد جمال الدين الأفغانى في هذا المعنى

٦٧ دعوة لوط عليه السلام إلى الله تعالى

٦٨ إنكار نبيّ الله لوط على قومه فاحشة اللواط التي كانوا قدوة سيئة فيها فطيمهم وزرعا ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة

٦٩ قوم لوط يصفهم الله بأنهم لا يحملهم على هذه الفاحشة إلا مجرّد الشهوة ، فخرجوا عن مقتضى الفطرة ، وصاروا أخس من العجماء التي تطلب لإناتها بسائق الشهوة لأجل النسل

الذي يحفظ به نوع كل منها ، فبني الساكن من عشّ في الشجر أو حجر في الأرض - ومن قصد الشهوة لذاتها فقد جعل الوسيلة مقصدا ، إذ فعله يكون عن داعية ثابتة لاعتناء علة

علوّة ، فيصير مملكة راسخة له ، وللملكة تدعو إلى تكرار العمل

٧٠ فاحشة اللواط جناية على الفطرة ، ومفسدة للشبان بالاسراف في الشهوة وإذلال للرجال ، وكسر لما فيهم من إباء وشيم ، وتعطيل للنسل ، ومفسدة للنساء باضطرابهم إلى الزنا لانصراف

أزواجهن عنهم - ومن آثروا أنها وسيلة للاستمناء وإتيان البهائم ، لأنها تمرّن الإنسان على قصد الشهوة لذاتها ، وهما مصيبتان شديدتا الضرر في الأبدان والآداب

٧١ وصف الله لقوم لوط بأنهم قوم عادون ومسرفون ، وجاهلون بهذه الفاحشة

صحيفة

٦٦ قوم لوط يألفون هذه الفاحشة حتى أصبحت الطهارة منها منكرا عندهم ، وذلك منتهى فساد الفطر ، ويطلبون إخراج شعبة لوط من قريتهم لأنهم أناس يتطهرون من هذه الفاحشة . إنزال الله للطر للهلاك على قوم لوط ومنهم امرأته ، وإنجاء لوط ومن معه - العبرة في هلاك امرأه لوط وامرأة نوح مع أنهما زوجان لرسولين من رسل الله ، حتى يعلم الناس أن مدار النجاة عند الله العمل الصالح

٦٨ قول نبي الله لوط لقومه (هؤلاء بناتي هن أظهر لكم) فزوجهن

٦٩ لوط يمتن أن يأوى إلى ركن شديد ، وحديث البخارى فى ذلك - عقوبة الله لقوم لوط - تهديده لكل ظالم بهذه العقوبة

٧٠ لوط ينكر على قومه إتيان الذكران وترك ما خلق الله لهم من الأزواج

٧٠ قوم لوط يهددونه بالخراج من بلده إن لم يفته عن دعوتهم ، وكذلك أقوام الرسل يهددونهم بالنفى إن لم يسكتوا عن الإصلاح ، وهى سنة غلاة للمستعمرين مع الصالحين من الزعماء وقد جهلوا أن الحق إذا اضطهد رسخ وتمكن (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض)

٧٢ ينكر لوط على قومه إتيان الرجال وقطع السبل ، وإتيان النكر فى نادهم - قومه يطلبون منه الاتيان بعذاب الله ان كان صادقا - إخبار الله بأنه مهلك قريتهم ، وتعليل ذلك بظلمهم قول نبي الله إبراهيم لربه (إن فيها لوطا) فكيف تأخذه بجرمهم - وعد الله بانجائه من العذاب

٧٢ دعوة يوسف عليه السلام إلى الله تعالى

٧٣ القصص ومعناه - النرض منه فى القرآن الكريم - الفرق بينه وبين القصص الذى يضعه الناس - معجزة الرسول فى إخباره بذلك القصص الذى هو من أبناء الغيب

٧٤ رؤيا يوسف للكواكب - استبشار أبيه يعقوب بالرؤيا - توصية أبيه له أن لا يقصصها على إخوته حتى لا يحسدوه

٧٤ يعقوب لم يكن مؤمنا بعصمة أولاده من حسد أخهم ولذلك حنره من قصص الرؤيا عليهم - الحسد مرض نفسى لا يتفق ونبوة الاخوة - لادليل على نبوة الاخوة ، بل الحسد دليل على عدمها

٧٥ بشارة يعقوب ليوسف باجتباء الله له وتعليمه إياه من تأويل الأحاديث وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب - بحث طويل فى معنى التأويل وتفسير الرؤيا

٧٦ آراء العلماء - إسلاميين وغير إسلاميين فى الرؤى والأحلام

٨٠ تعليل العلماء للرؤى - ابن خلدون - الترطى - أبو بكر بن العربى

- ٨١ ماورد في صحيح البخارى من الرؤيا وتعليق العلماء عليه - الرؤيا الصالحة والأضغاث
- ٨٢ طائفة من تأويلات الرؤيا المأثورة
- ٨٣ أصول التأويل وهي كليات نافعة مفيدة لاغنى لمن يتصدى للتأويل عنها
- ٨٧ الصفات التي يجب أن يكون عليها المؤول للرؤيا
- ٨٨ اختلاف الرؤيا باختلاف الناس وأحوالهم ، والتعبير في كل موضع بما تقتضيه القرائن
- ٩٠ الآيات والعبر في يوسف وإخوته ، وتسلية الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على كيد قريش بما رآه يوسف من إخوته - حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه التي لا ذنب له فيها
- ٩١ غريزة الحسد خلقت في الانسان للمنافسة في طلب المجد وعلاؤ الشأن ، ولكن الناس صرفوها الى محاربة المسود والقضاء عليه - الحسد لا يكون إلا بين المشاركين في حال كصناعة أو تجارة أو زراعة أو علم وما الى ذلك - وهي إخوة يوسف لأبيهم بالضلال الواضح
- ٩٢ تأصمهم بقتل يوسف ليخلوهم وجه أبيهم وتسلم لهم محبته - غلة ذلك الخلق على كثير من الناس فيقتل الموظف صاحبه قتلاً أدبيا ليخلو له وجه رئيسه - وترى ذلك فاشيا في بطانات الملوك والأمراء
- ٩٣ تهوين الشيطان على الانسان أمر للعصية بشئ الأساليب
- ٩٤ إذا قسا الجماعة لانعمد فيهم من رق قلبه - أشار واحد من الاخوة بعدم قتل يوسف . وقوله : ألقوه في غيابة الجب ، وتروطهم على رأيه
- ٩٤ احتيال الاخوة في طلب يوسف من أبيه - اشفاقه عليه من الذنب لأنه كان صغيرا ، شفقة الآباء على أبنائهم لحكمة بالغة هي بقاء الفسل وعمارة هذه الحياة
- ٩٥ جهل الأمهات وجناية جهلهم على الأبناء من جهة الصحة والترية الصحيحة بعامل الشفقة - تأكيد الاخوة أن أخاهم لا يأكل الذنب
- ٩٦ اكثار المفسرين من الاسرائيليات في ما حصل ليوسف في الجب مما لا دليل عليه
- ٩٦ تأنيس يوسف وتقوية قلبه وهو في الجب بأنه سينجي إخوته بهم لهم هذا بعد ، وهي بشارة له بأنه سيعيش ويخلص من هذه الشدائد
- ٩٦ عظماء الرجال يستعذرون السجن في سبيل أمل استولى على نفوسهم ، فما بالك بالهام يطعن قلب صاحبه الى أنه حق لاشك فيه كالهام يوسف ؟
- ٩٦ إخوة يوسف يلقون سببا : هو أن الذنب أكله وهو حارس للمتاع -
- ٩٧ إخوة يوسف يعتقدون أن أبهم لا يصدقهم [كاد الرتاب أن يقول خسنوني] - إخوة يوسف يضعون على قيص يوسف دما كذبا - يروي أن يعقوب قال : كيف أكله الذنب ولم يشق قيصه ؟ وهي ملاحظة عقل كعقوبة قيص يوسف في قصة امرأة العزيز - يعقوب يعتقد كذب أبنائه ، ويلجأ إلى الصبر الجليل ، والاستعانة بالله على احتفال هذه الشدائد ، ويشكو به وحزنه الى الله

- ٩٨ السيارة تغر على يوسف بواسطة اللو الذى ألقته فى الحبّ ، وتستبشر يوسف لحسن طلعه وتحرص عليه فتحفيه عن المارة - توعد الله لاختوة يوسف على عملهم - يبعه بئمن قليل - وصية الذى اشترى يوسف لامراته أن تصكروم مقامه وجاء نفعهم به أو اتخاذه ولدا
- ٩٩ تمكين الله ليوسف فى الأرض ووسائل ذلك بانجائه من كيد إخوته بسبب اقتراح واحد منهم ، وصيرورته واحدا من بيت العزيز الذى هو على خزان مصر - سنة الله فى منه على المستضعفين بالتمكين فى الأرض
- ١٠٠ إيتاء الله يوسف الحكم والعلم بعد أن بلغ أشده - جزاء المحسن على احسانه
- ١٠١ صراودة امرأة العزيز ليوسف عن نفسها - تغليقها الأبواب لتسهيل عليه سبيل الفاحشة
- ١٠٢ مقابله للطلب بالانكار الشديد - قال معاذ الله أن أفع فى مثل ذلك - انه ربى أحسن مثواى - العزيز أوأاته ولايصحّ لئلى أن يخون ربه الذى أكرمه وأحسن إليه - انه لايفلح الظالمون - ولو فعلت ذلك كنت ظالما والظالم لايفلح
- ١٠٣ همّ امرأة العزيز بيوسف يتناسب مع شهوتها ، وهمّ يوسف يتناسب مع رسالته ، وزعامته للناس - ماحشيت به كتب التفسير مما لايليق بيوسف عليه السلام جهل بما يبغي للرسول - (لولا أن رأى برهان ربه) وهو العزيز لكان ما لا تحمد عقباه ، كقتل يوسف أوقتلها فى سبيل دفاعه عن نفسه أو أو الخ
- ١٠٤ تسخير الله للعزيز فى ذلك الوقت ليقطع به النزاع بين امرأة العزيز ويوسف ، وليصرف الله به عنه سوءه والفحشاء - لأنه من عباده المحلصين
- ١٠٥ استباق يوسف وامرأة العزيز الى الباب ، أما هو فليشكو امرأته إليه وأما هى فلتتهمه ، قدّها قميصه من خلف لتخفه عن السير - تسرعها فى اتهام يوسف أمام العزيز - ردّ يوسف عليها بأنها راودته عن نفسه - امرأة العزيز تحرك فيه النخوة ليفضب على يوسف لأنه أراد سوءا بأهله
- ١٠٥ شهادة رجل من أهل المرأة محكما للقرائن والعقل فى شهادته ، - العزيز رأى قميصه قدّ من دبر فقال انه من كيدكن واتهم امرأته ، وأمر يوسف بترك الكلام فى المسألة ، وأمرها أن تستغفر من ذنبها وصرّح بأنها كانت من الخاطئين
- ١٠٦ القرائن أصل من أصول الشريعة فى الشهادات - عناية الحكومات بها اليوم فى الجنائيات
- ١٠٧ وصف العزيز كيد النساء بأنه عظيم - قول بعض العلماء [إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان] والتعليق على الكلمة
- ١٠٨ حديث نسوة للمدينة عن امرأة العزيز بمرادة فتاها ورميها بالضلال الواضح - اعدانها طعاما للنسوة ، وأمرها ليوسف بالخروج عليهن - إكبار النسوة ليوسف وتقطيعهن

الأبدى لفتنهم يوسف - وقولهم ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم - قول امرأة العزيز لهم : هذا يوسف الذى لم تنته فيه ليعذرها

١١٠ من القريب اعتراف امرأة العزيز أمام النسوة أنها راودت يوسف فامتنع بشدة ، وقسمها ان لم يجدها لطلبها لابد من سجنه ، اقتناع زوجها بأنها صاحبة الجرم بعد شهادة الشاهد ، وتزيه الله له بقوله - إنه من عبادنا المحضين - . والفسرون يهتمونه بما لا يليق بمثله !!

١١١ كلمة يوسف التاريخية بعد توعده امرأة العزيز له بالسجن وأن يكون من الصاغرين (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) وهو جواب زعيم ديني يعلم به الناس كيف يستهنون بالشهادت ويسخرون بها في سيل الحق والخلق

١١١ نصيحة للزعماء أن يتدبروا هذه الكلمة ويكررونها عند ما يسألومون في أمر يضر بمصلحة بلادهم ، ويهددون بالسجن أو النفي ، لأن السجن لا يضيع حقا بل يثبت ، ولا يزعم عقيدة بل يقويها

١١٢ رجوعه الى ربه في أن يصرف عنه كيدهم ليعلمنا كيف انقسمك بالحق والخلق ورجع مع ذلك الى الله في أن يمكن للحق ، ويبطل الباطل - استجابة الله له في صرف كيدهم عنه

١١٣ العزيز يخضع لامرأته في سجن يوسف بعد قيام الأدلة على براءته ، ويظهر أنها لم ينقطع أملها من يوسف فرأت أن تجرب به بالسجن بعد أن جرته من طريق الراودة حتى إذا أجابها سعت لخراجها منه ونسيت قوله (رب السجن أحب إلى) الخ

١١٥ دخول يوسف السجن ودخول فتين معه - عرض رؤاها عليه وطلب تأويلها - وعد يوسف لهما أن لا يأتيهما طعام إلا نبأها بتأويله قبل إتيانه ، وأن ذلك مما علمه الله - بيان السبب في ذلك بأنه ترك ملة قوم غير مؤمنين بالله إلى ملة آباؤه

١١٦ يوسف يتفوز فرصة سؤاله عن الرؤيا لينصح صاحبيه في السجن وينشر مبادئ الإيمان بالله وتوحيده والإيمان بالبعث والجزاء ، شأن صاحب المبدأ يتحين الفرص لنشر عقيدته

١١٧ يوسف يوازن بين التوحيد والشرك ، ويرى صاحبيه أن عبادة إله واحد خير من عبادة آلهة متفرقين ، وأن الخير للعابد أن يكون له إله واحد يعرف ما يحبه فيسارع إليه وما يكره فيتركه - ويقبح لصاحبيه عبادة أسماء ما أنزل الله بها من سلطان - ويرجع فيقول رؤيا أحدهما بأنه يخرج من السجن ويسقى ربه خرا ، والثاني بأنه سيصلب فتأكل الطير من رأسه

١١٨ (اذكرنى عند ربك) اذكر مظالمى عند سيدك

١١٩ آية يوسف على رساله هل هي تأويله للرؤى واستعداده للاخبار بالنيب أو هي شيء آخر ؟ أو هي محتته مع إخوانه ومع امرأة العزيز واراوته الحديدية وتفضيله السجن على فساد الخلق كل ذلك وأمثاله آية اصطفاء الله له

١٢١ مكث يوسف بضع سنين في السجن لم يكن عقوبة له ، لأنه يجب على المظالم أن ينتصر ، وذلك شأن المؤمنين ، والتمس طريق لدفع الظلم ليس فيه غضاضة على طالبه

١٢١ الملك يرى رؤيا ويطلب من يعبرها - يوسف يعبر الرؤيا بالسنين السبع المجذبة بعد سبع محصية ويشير عليهم بأذخار الحب في السنين حتى لا يفسد

١٢٢ تحديد يوسف لعام بعد السبع الشداد يثبات فيه الناس دليل على أنه بوحى من الله تعالى . الملك يهتم لهذه الرؤيا وتأويلها لأنه خطر يهدد الدولة بالمجاعة ويهتم لأن يوسف وصف الداء للسائلين

١٢٣ الملك يطلب يوسف من أجل حادث الرؤيا فيأبى يوسف إلا بعد أن تظهر براءته مما سجن فيه ويطلب من الملك أن يسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن عن سيرة يوسف

١٢٣ يوسف يضرب المثل العالي للناس في الصبر والاحتمال في سبيل أن يخرج من السجن كالأبريز الخالص ، على ما في السجن من شظف العيش وخشونة العيشة - حديث البخاري لو لبثت في السجن مالت يوسف لأجبت الداعي - وهي شهادة لها قيمتها

١٢٤ عبرة للأزعماء في سيرة يوسف وصبره وجلده ، يطلبونه ليخرج من السجن فيأبى إلا بعد أن تظهر براءته ، وهكذا يجب أن يضحى الناس براحة أجسامهم في سبيل راحة نفوسهم

١٢٥ الملك يسأل النسوة عن يوسف فيجبنه بقولهن (حاش لله ما علمنا عليه من سوء)

١٢٦ امرأة العزيز تعود فتقرّر براءة يوسف وأنها راودته عن نفسه وأنه صادق في قوله وتقول: ما أبرئ نفسي إن النفس لأثارة بالسوء ، فتوفر ليوسف شهادة امرأة العزيز وهي الخصم ليوسف ، وشهادة النسوة ، وشهادة رجل من أهلها اعتمادا على قد القميص وشهادة الله وهي أكبر شهادة بأنه من عباده المخلصين ، فماذا بقي بعد هذا من شبهة تتعلق بيوسف ؟

١٢٨ الملك يطلب يوسف بعد ظهور براءته ليكون بطلا له خالصة ، ويقول (إنك اليوم لدينا مكين أمين) وذلك عاقبة الاستقامة - ذلك بعد أن كله وعرف من حديثه نهاه شأنه

١٢٩ الشأن في الملوك الذين يحرمون على مستقبل دولهم أن يتخبروا لها أصلح الناس وأعلمهم بشئون الحياة - وليس من شأنهم أن يحقدوا على الرجل النابه المستقيم لأنه قوة لا غنى للدولة عنه - لا تستوى أمة غنية برجالها وأمة فقيرة

١٢٩ لو أن ملوك الأرض تأسوا بذلك الملك في اختيار الوزير الصالح لسعدوا وسعدت بهم الأمم

١٢٩ بطانة الملوك وأثرها فيهم وفي أعينهم

١٢٩ بطانة الملوك تعبر عن نفسياتهم ، وتدارع إلى مرضاتهم ، فهي تردّد صدام في أمرها ونهيها وتنطق بلسانهم في ترغيبها وترهيبها

١٣٠ يوسف يطلب من الملك أن يجعله وزيرا لئلا يلفظ له لئلا وعلمه بطرق تدبيره ، ويرينا أن الوزير الفاقد للأمانة خطر داهم على مرافق الدولة لخيانته ، وأن الفاقد للعلم خطر لجهله ولكن خطر الأول أشد

١٣٦ يوسف يعلم الملك كيف يختار الوزراء بجعل قاعدة الاختيار الأمانة والعلم ولا غشاضة على

الملك في أن يأخذ بنصيحة يوسف فإنه ملهم من الله تعالى ، ومن مثله تؤخذ الحكمة

١٣٧ القرآن من سفته أن يرجعنا إلى المختصين في مختلف الشئون

١٣٨ (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) بتدبير أسباب التمكين ، ووضع مقدماته بلطف .

جزاء الله للمحسنين في الدنيا فوق جزائهم في الآخرة

١٣٩ دخول إخوة يوسف عليه ليطلبوا طعاما بعد المجاعة وقد عرفهم وهم لم يعرفوه - طلبه

أخاهم من أبيهم حتى يعطيهم الليرة التي يحتاجونها

١٤٠ أمر يوسف فتيانه أن يجعوا بضاعتهم التي جملوها لتكون ثمن الطعام لحملهم ذلك على

حسن ظنهم فيه فرجعوا - قولهم لأبيهم منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل مانحتاج

إليه في المستقبل - وسنحفظه - تذكر يعقوب إياهم ما فعلوه بأخيه يوسف - لما فتحوا

المتاع وجدوا بضاعتهم فيه فطمأنوا أباهم - طلب يعقوب منهم موثنا من الله أن يأتوه

بولده ولا يفرطوا فيه

١٤١ نصيحة يعقوب لأولاده أن لا يدخلوا من باب واحد - قيل خوفا عليهم من العين: الحسد

عدم اعتداء الناس لليوم لكيفية تأثير العين على الحسود ، وكل ما قالوه أنها خاصة في

بعض النفوس كالخاذية في بعض العادين - وقيل نصيحهم لاشتهارهم بمصر وتحدث الناس

عنهم فأمرهم بذلك حتى لا يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم ، والآية محتملة

١٤٢ قول يعقوب (وما أغنى عنكم من الله من شيء) ليرينا أن تدبير العبد لا يرفع قضاء الله

فقد يكون ناقصا ، ولكنه أمر بالاحتياط أخذا بالأسباب ، ولا يتع ذلك أنه متوكل على ربه .

سفه كثير من الناس في ترك الأسباب زاعمين أنهم متوكلون على الله تعالى

١٤٣ احتياط يعقوب لم ينف عنهم من الله من شيء فلم يدفع السوء وهو اتهامهم بسرقة صواع

الملك فكان احتياط أبيهم في ناحية وقضاء الله للدخري ناحية أخرى - قسوة الأبناء

لا تعول دون شفقة الآباء - التناء على يعقوب في أخذه بالأسباب وأنه صاحب علم بتعليم الله له

١٤٤ ضم يوسف لأخيه وقوله له سرا : أنا أخوك فلا تحزن لعملهم فيما مضى - بشارة عظيمة

بأن غائب وملاك لذلك الأخ وسلطان

١٤٥ احتيال يوسف لابقاء أخيه عنده بجعل مشربة الملك وهي الصواع الذي كانوا يكتالون به -

أيتها المير انكم لسارقون من الفتية لباصر يوسف ، أو تعريض بسرقتهم يوسف من أبيهم ،

أو جلة استغفامية - تبرؤ الاخوة من السرقة - جعل الفتيان جزاء السرقة أخذ من

وجد الصواع في رحله - استخراج الصواع من وعاء أخيه - تعليم يوسف الكيد والحيلة -

لأن شريعة الملك لا تسمح بأخذ الأخ بدون سبب - اتهامهم يوسف بالسرقة على مسمع

منه - اسرارها في نفسه - لم يكن ذلك أول إساءة ليوسف

صحيفة

١٤٥ الاخوة يطلبون من العزيز أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم فيرفض - كيريم يرفض أن يرجع الى أبيه إلا بعد أن يأذن له أو يحكم الله له بخلاصه من يد العزيز - أمره لهم أن يرجعوا الى أبيهم فيخبروه بأن ابنه سرق صواع الملك ويطالبون أن يسأل القرية والعير في ذلك

١٤٦ يعقوب لا يصدقهم ويرجع الى الصبر الجليل ويرجو الله أن يأتيه ييوسف وأخيه
١٤٧ يعقوب يعرض عن أولاده وينادى أسفه على يوسف الذي هو أول الرزايا حتى ابينت عيناه من الحزن - الحزن على اللصائب فطرة في الانسان ورحمة من الله ، ولكن المؤمن لا يفضرب ربه في حزنه - أولاده يشكرون عليه ذكر يوسف باستمرار - فيقول لهم : إنما أشكو بني وحزني الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون

١٤٨ يعقوب يأمر بنيه بطلب يوسف وأخيه وعدم يأسهم من فرج الله لأن اليأس شأن الكافر إخوة يوسف يدخلون عليه ويشكون له ما أصابهم وأهلهم من الضر
يوسف يذكرهم بما فعلوه ييوسف وأخيه في جهلهم - الاخوة تعرف أخاهم يوسف وتقول له : إنك لأنت يوسف فيعترف لهم بأنه يوسف وهذا أخوه

١٤٩ يوسف يعترف بفضل الله عليه وعلى أخيه ، ويعمل ذلك بالتقوى والصبر وأن الله لا يضيع أجر محسن ، إخوة يوسف يعترفون له بأن الله فضله عليهم ويعترفون بالخطأ - يوسف يعفو عنهم و يطلب من الله أن يهفر لهم

١٤٩ يوسف بأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه ليلقوه على وجه أبيه ليرجع إليه بصره - ويأمرهم أن أتوه بأهلهم جميعهم

١٥٠ يعقوب يخبر من معه أنه يجد ربح يوسف بعد أن توجهت العير من مصر الى الشام - وذلك من خوارق العادات - الحاضرون يسحبونه إلى ضلاله القديم - البشير يلقي القميص على وجه أبيه فيرجع إليه بصره - يعقوب يذكر من معه بما أخبرهم به ، وأنه يعلم من الله ما لا يعلمون - أبناءه يطلبون منه أن يستغفر لهم ذنوبهم لأنهم كانوا خاطئين - يعقوب يعدم بذلك

١٥٠ يوسف يضم أبويه إليه بعد دخولهم عليه ، ويطمئنهم على ما يلزمهم من مؤن الحياة ، ورفعهما إلى المكان العالي الذي كان يجلس عليه إعظاما لهما فيتواضعون له ويسجدون لله شكرا له على هذه النعمة

١٥٠ يوسف يقول لأبويه: هذا الذي رأيتهما من الملك والسلطان تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا - يذكر نعمة الله عليه في إخراجه من السجن وبجيء أهله من البادية من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين الاخوة - ويعترف لربه بلطفه في تدبيره ودقة صنعه في وصوله لما يريد - ويشكر الله على ما آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث ، ويقول لربه : أنت ناصرى في الدنيا والآخرة ، و يطلب منه أن يتوفاه مطيعا لأمره ، ويلحقه بالصالحين

صحيفة

١٥١ تذكير الله تعالى لثيبه محمد صلى الله عليه وسلم بأنباء يوسف وإخوته ، وأنها غيب أوحاها إليه ، ولولا إخبار الله له بها ما علمها ، لأنه لم يكن مع إخوة يوسف وهم يكرهون ويدبرون فيسليه الله على ما يناله من أذى قريش ، ويقدم له دليلا على صدقه في رسالته

١٥١ دعوة شعيب عليه السلام إلى الله تعالى

١٥٢ دعوة شعيب لمدين إلى عبادة الله وحده - بينة شعيب وآية صدقه
١٥٣ دعوة شعيب لايفاء الكيل والليزان ، لأن إفسار الكيل والليزان كان فاشيا فيهم كدعوة لوط إلى ترك الفاحشة

١٥٣ يقبض للداعي أن يعرف الأمراض المتفشية في القوم ويعظهم فيها - من الجهل أن ينهى عن منكرات لا يعرفونها - الأمراض في الريف قلع الزرع وتسميم البهائم وحرق الغلال وقتل النفس ، وتأريث العداوة بين البيوت والأسر ، وكتبان الشهادة ، ومداينة عصابات السوء - أمراض المدن : الزنا ، اللواط ، شرب الخمر ، اغتذاء أخدان ، الكذب ، النفاق ضعف العزائم

١٥٤ الوعظ الذي لا يتصل بحياة الأمة في أخلاقها وعالمها وصناعتها - الدواوين وضررها على الخطابة - (مفتاح الخطابة) وإهمال الخطباء له على الرغم من وجوده في مساجد الأوقاف أمراض الخطابة من الوعظ أنفسهم - أملنا في وعظ المرأكة فوق أملنا في أئمة الساجد التجار ومرضهم بافسار اليزان والكيل - أاليهم في ذلك - غش الناس أشياءهم ١٥٥ يشمل غش الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل - أكبر أنواع البخس ما نراه من رجال السياسة ، ودعاة الاستعمار إذا نبغ في مستعمراتهم أحد بنحسوه حقه - قتلهم للنبوغ بصرف النابغة إلى غير الجهة التي نبغ فيها - ومن شر أنواع البخس : شراؤهم النبوغ بالوظائف والمناصب الكبرى

١٥٦ شعيب ينهى قومه عن الافساد في الارض بعد إصلاحها ، ويريه أن ذلك خير لهم
١٥٧ شعيب يرهم أن عدم الافساد هو مقتضى الإيمان - كثيرا ما يحفز الله النفوس إلى العمل بقوله (إن كنتم مؤمنين)

١٥٨ ثقة المؤمن بربه ، واقتناعه بحكمته في تشريعه فحمله على امتثال أمره ، وتقنيه عن فهم الحكمة الخاصة لتلك العمل - الفزالي يضرب مثلا صالحا لذلك - وهو بحث مفيد يدفع كثيرا من شبه المدينة عن نفس المؤمن

١٥٩ شعيب ينهى قومه أن يقدموا بكل صراط يوعدون ويصدقون عن سبيل الله من آمن
١٤٩ شعيب ينهى قومه أن يطلبوا طريق الرسل معوجة غير مستقيمة - أمثلة لتلك توحه

- ١٦٠ شعيب يذكر قومه بنعمة الله عليهم في أن كثروا بعد القلة ، ويذكرهم بمقابلة المفسدين -
و ينتظر حكم الله بينه وبين قومه
- ١٦٠ (اللائق) المستكبر من قوم شعيب يتوعدده والمؤمنين معه بالنفي أو يوافقهم على أهوائهم
فيقول لهم شعيب (أولو كنا كارهين) لملككم ؟
- ١٦١ تهديد الرسل بالنفي من بلادهم حتى يخضوا للفساد والظلم سنة جرت بها عادة الكافرين
وعد الله لهم بهلاك الظالمين وإسكانهم الأرض من بعدهم
- ١٦٢ المستعمرون يسفنون بسنة أعداء الرسل مع الزعماء ويقولون لهم (لنخرجكم من أرضنا أو
لنعودن في ملتنا) - ملتهم أن تبقى البلاد في أيديهم - لا يسمحون لأحد برفع عقيرته
ليطالب بحق وأن تبقى البلاد جاهلة تحت سلطانهم وتصرفهم - زعمهم أن الله يشتم خير
الإنسانية وهم عدوها الأسود
- ١٦٤ شعيب يؤيس قومه من طاعته لهم - بحث في قوله (إلا أن يشاء الله ربنا) - توكله
على ربه - بيان معنى التوكل
- ١٦٥ التارك للأسباب جاهل مغرور لا متوكل منصور ولا مأجور
- ١٦٦ العبرة في أخذ الصيحة والرجفة للظالمين من قوم شعيب ، فأصبحوا جائعين على ركبهم من
هول ما أصابهم (كأن لم يفتوا فيها) تصوير بليغ لما آل إليه أمر القوم وأنهم أصبحوا
أثرا بعد عين - شعيب يتولى عنهم وقد بدأت مقدمات الهلاك ويقول قد أدبت ما عسى
ونسخت ولم تسمعوا للنصحي
- ١٦٨ شعب يخوف قومه من عذاب شامل ، ويريه أن ثواب الله خير لهم في دينهم ودنياهم ،
ويريه أن ما بحث ليحفظ عليهم أعمالهم ، بل بحث مبلغا
- ١٦٩ قوم شعيب يسخرون به وبصلاته ودعوتهم إلى التوحيد - شابنا اليوم يسخرون بالمصل
كما سخر قوم شعيب به - الإنسان موضع العجائب فيه للتكبر الذي لا يخضع لاله ، وفيهم
الشرك الذي يخضع لحجر صنعه يده أو لعبد لا يملك لنفسه شيئا - قوم شعيب ينكرون
عليه أن يتحكم في أموالهم ويوجهها للمصلحة
- ١٧٠ شعيب يرى قومه أنه على بينة من ربه ، ولا يخالفهم إلى ما نهاهم عنه ، ولا يريد لهم إلا
الصلاح ، وأنه لا غنى له عن تبليغ أمر الله ونهيه - شعيب يحذر قومه أن يحملهم التعصب
أن يصيبهم من العذاب ما أصاب من سبقهم من أعداء الرسل - ويريه أن قوم لوط
لبسوا بعبدين عنهم
- ١٧١ (اللائق) يتجاهل دعوة شعيب ويدعى أنه لم يفهمها ويقول له : لولا رهطك لرجناك لأنك
ضعيف - فلا يملكون حسابا إلا للقوة الدائمة - شعيب ينكر عليهم أن يكون رهطه أعز
عليهم من الله ، وأن يتخذوه وراحم ظهريا - ويتوعدهم بإحاطة الله بهم

صحيفة

١٧٢ شعيب يقول لقومه اعملوا ماشاء لكم الهوى فاني عامل على مبدئي لا اُحيدعنه وسوف تعلمون

عاقبة عملكم - والعبرة في نجاة الله له ومن معه بفضل من الله ، وأخذ الظالمين بالصيحة

فأسهبوا جائين على الركب - ثم دعا على مدين بالبعد عن رحمة الله كما دعا على ثمود

١٧٣ الأيكة معناها وموقع مدين الجفرائي

١٧٣ قوم شعيب يرمونه بأنه مسح مغلوب على عقله ، ويرمونه بالكذب - إذا كانت هذه

دعوة السحرة فكيف تكون دعوة العقلاء ؟ - للناس عقول تعرف بها الدعوة الصادقة

والدعوة الكاذبة

١٧٤ قوم شعيب يطلبون منه أن يسقط عليهم كفا من السماء إن كان صادقا تحذيره

١٧٥ العبرة في أخذ الله لهم بعذاب يوم الظلة ، وهو الحر الشديد فماتوا من شدة الحر وكان عظماء

١٧٥ دعوة موسى عليه السلام إلى الله تعالى

همة موسى من أشقّ الهمات ، لأن بني إسرائيل ألقوا الفلّ فقتلهم من ذلك الحال شاق

ولأن فرعون صاحب جبروت وطفيان

١٧٦ علاج موسى لبني إسرائيل بتذكيرهم بنعم الله عليهم ليحيي فيهم إحساس الشرف وشعور

الكرامة - أول نعمة جعل كثير من الأنبياء فيهم ، نانيها جعلهم ملوكا ، ثالثها إيتاؤهم ماله

يؤت أحدا من عالي زمانهم

١٧٦ موسى يدعو قومه إلى دخول القطر السورى ، ويهاجم عن الجبن فيعتذرون له بأن فيها

قوما جبارين

١٧٧ ومن ألق الفلّ صارت العيشة الاستقلالية شاقة عليه - من فضل الله أن الشعوب اذا

فصلت لابتد من وجود أفراد صالحين بها -

١٧٨ (اذهب أنت وربك فقاتلا) - موسى يثّ شكواه الى الله ويقول (لا إله الا انفسى

وأنى) - عقوبة الله لهم بتحرير الأرض عليهم تحريما فطليا يقهون في البرية لاهتدون

لها حتى ينشأ جيل جديد يجمع بين حرية البدواة واستقلالها وبين معرفة الشريعة

١٧٩ (أربعين سنة) هل هي ظرف لقوله (محترمة) أو متعلق بقوله (تمهون) ؟ وهل هناك

فرق في المعنى - الأرض التي تهاوا فيها هي سيناء - حضارة الأخلاق أربعون سنة ،

وحضارة العلم خمس عشرة سنة

١٨٠ موسى بعثه الله بعد هود وصالح ولوط وشعيب كما هو صريح آية الأعراف

١٨١ موسى يذكر اسمه في القرآن أكثر من ١٣٠ مرة ، وسببه أن قصته أشبه بقصة خاتم

الرسل ، صلات الله عليهم في أنه أوتي شريعة دينية دنيوية ، ويكون الله به أمة ذات ملك

ومدنية - فرعون لقب ملوك مصر القدماء - هل هو ريان أبنا ، أو متفتح سليل الأسرة

الثامنة عشرة بن رمسيس الثاني ؟

١٨٢ موسى يبلغ فرعون أنه رسول رب العالمين ، وجدير بمثله أن لا يقول على الله الا الحق ، ويلينه أنه جاءه بآية واضحة من ربه ، ويطلبه أن يرسل معه نبي إسرائيل لينقذه من عذابه فيطلب منه فرعون أن يأتي بها ان كان صادقا
١٨٣ موسى يلقي عصاه فتقلب ثبانا تراه الأعين ، وينزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء

١٨٣ (اللائ) من قوم فرعون يرى موسى بأنه ساحر عليم بفنون السحر ، ويؤلب على موسى بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم ويملك أمر الناس ، فهو طالب ملك لارسل ، ويستشير في أمر موسى

١٨٣ السحر وأنواعه ، والمعنى الجامع له ، وهو أنواع ثلاثة
١٨٤ اللائ يشير بجمع السحرة من اللدائن لينازلوا موسى - السحرة يطلبون أجرا من فرعون ان غلبوا فيعدهم بذلك وبالزني منه - السحرة يلغون حبلهم وعصيم فيقول لهم موسى (ما جئتم به السحر ان الله سيظهر ان الله لا يصلح عمل المفسدين) وهي سنة من سنن الله في خلقه

١٨٥ موسى يلقي عصاه فتبلغ ما يأفكون من السحر ، فتقلب السحرة ، ويخرون ساجدين لمعجزة موسى فيعلنون ايمانهم بالله - فرعون يضرب من الإيمان للفاقج ويترك على السحرة ايمانهم بدون اذنه وهو جهول منه بعالم القلوب ، وأنها تخضع دائما للحجة - فرعون يرى السحرة بتواطئهم مع موسى كيرهم في السحر ، ويخشى على ملكه من موسى والسحرة شأن السبق

١٨٦ فرعون يتوعد السحرة بأشد أنواع الوعيد ، فلا يبالون بتهديده ، لأن الحق تمكن من نفوسهم ، وكذلك العقائد اذا قوت عليها الشدائد - السحرة يطلبون من الله الصبر على ما ينالهم من اذى فرعون وأن يتوفاهم مسلمين

١٨٨ (اللائ) يرى فرعون بموسى ويزعم أن موسى ان ترك أفد في الأرض وترك فرعون وآلته بطانات السبق دائما قصوره للصالحين بصورة المفسدين تعيش على حساب الاستبداد - افساد موسى افساد سياستهم ، واتخاذ للشعب الاسرائيلي من أيديهم - الآلة في عهد فرعون الكواكب ومنها الشمس - مصر سيلة الشمس - تطلع فرعون لعبادة الناس له وقوله (أنا ربكم الأعلى)

١٩٠ فرعون يتوعد الشعب الاسرائيلي بقتيل الأبناء واستبقاء النساء ، لانه فوقه بالسultan والذلة - موسى يأمر قومه أن يستعينوا بالله على كيد فرعون ويصبروا ، ويرجم أن الأرض ملك لله لا لفرعون يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة الحسنة للعتيقين - قوم موسى يقولون له : لم نستفد من ارسالك سوى الايذاء فيعدم برجائه في الله أن يهلك عدوهم ويستخلفهم في الأرض

١٩١ أخذ الله آل فرعون بالسنين المجدة وتقصى الثمرات وجاء تذكركم - عدم استفادتهم من الشدايد ، فإذا أخصبوا قالوا ذلك الخصب أمر استحقوه ، وإن أجذبوا تشاموا بموسى ومن

معه - رد موسى عليهم (إنما طأركم عند الله) وهو الذى وضع نظاما للخير والشر
١٩٢ تئيبهم موسى من الايمان وإن أنام بالآيات ، وإصرارهم على عدا آياته سحرا - إرسال الله عليهم الجراد والقمل والضفادع الخ ، وبيان للمراد منها - استكبارهم بعد هذه الآيات لأن الاجرام خلق فيهم

١٩٣ توريث الله المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها ، وتحقيق وعد الله لهم بسبب صبرهم وتقواهم ، وتدمير ما كان يصنع فرعون وقومه ، وإدخال الخراب على أعمال فرعون ، ولا سيما ما يتعلق بموشه - كان حربه لحزب الله احتفاظا بالعرش فدمر الله عرشه وأضاعه ملكه
١٩٤ بنو إسرائيل يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلها كالأصنام التى رأوها ، لأن الوثنية عاقلة بنفوسهم ، فيصنعهم موسى بالجهل ، وأن ذلك العمل مقضى عليه بالبطلان ، ويريه أن لا يطلب لهم إلها غير الله

١٩٥ وعد الله موسى أن يعطيه التوراة بعد ثلاثين ليلة وإتمامها بعشر - واستخلاف أخيه هارون فى قومه وتوصيته بالاصلاح - استشراف نفس موسى العالية لرؤية الله تعالى عند مجيئه لميقات الذى ضرب له - نفي الله للرؤيا وتعليقها على استقرار الجبل ، وذلك الجبل عند تجلى الله له - ندم موسى على طلب الرؤيا

١٩٦ اصطفاة الله لموسى بالرسالة والكلام - أمر الله له بأخذ ما آتاه وشكره عليه - اشتغال ألواح التوراة على مواعظ وشرعية تفصيلية - أمر الله له أن يأخذ التكليف بقوة ليكون قدوة صالحة ، وأن يأمر قومه ليأخذوا بأوامرها (سأريكم دار الفاسقين)

١٩٧ سنة الله تعالى فى الهداية والاضلال ، وأنه تعالى يصرف التكبرين عن فهم آياته بجواز وفاقا لهم على تكذيبهم لآيات الله وتنافلهم عنها

١٩٨ اتخاذ قوم موسى من بعده مجلا من الحلى - تسفيه عملهم هذا بأنه لا يسلكهم ولا يهديهم سبيلا - ظلمهم باتخاذهم إلها

٢٠٠ غضب موسى على قومه لاتخاذ المجلى إلها - أسفه على إضاعة مجهوده معهم - إلقاء ألواح التوراة لتوراة الغضب - أخذه برأس أخيه بجمره إليه - اعتذار أخيه باستضعاف التوراة له وقد قاربوا أن يقتلوه - توبه الى أخيه بقوله (يا ابن أم) الخ - طلب موسى من ربه أن يفر له ولاخيه هارون - إخباره أن متخذى المجلى سينالهم غضب الله عليهم ، وذلك فى هذه الحياة - شأن للفرين على الله الكذب

٢٠١ أخذ الألواح من الأرض عند سكوت الغضب عن موسى - وفيها الهدى والرحمة

٢٠٢ اختيار موسى لميثاق الله سبعين رجلا من قومه - أخذ الرفعة إياهم - قول موسى لربه (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أهلكنا بما فعل السفهاء منا) - رجوع موسى لاستنصاره بربه وليفر له ذنبه

- ٢٠٣ سعة رحمة الله كل شيء - كتابتها للذين يتقون ويؤتون الزكاة الخ
- ٢٠٤ صفات محمد صلى الله عليه وسلم وبشارة التوراة والإنجيل به - أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر - تحليله للطيب - تحريره للنجاث - وضعه للتكاليف الشاقة التي كانت في بني إسرائيل - حصر الله الفلاح في المؤمنين به الذين اتبعوا نوره
- ٢٠٥ غرور الناس بقول الله (ورجعتي وسعت كل شيء) ونسيانهم قوله (فأكتبها للذين يتقون) الخ - كلمة للوعاظ الذين يأخذون ببشارة القرآن ويدعون إنذاره
- ٢٠٦ عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأدلة ذلك العموم - توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية - ما يجب اتباع الرسول فيه من أمور الدين وما لا يجب اتباع فيه من أمور الدنيا البنية على التجارب
- ٢٠٩ الآيات في خيار أهل الكتاب عامة وقوم موسى على الخصوص
- ٢١٠ القرآن يعلمنا كيف نصف المخالف لنا في الدين - أسباط بني إسرائيل - ضرب موسى للحجر بعصاه ، وتفجر العيون منه - تظليل النمام عليهم - اللئ والساوى - أمرهم بسكنى قرية معروفة لهم وأن يأكلوا من نعيمها داعين أن يحطّ عنهم خطايا - مخالفتهم أمر الله مخالفة لا تقبل تأويلا - إنزال عذاب من السماء عليهم بسبب فسقهم
- ٢١١ عدوانهم في مسألة السبت وابتلاء الله لهم بها لفسقهم
- ٢١٢ لاغنى للناس عن الوعظ لأقامة حجة الله عليهم ورجاء أن يتقوا - ليس لواعظ أن يأس اختلاف النفوس في قبول الموعظة كاختلاف معادن الأرض - من الجهل أن يظنّ الواعظ انتفاع الناس جميعهم بوعظه في الحال - للرض الزمن لا بد له من علاج يناسبه
- ٢١٤ الوعظ إن لم يكثر - رواد الصالحين يحفظ الصالح من عدوى الفساد ، لذلك وجب في كل أسبوع - إنجاء الله للناهين عن السوء وأخذ الظالمين بعذاب شديد بسبب فسقهم
- ٢١٥ ما يستفيد شخص الواعظ من الوعظ - مسخ العصاة قردة وخنازير ، والمراد منه
- ٢١٦ قضاء الله على بني إسرائيل لسلطنتهم عليهم الى يوم القيامة من بسوهم سوء العذاب لظلمهم وفسقهم - تحقيق التاريخ لذلك الوعد
- ٢١٧ تطهير بني إسرائيل عما في الأرض فيهم الصالح وغيره - ابتلاؤهم بالحنث والسيئات لعلهم يرجعون - خلقهم الطامع وأخلاقه - تنمية نفوسهم بالفقران وهم مكبون على الصياني دراستهم للتوراة لم تجدم
- ٢١٨ سريان كثير من فساد بني إسرائيل الى رجال المؤمنين من المسلمين - المستمسكون بالكتاب لا يضع الله أجرم
- ٢١٨ تنق الجبل فوق بني إسرائيل ومعناه والغرض منه
- ٢١٩ أمر الله لهم أن يأخذوا الكتاب بقوة ويذكروا ما فيه بالمحافظة على العمل به - كلمة على رضى الله عنه : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه والا ارتحل

٢٢١ موسى يبعث الله الى قومه بالآيات فيستكبرون عن قبولها لأنهم قوم ذاهبون الاجرام ويرمونه بأنه ساحر - موسى ينكر عليهم أن يسموا الحق سحرا

٢٢١ (اللائحة) يدس بين موسى وأخيه هارون ، وبين فرعون بأنه يريد بدعوته أن يكون له ولأخيه الكبرياء في الأرض فهي دعوة إلى ملك لا إلى رسالة - الملوك من عادتهم قبول السامع بلا بحث لأنها تتعلق بالملك

٢٢٢ (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) قاعدة من قواعد الاجتماع أنطق الله بها موسى شواهد هذه القاعدة في أعمال الزورين وانكشافها بواسطة رجال الحمامة - إذا نجح منور فلائنه لم يجد من يكشف ترويره - الفرق بين الصلح والمفسد - العبرة في الآية في التأسي بخلق الله في عدم ترك الباطل حتى تنفق به الناس - وعد موسى بأن الله يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون - قلة الذين آمنوا بموسى

٢٢٤ السر في أن الذين آمنوا بموسى من الشبان دون الشيوخ - استعداد الشبان للجديد وجود الشيوخ - مشيخة قريش كانت محاربة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي جهل وأبي لهب ، وعقبة بن أبي معيط ، وكمب بن الأشرف وغيرهم

٢٢٥ الشبان يؤمن بموسى ، وسيف فرعون مسلول على رقابه ، وأحكامه العرفية مشهورة ، لأن قوة الحجة والبرهان فوق قوة الحديد والنار ، وآية ذلك إيمان السحرة على الرغم من وعيدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف الخ

٢٢٥ موسى يأمر قومه بالتوكل على الله إن كانوا آمنوا بالله - فيجيبونه بأنهم كذلك ، ويطلبون من الله أن لا يجعلهم فتنة لفرعون وقومه وينجيهم منهم - الله تعالى يأمر موسى وأخاه أن يتخذوا مصر سكناً لهم ، ويتخذوا من مساكنهم مساجد ، وقيموا الصلاة

٢٢٦ موسى يدعوه أن يطمس على أموال فرعون وملئه ، ويحتم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يعبأوا العذاب الأليم - كثير من الناس يطمس الله على ماله

٢٢٨ إجابة الله دعوة موسى وأخيه ٢٢٩ مجاوزة البحر بيني إسرائيل - فرعون وجنوده يقعونهم بشيا وعدوانا - فرعون يؤمن بالله عند إدراك الترق له - هنالك عرف أن هناك قوة فوق قوته - الله تعالى ينكر عليه ذلك الإيمان القهري ، ويريه أن لا قيمة له - إنجاء الله لجنه فرعون ليكون عبرة لمن يأتي بعده من الجبابرة

٢٣٠ غرق فرعون عبرة كبرى للملوك للفسدين والحكام للسفدين ، ولكن الكثير من الناس ينفل عن آيات الله ودلائل قدرته

٢٣١ وحى الله إلى موسى أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور ، وأن يذكر قومه بأيام الله وحولته التي وقعت على الأمم قبلهم فإن فيها العظة - تذكير موسى لقومه بأنجاهم من آل فرعون - إعلام الله للناس بأنهم إن شكروا زادهم ، وإن كفروا فعذابه شديد

٢٣٣ إخبار موسى قومه أنهم إن كفروا هم وأهل الأرض فإن الله غنى عن إيمانهم ، جيد في غناه ، أما غنى المخالوق ففيه الحمد والتميم

٢٣٤ حديث النار التي رآها موسى وهو يسير مع أهله

٢٣٥ أمر الله موسى أن يخلع نعله لأنه كان قدرا - أمر الله موسى بخلع نعليه ليس حجة لمن ينكر الصلاة في النعال لثبوتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعض الفقهاء يذهبون من سنن الصلاة - اختيار الله موسى لرسائله

٢٣٦ أول شيء يلقنه الله موسى التوحيد ، ثم العبادة ، ثم البحث - حكمة سؤال موسى عما بيده مع أن الله يعلمه - انقلاب العصا ثعبانا - خروج يده بيضاء من غير سوء لبريه من دلائل قدرته

٢٣٧ أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون لاطفيانه

٢٣٧ ما تقدم به موسى إلى ربه بين دعوته - شرح صدره - تيسير أمره - حل عقدة من لسانه - جل هارون وزيره له - حكمة طلب موسى أن يكون وزيره من قرابته

٢٣٨ موسى يطلب وزيرا من أهله ليعاونه على تسبيح الله وذكره بما يليق به - لم يطلب الوزير ليوارزه على إذلال الناس وظلمهم ، وتمكين قدم القاصب في البلاد - للتعلمون يعمدون في بعض الظروف إلى أحط الأئمة أخلاقا فيعطونه الحكم لينلوا به الأئمة - وزارة الرسل أساسها الحق ليثبت والتعاون على البر - الله يجيب سؤال موسى ، ومنه جعل هارون وزيرا له

٢٣٩ تذكير الله لموسى بمئة أخرى عليه هي قصة قذفه في التابوت وقذفه في البحر ، وأخذ فرعون له ، وتحبيب فرعون فيه ، وتزيينه تحت رعاية الله تعالى ، وتسخير أخته لتدلم على من يرضعه ليرجم إلى أمه قهراً - وكذلك قتله نفسا ، وإنجاء الله له من أولياء القتل ، وابنه في أهل مدين سين - واصطفاء الله له

٢٤٠ أمر الله لموسى وأخيه بالذهاب إلى فرعون مؤيدين بآيات الله - أمر الله لهما أن يقولوا له قولنا على رجاء منهما أن يتذكر أو ينحس

٢٤٠ القدوة الصالحة في موسى وأخيه لكل واعظ في أن يلين القول وإن كان التعط جبارا - وأنه لا ينبغي للواعظ أن يأس

٢٤٠ موسى وهارون يخافان من بطش فرعون واطفيانه - تطمين الله لهم بأنه معهم ومن كان الله معه لا ينبغي له أن يخاف مخلوقا

٢٤١ أمر الله لهما أن يأتيانه ويخبراه برسالتهما إليه ، وأن مهمتهما إرسال بنى إسرائيل معهما ، وإقناعهم من عذابه ، وإخباره أن معهما دليلا على صدقهما - وعدهما بأن السلام من عقوبة الدنيا والآخرة على من اتبع الهدى - والعذاب على من كذب وأعرض

- ٢٤٤ فرعون يسأل موسى عن ربه فيجيبه بقوله (ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) ويسأله عن القرون الأولى فيكمل موسى علمها إلى الله تعالى ، ثم يصف الله تعالى بما يليق به من كمال ، ويذكر نعمه على خلقه ، ثم يذكره بالبعث والنشور
- ٢٤٥ موسى يتميز الفرصة ليعط فرعون وقومه ، وهكذا يجب أن يكون المصلح - وعطى لحكام طنطا وأطبائها وجع طبقاتها مناسبة قصة المولد
- ٢٤٥ إباء فرعون مع إتيان الله له بالآيات
- ٢٤٥ فرعون ترتد فرائضه من موسى ويخشاه على ملكه وغطرسته
- ٢٤٦ موسى يعط السحرة قبل أن ينزلوه
- ٢٤٦ السحرة يخرجون على فرعون ، ويقولون له (لن نؤذك على ما جاءنا من الدينام والذى فطرنا) ويستخفون بوعده لأن قضاء لا يمدو هذه الحياة - هي عظات بالغة - ثم ختموا القصة بقولهم (انه من يأت مجرماً فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن بأنه مؤمن قد عمل الصالحات فأؤذك لهم التراجعات العلى)
- ٢٤٧ إحياء الله لموسى أن يسرى بعباده فيضرب لهم طريقاً يقا يسا فى البحر ، وتطمين الله له - المكان الذى عبر منه موسى وقومه لم يعلم بالتحقيق - اتباع فرعون لهم وغرقه مع قومه
- ٢٤٨ امتنان الله على بنى إسرائيل بانجائهم من عدوهم
- ٢٤٩ إضلال السامري قوم موسى بعد ذهابه إلى ميقات ربه
- ٢٥٠ عجل السامري وإخراجه من الحلى - حكمة وصف العجل بأنه « جسد » تقييح عبادة إله هو من صنع أيديهم
- ٢٥٠ موسى يسأل السامري عن قصته فيريه أن الذى حمله على ذلك علمه بشئون المعادن ، وجهل بنى إسرائيل بها
- ٢٥١ موسى ينق السامري لأنه مفسد ، ويحرق إلهه ويفسه فى اليم ليقضى على آثار الشرك وذرائعه ، وكذلك ينق لكل مصلح أن يزيل أسباب الفتنة ويحول بين الناس وبين الفساد
- ٢٥٢ موسى يرسله الله بالآيات والسلطان الواضح - بيان السلطان الواضح
- ٢٥٢ فرعون يستكبر عن قبول دعوة موسى ، ويأقف أن يؤمن لبشرين مثله مع أن قومهم عبيده - هلاك فرعون ومن معه بتكذيب موسى وأخيه
- ٢٥٦ موسى يطالب فرعون أن يرسل معه بنى اسرائيل فيرد عليه بأنه رباه ولبث معه سنين ، ويذكره بقتل الرجل - فيعتذر موسى بأنه قتله قبل أن يهديه الله للرسالة ، وأنه فر منهم لما خافهم فوجه الله حكماً وجعله من الرسلين
- ٢٥٦ موسى ينكر على فرعون امتنانه بالترية ، لأن سبب تربيته لموسى خوف أمه من ذبح الأبناء ، فكانت قدمة لبنى اسرائيل استنبت نعمة لموسى ، والشر إذا نعمة خير لا يؤجر عليه فاعله - فرعون يسأل موسى عن رب العالمين فيجيبه بأنه رب السموات والأرض الخ

- ٢٥٧ فرعون يرى موسى بالجنون لأنه يصف رب العالمين بما يليق به - فيقول موسى هو - رب الشرق والغرب وما بينهما - ان كان لهم عقل فهموا قيمة ذلك القول
- ٢٥٨ فرعون يتهدد موسى بالسجن إذا هو اتخذ إلها غيره - فيقول له موسى أنت جئتني ولو جئتني بشيء واضح يدل على صدقي ؟ فيلقى العصا فتقلب ثعبانا ويغرق يده فاذا هي بيضاء للناظرين
- ٢٥٩ فرعون يستفز للملأ ويقول لهم انه ساحر عليم يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره - السحرة يقسمون بعزة فرعون انهم هم الغالبون ، أو يستعينون بعزة فرعون على القلب وقد خذلهم الله
- ٢٥٨ فرعون يستصرخ قومه ، ويستغيث عشيرته وهم يقولون في دعوتهم (إن هؤلاء لشردمة قبايون وإنهم لنا لغاتظنون) فليعتبر بذلك أرباب السلطان وأصحاب النفوذ والجاه - العبرة في أن البطل دائما يخشى الحق ويقض مضجعه - وان كان قليلا - إخراج الله لقوم موسى من خبراتهم - خوف أصحاب موسى من إدراك فرعون لهم - تطمين موسى لهم بأن الله معه سيهديه سبيل النجاة
- ٢٥٩ موسى بأمره الله أن يضرب بسواء البحر فينشق فيكون كل فرق كالجلج العظيم - وأغرق آل فرعون وأنجى موسى ومن معه - العبرة في ذلك
- ٢٦٠ موسى يخاف من العصا بعد قلبها ثعبانا - قول الله له : لا تخف لأنك رسول ولا ينفى له أن يخاف - قوم فرعون يمجدون آيت موسى مع استيقان أنفسهم لها ، والحامل لهم الظلم والعلو - كفر الجحود يستحق صاحبه الخلود في النار
- ٢٦٢ نبأ موسى وفرعون وقصه بالحق
- ٢٦٣ فرعون مثل من أمثلة الاستبداد ، وعنوان للظلم واستعباد الناس ، وقدوة سيئة في الشر - علوه في الأرض وطنيانه
- ٢٦٣ فرعون يجعل الناس شيعا وأحزابا ، يذل بكل حزب ما عداه من الأحزاب ، ويأمنهم جميعا بواسطة ذلك التحزب الذي غرسه فيهم
- ٢٦٣ فرعون إمام للمستمرين في خلق الأحزاب وتفضية الحزبية في الأمة ليشتغلوا الأمة بحزبيتها عن مصالحها
- ٢٦٣ المستعمرون يحزبون الأمة ويطلبون منها أن تتحد ، إذا طلبت مصلحة من المصالح يعلقون إجابتها إلى ما تطلب على محال - الأمة لا تتحد مادام فيها الغاصب
- ٢٦٣ فرعون أول الغاصبين الملك بنى إسرائيل والخلفيين على دستور الاله الذي يقضى بالشورى
- ٢٦٣ فرعون هو العمود القوي للناسيين ، ووجههم الأعلى الذي يعلو عليهم من وحي الشيطان ما يستيحون به إذلال الناس

صحيفة

٢٦٤ عاقبة السعمرين ستكون عاقبة فرعون - خذلان بين ، وذلك فاضح ، وعبرة واضحة -
 سيحل بهم من اللوث الأدبي ما حلّ بفرعون من اللوث المادّي - وسيندمون حيث
 لا ينفعهم الندم

٢٦٤ فرعون يستصف طائفة من أهل الأرض - الشأن في المسبّد أن يستصف طائفة لم يكن
 فيها مناعة خلقية - ولا تحلو الأمم من ضعفاء ، فمنهم من يغريه بالمال والمنصب ، ومنهم
 من يهتده بالقوة المادية - هلاك الأمم وبلاء المسلمين في أعاء الأرض على يد الطائفة
 الضعيفة منهم - على المسلمين أن يفتنوا لهذه الطائفة

٢٦٥ تديب فرعون للابناء واستحيائه النساء - فرعون خلقه الافساد

٢٦٥ وعد الله المستضعفين وجعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين لماك فرعون ، وعكبنهم في الأرض
 ويرى فرعون وحزبه منهم ما كانوا يخافون - العبرة في قصة فرعون أنه بسط نفوذه لأنه
 استخف قومه ولو وجد من يقاومه لغلّب على أمره ، وكذلك سائر الطغاة والظلمة

٢٦٦ في كلّ عهد فراغة ، ومعهم بطانات شرّ يشكرونها على الظلم ، ويعينونهم على الشرّ

٢٦٦ وفي كلّ عهد يسلط الله على فرعون من ينص عليه معيشته

٢٦٦ على ملوك الأرض أن تعتبر بسيرته ، وتذكر بعرشه الذي تفوّض ، وملكه الذي ذهب بعد
 أن كان له من الحول والطول ما كان حتى قال (أليس لي مصر وهذه الأنهار تجري
 من تحتي أفلا تبصرون) - ونسى أن الله تعالى مالئ الملك يؤنيه من يشاء وينزعه من يشاء

٢٦٦ قصة إرضاع موسى ، وإلقائه في البئر ، وبشارة الله لأمه بنجاة ورسالته ، والتقاط آل
 فرعون له ليكون لهم عدوّاً وحزناً

٢٦٧ إبتاؤه الحكم والعلم بعد أن بلغ أشده (وكذلك نجى المؤمنين)

٢٦٨ قصة قتل موسى للقبطي وأنه كان خطأ لم يردبه موسى أن يقتله - قول موسى عليه السلام
 (هذا من عمل الشيطان)

٢٦٨ قول موسى بعد موت القبطي (فلن أكون ظهيرا للمجرمين)

٢٦٨ عبرة لرجال الحماية في عدم دفاعهم عن مجرم - اعتذار رجال الحماية عن دفاعهم عن
 المجرم بأنه قيام بالمهنة اعتذار باطل - مهمة المحامي مساعدة القضاء

٢٦٩ فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما (الخ ويان المراد من الآية

٢٧١ قصة زواج موسى ، وسببه صمودته وأمانته

٢٧٢ القرآن لم يسمّ الشيخ الذي صاهر موسى فنقّض عمله إلى الله تعالى

٢٧٢ خوف موسى من فرعون وملئه ، وخوفه من قتله لأنه قتل منهم نفسا قبل ذلك ، وطلبه
 مؤازرة أخيه هارون - إجابة الله له بشدّ عضده بأخيه ، وأن يحمل لهما سلطانا ، ووعدته
 بإعلاء الله لهما ، وأن العاقبة ستكون له ولأخيه

٢٧٢ رمى فرعون وملكه لموسى ومن معه بأنهم سحرة وأنهم لم يسمعوا بدعوته في آياتهم الأولين ردّ موسى عليهم بأن الله يعلم عن جاء بالهدى ومن تكون له العاقبة ، وأن الظالم عاقبته الخسر والسار

٢٧٣ فرعون يتغفل قومه ويقول لهم (يا أيها اللاّ ما علمت لكم من إله غيرى) ويوهمهم أن في استطاعته أن يعمل قصرا عاليا يصعد عليه ليرى إله موسى تهكما به

٢٧٣ استكبار فرعون وجنوده في الأرض بغير الحق وظنهم أنهم لا يرجعون إلى الله فيحاسبهم ، عقوبة الله لهم على ذلك التجبر بنذم في اليمّ

٢٧٣ جعل فرعون وملكه (أئمة يدعون إلى الذل) بسبب تكبرهم على الحق وأهله مع إيقان قلوبهم به - (ويوم القيامة لا ينصرون)

٢٧٦ (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) بيان لقاعدة من قواعد الاجتماع ، هي أن تدمير المفسد مفضى عليه بالفشل (إن الله لا يصلح عمل الفسدين)

٢٧٦ فرعون يوم الناس أنه يريد قتل موسى ، وأن من حربه من يذمه من القتل ، مع أنه يخشى أن يكون قتله سببا في تعجيل عقوبته لا يقان قلبه بصدقه - فرعون يزعم أنه خائف على دين قومه من موسى أو يظهر الفساد في الأرض ، والواقع أن خوف فرعون من ذهاب سلطانه هو - موسى يستعذ بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب

٢٧٦ قصة مؤمن آل فرعون ووعظه للقوم ، وما أحوج الواقع إلى تدبر هذه القصة وما فيها من منطق مستقيم - وكيف أن الله تعالى أنجاه من عذاب فرعون (وحاق بآل فرعون سوء العذاب)

٢٧٨ غرور فرعون بملكه واعتزازه بسلطانه (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) ولكن ملكه لمصر لم يفته من عذاب الله في الدنيا ولا في الآخرة

٢٧٨ فرعون لم يكن مستقلا بالاثم ، بل يشاركه قومه لأنه وجد فهم استعدادا للشر (فاستخف قومه فأطاعوه) وتعليل ذلك بأنهم كانوا قوما فاسقين ، وكذلك الأثم الضعيفة التي ترضى بالظلم يعاقبها الله على رضاها ، ويحاسبها الحساب الشديد في الدنيا والآخرة

٢٧٩ انتقام الله من الغضبين له بالفرق ، وجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم

٢٨٠ موسى يترقى في دعوة قومه ويطلبهم بدم التعالى على ربهم وإذا لم يؤمنوا به لا تتعرضون له بسوء - أمر الله له بالاسراء ليلا - وأن يتركوا البحر ساكنا على انقلاعه - وبيان سبب ذلك بأنهم جند مقضى عليهم بالفرق - السماء والأرض لا يبيكان عليهما - إنكار آل فرعون للبعث - تذكير الله لهم بمن أهلكهم من الأمم ، وأنهم لم يكونوا خيرا منهم

٢٨١ قصة موسى وفرعون مختصرة ، ومع ذلك لم تدع أصلا من أصول القصة دون أن تعرض له

٢٨١ قول فرعون (أنا ربكم الأعلى) وأخذ الله له ، وجعل ذلك الأخذ نكال الدنيا والآخرة

دعوة داود وسليمان الى الله تعالى

٢٨١

٢٨٣ تعجب الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم عما فعله اللائ من بني اسرائيل بعد نبي الله موسى - إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا قاتل في سبيل الله - توقع النبي الجبن منهم اذا كتب عليهم القتال - استقبلهم الجبن مع قيام أسباب القتال ، وهو اخراجهم من ديارهم وأبنائهم

٢٨٣ القتال في سبيل الله أعم من القتال لأجل الدين لأنه يشمل القتال لحماية الحقيقة كما يشمل القتال لحماية الحق ، فكله جهاد في سبيل الله (يدل ذلك قوله - وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا)

٢٨٤ اللائ ينكر الجبن عن الجهاد مع إخراج العدو لهم من ديارهم وأبنائهم

٢٨٤ قد يخرج المسلم من بلده وهو مقيم به ، فيحول الغاصب بينه وبين خيرات بلاده ، ويحرمه من مجهود شعبه وأمته - كل بلد محتل من بلاد المسلمين قد أخرج منه أهله ، وإذا عاشوا فيه قائما يعيشون غرباء .

٢٨٥ جنبهم عن القتال بعد أن كتب عليهم - تهديد الله للجبناء بأنه عليم بالظالمين - عقوبة لهم بذلهم في الدنيا ، وإسقاط الغاصب على بلادهم .

٢٨٦ إخبار الله لهم أنه قد بعث لهم طالوت ملكا عليهم - استنكاهم ذلك وقولهم نحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال - نبههم يقول لهم (إن الله اصطفاه عليكم) بما أودع فيه من الاستعداد الفطري للملك (وزاده بسطة في العلم) الذي يكون به التدبير وبسطة في الجسم وهي عنوان الصحة وكمال القوى

٢٨٧ سنة الله تعالى في تكوّن الأمم وهلاكها وقيامها وسقوطها المبينة على حالة الأمة في صفات أنفسها في عقائدها ومعارفها وأخلاقها وعاداتها

٢٨٨ آية ملك طالوت أن ينجيهم الصندوق الذي كان موسى يضع فيه التوراة تسوقه الملائكة بعد ضياعه بإسقاط المعالقة عليه لما حاربوا بني اسرائيل

٢٨٨ ابتلاء الله لهم بالتمر

٢٨٩ الفرق بين كلمة الجبن وكلمة الشجاعة كبير - كلمة المؤمن الصادق (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

٢٩٠ دعاء المؤمنين بافراغ الصبر عليهم ، وتثبيت أقدامهم ، ونصرهم على أعدائهم حين برزوا لجالوت وجنوده - فهزمهم باذن الله وقتل داود جالوت - إعطاء الله إياه الملك والحكمة وتعليمه مما يشاء

٢٩١ (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) سنة تنازع البقاء - الحرب طيبة في البشر - سنة الله بقاء الأمل (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

٢٩٢ حكم داود سليمان في حادث النعم ، وإصابة سليمان مع إعطاء الله كلا من الأب وولده مقدرة على الحكم بين الناس

٢٩٤ فقه نبي الله سليمان في القضاء - قصة الرأتين اللتين ذهب الذئب بأبن إحداهما - تحاكمهما الى سليمان - وصوله الى الصواب - الأخذ بالقرائن في القضاء - مؤلف ابن القيم في ذلك ، قميص يوسف

٢٩٥ تسبيح الجبال مع داود والمراد منه - تسخير الطير لداود

٢٩٥ تعليم الله إياه صنعة لبوس وإلانة الحديد له

٢٩٦ علم فنون الحرب ، وحماية الدولة من أيدي الأعداء : نعمة عظيمة ينبغي الشكر عليها - اختلاف القوى الحربية باختلاف الزمان

٢٩٧ تسخير الريح لسليمان وتسخير الشياطين له

٢٩٩ إثبات الله داود وسليمان علما وشكرهما لله على تفضيلهما على كثير من الناس

٣٠٠ إرث سليمان داود نبوته وعلمه ولحمته دون سائر أولاده - تعليم سليمان منطق الطير ، وبيان المراد منه

٣٠١ إثبات الله لهما من كل شيء من حاجات الملك ولوازم العظمة - شكر سليمان لله على ذلك

٣٠٢ جيش سليمان مع كثرته وتنوعه سلس القيادة سهل الضبط

٣٠٢ قول النملة (يا أيها الملأ ادخلوا مساكنكم) الخ هل هو حتمية أو مجاز ؟ وخلاف العلماء في ذلك

٣٠٣ العبرة في حديث النملة ، وتبسم سليمان من قولها : أنه ينبغي للقوى أن يلحظ الضعيف ، وللكبير أن يرحم الصغير

٣٠٣ طلب سليمان من ربه أن يلهمه شكر نعمته عليه وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا يرضاه ، ويدخله برحمة في جنة عباده الصالحين

٣٠٤ تقديس سليمان للطير ، وعدم وجود المهدد ، وتهديده إياه إلا أن يأتيه بحجة واضحة ، إخباره سليمان عن سبأ ، وأنهم ملكوا عليهم امرأة ، وأنهم يعبدون الشمس

٣٠٦ الفرق بين عرش الله وعروش المخالقين

٣٠٦ اختبار سليمان للهدهد باعطائه كتابا يلقيه على ملكة سبأ - المهدد يذهب بالكتاب -

ملكة سبأ تبلغ الملأ من قومها نص الكتاب - الملكة تستفتي الملأ - الملأ يشير عليها بالحرب ثم يسلم الأمر إليها في النهاية

صحيفة

٣٠٧ مبدأ النورى قديم فى الأمم - الذين يدعو إلى النورى فى الأمور العامة كالحرب والسلام
وهى شأن من شئون المؤمنين

٣٠٨ التريون عرفوا قيمة النورى فأقاموها فى بلادهم ومنعوها من مستعمراتهم

٣٠٨ ملكة سبأ تشرب بمسألة سليمان - وتقدم قبل كل شئ أن ترسل إليه هدية ، فان كان
ملكاً مؤيداً من الله ردّ الهدية ، وان كان من ملوك الدنيا قبلها - وذلك يدل على
رجاحة عقلها

٣٠٩ سليمان يرفض الهدية ويقول (فلما آتاني الله خبر عما آتاكم) ويحسب لكل مصلح أن
يقول هذه الكلمة إذا عرضت عليه رشوة من مال أو وظيفة أو غيرها

٣١٠ الرشا التى يقدمها للمستعمرون ليملكوا بها البلاد - رشا العلماء ورجال الدين - أو كل
كثير من الأجار والرهبان أموال الناس بالباطل

٣١١ سليمان يقول للسبيين (بل أنتم بهديتكم تفرحون)

٣١١ سليمان يعلن الحرب على ملكة سبأ ، ويتوعدهم بجنود عظيمة وإخراجهم من بلادهم آنذا

٣١١ سليمان يسأل الملأ أيك يا تبنى بكرسى ملكها فيجيبه عفريت من الجن ثم الذى عنده علم
من الكتاب - فلما رآه عنده قال هذا من فضل ربى ليختبرنى فأشكره أم أكفره

٣١٢ أمر سليمان بتكبير عرشها ليختبرها - إجابتها إجابة مرة - إخبارها عن نفسها أنها
أوتيت العلم بنبوة سليمان قبل معجزة نقل العرش ، وكانت خاضعة لأمر الله تعالى ، وصداها
سليمان ما كانت تعبد من دون الله - اختبارها بدخول الصرح - اعترافها بظلم نفسها ،
وإسلامها مع سليمان آخر الأمر

٣١٤ الجبال تأويها مع داود والطير - لإلانة الحديد لداود ، وأمره أن يعمل دروعاً للحرب -
أمره أن يحكم نسج الصروع ويجعلها بقدر

٣١٤ أمره بالعمل للأخرة بعد أمره بالعمل لدنياء - يريد الله للناس أن يكونوا صالحين فى
دينهم ودنيائهم

٣١٥ سنة الله مع خلقه أن يعطى الدنيا من عمل لها أيا كانت نحلته ودينه ، ويعطى الآخرة من
عمل لها صلاح الناس فى دنياهم لا يعينهم عن صلاحهم فى دينهم - القانون لا يصمم الناس
عن الجرائم - الفرق بين سلطان الدين على النفوس وسلطان القانون

٣١٦ تسخير الريح كان معجزة لسليمان ، وهى الآن من طريق العلم لربنا الله أنها لم تكن من
قسم المحال كما فهم بعض الناس - يدل ذلك قوله آخر السورة (وقل الحمد لله سبىكم
آياته) - تسخير الهواء بواسطة العلم فى نقل الأخبار والأصوات والأشكال - هو مما يقرب
الله به مسألة المعجزات حتى لا نتبعها

٣١٦ مسألة النحاس لسليمان

٣١٧ تسخير الحق لسليمان لتعمل له القصور الحصينة ، والتماثيل وحياض كبيرة يجمع فيها الماء ، وقدرور ثابتة للطبخ

٣١٧ التماثيل التي أبيضت لهاود لم تكن ذريعة لشرك كتماثيل العظماء الذين لبس من شأنهم أن يعبدوا بهذه التماثيل ، ولذلك أبيضت ، أما ما يعمل للصالحين فانه محرم لأنه ذريعة إلى الحرم لانفاق الرسل جميعهم على محاربة الشرك وذرائع الشرك - أمر آل داود بشكر الله الكلام على منسأة دلود ، وأكل دابة الأرض لها - بحث علمي في دابة الأرض لصاحب [الجواهر في تفسير القرآن]

٣٢٢ أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر عبده داود صاحب القوة في الدين ، الرجاء إلى الله تعالى ليتأمن به في السر والاحتفال ، والاعتماد على الله تعالى - تسخير الجبال والطير وشدة ملكه ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب - كل أولئك لأنه صاحب قوة في دينه رجاء إلى الله تعالى في شدته ورحمته

٣٢٣ امتنان الله على داود بأنه قوى ملكه : وهو نعمة عظمى ، وإنما يكون ذلك بتوفيقه لأسباب البقاء ، فجعل في دولته من رجال السياسة والعلم والفنون والصناعة ما تستطيع به أن تعيش قوية منيعة - أتم شيء في أسباب شدة الملك : الخلق الطيب في الأمة ، وتحري العدل والحق

٣٢٤ نبأ الخصمين ، وتسورها محراب داود - مادسه اليهود على القرآن من قصص مردول - المفسرون يأبون إلا أن يفسروا النعجة بالمرأة ، وفهم الآية لا يتوقف على ذلك - من لنا ببلاغ المصيرين أن القرآن يعبر عن المرأة بالنعجة

٣٢٥ تحبط المفسرين في فهم فتنة داود ، والآية ترشدنا إلى هذه الفتنة بأنه أفنى بظلم صاحب النعاج لأخيه قبل أن يسمع حجة الآخر - وهناك احتمال أنه حجب نفسه عن الناس في بعض أوقاته وكان ينبغي أن لا يفعل

٣٢٦ الخصم يطلب من داود أن يحكم بينهما بالحق - داود يعط بعد أن حكم بين الخصمين - الايمان والعمل الصالح من شأنهما إبعاد أصحابهما عن الظلم

٣٢٧ الجنة لا تاتل إلا بالايمان والعمل الصالح - ما أكثر الذين قنعوا من الايمان باسمه - استغفار داود به عند ما ظن أن الله يختبره ويبتليه - غفران الله له ما ظنه ذنبا - إخبار الله تعالى بمنزلة داود العظيمة عنده ، وحسن المرجع في الآخرة

٣٢٨ خلافة داود في الأرض - أمر الله له أن يحكم بين الناس بالحق ولا يقع الهوى - وكذلك يجب على كل حاكم أن يتحرى الحق ، ويجتهد في الوصول إليه ، فإن أخطأ بعد ذلك فهو معذور

٣٢٩ الهوى يعنى صاحبه عن الحق ويحول بينه وبين الصواب - توعده الله من ضلوا بسبب الهوى أن يعذبهم العذاب الشديد في الآخرة

٣٣٠ الهوى يسلط على الرجل بسبب نسيانه يوم الحساب - من لنا بترية القضاة على حبّ العدالة والانصاف ، وإكبارهم للحقّ ، واحتقارهم للباطل - القضاة مختلفون في أهوائهم وشهواتهم ، فبهم للمريض بالنساء ، والمريض بالمال ، والمريض بالخور واللكيفات ، والمريض بالتمار - وأخفّ أمراض قضائنا اليوم جنبهم أمام السلطة - من القضاة من يتخلص من القضية إذا رأى لأصحاب السلطة انجباها معنا فيها - وهو يعلم أنه إذا تركها أسندت إلى رجل يسارع إلى ماتحبه السلطة والواجب عليه أن لا يدعها معرضة للفساد

٣٣١ وعلى الجلة فهمة القضاة شاقة ، وهي ابتلاء من الله تعالى أيّ ابتلاء

٣٣٢ كتاب عمر في القضاء لأبي موسى الأشعري ، وهو كتاب تاريخي عظيم

٣٣٣ كتاب عمر لشرع القاضي

٣٣٤ تنزيه الله تعالى أن يتخلل الخلق عبثاً بدون أن يحاسبهم

الجزء في الآخرة أمر تقضى به الحكمة

٣٣٥ إنكار تسوية الله في الجزاء بين المفسدين والمصالحين - الجزاء الحقّ مظهر من مظاهر عدل الله تعالى وحكمته - خطأ من يجوز على الله أن يدخل من أطاعه النار ولو كان رسولا ، وأن يدخل من عصاه الجنة ولو مشركا - السبب في خطيئهم أخذ العقائد من كتب الكلام لا من كتاب الله ، ونسيانهم صفى الحكمة والعدل

٣٣٦ القرآن الكريم نزل للتدبر والذكرى ، ولم ينزله الله ليكون تمام تعاويز ، أو لنقرأه على القبور - مادام المسلمون لا يعرفون وظيفة القرآن ، ولا يتخذونه إماما لهم في عقائدهم وأخلاقهم وتشريعهم ، فلا تقوم لهم قائمة - إنما ينتفع بالقرآن الذين حكموا عقولهم ، وانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم - كلة الحسن في القرآن الذين يحفظون حروف القرآن ، ويضعون حدوده ، وهي تنطبق على قرآننا اليوم

٣٣٧ هبة الله سليمان لداود - مدحه بقوله (نعم العبد إنه أواب) - استعراض سليمان للخيل الجياد كما هو الشأن في الملوك

٣٣٨ قول سليمان (إني أحببت حبّ الخير عن ذكر ربي) أي حبا ناشئا عن ذكر الله ، فكلاما ذكره ذكر فضله وإحسانه ، أو لأجل أن يذكر بهذه المحبة ربه - الضمير في (توارت) للخيل

٣٣٩ فتنة سليمان - روايات المفسرين فيها : منها ما لا يتفق ومركز سليمان عليه السلام ، ومنها ما هو ضعيف من جهة سند - قد يصحّ الحديث من جهة سند ، ولكن لم يثبت أنه تفسير لأية ، وليس كلّ ماصح من الأحاديث يصحّ تفسيراً - كثير من المفسرين يقع في هذا الخطأ - أمثل ما قيل في فتنة سليمان وإلقاء جسد على كرسية

صحيفة

٣٣٨ دعوة سليمان ربه أن يفر له ، ويهب له ملكا لا يفتنى لأحد من بعده ، وحكمة تقدم طلب الغفرة - إجابة الله دعوته لتسخير الريح له تجري بأمره حيث قصد ، وتسخير الشياطين ، وفهم البناء والفواصل لاستخراج اللؤلؤ ، وآخرين من مردة الشياطين - امتنان الله عليه في قوله (هذا عطائونا) منزلته عند الله تعالى

٣٣٩ دعوة عيسى عليه السلام إلى الله تعالى

٣٤٠ بشارة الله لمرم عيسى - وجاهته في الدنيا والآخرة - قربه من الله تعالى - تكليمه الناس في الهدى وكهلا - استعداد مريم أن يكون لها ولد بدون زوج - إخبار الله إياها أن الله أن يفعل ما يشاء ، وأنه إذا قضى أمرا لا يمكن أن يتعصى على قدرته - تعليم الله إياه الكتاب والحكمة ، وأنه سيجعله رسولا إلى بني إسرائيل
٣٤١ آيات عيسى إلى إسرائيل ، تصويره من الطين كهية الطير ونفخه فيه فيصير طيرا باذن الله ، إبراء الأكف والأبرص ، وإحياء الموتى باذن الله - إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم - عيسى مصدق للتوراة فهي شريعة له - أممه بني إسرائيل بتوحيد الله وتقواه
٣٤٢ عيسى يبعث الله فيحس الكفر من قومه - بحثه عن المتخلصين الذين ينصرونه في الشدة والرخاء

٣٤٣ عيسى يقول لقومه (من أنصاري إلى الله) ليهز قلوبهم إلى الله هزاً - الحواريون يجيبونه بقولهم (نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) الخ
٣٤٤ مكر اليهود بعيسى - مكر الله بهم - توفية الله عيسى ورفضه إليه
٣٤٥ عيسى يدعو الناس إلى التوحيد وينهى عن الشرك - الألقام - التثليث عند النصارى عقيدة يحبط فيها جهلاؤهم ويتعير علماؤهم
٣٤٦ كناية القرآن في قوله (كانا يأكلان الطعام)
٣٤٧ تذكير الله عيسى نعمته عليه وعلى والدته
٣٤٨ الكلام على المائدة التي طلبها بنو إسرائيل
٣٤٩ وعد الله بها مشروط بشرط ، وأنهم بعد الشرط قالوا لا حاجة لنا فيها
٣٤٩ سؤال الله عيسى في الآخرة عن عبده وأمه يراد به تكبيل المشركين
٣٥٠ اتخاذ المسيح وأمه إلهين من دون الله

٣٥١ إجابة للمسيح عن السؤال

٣٥٤ قصة حل مريم بالمسيح - استعاذتها من جبريل - قطعيتها بأنه رسول الله - استعدادها أن يكون لها غلام ولم يحسبها بشر ولم تك فيها - إخبارها بأن ذلك هو خبر الله ولا راد لما أراد ، لأنه هين عليه أن يخرق العادات ، وليكون آية للناس على قدرة الله وخضوع السفن له

صحيفة

- ٣٥٥ قصة الولادة - تسخير الله لها الشراب والطعام - اتهام قومها لها
- ٣٥٦ كلام المسيح في اللمد
- ٣٥٧ بيان أن ما قصه الله هو القصص الحق في عيسى
- ٣٥٨ (ولما ضرب ابن مريم مثلاً) بيان المراد منه
- ٣٥٩ الجدل وسيلة للحق لا غاية - تحذير القرآن من أن يصير خلقاً للناس - عظة لرجال الحمامة الذين يجادلون عن المجرمين بالباطل
- ٣٦٠ عيسى عبد أنعم الله عليه وجعله قدوة صالحة لبني إسرائيل
- ٣٦١ عيسى علم من أعلام الساعة ، وبيان وجه كونه علماً
- ٣٦٢ محيى عيسى بالبينات والحكمة - دعوته إلى التوحيد
- ٣٦٣ الرهبانية لم تكن في شريعة المسيح بل هي مبتدعة - كلمة في البدع وسبب اختراع الناس لها - لاغنى المسلم عن الوقوف عند ما ورد
- ٣٦٤ حسن النية لا يصلح عذراً للمبتدع - منشأ ابتداء الصاري للرهبانية - الاسلام ينهى عن الرهبانية
- ٣٦٥ المستثمرون اليوم ليسوا من أنوع المسيح لأنه ليس في قلوبهم رافة ورحمة
- ٣٦٧ تبشير عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم - رمى أنباع عيسى الحمد بالسحر مع تبشير عيسى به
- ٣٦٧ خصوم محمد يحاولون القضاء على دعوته ، وهي محاولة فاشلة
- ٣٦٨ وعد الله بظهور الاسلام على الأديان جميعها - دعوة الله المؤمنين أن يكونوا أنصار الله كما كان الحواريون
- ٣٦٩ دعوة خاتم الرسل : محمد صلى الله عليه وسلم
- ٣٦٩ طريقتي في الكلام على دعوة محمد صلى الله عليه وسلم
- ٣٧٠ محمد صلى الله عليه وسلم : دعوته بمكة
- ٣٧٠ المكي والمدني من القرآن
- ٣٧١ المكي من القرآن يدور حول الإيمان بالله ، والإيمان بالبعث ، والتوحيد ، والعمل الصالح والدعوة إلى الأخلاق
- ٣٧١ وحدة الله تعالى - والآيات فيها
- ٣٧٨ الرسالة والجدل فيها
- ٣٧٩ الآيات في الرسالة

صحيفة

- ٣٨٣ البعث والجزاء ، والآيات في ذلك
 ٣٨٧ العمل الصالح - الآيات فيه
 ٣٩٠ الأخلاق من أهم مقاصد القرآن
 ٣٩١ الآيات في الأخلاق
 ٣٩٨ محمد صلى الله عليه وسلم ووظيفته - الآيات في ذلك
 ٤٠١ تربية الله له - الآيات في ذلك
 ٤٠٥ محمد صلى الله عليه وسلم ، وتعتد للشركيين معه
 ٤٠٦ الآيات في ذلك
 ٤١١ محمد صلى الله عليه وسلم وتسلية الله له - الآيات في ذلك
 ٤١٤ الصلاة فريضتها وحكمتها
 ٤١٥ الهجرة وأسبابها
 ٤١٦ محمد صلى الله عليه وسلم : دعوته بالمدينة

- ٤١٦ محاجته لليهود والنصارى
 ٤١٦ الآيات في ذلك
 ٤١٩ القتال في الاسلام ، ولماذا شرع - (لا إكراه في الدين)
 ٤٢٠ الآيات في القتال
 ٤٢٢ التحريض على القتال ، وأساليب القرآن في التحريض
 ٤٢٤ الآيات في التحريض
 ٤٢٩ الإيمان ، والكفر ، والنفاق - سنة الله أن يكون الناس فرقا وأحزابا عند ظهور أى إصلاح في الأرض ، فويق ينصر المتأخى علنا ، وفريق يحاربه علنا ، وفريق يوارب ، وهو النافق
 ٤٣٠ الآيات في المؤمنين ، وهى جديرة بالتأمل
 ٤٣٨ تعليق وعبرة في آيات للمؤمنين - يجب على المؤمن أن يوازن بين الإيمان الذى ذكره الله تعالى في كتابه وبين إيمانه ، فقد يكون مخدوعا في نفسه - يجب على الانسان أن يسأل نفسه أهو من المؤمنين الذين وعدهم الله بالجنة ، أو هو إيمان آخر - ثمن الجنة : الجود بالنفس والمال في - بيل الله تعالى
 ٤٣٩ من عجيب أمر علمائنا أن يسألخوا الإيمان عن العمل والخلق الطيب الكريم ، فيرضون للمؤمن أن يكون خائر المزيمة جبانا ، كما يرضون له أن يكون شحيح النفس مقترا
 ٤٣٩ الآيات في الكافرين

صحيفة

- ٤٤٥ تعليق على الآيات في الكافرين وعبرة - على المؤمن أن يستعرض أوصاف الكافرين ويتدبر فيها ، فلعن كثيرا من صفاتهم عالق بنفسه وهو لا يدري - خصائص الكفار - [الأولى] تعطيلهم ما وهبهم الله من عقل وسمع وبصر حتى وصفهم الله بأنهم شر الدواب
- ٤٤٥ [الثانية] حنقهم على الرسل وأتباعهم ، وقد ترى ذلك الوصف في فريق من أهل العلم الذين شبوا على البدع والضلالات في عقائدهم وعباداتهم
- ٤٤٥ [الثالثة] فرارهم من الدعوة إلى الحق ومن الهدى إليه لأنه يعمل في نفوسهم زلزلة واضطرابا
- ٤٤٦ [الرابعة] دفاعهم عن الباطل ، وقتالهم في سبيل الشيطان ، وأكبر مظهر لذلك الدفاع : جدهم في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير - ما أوحى أهل العلم إلى التخوف من ذلك الخلق - فقد أصيب كثير منهم بالجلد
- ٤٤٦ الآيات في المنافقين ، وهي جذيرة بالتدبر والعبرة
- ٤٥٤ كبريات العبر في المنافقين
- للمنافقون شرّ مستطير على كلّ إصلاح في الأرض ، سواء أكان دينيا ، أم سياسيا أم اقتصاديا ، لذلك أطال القرآن الكريم في آياتهم
- ٤٥٤ لو تتبعنا أىّ إصلاح في الأرض لرأيت الناس أقساما ثلاثة إزاء ذلك الإصلاح :
- [قسم] يرحب به ويناصره ظاهرا وباطنا . [وقسم] آخر يعاديه كذلك .
- [وقسم] ثالث يعاديه في الباطن ، ويناصره في الظاهر - نظرة واحدة في نهضات البلاد ترى كيف ينقسم الناس
- ٤٥٥ للمنافق حيوان خبيث
- ٤٥٥ الفتن والشدائد وما فيها من حكم ومصالح - لولا الشدائد لبقى جيش المصلح خليطا من المؤمنين والمنافق
- ٤٥٦ أخلاق المنافقين ، وهو بحث مستفيض لاغنى لمصلح عن تدبره وفقهه
- ٤٥٦ العلة في أولئك الأخلاق هي مرض قلوبهم ، واضطراب عقيدتهم
- ٤٥٦ [الأولى] من صفاتهم أنهم يسمعون الله والمؤمنين معاملة المخادع لا معاملة المخلص - من آثر ذلك أنهم يصلون بأجسامهم لا بقلوبهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى - ما أوحىنا إلى تدبر ذلك الخلق وعرضه على نفوسنا - لا يذكر الله إلا قليلا
- ٤٥٨ [الثانية] من صفاتهم : التبذير ، والاضطراب بين حزب المؤمنين وحزب الكافرين ، وعلة ذلك أن في قلوبهم مرضا ، ومن مرض قلبه مرض فيه كلّ شيء - الفرق بين مرض الكافر ومرض المنافق
- ٤٥٨ [الثالثة] من أخلاق المنافق أن يعجبك قوله ويسوؤك عمله ، قوله قول الصوفية ، وعمله عمل الجبارة

٤٥٩ [الرابع] أنهم نفعيون لا يريدون إلا مصلحتهم الدنيوية ، وغايتهم المادية - ومن أجلها يتحادعون ويولربون - يخشون إذا ساروا للصلح أن تكون عاقبته الفشل ، وإذا عادوه علنا قد تكون له العاقبة - لا يريدون الانضمام لحزب يتحملون غنمه وغمومه - بل مع الأحزاب كلها في الغم لافي الغرم - فضيحة القرآن لهم

٤٥٩ المناق يحاول أن يرضى كل الأحزاب ، ويرجع في كل زمن - للناقون يفسدون على الناس أمر الدنيا كما أفسدوا عليهم أمر الآتين - المناق أكبر خاذل للمصلح السياسي ، وناصر للعاصب

٤٦٠ [الخامس] جنهم وخورهم ، فلا تجد لهم شجاعة أدبية ، وآية ذلك تخلفهم عن القتال ، وتبسطهم غبرهم عنه

٤٦٠ [السادس] من أوصافهم : أنهم لم يرضوا الله ورسوله حكما فيما يعرض لهم من خلاف ، لحكومتهم غير حكومة المؤمنين ، التي هي كتاب الله المعصوم ، وسنة رسوله الصحيحة - علة إعراضهم ما في قلوبهم من مرض

٤٦١ [السابع] من صفاتهم اتصافهم بأعداء المؤمنين ، وابتغائهم العزة منهم

٤٦٢ العبرة في ذلك أن فرقة من المؤمنين بوالون العاصبين للبلاد لا يستعينوا بهم على تثبيت حق أو إبطال باطل ، بل ليكونوا عظماء أعزاء - وقد تجرّ الصداقة إلى أن يصور أمته بصورة حقيرة ، بل أن يصبح حربا على أمته عونا للعاصب - العاصب مخلص لأمنه ووطنه قبل كل شيء - العاصب لا يعطى شيئا إلا حيث أخذ الثمن غالبا

٤٦٢ آثار العاصبين في بلاد المسلمين : تعطيل حدود الله - انتهاك الحرمات - إباحة الخمر - إباحة الزنا العاني - حفظ العاصب من ذلك شغل الناس بشهواتهم عنهم - جيوش الفاسد والمهرمات شر من جيوش الاحتلال

٤٦٣ قد بوالهم بعض الناس ليأخذ منهم لا يعطيهم ، ولكنه مخدوع في ذلك ، فهم يسامون في كل شيء ، ويتجرون حتى على حساب الصداقة الشخصية لصلحة شعبهم وأمتهم

٤٦٣ [الثامن] من صفاتهم : إكثارهم من الحلف ، لأنهم لا يشقون بأنفسهم ، والثبات فيمن لا يتق بنفسه أن يشعر بفقد ثقة الناس فيه - ذلك الخلق ينكشف عن خلتين :

[أولهما] الكذب . [الثاني] محاولة تغطية الكذب والتليس على الناس

٤٦٤ [التاسع] من أخلاقهم : كذبهم وامتناعهم لأنفسهم وكرامتهم

٤٦٥ كذب المناقين خلق فيهم ولعلك يكذبون حتى على الكافرين

٤٦٥ [العاشر] من أخلاقهم : نقضهم العهد وإخلافهم الوعد ، وهو من فروع الكذب إلا أنه نوع خاص ، وهو من أضر أنواع الكذب وأفتكها بمصالح الناس

٤٦٦ رجال السياسة ودعاة الاستعمار يعدون ويخلفون ، ويتعاهدون وينكثون - وإن صدقوا في أصل المهد كذبوا في تطبيقه وتضيقه

محيطة

٤٦٦ لو عرف الناقضون أن ما يخسرون بالقض فوق ما يكسبون لآثروا الصدق على الكذب

٤٦٦ [الحادى عشر] من أخلاقهم أن بعضهم من بعض ، فهم مقتابيون فى الباطل - يأمرهم بالسكر ، وينهون عن العروف - ويقبضون أيديهم

٤٦٧ للناقضون يوصى بعضهم بعضا (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفقوا) وهو طريق لاذلال المؤمنين

٤٦٧ ذكرت هذه الآية عند ما أنشأ بعض الحكام الطالبين مصرفا ماليا للتسليف وكان يعطى منه بسخاء لمن يوالىه فى سياسته ، ويحرم منه خصومه السياسيين - صدق الله وصدق كتابه الكريم الذى لا يزال جديدا تفسره الحوادث

٤٦٧ (الناقضون والناقضات بعضهم من بعض) وان تراخى الزمان وبعدت المسافة ، شابنا اليوم يأمر بالسكر ، وينهى عن العروف

٤٦٨ [الثانى عشر] من أخلاقهم إينهم فى القول ودهانهم فى الحديث ، لا يستطيع الواحد منهم أن يواجه الحقائق ، ويشهد بما يعتقد ، لأن همه إرضاء الناس جميعهم لا إرضاء الحق - ما أضر ذلك الخلق على العلماء - كثيرا ما نسمع منهم أعذارا وتعللة لذلك النفاق ولكنها أعذار خاطئة

٤٦٩ [الثالث عشر] ما أشار له القرآن فى قوله (وإذا رأيتهم تهجرك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) والمراد أنهم يهتمون بظاهرهم ولا يحفلون بباطنهم

٤٦٩ الزكفة فى تشبيه القرآن لهم بالخشب المسندة (يحسبون كل صيحة عليهم) لأهم يتوهمون عند كل حدث أن سياستهم قد كشفت

٤٧٠ الله تعالى يقول فيهم (هم العدو فاحذرهم) فيحصر العدو فيهم كأن الكافر ليس شيئا فى جانبهم ، لأنه ظاهر فى عداوته ، أما المنافق فهو السم فى صورة العسل ، والعدو فى ثوب الصديق ، وهم العدو فى السياسة ، فى الاقتصاد ، فى الصناعة ، فى كل إصلاح على وجه الأرض ، فاحذرهم - دعاء الله عليهم بقوله (قاتلهم الله)

٤٧١ أشهر الغزوات

غزوة بدر الكبرى

٤٧١ الآيات فيها

٤٧٣ تعليق وعبرة

٤٧٣ آية الله فى فئة مقاتل فى سبيله وأخرى مقاتل فى سبيل الشيطان

المؤمنون يرون الكافرين مثلهم مع أنهم كانوا ثلاثة أمثالهم - المؤمنون يقللهم الله فى

أعين الكافرين - حكمة ذلك كله

- ٤٧٤ تأييد الله بنصره من يقاتل في سبيله ، وخذلانه من يقاتل في سبيل الطاغوت
- ٤٧٤ للمؤمنون في بدر يريدون الفائزة العاجلة وسفاسف الأمور ، والله تعالى يريد لهم معالي الأمور ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، وشتان ما بين المرادين
- ٥٤ : استغاثه المؤمنين برهبهم واستجابه إياهم - إمدادهم بألف من الملائكة ليغفرهم بالنصر ، ويظهر قلوبهم ، فيلقون أعداءهم ثابتين
- ٥٥ (وما النصر إلا من عند الله) لأنه المسخر لأسبابه والمهادى إليها ويتجلى ذلك في تسخير الأسباب العنوية التي لا كسب للبشر فيها كالملائكة
- ٥٥ نعم الله على المؤمنين في غزوة بدر من تشبثهم بالناس تأمينا لهم من الخوف ، وإزالة ما من السماء عليهم ليطهرهم به ، ويمد عنهم وسوسة الشيطان ، وليربط على قلوبهم من الزلزال ، وليثبت به الأقدام من أن تسوخ في الأرض
- ٥٥ وحى الله للملائكة أنه معهم بالمعونة ، وأمرهم أن يثبتوا المؤمنين
- ٥٥ آية الله في إقائه العرب في قلوب الكافرين عند حربهم للمؤمنين ، عقوبة للكافرين على شركهم ، وإهلاكهم لعقولهم ومواهبهم
- ٥٥ الذي لا يقاتل عن عقيدة ضعيف في قتاله من الناحية العنوية فهزيمته متمشية مع السان
- ٥٦ إهدار الدمين لسماء المشايق لله ورسوله ، وإرشاد المؤمنين إلى مقاتلتهم
- ٥٦ تحذير القرآن الكريم للمؤمنين من الفرار عند لقاء الكفار
- ٥٦ (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وبيان المراد منها
- ٥٧ البلاد الحسن للمؤمنين - سنة الله في إضاعته كيد الكافرين ومكرهم - خطاب الله أعداء الرسول بقوله :
- (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) الخ بيانه لهم أن فتنتهم لن تقضى عنهم شيئا من الفناء وإن كثرت
- ٥٧ القيمة ومصارفها
- ٥٨ إرشاد الله الى أسباب النظر ووسائل النصر - الثبات - ذكر الله ليقوى قلب المحارب ومن ذكره ذكر سنته في النصر والخذلان - طاعة الله ورسوله - عدم التنازع - الصبر على مشاق القتال

غزوة أحد

٤٧٩

٤٨٣ تعليق وعبرة

إنزال الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين في معادهم للقتال - ثم طائفتين منهم بالفشل ، تذكرة الله للمؤمنين بنصرهم بغير وهم أدلة - وعد الله للمؤمنين أن يمدحهم الله بثلاثة آلاف

من اللاتئكة - وعدم ان صبروا وانتقوا أن يقدم بخمسة آلاف من اللاتئكة - هذه العدة من الله بشرى للمؤمنين - حكمة ذلك قضاء الله على طائفة من الكفار - (ليس لك من الأمر شيء)

٤٨٣ نهى الله المؤمنين عن الوهن والحزن لأنهم أعلى من الكفار نفسا ودينا وخلقا
٤٨٣ الله تعالى يرى المؤمنين أن شدائد الحرب مشتركة بينهم وبين الكفار ، وهي تسليها قيمتها
٤٨٤ الأيام دول فيوم لك ويوم عليك - الشدائد ابتلاء من الله يقين بها للمؤمن من المنافق ،
وفيها تمحيص لقلوب المؤمنين وتطهيرها من كل ضعف

٤٨٤ حادث إشاعة موت الرسول يوم أحد - بيان أن الموت سنة لا يمكن تخلفها في خلق الله
٤٨٤ للصابب الشخصية لا تدل على أن من تصيبه على حق أو باطل - لا نعتد في معرفة الحق والخير على وجود العلم بحيث تركهما بعد موته - الآية مقدمة وإرهاص بين يدي
موت رسول الله صلى الله عليه وسلم

٤٨٤ تحريض المؤمنين على القتال ، وبيان أن كل نفس لا تموت إلا بعيشة الله وقدره والجهاد لا يضيع شيئا من الأجل ، والتخلي عنه لا يمد لصاحبها في الحياة
٤٨٤ كثير من النبيين قاتل معهم جوع كثيرة ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا - عاقبة أمرهم إثابة الله لهم في الدنيا بالفتنة والقلب ، ووعدهم حسن ثواب الآخرة

٤٨٥ إنجاز الله وعدمه بالصبر ، وقتلهم الكفار قتلا ذريعا في الوقت الذي أطاعوا فيه . وصية الرسول لهم - خذلانهم بعد الفشل والخروج على وصية رسولهم الأعظم وقادهم الأكبر ، وتطلعهم لعرض هذه الحياة - حكمة ذلك ابتلاء الله لهم - عفو الله عنهم - إثابتهم غم الهزيمة بسبب غم المخالفة - بيان أن الرجل اذا تسبب في الشر لا يلوم إلا نفسه

٤٨٥ إزال النعاس عليهم ليصرفهم به عن التمر - قول المنافقين في وقت الشدة وأصفهم على القتال - بيان أن الموت لكل أحد موقت بأجله لا يتخطاه - وأن هذه الشدائد لحكم ومصالح

٤٨٦ بيان عاقبة من فر يوم أحد ، وأن الفرار ماغواء الشيطان له - تحذير المؤمنين أن يقولوا قالة الكفار - (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) وكثير من جهلة المؤمنين يقولون في أبنائهم مثل ذلك - ينكر الله عليهم عدم رضاهم أن يبادل لهم مرة وعليهم مرة أخرى بيان أنهم الذين تسبوا في الهزيمة يتطلعهم للدنيا

٤٨٦ حياة الذين قتلوا في سبيل الله - واستبشارهم بالدين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، صفات المؤمنين استجابتهم لله والرسول - شجاعتهم - عودهم بنعمة من الله وفضل - التثبیط عن القتال من عمل الشيطان يخوف به خزيه - النهي عن الخوف من حزب الباطل وتمحيص الخوف من الله تعالى

غزوة الأحزاب

٤٨٧

٤٨٩ تعليق وعبرة

- ٤٨٩ تذكر الله نعمته على المؤمنين إذ أرسل ربحا وجنودا خفية على أعدائهم
الشدة التي كان فيها المؤمنون في ذلك الوقت - اضطراب الأبصار - وبلوغ القلوب الخناجر
ظنهم بالله الظنون - ابتلاء المؤمنين ، زلزالهم الشديد
٤٩٠ الشأن في المنافقين أن يذلقوا بكلمات الكفر عند الشدائد ، تثيطهم عن القتال - استئذان
فرق منهم النبي - اعتذارهم بأن يومهم غير محصنة - كذبهم في ذلك
٤٩٠ تهديد الله لهم بأنه يعلم للشبطين عن القتال منهم - المنافق شحيح بنفسه أن يقاتل ،
وشحيح بغيره فيمنطه - سب ذلك أنهم لم يؤمنوا - سؤال المنافقين عن أبناء المؤمنين -
المنافقون لا يقاتلون إلا مضطرين
٤٩٠ قول المؤمنين عند رؤية الأحزاب - شجاعتهم

الزكاة

٤٩١

- ٤٩١ شرح وتعليق - الأخوة في الدين تكون لقوم أقاربوا السلاة وآتوا الزكاة بعد توبتهم من
الشرك ، العبرة لقوم يمنعون الزكاة ظانين أن صلاتهم تنجيهم من عذاب الله - من السهل
على الرجل أن يقوم بأعمال السلاة ، وليس من السهل أن يبذل نصيبا من ماله للفقراء
ومصالح المسلمين - لذلك تجدد للصالحين والصالحين أكثر من المشركين
٤٩٢ الصلاة التي لا تزهد صاحبها في المال ، ولا ترفقه حق الفقير والمساكين : هي صلاة الغافلين
الساكنين المرانين
٤٩٢ الزكاة طهرة لصاحبها من مرض الشح ، وهو داء وبيل - الشح معطل لمصالح الأئمة
الحوية - من آثار الشح امتلاء دور الحكومة بقضايا التوريث والنزاع على الحقوق الدينية
٩٣ : الزكاة تستل من نفوس الفقراء حقهم على الأغنياء - شرور الشيوعية المحمقة سببها
بخل أرباب الأموال بالزكاة
٩٣ : الشيوعية قضا على تنازع البقاء والتنافس في وسائل الحياة (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) الخ
٩٣ : مصارف الزكاة : - الفقراء والمساكين - العمال على الزكاة كالجباة والكتبة - المؤلفات
قلوبهم - فك الرقاب وإتخاذها من الرق - الشريعة تعمل على تضيق دائرة الرق
٩٤ : الفارمون في غير معصية يمتطون من الزكاة ، كالذي استدان لإنشاء مصنع وغرم فيه - في
سبيل الله - ويدخل فيه الجهاد ، وطلب العلم ، ورقية الصناعات والمعارف وغير ذلك من
كل ما يرضى الله كالسقييات والجمعيات الخيرية
٩٤ : ابن السبيل من مصارف بيت مال المسلمين ، وهو المسافر يعطى ليستعين على سفره ، وفيه
تشجيع الشريعة على الأسفار لأهميتها - الغريون عرفوا قيمة الأسفار فعزوا بها -
ابن السبيل يشمل اللقيط كما يشمل المسافر

الصيام

٤٩٥

- ٤٩٦ شرح وتطبيق - الصوم علاج ضرورى لذلك شرعه لمن قبلنا - حكمة الصوم إعداده للتقوى كبقية العبادات - لماذا كان الصوم معدا للتقوى
- ٤٩٧ تقوية الصوم لارادة المسلم - تفاوت الناس في قوة الارادة - مصيبة المسلمين بضعف إرادتهم - التيسير في الصوم
- ٤٩٧ الأعداد المبيحة للفطر - المرض - السفر - عدم إطفاء الصوم كأصحاب الأعمال الشاقة وكالمراضى بالمعدة والشيوخ والعجائز
- ٤٩٩ (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) من دلائل صدق الرسول وأن كتابه من عند الله تعالى
- ٤٩٩ إباحة الإفشاء إلى النساء ليلا للصائم - الخيط الأبيض والأسود وخطا الناس في فهمه

الحج

٥٠٠

- ٥٠١ وجوبه على المستطيع - تحديد الاستطاعة يعرفه كل أحد من نفسه
- ٥٠٢ في إقامة الحج ومشروعيته قيام أمر الناس في دينهم وديارهم - أعداء المسلمين يضعون العقبات في سبيل الحج وتعارف المسلمين
- ٥٠٣ اختلاف المسلمين في اللغات يقتل من فائدة الحج الاجتماعية - الواجب على المسلمين أن يكون لهم لغة قومية هي لغة القرآن - استفادة المسلمين من الحج في اقتصادهم وسياساتهم
- اجتماع المسلمين في الحج يحيى فيهم ملكة الشعور بالوحدة

أصول المعاملات

٥٠٤

- حل البيع لأنه لاغنى للناس عنه - حرمة الربا لأنه لا يتفق والرحمة - أكل أموال الناس بالباطل طريق للقتل
- ٥٠٦ الرشوة وتحريم الدين لها
- ٥٠٦ إرشاد الله لنا إلى الاستيثاق من الدين بكتابته على وجه يحفظه من الضياع
- ٥٠٧ العهود والمواثيق وعناية الدين بهما
- ٥٠٩ النيم والعناية به - إذا أهملت اليتامى كانت مرضا في جسم الأمة يفسد عليها كل إصلاح
- ٥١٠ الأوصياء على اليتامى والذين جعلوا أنفسهم أوصياء على الأموال سواء في الظلم واستغلال الضعف

نظام البيوت

٥١٠

- ٥١١ الزواج - تعدد الزوجات والأسباب التي تبيحه

الطلاق

٥١٣

- ٥١٣ في مشروعية الطلاق تيسير على الزوجين
- ٥١٣ الله تعالى حاط عقد الزوجية بما يحفظه من النوضى

صحيفة

٥١٤ التيسير على المطلقة

٥١٥ نظام التوريث

٥١٧ التذكير بوصية الله في الوارث - كيف يتخلص الناس من الوصية آباء وأبناء

٥١٨ يخل الناس بيرات البفت وما يجرّ إليه البخل

٥١٩ إعطاء الولد مثل حظّ الأثنيين موافق للحكمة - اذا كان هناك محابة فهي محابة الله للبفت

٥١٩ الحكومة في الاسلام

٥١٩ الشورى في الأمور العامة شأن المؤمنين - نوع الشورى متروك للزمن

٥٢٠ أسرى الحرب في الاسلام

٥٢٠ اختلاف الصحابة فيها للمصلحة

٥٢١ غنائم الحرب في الاسلام

٥٢٢ المقويات في الاسلام

٥٢٣ القصاص

٥٢٤ وجوب الدية في القتل الخطأ وحكمة ذلك

٥٢٥ حكمة القصاص

٥٢٥ حد قطاع الطريق

٥٢٦ حد السارق : مقتضى الحكمة

٥٢٧ حد الزاني

٥٢٨ حد القاذف

٥٢٩ الحكمة في إقامة الحد على من يقذف الحصنة العاقلة

٥٣٠ فهرس إجمالى لأهم ما في الكتاب

٥٣٢ مراجع الكتاب

مقدمة الكتاب

والتعريف به

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ « ١٢٠ » مود

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ
كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ « ٣ » يوسف

لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ « ١١١ » يوسف

اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث في الناس رسلا مبشرين ومنذرين ، وأن
يكون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتما لأولئك الرسل ، ويعلم الله أن الدعوة إلى
الاصلاح محفوفة بالمخاطر ، محوطة بالأشواك ، ومن شأن هذه المخاطر أن تكون
ذريعة لتسيط همة الداعى ، وتسرب اليأس إلى نفسه - فكان من الخير أن يحال بين
اليأس وبين قلب رسوله ، وأن يريه أن هذه العقبات التى تعترض الداعى ، وتلك
الشدائد التى يراها المصلح ، لا غنى له عنها ، وأنها سنة فيمن سبقه من الرسل ،

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّي الْمُرْسَلِينَ « ٣٤ » ^(١) .

وكيف ينجو المصلح من هذه الشدائد ، ومهمته أن يحول بين النفوس وشهواتها ، والقلوب وأهوائها ، يحاول أن يرسم لها طريقاً غير الطريق ، يبعد بينها وبين ما ألفت من الشهوات ، ويقارب بينها وبين ما تركت من الفضائل ، فهو مرب يريد أن يخلق الناس خلقاً جديداً ، ومهذب يحاول أن ينشئهم نشأة صالحة ، يؤلف بين غرائزهم المختلفة ، ويوفق بين أهوائهم المتفاوتة .

وكثيراً ما تستحكم الشهوات ، ويتمكن الفساد من الأمة إلى حد كبير ، كالأمة العربية في جاهليتها ، فيحتاج المصلح إلى شيء كثير من السلوى ، ونماذج غير قليلة من سيرة المصلحين .

فلا عجب أن تكون سيرة الرسل الماضين جزءاً من دعوة خاتمهم ، وأن تكون دعوتهم لأقوامهم مثلاً صالحة لدعوته لقومه ، لا عجب أن تكون أنباء الرسل تثبتاً لقلبه ، وتطميناً لنفسه

أَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سِيرَةِ الرُّسُلِ الْمَاضِينَ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى ، وَأَنَّ جَنْدَ الْحَقِّ هُوَ الْغَالِبُ : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ « ١٧١ » إِنْهُمْ لَهُمُ الْمُنْصُورُونَ « ١٧٢ » وَإِنَّا جُنْدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ « ١٧٣ » ^(٢) كما أراه أن حزب الباطل لا يصلح الله عمله ، وأن الدائرة تكون عليه : « فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ « ٤٠ » ^(٣) » « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُوا هُدًى مِنْ إِنْحَادِ الْأَنْبِيَاءِ »

فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا «٤٢» أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكُرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا «٤٣» (١)

« أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٨٢» فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ «٨٣» فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ «٨٤» فَمَن يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِعْنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَمِرَ هَٰذَا لِكَافِرُونَ «٨٥» (٢) .

هذه سنن الله تعالى لا تختلف ، ولا تتخلف في المصلحين والمفسدين ، يسوقها الله في كتابه الكريم لتكون تربية لنا ، وعبرة لأحباب العقول منا ، ويكررها في ذلك الكتاب بأساليب مختلفة ، فمرة يحدثنا القرآن عنها بأسلوب طويل ، ومرة بأسلوب وسط ، وأحياناً بطريقة موجز ، علنا نفقه سرها ، والغاية منها ، ومن تكرارها ، ونعلم أن القرآن كتاب هداية فوق أنه كتاب علم ، فهو يرينا ما فعله بالصالحين جزاء لهم على استقامتهم ، وما أوقمه بالمفسدين عقوبة لهم على طغيانهم ، ويرينا أن هذه سنته ، وأن الشعوب نسبتها إليه سواء ، يمكن لها في الأرض ، ويفقد عليها من النعم ، إذا هي وقفت عند ما رسم لها من حدود ، وما شرع لها من أحكام ، ويريها العذاب ألواناً ، ويسلط عليها من أسبابها عزها وسلطانها ، إذا هي تنكبت طرق الهدى ، وداسن قوانين الفطرة : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٩٦» (٣) .

تلك هي الغاية من ذكر سيرة الرسل في القرآن الكريم ، وتكرار القصة في عدة سور بأساليب مختلفة ، وهي تمكن هذه السنن في النفس ، وتثبيتها في القلب ، حتى لا يجد اليأس إلى قلب المصلح سبيلا ، فتقوى فيه داعية الإصلاح ، وحتى يعلم الناس أن مصيرهم مصير من سبقهم من الظالمين ، إذا هم أعتنوا الرسل ، وخرجوا على تعاليمهم وشرائعهم .

وكثيرا ما يسلى القرآن الكريم نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بما كان لسلفه من الرسل .

ويريه الله أنه لا يقابل من أعدائه إلا بمثل ما قوبل به الرسل : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » (٤٣) (١) . وإن تلقى الرسول بالأذى شنشنة المفسدين ، تناقلوها جيلا عن جيل ، كأنهم تواصلوا بها على تباعد أزمتهن ، واختلاف أمكنتهن : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ » (٥٢) « أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلَىٰ ثُمَّ قَوْمٌ طَاغُوتٌ » (٥٣) (٢) .

وكثيرا ما يأمره القرآن الكريم أن يمتصم بالصبر ، ويتذرع بالرضى ، ويريه أن وعد الله بنصر المصلحين حق لا مرية فيه : « فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّنَاكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ » (٦٠) (٣) . وإن ذلك شأن أصحاب القوة من الرسل : « فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَبَلَغْ إِلَهُكَ إِلَا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » (٣٥) (٤) .

وكما يربى الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه السيرة ، يربى العلماء الداعين إلى الله تعالى ، ويربهم أن لا حق لهم في أن يسأموا من الدعوة لأن الناس

تلقاهم بما يكرهون ، وتقابلهم على الاشتهون ، ولا سيما في عصر تقشت فيه المنكرات ، وفستد المقائد ، وذاعت البدع حتى طفت على السنن ، يرى الله أولئك الدعاة أن من واجبه أن يفظنوا لهذه السنن ، ويعلموا أنهم ورثة الأنبياء في الدعوة ، وقد نالهم من جرائها ما نالهم مما اضطرم إلى الهجرة من بلادهم ، وفرارهم بدينهم وعقيدتهم ، وأن عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى الله تعالى متخليين بأخلاقهم ، متأدين بأدابهم : « خُذِ الْقَوَاعِدَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » (١٩٩) وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَمِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ غَنِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طُغْيَانٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) (١) يُطْلَعُنَا اللَّهُ بِسِيرَةِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ عَلَى تَارِيخِ الْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ ، ويرينا أن ذلك التاريخ حافل بالمعظات والمبر ، وأنه لا غنى لمصلح أيا كان إصلاحه عن فهم ذلك التاريخ ، والوقوف على ما كان يعترض الإصلاح من عراقيل . وما يوضع في سبيله من عقبات ، ومن أى الطبقات كانت هذه العقبات ؟ وما الذى كان يحملهم على وضعها في طريق المصلح ؟ ولماذا لم تكن طبيعة الناس جميعهم واحدة حيال الدعوة إلى الإصلاح ؟

إن المصلح إذا قرأ دعوة الرسل إلى أقوامهم ، وما لاقاه كل رسول من جراء هذه الدعوة ، وقف على الشيء الكثير من أخلاق البشر في بداوتهم وتحضرهم . وعرف ما لا يقف عند حد من طبائعهم وعاداتهم ، وبذلك يستطيع أن يسير في إصلاحه على هدى ، ويمد له من المدد والقوى ما ينبغى أن يمد ، لأن نفوس المفسدين في كل زمان متقاربة ، ووسائلهم في عمارية الحق متشابهة . واضرب لهم مثلا ما قاله الملأ المستكبر من قوم نوح له عند دعوته لهم إلى الله تعالى ، ووازن بينه ، وبين ما يقوله غلاة المستعمرين اليوم للزعماء السياسيين ، تجد قوم نوح

يقولون له : « مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتَيْتَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ » (٢٧) «^(١) . والأراذل : هم فقراء النوم ، وأصحاب المهن الحقيرة فيهم ، كالعمال في وقتنا هذا ، وما الفرق بين هذه الكلمة ، وبين ما يقال للزعماء اليوم ، في سبيل الغرض من زعامتهم ، والتهوين لأمرهم ؟ لأن حزبهم من الفقراء ، وأصحاب الجلايلب الزرقاء ، وايسوا من أصحاب العقول الراجحة ، والمصالح الحقيقية . لو عرف الناس ذلك لعلموا أن أساليب المفسدين هي أساليبهم في كل زمان ، وأن نفوسهم هي هي نفوسهم ، فإن التاريخ دائماً يعيد نفسه .

لو عرف المصلح السياسى أن تحزيب الأمة ، وجعلها شيعاً تتقاتل في سبيل حزبيتهما ، وتنسى بذلك التحزب . مصالحها ورافقتها - هوسنة عدوا لله فرعون ، القدوة السيئة في الاستبداد ، والمثل الواضح في الظلم والظلم - لو عرف الناس ذلك لعلموا أن هذه الوسيلة هي التي يلجأ إليها الغاصب في تثبيت قدمه ، وعكيز سياسته ، يخلق في الأمة الأحزاب ، ويفذى فيها معنى الحزبية بأساليبه الشيطانية ، ثم يطلب منها بعد ذلك أن تتحد إذا هي طلبت إليه مصلحة من مصالحها ، فيعلمها على محال ، إذ الحزبية لا يمكن أن تزول ما دامت الأمة الغاصبة باسطة سلطانها ، فانها على حساب الحزبية تعيش . وبواسطتها تصل إلى ما تريد .

فرعون قد فتح هذا الباب للغاصيين ، وسنّ لهم هذه السنة ، بل هو عمودهم الفقرى ، ورهبهم الأعلى ، على عليهم من وجيه الشيطاني ما يستبيحون به ارهاق الناس وإذلالهم : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يُدْعِي أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » (٢٨) «^(٢) . ومثل ثالث نضربه للمصلح السياسى : هو أن طريق النفي للزعماء كان سنة لأقوام الرسل معهم ، وكان الغاصب تلقاه عنهم ، فهذا ملا شعيب المستكبر يقول له : « نَخْرِجُكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَنَتَّوَدُّنَّ

فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كُرْهِينَ «٨٨» (١) . وهؤلاء قوم لوط يتآمرون على إخراجهم وحزبه ، فيقول الله عنهم : « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » «٨٢» (٢) . وحسبك أن الله تعالى يحكى عن الكفار من أقوال الرسل جميعهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعْمَدُنَّ فِي مِلَّتِنَا » «١٣» (٣) . أليس ذلك هو الذى يقوله الناصب للزعماء ؟ وهل للناصبين ملة سوى أن تبقى الناس لهم عبيدا مسخرين ، ويكدون فى بلادهم وهم بخيراتهم يتمتعون ، اذا ظلمهم شكروهم على الظلم ، واذا استبدوهم حمدوم على طريقة الحكم ، هل للناصب مطلب من الزعماء فوق أن لا ترتفع رأس للمطالبة بحق ؟ ولا يصيح انسان فى وجه الظلم والاستبداد .

وكذلك لو رأى المصلح السياسى ماضيه قوم ابراهيم معه ، وقد أقام عليهم الحجة ، وسد عليهم مسالك القول ، ولورأى كيف يلجأون إلى الحديد والنار بعد أن أعوزتهم القوة المنيوية ، يحفرون له خندقا مملوا بالنار لالقاءه فيه ليستريحوا منه ومن دعوته ، ولورأى ذلك المصلح لعل أنها سنة الله فى المبطلين ، لاغنى لهم عن البطش متى هجزوا عن الحجة .

هذا قليل من كثير مما تضمنته سيرة الرسل من عبر ، وما اشتملت عليه من آيات . لذلك رأيت أن أضع كتابى هذا فى سيرة الرسل معمولا على القرآن الكريم ،

وصيته :

دعوة الرسل إلى الله تعالى

ولقد كنت صاحب فكرة دراسة هذا القسم من التاريخ فى قسم الوعظ والارشاد بالأزهر أيام المشيخة الأولى لأستاذنا المصلح « الشيخ المراغى » ، ومن حسن المصادفة أنى لم أضع مقدمة الكتاب إلا فى عهد مشيخته الثانية التى أرجو له فيها التوفيق والسداد ، وأتمنى له ما يتمناه كل مسلم غيور .

أما الرسل الذين عرضت لسيرتهم فهم فقط الذين لهم دعوة ذات شأن مع أقوامهم في القرآن الكريم ، لأن الغرض الاعتبار بسيرتهم ، وإنما يكمل ذلك في رسول له دعوة طال فيها مع قومه الأخذ والردّ ، وفيها من العظمة وعلو الشأن ما ينفع المصلح ، أو من الآيات الخلقية والعبر ما يقوّى الإرادة ، وينمى داعية الخير ، فنبى الله يوسف عرضت لسيرته في الكتاب على الرغم من أن دعوته في القرآن لا تتجاوز كلمات لصاحبه في السجن ، لأن قصته مع الاخوة ، ومع امرأة العزيز حافلة بالمعاني والعبر .

وقد رأيت أن يكون شرحى لكتاب « دعوة الرسل » متصلاً بالحياة الحاضرة ، وعلى أسلوب جديد ، أصل فيه الماضى من التاريخ بمحاضره جهد الطاقة وأقارب بين المفسدين في عهدى الأولى ، والمفسدين في عهدنا الحاضر ، وإن كان الافساد متفاوتاً ، فأولئك يفسدون على الناس أمر الدين ، وهؤلاء يفسدون على الناس أمر الدنيا .

وقد كانت عُدتى في ذلك الكتاب بعد المراجع التى ينتها في آخره هى التذبر العميق فيما تضمنه القرآن من علوم وعبر ، والامعان فيما عليه الناس من أخلاق وطباع ، وما تملّيه الحوادث الحاضرة من عسف وجور ، وتفاق ورّاء ، وفى اعتقادى أن أصدق تفسير هو الذى يستمدّه صاحبه من الواقع .

وكذلك أعنى كثيراً بتحليل كلمات كل رسول ، وأوازن بينها وبين كلمات خصومه ، وما اشتملت عليه كلمات الرسول من عفة وأدب ، وما يُقابل به من سخف وحق ، وأعلق دائماً على تملق الرسول برّبه ، واعتصامه بخالفه ومولاه ، وأدعو المصلح أن يتأسى بالرسول الذى أكتب عنه فى ذلك الخلق الطيب .

وكذلك أعنى بما انطوت عليه نفوس الرسل من حزم وعزم ، وما تملّك قوام من حب للصالح العام ، وكيف صبروا على ما ينالهم من أذى ، ودأبوا على دعوتهم

واقفين بأن النصر حليفهم ، موطنين نفوسهم على أن العاقبة لهم ، وأنه ينبغي للمصلح أن يكون على الخلق الحميد ، وأن يكون له من الإرادة الحديدية ما لأولئك الرسل ، حتى لا يزيده إيذاء الناس له إلا استمساكا بعبئته ، وثباتاً على عقيدته ورأيه ، وناهيك قول نبي الله يوسف عليه السلام للنسوة اللاتي تأمرن عليه .

« رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) .

كما أهتم كثيراً بربط سيرة الرسل بحال المسلمين اليوم في سياستهم العامة . لأن الدين جاء لاصلاح حال الناس في سياستهم ، كما جاء لاصلاحها في نفوسهم وأخلاقهم ، ومن حاول أن يفهم الدين عارياً عن السياسة العامة فأنما يحاول أن يشطره شطرين ، فيأخذ بعضاً ، ويدع بعضاً .

فلا يجب أن يحذر رجال الوعظ في كتابي هذا ما يشد عزمهم ، وينير قلوبهم ، وأن يحذر فيه رجال السياسة ما يرفع نفوسهم ، ويوجهها للصالح العام ، ويعرفها بالله وسننه في وعده ووعيده ، وعادته مع المصلحين والمفسدين .

لا يجب أن يعرفوا أن لا غنى لهم عن الأخذ من مشكاة الوحي السماوى ، والتضلع من معين المعارف الالهية التى أودعها الله كتابه الحكيم ، حتى يكونوا ساسة علماء ، وقادة حكما ، يبصرهم الله فيصرون ، ويمرهم فيعرفون .

إذا كان من الواجب على الزعماء السياسيين ، وقادة الشعوب ، أن يدرسوا تاريخ النهضات فى الأرض ، ليضموا عقولا إلى عقولهم ، فأولى بهم أن يدرسوا تاريخ الرسل ، وسيرة أول المصلحين فى الأرض من مصدرها الصحيح ، وينبوعها الصافى ، وهو القرآن الكريم . وأنا زعيم بأن دراستهم لتاريخ الرسل ستجعلهم قادة على غلط لم يألوه من قبل ، ثم يكون للمسلمين شأن جديد بعد هذه الزمانة التى

تبنى على سنن حكيمة عادلة، وأخلاق طيبة مرضية، وعقيدة كالجبال ثباتاً ورسوخاً وبذلك يسعدون ويُسعدون أممهم .

لو أن الناس عُثروا بدراسة كتابهم السماوى عنايتهم بكتب الناس لكان لهم شأن غير هذا الشأن، وحال غير ذلك الحال ، ولكن ماذا نصنع ، وقد كتب الله علينا الجحود حتى على رجال المدينة منا ، وقُدر لنا الحرمان ، لطائفة تعدّ نفسها من المتقنين المتملّين .

ويحمل بى وقد وصلت بالقارىء إلى ماوصلت أن أسوق قصة طريفة ، وإن كانت مؤسفة . أبلغنى المرحوم صديقى الشيخ عبد العزيز الخولى أنه تحدث إليه رجل من الذين درسوا دراسة واسعة ، وحصلوا على شهادات عالية ، وأبلغه أنه درس كتباً كثيرة فى الاجتماع ، ولم يعجبه مسلك القرآن الكريم فى مسألة خاصة ، فسأله ماهى ؟ قال : إن القرآن يأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فأسف المرحوم الشيخ الخولى لهذه الجهالة من رجل دارس كهذا ، وقال : كان يحمل بك قبل أن تعيب على القرآن مسلكه فى مسألة عيبتها أن تعطيه من العناية شيئاً مما أعطيته لغيره من الكتب ، ومن المؤسف أن تدرس كل شئ فى موضوعك إلا القرآن . ليس فى القرآن آية بهذا المعنى الذى استشكلته . إنما هو حديث نبوىّ للعلماء كلام طويل فى تأويله وبيان معناه .

فانظروا كيف يصل بنا تناسى القرآن الكريم إلى أى حد ، وكيف يُحرم الرجل ما فى كتاب الله من معارف وعلوم أحوج ما يكون إليها ، لأنه تعود أن يأخذ العلم من كتب وضعها الناس ، لا من كتاب أنزله الله ، ليكون قانوناً عاماً للبشر ، ودستوراً صالحاً لكل زمان ومكان ،

إن الذى يتأمل تاريخ أولئك الرسل الذين عرضت لهم فى كتابى هذا يخدم متواطئين على دعوة الناس إلى التوحيد ، والإيمان بالبعث والجزاء ، والإيمان

بالرسل جميعهم ، لا فرق بين رسول ورسول ، وأن المكذب لرسول من رسل الله تعالى مكذب بالرسل جميعهم ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ » ١٠٥ « (١) . مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولا واحداً هو نبي الله نوح ، ويقول : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ » ١٦٠ « (٢) . وكذلك يقول في عاد ، ونرى القرآن الكريم قد أهدر إيمان الرجل إذا هو فرق في الإيمان بين رسول ورسول : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » ١٥٠ « أولئك هم الكافرون حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » ١٥١ « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » ١٥٢ « (٣) .

وكذلك كانت دعوتهم أساسها العمل الصالح ، والخلق الطيب .
على هذه الأصول اتفقت دعوتهم ، واجتمعت كلمتهم ، وبذلك كانت الشرائع متحدة في أصولها ، وإن تفاوتت في مشاربها وأساليبها .

ترى الرسل دائماً يذكرون أقوامهم بماضيتهم معهم ، وأنهم لم يمشوا فيهم جبارين ، بل مبشرين ومنذرين ، أمناً ، ناصحين ، لا يبتغون من دعوتهم سوى إرضائهم لربهم ، وإسعادهم لشعوبهم ، لا ينتظرون منهم أجراً على دعوتهم ، بل ينتظرونه من الذي فطرهم ، مؤمنين بأحقية ما يقولون ، وجدير بقوم ذلك حالهم ، وهذا ماضيتهم ، أن يسمع الناس لهم .

إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على اتقاقهم على أولئك الأصول يُنبئون عناية خاصة بالأمراض التي تحيق بأقوامهم ، فتجد نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام يهتم كثيراً للتوحيد ، ومخافة الشرك ، حتى ليخيل لمن يقرأ قصته

في القرآن الكريم أنه لم يُبعث إلا بالتوحيد ، لنفسي الوثنية في عهده ، وفتنة الناس بالأسنام في مدته ، ولذلك اشتهر بأنه شيخ الموحدين .

وتجد نبيّ الله لوطا يُعنى بمحاربة الفاحشة التي فشت في قومه ، حتى ألفها الناس ، وأصبح التنزه منها جرما يستحق عليه صاحبه النفي والتغريب ، وذلك منتهى الفساد الخلقي ، والنزول عن مستوى الانسانية . ألا ترى إلى القوم يقولون في شأن لوط وحزبه : « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِغُونَ » (١) وتجد نبيّ الله شعيبا يدعو القوم بعد توحيد الله تعالى إلى أن يوفوا الكيل ، ويزنوا بالقسطاس المستقيم لأن مرض النش والتدليس كان شائعا فيهم .

وترى نبي الله موسى يُعنى باتقاذ بني إسرائيل من مغالب فرعون ، ويعمل على إحباط ظلمه ، ومحاربة طغيانه ، ويَجِدُ في تربية العزة والكرامة في نفوس القوم ، لأنهم ألفوا الذل زمنا طويلا .

كل ذلك لنفهم أن المصلح دائما يجعل همه محاربة المرض الموجود ، وإذا كان هناك أمراض عمد إلى أفتكها بالنفوس ، وأضرها على الخلق والنفس ، كالطبيب إذا عرض عليه رجل عنده أمراض ليس في استطاعته أن يعالجها دفعة ، فانه يبدأ بأهمها خطرا .

وطريقتي في كتاب : « دعوة الرسل » أن أستعرض فصوص الرسول في القرآن كله ، وقد لا أترك منها إلا ما يتشابه مع ما أذكره من القصص تشابها كاملا ، ثم أبدأ بالقصة مرتبة على نظام القرآن الكريم ، وأعقب القصة من كل سورة بالشرح والتعليق ، وإذا طالت القصة من السورة الواحدة جعلتها قطعا ، وعقب كل قطعة بشرحا ، والتعليق عليها .

وكذلك التزمت أن أجعل كل رسول حيث وضعه التاريخ ، فأبدأ مثلا بنبيّ الله نوح ، وأعقبه بنبيّ الله هود ، ثم بنبيّ الله صالح . ثم بنبيّ الله إبراهيم ، ثم بنبيّ

الله لوط ، ثم شعيب ، ثم يوسف ، ثم موسى وهارون ، ثم داود وسليمان ، ثم عيسى
ثم نبينا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ورأيت أن يكون تعليق على القصة بعيداً عن الاصطلاحات العلمية ، حتى
يكون سهل التناول ، ميسراً على من يريده من المشتغلين بالعلم وغير المشتغلين ، وأن
يكون الشرح والتعليق على هيئة فقرات مُرقّمة بأرقام متسلسلة ، كل فقرة تتعلق
بناحية خاصة في الآية .

كما قصدت أن يكون شرحي بعيداً عن الإسرائيليات التي تعود المفسرون أن
يشحنوا بها الكتب ، ويعلثوا بها أدمنة القارئ .

فقد أصيب الدين فيما أصيب بالأحاديث التي وضعت على رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأخذها العامة ديناً ، وبما خُشيت به كتب التفسير من إسرائيليات
نقلها فريق من اليهود بقصد افساد دين المسلمين عليهم ، كالقصة التي ينسبونها
زوراً لنبي الله داود مع أحد قوّاده .

وإذا كان العلماء قد وضعوا قوانين بها عرف الموضوع من الصحيح ،
واستطاعوا أن يقاوموا الأحاديث الموضوعة بمض المقاومة : فإن ماشُحت به بعض
كتب التفسير من الإسرائيليات لا يزال الناس تقاسي آلامه ، ويجد المفسر من
العناء في تفنيده . وإقامة الأدلة على بطلانه ما يجد .

من أجل ذلك قصدت أن يكون تعليق على الآية بعيداً كل البعد عن الروايات
صحيحها وضعفها ، لأن فهم الآية لا يتوقف عليها ، وأن يكون شرحي للقصة متمشياً
مع سياق الآية ، ومتفقاً والأصول العامة للدين ، مسائراً لما ينبغي لرسول الله من
عصمة ، لا ثقاً بما أعده الله لهم من زعامة ، وما هيأه لهم من منصب .

وتجدني دائماً في تعليق على قصص الأنبياء أعول على ما قرره العلماء من
أصول صحيحة ، فأرجع في التراجع عند التعارض إلى قاعدة علماء الجرح والتعديل ،

فإذا ورد حديث ظاهره طعن في عصمة رسول من الرسل . رجعت بالقارىء إلى ما اتفق عليه العلماء من أن عصمة الأنبياء وردت من طريق قطعى ، فلا ينطلمها من طريق ظنى ، وخذ مثلاً لذلك قول الله تعالى في نبيه إبراهيم : « وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا » (٤١) . وما رواه بعض المحدثين من حديث « كذب إبراهيم ثلاث كذبات » فماذا نصنع في التوفيق بين الحديث والآية ؟ لا شئ ! أكثر مما قرره العلماء ، من أن الآية أقوى من الحديث فتقدم عليه ، ومن أجل ذلك يُردّ الحديث ، وتمجنى كلمة للفخر الرازى « إذا دار الأمر بين كذب الراوى وكذب الرسول وجب أن نعلم إلى كذب الراوى » .

يمثل هذه القاعدة يمكن إبطال كثير من الاسرائيليات ، ويمثل هذه القاعدة تستطيع أن تدفع عن عصمة الأنبياء ما ورد عليها من شبه وشكوك .

وسترى عند الكلام عن سيرة كل رسول ما يحلى لك ناحية العظمة والخلق المتين فيه ، وأن القرآن الكريم أحسن معبر عن سيرة الرسل الطيبة متى فهم فهمًا مرضيًا ، ويجرد عن كل ما أحاط به بعض المفسرين من اسرائيليات .

(وأول) رسول عرضت لقصته نبى الله نوح عليه السلام : عرضت لها في سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، والمؤمنون ، والشعراء ، وسورة نوح .

وأول شئ يلفت نظرك في هذه القصة صبر نوح على الدعوة ذلك الوقت الطويل الذى يحدثنا الله عنه في قوله : « فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » (١٤) . فليعتبر بذلك الدعاة الذين تغلب على قلوبهم اليأس ، ليعتبروا بذلك الصبر الحارق ، وتلك الارادة الحديدية ، ولولم يكن لنوح من الآيات الخلقية سوى هذه الآية لكفته دليلًا على تأييد من ربه ، وصدقه في دعوته ، دع أدبه مع قومه ، وتوكله على مولاه . وقد أنزل فيه مع قومه سورة كاملة تمثل لك كيف يكون الجلود على الباطل ، والدفاع عن الشرك . وكيف استباح نوح بدنه أن

لبث فيهم ذلك الوقت الطويل أن يدعو عليهم بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا » (١) .

(الثاني) نبى الله هود عليه السلام : وقد عرضت لقصته في سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والذي تراه جديداً في قصة هود أن يُذكر قومه أن الله جعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح ، وزادهم في الخلق بسطة ، وأنه ينبغي لهم أن يذكروا هذه النعم ليصلوا بها إلى مُسديها ، وأُمرهم باستنفاذ الله والتوبة إليه ، ليرسل السماء مدراراً عليهم ، ويزيدهم قوة إلى قوتهم ، فيؤمنوه بأن بعض آلهتهم مسه بسوء ، ومن أجل ذلك يحقرهم ، فيشهد الله ويشهدهم أنه برى من شركهم وآلهتهم ، ثم يذكركم بنعم الله عليهم في رفع البناء الشامخ ، للأغراض صحيحة ، ومنافع تعود عليهم بالخير ، بل للعبث واللاهو ، ويذكركم أن من خلّقههم أنهم إذا بطشوا بالضعيف بطشوا جبارين ، كغلاة المستعمرين في كل زمان ، فيقولون له : « سَوَاءَ عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ » (١٣٦) . « إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » (١٣٧) (٢) .

(الثالث) نبى الله صالح : عرضت له في سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والنمل . وأظهر شئاً في دعوته الناقاة ، وتحذير الله لهم أن يعسها أحد بسوء لافى شربها ولافى جسمها ، وأن أولئك القوم عقروا الناقاة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بما يعدم به من عذاب الله إن كان صادقا ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا جاثين على ركبهم .

ومن مواطن العبرة في القصة أن الذى عقر الناقاة واحد منهم ، ولكن القوم كانوا راضين عن عمله ، فنسب العثر لهم ، وعهم الله بمذابه ، ليرينا أن الناس إذا لم يأخذوا على يد الظالم عهم الله بمذاب من عنده : « وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاسَةً » وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) (٣) .

(الرابع) نبي الله إبراهيم عليه السلام : وقد عرضت لدعوته في سورة البقرة ، والأنعام ، وسورة إبراهيم ، والنحل ، ومريم ، والأنبياء ، والشعراء ، والصفافات ، والمنتحنة ، ويمتاز إبراهيم بالتمام الكلمات التي ابتلاه الله بها ، وبشارة الله له أن يحمله إماماً للناس ، وبدعوته الحكيمة الموافقة للسنن الإلهية ، وبنائه البيت هو وولده اسماعيل ، وتطهيره من الأرجاس الحسية والمعنوية .

كما يمتاز بإيتاء الله له الحجة ، وأدبه مع أبيه في دعوته إلى الله تعالى ، وكرامته للأصنام ، مما اضطر الباطنيين أن ياجأوا معه إلى الحديد والنار ، حينما أعوزتهم الحجة ، كما يمتاز إبراهيم بقصة ابتلاء الله له بذبح ولده ، واستسلامهما لله تعالى ، مما يدل على علو منزلتهما ، وأنها قدوة صالحة في التضحية ونكران الذات ، وناهيك قول الله في شأنه : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » (١٢٠) .

(الخامس) نبي الله لوط عليه السلام : وقد عرضت لقصته في الأعراف ، وهود . والشعراء ، والمنكبوت ، نهى لوط عليه السلام قومه عن الفاحشة المعروفة ، وأرأهم أنها جناية على الفطرة . وإذلال للرجال بكسر ما فهم من إيا . وشتم . وتمطيل للنسل ، ومفسدة للنساء بتمريضهن للزنا ، كما أرأهم مسرفون بذلك العمل . متجاوزون للحدود ، وقد هدّوده بإخراجه من بلده إن لم يرجع عن دعوته ، وقد كان عاقبة أمرهم أن أخذهم الله بمذابه ، وأنجى لوطاً وأهله .

(السادس) نبي الله يوسف عليه السلام : وقد عرضنا لقصته من سورة يوسف ، وإياها من قصة ، فيها من الآيات والعبر ما لا يقف عند حد ، وقد أخذت قسطاً كبيراً من الكتاب ، شملت منه ثمانين صفحة لو طبعت على حدة لسكانت رسالة . افتتحت القصة بالكلام على القصص ومعناه وأغراض الناس منه ، ثم برؤيا يوسف ، وبحث طويل في الرؤى والأحلام ، وآراء العلماء اسلاميين وغير اسلاميين فيها وفي تعليلها ، وفي أصول التأويل ، ثم تأمراخوة يوسف عليه

وإلقائه في الحبّ، وكيف أوصله الله بتديره ولطفه إلى أكبر بيت في مصر هو بيت العزيز .

ومن أهم ما في القصة فتنة امرأة العزيز به ، وراودتها إياه عن نفسه ، وردم عليها باباء وشعم ، شأن من أعدّه الله لمنصب الرسالة وهياً لزمامة الناس ، وقوله : « مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » (١) « وبيان أن الهمم الذي حصل من امرأة العزيز لم يتناسب مع شهوتها وجهلها ، أما ثم يوسف فهو ثم بالخلاص منها ، وقد سخر الله له العزيز في الوقت الذي استحكم فيه الخلاف ، شأنه مع أحبابه وأوليائه يجعل لهم من كل ضيق مخلصاً ، ومن كل ثم فرجاً ، ثم شهد الله له بأنه من عباده المخلصين ، وشهدت له امرأة العزيز بأنها راودته فاستعصم ، ثم عرضت لقصته في السجن ، وامتناعه على الملك بعد أن طلبه إلا أن تظهر براءته ، وذلك صبر خارق ، وانتهاء القصة بشهادة امرأة العزيز مرة ثانية ، وشهادة النسوة اللاتي قطعن أيديهن بأنهنّ ما علمن عليه من سوء .

ومن أهم ما في القصة أن الملك طلبه ليكون بطانة خالصة له بعد تجربة دامت سنين ، وقال له : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » وأن نبى الله يوسف طلب منه أن يجعله وزيراً لمالية الدولة ، وعلل ذلك بقوله : « إِنِّي حَفِظْتُ عَلَىٰ مِثْلٍ » يعلم الملك كيف يختار الوزراء من ذوى الخلق والعلم ، وأن الخلق أول شئ يجب أن يحرص عليه الملوك في اختيار الوزراء ، وتبع ذلك بحث طويل في بطانة الملوك ، وأثرها في سعادة الأمم وشقاؤها .

ولو أن ملوك المساميين تأسوا بذلك الملك ، فاحتضنوا التابه الأمين من الأمة لكان لهم ولأمتهم حال غير هذه الحال .

(السابع) نبي الله شعيب عليه السلام : وقد عرضت لدعوته في سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، وأظهر شيء فيها دعوته إلى الصدق في البيع والشراء وما إلى ذلك ، وأن قومه هددوه إن لم يرجع عن دعوته أن يخرجوه والذين معه من بلده ، فيقول لهم شعيب : « أُولَئِكَ كُنَّا لَمُكْرِهِينَ » (١) ثم يؤيِّسهم من هذه العودة ، ويريهم أن ذلك لم يكن شأن الرسول الذي يدعو الناس إلى الحق فيقول : « قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَمُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتُخَيِّبُنَا وَنَحْنُ قَوْمٌ مَنَافِقُونَ » (٢) وأنت خير الفاتحين (٣) .
وأن قومه أخذوا يتكلمون به ، ويسخرون من عبادته : ويقولون له : « مَا تَقْصُفُهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » (٤)

فردد عليهم نبي الله شعيب بقوله : « يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخِذُوا مَوْءِدَ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » (٥) وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ يُعْمَلُ مِنْ يَدَيْهِ عَذَابٌ مُّخْزٍ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ قَرِيبٌ » (٦) .

(الثامن والتاسع) نبي الله موسى وأخوه هرون عليهما السلام ، عرضت لقصتهما في المائدة ، والأعراف ، ويونس ، وإبراهيم ، وطه ، والمؤمنون ، والشعراء ، والنمل ، والقصص ، وغافر ، والدخان ، والنازعات ، وهذه السيرة لها شأن عظيم في القرآن ، ولهذا أطلال فيها إطالة لا تكاد تجددها في غيرها من السِّير ، ولا عجب فهي قصة الاستبداد المقتنع ، والظلم الصارخ ، والطفيان البالغ متناه ، هي قصة الخروج على دساتير العدل ، وقوانين الفطرة ، وحرمة الانسانية ، وجدير

بالإنسان أن يتقف على هذه القصة العجيبة، قصة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، جدير به أن يعرف كيف نشأ ذلك الظلم ، ولماذا أقدم فرعون عليه ، وأن يعرف كيف كانت عاقبة الظالمين .

علمنا الله في هذه القصة أن فرعون استخفّ قومه فأطاعوه ، فكان منه ما كان من عسف وجور ، وأن كل ظالم شأنه شأن فرعون ، متى وجد بطانة تحببه في الظلم وتعينه عليه - عظم أمره ، وانتشر شره : « فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ » (١) .

كما يرينا أن عاقبة الظلم الهلاك الدائم ، والتنكيل بالظالمين . عرضت هذه القصة لمهمة نبي الله موسى وأخيه هرون ، وبألها من مهمة شاقة ، تتعلقها بفرعون الطاغية ، ولأن بنى إسرائيل قوم ألقوا النذل ، ووطنوا أنفسهم على الاستعباد ، فترية العزة والكرامة في نفوسهم أشقّ شئ ، على المصلح . كما عرضت فيها للسحر وأنواعه ، وكيف أن الملأ من قوم فرعون كان يغريه بنى الله موسى وأخيه هرون ويريه أنهما يريدان مسكالا رسالة ، وتلك الأمن دسيسة تموّد الناس أن يتقدموا بها للملوك .

وناهيك بقصة السحرة الذين حشرهم فرعون ليتغلبوا على موسى ، وما في هذه القصة من عبر ، وكيف أن الحق استولى عليهم ؟ فلم يحفلوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ويصاحبهم في جذوع النخل ، لتفهم أن الحق متى وصل إلى النفوس لا تستطيع قوة في الأرض أن تقاومه ، كما عرضت للحديث السامري ، وصنعه العجل الذي عبده بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه ، ودعوة موسى المستجابة على فرعون وقومه أن يطمس على أموالهم . ويشدّ على قلوبهم ، وأن إيمان فرعون عند وقوع الهلاك به لم ينجه ، لأنه إيمان المضطرّ ، وكيف

طمأن الله موسى عند تخوفه من فرعون ، وطلب من الله تعالى أن يعينه بأخيه هرون ، وفيها بحث عن وزارة الرسل ، والغاية منها ، والفرق بينها وبين الوزارات المدنية اليوم .

كما عرضت لجبروت فرعون وعلوه في الأرض ، وجملة أهلها شيعاً وأحزاباً ، يستعين ببعضهم على بعض . ووعده الله للمستضعفين أن يمكنهم في الأرض ، وقصة تربية موسى في بيت فرعون ، وقتله للتبطين خطأ ، وقصة زواجه ، ووعظ مؤمن آل فرعون ، وما فيه من عبر ، ولا تنس اقتتان فرعون بملكه ، وقوله : « أَلْبَسَ لِي مَلَكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (٥١) .
ولو كان الملوك عقولاً لاعتبروا بفرعون وملكه ، وعرفوا أن الاستبداد ما كان يوماً طريقاً لعمارة الأرض ، والاحتفاظ بالعروش .

وختمت القصة بقطعة من سورة النازعات جمعت أصول ما تفرق في السور من سيرة فرعون ، لنلفت النظر إلى إعجاز القرآن في إطنابه ، وإيجازه ، بأسلوبه القاهر ، وبيانه الأخاذ .

وجملة القول أن قصة نبي الله موسى وأخيه هرون مع فرعون : هي قصة حافلة بالعظات ، غاصة بالعبر ، فيها من الدروس النافعة ما لا يستغنى عنه مصلح ، ولا سيما إذا كان مصلحاً سياسياً ، ولذلك أطال القرآن الكريم فيها ، وقد شغلت من كتابي هذا مائة صفحة وستاً ، ولو شئت أن أزيد في بسطها أقملت ، ولكنني خشيت الملل ، فوقفت عند هذا الحد .

(المآثر والحادى عشر) نبيا الله داود وولده سليمان عليهما السلام : عرضت لقصتهما في سورة البقرة ، والأنبياء ، والنمل ، وسبأ ، وسورة ص . وإنك لترى في قصة هذين الرسولين من عظمة الملك ، واتساع السلطان ما يبهز نفسك ، وترى

بجانب هذه العظمة شكرا لله تعالى واعترافا بإحسانه ، نجد لنبي الله داود قصة تتجلى فيها شجاعته ، كما تجد نعمة الله على سليمان وأبيه بالحكم والعلم على تفاوت بينهما ، ونعمته على داود بصناعة دروع الحرب ، وتسخير الريح والشياطين لسليمان ، وتعليم الله له منطق الطير ، وقصة ملكة سبأ ، ونقل عرشها ، وتسخير الجبال والطير ، وإلانة الحديد لداود ، وإسالة معدن النحاس ، وكذلك قصة موت سليمان ، وقصة الخضم والمحراب ، وفتنة داود وسليمان ، وإلقاء جسد على كرسيه ، كما عرضت في هذه القصة للاقتضاء ، وما يجب أن يكون عليه ، وكيف أن الهوى قد استولى على الناس فأفسد عليهم كل شيء .

(الثاني عشر) نبي الله عيسى عليه السلام : عرضت لقصته في سورة آل عمران ، والمائدة ، ومريم ، والزخرف ، والحديد ، والصف . وأهم شيء فيها بعد : بيان آياته على الصدق ، وقصة ولادته المخارقة . فتنة الناس به وبأمه ، وبرأتهما من عبادة الناس لهما ، ودعوة عيسى الناس إلى التوحيد ، شأن عباد الله المقرئين ، وحسبنا أن الله يقول في عيسى وأمه « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » (٧٥) . ويقول : « إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عِبَادٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ » (٥٩) .

كما عرضت في قصته للرأفة والرحمة التي جعلها الله في قلوب أتباعه . وأن أوائك المستعمرين الجبارين ليسوا من أتباع المسيح في شيء .

(الثالث عشر) نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : وحسبها أنها الدعوة الباقية إلى قيام الساعة ، والمتفقة في أصولها العامة ، والأزمنة المقبلة ، والملائمة لرشد الناس وثقافتهم التي أعدهم الله لها في قرونهم الأخيرة .

وقد أردت أن أصور للناس الأسس التي قامت عليها الدعوة . في مرحلتها بمكة

والمدينة ، وأريهم الفرق بين القسم المكي من القرآن ، والمدني منه ، وأن المكي كان يدور حول الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وحول توحيده في الألوهية والربوبية والدعوة إلى العمل الصالح والأخلاق الطيبة . وعرضت لطوائف من آي القرآن الكريم في هذه الأصول ، وتجدد من بين هذه الطوائف جدل الناس في الرسالة ، وكيف أن القرآن الكريم دفع هذه الشبه حتى قامت حجته على العصاة والمكابرين ؟ كما تجدد قسم كبيراً من آي القرآن في الأخلاق والعمل الصالح .

وكذلك عرضت في هذا القسم لوظيفة الرسول ، وأنها التبشير والانتذار ، والقدوة الصالحة ، والسيرة المرضية ، كما عرضت لتربية الله له ، وإعداده لمنصب الرسالة ، وكان من تربيته إياه أن قص عليه من سيرة الماضين ما فيه العبرة ، ولاغنى لواعظ أو مصلح عن دراسة ذلك النوع من الآيات .

وكذلك عرضت لتعنت المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإحراجهم باقتراح الآيات ، وتبئيس الله إياه من إيمانهم لأنهم معاندون ، والمعاند لا يقنع بشئ ، وتسليية الله له على ما لقي من المشركين من شدة ، وما قاسى من ألم ، وأن ذلك شأن الناس مع المصلحين .

تلك هي الأصول التي كان يدور عليها التشريع بمكة ، وهي لا تعدو العقائد ، والأخلاق ، والدعوة إلى العمل الصالح ، لم يفرض الله تعالى من العبادات بمكة سوى الصلاة ، فرضها في السلم والحرب ، والسفر والاقامة .

أما دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقد كان فيها التشريع الديني والمدني والسياسي والاجتماعي ، ولم يعن القرآن الكريم بالعقائد فيها إلا في محاجته لليهود والنصارى في شأن عيسى وأمه ، والعزير ، وسبب ذلك فتنة فريق من الناس بهم .

ومن أمّ مآشرعه الله في المدينة القتال ، وقد عرضنا له ، وجمعنا كثيراً من آى القرآن الكريم فيه ، لثرى القارى لما ذا شرع القتال ؟ وآنه لم يكن لا كراه الناس على الدين ، بل كان لحماية الدعوة والداعى ، حتى يكون الناس آمنين على دينهم وعقائدهم ، ثم عرضنا لآيات الله فى التحريض على القتال ، وسلوكه طرائق عجيبه فى تهيج النفوس .

وكذلك عرضت فى هذه الدعوة لمسألة الايمان ، والكفر ، والنفاق ، وإن الناس كانوا ولا يزالون حيال كل إصلاح أقسام ثلاثة : فريق يناصر المصلح ظاهراً وباطناً ، وهو المؤمن ، وفريق يعاديه سراً وعلانية ، وهو الكافر ، وفريق ثالث يوارب ويداجى ، وهو المنافق ، فيناصره ظاهراً ، ويحاربه باطناً .

ثم عرضت لمخائص المؤمنين والآيات فيهم ، ولخصائص الكافرين كذلك فقد يظن الرجل نفسه مؤمناً ، وهو كافر فى واقع الأمر ، وقد يزعم أنه من المؤمنين مع أنه من المنافقين ، وجدير بالمؤمن أن يعم النظر فى آيات الله فى المؤمنين ، وآياته فى الكافرين .

وكذلك عرضت لآيات القرآن الكريم فى المنافقين ، وذكرت منها قسماً كبيراً ، وختمت ذلك القسم بسورة المنافقين ، ذلك أن المنافقين شر مستطير على الإصلاح فى كل زمان ، وما من إصلاح فى الأرض سوا ، كان دينياً أم سياسياً أم خلقياً أم اقتصادياً إلا ولهم فى إفساده ضلع كبير .

ثم عرضت بعد سوق الآيات فى المنافقين إلى : « كبريات العبر فى المنافقين » أبنت فيها ما تقاسيه من آثار النفاق والمنافقين ، ثم أخذت من آى القرآن الكريم ثلاثة عشر خلقاً من أخلاق المنافقين ، تجد فيها بحثاً مستفيضاً فى الأخلاق والاجتماع ، والسياسة ، وكيف أن كثيراً من أصحاب هذه الأخلاق كان شراً على إصلاحنا السياسى والعلمى ، بل كان شراً على كل شىء .

أطلت في هذا القسم من أمراض الأمة لأن مصيبتنا به كبيرة، وشقاءنا به عظيم .
ثم عرضت لأشهر الغزوات : غزوة بدر الكبرى ، وغزوة أحد ، وغزوة
الخنديق ، من طريق القرآن الكريم . لأرى القارئ كيف يكون فهمه للحوادث
وانتفاعه بالعبر .

ثم تكلمت على الزكاة ، وبيان حكمتها . وأنها صلة بين الغنى والفقير ، وطهرة
لنفوس الأغنياء من مرض الشح الذي هو خطر داهم على مصالح الأمة ومرافقتها ،
وكذلك عرضت للصيام وحكمته ، وتيسير الله إياه على عباده باسقاطه عن أصحاب
الأعذار والمشتقات .

وعرضت للحج وفائدته الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والخلقية ،
ولأصول المعاملات العادلة ، ونظام البيوت والأسر ، ونظام التورث المبني على
الحكمة والعدل ، وللحكومة في الإسلام أساسها الشورى .

وختمت الدعوة ببيان المقبولات في الإسلام ، ووجه الحاجة إليها من
قصاص ، وحدّ لقاطع الطريق ، وللسارق ، والزانى ، والقاذف ، وأن ذلك كله
مقتضى الحكمة .

تلك هي : « دعوة الرسل إلى الله تعالى » أولهم نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد
صلى الله عليه وسلم ، كلها هدى وخير ، وحكمة وعبرة ، وعظة وتذكير .

« وَكَلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَ لَكَ فِي هَذِهِ
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » (١٢٠) (١) م

محمد أحمد العدوى

دعوة نوح

إلى الله تعالى

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «٥٩» قَالَ الْمَلَأُ^(١) مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ
فِي سَلَالٍ مُبِينٍ «٦٠» قَالَ يٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ «٦١» أَتَبْلُغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ «٦٢» أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ
لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «٦٣» فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ
فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ «٦٤» الأعراف

شرح وعبرة

(١) لقد كان أول شيء بدأ به نبي الله نوح عليه السلام قومه أن دعاهم الى عبادة الله وحده . وسرى ذلك في دعوى غيره كهود وشعب وصالح وغيرهم من الرسل عليهم السلام . ولا عجب ، فان الدعوة الى التوحيد هي أساس كل رسالة ، وقد بذلوا في سبيل التوحيد أكثر وقتهم ، وخطروا بهمجهم وأرواحهم . يتجلى ذلك في سيرة نبي الله ابراهيم ، وما لاقاه من قومه عبدة الأوثان ، ولم يشأ نبي الله نوح أن يدعو قومه الى التوحيد دعوة خالصة من تخوفهم من عذاب الله وبطشه ، فقال بلسان اختلاف المشفق (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وهو يوم القيامة أو اليوم الذي ينزل عليهم فيه عذاب العصيان والمخافة في الدنيا وهو الطوفان .

كيف كان جواب قومه ؟

(قال الملأ من قومه إنا لنراك في سلال مبين) لم يكن هذا جواب قومه عامة . وإنما هو جواب «الأشراف والسادة» الذين امتلات قلوبهم بحب الجاه والسمعة والرياسة والاستئثار ،

[١] الأشراف والسادة يجمعون على رأى فيلأون البيروا رواه ومنظرا ، والنفوس بهاء وجلالا «عين» جمع عى ، والمراد بهم فاقسو البعيرة .

وهم المترفون الذين قال الله فيهم (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون «٣٤» وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين «٣٥» (١) . يسبحان الله إن الذين يسمون أنفسهم الأشراف والسادة هم عقبة الإصلاح منذ نشأ العالم، وهم الذين يحسدون كلّ داع إلى خير، ويقفون حجر عثرة في سبيل دعوته .

ألا ترى ذلك [الملا] من الأشراف والسادة يقول لنبى الله هود عليه السلام (إنا لئراك في سفاعة وإنا نظنك من الكاذبين «٦٦» (٢) وكذلك الملا من قوم صالح يقول للمؤمنين منهم (أتعلمون أن صالحاً مرسلاً من ربّه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون «٧٥» قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون «٧٦» (٣) . ثم ألا ترى ما يحكيه الله لنا عن شعيب وقومه إذ يقول : (قال الملا الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعودن في ملتنا قال أولوكننا كارهين «٨٨» (٤) تلك آثار الأشراف والسادة ، وهذه أعمالهم مع الرسل وأئمة الإصلاح .

(٢) أما جبهة الشعب الذين سلت قلوبهم من الضغن ، وطهرت من الحسد فهم أتباع الرسل في كلّ زمان ، وهم أنصار كلّ داع إلى الحق ، وحسبك في فهم هذه السنة أن تعرف أن هرقل وهو يسأل أبا سفيان عن محمد بن عبد الله قال له « فأشراف الناس يتبعونه أم ضغناؤهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضغناؤهم ، فقال له هرقل كذلك أنبأ الرسل » رواه البخارى .

وحسبك أن تعرف أن صناديد قريش هم الذين ناصبوا الرسول صلى الله عليه وسلم العداوة ، وقبلوا له الأمور ، ومكروا به ، ولكن مكر الله كان فوق مكروهم ، وتديبره قضى على تديبرهم ، ولم يستقرّ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن نكل الله بهم ، فبهم من قبل بأحد وببدر ، ومنهم من خذل ، وهنالك استقرت الدعوة وظهر أمر الله وهم كارهون .

(٣) وتأمل كيف يسرف الملا من قوم نوح في الطعن عليه والزراية به فيقول بصفة المؤكد (إنا لئراك في ضلال ميين) ولينهم وقفوا عند رميّه بالضلال ، بل أرادوا أن يفهموه أن ضلاله جدّ واضح يستطيع كلّ أحد أن يقينه ، فيقول نبى الله لهم : يا قوم ليس في شيء من الضلال ولكنى رسول من الله المربى لأجسام العالم بالنم ، ولأرواحه بالشرائع ، بأبائكم وأمرته ونواحيه ومواعظه وزواجه ، وأحفص لكم النصح ، وأعلم من أمر الله مالا تعلمونه ، فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة ، وبطشه بأعدائه ما جهلتم ، وأعلم أن بأسه لا يردّ عن القوم المجرمين . ثم أراد أن يريهم أنه لم يكن موضع عجب ودهشة أن يجيئهم وعظ على لسان رجل منهم ليخوفهم عذاب الله ، وليتقوا عزمه ، وليبشروهم لرحمة الله ورضوانه ، فإذا كان من قومه بعد هذا الردّ المتواضع والنصح الخالص لم يكن منهم سوى التكذيب ، فأنجى الله نوحاً ومن معه في السفينة من الطوفان ، وأغرق المكذبين ، وعلل ذلك بقوله (أنهم كانوا قوماً عَمِينَ) عن الحق ، متغافلين عن الحجة ، وقوم هذا حالهم يستحقون من عذاب الله ما حلّ بهم . وفي القصة من العبر مقابلة السفه بالحلم . رموه بالضلال فكان ردة عليهم أنه ليس به ضلال ، ولكنه رسول من الله ، فكان موقفه موقف المدافع عن

نفسه وأن رميه بالضلال لم يوغر صدره من جهتهم ، بل أخذ ينصحهم ويخوفهم ويربهم أن عليه واجبا : هو تبليغ رسالات الله ، وليس من شأن الداعي الى الله أن يصرفه عن دعوته ما يسمعه من قول محض ، أو لفظ منفر . واغرق المكذبين ، ونجاة الرسل ، وأنباع الرسل ، وتعليل ذلك بهماهم عن الحق .

نوح عليه السلام

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ ^(١) عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجِئُوا أُنْزُكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أُنْزُكُكُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَةٌ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ «٧١» فَإِنِ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أُجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٧٢» فَكَذَّبُوهُ فَتَبَّعْتُهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَكِّرِينَ «٧٣» يوس

شرح وعبرة

(١) يأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يتلو على قومه قصة نوح وهو يقول يا قوم إن كان قد قتل عليكم إقامتي فيكم زمانا طويلا ، وتذكيري لكم بآيات الله فلاتم دعوتي ، فاني متوكل فيها على ربي الذي أرسلني ، وهو الذي يؤيدني وينصرتي فأجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله ، ثم لا يكن أمركم الذي تعظمونه خفيا فيه شيء من الحيرة واللبس الذي يقتضي التردد في اتخاذ ، ثم أخذوا الى ذلك الأمر بعد اجماعه واعتزاه ، ولا يمهلون بتأخير هذا القضاء ، فان انصرفتم عنى فلاحكم لكم في ذلك الاعراض ، لآتي مأسأتكم على هذا الذكير أجرا ومكافأة ، وإنما أطلب الأجور من ربي الذي أرسلني ، وقد أسمت أن أكون من المذنبين لما أدعوكم إليه ، أسلمتم أم كفرتم ؟ (وما أريد أن أخالفكم الى ما أسألكم عنه) فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام لهم الحجة بقوله وعمله على حجة دعواه ، فأنجاه الله ومن معه في ذلك ، وجعلهم خلافت من المكذبين ، وأغرق المكذبين بآيانه ، فانظر كيف كان عاقبة الذين خوفوا من عذاب الله فأصروا على تكذيبه .

(٢) وفي القصة من العبر أنه إذا سئم المدعوتون من طول مدة الدعوة فليس للداعي أن يسأم ،

[١] عظم وشق « غمى » قيام ومكث بين أظهركم « فأجمعوا أمركم وشركاءكم » من أجمع الأمور نواه ونزاع عليه ، والواو بمعنى مع « نعمة » ستر : من غمى ستره « ثم أقضوا إلي » أخذوه « الفلك » السفينة ، ويحتمل في الواحد والجمع « خلافت » يغفلون المهالكين بالفرق .

واعتماد الداعي في دعوته على ربه ، لأن ذلك علاء قلبه شجاعة وأملًا ، واستهانته بكل ما يلاقى في سبيل الدعوة ، ويحص قلبه ، ويرفع منزله ، فهذا نبي الله نوح لا يبالي بتجمع قومه عليه ، واستعانتهم بشركائهم ، ويأمرهم بأن يجمعوا أمرهم ، وينفذوا قضاءهم فيه ، لأنه واثق بأن النصر حليفه ، والعاقبة له ولأنصاره .

يلفتك نبي الله نوح الى مسألة هي جذيرة بالاهتمام : هي أنه ماسأل قومه أجرا على دعوته ، والشأن في كل داع لا يطلب أجرا إلا مرضاة ربه أن يكون مخلصا في دعواه ، وهذه نعمة نسمعها من جمع الرسل ، وهي جذيرة بالعناية ، ومقياس صدق الداعي ، وبرهان أن دعوته تنصل بالقلب والوجدان ، وحسبنا أن الله تعالى يقول (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين « ٢٠ » اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون « ٢١ ») (١) .

لنعرف أن من لا يسأل الأجر على دعواه وهو يعجل بما يدعو الناس إليه هو داعي صدق ، وصاحب عقيدة خالصة ، ومبدأ حتى يقف عند عقيدته ، ويكافح عن مهمته ، ويرحب بكل أذى يناله من ذلك الطريق .

نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتَى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ « ٢٥ » أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ « ٢٦ » فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرِيدُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَبْنِيَ إِلَّا الْدِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَادُوا الرَّاْيَ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ « ٢٧ » قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَا بَيْنُكُمْ مِنْ غَدِهِ فَمِمَّ تَبْتَغُونَ أَنْ تَنْزِلَ مِنْكُمُهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاِرُهُونَ « ٢٨ » وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُثَقُّوَا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَى كُفْرَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ « ٢٩ » وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ « ٣٠ » وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ

[١] يس . [٢] أخسأونا وأدناؤنا الذين ليس لهم رزاة عقل أو أهالة رأى ، جمع أرذل ، وللراد بهم فقراء المؤمنين « بادي الرأي » ظرف لقوله ابتك ، وللراد أنهم اتبعوا من غير روية ونظر « عيت » أخفيت ، وقرئ عيت بالتحفيف : خفيت .

إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ «٣١» قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٣٢» قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا
أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ «٣٣» وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُسْجِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ
اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ^(١) هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٣٤» أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ
قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرَبِّي مِمَّا تَكْفُرُونَ «٣٥» وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ
أَنَّهُ أَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ «٣٦»
وَأَصْحَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَوُونَ «٣٧»
وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ وَلَئِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ «٣٨» فَتَوَفَّ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ «٣٩» حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا
ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ «٤٠» وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ إِيَّاهُ بِسْمِ اللَّهِ يَخْزِيهَا وَتُرْسِيهَا إِنْ رُبِّي
لَنَقُورُ رَحِيمٌ «٤١» وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي
مَنْزِلٍ يَبْنِي أَرَأَيْتُمْ أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ «٤٢» قَالَ سَتَأْبَىٰ إِلَىٰ
جَبَلٍ يَنْصَبُ مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ
يَتْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ «٤٣» وَقِيلَ يَا رَأْسُ ابْنِ مَاءٍ وَبِسْمَاءِ
أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُدْءُ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ «٤٤» وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ

[١] «يُنوِّح» يهتفكم «افتراء» اختلقه «تبتئس» تحزن حزو البائس «بأعيننا» ملحوظا
برابطتنا «التنور» وجه الأرض كما قال : (فتفتح أبواب السماء بماء منهمر «١١» ويطرأ الأرض عيوناً
فالتقى الماء على أمر قد قدر «١٢») القمر . «استوت» استقرت «الجودي» جبل في نواحي ديار
بكر من بلاد الجزيرة .

وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ «٤٥» قَالَ يُونُسُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ «٤٦» قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحْمَتِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ «٤٧» قِيلَ يُونُسُ أَهْبِطْ بِسَلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ يَحْيِيَنَّ مَعَكَ وَأُمَمٍ سَنَسْتَعْتِبُهُمْ ثُمَّ يَخْمِسُهُمْ مِنَّا عَذَابُ الْإِلَهِ «٤٨» تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ «٤٩» هود

شرح وعبرة

(١) يرى قوم نوح أن نوحا بشر مثلهم يأكل مما يأكلون منه و يشرب مما يشربون ، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون رسولا ، وهذه الشبهة هي التي قالها أقوام الرسل حينما دعواهم الى الله . ألا ترى الى قول الله تعالى في سورة الأنبياء (اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون «١» ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون «٢» لاهية قلوبهم وأسروا السجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفأناتون السحر وأنتم تبصرون «٣») وقد رد الله على هذه الشبهة بقوله (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون «٧» وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين «٨») وقال في سورة الفرقان (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتنبهون وكان ربك بصيرا «٣») وفي سورة إبراهيم (قالوا إن أئمت إلا بشر مثلكم تريدون أن تصدقونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين «١٠» قالت لهم رسالهم ان نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يختار من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون «١١») فالآيات المذكورة ترينا أن البشرية لاتنافي الرسالة . ولما منع من أن يمتدح الله على بعض البشر فيختاره لتلك المنصب الجليل ، ويصطفيه للوحي ينزل عليه ويبلغه للناس ، ولله در بعض المفسرين إذ يقول [ما أعجب شأن أهل الضلال لم يرضوا للنسوة بشر ورضوا للألوهية بحجر] .

(٢) ان أتباعه من أراذل القوم وأدنانهم منزلة ، كأصحاب المهن الحقيرة من الصناعات والحمال ، ولو كانت دعوته حقة كان أتباعه من أصحاب العقول الراجعة ، والرأى الواسع ، وذوى المكانة الذين يتبعونه عن بحث واقتناع ، أما أراذل القوم فيتبعونه [بآدى الأذى] بدون روية ولا نظر . ويصح أن يكون قعر بر الشبهة على وجه آخر ففسره القصة في سورة الشعراء (قالوا أتؤمنن لك واتبعك الأراذلون «١١١») يريدون أن لا يبنين أن يتبعك وقد اتبعك سفلة القوم وقراؤهم ،

ولا يصح لنا - مع ما نحن فيه من القوة والغنى - أن نكون قرناء لأولئك الأزدلين فيجمعنا معهم دين واحد ، وملة واحدة ، وسواء جرينا على الوجه الأول أو الوجه الثاني فاتباع الأزدلين لنبي الله نوح ذنب له وسيئة من سيئاته ، فيعتبر نبي الله لهم بأن لا يستطيع أن يعطى المؤمنين لبساطة عقولهم ، أو دناءة مهنتهم ، ويقول خصومه من الذين ينصره من عذاب الله إذا هو طردهم عن مجلسه ؟ وأبعدهم من عطفه . وما دام صاحب مبدأ وعقيدة فهو يرحب بكل من يمتنق ذلك المبدأ أيما كانت مهنته . ولو كانوا من أهل العلم ما عابوا على نوح أن يقبعه الفقراء والضعفاء لأنهم أتباع الرسل في كل زمان ومكان ، ولكنهم قوم يجهلون سنة الله في ذلك ، كما يجهلون أن نوحا عليه السلام جاء برسالة من ربه ، ويهيم أن تبلغ الناس ، ما لوكلهم وسوقهم ، أغنياءهم وقرناءهم ، ولا يستطيع أن يحتقر مؤمنا لفقره أو يقدس غنيا لفناؤه . تلك هي شبهة قوم نوح على نوح ، وذلك هو ذنبه عند خصومه وأعدائه . وقد يحجل إليك وأنت تقرأ هذه الشبهة أن المستعمرين إبلاد المسلمين وصنائع المستعمرين ، قد تمكنت تلك الشبهة من نفوسهم ، وتغلقت في أحشائهم ، فأخذوا يدفعون بها في صدور الزعماء ، الذين يطالبونهم بالجلاد ، ويوهمون الناس أنهم لا يعترفون بزعامتهم ، ولا ينصاعون لرغباتهم ، إلا حيث التفت حولهم عليه القوم وأشرف الناس ، وأصحاب المصالح في البلاد . أما الزعماء الذين يؤيدهم سواد الأمة ، والرعايا منها ، وأصحاب المهن الحرة كالعمال وأرباب الصناعات فلا يقيم زعامتهم وزن ، ولا يعمل لها حساب ، يريدون بذلك الفرض من قيمة الزعماء ، والتخلص من طائهم ، وتجهيزهم عن الاضطلاع بمهمتهم ، ومنهين للحصول على غايتهم ، وهم يعملون أن انصياع الأشراف والسادة لهم ضرب من المحال ، لأنهم جدد حريصين على مصالحهم ، يدأبون لقضاء حاجتهم ، والبقاء على ثروتهم ، فلا يستطيعون أن يعرضوا أنفسهم لسطخ المستعمرين وأصحاب النفوذ وال سلطان ، يقول المستعمرون ذلك لزعماء الأمة ، وفي الوقت نفسه يعترفون من قرارة قلوبهم أن أولئك [الأزدلين] أو رعايا الناس وغوغاءهم هم الشر المستطير على المستعمر ، وهم الذين يقضون مضجعه ، ولا يستطيع أن يجد إلى إرضائهم سبيلا ، وآية ذلك أنه يعمل لهم ألق حساب وحساب في بلاده ، وكثيرا ما زلزلوا عروشاً ، وأظلموا دولا ، وألقوا على حسابهم وزاراب يولونها الثقة ، ويناقشونها الحساب .

أولئك هم الذين سماهم قوم نوح [الأزدلين] ويعيرون نوحا لأن توابعه منهم ، وأولئك هم [الرعايا] الذين يعيرون الزعماء بأصاحتهم لدعوتهم وانصياعهم لمبادئهم ، وأولئك هم الضعفاء أتباع الرسل في كل زمان ومكان كما قال هرقل لأبي سفيان حين سأله أيقبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ، قال : كذلك أتباع الرسل . وأولئك هم المساكين الذين قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم « اللهم أحيني مسكينا وتوفني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين » (١) .

(٣) يقول قوم نوح له ولأتباعه (وإما ترى لكم علينا من فضل) يجعلكم أهلا للرسالة وزعامة الناس في الدين ، وعقبوا ذلك بقولهم (بل نطعنكم كاذبين) وقد اقتصرنا في نسبة الكذب إلى نبي الله نوح فلم يقطعوا به حتى لا ينسبوا إلى المجازفة ، فيجيبهم نبي الله بقوله (يا قوم أرايتم إن كنت

على بيته من ربى وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم) يطلب قومه أن يخبروه إذا كان على برهان من ربه ، ويزقه النبوة بلا كسب منه ولا تعب ، وقد خفي عليهم ذلك وجهاده ، فإذا يصنع معهم ؟ وماذا يفعل بهم ؟ أيلزمهم الاهتداء بالنبوة ، ويلجئهم الى الاعتراف بها ، وهم لها كارهون لا يختارونها ، ولا يتأملون فيها ؟ لا يكون ذلك ، لأنه لا إكراه في الدين ، ولا سبيل الى وصول الدين الى النفوس الا بالقلب على الداعي ، وعنايتهم بالنسوة ، وتفهيمها من طريقها الصحيح ، ثم ينفهم الى أنه لم يقل ان عنده خزائن الله ، أو إنه يعلم الغيب ، أو يقول إنه ملك فيدعى أنه يفضلهم في شيء من ذلك ، ولا يحكم على من استردلوا من المؤمنين انفرهم أن الله لن يؤتيهم خيرا لو انهم عليه ، ولو قال ذلك لكان ظلما ، لأن الله أعلم بما في أنفسهم فيحاسبهم عليه ، ويجزيهم بما نكته صدورهم و يصح أن يراهم أنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلا من له فضل على سائر الناس ، فأخبروني ان استردت عنكم بحجارة فضيلة من ربى ، وآتاني بحسبها نبوة من عنده ، غفيت عليكم تلك المزية ، ولم تنالوها ، ولم تعلموا حيازتي لها ، أنزلكم قبول نبوتي التابعة لها ، والحال أنكم كارهون لذلك ؟ رسوا فهمنا هذا أو ذاك فهو جواب على قولهم (وما نرى لكم علينا من فضل) يجعل نوحا أهلا للرسالة وزعامة الناس في الدين ، وحسه أن يقيم البراهين على صدقه في دعوته ، وحقية ما يقول ولذلك خلص من ذلك القول الى دلائل الصدق فقال (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا) والشأن فحين لا يسأل الناس مالا على قبول دعوته ، وأن يعمل بما يدعو الناس اليه ، أن يكون صادقا فيما يقول مخلصا فيما يدعى .

(٤) (أم يقولون افتراء قل إن افتريته فعلى إجرأى وأنا برى مما تجرمون) يقول قوم نوح له انه افتري على الله الكذب ، واختلق هذه الدعوى ، فردد عليهم بالمنطق ويقول : ان كنتم صادقين في أنني اختلقته ، وجئت به من قبل نفسي ، فعلى عقاب جرمي ، وان كنت صادقا وكذبتوني فعلى عقاب ذلك التكذيب ، ومن ايجاز القرآن أن يحذف هذه البقية لأن الكلام دال عليها ، وهو كقوله في سورة الأحقاف (أم يقولون افتراء قل ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم «٨»).

(٥) بعد أن أقام نوح على قومه الحججة ، وشرح لهم وظيفة الرسول ، قال له قومه (يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) استجلبوا عذاب الله ، وطلبوا منه الآيات التي تخضع لها أعناقهم ، وتذل لها نفوسهم ، وجعلوا وقوع هذه الآيات أمارة صدقه ، ودليل نبوته ، فأخبرهم أن الاتيان بالآيات شأن من شئون الله ، يأتي بها ان شاء ، ويؤخرها متى شاء ، وسواء أتى الله بالآيات أو أخرها فلستم بمجزيين له في الأرض ، وأراهم أن نصحه لهم لا يجدى إذا كان الله قد طمس على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهداية بما كسبتهم أيديهم و بأعراضهم عن الحق .

(٦) بعد ذلك أوحى الله الى نوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فلا تحزن لعملهم وأمره بصناعة الفلك تحت رعايته وبواسطة إلهامه ، ونهاه أن يخطب في شأن من شئون الظالمين ، لأنه حقت عليهم كلمة العذاب ، واستأهلوا العرق ، فلم يكن من نوح إلا امتثال أمر ربه ، فأخذني

صناعة الفلك (وكلمة عليه ملا من قومه سخروا منه) فيقول لهم (إن تسخروا منا فاما نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) يريد به عذاب الفرق .
وهنا ينبغي أن نقف وقفة لها مغزاها عند قوله (عذاب يخزيه) لئله القارئ الى أن من العذاب ما هو مشرف لذات العذاب ، رافع له فوق الهامات ، كالعذاب الذى يحل بالرسول عند قيامهم بواجبهم ، وعذاب الصالحين وأرباب المبادئ الحقبة حينما يدعون الناس الى عقائدهم ، فأولئك عذابهم مرة على الأجسام ، وحلوا على القلوب ، عذابهم رفع لرجائهم ، وتمحيص لنفوسهم ، وهذا عذاب المجاهدين فى سبيل الله ، والمقاتلين لاعلاء كلمته ، يتقدم اليه المؤمنون ، ويسارع اليه المحضون ، لآلأنه حلوا مذاق ، لذيق النعم ، بل لأن من ورثه من النعم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ذلك هو العذاب العذب ، الذى يجعل صاحبه مثلاً كاملاً فى الفضيلة ونكران الذات .

أما عذاب أعداء الحق ، وحزب الشيطان ، وأنصار الشهوة والهوى ، فذلك هو العذاب الذى يخزي صاحبه ، ويضج من وقع به ، ذلك هو عذاب أعداء الرسل وخصوم الحق .

(٧) بعد أن قضى الأمر ، وحل بالقوم من الفرق ماحل ، قال الله للأرض ابلعى ماءك ، وللهما أقامى عن المطر ، فلم يكن منهما سوى الطاعة والرضا ، ففاض الماء ، واستقرت السفينة بن فيها على الجبل المسبى بالجودى ، (وقيل بعدا) وطردا (للقوم الظالمين) هنالك نادى نوح ربه وقال رب إن ابني من أهلى ، وقد أغرقته فيمن غرق ، وقد وعدتني أن تنجى أهلى ، فما بال ولدى ؟ فرد الله عليه رد القوى القاهرة (يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) تأمل ذلك الحكم العادل الذى فرق بين نوح وبين فلذة كبده ، فجعل ولده فى جلة المالكين ، وجعل نوحا فى عداد المرسلين المجاهدين ، وإنها عبرة كبرى ، وآية عظيمة ، أن يكون الوالد فى ناحية ، والمولود فى ناحية أخرى ، الوالد فى عداد الناجين ، والولد فى جلة المالكين ، لأن الولد عمل غير صالح ، ولعل فى هذه القصة عبرة لمن يعتمدون على أنسابهم ، ويتكلمون على غير عملهم ، وينسون قول الله تعالى (أم لم ينأ بما فى صحف موسى «٣٦» وإبراهيم الذى وفى «٣٧» أن لاتزوروا زورا أخرى «٣٨» وأن ليس للانسان الاماسى «٣٩» وأن سمع سوف يرى «٤٠» ثم يجزاه الجزاء الآوفى «٤١»^(١)) .

(٨) (تلك من أبناء القيب نوحها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للثقين) يرينا الله بهذه الآيات أن قصة نوح مع قومه من أخبار القيب أوحاها الله الى محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا ، وهى من دلائل نبوته ، ثم يختم القصة بأمره محمدا بالصبر كما صبر نوح على قومه ، فإن العاقبة ستكون له كما كانت لنوح من قبله ، فإن سنة الله أنها تكون للثقين ، يمكن لهم فى الأرض ، ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين وما أحوج الداعى الى الصبر والثبات على الدعوة ، وعدم تسرب اليأس الى نفسه .

نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ ﴿٢٤﴾ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمرُنَا وَقَارَ النَّفُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ انْزِلْنِي مُنزَلًا مُبْرَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ المؤمنون

شرح وعبرة

(١) يطالب نبي الله نوح قومه بعبادة الله وحده في رفق ولين فيقابلهم الملا للستكبر مقابلة منكورة، ويرمونه بأنه لا يريد بهذه الدعوة إلا أن يفضل على الناس ويرأسهم، لأنه بشر بماتل الناس، وليس له مزية عليهم بها يكون رسولا وهي الفرية التي قالها فرعون لني الله موسى وأخيه هارون (قالوا أجمعنا لتفتننا عما وجدنا عليه آباءنا ونكون لكما الكبراء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين «٧٨».) (٢) وقد سبق الرد على شبهة أن نوحا بشر في القصة من سورة هود، أما أن نوحا يريد أن يفضل الناس ويرأسهم فذلك خلق الأشراف والسادة الذين يريدون أن يتعبدوا الناس، أما الرسل الذين يعملون في حنايا دعوتهم أن كل الناس لآدم، وآدم من تراب، وأنه لأفضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، فلاحظ لهم من هذه الفرية، لافي قليل ولا كثير، وفي المثل العربي [رمتني بدائها وانسلت] الرسل لم يريدوا أن يتفضلوا على الناس، ولكن عقبة أمرهم أن يكونوا قادة، وأئمة اصلاح، يلتف الناس حولهم، ويتبرمون خطاهم، وذلك مايجته

[١] يرأسهم « تربعوا » انتظروا « حتى حين » الى زمان ينتجى فيه أمره « بأعيننا » بمقتنا وكلاءنا « النور » وجه الأرض « آيات » عبر « مبتلين » مصيبين قوم نوح بلاء عظيم، أو مختبرين المباد بهذه الآيات لتنظر من يعبر بها ومن لا يعبر . [٢] يونس .

المستكبرون وعباد الشهرة على أنفسهم ، فهم يعلمون أن الرسل ما أرادوا التفضل على الناس ، ولكنهم تضطربهم مهمتهم التي كلفوا بها من الله - وهي خلافتهم في عمارة الأرض والاصلاح فيها - أن يكونوا سادة الأمم ، حاملين لواء الحق ، مكافئين عن بيضة الدين ، قدوة صالحة ، ومثلا عالية في الخلق والفضيلة ، وانها لعاقبة ما أشدها على المستكبرين الذين لم يريدوا أن يفصلوا الناس بعلم أو عمل ، وإنما يريدون أن تكون لهم العظمة والعزة لأنهم من البيوتات الكبيرة ، وأصحاب الثروة الطائلة ، فنتى الله نوح عليه السلام لم يرد أن يتفضل على الناس ، ولم يحظر له ذلك الخطر على بال ، وإنما أراد أن يبلغ رسالات ربه ، ويقوم بما أوجبه الله عليه ، فادا عت له أن يفضل الناس فأنما يريد أن يفضلهم في أداء الواجب ، والاضطلاع بمهام الرسالة ، والصبر على الابداء ، والاحتمال في ذلك السبيل ، مما يجعل مضر الأمثال في الخلق الطيب ، والسيرة المرضية ، ذلك هو الذي يريد أن يفضل الناس به ، وأن الذي يريد أن يفضل الناس في العلم والعمل ، ويواصل الليل بالنهار ليعمل الى ذلك الغرض ، هو رجل على الهمة ، كبير النفس ، شريف الغاية ، أما رجل يريد أن يتفضل بدون فضل ، ويمتاز بلا ميزة ، فذلك ما عتته الدين ، ولا يرضى عنه خلق ، ولا يستسيغه عقل ، وهو ما ينبغي أن يحارب من خلق المستكبرين والمتعاضمين .

(٢) يقول الملائكة من قوم نوح (ولو شاء الله لأزل ملائكة) يريدون لو شاء الله أن تكون هناك رسالة في الأرض لجعلها في الملائكة ، وبذلك تكون هذا الجاية متممة لقوله (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) أو أرادوا لو شاء الله أن يدل على رسالته لأزل ملائكة يشهدون له بالرسالة ، ويعترفون له بالصدق ، ومثله في سورة الفرقان (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا «٧»).

وقد ردت الله تعالى على الشبهة بشقها في سورة الأنعام (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون «٨» ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون «٩») والمراد أن الله تعالى لو أنزل معه ملكا يصدق ، وأجابهم الى ما اقترحوه من الآيات لقضى الأمر باهلاكهم ، ثم لا يؤخرون ليؤمنوا ، بل يأخذهم العذاب عاجلا ، أو لقضى الأمر بقيام الساعة ، وفي معنى هذا قول الله تعالى في سورة الحجر (لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين «٧») ما نزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين «٨») أى لم يكن من شأن الله أن ينزل الملائكة إلا نزولا ملتبسا بالحق وهو الرسالة للرسل ، أو العذاب للأمم المعاندين لهم ، وكذلك قول الله تعالى في سورة الفرقان (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا «٢١» يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ^(١) «٢٢»).

أما الشق الأول من الشبهة فقد ردت الله عليه بقوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون «٩») فالجعل الرسول ملكا لجعل الملك متمثلا في صورة البشر ليحكمهم رؤيته ، وسماع كلامه الذي يبلغه عن الله تعالى ، ولو جعله ملكا في صورة البشر لاعتقدوا أنه بشر ، لأنهم

[١] عن كلمة استعانة ، وكان المعنى أسأل الله أن يحجر ذلك حجرا ، ويمنه منها .

لا يدركون إلا صورته البشرية التي تمثل بها ، وحينئذ يتعون في اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكارهم جعل الرسول بشرا ، ولا ينفكون يقرحون جعله ملكا .

(٣) يقول قوم نوح (ما سمعنا بهذا في آياتنا الأوليان) ما سمعنا بنوح أو بدعوة نوح في آياتنا الأوليان ، وهو يدل على أنهم قوم كانوا في فترة متطاولة ، وأهم لما لم يهتدوا إلى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب بأنفسهم ، رجعوا إلى الآباء ، شأن الضعيف الذي لا يثق بنفسه ، ويعيش على حساب غيره ، شأنه إذا خز في عنقه الدليل ، وسد عليه البرهان الطرق أن يرجع إلى الآباء فيتمسح بها ، وإلى الأوليان فيتحكم فيهم ، ذلك إذا كانوا صادقين في تحريم هذه الشهية ، وارتبا بهم لتلك التقليد ، أما إذا كانوا متعنتين مع الرسل ، مشاقين لهم ، متقايين عليهم ما يعتقدون أنهم برآء منه ، فسأهم في ذلك الاعان أعظم ، واجترأهم على ذلك التخلص أشد وأنكى ، ولم لا يكون هذا أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى الحق ؟ وقد سمحوا لأنفسهم أن يصنوه بالجنون ، وهم يعلمون أنه من أرجح الناس عقلا ، وأوزنهم قولا ، وصموه بتلك الوصمة وقالوا في شأنه (إن هو إلا رجل به جنة فتر بصوا به حتى حين) عليه بطول الزمن يثيق من جنونه ، وينجلي أمره ، وهي فرية قيلت لجلب الرسل ، ألا ترى إلى قول الله تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون «٥٢» أتواصوا به بل هم قوم طاغون «٥٣» ^(١)) كأن بعضهم كان يوصى بها البعض الآخر ، ولا عجب فنفوس المستكبرين متشابهة ، وشهواتهم متفتحة ، فلا عجب أن تكون آثارهم في محاربة الحق قد تشابهت ، وكلماتهم في الطعن على المصلحين قد تقاربت ، فيقولون لمحمد صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين زل عليه الذكر انك لمجنون «٦٥» ^(٢)) ويقال له في التسلية (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم «٦٣» ^(٣)) فيكون رده على ذلك الطعن البسدى ، والاعتداء الصارخ ، أن يلجأ إلى ربه ، فيطلب منه النصر على خصومه ، فيقول (رب انصرني بما كذبون) أبدلني من غم تكذيبهم لى سلة النصر عليهم ، فيجيب الله دعوته ، ويوحى إليه أن يصنع الفلك التي فيها نجاة نوح ومن تابعه ، ويأمره أن يحمل فيها ما يحتاجه لحياته وأهله سوى من حقت عليه كلة العذاب ، ثم ينهاه أن يخاطبه في شأن الظالمين ، وأن يحمده ربه على نجاته منهم حينما يستقر هو ومن معه على الفلك ، ليستشعر فضل ربه عليه ، ومقدار عنايته بالمصلحين ، وتنكيله بالظالمين ، كما يطلب منه أن ينزله منزلا يبارك له فيه . وأنه خير المنزلين .

(٤) ولقد كانت آخر كلمات هذه القصة (ان في ذلك آيات وان كنا لمبتلين) ليرينا أن في هذه القصة ، قصة نوح عليه السلام مع قومه عبرا عظيمة ، تفيد المؤمن وتنفع الهادي (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون «١١١» ^(٤)) في هذه القصة نزاهة القول ، ومقابلة السيئة بالحسن ، واللاجوء إلى الله تعالى عند الشدة ، وخذلان الله للفسدين ، ونصره للمصلحين وتعليم نبي الله نوح كيف يدعو ربه ، ويحمده على نعمه . في هذه القصة هذه الآيات والعبر ، وفيها :

ابتلاء قومه ببلاء عظيم ، وعقاب شديد ، وابتلاء العباد بهذه الآيات ، لينظر من الذي يعتبر ويدكر كما قال في سورة القمر (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) جعلنا الله من المدكرين بآياته المنتفعين بظنانه .

نوح عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ «١٠٥» إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ «١٠٦» إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ «١٠٧» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا «١٠٨» وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَزْتُ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ «١٠٩» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا «١١٠» قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ^(١) «١١١» قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَسْأَلُونَ «١١٢» إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ «١١٣» وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ «١١٤» إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ «١١٥» قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهُ يَنْبُوحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ «١١٦» قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ «١١٧» فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «١١٨» فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِ الْمَشْحُونِ «١١٩» ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَقِيَّةِ «١٢٠» إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٢١» وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٢٢» الشعراء

شرح وعبرة

(١) يطالب نبي الله نوح كعادته في رفق ولين قومه بالتحقوى ، ويريهم أنه كان ولا يزال معروفا بالأمانة فيهم ، كمحمد صلى الله عليه وسلم في قريش ، وما كان له أن يدع الكذب على الناس ثم يستبيح لنفسه أن يكذب على الله ، يذكرهم بمخاضيه معهم ، عليهم يقدرون قيمة ذلك ، وهو رسول أمين بمعنى أنه ناصح لهم ، فهو أمين في رسالته ، ليس له أن يخون في شيء منها ، فيبلغها لهم كاملة غير منقوصة ، وهي أمانة الله عنده لا يستطيع أن يبدل فيها أو يغير ، كما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ^(٢))

[١] سبق شرحها عند الكلام على النسخة من سورة هود ، ونريد هنا أن ابن عباس فسرهم بالطاقة من الناس ، وقيل هم أصحاب الصناعات الدينية كمنح الثياب والكفة ، وإجماع استدلهم فقرهم وقلة نصيبهم من الدنيا « فاتح » أحكم والفتح الحاكم لأنه يفتح المستغلق كما سمي قيصلا لأنه يفصل بين الخصومات « المشحون » للملوء . [٢] للامة .

وهي من الصفات التي اتصف بها جميع الرسل ، وما دام نوح رسولا من عند الله ، أمينا على رسالته ، فينبغي أن يتلقوها بالقبول ويأخذوها بالرضا ، ثم كرر أمر قومه بالتقوى والطاعة ، وعقب ذلك بما يرشدهم إلى أماته وصدقه ، إذ يقول (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين) وعقب ذلك بطلب التقوى والطاعة ، شأن المهمم المعنى ، المتخفى في نجاح مهمته ، والحصول على غايته ، ، فإذا كان منهم بعد هذا التلطف ، وماذا أجابوا به بعد تكرار الطلب ؟ كان منهم بعد ذلك أن قالوا .

(٢) (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) فلا يليق بهم [وهم من عليبة القوم وسادتهم] أن ينفادوا لنوح وقد اتبعه سفلة القوم وضعفاؤهم ، وأصحاب العقول الصغيرة ، والمهن الحقةرة ، وابن السادة من العبيد ، وخاصة الناس من عامتهم وسوقتهم ، وكيف يليق في حكم التقاليد أن يجمعنا بهم مجلس ، أو تربطنا بهم رابطة ؟ وهم على ما نعرف من الضعة والفقر ، ونحن على ما نرون من العظمة والجاه ، وكيف تنفق الديوقراطية بأوسع معانيها ، والاستقراطية بأخص أوصافها ، وابن المثقفون وأصحاب العقل الراجح من السذج البسطاء الذين آمنوا بك [بادي الأمر] بدون روية ولا نظر ، فيقول لهم نبي الله نوح (وما علمي بما كانوا يعملون « ١١٢ ») إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون « ١١٣ » وما أنا بطارد المؤمنين « ١١٤ » ان أنا إلا نذير مبين « ١١٥ ») حاسبوه على سذاجتهم ، وأنهم لم يؤمنوا عن روية وعقل ، فقال وأى شيء يعالني إليهم وخائرتهم ، ومحاسبهم في ذلك إلا على ربى لأعلى ، فالتة محاسبهم ومجازيرهم ، وما أنا إلا منذرلو تشعرون ذلك ماوجههم الى لوما ، ولكنكم تجهلون ، ونساقون مع الجهل حيث سيركم ، وكأنه يلفتهم بذلك الى انكار أن يسمى المؤمن [أرذلا] وان كان أفقر الناس ، وأوضعهم نسبا ، فان الشيء غنى الدين والخلق ، والنسب نسب التقوى (وما أنا بطارد المؤمنين « ١١٤ ») ارضاء لشهواتكم ، وقطييبا لنفوسكم (إن أنا إلا نذير مبين « ١١٥ ») أخوفكم عذاب الله وأقيم حجته على العصاة وأرباب الشهوات ، بطريقين بين واضح ، فيقولون له :

(٣) لئن لم فتنه بآنوح لتكونن من المرجومين « ١١٦ ») آخرسهم في كناية القوم ، ولجأوا الى القوة بعد أن أعوزتهم الحجة ، يذكرهم بماضيه معهم ، وانه كان ولا يزال أمينا ، فلا يجديهم ذلك التذكير ، ينههم الى أنه لم يطلب منهم أجرا ولا مالا ، وهو أسبقهم الى ما يطلبهم به ، أبدهم عما ينههم عنه ، فلا يتفهم ذلك التنبية .

يعتدرون عن قبول دعوته بضعة أتباعه وقتورهم ، فيبرهم أنه رسول لا يستطيع أن يطرد مؤمنا لفقره ، ولا أن يقبل كافرا لغناه ، وأنه لا يشق عن قلوب الناس ، ليعرف من آمن عن اقتناع ومن آمن بدون نظر ورؤية ، فلا تنفعهم المناقشة ، ويقولون له (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين « ٣٣ » ^(١)) فيبرهم أن الاتيان بالآيات لم يكن من شأنه ، وإنما هو شأن من شئنون الله تعالى يأتي به متى شاء ، يسلك بهم كل أولئك المسالك ، ويترقى بهم الى حد كبير ، فينهى بهم الأمر أن يهددوه بالرجم بالحجارة ، والهجوم الى الحديد

والنار ، وهى حجة القوّة الفاشقة . لم يكن من نبيّ الله نوح بعد أن أعذرا إلى قومه ، و بشر وأنذر إلا أن يرجع إلى ربه ويطلب منه أن يفتح بينه وبينهم فتحا لاستغلاق بعده ، ويحكم له حكما يكون فيه النصر لعباد الله الصالحين ، والخذل لأعدائه المستكبرين ، وملهو إلا أن أجاب الله دعوته ، فأنجاه ومن معه في تلك المشحون ، وأغرق الظالمين المعتدين ، وهى عبرة ما أبودها على قلوب المؤمنين (ثم تنجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا تنج المؤمنين (١٠٣)) (١) .

نوح عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَقْتُواهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُعَذِّبُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ مِرْجَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنْتَبِذَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نِبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ

[١] يونس . [٢] الوقت المصروب لهم والمراد أنهم إذا أطلعوه عليهم ومكنهم من الوقت الذى يعملون فيه فانه اذا جاء الأجل الذى خربه لوظائفهم لا يؤخر « استنشوا » طلبوا أن تغفام وتفطيم « مدارا » كثير الدور « جنات » بساتين « وقارا » تعظيما منه لكم « أطوارا » أطوارا بعد طور وحالا بعد حال « طباقا » بعضها فوق بعض .

يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا «١٨» وَأَنَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بَسَاطًا «١٩»
لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا «٢٠» قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي هُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ
يَزِدَّهُ مَالَهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا «٢١» وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا «٢٢» وَقَالُوا لَا تَنْذِرُنَا
، الْمُهْتَكَمَ وَلَا تَنْذِرُنَا وَدَا وَلَا سَوَاطِنَ وَلَا يَقُوتُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا «٢٣» وَقَدْ أَضَلُّوا
كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا «٢٤» مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمَّ
يُجِدُّوهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا «٢٥» وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مَن
الْكُفْرِينَ ذِيَارًا «٢٦» إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا «٢٧» رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا «٢٨» نوح

شرح وعبرة

(١) يبيننا الله تعالى في هذه السورة الى أن نوحا عليه السلام أُنذر قومه وبشرهم ،
ووعدهم إذا هم أطاعوه أن يضر الله لهم ما فرط من القنوب ، و يؤخرهم في تمكين من الطاعة ،
متمتعين بما سخر الله لهم من خيرات هذه الحياة الى الوقت المضروب لموتهم ، وهو كقوله في
سورة هود (وَأَن اسْتَغْفَرُوا رَبَّكَ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَمْحَكْ مَنَاحِسَهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي
فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ «٣»)

وأراهم أن أجل الله الذي حدده لهلاك الأمم وعقوبتها إذا جاء لا يمكن تأخيرها (ولكل أمة
أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون «٢٤»)^(٢)

وقد تخيّل نوح عليه السلام أنه لو كان قومه يملكون من الله هذه السن في عقوبة الأمم
والشعوب حينما تنفس عن دين الله ، وقصص أمره ونبيه ، ووعدهم كذلك أن يرسل السماء كثرة
المر عليهم ، فينتفضوا بالماء في الشرب والزرع وحياة الحيوان ، ويجعل لهم البساتين والأنهار العذبة
(٢) ثم رجع إليهم بعد ذلك الوعد وقال (مالكم لا ترجون لله وقارا)

يسألهم أي شيء ينعم أن يرجو من الله تعظيما لهم في دار الثواب وقد خلقهم على أطوار
مختلفة ، وحالات متفاوتة ، خلقهم من سلالة من طين ، ثم جعلهم لفظا في قرار مكين ، ثم خلق
اللفظة عاقلة ، خلق اللفظة مضغة ، ثم جعل المضغة عظما ، فكسا العظام لحما ثم أنشأها خلقا آخر

[١] « بساطا » مبسطة يمشون عليها ، كما يطلب الرجل على بساطه « فجاجا » وسعة « كبارا »
مبالغة في الكبر « تنون » تترك « ذيارا » أحدا وهو من الأسماء المستعارة في النحى العام « تبارا »
هلاكا . [٢] الأعراف .

فشق لها أذنا تسمع ، وعينا تبصر ، ولسانا ينطق ، ودماغا يفكر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .
إله هذه الآيات لماذا ينصرف الناس عنه ولا يدينون له بالطاعة ؟

(٣) ثم قصد الى طريق آخر يرغب به في طاعة الله ، والوقوف عند حدوده ، فأخذ يذكرهم بآيات الله في سمائه وأرضه ، وما جعل فيهما من نور القمر وضوء الشمس ، وكيف أنبت الله من الأرض نباتا ، ثم يعيدنا فيها ويخرجنا منها عند البعث إخراجا ، وكيف جعل لنا الأرض باطا ومهدا للزرع والمشي ، لنسلك منها السبل ، ونستخرج منها الزرع ، ونستخلص منها المعادن .

(٤) شكاني الله نوح قومه الى ربه ، وأنه دعاهم ليلا ونهارا ، فلم يردهم دعاؤه إلا فرارا ، وأنه كلما دعاهم سددوا مسامعهم ، وتغطوا ببيابهم ، حتى لا يسمعوا قولا للداخي ولا يهروه ، وأصروا على عنادهم ، واستكبروا على رسولهم ، وقد لوت لهم الدعوة ، وعاوت بين الأساليب ، فرة يخوف ، وأخرى يهين ، ومرة يشد ، وأخرى يلين ، ومرة يهدم بنعم الله ، وأخرى يذكرهم بآياته في الآفاق وفي أنفسهم ، فلم تنفعهم مع ذلك الموعظة ، ولم تقدمهم الذكرى ، ومكروا بدعوته ، وأصروا على عصيانهم ومخالفته ، ووصى بعضهم بعضا بالباطل وقالوا :

(٥) (لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وذا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق وسيرا)

كانت أصناما تعبد لقوم نوح ، نهامهم عن عبادتها ، وواصل الليل بالنهار في تنفيرهم منها ، وبعد الجهد الطويل ، ومئات السنين التي أنفقتها في الدعوة الى عبادة الله وحده ، يوصى بعضهم بعضا أن لا يدعوا هذه الآلهة ، ولا يتركوا أولئك الأصنام ، وقد روى المحدثون وعلماء الأثر أن أولئك الآلهة كانت أسماء لرجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومه أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون اليها أنصابا وصنوها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ، وذابت علامات تلك الصور عبت ، وقد أخذ نبي الله نوح يشكو من أولئك الأصنام ، واضلها للناس ، أو من رؤوس الكفر الذين يتواصون بالباطل .

(٦) بعد أن عيل صبره ، وتفتت جميع أساليبه في الدعوة الى الله ، أخذ يدعو عليهم (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) . (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وعلى ذلك بقوله (إنك إن تفرهم يضاولوا عادك ولا يلدوا إلا جاعرا كفارا) فانهم أئمة الضلال ، ورؤوس الكفر ، وما داموا على ذلك الحال فهم خطر على كل موجد ، وحجر عثرة في سبيل الإصلاح . لذلك دعا الله أن لا يدع على وجه الأرض واحدا منهم ، لأنه ان تركهم أضلوا عبادته ، وان ولدوا نشوا أولادهم على الشرك ، ور بوهم على الكفر ، ثم أخذ يدعو ربه أن يغفر له ولوالديه ، ولمن دخل بيته مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ، وما طلب مغفرة لكافر ولا لمشرك ، وإنما طلبها لنفسه وأقرب به المؤمنين ولمن دخل بيته منهم ، وختم دعاءه بقوله (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) وهلاكا .

(٧) وقد أجل الله في هذه السورة عقوبة قوم نوح على مخالفة أمره ، فقال (عما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا « ٢٥ ») ليربنا أنه غرق سببه الخطيئة ، وأن ذلك العرق الذي حل بهم لم يستطع أحد أن ينقذهم منه

ومن مواطن العبرة في القصة أن الله تعالى يقول فهم (أغرقوا فأدخلوا ناراً) ليرينا أنه ليس بينهم وبين أن يدخلوا نار جهنم سوى فترة قصيرة، وأنه لا غنى لهم عن نار الآخرة بعد أن أخزاهم الله في الدنيا بالفرق ، ففسدوا الدنيا والآخرة بمصيان الله ، كما فاز من فاز بسعادة الدارين بطاعته والوقوف عند حدوده .

دعوة هود

إلى الله تعالى

وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ ^(١) وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ^(٢) فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ ^(٣) اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ^(٤) مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ ^(٥) وَغَضَبٌ أَجْهَدُ لِي فِي أَسْمَاءِ سَيْتِمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا تَزَلِ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاتَّقِظُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ^(٦) الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ الأعراف

[١] خفة الحلم وسخافة العقل . [٢] سعة . [٣] لعمه : جمع إلى كفضل وأضلاع . [٤] ترك .

[٥] عذاب . [٦] استأصلهم .

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أرسل إلى عاد أنهم هودا ، وسماء أنا لهم باعتبار النسب ، كما يقال في أخوة الجنس كله : يا أنا العرب ، فطالبهم بعبادة الله تعالى شأن جميع الرسل ، ثم قال (أولا تتقون) ما يسخط الله تعالى من الشرك والمعاصي ، وهو إنكار من نبي الله هود أن يكون من قومه شرك وعصيان ، بعد أن كان من عقاب الله تعالى لقوم نوح ، وقال في سورة هود (أولا تعقلون) أي أليس عندكم من العقل ما يحول بينكم وبين عصيان الله تعالى والعسوق عن أمره ؟ وغاير بين الأساوين لتتوبع الفائدة ودفع الملل عن القارئ كما هي سنة القرآن في التخصيص .

(٢) قال الملاّ الذين كفروا من قومه إنا لبرك في سناهة وإيا لظنك من الكاذبين (الملاّ الأشراف والسادة ، وقيد الملاّ هنا بذلك الوصف ، وهو الذين كفروا ، دون الملاّ من قوم نوح لأن في أشراف قوم هود من آمن به ، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن ، وبحوه قوله تعالى (وقال الملاّ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة » ٣٣ »)^(١) ويجوز أن يكون وصفا واردا للذم لا غير ، وقد وصفوا نبي الله هودا بأنهم برونه في سفاهة ، وهو أبلغ في الذم من قولهم : نراك قد سدت ، لأنهم أرادوا بالطرفية على سبيل المجاز أنه متمكن فيها ، غير منتهك عنها ، ثم زادوا على ذلك أنهم يظنونه كاذبا في جهة الكاذبين في دعوى الرسالة عن الله تعالى ، وهو يتضمن تكذيب كل رسول ، إذ عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين ، وجعلوا هودا واحدا منهم ، فكان ردّ نبي الله عليهم غاية في الأدب والاعضاء ، إذ ترك متابلتهم بالمثل ، مع علم نبي الله أن خصومه أضلّ الناس وأسنههه ، وفي ذلك من الأدب الحسن ، والخلق العظيم ، ما يتناسب مع مركز الدعوة إلى الله تعالى ، ولإرشاد إلى طريقته ، فأخذ يريه أنه لم يكن به شيء من السفاهة ، ولكنه رسول من رب العالمين . مهمتي أن أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، لأن فيه سعادتكم ، أمين على ما أقول عن الله تعالى ، فاني لا أكذب عليكم حسب ما وعدتكم من سريتي ، فكيف لا أستبجح الكذب عليكم وأستفيحه على ربي عز وجل ؟ (أو يحببهم أن جاءكم ذكر من ربيكم على رجل منك لينذركم) أي أكذبكم ويحببهم أن جاءكم موعظة من ربيكم على لسان رجل منكم ليحذركم عذاب الله ، ثم أخذ يذكر فضل الله عليهم علما يشعرون بذلك الدواع من التذكر ، فأصمهم أن يذكروا في نفوسهم أن الله تعالى جعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح ، وزادهم سعة وبسطة في الخلق ، بسعة الملك والحضارة ، ثم أعاد عليهم أن يذكروا نعم الله عاتمة رجاء أن يفلحوا بذلك الذكر ، وهو يشبه قول نبي الله نوح (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ١٥ » وجعل التمر فيه من نورا وجعل الشمس سراجا ١٦ » والله أنبتكم من الأرض نباتا ١٧ » ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ١٨ ») والله جعل لكم الأرض سباطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا ٢٠ »)^(٢) يلقن لهم الخطاب ، ويتفنن في أساليب الدعوة ، فردّ يخوفهم ، وأخرى يشرهم ، وأحيانا يذكرهم بنعم الله عليهم ، وآونة ينذروهم عذابه وبطشه .

(٣) فكان جوابهم بعد ذلك كله أن قالوا (أجئنا لعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) فأنكروا عليه أن يجيئهم بالتوحيد ، وترك ما كانوا عليه من شرك وأصنام كان يعبدونها الآباء ، ثم قالوا له (فاتقنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) في إذارك ، أو في دعواك أنك رسول من رب العالمين ، فيقول الرسول لهم بعد هذه المقابلة المنكرة ، والتحدى المكشوف ، بلسان الواقع من وعيد ربه ، المطمئن لتصره (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) وذكر العضب بعد الرجس لبيان أن الرجس قد أريد به الانتقام الحتم ، فلا يمكن رفعه ، ونعوذ بالله من رجس معه غضب ، والرجس الذي توعدهم به نبي الله هود هو العذاب الذي بينه الله في سورة القمر إذ يقول (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر «١٨» إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا (١) في يوم نحس مستمر «١٩» تنزع (٢) الناس كأنهم أغبار نخل منقر «٢٠» فكيف كان عذابي ونذر «٢١») ثم قال لهم منكرنا عليهم : انخاصوني في أسماء وضعتموها أنتم وآباؤكم الذين قلدهم على غير علم ولا هدى منكم ، ما أنزل الله بها من حجة ولا سلطان ، فانتظروا نزول العذاب الذي طلبتموه إني معكم من المنتظرين ، فكان عاقبة أمره أن نجاه الله ومن آمن معه رحمة عظيمة من الله تعالى واستأصل أعداءه بريح (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين «٢٥» (٣) .

هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ إِلَّا مَفْزَعُونَ «٥٠» يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ «٥١» وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلَ إِلَيْكُمْ مِّنْ سَمَاءٍ مَّذْرَارًا «٥٢» وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ «٥٣» قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ (٥) وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ «٥٤» إِن تَقُولُ إِلَّا غُرَبًا (٦) بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسْمِ اللَّهِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ «٥٥» مِّنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ «٥٥» إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ «٥٦» فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ

[١] ذات صوت شديد طائفة . [٢] تصرعهم على الأرض «منقر» قلع عن منابته وزال عن أماكنه .
[٣] الأخفاف . [٤] كثيرة اللرود كالنزار . [٥] حجة . [٦] مسك وأماك .

مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بُعْدًا ﴿٦٠﴾ لَعَادِ قَوْمٍ هُودٍ ﴿٦٠﴾ هُودٍ

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى في هذه السورة أنه أرسل إلى عاد أخاهم هوداً ، وأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده ، ثم قال لهم انكم مفترين على الله الكذب بافتخار الأوثان شركاء له ، ثم أراههم أنه لم يطلب على دعوته أجراً منهم ، وإنما يطلب الأجر من الله تعالى . وإنك لو قرأت دعوة الرسل جميعهم لرأيتهم جميعهم يراجعون قومهم بذلك القول ليعترفوا أن شأن الرسل تمحيض النصيح لأقوامهم ، وذلك لا يكون إلا حيث خلت دعوتهم عن المطامع ، وتحدثت لارضاء الله تعالى ، والرغبة فيها عنده من ثواب ، ولذلك عقب ذلك بقوله (أفلا تعقلون) إذ تردون نصيحة من لا يطلب أجراً إلا من الله ، ثم أخذ يدعوهم إلى استغفار الله تعالى من الشرك السابق وإلى الإيمان به ، ويريه أن ذلك الاستغفار يكون سبباً في إرسال السماء عليهم بالأمطار كثيرة الضرور ، وفي أن يزدادوا قوة إلى قوتهم ، فقد كانوا أقوياء . واستكبروا في الأرض بسبب قوتهم (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغیر الحق وقالوا من أشد منا قوة ﴿١٥﴾) فوعدهم الله ، ووعد الحق أنهم إن آمنوا بربههم ازدادوا قوة إلى قوتهم ، ثم قال لهم (ولا تتولوا مجرمين) لاتعرضوا غنى وعما أدعوك إليه مصرين على إجرامكم وأنتمكم .

(٢) فكان ردهم على هود نبي الله ورسوله أن قالوا (يا هود ما جئتنا ببينة) وهو كذب منهم وجمود . كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لولا أنزل عليه آية من ربه) مع بوت آياته المحصر (وما نحن بأتاركى ألفتنا عن قولك) لاندع ألفتنا صادرين في ذلك الترك عن قولك ونضحك ، بل سننظر لما عابدين (وما نحن لك بمؤمنين) اقتطاعه من الاجابة ، وتيسر له من الايمان ، ثم لم يفتوا من نبي الله عند ذلك الحد ، بل قالوا في سبب دعوته لهم : إن آلهتهم التي يعبدونها قد مسته بسوء ، وخيل ، لصده الناس عنها ، وعداونه لها ، ومن أجل ذلك يهذى في نظرهم هذيان المجانين ، وقد دلت أجوبتهم أن القوم كانوا جفنة ، غلاظ الأكباد . لا يبالون بالهت ولا يلتفتون إلى النصيح ، ولاتلين شكيمتهم للرشد ، ولا سيما قولهم (إن قول إلا اضراكم بعض ألفتنا بسوء) فانه يدل على جهل مغرط ، وبله متاه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم ، ولعلمهم حين أجزوا لها أن تصاب كانوا يمجيزون لها أن تيب .

(٣) فكان من نبي الله بعد ذلك التهديد أن قال لهم (إني أشهد الله واشهدوا أني برى مما تتركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) ومن أعظم آيات الصدق ، والاخلاص أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا الى إراقة دمه ، يرمونه عن قوس واحدة ، ثقة بربه أن يصممه منهم ، فلا تنشب فيه مخالهم ، ومثل ذلك قول نوح عليه السلام (ثم اقضوا اليّ ولا تنظرون) وانظر الى قوله (فكيدوني جميعا) يريد أنني لا أبالي بكم وبكيدكم ، ولا أخاف معرفتكم وإن تعاونتم عليّ ، وأنتم الشداد الأقوياء ، فكيف تضربني أهلككم ، وما هي إلا جاد ، وكيف تفتنّ مني إذا نلت منها ، وصعدت عن عبادتها ، بأن تخيلني وتذهب بعقلي ، نعم إن هذه آية من آيات الله في أنصار الحق ، وعبرة من العبر ، من آيات الله فيهم أن يزيل من قلوبهم هبة الظالمين ، وخشية المفسدين ، لأن قلوبهم امتلأت بالخشية من الله والخوف منه ، ولأنهم واقفون بضعف كيد الشيطان ، وأنصار الباطل ، وقد أرانا الله تعالى أن الباطل الخليج ، وأن الحق واضح أبليج ، وأن العقبة لأوليائه ، والخذلان لأعدائه ، وقنوتنا الحسنة في ذلك أئمة الهدى ، وهداة البشر من اختارهم الله تعالى لقيادة الناس ، بسعادة الانسانية ، فهم الذين يرسون لنا طريق الدعوة ، ويعرفوننا الاستقامة بالباطل ، وإكبار الحق ، ومن أجل ذلك كانوا أشجع الناس قلوبا ، وأوفىهم عقيدة ، وأرابطهم جأشا ، تضطرب الأرض ومن عليها بفساد المفسدين وهم لا يضطربون ، وتضج من هول الجسارة والمستكبرين ، وهم على دينهم دائنون ، وبدعوتهم معتمدون ، وعلى ربهم متوكلون ، وانظر الى قوله بعد ذلك التحدى (إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) لتعلم سرّ هذه الشجاعة النادرة ، والثقة العالية ، سرّا أنه متوكل على ربه ، معتمد بمولاه ، ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم «١٠١»^(١) وجدير بمن يتوكل على ربه . ويلجأ الى خالقه أن يبدل خوفه أمنا ، وضعفه قوة ، ويرزقه عزا لا ينقطع ، وقوة لا تقف عند حدّ (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون «٨»^(٢)) وما أحوج الداعي الى الله لذلك التوكل ، وتقوى الأمور الى الله تعالى ، والاستعانة بالصبر والرضا ، وطلب الأجور منه تعالى . ثم وصف الرب الذي توكل عليه ووثق به في حفظه وكلامه بما يوجب التوكل عليه ، فقال (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) والناصية : منبت الشعر في مقدم الرأس ، وإذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا : ماناصية فلان إلا بيد فلان . يريد أنه مطيع له ، لأن كلّ من أخذت بناصيته فقد قهرته : أى مامن حيوان إلا تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره ، ثم ختم ذلك بقوله (إن ربي على صراط مستقيم) يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه ، لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتمد به .

(٤) ثم أراههم أنهم ان أعرضوا عنه بعد ذلك فقد قام بما أوجبه الله تعالى عليه وأبلغهم رسالات ربه فلا يعاتب على تفریط في الإبالغ ، وهم الذين يعاقبون على عنادهم ، وامتناعهم من اجابة داعي الحق ، ثم توعدهم بأن الله تعالى (مستخلف) قوما غيرهم في ديارهم وأموالهم بعد أن يهلكهم ، كما قال في سورة محمد (وان تولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم «٣٨»)

ولا تضرونكم شيئا من الضر بذلك التولى ، وإنما تضرون أنفسكم ، ثم علل ذلك بقوله (إن ربى على كل شيء حفيظ) فما تخفى عليه أعمالكم ، ولا يضل عن مؤاخذتكم .

(٥) ثم أراما أنه لما جاء أمر الله بالعذاب نجى هودا والذين آمنوا معه من ذلك العذاب : أى بسبب رحمة من الله لهم ، وهى ما هداهم إليه من الإيمان به والعمل الصالح ، ثم أراد الله أن يرينا مقدار فضله عليهم فى هذه النجاة ، فقال (ونجيناهم من عذاب غليظ) وقد شرح القرآن الكريم ذلك العذاب الغليظ فى سورة النازيات (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم «٤١» ما نذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم ^(١) «٤٢») وكذلك فى سورة الحاقة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية «٦» سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية «٧» فهل ترى لهم من باقية «٨») والريح الصرصر : ذات الصوت الشديد لعتوها وشدها (وحسوما) متتابعة ، ثم قال مهتدا لقريش ، ومن على دين قريش (وتلك عاد) فسيحوا فى الأرض وانظروا إلى قبورهم ، واعتبروا بآثارهم (تلك عاد) التى نسيت ربها ، واعتزت بسلطانها وقوتها ، واغترت بآيها وعظمتها (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون «١٥» فأرسلنا عليهم ريحا صرصا فى أيام نحسات ^(٢) لنذيقهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أخرى وهم لا ينصرون «١٦» «٣») ثم أراد أن يبين سبب ذلك العذاب فقال (جحدوا بآيات ربهم) والجحد : نفى ما فى القلب إثباته وإثبات ما فى القلب نفيه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظرو كيف كان عاقبة المفسدين «١٤» «٤») ترينا الآية أن أولئك أنكروا آيات الله لا عن شبهة فى أنفسهم ، بل التى جعلهم على الإنكار الظلم والاستكبار أما قلوبهم فهى مستيقنة بها ، مقتنعة بأحقيتها . وقال فى سورة العنكبوت (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون - وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ^(٥)) وقال (قد علم أنه ليحزنك الذى يقولون فأنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون «٣٣» «٦») من ذلك كله نعرف أن عادا جحدوا بآيات ربهم وهم يعلمون أنها حق من عند الله ، وذلك هو السبب الأول للعذاب الذى حل بهم ، أما قوله (وعصوا رسلا) ومثله (كذبت قوم لوط المرسلين) مع أنهم لم يعصوا إلا رسولهم وهو هود عليه السلام ، فهو يرينا أن من عصى رسولا واحدا فقد عصى جميع الرسل ، لأنه عصاه من أجل رسالته ، وخالفه مع قيام الحجة على حقة دعوته ، فصار عاصيا لكل الرسل ، لأنهم جميعهم أرسلوا لاصلاح المخلقى ، وإقامة الحجة على أبواب الشهوة والهوى (لا تتفرق بين أحد من رسله) وهى كلمة لها خطر على قوم يقتعون الإيمان ببعض الرسل : كموسى وعيسى عليهما السلام ، ثم هم مع ذلك ينكرون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولو كانوا صادقين فى دعوى الإيمان برسولهم لآمنوا بسائر الرسل . فانه لا فرق بين رسول ورسول ، فإذا كان عيسى رسولا حقا لأنه أقام البيئة على دعواه ، فمحمد كذلك أقام البيئة على دعواه ، أما أن تعصب لبعض الرسل

[١] التى لا تلحق سحبا ولا شجرا « الريم » انفتحت من الحب والتين . [٢] مشثومات .

[٣] فصلت . [٤] النمل . [٥] ٤٧ - ٤٩ التكبوت . [٦] الأنعام .

ونبحث في أدلته وبراهينه ، ثم فقمض العين عن رسول آخر ، فذلك ما لا يرضاه الانصاف ، وحسبنا أن القرآن الكريم يقول في ذلك (ان الذين يكفرون بالله ورسله يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا « ١٥٠ » أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذابا مهينا « ١٥١ » والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما « ١٥٢ ») (١) وقوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) يرينا أن أولئك الأقوام استمعوا الى رؤسائهم وكبرائهم في الكفر والضلال ، وأطاعوهم طاعة عمياء ، فأضلوهم السبيل ، فكان جزاؤهم على ذلك المجدود وعصيان الرسل ، وتقليد الرؤساء ، أن أتبعوا لعنة وهذا عن رحمة الله في هذه الحياة ، ثم لعنة أخرى يوم القيامة ، تحول بينهم وبين مواطن الكرامة .

ثم أخذ يذبه النفوس الى ما حاق ويحقيق بأولئك النساء في الدنيا وفي الآخرة ، فقال مهولا لأمرهم ، ومنظما له (ألا بعدا لعاد قوم هود) دعاء بالهلاك بعد وقوعه ، ليرينا أنهم قد استأهلوه بهم ، واستحقوه بمجودهم وعصيانهم ، وقوله (قوم هود) ليرينا أن عادا نوحان : عاد الأولى وهو قوم هود ، وأن ذلك العذاب الذي بينه في هذه القصة هو لهم ، والثانية هم إرم ذات العماد ، فذكر ذلك لازالة الاشتباه

هود عليه السلام

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ « ١٢٣ » إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ « ١٢٤ » إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ « ١٢٥ » فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا « ١٢٦ » وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ « ١٢٧ » أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ^(٢) آيَةً تَعْبَثُونَ « ١٢٨ » وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ^(٣) لَكُمْ تَمْخُلِدُونَ « ١٢٩ » وَإِذَا بَطَشْتُمْ ^(٤) بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ « ١٣٠ » فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا « ١٣١ » وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ « ١٣٢ » أَمَدَّكُمْ بِأَنْعُمٍ وَبَنِينَ « ١٣٣ » وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ « ١٣٤ » إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ « ١٣٥ » قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ « ١٣٦ » إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ ^(٥) الْأَوَّلِينَ « ١٣٧ » وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ « ١٣٨ » فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَ كَثَرُهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ « ١٣٩ » وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ « ١٤٠ » الشعراء.

[١] النساء . [٢] المكان المرتفع الذى يبدو من بعيد ، و « آية » بناء طائيا . وقيل العلم . [٣] جمع مصفة كالخوض يجمع فيها ماء للطر . [٤] البطش تناول الشئ بعصاة « جبارين » فاهرين . [٥] طاعة .

شرح وعبرة

(١) الجديد في هذه السورة أن نبي الله هود عليه السلام بعد أن دعاهم إلى التقوى ، وعرفهم أنه رسول أمين ، لا يسألهم على تبليغهم رسالة الله أبوا - بعد ذلك كله أخذ ينهائم أن يتخذوا بكل مكان مرصع من الأرض بناء شامخا هو آية للناس ، وعلم ظاهر بملت نظر كل من يراه ، وأنهم لم يبنوا أولئك الآيات لأغراض محيطة ، ومصالح تعود عليهم بالنفع ، وإنما كانوا عابثين لاعبين ، فكانوا يستنهبون في بؤرة المال ، وإضاعة الثروة ، وما أكثر هؤلاء في زماننا ، ما أكثر البائسين للعب والعبث ، والمستبدين للرياء والفخر ، وما أضيع المال في أيدي أولئك السهبا ، العابثين ، وما أحوجهم إلى أوصياء يضربون على أيديهم ، ويحولون بينهم وبين ذلك العث ، وهي دعوة من نبي الله هود عليه السلام إلى الاقتصاد وتوفير المال ، ووضع حيث يفيد ويثمر ، وما فائدة الأمة من قصر مشيد قد بذل في بنائه عشرات الآلاف من الجنيهات ؟ ما فائدة الأمة من ذلك القصر الذي يلهو به ويجمع رجل واحد ، والملايين من الأمة لتجدي مائتا كل ، ولا تعرف أين تعيش ؟ نعم إن ذلك التصرف وأمثاله يكون قذرى في عين كل عاقل ، مادامت مصراتى الأمة ضائعة ، وصناعاتها معطلة ، وأيديها العاملة لتجد مكانا تعمل فيه ، ولعل لأغنيائنا الذين لم يعرفوا قيمة المال ولا منزلة الثروة ، أن يعتبروا بتلك النصيحة ، فينبى الثرى منهم على قدر متاعه ، غير لاعب ولا عابث ، ذاكرين أن المال قد جعله الله قايما للناس في معاشهم ومصالحهم ، وأنهم خلفاء الله فيه ، وسيحاسبهم عليه الحساب العسير ، كما يحاسبهم على كل فعيم ينفعون به . كما يسكر عليهم نبي الله أن يتخذوا مأخذ للقاء يجمعونه فيها كالأحواض ، راجين أن يتخلدوا في هذه الحياة ، فنبى الله لم يسكر عليهم بناء الآيات ، وإنما أنكر عليهم أن يعيشوا بذلك البناء ، ولم يسكر عليهم اتخاذ المصانع ، بل أنكر عليهم رجاها ، الخلود بها ، ونسيانهم الموت وما بعد الموت . ثم قال لهم (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) يريد أنكم قيادة غلاظ ، إذا سلطتم على من هو دونكم في القوة كان بطشكم بهم بطش جبابرة ، لا تزعجون له عهدا ، ولا تعملون لجواره حسابا .

وما أقرب ذلك الوصف الذى يصف به نبي الله هود قومه عادا إلى غلاة المستعمرين ، ودول الحضارة اليوم ، إذا سلطهم الله على شعب من الشعوب بطشوا به بطش الجبابرة ، وأذقوه العذاب ألوانا يتيموا الأبطال ، وسوا النساء ، وهنكوا الخومات ، وضرقوا المساحف ، وقتلوا الأبرياء ، وهذه آثارهم في كل مكان تشيب الطفل ، وتضج لها الأسانية ، ويفيض لها الماء الحاذ .

(٢) ثم أخذ يكرر مطالبهم بالتقوى والطاعة ، ويذكرهم بما أمده الله به من أنعام وبين ، وجنات وعيون ، ويخوفهم من عذاب الله إذا هم خالفوه ، فكان جوابهم بعد تلك العظة أن قالوا له (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلحاقنا الأولين وما نحن بمعتدين) . بل يبالوا بوعظه ، ولم يعملوا حسبا لتذكيره ، نسيان عندهم كلامه وسكوته ، وما عكسهم على آلهتهم إلا عادة من سبقهم من الأمم ، وتقدمهم من الآباء والجدود ، ولاغنى لهم عن سنة آبائهم ، وتقليد أسلافهم ، ولم يريدوا أن يقنوا من نبي الله عند ذلك الحد ، بل قالوا (وما نحن بمعتدين) على ذلك الشرك ، ولا ندري بأى حجة يضمنون لأنفسهم النجاة من العذاب ، إذا كانوا مؤمنين

بالحساب ، ولعلمهم أرادوا بقولهم (إن هذا إلا خلق الأولين) أن مانحن عليه من حياة وموت ان هو إلا عادة لم يزل عليها الناس من قديم الدهر ، فليس هناك ثواب ولا عقاب ، ولاجنة ولا نار ، كما يقول الدهريون (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم إلا يظنون « ٧٤ » ^(١)) ثم أرانا أنهم كذبوا نبي الله هودا فأهلكهم الله بذلك التكذيب ، وأن في ذلك التكذيب عبرة للعالمين ، وما كان أكثر قوم هود مؤمنين ، وإن ربك (العزيز) الغالب على أمره ، لا يفتله ظالم ، ولا يعجزه متكبر ، وهو رحيم بالناس في عقوبتهم ، لطيف بهم في معاملتهم ، ومن ناحية أخرى يرينا أنه مع عزته وقهره هذا واسع الرحمة ، ورحته سبقت غضبه .

دعوة صالح

إلى الله تعالى

وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفُ يَنْتَهُ ^(٢) مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَادْرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ^(٣) وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ ^(٤) فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَتَّبِعُونَ الْحِبَالِ يُبُوتًا قَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَمَتُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ^(٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ اسْتَفْضَعُوا لِمَن ءَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ^(٦) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَمَّتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ^(٧) فَفَعَّرُوا ^(٨) النَّافَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَتُنَا إِنَّمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ^(٩) فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ ^(١٠) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ^(١١) ^(١٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ^(١٣) ^(١٤) الأعراف

[١] الجانية . [٢] آية واضحة . [٣] أنزلتم فيها وجعلها مباءة لكم . [٤] نحرُوا « عتوا »
تعدوا مستكبرين . [٥] الرزلة . [٦] باركين على ركبهم من شدة الهول .

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أرسل إلى نوح أخاهم في النسب والوطن صالحا ، وقد سماه أخا بذلك الاعتبار . سئل الامام عبد الله بن أبي ليلى عن اليهودى والنصراني يقال له أخ ؟ فقال الأخ في الدار ، واستدل بالآية ، رواه أبو الشيخ ، وقد قال لهم نبي الله بعد أن طلبهم بعبادته وحده شأن بقية الرسل (قد جاءكم دينه من ربكم) وقد أرانا الله في قصة صالح من سورة هود أنه أراهم آية في الناقة بعد ردعهم لدعوته ، وتصريحهم بالشك في صدقه ، وجاء في سورة الشعراء أنهم طلبوا منه الآية وتحذوه بها ، إذ قالوا (نأت بآية إن كنت من الصادقين) ومن مجموع السور نعرف أن الدعوة إلى الله تعالى ، والتخويف من عذابه وبلطه كانت أولا ، والانيان بالآية بعد طلبها كان ثانيا ، ولم يعن القرآن بترتيب الحوادث فيذكرها على نسبة أوقاتها ، لأن القرآن لا يكن كتاب تاريخ جاء لتحديد الحوادث ، وبيان أوقاتها ، وإنما هو كتاب عبرة يبين سنن الله تعالى في البشر ، وهداية الرسل عليهم السلام ، ولذلك ترى القصة الواحدة فيها الاجال والبسط ، والتقديم والتأخير ، ومنها زيادات في بعض السور لم تكن في البعض الآخر ، وكلها صحيحة ، لا يتنافى إجمالها وتفصيلها ، ولا يتناقض ما فيها من زيادات بل يكمل بعضها بعضا ، وقوله (من ربكم) للإعلام بأن هذه الآية لم تكن من عمل نبي الله صالح ، ولا عما ينالها كسبه عليه السلام ، شأن ما يؤيد الله تعالى به الرسل من خوارق العادات ، ومنه نعلم أن الخوارق لم تكن من كسب الصالحين بالأولى

(٢) وقد بين الدينة التي جاء بها قال (هذه ناقة الله لكم آية فاعبدوها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب أليم) وقد وصف العذاب في سورة الشعراء بالعظيم ، فهو أليم وعظيم ، ووجهه في سورة هود بالقرب ، وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم لها بسوء ، وقد أضاف الناقة إلى اسمه الكريم تعظيما لشأنها ، وقيل لأنه لم يكن لها مالك ، وقد أراهم الله أن الماء الذي سخره لهم قسمه بينهم وبين تلك الناقة فشرب منه يوما ، وشربون منه يوما آخر (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم « ١٥٥ ») (١) وقال في سورة القمر (إنا مرسلوا الناقة شربة لهم فارقهوا واضطرب « ٢٧ » ونبيه أن الماء قسمه بينهم كل شرب محتضر « ٢٨ » فنادوا ساحبهم تعطاطي نعقر « ٢٩ » فكيف كان عذابي ونذر « ٣٠ ») وجاء في سورة الشمس (كتب نوح بطغواها « ١١ » إذ انعت أشقاها « ١٢ » فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها « ١٣ » فكذبوه هقروها فدمدم « ١٤ » عليهم ربهم بذنبيهم فسواها « ١٥ ») ولا يخاف عقابها « ١٥ ») فبدل مجموع الآيات أن آية الله تعالى في الناقة أن لا يتعرض لها أحد من التوهم بسوء في نفسها ، ولا في أسكلها ، ولا في شربها ، والمتبادر من إيضاح الأرض إلى الله تعالى أن المراد بها المباحة للأعنام أن ترعى فيها ، دون ما يزرعه الناس ويحمونه لأنفسهم ، وفيه مراعاة الظير بين ناقة الله وأرض الله ، أي ضلعوا ناقة تأكل من أرضه ، والمتبادر من كلمة (سوء) أن الوعيد

[١] الشعراء . [٢] محضور لهم أو لنافقة . [٣] أطلق عليهم العذاب « فسواها » أي الدميمة لم يفلت منها صغير ولا كبير .

مراتب على أية نوع من أنواع الايذاء جلّ أو حقّر ، لأنه نكرة بعد نهى .

(٣) ثم أخذ نبي الله يذكرهم بنعم الله عليهم ، وأنه جعلهم خلفاء لعاد في الحضارة والعمران ، والقوة والبأس ، وأنه بوّأهم في الأرض ، وجعلها منازل لهم ، وقد بين ذلك بقوله (تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا) يذكرهم بما ألهمهم من فنون الصناعة ، وهندسة البناء ، ودقة التجارة ، وما علمهم من فنّ النحت ، وآتاهم من القوة والصبر ، قيل كانوا يسكنون الجبال في الشتاء ، لما في البيوت المنحوتة من القوة على الأمطار والعواصف ، ويسكنون السهول في سائر الفصول لأجل الزراعة والعمل .

انظر كيف يذكر القرآن قوم هود بأنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، ويذكر قوم صالح بأنه جعلهم خلفاء من بعد عاد ، وذلك أسلوب من أساليب التورية ، وضرب من ضرب العظة ، يذكر فيها القرآن أولئك القوم بأنه غفرهم بفضلهم ، وعظمهم بإحسانه ، وجعلهم أجلاء عظاما في شئون الحياة ، ووسائل العمران ، ولا ينبغي من كرمهم الله ذلك التكريم أن يلوثوا أنفسهم بالمعاصي ، ويدنسوها بالجرائم ، بل اللائق بذلك النوع من الناس أن يكون ممن يكرم نفسه حيث أكرمه الله ، ولا ينبغي له أن يعمل على بخس نفسه حقها وتقدير قيمتها ، وعلى هذا الأسلوب قول الله تعالى (ولقد كرّمنا بني آدم وجعلناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ٧٠) وقوله (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني بصلّيتكم على العالمين » ٧١) ذلك الأسلوب الذي يشعر مخاطب بعلو نفسه ، وكبر منزلته ، ثم يطلبه بحقوق هذه العزة ، وما تتطلبه تلك المنزلة ، ويريه أن عصيان الله تعالى هو امتحان للنفس ، وتزول عن المكان اللائق بها ، وكثيرا ما يغير ذلك النوع من التأثير في نفس المستمع ، وكثيرا ما انتفع الناس بالعظة من ناحية ما في نفوسهم من عظمة ، وكثيرا ما يلجأ الواعظ الى أن يقول للمسرف على نفسه : إنك رجل من بيت طيب ، وأرومة (٢) عالية ، وأبو بن شريفين ، وقد كان لأبيك من المجد والسؤدد كيت وكيت ، فلا يليق بك أن تجاري أولئك النحوت وسفلة الناس في تهافتهم على المعصية ، واتخاذهم إلى سفاسف الأمور ، وكثير من الناس يهتف عن المحرمات لأنها لا تتفق وما ينبغي لله من عظمة ولا تناسب مع منزلته في الحياة ، وأن الطامة الكبرى ، والبلاء الذي لا نجد له علاجا ، تلك الطامة التي لا تشعر لنفسها بكرامة ، ولا تحس بمنزلة ، فلا تبالي أن تكون نفسها نفس إنسان أو حيوان ، ولا يعينها أن تكون حقيرة أو عظيمة ، بل المهانة أحب إليها من الكرامة ، وعبوديتها للشهوة والهوى أعذب لديها من الحزم والعزم ، ثم إن هذه الطامة هي لفز الواعظ ، وعقبة الكأداء ، إذا شاء أن يستعين عليها بما في نفسها من حياء وجد معين الحياة قد نصب ، وإذا أراد أن يغي فيها عاطفة احترام النفس ، وتكريم الانسانية ، رأى أنها قد انحسرت الى دركة الحيوان الأنجم ، فيقف مكتوف الأيدي أمام تلك النفس الموضوعة ، وهيئات أن يجد لها علاجا ناجعا ، أو دواء ناهضا لذلك عنى القرآن الكريم بذلك النوع من التذكير ، وهذا الأسلوب من التورية ، لذلك يبدى ويعيد في ذلك التذكير ،

و بعد أن ذكرهم بنعم خاصة ، قال لهم (فاذكروا آلاء الله) عليكم عامة ، واشكروا هذه النعم باستعمالها فما فيه صلاحكم ، ولا تنصرفوا في هذه النعم تصرف عثيان وكفر بمخالفة ما يرضى الله فيها ، متصفين بالإفساد ، ثابتين عليه .

(٤) بعد ذلك قال (الملأ المستكبر) من قوم صالح للمستضعفين المؤمنين (أنعدون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) قدّمنا في قصة نبي الله نوح عليه السلام أن الملأ : هم الأشراف والسادة الذين هم عقبة الإصلاح في كل زمان ، وأن أتباع (رسل دائما المستضعفون ، لا الأغنياء المتزفون ، لأنه لا يشغل على المستضعفين أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وليس في قلوبهم من حب الرياسة ما يمنع من استماعهم للحق ، أما السادة والأشراف فيشق عليهم أن يكونوا مرءوسين ، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الأشراف الضارة ، وتقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال ، على هذه السادة سؤال المستكبرين للمستضعفين ، وعلى هذه السادة كان جوابهم لهم (إنا بما أرسل به مؤمنون) وعلى هذه السادة كان رد المستكبرين عليهم (إنا بالنبي آتيتكم به كاذبون . فعتروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين) وقد أسند الله العقر إلى أولئك المستكبرين الكافرين . والمعطى له واحد منهم - لأنه بتواطئهم ورضاهم ، كما قال في آية القمر (فتنادوا صاحبه فنعاطي فعقر) ليرينا أن مثل هذا من أعمال الأمم ينسب إليها في جلتها ، كما أنها تعاقب عليه في جلتها (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ٢٥٠) ومنه نعلم أن الأمة متضامنة متكافئة في الخير والشر ، وأنها متى سكنت على منكرو ، وكان في استطاعتها أن تقف في سبيل صاحبه ، عاقبها الله على ذلك السكوت العقاب الشامل ، روى أبو داود والترمذي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا أيها الناس انكم تقرأون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » .

فليعتبر بذلك المسلمون الذين تحلّت روايتهم ، وتسلكت عراه ، وأصح كل واحد لا يهيمه سوى شخصه ومصلحته الخاصة ، وإذا رأى الظالم يحز في عني أخوانه ، بني جلده لم يحرك له ذلك الظالم ساكنا ، مادام هو عتي ، البطين ، أننا على نفسه ومصلحه . فليعتبر بذلك المسلمون ، وليعلموا أنهم ما أصبحوا إلا من جراء ذلك التفكك والانحلال ، وليتقوا أن ذلك الظالم هو معهم اليوم ، وعلمهم في الغد ، وأنه يستعين على بعض الأمة ببعضها الآخر . فيعطى من معه من الشهوات والمصالح ما يسخره به لقضاء مصلحته ، ثم متى انتهت حاجته منه قلب له ظهر المحن ، وكل من كان كذلك بأخيه . ليعتبر بذلك المسلمون ، وليفتنوا لما يريده العدو الغائب من اتخاذ طائفة منا ، وأيد عابثة فاجرة ، يستعين بها على امتلاك بلادنا وإذلال أمتنا ، ولو كانوا ممن ينتهون بالقرآن وعظاته لفروا أن اقرار الظالم في الأمة وسكوتها عليه هو شر مستطير ، لا يعلم مداه إلا الله تعالى ، وأنه يعاقبنا عليه بانتقاص بلادنا ، وتثيت أقدام العاصب فيها ، وتسخير خيراتها وجهودنا لمصاحبة ذلك العدو الذي لا يرضى لنا ذممه ، ولا يحفظ لنا عهدا .

هؤلاء قوم صالح لما رضوا عن عقر الناقة نسب الله اليهم المعصية ، وعاقبهم عليها العقاب الشامل ، مع أن الذي عقرها واحد منهم ، ولكنه عقرها على رضائهم ، وكان في استطاعتهم منعه ، والضرب على يديه ، ولكنهم بدل أن ينعموه شجعوه ، فكان عذابهم من أجل ذلك عذابا شاملا ، وعقوبة عامة .

هذه شعوب المسلمين المحتلة يسلط عليها الغاصب من نفسها أناسا يظلمونها ، ويسومونها سوء العذاب ، ثم هي ترضى عن ذلك الظلم ، وتستكين للهوان ، ولاتأخذ على يد الظالم ، فتحول بينه وبين الظلم ، فيعاقبها الله بتحكين الغاصب في الأرض ، وتثيت قدمه ، واستيلائه على خيرات هذه الأرض ، وهى عقوبة لأصيب الظالم وحده ، بل تشمله وغيره ، بل وتشمل الأجيال المقبلة ، وما أشدها من عقوبة ، وما أهساها من انتقام يسوقه الله ، لأننا قصرنا في الأمر ، وخفنا للظلم .

(٥) بعد ذلك قالوا النبي الله صالح (اننا بما تعدنا ان كنت من المرسلين) وقد نادوه باسمه تهوينا لشأنه ، وتقرضا بما يظنون من عجزه (فأخذتهم الرجفة) وفي سورة هود (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) وفي سورة نمل (وأما نود نهديناهم فاستجوا العصى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ١٧٠) وفي سورة الفاريات (ففتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الساعة وهم ينظرون ٤٤) أما الرجفة : فهي الزلزلة والاضطراب ، وأما الصيحة فهي رفع الصوت ، ولما كانت الصيحة قد تنزع عبر بها عن الفزع ، وأما الساعة فهي استعمال يحدثه الله تعالى عند اختلاف كهربائية سحابة قريبة من الأرض مع كهربائية الأرض إيجابا وسلبا ، ولأننا بين الرجفة ، والصيحة ، والساعة ، ذلك أن الساعة هي الشرارة الكهربائية التي تنقل بالأرض فتحدث بها تأثيرات عظيمة بقصرها ، كسحق الناس والحويان وموتهم ، وهدم المباني أو تصديعها ، واحراق الشجر والمتاع وغير ذلك . تلك الساعة لها صيحة شديدة القوة والظفران ، ترجف من وقعها الأفئدة ، واضطرب الأبدان ، تقوم نود عاقبهم الله بذلك كله . أخذهم بالساعة التي لها صوت شديد مزعج ، يسجد زلزلة ، فإذا قال القرآن : أخذتهم الرجفة . أو قال : أخذتهم الصيحة . أو قال : أخذتهم الساعة ، كان ذلك كله حقا ومحيلا .

ومن الجائز أن يكون الخالق التادر المتدر قد جعل هلاكهم في وقت ساق فيه السحاب المتشبع بالكهرباء الى أرضهم بأسبابه المعتادة ، ويجوز أن يكون قد خلق تلك الساعة لأجلهم على سبيل خرق العادة ، وأيا ما كان فالآية قد وقعت ، وصدق الله رسوله في انذار قومه (فأصحوا في دارهم جاعين) والمراد أنهم سقطوا على ركبهم متعوقين ، وجثموا هامدين خاملين (فتولى عنهم) بعد ما أبصرهم جاعين تولى متحسر على مفاته من إيمانهم ، ويقول لهم يا قوم اتد بذلت فيكم وسى ، ولم آل جهدا في إبلاغكم النصيحة لكم (ولكن لا تحبون الناصحين) وقد يقول الرجل صاحبه وهو ميت - وكان قد فصحه حيا فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في النهلكة - يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل منى ، وفي سورة هود أن صالحا عليه السلام أمهل قومه ثلاثة أيام بعد عقر الناقة ، فلما انتهت أنجاد الله تعالى ومن معه من المؤمنين برجة منه ، وأرسل العذاب بالباقيين الظالمين بعد انجائه ، وإنما يكون الانجاء من عذاب صيحة الساعة بالبعد عن المكان الذي تقع

فيه ، والمعهود في مثل هذه الآية أن تتقدم على ما قبلها في الذكر ، كتقدم مدلولها بالفعل ، ولكن عهد في كلام العرب ترك الترتيب بين المعاني لتسكت في الكلام ، ولا سيما كلام يعرف فيه الترتيب بالضرورة ، أو ما يقرب منها في الظهور ، فيكون تولى نبي الله عنهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب ، ويكون خطابه لهم وتعينه إليهم جاء حسب المألوف من خطاب الأحياء ، والله أعلم .

صالح عليه السلام

وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ^(١) فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَابِرُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ «٦١» قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا^(٢) قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا فِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ^(٣) «٦٢» قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَدَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ^(٤) «٦٣» وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوَهَا تَكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ قَرِيبٍ «٦٤» فَمَقَرُّوَهَا فَقَالَ نَمْتُمُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ «٦٥» فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ «٦٦» وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جُثَيَيْنَ «٦٧» كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا^(٥) لِتَمُودَ «٦٨» مود

شرح وعبرة

(١) برينا الله تعالى في هذه السورة أنه أرسل الى تمود أخاه صالحا وطالبهم بالتوحيد ، ثم ذكرهم بتنشيطهم لهم من الأرض ، وقد أجل في هذه الكلمة ما فصله الله في آيات أخر كما تدل عليه آيات المؤمنين (ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين «١٢» ثم جعلناه نطفة في قرار مكين «١٣» ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا مضغة فخلقنا عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا

[١] فوض إليهم حمارتها ومكنكم فيها . [٢] مأمول الخير . [٣] موقع في الرية وقلق الفرس .
[٤] إهلاك وذل . [٥] دعاء عليها بالهلاك .

آتو فبارك الله أحسن الخالقين «١٤») فهو يلقنهم الى آيات الله فيهم من جهة خلقهم الأول ، عليهم يذكرون أن من قدر على ذلك الخلق هو على الاعادة أقدر ، وعلمهم يذكرون أن صاحب النسأة الأولى هو الأولى بأن يصد ، وأنه ليس من الرأى التسوية بين من يخلق ومن لا يخلق ، ثم ذكروا بنعمة أخرى هي نعمة استعمار الأرض فقال (واستعمركم فيها) جعلكم حمارها ، تشقون فيها الأنهار ، وتنشئون فيها البساتين ، وتبنون فيها القصور ، وتقتنعون بما فيها من خيرات ومعادن وجبال وبحار ، وتستخدمون كل شئ فيها خلق له - يذكركم الله تعالى بهذه النعم ، وأنه هو الذى أسداها اليهم ، وهداهم اليها ، وخلقهم مستعدين لها ، بما وهبهم من عقول ، وما ألهمهم من صناعات وعادوم ، وبما منحهم من الصبر والجلد على حنق أولئك الصناعات ، والتفتن فيها ، وهو يشبه قوله فى سورة الأعراف (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتنحون من سهولها قصورا وتنحون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعشوا فى الأرض مفسدين «٧٤») وقوله فى قصة هود من سورة الأعراف (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون «٦٩») وقد عقب تذكير الله لهم بهذه النعم بقوله (فاستغفروه ثم تو بوا إليه إن ربى قريب مجيب) لأن ذلك هو اللاتق باله له هذه النعم ، اللاتق به أن ترجع اليه الناس فى مغفرة الذنوب وقبول التوبة ، فانه دافى الرحمة ، سهل المطلب ، مجيب لمن دعاه .

(٢) (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) ذلك هو ردمهم على نبي الله صالح أنه كان مأمول الخير تلوح فيه مخايل الرشد ، قبل أن يقوم بهذه الدعوة فيسفه أهلهم ، ويعيب آلهتهم ، أما الآن فقد انتقع رجائهم فيه ، وخاب ظنهم من ناحيته ، أو كانوا يؤمنون فيه أن يشاركهم فى عباداتهم ، ويدخل معهم فى دينهم ، لأنهم كانوا يعرفون فيه لين الجانب ، وحسن الخلق ، ثم أخذوا يشككون عليه نهيمهم عن عبادة الأوثان فقالوا (أنهاننا أن نعبد ما نعبد آبائنا واتنا فى شك مما تدعونا إليه صريب) .

يا سبحان الله كأن الناس قدوا من أديم واحد ، هؤلاء قوم صالح يعترفون له بأنه كان مرجو الخير ، مأمول الرشد ، قبل أن يقوم فيهم بالدعوة ، وبين لهم ما هم عليه من أخطاء ، أما بعد أن قام فيهم بالدعوة ، وأخذ يعيب عليهم ما هم عليه من باطل ، يقومون فى وجهه ، ويناصبونه العدواة ويقتلون له ظهر المجن ، وهذه قرىش كان محمد فيها السابق الأمين ، لم يجرى بوا عليه كذبا : فلما أخبرهم عن الله أنه رسوله جاء ليشر وينذر قامت قيامتهم ، وتألبوا عليه ، وفعلوا به ما فعلوا من الكيد والمكر ، وحاولوا أن يقتلوه عما أوحاه الله اليه ، وهنالك يكون خيالا لهم محبو با (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لفترى علينا غيره واذ لا اتخذوك خيلا «٧٣») (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير «١٣٠») (وهؤلاء الذين كفروا بالرسول جميعهم يقولون لهم (لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن فى ملتنا «١٣») ومن العجيب أن

قوم صالح يطعمون في حسن خلقه ، وطهارة ماضيه ، وغفلوا عن أن تلك الناحية كان عليهم أن ينتفعوا بها ، وكثيرا ما يقول الرسول لقومه (اني لكم ناصح أمين) يريد أنني لم أعرف فيكم بخيانة ولم تجروا على كذا في شأن واحد منكم ، فكيف أجروا أن أكذب على ربي ؟ فإذا كان صالح صرجا خير قبل هذا ، وكان تاريخه أبيض ناصعا ، وحياته حياة أطهار ، قد نقيت سيرتهم ، وحسنت معاملتهم ، أفلا يكون ذلك حملا لكم على تصديقهم ، والعناية بعقوتهم ، ثم لماذا يكون صرجا خيرا مأمول الرشدا ما دام لم يعرض لأهلكم بسوءه فإذا هو عابها ، وبين أنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد ، يكون ميثوس الخير مقطوع الرجاء ؟ أليس ذلك تعصبا أعشى وسيرا وراء الشهوات والأهواء .

(٣) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرفي من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تحسير) يتلطف معهم نبي الله صالح ، ويخاطبهم خطاب المتردد في أنه على بينة ، وإن كان يقطع بأنه على بينة ، ويقول لهم : خبروني إذا كنت على برهان من ربي في آفي رسول لكم ، وآتاني منه رحمة وهي الرسالة ، ثم عصيته ووافقتكم على ما أتم عليه من باطل ، فمن ينصرفي منه إن عصيته ؟ أنتصري آلتكم وهي أضعف من أن تنصر نفسها ؟ أم تنصروني أتم من عذابه ؟ وما أتم إلا عبيد لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ؟

الحق أنه لا جواب لهم من ذلك السؤال ، ولذلك قال عقب ذلك (فما تزيدونني غير تحسير) يريد أنه لو فرض أنه انضم إليهم وعصى ربه فلا يزيده إلا هلاكا وضلالا ، وبذلك يأبسهم من إجابتهم إلى طلبهم ، ثم أراهم أن الله تعالى أرسل الناقة آية له على صدقه ، وأمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، ولا يعترضوا لها بسوءه ، وأنهم إن تعرضوا لها بنوع من أنواع الأذى أخذهم عذاب قريب ، فلم يكن منهم إلا أنهم تحروها فقال لهم ، تمتعوا في دياركم ثلاثة أيام ، وإن ذلك وعد صادق ، ولما جاء أمر الله بالعذاب نجى صالحا والمؤمنين معه رحمة من الله من ذلك العذاب ، ومن خزي ذلك اليوم الذي حلّ بقوم صالح ، ولا عجب في أن يحلّ بالقوم من عذاب الله ما يحلّ ، وأن ينجي صالحا والذين آمنوا معه من ذلك العذاب (إن ربك هو القوي العزيز) فلا يستطيع أحد أن يفلت من عذابه إذا جاء وقته ، ولا يستطيع أحد أن يخذل من أنصروه من تكفل الله له بالنجاة ، وبعد هذه النجاة أخذ الذين ظلموا صيحة العذاب ، فأصبحوا في بلادهم جائعين على ركبهم ، ثم بين أسباب العقوبة فقال (ألا إن عمودا كفروا ربهم) يريد أن عاقبة الكافرين برهم بعد وضوح الأدلة على الإيمان أن يصيروا إلى ما صار إليه قوم صالح ، ثم ختم القصة بقوله (ألا بعدا للعمود) دعاء عليهم بالهلاك بعد أن وقع ، نعرف منه أنهم استأهلوه ، وأنه وقع بهم وقوعا عادلا حكما .

صالح عليه السلام

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَنْتَرُونَ فِي مَا هُمْنَا بِهِ أَمِينٌ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْبُونَ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْمُهَا ^(١) هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْتَحُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتَا فَرِهِينَ ^(٢) ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ۖ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ^(٣) ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ ۖ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ ^(٤) وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ الشعراء

شرح وعبرة

(١) أضاف الى عمود في هذه السورة تكذيب الرسل جميعهم مع أنهم لم يكذبوا إلا صالحا ليريك أن من يكذب رسولا مع قيام الأدلة عنده على صدقه هو مكذب للرسل جميعهم ، لأنه لافرق بين رسول ورسول ، وبعد أن طالبهم بتقوى الله تعالى ، وعرفهم أنه رسول أمين على دعوته لم يخن فيها شيئا من الحيانة ، وأنه لم يسألم على تبليغه لهم أجرا ، ومن كان كذلك ينبغي أن تقابل دعوته بالرضا . بعد ذلك كله قال لهم (أتتركون فيما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضم وتنتحون من الجبال يوتا فارهين) يذكركم بنعمته عليهم في تخليته الله أيام وما يتمتعون به من الجنات وغيرها مع الأمن والدعة ، وهي من أجل نعم الله على عباده : أن يفرمهم بنعم الأرض ، وأن يدمم لانحاذ بيوت من جبالها في حنق وإقلاق ، ثم هم مع ذلك وادعون آمنون ، ويجوز أن يكون انكارا من نبي الله صالح عليه السلام على قومه أن يفهموا أنهم يتركون في هذه النعم التي غفرم الله بها آمنين على أنفسهم من حلول عذب الله بهم ، فيبتدل

[١] مايعود من ثمرة في أول ظهوره «هضم» لطيف مناجاة من قولهم : كنعج هضم ، وطلع إناث النحل فيه لطف ، وقيل الين الضيق أو متصلة متكررة من كثرة الخلل . [٢] حاذقين . [٣] الذي سحر كثيرا . حتى غلبه على عقله . [٤] نصيب من الماء .

فصعبهم شقاء ، وأمنهم خوفاً ، مع أن موقفهم من صاحب النعم موقف الكافر لا موقف الشاكر ، وأن يكون نبي الله صالح ينكر عليهم أن يهجموا أنهم يتركون في هذه النعم بدون جزاء عليها ، وكأنه يقول لهم : إذا فهمتم من حالكم الواقع المظلم أن هذه كل حياتكم ، وأن لبس لكم حياة وراء هذه الحياة محاسبون فيها على كل ما قدمتم من خير أو شر - إذا فهمتم ذلك فأتتم خاطئون ، ولا بد لكم من يوم تجزون فيه على أعمالكم ، وتحاسبون على ما قدمتم في دنياكم ، وخصم النخل بقوله (طلعها هضم) ليرينا أنها نخل من نوع الأثاث الثمر ، لامن نوع اللكور ، أو من صنف جيد ، أو كثير الحمل ، ولذلك كان موضع الامتنان ، وخصم النخل بعد دخوله في جنات تنبئها على اقتراده عنها بفضلها عليها ، أو لعله كان أكثرها نفعا عندهم .

(٢) بعد ذلك عاد فأمرهم بتقوى الله تعالى وطاعته ، ونههم أن يطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، يريد بهم أئمة الضلال وأساطين الكفر ، وهم الملا من قوم صالح ، وقد وصفهم بعدم الإصلاح بعد وصفهم بالافساد. ليرينا أن أولئك القوم فسادهم فساد مصمت ، ليس معه شيء من الإصلاح ، كما نكون حال بعض المفسدين ، فيكون جواب قومه (إنما أنت من المسحurin) وموه بأنه مغلوب على عقله ، ولذلك دعاهم إلى ما دعاهم إليه ، ثم قالوا له (وما أنت إلا بشر مثنا) ومن كان كذلك لا يكون رسولا ، لأنهم يدعون أن الرسول لا يصح أن يكون بشرا ، وقد سبق لنا الرد على هذه الشبهة الواهية الضئيلة في قصة نبي الله نوح من سورته ثم طالبه بالآية التي تخضع لها أعناقهم إن كان صادقا في دعوى الرسالة ، فقال لهم بعد ذلك التحذري (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فآخذكم عذاب يوم عظيم الخ) فهذه آية الله لنبيه صالح ، وقد صدقه الله وعده ، وحل بهم من العذاب على عقر الناقة ما حل ، وكانت عقوبة الله لهم على عصيانه . والخروج عن أمره آية من آياته ، وعبرة من العبر ، وما كان أكثر قوم صالح مؤمنين برسائله ، ولا موقنين بصدقه ، لذلك حل بهم من العذاب ما حل ، ولا غرابة في ذلك فإن الله عزيز ، والعزيز لا يغلب ، ومع عزه هو رحيم في هذه العزة ، فلا يسلط عذابه للنشئ ، وإنما يسلطه للتأديب والإصلاح في الأرض ، فهو رحيم في عزته لطيف في تأديبه لمن عصاه ، ولا تفهم من قوله (فأصبحوا ناديين) أنهم ندموا على عقر الناقة ندم توبة ، ولكنهم ندموا ندم خائف أن يعاقب على العقور عقابا عاجلا ، ولذلك لم يقدم ذلك الخوف ، فأخذهم العذاب ، ولو كان ندم توبة فانه لا يجديهم ، لأنه هند معاينة العذاب فتوبتهم توبة إلقاء ، لا فضل لهم فيها كتوبة فرعون وهو يقاسى شدة الفرق .

صالح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَجِيبُونَ لِلنِّسَاءِ بِالْأَسِنَّةِ قِيلَ الْحَسْبَهُنَّ لَوْلَا تَسْتَفْرِوْنَ

اللَّهُ لَمَلِكُمْ تُرْمَحُونَ «٤٦» قَالُوا أَطِيعْنَا ^(١) بِكَ وَبِمَنْ مَلَكَ قَالَ طَاعُكُمْ ^(٢)
عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ «٤٧» وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ^(٣) يُفْسِدُونَ
فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ «٤٨» قَالُوا اتَّقُوا اللَّهَ لِنُبَيِّنَهُ ^(٤) وَأَهْلُهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ
لَوْلِيهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ «٤٩» وَمَكْرُؤًا ^(٥) مَكْرَأً وَمَكْرَئًا
مَكْرَأً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ «٥٠» فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِي أُنَا دَرَرْنَاهُمْ
وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ «٥١» فَتِلْكَ يَبُوءُتُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ «٥٢» وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ «٥٣» الخ

شرح وعبرة

(١) يرينا الله في هذه السورة أنه أرسل الى عمود أخاه صالحا ، ولم يلبث أن يدعوهم الى عبادة الله حتى صاروا فريقين مختصمين : فريق مؤمن يدافع عن الايمان بالحجة والبرهان ، وفريق كافر يدعو الى الكفر ويتعصب له ، شأن الناس في كل زمان إذا وصلتهم دعوة جديدة ، فتجدهم سزين : حزب يناصرها ، وحزب يحار بها ، فليست هذه التفرقة ذنبا للداعي ، ولا سيئة من سيئاته ، وإنما هي من طبع الدعوة ، وأثرها الذي لا يشاركها ، وكثير من الناس إذا رأى ذلك الانقسام في بلد من البلاد التي بدأ فيها الوعظ والدعوة الى الله تعالى ينسب الى الواعظ ، ويعتد سيئة من سيئاته ، ويقول : ان فلانا قسم البلاد قسمين ، وشرها الى فريقين ، ولو علم أن الواعظ لم يرد ذلك ولم يعمل له ، وإنما أراد أن تسمع الناس له ، وتضئ إلى قوله ونصائح . لو علم ذلك ما عاب ذلك الواعظ بذلك العيب ، بل لو علم أن سنة الله في الناس إذا جاءهم رسول من الرسل أن ينقسموا إزاء دعوته ، بفريق منهم يناصره ، وآخر يعاديه ويخاصمه — ما عاب الواعظ ولا أضاف له هذه السيئة ، سيئة التفريق بين الناس ، وان نظرة واحدة فيما حولنا من حوادث ترينا كيف كان الناس جد مختلفين أمام دعوة الرسل ، فقد رأينا عند نهضة البلاد إلى طلب استقلالها ، وقيام زعماء فيها ، ينقسمون على أنفسهم اقساما غير محدود ، ويختصمون في مبادئهم اختصارا واسعا ، حتى إنك تجد أهل البيت الواحد على أقسام شتى ، فتجد رئيس البيت في ناحية ، وأبناءه في ناحية أخرى ، وقد تجد الرجل على عقيدة سياسية ، وزوجه على عقيدة تضادها وتصادمها ، فهل الزعيم السياسي هو الذي فرق بين هؤلاء ، أو طبيعة دعوته هي السبب الأول لهذه التفرقة .

[١] ثلثا منا . [٢] سيك الذي يحى منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته .

[٣] من ثلاثة إلى عشرة يقال له رهط . [٤] نابعهم ليل . [٥] دبوا الفلك بصالح في الحفاء ومكر الله اهلهم من حيث لا يشعرون .

وكانت هذه سنة في العالم لا تقبل ، لأن النفوس في استعدادها للحق ، وتقديرها للبرهان والدليل ، وطهارتها من الأمراض التي تحول بينها وبين قبول الدعوة متوافقة بحسب تربيتها ، وما يحيط بها من يثبات وأوساط ، وما ورثته عن البيوت والأسر من أخلاق وعادات ، وآية ذلك اتباع الرسل في كل زمان ومكان ، فانك تجدهم من الضعفاء ، وجهرة الشعب ، وقراء القوم ، وتجد على عكس ذلك السادة والأشراف الذين عبر القرآن الكريم عنهم بـ «مبغضين» ، فالصنف الأول من الناس قد خلت نفوسهم من الحقد ، ولم ينشئوا على الكبر والغطرسة ، ولم يكن لهم من عظمة الآباء ما يخشون إضاعته ، ولا من المكانة في المجتمع ما يحول بينهم وبين اتباع الرسول ، لذلك كان الناس جد متعاونين في قبول الدعوة ، وكان من الطبيعي أن ينقسموا على الداعي ، وينقسموا على أنفسهم فقد كنا نرى في بعض الفترات الإسلامية أن الرجل يقاتل فيمن يقاتل أباه ، وبرز له بالسيف ، وليس ذلك إنكارا لما أسداه له من جيل ، وما قدمه له من تربية ، وإنما هي العقيدة تسلط على النفوس ، واستولت على المشاعر ، فنسيت كل الأوصاف إلا أوصاف الدين ، وروابط الطاعة لله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » ٢٢) (١) .

(٢) هنالك قال نبي الله صالح للغريق الكافر ، وقد بلغ من عناده وعنوده ما بلغ حتى قال له (يا صالح اتقنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) - هنالك قال لهم (يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحون) يريد أن الله تعالى قد مكهم من رحته ونوابه ، فلماذا يستعجلون بالعقوبة السيئة وهي إنابهم بالعذاب الذي توعدهم به نبي الله صالح قبل الالفة الحسنة وهي التوبة فيؤخرونها ، ثم عقب ذلك بقوله (لولا تستغفرون الله لعلكم ترحون) هنالك (قالوا) لصالح (اطيرنا بك وبعين معك قال طائركم عند الله بل أتم قوم تفتنون) كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره ، فاذا مر من الميامن إلى الميامن ، وإذا مر من الميامن إلى الميامن تشام ، فلما نسبوا الخير والنشر إلى الطائر استعبر اسمه لما كان سببها من قدر الله وقسمته ومنه قالوا : طائر الله لا طائر لك : أي قدر الله القالب الذي ينسب إليه الخير والنشر ، لا طائر لك الذي تشام به وتقيم ، فلما قالوا لصالح (اطيرنا بك وبعين معك) أي تشامنا ، قال لهم (طائركم عند الله) أي سبيكم الذي يحجي منه خيركم وشركم عند الله ، وهو قدره وقسمته ، إن شاء وزقكم ، وإن شاء حرمكم ، ويجوز أن يراد بقوله (طائركم عند الله) أن عملكم مكتوب عند الله ، ومن ذلك العمل نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وغفنة ، ومنه قوله (طائركم معكم » ١٩) (٢) (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » ١٣) (٣) .

وانظر كيف يطالب نبي الله صالح قومه باستغفار الله والرجوع إليه ، وعدم التعرض لعذابه فيقولون له (اطيرنا بك وبعين معك) وأى صلة بين طلب المغفرة من الله التي دعاهم إليها نبيهم ، وبين تشاؤمهم به ، لم يكن هناك صلة بين الأسرين ، وإنما هو العناد والعنوة ، وكرهتهم للدعوة ، وتمحل أسباب للجمود والانكار ، ولم تكن تلك المقابلة المنكورة خاصة بقوم صالح ، فهؤلاء

أصحاب القرية يحكي لنا القرآن ما كان منهم مع الرسل (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون «١٤» قالوا ما آتاكم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون «١٥» قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون «١٦» وما علينا إلا البلاغ المبين «١٧» قالوا إنا نطيرنا بكم لننزلهم فتهموا لنرجنكم ولنجنكم منا عذاب أليم «١٨» قالوا طائركم معكم أن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون «١٩» ^(١)) وهؤلاء قوم موسى يقص الله عليهم قصصهم (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون «١٣٠» فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطعموا موسى ومن معه إلا إنما طائركم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون «١٣١» ^(٢)) وقوله (بل أنتم قوم تقنون) أى مستعدون للفتنة والزلافة في عقائدكم بواسطة شياطين الانس والجن فيكم ، ولعله يشير الى أن أولئك القوم لما لم يفتحوا آذانهم للحق ولا قلوبهم للوحى ، بل عموا عن الهدى وصموا ، كانوا بذلك مستعدين لأن يتأثروا بخلط رؤسائهم والمستكبرين منهم ، ولو أنهم اعتصموا بالله لهداهم الى صراط مستقيم وحال بينهم وبين الفتنة .

(٣) ويرينا الله أنه كان فى مدينته تسعة هم رهط ، أو تسعة من الرهط ، والمراد أنهم تسع جماعات . ويرينا أن أولئك كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وأنهم قالوا لبعضهم تقاسموا بالله الخ ، أو قالوا ذلك متقاسمين بالله أن يفاجئوه وأهله بالفتنة ، ثم لنقول لولى أمره وصاحب السهم (ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) .

وانظر كيف عزم قوم صالح على جوعتين ، مباغطة صالح ، ومباغطة أهله حتى لا يوجد من أهله من يرشد الى الحق ، ويصير دمه هدرا ، ثم انظر كيف يؤكدون ذلك الزم على الجوعتين بالقسم بالله ، ثم انظر كيف يدبرون حيلة ليخلصوا بها اذا وجه اليهم اتهام : هي أن يقولوا لولى أمر صالح (ما شهدنا مهلك أهله) كأنهم اعتقدوا أنهم إذا يتوا صالحا ويتوا أهله جمعوا بين البياتين ، ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما كانوا صادقين ، لأنهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما ، أو ما حضرنما مهلك أهله ، وإنا لصادقون ، لأن الشاهد للشيء غير المباشر له .

هذه حيلتهم التى دبروها ليخلصوا بها من ولى نبي الله صالح ، وهى حيلة مكشوفة ، وكيف ينجو من قتل صالحا وأهله إذا قال ما قتلت أهله ! ! أم كيف يصدق من قتل محمدا وإبراهيم ، ثم قال ما قتلت إبراهيم ، لأنه قتل محمدا معه ! ! ثم كيف يكونون صادقين فى قولهم (ما شهدنا مهلك أهله) لأن الشاهد للشيء غير المباشر له ، مع أن المباشر للقتل قاتل وشاهد . لأن الشهود هو الحضور ، ومنه أخذت الشهادة ، لأن الأصل فى الشاهد أن يكون حاضرا مع المشاهدة بالبصر أو البصرة ، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم (لا يشهدون الزور) أى لا يحضرونه ، فهم ينفرون من حضور مجلسه فضلا عن الشهادة عليه . ثم تأمل كيف يحرضون على الصدق ولا يبالون بقتل نبي من الأنبياء ؟ وهل ذلك القتل من الصدق مع الله فى عهوده ومواثيقه التى أخذها على عامة البشر ؟ وهل أولئك القوم إذا كانوا صادقين فى ظاهر الأمر أمام الناس قد صدقوا أئام أنفسهم ومن قرارة قلوبهم ؟ وهل هذا الاعتراف بفتح الكذب ، وإيمان بأن النظر لا ترضى لأصحابها إلا

الصدق ، ولتلك تحتال في الحصول عليه ، وتكذب في الفرار من الكذب ؟ تلك النظر التي تكافح عن الكفر ، وتحارب الرسل ، وتعمل لتدمير المكائد لها ولدعوتها ، ولو لم يكن من قبح الكذب سوى فرار الكفرة أعداء صالح نبي الله منه لكفى أهله معرة وضا .

(٤) ثم أرانا الله تعالى أنهم دبروا لنبي الله مادبروا ، واحتالوا لاهلاكه ما احتالوا ، فدبروا أن يباغثوه ليلا حتى لا يراهم أحد ، ولا يستعد هو لمصهم ، ثم دبروا أن يكون التبيت له ولأهله حتى لا يوجد من يرشد إلى الجريمة إذا هي وقعت ، ثم دبروا أن يقولوا لوليه ماشهدنا مهلك أهله ، دبروا ذلك كله وهم لا يشعرون أن تدبير الله فوق تدبيرهم ، ومكره غالب على مكروهم ، لأن مكروهم شر كله ، أما مكر الله فهو للخبر العام ، ولتلك يقول (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين «٥٤» (١)) وقال (ولا يبيح المكر الله إلا بأهله «٤٣» (٢)) ثم قال (فانظر كيف كان عقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) وبعد أن أرانا أنه أهلكهم وقومهم قال (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) من أراد أن ينظر إليها فينظر ، خالية من ساكنيها ، أو ساقطة متهدمة ، إن في ذلك للذي حلّ بقوم صالح لعبرة لقوم هم من أهل السلم والذكرى ، وأرانا بعد ذلك أنه أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون الكفر والمعاصي من هذا التدمير العام ، والعذاب الشامل .

دعوة إبراهيم

إلى الله تعالى

وَإِذِ ابْتَلَىٰ (٣) إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً (٤) لِلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

[١] آل عمران . [٢] طه . [٣] اخبر . [٤] مرجأ .

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا (١) وَثُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْنِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ (٢) نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْمَلَكِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ (٣) الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) البقرة

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه اختبر إبراهيم عليه السلام بتكاليف فأتمها إبراهيم ، وقام بها كما يريد الله ، ولم يبين لنا ماهذه الكلمات ، وماعدها ، وحسبنا أن نعرف أنها تكاليف اختبر بها نبي من الأنبياء فأدّاها كلمة غير منقوصة ، ومن فوائد ذلك الابتلاء تعريف إبراهيم عليه السلام بنفسه ، وأنه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يوجه إليه ، وهذه الكلمات التي اختبر بها نبي الله إبراهيم كالتحميد لجعله إماما للناس ، ولتلك يقول عنها (قال اني جاءك للناس إماما) ولم يقل فقال اني جاءك ليدلنا على أن هذه الامامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب انعام الكلمات ، فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهي لاتنال بكسب الكاسب ، والمراد أن إبراهيم عليه السلام جدير بذلك للنصب للجليل وهو امامة الناس ، قاله تعالى قد جعل الرسالة في مكانة هو أهل لها ، ولعلنا نلح من هذه القصة أن منزلة الرجل من ربه تكون بمقدار قيامه بما أوجبه الله عليه ، وعنايته بالتكاليف ، والناس جد متفاوتين في أداء أولئك التكاليف (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فهم ظالم لنفسه ومنهم مقصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير (٣٣)) (٤) لم يقنع إبراهيم بأن يكون إماما للناس وقدوة سالحة

[١] عللنا مناسكتنا ، جمع منك من النسل بضمين ، وهو غاية العبادة ثم غلب استماله في عبادة الحج .

[٢] القرآن ، وقيل مصدر كتب ، والمراد صنعة الكتابة لحاجة الآلة إليها لأنها أمة أمية ، و « الحكمة » معرفة سرّ النى وفائده ، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ، مأخوذة من الحكمة بالتحريك ، وهي ما أحاط بمحكى الفرس من العلم ، ولى ذلك معنى ما يضبط النى ، ومن ذلك إحكام النى . وإنقائه .

[٣] استن . [٤] اختاره لكم . [٥] فاطر .

فطلب من الله تعالى أن يجعل من ذريته أئمة للناس ، وقد جرى إبراهيم على سنة الفطرة في دعائه فان بقاء الترية الصالحة بقاء للانسان ، ولذلك دعا بمثل ذلك في سورة ابراهيم (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) وقد راعى الأدب في الطلب فلم يطلب الإمامة لجمع ذريته بل لبعضها ، لأنه الممكن ، وفيه ارشاد لأدب من آداب الدعاء ، وهو أن يكون موافقا لسنة الله في خلقته ، وقد أجاب الله نبيه ابراهيم بقوله (قال لاينال عهدي الظالمين) وهو وعد ضمني بأن يجعل من ذريته أئمة للناس ، ولكن عهده بالامامة لاينال الظالمين ، لأنهم ليسوا أهلا لأن يقتدى بهم ، لينفرد ذرية ابراهيم من الظلم ليتحاموه ، وينشثوا أولادهم على كراهته ، ولتغير سائر الناس من الظالمين ، وترغبهم من الاقتداء بهم .

يذكرنا الله تعالى بهذه القصة قصة ابتلاء ابراهيم بكلمات وأعماله لها ، وجعله إماما للناس وقدوة صالحة في الخير ، وحرص على أن تبقى الإمامة في ذريته ليدوم الإصلاح في الأرض ، واقتصاده في الدعاء بوقفه عند ماقتضى به سنن الفطرة من أن الناس فهم الصالح ، وغير الصالح . يذكرنا بذلك كله علنا نكون أئمة في الخير ، وقدوة صالحة في القيام بالتكاليف ، والوقوف في أديتنا عند حدود الأدب .

(٢) يذكرنا نعمة أخرى هي جعله البيت الحرام ممجعا للناس ، يأمن فيه الخائف ، ويطمئن عنده المذعور ، وقد أودع الله في قلوب جميع الطوائف محبة هذا البيت ، وإجلاله ، واحترام اللابئين إليه ، وامتثالهم على العرب بقوله (أولم يروا أنا جعلنا حرمنا آمنا ويتخطف الناس من حولهم)^(١) وقال لهم للتأسي بابراهيم (واتخذوا من مقام ابراهيم محلي) وهو الحرم كله ، أو موافق الحج كلها ، وعهد لابراهيم واسماعيل بطهارة البيت من الأرجاس حسيا ومعنويا كالشرك وأصنامة واللغو والرث والتاذورات (للطافين والعاكفين والركع السجود) ليرينا كيف نهتم ببيوت الله تعالى وأماكن العبادة ، ونطهرها من الأرجاس كما طهرها نبي الله ابراهيم وولده اسمعيل ، وانها لمهمة شاقة ومجهد كبير ، وقد تأسي بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطهر الكعبة مما حولها من الأصنام فكان بيت الله خالصا لوجهه ولابعد فيه غيره ، ولا يصمد فيه سواه .

وها هي بيوت الله اليوم ، ومساجد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، كثير منها أنشئت على قبور الصالحين ، وقباب لأشاهير منهم ، ولا سيما المساجد التي أنشئت في عهد الفاطميين .

هاهي بيوت الله يطالبنا الله بطهريتها من الرجس ، وابعادها من الشرك ، لتكون عبادة الله فيها خاصة لوجهه ، والتوجه إليها توجها الى الله وحده ، لا توجها إلى صاحب القبر ، ولا استعانة به في شأن من شئون الحياة ، فهل عهد الله الى ابراهيم واسماعيل بطهارة البيت الحرام خاص به ، أو هو عام ينبغي أن يكون في كل مسجد من مساجد المسلمين ، وكل معبد أعدوه لما تعد له من المساجد من صلاة ودعاء ، ان الأسوة الحسنة في ابراهيم واسماعيل تقتضي على المسلم أن يترسم خطاهما في كل عمل من أعمال الخير ، ولا سيما عمل يتعلق بتوحيد الله في العبادة ، وتطهير أماكن العبادة من الشرك وذرائع الشرك ، وإذا كانت مساجد المسلمين التي بها قباب ومشاهد للصالحين

قد خلت من الشرك الظاهر فانها لم تخل من الشرك الخفي - وذرائع الشرك ، وإن كنت في شك من ذلك فاذهب الى مسجد الحسين رضى الله عنه أو مسجد الامام الشافى فانك ترى فيه مالا يرضاه الله ولا يرضاه صاحب القبر .

(٣) يذكركم الله تعالى بدعوة ابراهيم أن يجعل الله مكة بلدا آمنا لا يستطيع أن يعتدى عليه أحد بسوء ماء ، وهي غير آمن للناس فيه التي آمن الله بها ، وكذلك يذكركم بدعوته أن يرزق أهل ذلك البيت المؤمنين منهم من الفترات ، وقد أجاب الله دعوته فقال (أولم نمكن لهم حوما آمنا يحجي اليه ثمرات كل شئ رزقا من لهما ولكن أكثرهم لا يعلمون «٥٧») ثم أراه أنه سيرزق من كفر كما يرزق المؤمن فان رزق الدنيا علم للمؤمن والكافر (كلا تمت هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوظا «٢٠») ولكن تتبع الكافر محدود بذلك العمر القصير ، ثم يضطره الله الى عذاب النار وبئس المصير .

(٤) يذكركم الله تعالى بقصة بناء ابراهيم واسماعيل للبيت ورفع قواعده ليرينا أن إقامة بيوت الله التي أعدت لعبادته وتقديسه من أهم القرب التي يتقرب بها الى الله تعالى ، وأنه لا ينبغي لإنسان كائنا من كان أن يستنكف من مسامحته فيها ، وأخذ يحفظ وافر منها ، فهذا نبي الله ابراهيم وولده اسمعيل رضوان قواعد البيت ، ويؤسسان أصوله بأنفسهما كما هو الظاهر من نسبة العمل اليهما ، وانهما لقدوة حسنة في ذلك العمل الجليل ، وأسوة صالحة لمن بعدهما من عباد الله المؤمنين ، لم يستنكف نبي الله ابراهيم ولا ولده اسمعيل أن يكونا عاملين في بناء البيت ، لأنهما يعلمان أن ذلك العمل مما يثيب الله تعالى عليه ، ولذلك أخذوا يلهجان بالعماء خلال ذلك العمل أن يتقبل الله منهما عملهما ، فانه السميع لأقوالهما ، العليم بنياتهما ، وأن يجعلهما منقادين له ، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له ، ليبقى توحيد الله في الأرض ببقاء القرية ، كما طلبا منه أن يجعلهما مناسكهما ، ويتوب عليهما إنه هو التواب الرحيم .

يذكركم الله تعالى بذلك كله ليعلمنا كيف تتأسي بابراهيم وولده اسمعيل في إقامة بيوت الله ، وأن ترجع اليه في قبول الأعمال ، وأن نلجأ اليه في تعليمنا أمور الدين ، وفي قبول توبتنا .

(٥) من دعا نبي الله ابراهيم أن يبعث في ذريته رسولا منهم ، يتلو عليهم آيات الله ودلائل قدرته ، وعلمه وحكمته ، ويعلمهم القرآن ، ويوقفهم على أسرار الشريعة ، ومقاصد الأحكام ، وتلك هي الحكمة التي قال الله فيها (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الأبواب «٦٩») وقد أجاب الله دعوته كما ورد في حديث أحد «أنا دعوة ابراهيم وبشارة عيسى . ثم أرانا الله بعد ذلك أنه لا يرغب عن ملة ابراهيم من التوحيد الخالص ، واسلام الوجه لله ، والقيام بما أوصاه الله كاملا غير متقوص ، إلا من امتن نفسه وازدرأها ، وأن الله اختاره في الدنيا لإمامة الناس ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، وانه في الآخرة لمن الصالحين لجواربه ، للمتقين برحمة ورضوانه ، لأن الله قال له أسلم فقال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها ابراهيم بنبيه ويعقوب وهو يقول يا بني إن الله اصطفى لك الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

إبراهيم عليه السلام

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزَّرَ اتَّخَذَ أَصْنَانًا ^(١) ، إِلَهَةً إِنِّي أُرِيدُ أَنْ مَنِّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ^(٢) ، وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ^(٣) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٤) ، فَلَمَّا جَنَّ ^(٥) عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ^(٦) ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَا كُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ^(٧) ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ^(٨) ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا ^(٩) ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(١٠) ، وَتَجَاءَ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي آلِهَةٍ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ^(١١) ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ^(١٢) ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ^(١٣) ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ^(١٤) ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ^(١٥) ، آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ^(١٦) ، الْأَمَامُ

شرح وعبرة

(١) برينا الله تعالى أن نبي الله إبراهيم رأى أباه وقومه يعبدون الأصنام فأفكر عليهم ، ولم تكن الأبوة من ذلك الانكار ، لبرينا أنه لم يكن من الأدب مع الآباء تركهم ومأم فيه من باطل تأديبا معهم ، ولئن كان ذلك العمل مغضبا للآباء فهو مرض للرب ، وحتى الله فوق حق الآباء ، ومن

- [١] قيل فرق بين الوثن والعثم ، هو أن الوثن ماله جثة تنصب تقصد ، والعثم الصورة بلا جثة ، وقيل لافرق بينهما ويطلق على اللتين . [٢] ملك . [٣] غطاء ، أفل : غاب واحتجب . [٤] من الخفاء بالتحريك ، وهو الليل من اللوح إلى الاستقامة . [٥] برهانا ، يلبسوا : يخلطوا . [٦] الدلالة للجنة للعصاة اللذين .

ناحية أخرى فان الأب قد أحسن الى ولده الاحسان كله بتربيته والانعام عليه ، فكان من اللاتى مكافأته على ذلك الاحسان ، وان أكبر إحسان للأب دعوته الى مافيه سعادته ، وانقاذه من عذاب الله ، ومن فوائد دعوة ابراهيم لأبيه أن يتم الحجبة على قومه ، حتى لا يقولوا لماذا يدع أقراره في ضلالمهم ويدعوننا ؟ أليس من اللاتى أن لايفرق بين قريب وبعد إذا كان مايقوله حقا ، فلكي تنقطع أعذارهم دعا أباه الى عبادة الله وحده ، كما دعا قومه ، ولعل هذا هو السر في تكليف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بانذار عشيرته الأقرين قبل انذار لقومه ، وقد صدع بالأمر ، وأخذ بجمعهم ويخوفهم من الله ، ويريههم أنه لايفنى عنهم من عذاب الله شيئا إذا هم خالفوه ، وأخذ يقول «ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا . ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا ويافاطمة بنت محمد سليني ماشئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئا (١) » من ذلك نعرف أن نبي الله ابراهيم كان قويا في الحق ، شديدا على أهل الضلال أيا كانت مكاتبتهم منه ، ألا تراه يقول لأبيه آزر (انى أراك وقومك في ضلال مبين) وكما أرى الله ابراهيم قبح عبادة الأصنام أراه «ملكوت السموات والأرض» وما أودع فيها من آيات ، وما اشتتلا عليه من دلائل ولأجل أن يكون ابراهيم موقنا بوحدة الله وقدرته وحكمته فعل به ما فعل ، وأراه بعيني بهسيرته من جلال الله وجماله ما أراه .

(٢) تأمل كيف استطاع ابراهيم عليه السلام أن يحج قومه بطريق الاستدراج ، فحينما غطى عليه الليل رأى كوكبا فقال لقومه بأسلوب التهكم (هذارى) فلما غاب ذلك الكوكب قال (لا أحب الآفلين) فلا أعبد إلها يحضر أحيانا ويغيب أحيانا (فلما رأى القمر بازغا قال هذارى فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكون من القوم الضالين) وكيف أعبد إلها بضئ بعض الوقت ويغيب البعض الآخر ، ومن الذى يهدينى من الضلال إذا هو غاب ؟ (فلما رأى الشمس بازغة قال هذارى هذا أكبر) لأن ضوءها أشد ، ونفعها أشمل وأعم (فلما أفلت قال يا قوم انى برئ مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض خفيما وما أنا من المشركين) وهى مهارة من نبي الله ابراهيم ، واستدراج للقوم حتى أقام عليهم الحجبة ، ووضع أيديهم على مواطن الضعف منهم ، انتقل بهم من كوكب الى كوكب ، وأراهم أن موقفه منهم موقف الباحث ، حتى لايفتروا من مجادلته ، وأراهم أن الكواكب على اختلافها قوة وضعفا لا يصلح واحد منها أن يكون إلها معبودا لأنها قتيب وتحضر ، ثم بعد أن أقام الحجبة عليهم بذلك الأساليب اللين ، أملى عليهم عقيدته ، فأراهم أنه برئ مما يشركون بالله ، وأنه أسلم وجهه للذى فطر السموات والأرض مائلا من الباطل الى الحق ، وما أنا من المشركين .

(٣) يرينا الله تعالى أن قوم ابراهيم جادلوه في الله ، وحاجوه في توحيد ، وخوفوه من آلهتهم أن يصيبه سوء منهم ، فأنكر عليهم هذه المحاجة وقد هداه الله تعالى الى التوحيد ، وأراهم أنه لا يخاف شركاهم أن ينزلوا به سوا إلا اذا شاء الله ذلك السوء ، فهو الذى يخاف ، لأنه وسع كل شيء علما ، ولو كانوا من أهل التذكر ماخوفوه من آلهتهم ، ثم أراهم أنه كيف يخاف شركاهم وهم

خلق من خلق الله ، ولا يخافون هم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم بهانا ودليلا ، وأى الفريقين أحق بالأمن : إبراهيم الموحّد ، أم قومه المشركون ، ثم ختم الآية بقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ليريهم أن الأحقّ بالأمن هم أهل التوحيد الخالص ، والإيمان الصحيح ، الذين لم يخلطوا إيمانهم بظلمهم لأنفسهم ، أما أهل الشرك ، وعباد الأوثان فلبسوا أهلا للأمن من عذاب الله ، وطمانينة القلب (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » ٣١) (١) .

(٤) بعد ذلك امتنّ الله تعالى على إبراهيم بتلك الحجة العظيمة التي أقامها إبراهيم عليه السلام على قومه ، وأنّ القى آتاهها إبراهيم هو الله تعالى ، ولولا هدايته لأقامة هذه الحجة ما اهتدى ، فهو الذي يرفع من يشاء في العلم والحكمة وإقامة الحجة درجات ، وهو الذي يهب الناس قوة اليان ، وحضور البديهة - يمتنّ الله تعالى على إبراهيم بأنه آتاه حجة بالغة ، وقد أرناك في هذه السورة كيف تقبل إبراهيم على قومه بذلك الأسلوب الساحر ، وأعجب منه تلك المحاجة التي ينهنا الله لها في سورة البقرة (ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يعبى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالين » ٥٨) يقول إبراهيم لمناظره (ربى الذى يعبى ويميت) والمراد أنه هو الذى يهب الحياة وينزعها فقال (أنا أحيى وأميت) يريد أنه يستبق الحى ، وتلك حياة له ، وأنه يعتدى على الحى فيموت ، وبذلك ظنّ أنه بمقابل إله إبراهيم ، وأنه حجة ، فترك إبراهيم عليه السلام ذلك الطريق ، وسلك به أسلوبا آخر لا يستطيع أن يردّ عليه ، فقال (ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وهى حجة لا تقبل جدلا ، ولا تتحمل تأويلا ، ولذلك بهت بها الذى كفر ، وطلج بها نبيّ الله إبراهيم ، وهى مقدرة عظيمة ، وقوة نادرة يهبها الله لمن شاء من عباده ، ومن شكر الله على هذه النعمة أن لا نستعملها فى إضعاف حقّ ، أو ترويج باطل ، وأن لا نفضلها عند الحاجة إليها ، وكثير من الناس يعطى حجة دامغة ، ويأينا قويا ، ولكنه يقف من الحق كالشيطان الأخرس ، يسكت على الباطل حتى يشيع ، ويترك الحق مخذولا غير منتصر ، وسيحاسبه الله تعالى على ذلك البيان بهذه النعمة (ثم لتسألن يومئذ عن النعم » ٨) (٢) .

إبراهيم عليه السلام

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ « ٣٥ » رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ
عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ « ٣٦ » رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ

ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً ^(٣٧) مِّنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ^(٣٨) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ
مَا تُخْفِي وَمَا تُكْذِبُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ^(٣٩)
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ^(٤٠)
رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ^(٤١) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي
وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ^(٤٢) إبراهيم

شرح وعبرة

(١) أمم شيء في هذه القصة من سورة إبراهيم عليه السلام التأمي به في الدعاء ، وهو باب
كبير من أبواب عبادة الله تعالى ، وقد ورد في الحديث الصحيح « الدعاء هو العبادة » لأنه مظهر
واضح من مظاهر العبودية للذوق ، واعتراف بأنه أهل لأن ترفع له الحاجات ، ويلجأ إليه
الداعون عند الشدة ، وقد غفل كثير من الناس عن ذلك فوجها وجوههم شطر الصالحين ،
وبعوا الأضرحة والتوابيت ، وأخذوا يستغيثون بأصحابها ، ويستنصرون بهم في قضاء حوائجهم
(ولانزع من دون الله مالا ينفك ولا يضررك فان فعلت فانك إذا من الظالمين ^(١٠٦) وان
يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده
وهو الغفور الرحيم ^(١٠٧) » (٢) .

(٢) طلب من الله تعالى أن يجعل مكة حراما آمنا من اعتداء الناس عليه ، وقصده بسوء
وأن يجنبه وذريته عبادة الأصنام التي كان يفضها يفضا شديدا ، وقد بين سبب بفضه
لها في قوله (رب انهن أضللن كثيرا من الناس) وما كان سببا في ضلال الناس جذيره به أن
يفض ، وجدير به أن تظهر منه الأرض ، ولذا تجد نبي الله إبراهيم في سورة الأنبياء أقسم بالله
ليكبدن أصنامهم ، وقد بر في قسمه (فجعلهم جذا لإلكبريا لهم لعلمهم إليه يرجعون ^(٥٨) ») (٣)
ليرينا أن الطريق في إفراد الله بالعبادة : هي إزالة كل أسباب الشرك ، وذرائع الوثنية ، وهو
الذي حل رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم على أن يزيل من حول البيت كل صنم ، وحل
خلفاء الراشدين أن لا يدعوا تمثالا إلا هدموه ، ولا قبرا مشرفا على الأرض الاسوء ، وهو الذي
حل عمر بن الخطاب أن يقطع الشجرة التي كانت عندها بيعة الصحابة حينما شعر أن الناس
سيتركون بها ، فرأى أن ذلك عرق من عروق الشرك ، وباب من أبواب الفساد ، وذلك السبب
نفسه هو الذي حله على أن يزيل مظلة وضعها بعض الناس لأحد الموتى ، فسأله لماذا وضعت عليه
هذه القبة ؟ قال لتظله ، فقال عمر ودعوه يظله عمله .

وهو الذى دعا المسلمين فى الصدر الأول لازالة القباب من فوق القبور ، وهو الذى حل الامام عبد العزيز آل سعود على أن يزيل القباب من بلاد الحجاز كما أزالها سلفه فى نجد — كل ذلك لأنها نفل كثيرا من الناس ، وتفتح عليهم بابا من أبواب الشرك ، فالتأسى بإبراهيم عليه السلام فى بغضه للشرك وذرائع الشرك ، والتأسى بإبراهيم عليه السلام فى تطهير الأرض من كل ماله علاقة بالشرك ليقى توحيد الله خالصا لا يشوبه شئ من الوثنية ، والتأسى بإبراهيم عليه السلام فى تدبر هذه الكلمة التى قالها نبي الله إبراهيم (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) لتعرف أسباب فتنة الناس فى دينهم ، وصرفهم عن الحق الذى أتى به الرسل ، فكل من كان قدوة سيئة فى الباطل ، وسببا فى صرف الناس عن الدين ، ينبغي للؤمن أن يبغضه ، ويعمل على الحيولة بينه وبين الناس ، حتى لا يقتنوا به ، ثم قال إبراهيم (فمن تبغى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) يريد إبراهيم أن من تبعه فى حجة الحق والعمل له فانه بعض منى ، وقد أجاب الله فيه دعوته ، ومن عصانى ثم تاب عما فرط منه فان الله يغفر له ذنبه ، ويقبل توبته .

(٣) ثم دعا ربه أن يجعل قلوب الناس تهوى الى بعض أبنائه الذى أسكنهم مكة عند بيت الله المحرم ، وهى بلد مجذب لازرع فيه ، وأنه يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون فضله عليهم ، وقد أجاب الله دعوته ، فحب الناس فى ذلك البيت ، وأودع فى قلوب الناس اجلاله وتوقيره ، وجلب اليه الثمرات من جهات شتى ، فترى فيه الفاكهة على اختلاف أنواعها (أولم نمكن لهم حوما آمنا يجرى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لينا ولكن أكثرهم لا يعقلون «٥٧») ثم قال مخاطبا لربه (إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شئ فى الأرض ولا فى السماء) وما طلبنا منك لتعرفك ما لا تعرف ، وانما طلبنا منك اعترافا بقدرتك ، وذعانا لربوبيتك ، واقتنارا لما عندك ، واستعجالا لنيل أباديك ، ثم جدر به أن وهبه مع كبر سنه اسماعيل واسحق ، بعد أن طلب منه أن يهبه ذرية سالحة ، جده أن سمع دعاءه ، وأجابه الى ما طلب ، ثم طلب منه أن يجعله مقبلا للصلاة ، وأن يجعل من ذريته من يقيمها ، وأن يتقبل دعاءه ، ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

إبراهيم عليه السلام

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٢٠» شَاكِرًا لِأَنْعُمِ أَجَبَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «١٢١» وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ «١٢٢» ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٢٣» النحل

شرح وعبرة

(١) ان القلم ليقت حيران لا يبرى ماذا يكتب في تصوير هذه الكلمة التي وصف الله بها نبي الله ابراهيم ، وتقريبها من نفوس القارئين ، وهو يقول (ان ابراهيم كان أمة) ولو أمعن الانسان النظر فيها لراى أنها مقال مسهب في مدح نبي الله ابراهيم ، بل هي رسالة من رسائل الشفاء ، برينا الله بها أن ابراهيم قد بلغ من الكمال في صفات الخير ما استحق به أن يكون أمة وحده ، فكل ما تفرق في الناس من خلال طيبة وشيم مرمضية ، وخلق طاهر ، قد جمعه الله تعالى لنبيه ابراهيم ، وبذلك صار ابراهيم أمة ، فهو أمة في الدعوة الى الله تعالى ، في الاحتمال والصبر ، في لين الجانب وجال الأسلوب ، في التثبت على الحق ، في التأفف من الباطل ، والاشتزاز منه ، وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، في التواضع والخشية من الله تعالى وما إلى ذلك من صفات الكمال .

وليس على الله بمقتسك أن يجمع العالم في واحد
(٢) ثم وصف الله تعالى ابراهيم بأنه (قانت) لله وهو القائم بأمر الله تعالى ، الخاضع له ، و (حنيف) وهو المائل الى ملة الاسلام ميلا لا يزول عنه ، وقوله (ولم يك من المشركين) ردة على اليهود الذين ادّعوا أنهم على ملة ابراهيم ، وكذلك النصارى ، وأخذ كل فريق يضمه إليه على ما هم عليه من الشرك .

وقد ردت الله عليهم في سورة آل عمران (يا أهل الكتاب لم تحتاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون «٦٥» هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون «٦٦» ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين «٦٧» إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين «٦٨» . ومن خلال ابراهيم أنه شاكر لأنعم الله ، وهي كلمة جامعة لأنواع الشكر الذي يقابله الكفر ، ومن الغرض من شكر ابراهيم لربه أن يفسره بعض العلماء بأنه عليه السلام كان لا يتغذى إلا مع ضيف ، إلا أن يكون ذكر ذلك على سبيل المثال ، وإلا فالشكر لأنعم الله تعالى أعم من شكره على نعمة المال ، والولد ، والصحة ، وغير ذلك من أنواع النعم التي لا يحصى العدد ، وما أحسن قول الله (اجتنبوا هذه الى صراط مستقيم) فإن الاجتناب هو أن تأخذ الشيء ، جميعه ، من جيبت الماء في الخوض : جمعه ، فالاجتناب : الجمع على طريق الاصطفاء ، وكأن الله تعالى يلفتنا الى أن الله ضمّه اليه ليصطفيه لذلك المنصب الجليل ، وهو منصب النبوة ، في هداية الى صراط مستقيم في الدعوة الى الله تعالى ، والترغيب في الدين الحق ، والتفكير عن الباطل ، ثم قال (وآتيناه في الدنيا حسنة) قيل هي إقرار أهل الأديان به ، وقيل هي قول المصلي (كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم) وقيل الذكرى الطيبة تحقيقا لطلبه (واجعل لي لسان صدق في الآخرين «٨٤»^(١)) وقيل الصدق والوفاء والعبادة ، وبصح أن يراد بالحسنة كل ذلك (وانه في الآخرة لمن الصالحين) كما طلب (رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين «٨٣»^(٢)) .

(٣) برنا الله تعالى أنه بعد أن عرف محمد صلى الله عليه وسلم ما كان عليه إبراهيم من كمال الصفات ، وأحسن الأخلاق ، وبعد أن عرفه أنه كان أمة جامعاً لصفات الخير ، مطيعاً لله مائلاً عن الباطل إلى الحق ، وأنه كان شاكراً لنعمة الله ، وأن الله اجتنبه وهداه ، وورقه حسنة في الدنيا وهو في الآخرة من الصالحين - بعد ذلك كله أراه أنه أوحى إليه أن يقبع ملة إبراهيم ، ويتأسي به في الاحتمال والصبر على إيذاء الناس له ، ووضعهم العقبات في سبيل دعوته ، ومجادلتهم بالحسنى فالمراد أن يقبع في طريق الدعوة إلى التوحيد ، وهو أن يكون بطريق الرفق والسهولة ، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى ، ونظيره (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده «٩٠») (١) وقوله (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم «٣٥») (٢) أو يقبع ملته في التوحيد الخالص ، وبضنه للشرك وذرائع الشرك .

وقد خص إبراهيم بذلك لأنه رئيس الموحدين ، وقدوة العباد والناسكين . والمشركون على اختلاف نحلهم كانوا مفتخرين به ، معترفين بحسن أسلو به ، مقرّين بوجوب الاقتداء به ، وآية ذلك أن اليهود ادّعوا أنهم على ملته ، والصابري يقولون : أنهم على طريقته . وقد ردّ الله عليهم بأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، فلم يكن معهم في الشرك ، فإذا شتم النسبة إليه فانبهوه في التوحيد ، واسلكوا طريقته في ملته الحنيفية ، فلا عجب أن ينفي الله عن نبيه إبراهيم في هذه القطعة من السورة نسبته إلى الشرك مرتين ، فمرة يقول (ولم يك من المشركين) ومرة يقول (وما كان من المشركين) .

(٤) وهناك نكتة لطيفة في قوله (ثم أوحينا إليك إلخ) ترينا أن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة ، وأعظم ما جاءه الله تعالى من نعم ، اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته ، وهي تدلّ على تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلال مكانته ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وتابعيه ، وعلى حامل لواء التوحيد نبي الله إبراهيم صلاة تليق بمقامهم ، وتناسب مع مكانتهم ، وعلا منزلتهم .

إبراهيم عليه السلام

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا ^(١) نَبِيًّا «٤١» إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا يَأْتِي لَمْ تَعْبُدُوا مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا «٤٢» يَأْتِي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا «٤٣» يَأْتِي لَا تَعْبُدِ ^(٢) الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا «٤٤» يَأْتِي لِي أَخَافُ

[١] الأسماء . [٢] الأخلاق . [٣] خلقه الصديق . [٤] تلع .

أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَكَوْنُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ
عَنِ الْهَيْبَةِ يُلْزِمُهُمْ لَنْ لَمْ تَنْتَ لِأَرْجُحَكَ وَأَهْجُرْني مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَّمَ
عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَا أَكُونُ بِدُعَاكَ رَبِّي شَفِيًّا ﴿٤٨﴾ مريم

شرح وعبرة

(١) يَا مَرْيَمُ إِنَّكِ عَلَى إِحْسَانٍ قَدْ جَاءَ لَكِ الْوَحْيُ غَيْرِ الْمَوْتِ وَتُحْيِينَ الْمَوْتِ
بِسِرِّهِ، وَيَذْكُرُوا بِحُجَّتِهِ، وَقَدْ كَانَ أَوَّلُ خَلْقٍ فِي نَبِيِّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، وَ «الْصَّادِقُ»
مِنْ أَسْمَاءِ الْمُبَالَغَةِ كَسَنَاطِقٍ، وَاسْتَحَقَّ ذَلِكَ الْقَبْلَ الْكَبِيرَ لِفُرْقَةِ صَدَقِهِ، حَتَّى صَارَ الصَّدَقُ خَلْقًا
رَاسِخًا فِيهِ، أَوْ لِفُرْقَةِ صَدَقَتِهِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ، فَهِيَ اللَّهُ «صَدِيقًا» لِقَلْبِكَ وَكَانَ مَعَ
ذَلِكَ نَبِيًّا، أَمَّا كَانَ جَامِعًا خَاصِّ الصَّادِقِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ حِينَ خَاطَبَ أَبَاهُ ذَلِكَ الْمُخَاطَبَاتِ .
وَنَاقِلُ كَيْفَ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ الْوَصْفِ، وَهُوَ أَنَّهُ صَدِيقٌ قَبْلَ أَنْ يَصِفَهُ بِالنَّبُوءَةِ، لِبَرِيَّةِ قِيَمَةِ
الصَّدَقِ وَأَنَّهُ مَلَائِكَةُ أَمْرِ النَّبُوءَةِ. وَلِهَذَا فِي ذَلِكَ مَذْكُورًا لِقَوْمٍ يَطْمَعُونَ فِي إِمَامَةِ النَّاسِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ
لَا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْكُذْبِ، وَإِذَا أَنْتَ أَخَذْتَ تَلَوْمَهُمْ وَأَيَّتْ مِنْهُمْ الْمَعَاذِيرَ تَلَا الْمَعَاذِيرَ، وَأَسْهَلَ شَيْءٍ
عِنْدَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: أَنَّهُ كَذَبَ قَضَتْ بِهِ الْمصلحة، وَمَادَرُوا أَنْ هَذَا الْعَذْرُ يُنْفَعُ عَلَيْهِمْ بَلَاءٌ مِنْ أَبْوَابِ
جَهَنَّمَ، وَأَيُّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْكُذْبِ لَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ أَنْ يَسْتَنْدِعَ عَنْهُ بِمَثَلِ هَذَا؟ فَشَاهِدُ الزُّورِ
أَمَامَ الْحَاكِمِ يَحْتَرِفُ فِي الشَّهَادَةِ لِأَنَّهُ يَحْرِضُهُ لَهَا قَضَتْ بِهِ مصلحته الْمَاضِيَّةُ، وَكَلَّمَ الشَّهَادَةَ بِكَلَمِ شَهَادَتِهِ
لَا عِتْقَادَهُ أَنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةُ إِنْ أَذِيتْ عَلَى وَجْهِهَا الصَّحِيحَ أَضَرَّتْ بِالْمَشْهُودِ عَلَيْهِ، وَالَّذِي يَفْتِي
النَّاسَ بِشَيْءٍ مَا يَعْتَقِدُ اتِّبَاعًا لَشَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ نَحْوُ هَذِهِ الْفَتَوَى ضَرَرًا بِالْحَقِّ بِهِ، أَوْ يَجْلِبُ
نَفْعًا يَهُودُ عَلَيْهِ، وَكُلُّ كُذْبٍ مِنَ الْعِتْلَاءِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِفَيْرِ مصلحة، إِمَّا جَلِبُ نَفْعٍ، أَوْ دَفْعِ
ضَرَرٍ، وَلِلَّذَلِكَ عَظَمُ أَمْرِ الصَّدَقِ، وَإِقَامَةُ الشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا الصَّحِيحِ (بِأَيِّهَا التَّحِينَ أَمَّنُوا كَوْنُوا
قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ^(٢)) وَهِيَ خَلَّةٌ لَا يَقْوَى عَلَيْهَا
سِوَى أَقْوِيَاءِ الْإِيمَانِ، نَابِئِ الْعَقِيدَةِ، مَا أَبْرَدَ الصَّدَقُ عَلَى النَّفْسِ، وَمَا أَشَقَّ فِي هَذِهِ الْأَوَسَاطِ
لِلْمُؤْمِنَةِ، مَا أَبْرَدَ عَلَى نَفْسِ الْأَقْيَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا أَصْعَبَ عَلَى نَفْسِ الضُّعَفَاءِ وَالْمُنَاقِبِينَ .

(٢) لَوْ تَأَمَّلْتَ أَسَاوِبَ نَبِيِّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ أَبِيهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ لَرَأَيْتَ فِيهَا الْعَجَبَ، تَرَى فِيهَا
أَدْبًا جَا، وَنَاطِقًا بِأَبِيهِ غَيْرَ مَحْدُودٍ، وَتَوَاضَعًا فِي تَرْكِيَةِ نَفْسِهِ، وَحُجَّةَ دَامِقَةٍ، وَأَسْلَابًا سَهْلًا، يَقُولُ
لَهُ (يَا أَبَتُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُفْنِي عَنْكَ شَيْئًا) فَيَسْتَهْلِكُ خُطَابَهُ بِتَذْكِرِهِ بِرَابِطَةِ الْأَبُوَّةِ،
وَهِيَ رَابِطَةٌ مِنْ أَقْوَى الرُّوَابِطِ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَجْعَلَ كَلَامًا مِنَ الْمُتَرَابِطِينَ جَدَّ حَرِيسٍ عَلَى مصلحة
صَاحِبِهِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى يَحَاوِلُ نَبِيُّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَكْسِرَ بِذَلِكَ الْأَسَاوِبِ الْجَذَابَ حَذَّةَ أَبِيهِ،

حتى يستطيع أن يبلغه رسالة الله ، ويقيم عليه حجته وهو هادئ غير ناثر ، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف قال له في أدب : لم تعبد إلها لا يسمعك إذا ناديت به ، ولا يبصرك إذا عبدته ، ولا يفتي عنك إذا حلّ بك مكروه شيئا من الفناء ، وهل يستوى إله يسمع ، وإله أعمى ؟ وهل يستوى أعمى وبصير .

(٣) ثم عقب ذلك بدعوة أبيه الى الحق في رفق ولين ، فلم يصف أباه بالجهل المنروط ، ولا نفسه بالعم الفائق فقال (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فأتيني أهدك صراطا سويا) ثم أخذ ينهيه عن طاعة الشيطان فإن الشيطان عصى الله تعالى ، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع من عصى ربه ، ثم ختم وعظه بشفاقة على أبيه ، وخوفه أن يصاب بعذاب من الله فيكون وليا للشيطان ، وقد أمرنا الله بالتخاذ الشيطان عدوا لا وليا ، فقال (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو خبيثا ليكونوا من أصحاب السعير » ٦) (١) فإذا كان من أبيه بعد ذلك الترفق البليغ ؟ كان منه أن قال له (أرأيت أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك وأهجرني مليا) أنكر على ولده إبراهيم أن يرغب عن آلهة أبيه آزر ، ثم أخذ يقابل اللين بالشدّة ، والرفق في القول بالفظاظة ، فداده باسمه ، ولم يقابل (يا أبت) كلمة العطف بقوله (يا بني) وأراه ان آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها أحد ، ثم لجأ الى طريق التهديد ، فقال (لئن لم تنته لأرجنك) يريد بذلك الشتم والسب ، ومنه الرجم المرمى باللعن ، ولأطردنك رميا بالحجارة ، وأصل الرجم : الرمي بالرجام وهي الحجارة ، ثم طلب منه أن يهجره زمانا طويلا ليراه فيه .

(٤) فلم يكن من إبراهيم بعد الشدة التي رآها من أبيه سوى أن قال (سلام عليك) سلام توديع ومشاركة كقوله (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نفتني الجاهلين «٥٥») (٢) وقوله في وصف عباد الرحمن (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما «٦٣») (٣) ثم وعده مع ذلك أن يستغفر له ربه ، عله يغفر له ذنبه ، وكان ذلك قبل بأسه من إيمانه أما بعد أن تبين له أنه عدو لله ، لا يقبل في آلهته كلاما ، ولا يستطيع أن يدع عبادتهم ، فقد تبرأ منه وكفّ عن الاستغفار له (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم «١١٣») (٤) وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم «١١٤» (٥) ثم وعده بأن يعزله هو وآلهته ويدعو ربه وحده رجاء أن لا يكون شقيا بذلك الدعاء ، عرض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم مع تواضعه لله بكلمة (عسى) وما في ذلك التواضع من هضم النفس - يرينا نبي الله إبراهيم أنه لم يستطع أن يحول بين أبيه وقومه وبين عبادة الأوثان تجنّبهم هم ومعبودهم ، حتى لا يكون مظهره من أولئك القوم مظهر الراضي عن عبادتهم . ليرينا أن من رأى صاحبه على منكر قلع عمل على إبعاده منه ، فإن أخفق في ذلك فليتنجنه في ذلك المنكر ، وإن كان أقرب الناس إليه ، ولا يمنعه ذلك أن يؤدّي للأبوة بها من البرّ ، فإن ذلك حتى مستقل لأصله له بالعقيدة ، ولذلك يقول الله (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا قطعهما صاحبهما في الدنيا معروفا «١٥») (٦)

فاذا طالبك أبوك بمعصية الله فلا تطعه ، فان حق الله فوق حق الوالد ، وإن طلب منك مالا فأجبه فان ذلك من الصحبة بالعرف ، وكفاء حسن الترية بالحنة ، وذلك هو نهاية الحكمة ، وغاية الانصاف .

إبراهيم عليه السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا فَعَلُوا كَالَّذِينَ بَالِغٌ عَلَيْكَ مِنَ الْآلَمِينَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّامِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ^(١) وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَدُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذُأً ^(٢) إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَمَلَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مِنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا قَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْنِ النَّاسَ لَمَلَهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَأْذِنُوا إِنْ كَانُوا نَاطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا ^(٣) عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ ^(٤) لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى

[١] أبدعهم وخلقهم . [٢] قطعاً صغيرة . [٣] من النكس ، وهو قلب الشيء على رأسه . ومن نكره نكسه في الحق . تردء إلى ما كان عليه من نصف الجسم والعقل .
[٤] أصل الألف بالضم كل مستغفر ، وقال لكل مستغفر استغفراؤه ، وقد أفت بالتشديد لكذا إذا قلت ذلك استغفراؤه .

الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ «٧١» وَوَعَيْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً «١»
وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ «٧٢» وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِبْدِينَ «٧٣» الْأَنْبِيَاءُ

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أعطى إبراهيم رشده وهداه لوجوه الصلاح من قبل موسى وعيسى ،
وكان علما به حينما قال لأبيه وقومه تلك القصة الآتية ، والمراد أن إبراهيم عليه السلام قد أوتي
رشده ، وكان موضع رضا الله وهو يناقش قومه ويحاججهم ، وما دام إبراهيم كذلك فتأس به
وترسم خطاه (إذ قال) إبراهيم (لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أتم لها عاكفون) وهو تجاهل
من إبراهيم لأصنامهم وتغاب ، ليحقر آلهتهم ، ويصغر من شأنها مع علمه بتعظيمهم إياها وإجلالهم
لها ، كما تقول اذا ذكر أمانك رجل من الناس بلسان المستخف المنكسر لأن يكون هناك رجل
له ذلك الاسم « ومن ذلك الرجل ؟ » فكان جوابهم عن ذلك أن قالوا (وجدنا آباءنا لها عابدين)
فكل ما عندهم من حجة لعبادة أولئك الأصنام أن وجدوا آباءهم عابدين لها ، وما دام ذلك عمل
الآباء والأجداد فكيف نعيد عنه ؟ وهي شبهة أعداء الرسل جميعهم ، وتكاثرت في صد الناس
عن الحق وإبعادهم عن الرشd ، عمدوا الى العقول فعضلواها ، والى الأصماح فأصموا ، والى الأبصار
فأعموها ، اعتمادا على عقل الآباء والأجداد ، وتعويلا على سماع السابقين والمتقدمين ، وكان الله تعالى
خلق لهم هذه الأصماح والأبصار ، ووعدهم أولئك العقول ، ليعطوها عن وظائفها ، ويحولوا بينها
و بين أداء واجبها ، ومادروا أن الله تعالى يتقن علينا بهذه النعم ، ويذكرنا بذلك المواهب لتشكره
عليها بأعمالها ، ولا نكفره فيها بتعطيلها وإهمالها (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتصلهون
شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون « ٨٨ » (٢)) وحسبنا أن أهل النار
يقولون وهم يصطرخون فيها (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير « ١٠ » فاعترفوا بذنبهم
فسحقا (٣) لأصحاب السعير « ١١ » (٤)) وأن الله تعالى يقول في صفات أهل جهنم الذين خلقوا
لها وخلق لهم ، وبها تستطيع أن تعرفهم في هذه الحياة (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس
لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل
هم أضل أولئك هم الغافلون « ١٧٩ » (٥)) نعم إن هذه السنة سنة التقليد هي سنة أعداء الرسل
جميعهم ، وعادتهم في التخلص من دعوة الحق ، أن يعمدوا الى الآباء فيتمسحوا بهم ، ويطجأوا
الى السابقين فيستمسكوا بطريقهم ، وإن كان السابقون ليسوا من العقل في قليل ولا كثير ،
وليسوا من العلم في غير أولئك (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه
آباءنا أول لوكان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون « ١٧٠ » (٦)) ونظيره قول الله تعالى في سورة

[١] ولد الولد ، من الفل وهو الزيادة . [٢] النحل . [٣] بدأ وهلاكا . [٤] الملك .
[٥] الأعراف . [٦] البقرة .

المائدة (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون «١٠٤») . والله درّ الزخشرى إذ يقول : [ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للتقليدين حين استدرجهم الى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل ، وعفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شيء ، ووجدون في نصرة مذهبهم ، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم ، وكفى أهل التقليد سببا أن عبدة الأصنام منهم] فلاجب إذا لم يقم نبي الله ابراهيم لهذه الشبهة وزنا ، ولم يعمل لها حسابا ، بل قال (لقد كنتم أتم وأبوأكم في ضلال مبين) لأنكم لاتعتمدون على دليل ، بل على هوى متبع ، وشيطان مطاع .

(٢) قد عجب قوم ابراهيم من صنيفه معهم ، وحسبوا أنه قال ما قال في آلهتهم على وجه المزاح والمداخلة ، لأعلى سبيل الحق ، فقالوا له (أجبنا بالحق أم أنت من اللاعين) فأراهم الأمر جد لا لب ، وأن أولئك الأصنام لاتستحق أن تكون لكم أربابا ، بل الذى يستحق ذلك ويستأهل رب السموات والأرض الذى خلقها على غير مثال سابق ، أو فطر الأصنام التى تعبدونها ، وأنا شاعد على ذلك بالحجة والبرهان ، لأنى لست مثلكم ، فأقول ما لا أقدر على إثباته ثم لم يكتف نبي الله ابراهيم بانكاره على قومه عبادة الأصنام ، وتضليلهم في ذلك العمل هم وسلفهم بل أتبع القول بالعمل ، فأقسم ليكيّد أسنامهم بعد أن يتركوها ، فأخذ يخذلهم صها بعد صنم ، حتى صارت قطعها صغيرة ، عدا صنمهم الأكبر ، تركه بدون جعة ، علمهم إليه يرجعون في حلّ ذلك الاشكال ، ومعرفة المعتدى على جيرانه من الأصنام ، أو علمهم يرجعون إليه فيسألوه لماذا تتحمل الاهانة الأصنام وأنت مطرق ساكت ؟ ولماذا لاتنفذ عنهم ذلك الأذى الذى حل بهم ؟ ولعلّ ذلك المنطق يقودهم إلى معرفة الإله الحق ، ويقولون في أنفسهم ما بالنا نعبد آلهة لاتدفع الشرّ عن نفسها ؟ وإذا كانت من العجز الى ذلك الحد فكيف تدفع الشرّ عن عابديها ؟ وما قيمة إله بلغ من العجز الى ذلك الحد المزرى ؟ (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون «١٠٣») (قالوا) فيما بينهم (من فعل هذا بالهتنا انملن الظالمين) وأخذوا يبحثون عنه ، ويتلوه في القوم ، فقال قائلهم (سمعنا نبي يذكرهم يقال له ابراهيم) فأمرؤا أن يؤتى به على صرأى من الناس علمهم يشهدون عليه بما فعل ، ويشهدون عقوبتنا له على ذلك العمل الجرى ، ثم سألوه (أنت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم ؟ قال) متهمكأ بهم (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون) لما ألصمهم الحجرة ، وأخذ بمخاطبتهم (رجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أتم الظالمون) بسؤال ابراهيم . وعدم سؤال الصنم الأكبر ، أو رجعوا الى أنفسهم ليحاسبوها على عبادة أولئك الأصنام التى بلغت من الضعف الى ذلك الحد المتجمل ، فقالوا إنكم أتم الظالمون لأنفسكم بعبادتها ، ثم انكسروا وانقلبوا راكمي رؤوسهم عن تلك الحالة ، فأخذوا في المجادلة بالباطل ، أو قلدوا على رؤوسهم خجلا من ابراهيم وانكساراً ، قائلين له (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فلماذا تدعوننا إلى سؤالهم ، وهل تريد بذلك السؤال شيئا وراء التهمكأ بالهتنا ؟ والزراية بعبودتنا ؟ فلما علم نبي الله ابراهيم أنهم لا يصيخون لحجة ، ولا يضاعون لبرهان ،

(قال) لهم بأسلوب المتعجب (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) قيمة الحجة ، ومكانة البرهان ؟

(٣) بعد أن أقام نبي الله عليهم الحجة ، وأخذ عليهم طرق الجدل والكلام ، لجأوا إلى الحديد والنار فقالوا فيما بينهم (حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) والراد ان كنتم تريدون نصر الاله نصرا مؤزرا ، فقال الله للنار (فوني بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين) وتلك سنة الله مع الرسل إذا حاربهم الأعداء ، وبلغ بهم الشدة منهاها ، سفة معهم أن يجيئهم النصر من عنده ، فينجو به المتقون ، ويخذل المستكبرون والمعاندون (حتى إذا استأسأ الرسل ووطنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين «١١٠») (١) فلا عجب أن ينجيه الله ومعه لوط إلى بلاد الشام ، ويهب له اسحق ويعقوب ، ويحطهم كلهم صالحين ، ويحطهم أمة يهدون الناس إلى الحق بأمر الله ، ويرجى اليوم بفعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ويكونون لله تعالى عابدين ، وعند حدوده واقفين .

إبراهيم عليه السلام

وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ «٦٩» إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ «٧٠» قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عِصْفِينَ «٧١» قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ «٧٢» أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ «٧٣» قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ «٧٤» قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ «٧٥» أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ «٧٦» فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ «٧٧» الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ «٧٨» وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ «٧٩» وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ «٨٠» وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ «٨١» وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ «٨٢» رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ «٨٣» وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ ^(٢) فِي الْآخِرِينَ «٨٤» وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ «٨٥» وَأَغْفِرْ لِي إِنِّي كَانُ مِنَ الضَّالِّينَ «٨٦» وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَمُونَ «٨٧» يَوْمَ لَا يُنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ «٨٨» إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ «٨٩» الشعراء

[١] يوسف . [٢] ذكرنا حسنا وسيرة مرضية ، أو للراد أنه سأل الله تعالى أن يجعله سالما بحيث إذا أتى عليه من بعده لم يكن ذلك الشاء كذبا بل يكون كما قال الشاعر :

إذا نحن أخطينا عليك يصلح فأتى الله تعالى وفوق الله تعالى

شرح وعبرة

(١) يسأل نبي الله ابراهيم أباه وقومه عن معبوديهم ، حتى إذا أجابوه ناقشهم في جوابهم فأقام عليهم الحجة ، يسألم عن المعبودين لهم فيقولون في جوابه (نعبد أصناما) ولم يقفوا عند حدة المسئول عنه بل قالوا (فقل لها عاكفين) ليظهروا ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج بذلك ، فيسألم ابراهيم (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينظرونكم أو يضررون) فلا يستطيعون أن يجيبوا ابراهيم بأن أصنامهم كذلك ، تسمعهم إذا دعواهم ، أو تجلب لهم نقما ، أو تدفع عنهم ضرا ، ويجيبون جواب المفعم المبهوت فيقولون (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) فيقول لهم ابراهيم (أفرايتم ما كنتم تعبدون أتم وأكؤكم الأقدمون) يريد أنظرتم فأبصرتم معبوديكم أتم وأكؤكم حق الابصار ؟ فإن أولئك المعبودين بضاعة لي ، وأعداء لأبالي بهم ، لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو ولي في الدنيا والآخرة .

ثم بين الصفات التي يستحق بها أن يكون إله ومعبود ، فقال (الذي خلقني فهو يهدين) بما وهبني من الفطرة التي تدعوني إلى جلب النافع ودفع الضار ، وأعطاني من السمع والبصر والعقل ما أستطيع به أن أعرف الحق من الباطل ، وأقف به على ملكوت السموات والأرض ، وهداني بالوحى السامى إلى ما فيه سعادتي في الدنيا والآخرة ، وإله له ذلك كله لا يستوى هو وأصنام لأتلكم من ذلك شيئا ، بل هي ملك لله تعالى وخلق من خلقه .

ثم وصفه بقوله (والذي هو يطعني ويسقين) بما سخر لي من أسباب الرزق ووسائل العيش وبما أنزله وينزله من الأمطار ، ويفجره من العيون ، ويجريه من الأنهار ، ودعاني إليه من العمل وأعذني له بصحة وعافية واستطاعة لعمارة الأرض والاتقاع بخيراتها .

ثم وصفه بوصف آخر هو قوله (وإذا مرضت فهو يشفين) وقد أضاف المرض إلى نفسه لأن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان في مطالعته ومشاربه ووسائل حياته ، وقد نسب الشفاء إلى ربه لأنه خلق لكل داء دواء ، وهدى الناس إلى علاج أمراضهم من طريق البحث في العقاقير ، ووسائل الأدوية .

وقد قطع الناس شوطا كبيرا في ذلك ، وأصبحوا بواسطة العلم يهتدون إلى علاج مقدار كبير من الأمراض ، فتقدموا تقدما يذكر في الوقوف على العقاقير التي تعالج بها الأمراض ، كما نبغوا في طريق كشف الأمراض ، والوقوف على مكنونات الأجسام بواسطة الأشعة الكهربية ، وذلك كله فضل من الله ، وهداية لبني الانسان إلى ما فيه حفظ حياتهم ومجتهم ، فهو الذي يستحق الشكر على هذه الهداية .

ثم وصفه كذلك بأنه الإله الذي ملك الامانة والاحياء ، وأنه الذي يطمع أن يضر له خطيئته يوم القيامة ، وإله له كل هذه الخصائص جدير بأن يكون وليا لابراهيم ، ومعبودا لابراهيم ، ومن على ملة ابراهيم .

(٢) انتقل نبي الله ابراهيم من وصف ربه بجلال الصفات إلى دعوته بأن يهبه الحكمة ، وهي الكمال في العلم والعمل ، بحيث يتمكن من خلافة الحق ، ورياسة الخلق ، وأن يوفقه من

الأعمال والعلوم ما يؤهله للانتظام في زمرة الكاملين ، وأن يرزقه جاها وحسن حيث في الدنيا بحيث يبقى أثره الى يوم الدين ، وقد أجاب الله دعوته ، فأسمن أمة من الأمم إلا وهي محبة له ، منية عليه ، أو اجعل لي لسانا صادقا من ذريتي ، يجتد أصل ديني ، ويدعو الناس الى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما قال صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة أبى إبراهيم » ثم طلب أن يجعله في الآخرة من ورثة جنة النعيم ، وأن يغفر لأبيه انه كان في الدنيا من الضالين .

وقد سبق أن ذلك الدعاء كان عند طمعه في اسلامه ، وقد وعده إبراهيم أن يستغفر الله له ، أما بعد أن تبين له أنه عدو لله فقد تبرأ منه ، ثم طلب أن لا يعزبه الله في الآخرة في اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم من الشرك ، بعيد عن الشقاق .

(٣) لعل في هذه القصة عبرة لمن يدعون من الموتى من لا يسمعون ، ولا يذكرون ، وأن يضرمهم أو ينفعهم ، ولعل في القصة عبرة لقوم ألفوا البطالة وتركوا العمل ، معتمدين على أن الاله يطعمهم ويسقيهم ، ذاهلين عن قوله (فلماذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ^(١)) وقوله تعالى (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ^(٢)) لعل فيه عبرة لقوم أرادوا أن يكونوا عائلة على غيرهم في هذه الحياة ، ثم يزعمون مع ذلك أنهم (خیرامة أخرجت للناس) كيف وعمروا الخطاب يقول « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ثم يجد يده الى السماء يقول يا رب فان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

(٤) ولعل في القصة عبرة لقوم جهلوا سنة الله في هذه الحياة ، وجهلوا أن البيوت إنما يلجها الناس من أبوابها ، فتركوا رجال العلم ، وأساتذة الطب ، الذين دروسه دراسة عميقة ، ولا يزالون بدرسون وينقبون ، ويجربون ويختبرون ، ويعملون المؤتمرات ، ويواصلون الليل بالنهار ، للوقوف على أسباب الأمراض وعلاجها ، وخصائصها وأعراضها - تركوا أولئك القوم الذين درسوا ذلك العلم ولجأوا الى طرق ما أنزل الله بها من سلطان ، فأحيانا يلجأون الى باب زوينة المعروف في مصر بيوانة « المتولى » يعلقون عليه الشعور لشفاء ما برأسهم من صداع ، وأحيانا يلجأون الى بعض المنائر في مساجد المسلمين يصعدون عليها خالها تريل ما بهم من عقم ، وصرمة يلجأون الى السجادة والنصايين ، حلة كتب السجدة والشموعة ، والضارب بين الرمل ، والمهضرين للشياطين ، وغير ذلك .

وقد خرجوا بعملهم هذا على قول الله تعالى (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون « ١٨٩ » ^(٣)) .

إبراهيم عليه السلام

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ « ٨٣ » إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ « ٨٤ » إِذْ قَالَ

لَا يَدْعُوهُمْ وَلَا يَنْبُدُونَ «٨٥» أَنْفِكَا^(١) إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ «٨٦»
فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ «٨٧» فَتَنَظَّرْ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ «٨٨» فَقَالَ إِنِّي
مَقِيمٌ^(٢) «٨٩» فَقُولُوا عَنْهُ مُذِيرِينَ «٩٠» فَرَأَغَ^(٣) إِلَى إِلَهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ «٩١» مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ «٩٢» فَرَأَغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ «٩٣»
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوفُونَ^(٤) «٩٤» قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ «٩٥» وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
وَمَا تَعْمَلُونَ «٩٦» قَالُوا أَبْنَاؤُ لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْخِجْمِ «٩٧» فَأَرَادُوا بِهِ
كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ «٩٨» وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ «٩٩» رَبُّ
هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ «١٠٠» فَتَشْرَنُ^(٥) يُعْلِمُ حَلِيمٌ «١٠١» فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ
السَّعْيَ قَالَ يُسَيِّئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا بَابِ
أَفْئَلٍ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ «١٠٢» فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ
لِلْجَبِينِ «١٠٣» وَنَذِيئُهُ أَنْ يَأْتِزَاهِمُ^(٦) «١٠٤» قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «١٠٥» إِنْ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ «١٠٦» وَقَدِيئُهُ بِذِي نَجِيعٍ
عَظِيمٍ «١٠٧» وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ «١٠٨» سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ «١٠٩»
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «١١٠» إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ «١١١» الصافات

[١] الإنيك : كل معروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ، ومنه (أني يؤفكون) أي يصرفون
عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل ، ومن الصدق في القتال إلى الكذب ، ومن الجليل في الفعل إلى القبيح ، وقد
يشتمل الإنك في الكذب (إن الذين جاءوا بالإفك) (ويل لكل أفاك أثم) وإنك في الآية مفعول
تريدون ، وآلهة بدل منه ، ويكون قد صام إفك على اللبانة ، ويصح أن يكون إفك مفعول من أجله : أي
أزبدون آلهة من أجل الإفك الذي كان منكم وصرف الأمور عن وجهها الذي يحق أن تكون عليه .
[٢] مريض النفس من إغرامهم عن الله . [٣] مال نحووم : لأمر يريد منهم بالاحتيال ، من الروغ
وهو الليل . [٤] يسرعون ، « لله » أسقطه على التل ، « صدقت الرؤيا » نسبها إلى الصدق
أو حقيقتها وحصل للتعود منها ، « البلاء للبين » : الاخبار الطاهر ، « بذبح » : مذبح .

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى في هذه القصة أن إبراهيم عليه السلام من شيعه نبي الله نوح، وشيعه الرجل الذين يتقوى بهم، من شاع الخير: كثر وقوى، والمراد أن نبي الله إبراهيم على دين نوح وسنته، ومنه تعلم أن الأنبياء عليهم السلام يشايح بعضهم بعضا في الحق والمعصية إلى الله تعالى، والصلب في دينه ومصابرة المكذبين.

وقد بين الله تعالى ما شايحه فيه بقوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) الخ، والمراد أنه سليم من أمراض القلوب كالنفاق والحسد، والخور والضعف أمام المدوّ القوي.

ثم بين تهكم إبراهيم بالأصنام، وقوله منكرا لعملمهم (أتشكوا آلهة دون الله تريدون) والمراد أن يريدون آلهة من دون الله إفكا، فسمى الآلهة إفكا على المبالغة، فإن الافك هو الكذب، ويصح أن يكون المراد أن يريدون آلهة من أجل الافك الذي كان منكم، وصرفكم الأمور عن وجهها الذي يحق أن تكون عليه ثم سألمهم (فأظنكم رب العالمين) أي شيء هو حتى جعلتم الأصنام له أندادا، وما ظنكم فيما هو فاعل بكم من عقوبة على ذلك الشرك، وتسويتكم القوى بالضعيف، والمخالق بالخالق.

(٢) يرينا الله تعالى أن نبي الله نظر نظرة في النجوم، وعبادة القوم لها مع أنها تنادي بلسان حالها بأن لها ربا دبرها، وخالقا سيرها، وما قصته في سورة الأنعام بعيدة، وفيها أنه حينما رأى كوكبا من الكواكب قال لقومه هذا ربي على زعمكم، فلما أفل قال لقومه لا أحب الأفلين، فأياهم من عبادته ذلك الكوكب، بعد ذلك رأى القمر بازغا، فقال لقومه هذا ربي، فلما غاب قال إن هذا الكوكب لا يهديني لأنه يغيب ويحضر، فلا يصلح إلها، فلما رأى الشمس بازغة قال لقومه هذا ربي، هذا أكبر الكواكب، فلما أثلت قال يا قوم إني بري مما تشركون.

نلك نظرة نبي الله إبراهيم في الكواكب، واقتناعه أنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد، ومع ذلك كله يصّر قومه على عبادتها، فلك هي نظره في النجوم، وذلك هو سقمه من عبادة الناس لها وكفرهم بخالقها، والمهيمن عليها، فهو سقيم من كفر القوم وعنادهم.

وجدير بمن يجد من كفر الناس وعنادهم ما وجد نبي الله إبراهيم أن يسقم قلبه، ويتألم ضميره ووجدانه، بعد أن عرفهم ذلك انصرفوا عنه مدبرين عن دعوته، مولين عن طريقه.

(٣) بعد ذلك (راغ إلى آلهتهم) من راغ التعلب يروغ وروغانا: إذا مال إليه على سبيل الاحتيال لأمر يريد، وبعد أن وصل إليهم أخذ يتهكم بهم، ويقول (ألا تأتون مالكم لانتظون) ثم أقبل إليهم يضربهم بقوة، وذلك مظهر من مظاهر غيظ إبراهيم منهم، وحذبه عليهم، وهو الذي يقول في دعائه (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس).

وجدير بالعقل أن يخض من هذا حاله، فأخذ قومه يسرعون إليه، لانزعاجهم من تحقير معبوديهم، والتهكم بالهتك، فأخذ يناقشهم (أتعبدون ما ننحتون والله خلقكم وما نعبدون) يستنكر عليهم أن يصنعوا آلهة بأيديهم، ثم مع ذلك يعبدونها، وينكر عليهم أن يعبدوا آلهة هي وهم من خلق الله تعالى، وكانت الأصنام من خلق الله ومن عملهم كالباب والكرسي، هما من

عمل التجار باعتبار الشكل والصورة ، ومن خلق الله تعالى باعتبار القدرات والجواهر ، وكالسوار والخلخال من عمل الصانع من جهة شكلها ، ومن خلق الله باعتبار جوهرها .

وقد أطال المتكلمون في الكلام على هذه الآية من جهة دلالتها على أن العمل مخلوق لله تعالى ، والآية ليست في باب العمل الذي هو مصدر ، وإنما هي في العمل الذي هو معمول ، أي مكان العمل ، لأن قوله (وما تعملون) ترجمة عن قوله (ما تعملون) وما في قوله (ما تعملون) اسم موصول ، وليست مصدرية ، فكذلك في قوله (وما تعملون) وإلا لاختلفت الترجمة والمترجم عنه ، ولما كان لاحتجاج إبراهيم على قومه معنى ، إذا كان المراد والله خلقكم وخاق عملكم ، وإنما تنتظم الحجة ، ويستقيم الاستدلال إذا كان المراد أتعبسون ما تعبثونه بأيديكم ، والله خلقكم وخلق ما عملتم وهم أولئك الأصنام التي من صنع يديكم .

(٤) بعد أن أخذ عليهم نبي الله إبراهيم كل باب من أبواب الحجة ، لجأوا إلى الحديد والنار ، فقالوا لبعضهم (ابنوا له بانيان فألقوه في الحميم) وهي النار الشديدة الوقود ، وقيل كل نار على نار وحجر فوق حجر فهو حميم ، وقد أخبرنا الله تعالى أنهم أرادوا بإبراهيم كيدا فرد الله عليهم كيدهم ، ومكروا فكان مكر الله فوق مكروهم ، ودبروا فكان تديره خيرا من تديرهم .

وقد أرانا الله تعالى في سورة الأنبياء أن الله تعالى قال للنار (كوني بردا وسلاما على إبراهيم) عقب قولهم (حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) ، بعد أن نجاه الله من قومه قال (إني ذاهب إلى ربِّي سيدين) أراد بذلك مهاجرة إلى حيث أمره الله بالمهاجرة إليه من أرض الشام كما قال (إني مهاجرا إلى ربِّي) ثم طلب من الله أن يهبه من الأولاد الصالحين ، فبشره الله تعالى بسلام حليم .

(٥) من عادة القرآن أن يحذف من القصة مالا تدعو إليه العبرة ، ولا يتوقف عليه الفهم اعتمادا على فطنة السامع ، فبرينا الله تعالى أنه بعد أن بشره بسلام ذلك الغلام ، ثم نشأ وترعرع حتى وصل إلى سن يستطيع معه أن يسعى قال له (يا بني إني أرى في المنام أتى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟) وهي استشارة تحمل في حناياها لواعج الألم ، ومثيرات الحزن والأسى ، استهلها نبي الله بقوله (يا بني) وكأنه يقول : يا بني ، وبإفظة كبدى ، الذي وهبك الله لى بعد دعائى إياه أن يهب لى ذرية صالحة ، تعاوننى في الدعوة ، وتناصرنى في إقامة دين الله ، إني أرى في المنام أتى أذبحك فما الذى أنت فاعل في ذلك البلاء ؟ وبأى عزيمة تلقى تلك المحنة ؟ وإنها لحنة ما أشدها على نفوس الوالد والولد . فإذا كان جوابه عن ذلك السؤال الرهيب وتلك الاستشارة الموحجة ؟ ولو أن ملكا من ملوك الدنيا بعث إلى رجل من رعيته برسوله له ، يبلغه أن ذلك الملك المطاع ، أمر أن تصادر أملاكه ، ويعيش صفر اليدين ، أو أمر أن ينفى من بلده ، ويحال بينه وبين مواطنه . لو أن رجلا من الناس بلغه ذلك على لسان رسول لا يكذب لكان من شأن ذلك الخبر أن ينخلع له قلب ذلك الرجل عند سماع القصة ، فكيف يصيـ يبلغه عن ربه ، بواسطة أبيه ، وأبوه رسول لا يكذب ، مطيع لا يصيـ أن يحرمه من هذه الحياة ، ويحول بينه وبين أن يعيش ؟ كيف يصيـ يبلغه أبوه رؤياه النامية أنه يذبحه ؟ ! ماذا تكون نفسه التي بين جنبيه

في ذلك الحين ؟ وماذا يكون قلبه ؟ وماذا تكون إجابته ؟ [وقد استشير] ولو أن الأمر كان من طريق التفسير لكان أهون على النفس ، وأخف في الاحتمال ، كان جواب ذلك الصبي أن يقول قالة الراضي المظلم (يا أبت افعل ما تؤمر مستجدي إن شاء الله من الصابرين) وكأنه يقول لأبيه اني أقدر قيمة أملك لتلك التضحية ، وجهاد نفسك في ذلك العمل الشاق ، لأني قطعة منك ، ولسكن حقّ الله عليك فوق حقّ الأبناء والأحفاد ، وإجابتك لهاعيه أتمّ من إجابتك لهواعي الفطرة ، فأجب داعي الله ، وقضاض عن داعي الشفقة والحنان ، واصدع بأمر الله ، ارغاما للشيطان ، فاذا كنت قد ناديتي بقولك (يا بني) فاق أناديك بقولي لك (يا أبت) وأقول لك قول الراضي بقضاء الله وحكمه (افعل ما تؤمر) وسوف لاتراني ممتضا بذلك البلاد (مستجدي إن شاء الله من الصابرين) فلم يكن من نبيّ الله ابراهيم وولده سوى استسلامهما لأمر الله ، فأخذ ابراهيم ينفذ أمره ، وأخذ ولده يصبر لقضاء الله وحكمه ، فحينما أسقطه على التلّ ، ناداه الله أن يا ابراهيم قد حشقت الرؤيا فاغبط وأبشر بالفرج بعد الشدة ، والبسر بعد العسر ، ولا تعجب من ذلك ، فان هذه ستنافي جزاء الحسن .

ثم أرانا الله تعالى أن ذلك البلاد الذي ابتلى به ابراهيم وولده هو الاختبار البين الذي يميز به المخلصون ، أو هو المحنة البينة الصعوبة التي لامحنة أصعب منها ، وأي محنة أشدّ من محنة الرجل بابنه وقلده كبده ، ثم فداه الله بذبوح سمين .

ثم أرانا الله تعالى أنه ترك على ابراهيم في الآخرين من الأنم هذه الكلمة (سلام على ابراهيم) وأنه تعالى يجزي المحسنين بتخليد ذكركم وإبقاء أثرهم .

فانظر كيف وصل نبيّ الله ابراهيم من طاعته لربه إلى ذلك الحدّ ، وكيف وصل ولده من رضاه بقضاء الله وحكمه إلى ذلك المكان من الرضا ، ولعلنا إذا قسنا التكاليف بتلك الفتنة فانها تصغر أمامها وتذبل ، ولعلنا نتأمن بذلك النبيّ الذي هو قدوة صالحة في الصدع بأمر الله ، وبولده في الرضا بقضاء الله .

هذه قصة نبيّ الله ابراهيم وولده الذبيح . وهي لاتتجاوز آيات تعدّ على أصبع اليد الواحدة . ومع ذلك نرى بعض الخطباء في يوم العيد الأكبر يذكرون هذه القصة ويضيفون إليها من الاسرائيليات ما تعجبه النفوس ، رجاء أن يؤثروا على العامة بذلك الحشو . وقد سمعت خطيبا يتلو في هذه القصة وما أضافه إليها من حشو زهاء نصف ساعة ، ولا أدري من أين للخطباء ذلك اللغو الذي يضعونه في هذه القصة ، وهل التاريخ يحفظ للناس ما كان من نبيّ الله ابراهيم مع ولده حتى يستطيعوا أن يقولوا عليه ؟ اللهم انا لانعلم من قصة ابراهيم مع ولده وقومه إلا ما علمناه منك ، ولانعلم من قصة يوسف وإخوته إلا ما علمنا على لسان نبيك وكذلك بقية الرسل ، فعلنا كيف نأخذ الغيب عنك ، وكيف نتأدّب معك ، ونفيض في القصص حيث أفاض كتابك ، ونسكت حيث سكت (نلك من أبناء الغيب نوحها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين «٤٩» (١) .

إبراهيم عليه السلام

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَاءُؤُا مِنْكُمْ وَإِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ الْإِقُولُ إِبْرَاهِيمَ لَأَيُّهُ
لَا سِتْفِرُونَ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ «٤٥» رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ۝ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ رَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ «٤٦» لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا
اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ «٤٧» للمتحة

شرح وعبرة

(١) الذي يقرأ سورة المتحة وسابق الآية ولاحقها يستطيع أن يفهم المراد من الآيات ،
ينهانا لله في أول السورة أن تتخذ عدوه وعدونا في دينه أولياء ، تنصرم ونصيرهم على المؤمنين ،
ونلقى اليهم بالمودة ، وقد كان منهم أن كفروا بما جاءنا من الحق ، وأخرجوا رسولنا وأخرجونا
من مكة لالذهب سوى إيماننا بالله ربنا وخالقنا .

وقد شرح حتى أولئك الأعداء على المؤمنين في قوله (إن يتفوقكم يكونوا لكم أعداء
ويسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) لبرينا أن ذلك النفر من الكفار ان عثروا عليكم كانوا
أعداء لكم ، ويسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء لينالوا به منكم .

وقوم ظلم معكم حوب مستمر لا ينبغي أن تتخذوا منهم أولياء ، ولا أن يكون بينكم وبينهم
مودة ، هذا ما يسطيه سابق الآيات ، وأما لاحقا فبرينا لله فيه أنه لاينهانا عن الذين لم يقاتلونا في
الدين ، ولم يخرجونا من الديار أن نبرم ونسقط اليهم ، إنما ينهانا عن الذين قاتلونا في الدين ،
وأخرجونا من ديارنا ، وظاهرنا على إخراجنا أن تولام ولاية نصرة ومودة .

من ذلك كله نستطيع أن نفهم التأسي بنبي الله إبراهيم عليه السلام والذين معه ، في تبرهم
من عبادة غير الله ، وكفرهم بمعبوديهم ، وإعلانهم العدواة والبغضاء لهم الى أن يؤمنوا بالله
وحده ، لأن سبب حتى أولئك على المؤمنين هم شركهم ، وبني زال ذلك الشرك زال الحق ،
وحلت للمودة محل الخصومة ، لذلك غي نبي الله إبراهيم عدولته لأولئك بهذه الغاية ، وليس المراد

[١] إجلال وإخياراً ، وللمراد لا تجعلنا عدوة سيئة لهم تجعلهم على الكفر وتعييب فيه ، بل اجعلنا عدوة
صالحة في الإيمان كاتقيه الآية السابقة والآخرة .

أنا نغادي كل من يخالفنا في الدين ، وإن لم يقاتلنا فيه ، ولم يخرجنا من الديار ، ولم يظهر الناس على أخواننا ، ولو كان ذلك هو المراد لنافى القرآن بعضه بشأ ، ولكن ذلك العمل مخالف للحكمة والمنطق ، ومخالف لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية وسيرة خلفائه الراشدين ، فقد وادع النبي صلى الله عليه وسلم اليهود حين قدم المدينة وأقرم على دينهم وأمواهم ، فالتأسي بنبي الله إبراهيم في كراهة المشركين وإعلان عدائهم وبضائهم لم يكن لحجو شركهم ، بل لقطعهم عن الشرك ، وإيذاء أنصار التوحيد ، وقتلهم الناس في عقائدهم ، حتى لا يكونوا آمنين على دينهم أما الشرك الذي لا يحارب توحيدا ، ولا يصعد أصحابه الناس عن الإيمان ، ولا يعرضون لهم بشئ من الأذى ، فلا معنى لعداوة أصحابه ومحاربتهم .

أما قوله (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) فهو استثناء من الأمر بالتأسي بإبراهيم ، والمراد أن إبراهيم لا ينبغي التأسي به في وعده أباه أن يستغفر الله له ، لأن القرآن يرينا أنه لا ينبغي لنبي ولا مؤمن أن يستغفر لمشرك ولو كان قريبا له من بعد ما ظهر له أنه من أهل النار ، وأن نبي الله إبراهيم لم يستغفر لأبيه أزرا إلا لأنه وعده الاستغفار ، فلما ظهر له أنه عدو لله ، مصر على الشرك ، محارب للتوحيد ، تبرأ منه : لذلك لم يكن إبراهيم أسوة صالحة في ذلك ، لأن الله نهانا عنه .

(٢) أما قول إبراهيم (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) فهي دعوة ما أعظم شأنها وأجل قيمتها ، وأصل المادة من الفتن ، وهو إدخال الذهب النار لظهور جودته من رءاته ، فالفتن هي الاختبار والمحك الذي به يظهر حال الانسان ، ومن أجل ذلك كانت الشدائد فتنة ، وكان المال فتنة ، وكانت الأولاد فتنة ، وكانت المناصب فتنة ، وكان لاغنى للمؤمن عن أن يختبر في دنياه بأنواع من الاختبار (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون «٢» ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين «٣») وتطلق الفتنة على تضليل الرجل وزياله بواسطة الشدائد التي تقع عليه (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق «١٠») (وقاتلوم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله «١٣») (واحذرهم أن يقتوك عن بعض ما أنزل الله إليك «٤٩») (أى يوقعوك في بلية وشدة في صرفهم إياك عما أوحى إليك .

فنبى الله إبراهيم يطلب من ربه أن لا يكون فتنة واختبارا للذين كفروا يحسبهم في الكفر ، ويصرفهم عن الإيمان ، أو يطلب من الله تعالى أن لا يكون فتنة لهم ، ومضلا عما يجب أن يكونوا عليه ، من الحق والهدى ، وإنما يكون ذلك إذا كان نبي الله إبراهيم قدوة سيرة ، ومثلا غير صالح ، لأن القدوة السيئة من رجل ينسب إلى الدين تؤثر على ضعاف العقيدة ، ضعف النفوس ، ولعلك تفهم من ذلك قول الكفار وهم يعتدرون عن سيئاتهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا «٦٧») فكان رؤسائهم فائتين لهم عن الحق صارفين لهم عن الدين ، وفي ذلك المعنى يقول حكيم الاسلام المرحوم جلال الدين الأفاضى « ليس بيننا وبين أقناع الغربيين بالدين

سوى اقناعهم بأننا لنسلمهم « لأن الفريقين يفهمون الدين من عملنا أكثر من فهمه من أقوالنا ، وكثيرا ما قالوا إذا كان دين المسلمين مصدر سعادتهم فلماذا نراهم أشقياء ؟ وإذا كان دينهم طريق عذابهم فلماذا نجدهم أذلاء ؟ وسبب تلك الفتنة أننا صرنا حجة على الدين ، ودعاية عليه لانه ، فريد ذلك المصلح أن يقول إذا اقتنع الفريقون بأن الاسلام شيء والمسلمون شيء آخر ، هنالك يسلمون ، وهنالك تقول الحجب التي بينهم وبين الاسلام .

ومن المفسرين من فسر الفتنة بالعذاب : أى لانجعلنا معذبين بأيديهم حتى يعتقدوا أن ذلك العذاب لأننا مبطلون وهم محقون ، والآية تشمل ذلك كله ، والمراد لانجعل حالنا قاتنا لهم وسببا في ضلالتهم ، سواء أكانت الفتنة بسبب أننا قدوة سيئة أو بسبب أننا نضعاء ومعذبون ، فيقع في فهمهم أن ذلك الضعف أماراة أننا على باطل ، وهم على حق .

دعوة لوط

إلى الله تعالى

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ الاعراف

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى في هذه الآيات أنه أرسل نبيه لوطا (إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) وأطلق عليها فاحشة لأن النفوس السليمة تستفحشها وتعذها قبيحة ، وقوله (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) يريهم أنهم أول من عمل هذه الفاحشة ، فهم قدوة سيئة عليهم وزرعا ووزر العالمين بها الى يوم القيامة ، وقوله (شهوة من دون النساء)

[١] جنز مود . [٢] الذين غيروا في ديارهم أى جؤا فهلكوا .

[٣] أنزل الله عليهم نوماً من اللطر عجيباً هو المجاورة .

يريهـم أنه لـاحـامل لـهم علـى هـذه الفـاحـشة إلـا مـجـرّد الشـهـوة ، ولـمـراد أنـهم خـرجـوا بـعـملـهم هـذا عـن مـقـتضى الفـطـرة ، وصـاروا أخـسّ مـن العـجـماوـات الـتى تـطـلب أنـاتـها بـسـائق الشـهـوة لأجـل النـسـل الـذى يـحـفـظ بـه نـوع كـلّ مـنـها .

ألـا تـرى إلـى الطـيـر والحـشـرات تـبـدأ حـيـاتـها الزـوجـية بـنـاء المـساكن الصـالـحـة لـنـسـلـها فـى راحـته وحـفـظـه مـما يـعـدو علـيـه : مـن عـشّ فـى الأشـجـار ، أو جـحر فـى بـاطـن الأـرض . أمـا هـؤـلـاء الجـرمـون فـلا غـرض لـهم إلـا إـرضـاء حـسّ الشـهـوة ، وقـضـاء وطـر اللـذّة . ومـن قـصد الشـهـوات لـنـاتـها ، وائـتمـت بـلذّاتـها دـون الفـائـدة الـتى خـلقـها الله لأجـلـها ، جـنى علـى نـفسـه غـائـلة الـاسـراف فـيـها ، فـانـقـلـب نـفـعـها ضـرّاً ، وصـار خـيـرـها شـرّاً ، بـجـعل الوـسـيـلة مـقـصدـا ، وصـيرورة الـاسـراف فـيـه خـلقـا ، إذ الفـعل يـكـون عـن دـاعـية ثـابـتة ، لـاعـن عـلة عـارضة ، فـلا يـزال صـاحـبه يـعاوـده حـتى يـصـير مـلكـة راسـخـة لـه ، فـتـكرـار العـمـل يـكـوّن المـلكـة ، والمـلكـة تـدعـو إلـى تـكرـار العـمـل والـاصـرار علـيـه .

(٢) ثم عـقـب ذلـك بـقـولـه (بل أنـتم قـوم مـسـرفـون) لـيرى أنـهم قـوم أسـرفـوا فـى إـتيـان هـذه الفـاحـشة وتـجـاوزوا الحـدود ، وقـال فـى سورـة الشـعـراء (بل أنـتم قـوم عـادون) أى تـجـاوزتم بـذلـك العـمـل الفـاحـش حـدود الفـطـرة ، وحـدود الشـريـعة ، وفـى سورـة النـحل (بل أنـتم قـوم تـجـهـلون) وهـو يـشـمـل الجـهـل الـذى يـضـادّ العـلم ، والجـهـل الـذى هـو بـمـخـى السـفـه والطـبـش .

ومـجـمـوع الآيـات يـرى أنـهم كـانوا مـرزـوقـين بـفسـاد العـقل والنـفس ، فـلام يـعـقـلون ضـرر هـذه الفـاحـشة فـى الجـنـابة علـى النـسـل ، وعلى الصـحّة والنـفـيـة ، والآداب العـامّة ، ولـاهـم علـى شـئ مـن الحـيـاة وحـسن الخـلق يـصـرفـهم عـن ذلـك .

وكـانـت هـذه الفـعـلة فـاحـشة لأنـها جـنـابة علـى الفـطـرة البـشـريـة ، ومـفسـدة لـلشـباب بـالـاسـراف فـى الشـهـوة ، وإـذلال لـلـرـجال ، وكـسر لـفـهم مـن إـيـاء وشـم ، وتـعـطـيل لـلـنـسـل ، ومـفسـدة لـلنـساء اللـوائـى تـصـرف أزـواجـهـن عـنـهـن ، حـتى يـقـصـروا فـيـما يـحـب علـيـهم مـن إـحـصـان ، وكـم مـن امـرأة اضـطـرّتـها زـوجـها إلـى الزـنا لـانـصـرافـه عـنها بـتـلك الفـاحـشة ، مـع وفـور جـالـها وكـلـها .

ومـن آثار تـلك الفـاحـشة أنـها ذـريـة لـلـاسـتـمـناء ، وإـتيـان الـهـام ، وهـما مـعـصـيـتان قـبيـحـتان شـديـدـتا الضـرر فـى الأبدان والآداب ، لأن تـلك الفـاحـشة تـمـرّن الـانـسـان علـى قـصد الشـهـوة لـنـاتـها ، بـقـطـع النـظر عـن المـكان المـعـدّ لـها ، وهـو يـنـضـى إلـى وـضـعـها فـى غـيـر مـوضـعـها ، وإـيـما مـوضـعـها الزـوجـة الشـريـعة المتـخـذـة لـلـنـسـل ، وفـى الحـيـاة الزـوجـية الشـريـعة إـحـصـان كـلّ مـن الزـوجـين الآخـر ، بـقـصر لـذّة الـاسـتـمـتـاع علـيـه ، وجـعلـه وـسـيـلة لـلـحـيـاة الوالـديـة الـتى تـخـى بـها الأمّة ، ويـحـفـظ النـوع البـشـرى مـن الزوال .

(٣) ومـن المـعـجـب أن يـكـون جـواب قـومـه لـه (أن قـالوا أخـرجـوم مـن قـريـنـكم) وتـعـليـنـهم الـاخـراج بأنـهم أنـاس يـتـطـهـرون ، ويـتـزكّـون عـن مـشـاركـتـهم فـى الرـجـس .

مـن المـعـجـب أن تـكـون الطـهـارة ذنـبا يـعـاقـب صـاحـبه علـيـه ، ويـنـى مـن بـلدـه مـن أجـلـها ، وأن تـزكـى النـفـوس فـى المـحـرمـات ، وتـنـكـس بـالجـرائـم حـتى تـسـتـقـبح الحـسـن ، وتـسـتـحـسن القـبيـح ،

وتضد منها القطرة الى ذلك الحد الزرى ، وهى سخوية بنى الله لوط ومن معه ، وتهكم بظلمتهم من الفواحش ، واختار بما كانوا عليه من القذارة ، كما يقول النسفة لبعض الصلحاء إذا وعظهم أبعدوا عنا هذا المتشف ، وأريحونا من هذا المزهد .

وللتقص والزائل دركات ، كما أن للكآل والفضائل درجات ، فأولاهما أن يتم بالزدية وهو يشعر بقببحها ، ويعلم نفسه عليها ، ويلبها أن يعود إليها المرة بعد المرة مستخفيا ، ويلبها أن يصير عليها حتى يزول شعوره بقببحها ، ويلبها أن يجهر بها ويكون قدوة سيئة ، وأحط دركاتها أن يفاخر بها أهلها ، ويحترق من يتزهون عنها ، وهذه دركة قوم لوط ، ولا يهبط إليها من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم إذا عملوا السيئات يعملونها بحالة ثم يتوبون من قريب ، وأنهم لا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون .

(٤) كانت عاقبة نبي الله لوط ومن معه من المؤمنين أن نجاه الله من عذابه ، وأمطر على قومه مطرا عجيبا ، وهو الحجارة التى رجوا بها ، ثم أمر الله أن ينظر عاقبة أولئك المجرمين ليرينا أن هذه سنة فيمن عصاه وفسق عن أمره ، وهى سنن لا تتبدل ، ولولا أن رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة خلل بنا من أنواع العذاب ما حل بأولئك الأقوام .

وتأمل كيف استثنى الله تعالى امرأة لوط من نجاه ، وأنها كانت فى جماعة المالكين ، ليرينا أن ما عنده من رضا ورحمة لا ينال بسبب أو قرابة للرسول ، وإنما ينال بالطاعة ، ولو كان النسب منجيا لصاحبه لنجا من الملاك امرأة لوط .

وقد ضرب الله المثل فى سورة التحريم (للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين تغتاتهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين » ١٠) كما ضرب لنا ملاقصة نوح وابنه الذى أغرقه الله وهو يقول (رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » ٤٥) قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين » ٤٦) قال رب إني أعوذ بك أن أسالك ما ليس لى به علم وإن لا تنفردنى بترجى أكن من الخاسرين » ٤٧) (١) .

لوط عليه السلام

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا سَلِمًا قَالَ سَلَامٌ قَالُوا إِنَّا نَبَأُكُمْ بِبَعْضِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَوْا أَن يَصْلُوا إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُ فَاتَمَّتْ فَفَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يُوْئَلَىٰ

[١] مود . [٢] مشوى على حجارة حمراء ، وقيل : يقطر دمه لسته ، ويدل عليه قوله فى سورة أخرى : (يعبل ممين) . [٣] أضمر .

«اللَّهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ» (٧٢) قَالُوا أَمْجَبِينَ مِنْ
أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا
ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ (١) وَجَاءَهُ الْبُشْرَى يُحْدِثُ لَنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ (٢) مُنِيبٌ (٣) «٧٥» يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ
رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَانْتِهَى عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا
بِهِمْ وَضَاقَ (٤) بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٥) «٧٧» وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ (٦)
إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَلْقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَرْبِ الْإِنْسِ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنِّي بِيَكُمُ
قُوَّةٌ أَوْ إِيَّايَ (٧) إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا
إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ (٨) مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ إِنَّهُ
مُصِيبُهُمَا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ الْإِنْسِ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا جَمَعْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٩) مَنضُودٍ (١٠) «٨٢»
مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ (١١) «٨٣» مود

شرح وعبرة

(١) عرضنا في هذه السورة لطائفة من قصص نبي الله إبراهيم لإتصالها بقصة لوط، و (البشرى)
هنا فيها يظهر هي البشرى بالولد (قالوا سلاما) نسلم عليك سلاما، والمراد طمأننته حتى لا يخاف،

[١] الخوف . [٢] كثير الذؤء والتوجع « منيب » راجع إلى الله تعالى .

[٣] قال الأزهري : الذرع موضع وضع الطاقة ، والأصل فيه البعر يذرع يديه في سيره ذرعا على قدر
سعة خطوته ، فإذا جن عليه أكثر من طاقته ضاق ذروعه عن ذلك فضرب ، ومدّ عنقه ، فجعل ضيق الذرع
عبارة عن قدر الوسع والطاقة ، فيقال : مال به ذرع ولا ذراع : أي مال به طاقة . « عصب » : شديد
من عصبه : شدة . [٤] يسرعون . [٥] أَسْتَد . [٦] قطعة ، والمراد هاجر بهم ليلا .

[٧] شيء مركب من الحجارة والطين ، وفي منتهى الصلابة . « منضود » : يرسل بعضه في أثر بعض
متتابعاً . « مسومة » : معدة للعذاب .

و بعد أن قسم اليهم مجلا مشويا ليأكلوه ، فلم يقدروا أن يأكلوه ، لأن الشاة
 فيمن يريد السلام أن يأكل ، فطما نوه ، وأفهموه أنهم ملائكة الله ، أرسلهم الى قوم لوط ولم
 يرسلوا له ، وكانت امرأته قائمة فسمعت ذلك فضحكت سرورا بزوال الخيفة ، أو سرورا بهلاك
 أهل المثلث ، فبشرها الله بواسطة الملائكة بالحق ثم يعقوب ، فتعجبت من البشارة ، وقالت
 (يا ربنا آله وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب) وكان عجبا لكبر سنها وسن زوجها
 ابراهيم ، فقالوا لها : أنعجين من أمر الله ، وأنت في بيت النبوة ، التي هي مهبط المعجزات ، وخوارق
 العادات ؟ ولعلك عتبت ذلك بقولهم (ورحم الله وبركاته عليكم أهل البيت) أرادوا أن هذه
 وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالانعام به يا أهل بيت النبوة ، وكان عليك أن
 تسبحي الله تعالى وتمجديه مكان التعجب ، و (جيد) فاعل ما يستوجب الحمد من عبادة ، و (مجيد)
 كريم كثير الاحسان اليهم .

(٢) يرينا الله تعالى أنه لما ذهب الروح عن نبي الله ابراهيم وجاءته البشري بالوله ، اجترأ
 على خطاب الله تعالى ، وأخذ يجادل في شأن عذاب قوم لوط ، ثم علل ذلك بقوله (إن ابراهيم
 لحليم آواه منيب) وهي صفات تدل على رقة القلب ، والرأفة والرحمة ، وذلك هو ما حمله على المجادلة
 فيهم رجاء أن يرفع العذاب عنهم ، ويجهلوا لعلمهم بجدوث توبة وإناية ، كما جعله هذه الصفات
 على استغفاره لأبيه ، فقال الله له (يا ابراهيم أعرض عن هذا) فلا فائدة فيه (إنه قد جاء أمر
 ربك) بالعذاب ، وهو قضاء وحكم لا يصدر إلا عن صواب وحكمة ، والعذاب نازل بالقوم لامرؤ
 له يجادل ولا دعاء .

(٣) لما وصلت رسل الله تعالى إلى نبيه لوط حسب أنهم انس ، نفخ عليهم خبث قومه ،
 وأن يعجز عن مقاومتهم فساء رؤيتهم ، وضاعت بهم طاقته . وقال هذا يوم عصيب ، وجاءه
 قومه مسرعين إليه ، ومن قبل ذلك كانوا يعملون الفواحش ويكثر منها فصرخوا بها ، وصرخوا
 عليها ، فلذلك جاموا مجاهرين لا يكفهم حياء ، ولا يردعهم خلق ، فأراد أن يتي أضيافه بيناته ،
 فقال (يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) ففرجوهن . ومن سفه القول أن يفهم أحد كائنا
 من كان (هؤلاء بناتي) لتقبلوا فاحشة اللواط فاحشة الزنا ، وما قيمة المجهود الذي يعمل نبي
 الله لوط إذا ، وهل يليق بنبي أن يدعو الناس إلى فاحشة ، وهل مهمته تتفق وذلك ؟

ثم عقب ذلك بقوله (فاتقوا الله ولا تخزون في ضضي أليس منكم رجل رشيد) ومن ذلك
 الأسلوب تفهم مقدار الضيق الذي كان عند نبي الله لوط من ذلك الحادث ، يطلب منهم أن يتقوا
 الله ولا يفضحوه في حق ضيوفه ، فإن ضيف الرجل اذا خزي كان خزيه يلحق مضيقه ، ثم يقول
 أليس منكم رجل واحد يستدعي إلى الحق ، وفعل الجليل ، والكف عن السوء ، وهي كلمة اليايس
 من أن يوجد فيهم رجل واحد يناصره في الدعوة ، ويأخذ بيده في إقائنه من خزي ضيفه ،
 فقابلوه بقولهم (لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) لأن إتيان الفكران صار مذهبا لهم ودينا ،
 فكان هو الحق عندهم ، وتكلم الاناث هو الباطل ، ويجوز أن يكون قولهم هذا على وجه
 الخلاعة ، والغرض أنهم لا يشتهون الاناث ، لأن قوسهم انصرفت عنهم (وإنك لتعلم ما نريد)
 من إسرائنا إلى ضيفك .

(٤) عند ذلك قال نبي الله (لو أن لي بكم قوة أو آوى ركن شديد) أى فعلت بكم وصنعت وى أمانة من نبي الله أن يقوى عليهم نفسه ، أو يأوى الى ركن قوى يستند إليه ، فيحميه منهم ويحمي ضيفه ، ومنهم من جعل أو بمعنى بل الاضراية ينقل بها من ذلك التقى الى ركنه الى ربه ، واعتصامه به .

وقد روى البخارى « يضر الله للوط ان كان ليأوى الى ركن شديد ، وهو ربه وخالقه » والفرض من الحديث دفع شبهة تتعلق بذي الله لوط ، وى أنه يخفى أن يستند إلى ركن شديد ، وأى ركن شديد أقوى من ربه وخالقه ؟ فالحديث يربنا أن لوطا كان يأوى الى ركن شديد هو ربه وخالقه ، والركن الشديد الذى غناه مرجع من الخليفة كصية ، أو حزب قوى ، فهو يخفى أن يكون قويا بنفسه ، أو قويا يغيره ليفعل مع أولئك المجرمين ما يستحقون .

(٥) فى خلال هذه التدة ، وفى ظلام هذه الفتن ، ناداه الرسل (يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) فلتسابقوا كما فهمت ، بل نحن رسل عذاب ، وقد جئنا لتنفيذ أمر الله تعالى بالهلاك فدعنا وهم ، فهاجر بقومك فى جنح الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ما فى البلد من مال وأصدقاء (إلا إسرائيل) فدعها ولا تسافر بها ، انه سيحل بها من العذاب ما يحل بالقوم ، وموعدم فى الهلاك الصبح (أليس الصبح بقرىب) فلما جاء أمر الله بالعذاب جعل على القرية سافها ، وهو كتابة عن محوها وذهاب معالمها ، وأمطر عليها من الحجارة المتتابعة ما شاء أن يطر ، ثم ختم القصة بقوله (وماهى من الظالمين ببعيد) وهو وعيد لأهل مكة وصناديد قرش ، يقول لهم : ما هذه القرى التى دمرها الله لفسوق أصحابها ببعيدة عنكم ، أو ما هذه الحجارة التى سلطها على قوم لوط ببعيدة عنكم ، ومن السهل أن يعاقبكم الله بها كما عاقب من سبقكم .

لوط عليه السلام

كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لَمَمْلِكٌ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَمْعَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا نُجُورًا فِي النَّارِ بِرَيْنَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا

الْآخَرِينَ «١٧٢» وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ «١٧٣» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٧٤» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٧٥» الشعراء

شرح وعبرة

(١) يطالب نبي الله لوط قومه بالطاعة في رفق ولين ، ويذكرهم بأنه رسول أمين لا غنى له عن تبليغ رسالة ربه ، ثم يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة ، ثم يريهم أنه لا يطلب منهم أجرا على رسالته ، وإنما يطلبه من الله تعالى ، ثم ينتقل الى انكار فاحشهم مستقبحا لما فيقول (أنا أنون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) يريهم أنهم يصنعهم ذلك عطلوا ما خلق للتمتع وهن الأزواج ، ولجأوا الى الذكران الذين خلقوا للعمل في هذه الحياة ، وأنهم بذلك العمل عكسوا الفطرة التي فطر الناس عليها ، وبذلك صاروا قوما عادين للحدود ، متجاوزين لها ، كما وصفهم في آية أخرى بأنهم قوم مسرفون ، وقوم يجاهلون سنة الله ونظامه ، فهم بذلك العمل جنوا جنابتين .

الأولى : إفسادهم للذكران ، والقضاء على شهادتهم ، وكسر ما فيهم من إباء وشعم .
والثانية تعطيهم النساء من التمتع بهن وقد خلقن لذلك ، ويقع ذلك تعريضهن للزنا والقضاء على النسل ، وذلك مضاد لنظام الحياة ، وهدم اسكان المجتمع .

(٢) يقابله قومه في هذه الموعظة اللينة ، وذلك الأسلوب الهادئ بقولهم (لئن لم تنته يالوط لتكونن من الفحرجين) يطالبون لوطا بالانتهاء عن تضييع أعمالهم ، فاذ لم ينته عن ذلك النهى أخرجه من بلده ، وحالوا بينه وبين وطنه ، وأخرجوه فيمن أخرجوا .

ياسبحان الله ، رسول من الله ، يدعو الناس إلى الطهر ، ويحجبهم في النزاهة ، ويحول بينهم وبين فساد الفطر ، يكون جزاؤه من قومه أن يهدوه بالنفى ، ويتوعدهم بالتغريب ، ولا ذنب له في ذلك سوى طهارة غايته ، وسمو مبادئه ، ونبل مقصده ، ذلك هو ذنبه عند قومه ، وقد صرحوا بذلك في سورة الأعراف إذ يقولون (أخرجوا آل لوط من قريبكم أنهم أناس يتطهرون) وكان الوطن الذي نشأ فيه الرجل ، وأعقب فيه مالا وأولادا ، هو المكان المحبوب الذي يهدد به كل مصلح ، ويتعهد به أرباب المبادئ الصحيحة ، إلى أن ينزلوا عن مبادئهم ، ويستكثروا عن دعوتهم ، فهؤلاء قوم لوط يقولون لرسولهم (لئن لم تنته يالوط لتكونن من الفحرجين) وهذا الملا من قوم شعيب يقول له (لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا «٨٨» (١)) .

فليس بعجيب أن يلجأ المستعمرون في أنحاء الأرض إلى ذلك العمل الذي لجأ إليه أعداء الرسل في كل زمان ومكان (وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا)

ليس بعجيب أن يلجأ المستعمرون الى ملجأ إليه أعداء الرسل من نبي وتغريب ، ولكن الله تعالى تكفل لهم بالنصر ، ووعدهم ميراث الأرض ، كما توعد أعداء الرسل بالهلاك (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين «١٣») ولتسكنتم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد «١٤» (١) فليمنن للبطل فى باطله ، وليزدد القاسم من جورهِ ، (فأما الزبد فيذهب جفاً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض «١٧») (٢) .

(٣) لم يكن من نبي الله لوط بعد ذلك التهديد سوى أن قال لهم (إني لعمركم من القالين) فهو يشكر عليهم صنيعهم ، ويخض عملهم ، ثم لجأ إلى الله تعالى فى أن ينجيه هو وأهله من عقوبة عملهم ، كأنه كان متوقفاً أن يحل بهم من العذاب ما يستحقون ، فأجاب الله دعوته وأنجاء وأهله إلا عجوزاً هلكت مع المالكين ، هى زوجة ، ثم دمر الله الآخرين ، وأمطر عليهم مطراً فساء مطروم ، ثم ختم القصة بقوله (إن فى ذلك لآية) . ثم فيه عبرة لمن أراد العبرة ، وذكرى لمن أراد أن يذكر ، فيه عبرة للعصاة عليهم يكفون عن عصيانهم ، وللفسقة رجاء أن ينخلعوا عن فسقهم ، وفيه ذكرى للمؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ . وهدى ورحمة لقوم يؤمنون «١١١») (٣) .

لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفُحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلِئِينَ «٢٨» أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنَّا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ «٢٩» قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ «٣٠» وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ «٣١» قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا فَاتُّخِذْ مِنْهُ عِلْمًا وَمِنْهُ تَنْجِيَةٌ وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرًا تُهْتَفُ بِهِ مِنَ الْغَائِبِينَ «٣٢» وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تُكْتَسَبُ مِنَ الْغَائِبِينَ «٣٣» إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا (٤) مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ «٣٤» وَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «٣٥» التَّكْوِينُ

شرح وعبرة

(١) ينكر نبي الله لوط على قومه إتيان الرجال ، وقطع السبيل ، قبل كانوا يترضون المارة بالفاحشة ، وقيل يقطعون سبيل النساء بالاعراض عن الحرث ، وإتيان ما ليس بحرث ، فان النساء هي المعدة لتربية الولد في الرحم ، وقد خلقن لذلك ، وقيل يقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال ، ولا مانع من إرادة ذلك كله ، كما أنكروا عليهم إتيان المنكر في مجلسهم على سماءى وسمع منهم ، ولم يبين لنا ما ذلك المنكر . والظاهر أنه فاحشة اللواط كانوا يفعلونها جهارا ، والمجاهرة بالعصيان من مضاعفات الفاحشة ، فهو ينكر عليهم كل هذه الرذائل ، فيكون جواب قومه أن يقولوا له (اتقنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فيما تعدنا من نزول العذاب ، فيرجع إلى ربه يستنصره على أولئك القوم الذين أفسدوا في الأرض بهذه الفواحش ، فكانوا قدوة سيئة ، ومثلا غير صالح .

(٢) يرينا الله تعالى أن رسله لما جاءت نبيه إبراهيم بالبشرى قالوا له (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) ثم عللوا ذلك بقولهم (إن أهلها كانوا ظالمين) فقال لهم نبي الله إبراهيم (إن فيها لوطا) وهو يرى ، من الظلم ، قال ذلك إظهارا للشفقة عليه ، وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه ، والخوف من أن يسه أذى ، فكان جوابهم (نحن أعلم بمن فيها) خفض على نفسك ، وهون عليك الخطب ، ثم وعدوه بالنجاة فقالوا (لننجيه وأهلنا إلا أمرأته) وانظر إلى قوله (بما كانوا يفسقون) تعلم أن سبب هلاك أولئك القوم هو فسوقهم عن أمر ربهم ، واتهاكم حرمة دينهم ، واقتياتهم على رسولهم ونبيهم ، ثم ختم القصة بقوله (ولقد تركنا منها آية مينة لقوم يعقلون) هي آثار متفرقة لهم الخربة ، وقيل الخبر عما صنع الله بهم .

دعوة يوسف

إلى الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ «١» إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «٢» نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ^(١) بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا

[١] من القصص ، وهو تتبع الأثر ، فالقصص هو الأخبار للفتنة .

الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ «٣» إِذْ قَالَ يُسُوفُ لِأَيِّهِ يَأْتِي
إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالْقَمَرَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ «٤» قَالَ
يَبْنَى لَا أَقْضِيَنَّ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوٌّ مُبِينٌ «٥» وَكَذَلِكَ يَحْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُمَلِّكَ مِنْ تَأْوِيلِ^(١) الْأَحَادِيثِ
وَيُهِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَاقُوبَ كَمَا أَتَتْهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٦» يوسف

شرح وعبرة

(١) (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) القصص : اتباع
الخبر بعضه بعضاً ، وأصله في اللغة المتابعة . قال تعالى (وقالت لأخته قصيه «١١») (٢) أى أبى
أثره . وقال تعالى (فارتدنا على آثاريها قصصاً «١٤») (٣) أى يقصصنا قصصاً ويقصصنا
اتباعاً ، وإنما سميت الحكاية قصصاً لأن الذى يقص الحديث يتبعه شيئاً فشيئاً ليلفقه السامع .
والقصص في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الاختصاص ، من قص الحديث : طرده
وساقه ، كما يقال أرسله برسله إرسالا ، ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر . كقولك
هذا قدرة الله : أى مقدره ، وهذا الكتاب علم فلان : أى معلومه ، وهذا رجلاً : أى مرجوئاً ،
فان حملناه على المصدر وهو الاختصاص كان الحسن عائداً الى البيان لا إلى القصة ، والمراد من هذا
الحسن كون هذه الألفاظ قصيدة بالغة في الفصاحة إلى حد الانحياز ، لأن هذه القصة مذكورة
في كتب التاريخ ، مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة في فصاحتها وحسن بيانها ، وخفائها على
السمع وان تكررت .

وان حملنا القصص على المقصود كان معنى كونه أحسن القصص أنه حوى من الحكم والهجائب
ووسائل تربية النفس ، وتهذيب الخلق ما ليس في غيره من القصص .
ولاحج فقد ساقه الله في كتابه الكريم لأمثال هذه الغايات : كما قال (وكلا نقص عليك
من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك «١٢٠») (٤) وقال (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب
ما كان حديثاً يفترى ولا يكن تصديقاً الذى بين يديه وتفصيل كل شئ ، وهدى ورحمة لقوم
يؤمنون «١١١») (٥) .

ما دام القصص في القرآن الكريم قد سبق لأمثال هذه الغايات ، ولم يسبق لمجرد إيناس
النفس وإبعادها عن ملل الحياة ، وترويحها بنقلها من مطالعة أمور شاقة إلى أمور سهلة ، كما هو

[١] بيان ما نؤول إليه من المعنى ، وهو تبيير الأعلام . [٢] سورة القصص . [٣] الكهف .

[٤] هود . [٥] يوسف .

الحال في الروايات القصصية التي يعمد إليها كثير من الناس لمثل ذلك الغرض - وجب أن يكون القصص الذي حواه القرآن الكريم أحسن القصص -

وسترى من فوائد القصص في هذه السورة أنه لادافع لقضاء الله تعالى ، ولامانع من قدره ، وأنه تعالى لو قضى للإنسان بسعادة ومكرمة واجتمع العالم كله على أن يمنعه ما قدر له ما وجدوا لذلك سبيلا ، وكذلك سترى من هذه القصة أن مقبة الحسد الخذلان ، وعاقبة الصبر الفرج والنور ، إلى غير ذلك من العبر (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) أى خالى الفهم من قصة يوسف وإخوته ، لأنك ما علمتها إلا بالوحى الالهي .

ولذلك ختم القصة بقوله (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون «١٠٢» (١) يريد إخوة يوسف وهم يمكرون به ويتآمرون عليه ، ولكن الله علمك ما لم تكن تعلم من أخبار الرسل (أو) الغافلين عن الدين والثريمة قبل ذلك كما قال (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان «٥٢» (٢) . (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) هذا بدء لقصة يوسف مع إخوته ، وهو قوله لأبيه يعقوب عليه السلام إنى رأيت أحد عشر كوكبا . وقد أخذ منه بعض العلماء أن إخوة يوسف كانوا أحد عشر ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين : أى رأيت الشمس والقمر وهما أعظم الكواكب التي يستضي بها أهل هذه الأرض خاضعين لى ، وقد فطن والله يعقوب لخطر هذه الرؤيا ، وأن إخوته إذا سمعت منه ذلك حسدته على ذلك الخبير المقتدر له ، فقال له : يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، ثم على ذلك بأن الشيطان عدو مبين للإنسان ، وهم عرضة لأن يسلط عليهم .

ومنه نعلم أن يعقوب عليه السلام لم يك مؤمنا بعصمة أولاده من حسد أخيه ، وتدمير المكايده ، بل كان متيقنا على يوسف أن تحسده إخوته ، وأن يدبروا له ما يودى بحياته ، ويقضى عليه ، وذلك وحده كاف فى أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ولا رسلا ، لأن ذلك الحسد الذي ظهر على إخوة يوسف مرض قلبي من شأنه أن لا يفارق صاحبه ما دام فى هذه الحياة ، ولو كان ذنب إخوة يوسف معه شيئا وراء الحسد لقلنا انه ذنب وقع قبل النبوة وفارقم بعدها ، والأنبياء لبسوا معصومين فى ذلك الحين ، أما وهو مرض تنسى يتعلق بالقلب ، ثم هو حقد على أخيه يوسف لأنه سيكون له شأن من ناحية الرسالة والمالك - فمن الصعب أن نوفق بين ذلك المرض وبين النبوة أو الرسالة بحال من الأحوال ، وكان ذلك وحده كافيا فى أن لا يفهم الناس أنهم أنبياء بل هم من عاتمة القوم مجرى عليهم ما يجرى على بقية الناس ، فكيف إذا كانت النبوة أو الرسالة لا تثبت إلا بنص قاطع ! وأولئك الاخوة لم يرد فيهم نص من الكتاب ولا من السنة الصحيحة يدل على أنهم أنبياء أو رسل ، وإنما ورد النص القاطع بأنهم دبروا ليوسف ما دبروا ، وكادوا ما كادوا . وكذبوا على أبيهم ما شاء لهم الهوى ، فكيف يكون أولئك الاخوة أنبياء أو رسلا .

وقد دلّ تحذير يعقوب ليوسف عليهما السلام أن يقصّ رؤيته على إخوته أنهم كانوا مستعدين لفهم هذه الرؤيا ، وأنهم في نهاية أمرهم سيكونون بها ليوسف خاضعين له ، وكذلك أبواه سيخضعون له ، وهي من الرؤى الواضحة التي يفهمها كثير من الناس ، ولا سيما إخوة يوسف الذين هم أحد عشر ، وتأويل الشمس والقمر ، وما أعظم الكواكب بالأبوين واضح جليّ من شأنه أن يفهمه إخوة يوسف .

(٢) (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) الخ بشارة من نبيّ الله يعقوب عليه السلام لولده يوسف [بناء على وحى سماوى] بأن الله تعالى كما ألهمه هذه الرؤيا العظيمة يجتبيه للرسالة ويعلمه من تأويل الأحاديث الخ ، أو أن تلك البشارة مبينة على فراسة من نبيّ الله يعقوب وقرائن لحما في استعداد ولده يوسف ، وكأنه يقول لولده : إني أرجو أن يجتبيك الله ويصطفيك كما اجتباك لهذه الرؤيا التي تدلّ على مستقبل عاظم بظلم الأمور .

فقوله (وكذلك يجتبيك ربك) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره في عالم المثال من سجد تلك الأجرام العلوية لك (يجتبيك ربك) يصطفيك على أشرف الخلائق ويعزز مصداق تلك الرؤيا في عالم الشهادة : أى كما سخرت لك الأجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك (يعلمك من تأويل الأحاديث) توطين للنفس يوسف عليه السلام : أى فطلع على حقيقة ما أقول ، والمراد بتأويل الأحاديث تغيير لرؤيا ، إذ هي أحاديث الملك ان كانت صادقة ، وأحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك ، وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام ، والأوّل هو الأظهر ، وتسمية التعبير تأويلا ، لأنه جعل المرثى في النوم أيلا الى ما يذكره المعبر وراجعا اليه ، من الأول ، وهو الرجوع ، وكلمة (تأويل) في القرآن الكريم يراد منها ما يتول الى الشيء ، ويرجع إليه ، فإذا قال الله تعالى في شأن المتشابه من القرآن (وما يعلم تأويله إلا الله) فالمراد ما يتول الىه تلك الآيات في الواقع من كيفية صفات الله تعالى وكيفية عالم الغيب من الجنة والنار وما فيهما ، فلا يعلم أحد كيفية قدرته وتعلقها بالإيجاد والاعدام ، وكيفية استوائه على العرش ، ولا كيفية نعم أهل الجنة أو عذاب أهل النار ، فليست نار أهل التاركين الدنيا ، وليست ثمرات الجنة ولذتها وعسلها من جنس المجهود لنا ، وإنما هو شيء آخر يليق بذلك العالم ويناسبه ، وإذا قال انه تعالى (فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا «٥٩» (١)) فالمراد به أحسن ما لا عقابة ، ولذلك فسره مجاهد وقادة بالتواب والجزاء . والسدى وابن زيد وابن قتبية والزجاج بالعاقبة ، وكلاهما بمعنى المآل ، لكن الثاني أعظم ، لأنه يشمل حسن المآل في الدنيا ، وإذا قال الله تعالى (ولقد جئناكم بكتاب فضاء على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون «٥٢» هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو ردد نفعل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون «٥٣» (٢)) فالمراد بتأويله ما يتول الىه ، ولذلك

فسره ابن عباس بتصديق وعده ووعيده : أى يوم يظهر صدق ما أخبر به من أمر الآخرة . وقال قتادة : تأويله ثوابه . ومجاهد جزأه ، ومثله فى سورة يونس (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » ٢٩) المراد منه ما يتول إليه الأمر من ظهور صدقه ، وكذلك يقال فى قوله (وبذلك من تأويل الأحاديث) أى بيان ما يتول إليه الرؤى والأحلام ، وكذلك قوله فى آخر السورة لأبيه يعقوب عليهما السلام (يا أبت هذا تأويل رؤيائى من قبل قد جعلها ربى حقا) أى هذا الذى وقع من سجود أبويه وأخوته الأحد عشر له هو الأمر لواقى الذى آلت إليه رؤياه المذكورة فى أول السورة (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) فتأويل الرؤيا الاخبار عما يتول إليه وذلك التأويل هو الذى يسمونه (تعبيرا) وهو العبور من ظاهر الرؤيا إلى باطنها ، وأصله من العبور وهو التجاوز من حال إلى حال وخصوا تجاوز الماء بسباحة أو غيرها بلفظ العبور ، وكان المعبّر تجاوز لفظ الرؤية ، وظاهرها إلى عاقبتها وباطنها ، وأخذ من ظاهر اللفظ ما يوصله إلى باطنه فيرجع إلى معنى التأويل ، وهو ما يتول إليه الرؤيا من الحقائق ، وهو لا يتخالف من قال إن تعبیر الرؤيا تفسيرها ، لأن المفسر يعبر اللفظ إلى المعنى ويتجاوز ظاهر الرؤيا إلى باطنها ، ويفسر ما يتول إليه وينتهى عنده ، و (الرؤيا) بوزن فعلى ما يراه الشخص فى منامه ، وقد تنجى بمعنى الرؤية البصرية على ندور وقلة (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) الخ : أى يضم إلى النبوة الاستفادة من الاجتهاد الملك ، ويجعله ثمة لها و (آل يعقوب) أهل من بنيه وغيرهم (كما آتينا على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) بتأخذ إبراهيم عليه السلام خلا ، وإيجائه من النار ، وإعفائه من ذبح الولد الذى هو فدية كبد ، ونعمته على إسحق بإيجائه من الذبح ، وفدائه بذبح عظيم ، وإخراج يعقوب والأسباط من صلبه (إن ربك عليم) فيعلم من يستحق الاجتهاد وما يتفرع عليه من التعليم المذكور ، وإتمام النعمة العاتية (حكيم) فاعل لكل شئ حسب مقتضيه الحكمة والمصلحة .

آراء العلماء فى الرؤى والأحلام

(٣) قال المازرى : كثر كلام الناس فى حقيقة الرؤيا وقال فيها غير الاسلاميين أقوال كثيرة منكورة ، لأنهم حاولوا الوقوف على حقائق لا تدرك بالعقل ولا يقوم عليها برهان ، وهم لا يصدقون بالسمع ، فاضطربت أقوالهم ، فمن ينتمى إلى الطب ينسب جميع الرؤيا إلى الأخلاط ، فيقول من غلب عليه البلغم رأى أنه يسبح فى الماء ، ونحو ذلك لمناسبة الماء طبيعة البلغم ، ومن غلبت عليه الصفراء رأى النيران والصفود فى الجو ، وهكذا إلى آخره ، وهذا وإن جوزه العقل ، وجاز أن يجري الله العادة به ، لكنه لم يقم عليه دليل ، ولا اطرقت به عادة ، والقطع فى موضع التجويز غلط .

ومن ينتمى إلى الفلسفة يقول : إن صور ما يجري فى الأرض هى فى العالم العلوى كالنقوش ، فما حاذى بعض النقوش منها انتقش فيها ، قال وهذا أشد فسادا من الأول ، لكونه تحكما لإبرهان عليه ، والانتقاش من صفات الأجسام ، وأكثر ما يجري فى العالم العلوى الأعراض ، والأعراض

لا ينتقض فيها ، قال : والصحيح ما عليه أهل السنة أن الله يخلق في قلب النائم اعتقادات كما خلقها في قلب اليقظان ، فإذا خلقها فكأنه جعلها علما على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال ، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان ، ونظيره أن الله خلق النعيم علامة على المطر ، وقد يتخلف ، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة الملك فيقع بعدها مايسر ، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضر ، والعلم عند الله تعالى . وقال القرطبي : سبب تخليط غير الشرعيين إغراضهم عما جاءت به الأنبياء من الطريق المستقيم ، وبيان ذلك أن الرؤيا من إدراكات النفس ، وقد غيب عنها علم حقيقتها : أي النفس ، وإذا كان كذلك فالأولى أن لا نعلم علم إدراكاتها ، بل كثير مما انكشف لنا من إدراكات السمع والبصر إنما نعلم منه أمورا جليلة لا تفصيلية .

ثم قال : ثم جيع الرائي تنحصر في قسمين : الصادقة ، وهي رؤيا الأبياء ومن تبعهم من الصالحين ، وقد تقع لغيرهم بحدود ، وهي التي تقع في اليقظة على وفق ما وقعت في النوم ، والأضغاث وهي التي لا تنتدر بشيء ، وهي أنواع :

(الأول) تلاعب الشيطان ليحزن الرائي كأن يرى أنه قطع رأسه وهو يذبحه ، أو رأى أنه واقع في هول ، ولا يجد من ينجده ، ونحو ذلك .

(الثاني) أن يرى أن بعض الملائكة تأمره أن يفعل المحرمات مثلا ، ونحوه من الخيال عقلا .

(الثالث) أن يرى ما يتحدث به نفسه في اليقظة ، أو يتماه فيراه كما هو في المنام ، وكذا رؤية ما جرت به عادته في اليقظة ، أو يغلب على مزاجه ، ويقع على المستقبل غالبا ، وعن الحال كثيرا وعن الماضي قليلا (١) اهـ .

وقال الشيخ النابلسي في مقدمة كتابه « تعبير الأنام في تعبير المنام » ما نصه :

وقد قال بإبطال الرؤيا قوم من المحدثين يقولون : إن النائم يرى في منامه ما يطلب عليه من الطبايع الأربعة ، فإن غلبت عليه السوداء رأى الأجداث والسواد والأهوال والأفزع ، وإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصاييح والهمم والمعضرات ، وإن غلب عليه الباقم رأى البياض والمياه والأنهار والأمواج ، وإن غلب عليه اللم رأى الشراب والراحين والمعارف والمزادير .

وهذا الذي قالوه نوع من أنواع الرؤيا ، وليست الرؤيا منحصرة فيه فاما نعلم قطعا أن منها ما يكون من غالب الطبايع كما ذكرنا ، ومنها ما يكون من الشيطان ، ومنها ما يكون من حديث النفس ، وهذه أصح الأنواع الثلاثة . اهـ .

(٤) وقال الأستاذ الشيخ «طنطاوى جوهري» في كتابه الجواهر في تفسير القرآن :

اعلم أن الرؤى على أقسام :

(التقسيم الأول) ما نشأ من غلبة السم الناجم من الاكثار من الأغذية السموية الحارة الرطبة كالطبايع الدسمة ، والحلواء ، فتتبع الطبيعة ، فتتخثر في الدماغ بخارا حارا رطبا ، فيكون الصداع العظيم ، وفرة الحواس ، وقد يزداد فتحمّر العين ويكون وجع الحلق وذات الجنب وورم الكبد والطحال والأمعاء والأنثيين ، ويرى في منامه الرعاف والاحتجام والدم واللاميين والرقاصين .

(القسم الثاني) مائتاً من غلبة الصفراء الناجمة من الاكثار من الأغذية اليابسة كالعسل ولحم الكباش الحولى ونحو ذلك ، فتحترق الطبيعة من الجوف إلى الدماغ يخترق صفراوى غير معتدل ، فيكون صداع في الرأس وشقيقة وقلة نوم وحسرة الجس ، وقد يصفر اللون والعين ويكون الفم مرّاً ، ويرى في منامه النيران والشمس المحرقة والصواعق والحروب ، ولا يزال مغتماً مهتماً .

(القسم الثالث) الرؤيا الناشئة من البلغم الناجم من الاكثار من الأغذية الباردة الرطبة المولدة بخاراً رطباً يوقع فترة في الجسم ورخاوة في المفاصل وكثرة الرقي ولزوجيته وبرد الجسم وقلة شهوة الطعام أول النهار ، وقلة العناش وضعف المعدة وبيض البول ، وكثرة النوم والكسل والفتيان . وأن يرى صاحبه في نومه الأمطار والمياه والأودية والافتساح والسباحة .

(القسم الرابع) الرؤى الناجمة من غلبة السوداء الناشئة من الاكثار من الأغذية السوداء كالعسل والسخن ولحم البقر والباذنجان فيبتدئ المرض السوداءى بفترة في البدن وشدة عطش وقلة نوم ، وقد يطغى المرض إذا لم يتدارك فيكون الجذام والجرب والحكة والقالج والسكته وخفة الرأس والرعاب والتأليل والباسور والصرع والماليخوليا والقوبا والبهمة والسعال اليابس الخ ، ويرى في منامه الأهوال والمخاوف والخيالات والظلمة والأشياء السوداء المحرقة ، ويهوب من كل أحد ، ويرى الأموات ونحو ذلك . وأكثر مايقع ذلك من أكل الملوحة والجوضة والفول والعدس (القسم الخامس) أن تكون القوة الخيالية في الدماغ مشغولة بصور واردة عليها من الخواص مخزونة فيها ، ومن خصائص هذه القوة العجيبة أنها تحلل تلك الصور وتركبها كأن تتخيل :

أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

وكان تصور إنساناً مقطوع الرأس وهو لا يزال حياً .

(القسم السادس) أن تحاكي القوة الخيالية المذكورة ماغلب على النفس من منازعها الشهوية الطبيعية كشهوة الطعام وشهوة التزاوج والتناسل ، فان تلك القوة تخترع الأعاجيب في المنام ، فتتقم للنائم الطعام والشراب والأنس والأحباب والأوانس والفادات مضاهاة ومحاكاة لما يحصل في العيان .

(القسم السابع) أن تحاكي تلك القوة ماغلب على النفس قبل من القوة الغضبية والحلية والعصية فتخترع له تلك القوة آلات للقتال ودروعاً للقتال وسيوفاً وحرباً للملاقاة الأبطال ومدافع لكفاح الأعداء ، فتجد ما كان في النهار قوة كامنة في النفس ظاهراً في النوم عند تلك القوة فتتك بأقرانه وتجندل أعداءه وهو منصور في المنام .

(القسم الثامن) أن يكون البدن هادئاً ساكناً تغلب عليه الصفراء ولا السوداء ولا البلم ولا الشهوة البهيمية ، ولا القوة الغضبية ، ولم تزدهم معدته بالطعام ، فان هذا ربما يرى في منامه واردات من عالم العقل فتترسم تلك المعاني العالية الواردة عليه ، وتصور بصور المحسوسات وقد تكون بدعية جداً بهية المنظر ، وقد تكون تلك الواردة عليه أقوالاً لطيفة ورموزاً لها معان اجالية تخبر بأمر في الحال أو الاستقبال ، فهذه هي الأقسام الثمانية التي لا يغلو منها أو من بعضها أحباب الرؤى من الناس .

واعلم أيها القارئ أن هذا القول ملخص ما ذكره الفارابي في علم النفس ، وملخص ما جاء في علم الطب في هذا المقام ، فهذا المقام أصوله في فلسفة الفارابي ، وفي علم الطب ، قد فصلته لك تفصيلا ، ومنجته منرجا جيلا ، وأبنته أيما تبيان . وعلى ذلك تكون الأقسام السبعة وهي حال الصفراء والهم واليغم والسوداء والصور الواردة من الحواس وغلبة القوة الغضبية والقوة الشهوية الرؤى فيها أضغاث أحلام لتأويل لها ، وإنما هي نتيجة ما قام بالجسم من الأضغاث والأحوال . فاما القسم الثامن فإن له ضربا شتى وأحوالا مختلفة ، فيها ما يكون واضح الدلالة ، ومنها ما يحتاج الى تأويل ، وهذا هو الذي تكون منه الرؤيا الصادقة ، وهي نادرة في النوع الانساني ، فأما أكثر الرؤى فإنها أضغاث أحلام ، وهي تلك السبع ، والله أعلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وهذا خبر ما اطلعت عليه مما ذكره أهل العلم في الرؤى والأحلام ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

ثم قال الأستاذ [هل من علاقة بين الأحلام والحوادث ؟] ونقل عن مجلة علمية فصلا حاولت به المجلة أن تشرح به مسألة الأحلام ، وتثبت أن بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة لا يمكن إنكارها .

فمن ذلك ما رآه الدكتور [دى سمرين] وهو أنه حلم ذات يوم أن ولده وقع في نار ملتهبة واحترق ، فأخذ يراقب ولده في اليوم التالي فوجده صحيح الجسم ولكنه أصيب في اليوم الذي بعده بالتهاب الرئة الحاد ، وتوفي بعد بضعة أيام .

ومنه ما وقع لسيدة من أهالي مدينة [فيلادلفيا] بأمریکا حصلت أن ابنها « وهو رجل كهل » سقط بين عجلات الترامواي وقتل ، فنهضت من نومها مذعورة ، فنامت سمة ثانية ، فتكرر الحلم ، ففي اليوم التالي ذهبت الى [نيويورك] حيث كان ابنها يسكن ، وما كادت تخرج من محطة [نيويورك] حتى أبصرت جهورا من الناس حول رجل ميت دمه الترامواي ، وكان ذلك الرجل هو ابنها .

ومن ذلك القبيل أن ضابطا أمريكيا يدعى الكابتن [مكيجون] عزم أن يذهب هو وولده إلى مسرح [بروكلين] فطلب من إدارة المسرح أن تحجز له ثلاثة أماكن ، وفي الليلة السابقة للمسرح حلم أن نارا عظيمة شبت في المسرح والنهمة فهلك ثلاثمائة نفس ، فهب من نومه مذعورا ، وأخبر إدارة المسرح أنه عدل عن الذهاب هو وولده ، وفي تلك الليلة شبت نار هائلة ألهمت المسرح كله وهلك بالثلاثمائة نفس بين رجال ونساء ، ومن الناس من استفاد من الأحلام فربح جوائز اليانصيب أو الرهن على الجياد الفائزة في ميادين السباق .

ثم قال : والحوادث التي من هذا القبيل كثيرة متعددة ، ولكن لا يصعب إرجاع معظمها إلى مبدأ الاتفاق التي تسميه العامة المصادفة إلا إذا حلم المرء أن الرقم الثلاثي من أرقام أوراق اليانصيب ربح الجائزة الكبرى ، وفي الواقع ربح ذلك الرقم الجائزة ، فإن الربح في هذه الحالة لا يمكن إرجاعه إلى تاموس الاتفاق ، بل يجب تعليله على وجه آخر .

ثم ختمت المجلة بحثها بقولها ان العلماء يواصلون البحث لمعرفة أسرار الأحلام والوصول إلى

تعليلها تعليلاً علمياً صحيحاً ، ولا بد أن يفهموا إلى حل يحسن السكوت عليه ، فيثبتوا أن الأحلام ليست مجرد مشاهد تعرض للنائم بلاسبب منطقي ، بل إن بينها وبين الحوادث علاقة لا سبيل إلى إنكارها (١) اهـ .

تعليل العلماء للرؤيا

(٥) علل العلامة ابن خلدون في مقدمته الرؤيا بأن الروح العاقل المدرك في الإنسان إنما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية حجاب الاشتغال بالبدن ، وقواه وحواسه ، فإذا تخلص عن بعض ذلك الحجاب بالنوم خفت شواغله ، فاستعد لقبول ما هنالك من المدارك اللاحقة ، وانكشف للروح العاقل من المدارك الغيبية ما هو مستعد له .

ويرى ابن خلدون في الفرق بين الرؤيا والأضغاث - وإن كان كل منهما صوراً وأمثلة في خيال النائم - أن تلك الصور إن كانت منزلة إلى الخيال عن طريق الروح العقلي المدرك فهي رؤيا ، وإن كانت مأخوذة من الصورة التي أودعت في الحافظة منذ اليقظة فهي أضغاث أحلام ، ولم يرد ابن خلدون بذلك حصر الأضغاث في ذلك النوع ، بل ذلك النوع من الأضغاث ، وكذلك يرى ابن خلدون أن الخيال إذا ألقى إليه الروح العاقل ما أدركه صورة في القوالب المعتادة للحس . فمن ولد أعمى لا يصور له الخيال السلطان بالبحر ، ولا العدو بالحية . ولا الإنسان بالأواني ، لأن حسه لم يتعود إدراك هذه ، وإنما يصور له الخيال أمثال هذه فيما يناسبها من جنس مداركه التي هي السموعات والمشومات ، ثم قال : وإتحفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفقد قائلونه (٦) اهـ يتصرف .

وقال في فتح الباري : ونقل القرطبي عن بعض أهل العلم أن الله تعالى ملكاً يحرص المراتب على أهل المدرك من النائم فيمثل له صورة محسوسة . فتارة تكون أمثلة موافقة لما يقع في الوجود ، وتارة تكون أمثلة لمعان معقولة ، وتكون في الحالين مباشرة ومنفرة . قال : أي القرطبي ويحتاج فيما نقله عن الملك إلى توقيف من الشرع . وإلا جاز أن يخلق الله تلك المثلثات من غير ملك .

وقيل : إن الرؤيا إدراك أمثلة منضبطة في التخيل جعلها الله أعلاماً على ما كان أو يكون اهـ وهو الموافق لما تقدم عن المارري من أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان ، فإذا خلقها فكأنه جعلها علماً على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال ، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان . ونظيره أن الله خلق القيم علامة على المطر ، وقد يتخلف ، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة الملك فيقع بعدها ما يسر ، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضر ، والعلم عند الله تعالى اهـ .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : الرؤيا إدراكات علقها الله تعالى في قلب العبد على يدي ملك أو شيطان إما بأسمائها : أي حقيقتهما ، وإما بكنائهما : أي بصبرتها ، وإما بتخليط ، ونظيرها في اليقظة الخواطر فإنها قد تأتي على نفس في قصة ، وقد تأتي مسترسلة غير محصلة .

هذا حاصل قول الأستاذ أبي إسحق . قال : وذهب القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أنها اعتقادات ، واحتج بأن الراى قد يرى نفسه هيمة أو طائرا مثلا ، وليس هذا إدراكا فوجب أن يكون اعتقادا ، لأن الاعتقاد قد يكون على خلاف المعتد . قال ابن العربي : والأول أولى ، والذي يكون من قبيل ما ذكره ابن الطيب من قبيل المثل ، فالادراك أعما يتلقى به لأباصل الذات (١) اهـ .

ماورد فى صحيح البخارى فى الرؤيا

(٦) قد وضع البخارى فى الرؤيا كتابا سماه [كتاب التعبير] وقد جمع فيه نيفا وأربعين بابا ، وصدره بحديث : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، لأنها أصل ذلك الباب ، ثم عقبه بباب رؤيا الصالحين ، وقوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين - الى قوله (فتحا قريبا) ليرينا أنه كان من وحي الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعد النبوة وحي طريقه للرؤيا ، وبحديث الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة .

وقد اختلف الشراح فى معنى ذلك اختلافا كبيرا ، وبما قالوه : انها مدرك من مدارك الغيب ، وهى بهذا الاعتبار جزء من النبوة ، لأن النبوة تعتمد الاخبار بالغيب ، ثم حديث الرؤيا الصادقة من الله والحلم من الشيطان .

قال الشراح : ان الرؤيا الصادقة هى الخالية عن الأضغاث ، والحلم هو الأضغاث ، وأضافه الى الشيطان لأنه الذى يخل بها ولا حقيقة لها فى نفس الأمر ، ولأنها تحزن صاحبها ، وذلك غرض من أغراض الشيطان ، ولذلك أضيفت إليه ، كما حدثنا البخارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرجل إذا رأى رؤيا يحبها فهى من الله وليحمد الله عليها ، وليحدث بها الناس ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هى من الشيطان ، فليستعذ بالله من شرها ، ولا يذكرها لأحد فانها لا تضره ، وذلك أدب من آداب الرؤيا ، ثم عرض لحديث لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة ، زاد مسلم فى صحيحه : براها المسلم أو ترى له ، ثم عرض لباب رؤيا يوسف ، ورؤيا إبراهيم عليهما السلام ، ثم باب رؤيا أهل السجون والفساد والشرك ، لقوله تعالى (ودخل معه السجن فتيان) ليرينا أن الرؤيا الصحيحة ، وإن اختصت غالبا بأهل الصلاح ، لكن قد تقع لعبرم من المشركين أو النفاق ، نقل صاحب الفتح عن أهل العلم بالتعبير أنه إذا رأى الكافر أو الفاسق الرؤيا الصالحة فانها تكون بشرى له بهديته الى الإيمان مثلا أو التوبة ، أو انذارا من بقاءه على الكفر أو الفسق ، وقد تكون لغيره ممن يغيب إليه من أهل الفضل : أى كما تقدم فى مسلم : براها المسلم أو ترى له - وقد يرى ما يبدل على الرضا بما هو فيه ويكون من جملة الابتلاء أو العرور والمكر ، فعوذ بالله من ذلك .

[١] انظر الفتح ج ١٢ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

ثم عقب ذلك (باب) من رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وحديث من رأى في المنام فسيرا في القطة ، وفي رواية فكأنما رأى في القطة ولا يتجمل في الشيطان ، قال أبو عبد الله البخاري . قال ابن سيرين : إذا رأى في صورته أي التي كان عليها في الدنيا .

قال الشراح : المراد من قوله فسيرا في القطة أنه سيرى تفسير ما رأى لأنه حق ، وقوله فكأنما رأى في القطة : أي هو رؤيا حتى لا شك فيها ، ويدل له قوله : ولا يتجمل في الشيطان : أي أن الله تعالى حفظ مثله من أن يتجمل به الشيطان ، فمن رأى في منامه لم تكن رؤياه من قبيل الأضغاث ، ويدل لذلك رواية أخرى للبخاري من رأى فقد رأى الحق .

ثم وضع البخاري (بابا) لرؤيا الرجل بالليل ، و (بابا) لرؤياه بالنهار ، وساق أحاديثه في البابين ليرينا أن الرؤيا لا تختص بالليل بل تكون في النهار كما تكون في الليل .

طائفة من تأويلات الرؤيا

(٧) روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه أتى بقدح من لبن فشرب منه حتى روى ، ثم أعطى فضله عمر ، قالوا فما أولته يا رسول الله ؟ قال العلم .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على عمر بن الخطاب في النوم وعليه قميص يجره ، قالوا ما أولته يا رسول الله ؟ قال : الدين .

وروى البخاري أن عبد الله بن سلام رأى في منامه كأن عمودا نصب في روضة خضراء وفي رأسه عروة ، وفي أسفله منصف : أي خادم ، فقيل لعبد الله : اصعد عليه . فصعد حتى أخذ العروة . فقست على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يموت عبد الله وهو آخذ بالعروة الوثقى . وروى عن عائشة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أريتك قبل أن تزوجك والملك يحملك في سرقعة من حرير : أي قطعة من أجوده ، فقلت له : اكشف فكشف فإذا هي أنت ، فقلت إن بك هذا من عند الله بحضه .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم رأى وهو نائم أنه أوتى مفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يديه قال أهل التعبير : المحتاح عز وسلطان .

وروى أن ابن عمر رأى كأن في يديه سرقعة من حرير لا يهوى بها في مكان في الجنة الاطارت به إليه ، فقصها على حفصة فقصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخاك رجل صالح . وروى أنه رأى لعثمان بن مظعون في المنام عين تجرى فأولها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمله الذي يجري له .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه بينا هو على بئر ينزع منها إذ جاءه أبو بكر فأخذ باللو فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعها ضعف ، ثم أخذها عمر فاستحالت دلو عظميا ، فلم ير أحدا من الناس ينزع نزعها . وقد أولها العلماء بخلافة أبي بكر وعمر وما يجري فيهما من الفتوحات الإسلامية على يديهما .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أنه في الجنة ، وإن امرأة تنوض إلى جانب قصر ،

فقال لمن هذا القصر؟ فقبل لعمر ، فذكر غيرته ، فولى مدبرا ، فلما بلغ عمر ذلك بكى وقال : أعليك بأني أنت وأمي يرسل الله أغل ١١ .

قال أهل التأويل : القصر في المنام عمل صالح لأهل الدين ، ولغيرهم حبس وضيق ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى نفسه في المنام يطوف بالكعبة - قال أهل التعبير : الطواف يدل على الحج وعلى التزجج ، وعلى حصول أمر مطلوب من الامام ، وعلى بر الوالدین وعلى خدمة عالم ، والبخول في أمر الامام .

وروى عن ابن عمر أنه رأى في منامه أن ملكين جاءه في يد كل منهما مقمعة من حديد يقبلان به الى جهنم ، فاستعاذ بالله منها ، وأن ملكا آخر طمأنه ، وقال له : نعم الرجل أنت لو نكثت الصلاة ، فانطلقا به الى شفير جهنم ، فرأى صفتها وما فيها من رجال ، فقصها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن عبد الله رجل صالح ، فلم يزل بعد ذلك يكثر الصلاة .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أن في يديه سوارين من ذهب ، فسكرهما ، فأذن له فنفخهما فطلرا ، فأولهما بكذابين يخرجان . فقال عبيد الله : احداهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن ، والآخر مسيلة . قال في الفتح : إنما أول السوارين بالكذابين . لأن الكذب وضع الشيء في غير موضعه ، فلما رأى في زراعيه سوارين من ذهب وليس من لبسه لأنهما من حلية النساء عرف أنه سيظهر من بدعي مالم يس له ، وأيضا في كونهما من ذهب والذهب منهى عن لبسه دليل على الكذب ، وأيضا فالذهب مشتق من الذهاب ، فعمل أنه شيء يذهب عنه ، وتأكد ذلك بالاذن له في نفخهما فطلرا ، فعمل أنه لا يثبت لهما أمر اه .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى كأن امرأة سوداء نائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهجة ، وهي الجحفة ، فأولها بأنه وباه المدينة نقل إليها - قال ابن المهلب هو مما ضرب به المثل ، ووجه التمثيل أن شق من اسم السوداء السود والغاء ، فتأول خروجها بما جمع اسمها .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم رأى أنه هز سيفا فانقطع صدره ، فاذا هوما أصيب من المؤمنين يوم أحد ، ثم هزم مرة أخرى فصاد أحسن ما كان ، فاذا هوما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين . ثم ختم البخاري ذلك الكتاب بأحاديث النهي عن الكذب في الرؤيا كحديث «من تحمل بحمل لم يره كان أن يعتقد بين شعيرتين ولن يفعل» ، ثم (باب) إذا رأى الرجل ما يكره وساق أحاديث منها إذا رأى أحدهم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فاعلم من الشيطان ، فليستعذ من شرها ، ولا يذكرها لأحد فانها لانقره (١) .

أصول التأويل

(٨) يقول ابن القيم بعد أن تكلم على ضرب الأمثال في القرآن الكريم وتوسع فيها ، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وصرفها قدرا وشرعا ويقظة ومناما ، ودل عباده على الاعتبار

بذلك ، وعبودهم من الشيء الى نظيره ، واستدلهم بالطير على النظر ، بل هذا أصل عبادة
الرويا التي هي جزء من أجزاء النبوّة ، ونوع من أنواع الوحي قاتها مبنية على القياس والتجربة ،
واعتبار المقول بالمحسوس .

(الآثرى) أن الثياب في التأويل كالمقص تدلّ على الدين ، فما كان فيها من طول أو قصر
أو نظافة أو دنس فهو في الدين ، كما أوّل النبي صلى الله عليه وسلم القميص بالدين والعلم ، والقدر
المشترك بينهما أن كلامهما يستر صاحبه ويحمله بين الناس ، فالقميص يستر بدنه ، والعلم والدين
يستر روحه وقلبه ، ويحمله بين الناس .

(ومن) هذا تأويل اللبن بالقطرة لما في كلّ منهما من التغذية الموجبة للحياة ، وكال نشأة
وأن الطفل إذا خلى وفطرته لم يعدل عن اللبن ، فهو مضطور على إشارته على مسأوه .

(وكذلك) فطرة الاسلام التي فطر الله الناس عليها (ومن) هذا تأويل البقر بأهل الدين
والخير الذين بهما عمارة الأرض ، كما أن البقر كذلك مع عدم شرّها وكثرة خيرها ، وحاجة
الأرض وأهلها إليها ، ولهذا لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم بقرا تتحرك ذلك نحرا في أصحابه .
(ومن) ذلك تأويل الزرع والحراث بالعمل ، لأن العامل زارع للخير والشر ، ولا بدّ أن
يخرج له ما بذره كما يخرج للبذر زرع ما بذره ، فالله يزرع الأعمال البذور ، ويوم القيامة
يوم طلوع الزرع وحصاده .

(ومن) ذلك تأويل الخشب المتطوع المتساقط بالنافقين ، والجامع بينهما أن المافق لاروح
فيه ولا ظل ولا ثمر ، فهو بمنزلة الخشب الذي هو كذلك ، ولهذا شبه تعالى المنافقين بالخشب المسند
لأنهم أجسام خالية عن الايمان والخير ، وفي كونها مسندة نكتة أخرى ، وهي أن الخشب إذا
انتفع به جعل في سقف أو جدار أو غيرها من مظانّ الانتفاع ، ومادام متروكا فارغا غير منتفع به
جعل مسندا بضه الى بعض ، فشبّه المنافقين بالخشب في الحالة التي لا ينتفع فيها بها .

(ومن) ذلك تأويل النار بالفتنة ، لافساد كل منهما ما يمرّ عليه ويتصل به ، فهذه تحرق
الأثاث والمتاع والأبدان ، وهذه تحرق القلوب والأديان والايمان .

(ومن) ذلك تأويل النجوم بالعلماء والأشراف لحصول هداية أهل الأرض بكلّ منهما ،
ولارتفاع الأشراف من الناس كارتفاع النجوم .

(ومن) ذلك تأويل النيت بالرحمة والعلم والقرآن والحكمة وصلاح حال الناس .

(ومن) ذلك خروج السم في التأويل يدلّ على المال والقدر المشترك أن قوام البدن بكلّ
واحد منهما .

(ومن) ذلك الحدث في التأويل يدلّ على الحدث في الدين ، فالحدث الأصغر ذنب صغير ،
والأكبر ذنب كبير .

(ومن) ذلك اليهودية والنصرانية في التأويل بدعة في الدين ، فاليهودية تدلّ على فساد
التمسك واتباع غير الحق ، والنصرانية تدلّ على فساد العلم والجهل والضللال .

(ومن) ذلك الحديد في التأويل وأنواع السلاح يدلّ على القوة والنصر بحسب جوهر ذلك السلاح وسميته .

(ومن) ذلك الرأحة الطيبة تدلّ على الثناء الحسن ، وطيب القول والعمل (و) الرأحة الخفيفة بالعكس (و) الميزان يدلّ على العدل (و) الجراد يدلّ على الجنود والعساكر والقوغاء الذين يجمع بعضهم في بعض (و) النحل يدلّ على من يأكل طيباً ، ويعمل صالحاً (و) الديك رجل على الهمة بعيد الصيت (و) الحية عدوّ أو صاحب بدعة يهلك بسمه (و) الحشرات أوغاد الناس (و) الخلد^(١) رجل أعمى يتكفّف الناس بالسؤال (و) الذئب رجل غشوم غادر فاجر (و) الثعلب رجل غادر محتال مكار صراوغ عن الحق (و) الكلب عدوّ ضعيف كثير السخب والشرّ في كلامه وسبابه ، أو رجل مبتدع متبع هواه مؤثر له على دينه (و) السنور العبد والخادم الذي يطوف على أهل الدار (و) الفأرة امرأة سوء فاسقة فاجرة (و) الأسد رجل قاهر مسلط (و) الكبش الرجل المتبع المتنوع .

(٩) ومن (كلمات التعبير) أن كلّ ما كان وعاء لئاء فهو دالّ على الأثبات ، وكلّ ما كان وعاء لئال كالصندوق والكيس والجراب فدلّ على القلب ، وكلّ مدخول بعضه في بعض وخرج ومحتلّ فدلّ على الاشتراك والتعاون أو النكاح ، وكلّ سقوط وخرور من علّ إلى سفلى فذموم وكلّ صعود وارتفاع فمحمود إذا لم يجاوز العادة وكان مما يليق به ، وكلّ ما أحرقت النار جأحه وليس يربح صلاحه ولا حياته (و) كذلك ما انكسر من الأوعية التي لا ينشعب مثلها ، وكلّ ما خطف وسرق من حيث لا يرى خاطفه ولا سارقه فانه ضائع لا يرجى ، وما عرف خاطفه أو سارقه أو مكانه أو لم يبق عن عين صاحبه فانه يرجى عوده (و) كلّ زيادة محمود في الجسم والقامة واللسان والذكر واللحية والبعد والرجل فزيادة خير (و) كلّ زيادة متجاوزة للحدّ في ذلك مذمومة وشرّ وفضيحة (و) كلّ ما روى من اللباس في غير موضعه المتخصّص به فمكروه كالعمامة في الرجل ، والخفّ في الرأس ، والعقد في الساق ، وكلّ من استقصى أو استخلف أو أمر أو استوزر أو خطب بمن لا يليق به ذلك ناله بلاء من الدنيا وشرّ وفضيحة وشهرة قبيحة (و) كلّ ما كان مكروهاً من الملابس غلظته أهون على لابسها من جديدته (و) الخوز مال مكتنوز فان تقفع كان قبيحاً وشرّاً (و) من صار له ريش أو جناح صار له مال ، فان طار سافر (و) خروج المريض من داره ساكناً يدلّ على موته ، ومتكلماً يدلّ على حياته (و) الخروج من الأبواب الضيقة يدلّ على النجاة والسلامة من شرّ وضيق هو فيه ، وعلى توبة ولاسيما ان كان الخروج إلى قضاء وسعة ، فهو خير محض (و) السفر والقتل من مكان إلى مكان : انتقال من حال إلى حال بحسب حال المكانين (و) من عاد في المنام إلى حال كان فيها في اليقظة عاد إليه ما فارقه من خير وشرّ (و) موت الرجل ربما دلّ على توبته ورجوعه إلى الله ، لأن الموت رجوع إلى الله ، قال تعالى ثم ردّوا إلى الله مولاهم الحق (و) المرهون مأسور بدين أو بحق عليه لله أولعيده (و) وداع المريض أهله أو توديعهم له دلّ على موته .

[وبالجملة] فما تقدم من أمثال القرآن كلها : أصول وقواعد لعل التعبير من أحسن الاستدلال بها وكذلك من فهم القرآن فانه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير ، وأصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن ، فالسيفنة تعبر بالنجاة ، لقوله تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة) وتعبر بالتجارة ، والخشب بالمنافقين ، والحجارة بفساوة القلوب ، والبيض بالنساء ، واللباس أيضا بهن ، وشرب الماء بالفتنة ، وأكل لحم الرجل بغيته ، والمفاتيح بالكسب ، والخزائن والأموال ، والفتح يعبرونه بالدعاء وصرّة بالنصر ، وكذلك يرى في محلة لا عادة له بدخولها يعبر بأذلال أهلها وفسادها ، والحبل يعبر بالعهد والحق والعقد (و) النعاس قد يعبر بالأمن (و) البقل والبصل والنوم والعذس يعبر لمن أخذه بأنه قد استبدل شيئا أدنى بما هو خير منه من مال أو رزق أو علم أو زوجة أو دار (و) المرض يعبر بالفاق والشك وشهوة الرياء (و) الطفل الرضيع يعبر بالهدوء ، لقوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً (و) النكاح بالبناء (و) الرماد بالعمل الباطل ، لقوله تعالى : مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح (و) النور يعبر بالهدى (و) الظلمة بالضلال . ومن هنا قال عمر بن الخطاب لحابس بن سعد الطائي وقد ولاه القضاء فقال له يا أمير المؤمنين إني رأيت الشمس والقمر يقتتلان ، والنجوم بينهما نصفين ، فقال عمر : مع أيهما كنت ؟ قال مع القمر على الشمس ، قال : كنت مع الآية المحقوقة ، اذهب فلست تعمل لي عملا ، ولا تقتل إلا في لبس من الأصر ، فقتل يوم صفين .

وقيل لعابر : رأيت الشمس والقمر دخلا في جوفى . فقال يموت . واحتج بقوله تعالى : فإذا برق الصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر .

وقال رجل لابن سيرين رأيت معى أربعة أرغفة حين طلعت الشمس ، فقال : تموت إلى أربعة أيام ، ثم قرأ قوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) وأخذ هذا التأويل أنه حل رزقه أربعة أيام . وقال له آخر رأيت كيسي مملوء أرضه ، فقال أنت ميت ، ثم قرأ (فلما قبضنا عليه الموت ما دهم على موته إدا بة الأرض) والنخلة تدل على الرجل المسلم ، وعلى الكامة الطيبة ، والحنظلة تدل على ضد ذلك ، والصنم يدل على العبد السوء الذى لا ينفع ، والبستان يدل على العمل ، واحتراقه يدل على حوطه لما تقدم من أمثال القرآن .

ومن رأى أنه ينقض غزلا أو ثوبا ليعيده صرّة ثانية فانه ينقض عهده وينكته، والمثلى سويا في طريق مستقيم يدل على استقامته على الصراط المستقيم ، والأخذ في بنيات (١) الطريق يدل على عدوله عنه الى ما مخالفه ، وإذا عرضت له طريقان ذات يمين وذات شمال ففلك أحدها فانه من أهلها ، وظهور عورة الانسان له ذنب يرتكبه ويتضح به ، وهروبه وفراره من شيء نجاة وظفر ، وغرقه في الماء فتنة في دينه ودنياه ، وتعلقه بحبل بين السماء والأرض تمسكه بكتاب الله وعهده واعتصامه بحبله ، فان انقطع به فارق الصمة إلا أن يكون ولى أمرا فانه قد يقتل أو يموت . [هالرؤيا] أمثال مضروبة يضربها الملك الذى قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرأى بما ضرب له من المثل على نظيره ، ويعبر منه الى شبهه ، ولهذا سمي تأويلها تعييرا ، وهو تفصيل من العبور ،

كما أن الانعاط يسمى اعتبارا وعبرة لعبور المتعظ من النظر الى نظيره (ولولا) أن حكم الشيء حكم مثله وحكم النظر حكم نظيره لبطل هذا التعبير والاعتبار ، ولما وجد إليه سبيل (١) اه .

(١٠) وقال الشيخ محمد بن سيرين في أول كتاب [تغيير الرؤيا] ما نصه : اعلم وفقى الله وإياك إلى طاعته أن الرؤيا لما كانت جزءا من ستة وأربعين جزءا من النبوة لزم أن يكون العبر علما يكتب الله ، حافظا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، خيرا بلسان العرب واشتقاق الألفاظ ، عارفا بهيات الناس ضابطة لأصول التعبير ، عفيف النفس ، طاهر الأخلاق ، صادق اللسان ، ليوفقه الله لما فيه الصواب ، ويهديه لمعرفة معارف أولى الألباب ، فإن الرؤيا قد تغير باختلاف أحوال الأزمنة والأوقات ، وتارة تغير من كتاب الله ، وتارة تغير من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارة تغير من المثل السائر ، وربما صرفت عن الرائي الى نظيره أو سميه وقد تنول الرؤية مرة من لفظ الاسم ، ومرة من معناه ، ومرة من ضده ، ومرة من اشتقاقه ، ومرة بالزيادة ، ومرة بالنقصان .

فأما التأويل من القرآن فكالبيض يبر عنه بالنساء ، لقوله تعالى - كأنهم بيض مكنون - وكالحجارة يبر عنها بالقسوة ، لقوله تعالى - ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة - وكاللحم الطرى يبر عنه بالغنية ، لقوله تعالى - أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه - وكالفتاحيح فانه يبر عنها بالكنوز ، لقوله تعالى - وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة - فزيد أمواله لأن الكنوز لا يتوصل إليها إلا بالفتاح ، وكالسفينة يبر عنها بالنجاة ، لقوله تعالى - فأنجيناه وأهملنا السفينة - ولقوله تعالى - فأنجيناه ومن معه في الفلك - وكذلك يرى أنه قد دخل دارا أو بلدة أو محلة ولم يكن له عادة بالدخول إليها يبر عنها بمصيبة أو ذلة ينال أهل ذلك الموضع ، لقوله تعالى - إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها - إلى قوله - أذلة - وكاللباس يبر عنه بالنساء ، لقوله تعالى - هن لباس لكم وأنتم لباس لهن - وأشبه ذلك كثير .

وأما التأويل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكالغراب يبر عنه بالرجل الفاسق ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه فاسقا ، وكالفأرة يبر عنها بالمرأة الفاسقة ، لقوله صلى الله عليه وسلم « الفأرة فاسقة » . وسماها أيضا فويسقة ، وكالضلع يبر عنه بالمرأة أيضا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المرأة خلقت من ضلع أعوج » وأسكفة الباب السفلى : أى عتبة يبر عنها بالمرأة ، لما روى عن خليل الله إبراهيم عليه السلام أنه قال لولاه اسماعيل غير أسكفة بابك ، يعنى زوجته وأشبه ذلك مما لا يعد .

وأما التأويل من الأمثال السائرة فكالرجل يرى في يده طولا فانه يبر عنه باصطناع المعروف لقولهم : هذا أطول منك يدا أو باعا : أى أكثر عطاء ، وكالاحتطاب يبر عنه بالهزيمة لقولهم : من مثى بين الناس نجمة فانه يحتطب . وكللرض يبر عنه بالنفاق ، لقولهم لمن لا يوفى وعده : فلان يعرض في وعده ، وكالحفلة يبر عنها بالولع ، لقولهم للذى يشبه أباه هو حفلة الأسد ، وكالذى يرمي

الناس بالسهم والبنق والحجارة يعبر عنه بأنه يذكرهم بسوء ، لقولهم : ربي فلان فلانا وقذفه ،
وكالرجل الذي يرى أنه يسفل يده بالأشنان ونحوه كالصابون يعبر عنه بالأياس من الشيء ، لقولهم
غسلت يدي بالأشنان منك : أي قد أبيت من خبرك ، وكالكيس يعبر عنه بالرجل العزيز في
قومه النجيع فيهم وأشياء ذلك مما لا يعد .

وأما التأويل بظاهر الاسم فكل رجل اسمه الفضل فانه يعبر عنه بالفضل ، وراشد يعبر عنه
بالرشد ، وسالم يعبر عنه بالسلمة وشبه ذلك .

وأما التأويل بالمعنى فكل الترجس والورد إذا عبر بهما لمن يسأل عنهما أو من ينسبانه إليه
يعبر عنهما بقلة البقاء ، والآس بالعدو لبقائه ونضارته وأشياء ذلك .

وأما التأويل بالعدو فكل الكاه يعبر عنه بالفرح مالم تكن معه ونة أو صوت أو شق جيب ،
والفرح والضحك والرقص يعبر عنه أنه حزن وهم وغم .

ومثل الرجلين يقتلان أو يضطربان فان المصروع هو الغالب ، ومثل الرجل يرى أنه محتجم
فانه يكتب عليه شرط ، أو يرى أنه يكتب عليه شرط فانه محتجم .

ومثل الرجل يرى أنه يدخل قبراً فانه يسجن أو يرى أنه يسجن في موضع مجهول الأهل
والهيئة فانه يقبر إذا لم يكن يرى أنه قد خرج من ذلك الموضع .

ومثل الحرب يعبر عنه بأنه نهجم ، وإن رأى عدواً هجم فانه سيل يسيل .

ومثل الجراد يعبر عنه أنه جند ، والجند جراد ، وأشياء ذلك كثيرة لا تحصى ، وأما الجراد فيعبر
عنه بمال مكنوز مالم يسمع معه قعقة فهو خصومة ، وفي الشعر أنه مال وزينة ، فان سال على
الوجه أو كثر على الحدة فهو غم وهم ، وقيل أنه كسوة ، فان كان مكفوفاً فهو كلام سوء يرى به
ولا يقدر على دفعه ، ومن رأى أن له ريشاً وجناحين فانه مال ورياش ، فان طار بهما سافر ،
ومن رأى أن يده قطعت فاحتملها وبقيت معه فهو أخ أو ولد يستفيدة ، فان فارقت فهي مصيبة
له في أخ أو ولد ، وفي المريض يرى أنه صحيح يخرج من بينه ولا يتكلم فانه يموت ، وإن تكلم
يرأى ، وفي المقامات أنها نساء غير عفيفات ، مالم تختلف ألوانها ، وإن كانت بيضاء وسوداء فهي
الأيام والليالي ، وفي السمك ان عرف عدده فهو نساء ، وإن لم يعرف فهو مال وغنيمة ، وأشياء
ذلك كثيرة .

وأما اختلاف الناس وحياتهم فقد تختلف الروايات باختلاف ذلك مثل الرجل يرى أنه مغلول
اليد أو العنق ، فان كان الرجل سيّاه الخبير والدين فهو صلاح في حقه واجتناب الشر والفساد ،
وإن كان سيّاه ضد ذلك فهو كثير المعاصي من أهل النار ، أجازنا الله منها بكمه أمين .

وأما اختلاف الأوقات فكل الرجل يرى أنه راكب فيلا ، فان كان ذلك ليلاً نال أمراً جسيماً
كامل المنفعة ، وإن كان نهاراً طلق زوجته اه .

وقال الشيخ ابن خلدون في مقدمته . ثم ان علم التعبير علم بقوانين كاية يعنى عليها المعبر عبارة
مايقص عليه وتاويله كما يقولون البحر يدل على السلطان ، وفي موضع آخر يقولون البحر يدل
على القبط ، وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الهم والأمر القادح ، ومثل مايقولون الحية

تدلّ على العدو ، وفي موضع آخر يقولون هي كاتم سرّ ، وفي موضع آخر يقولون تدلّ على الحياة وأمثال ذلك ، فيحفظ المعبّر هذه القوانين الكلية ، ويعبر في كلّ موضع بما تقتضيه القرائن التي تعين من هذه القوانين ما هو أليقّ بالرؤيا ، وتلك القرائن منها في البيضة ومنها في النوم ، ومنها ما ينقدح في قصص المعبر بالخاصة التي خلقت فيه ، وكلّ مبسر لما خلق له ، ولم يزل هذا العلم متناقل بين السلف ، وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء ، وكتب عنه في ذلك القوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد ، وألف الكرماني فيه من بعده ، ثم ألب للتكلمون والمتأخرون وأكثروا ، والمتداول بين أهل القرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل المتع وغيره ، وكتاب الإشارة للسالي ، وهو علم مضى بنور النبوة للناسبة بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب (١) اهـ .

يوسف عليه السلام

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَلَكِّينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ (٩) أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعِيدٍ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَاتٍ (١٠) الْجُبِّ يَتَقَطِّعُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غٰفِلُونَ (١٣) قَالُوا لَسْنَا أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا خَلِسْرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُحْكَمُوهُ فِي غِيَاةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صٰدِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قِيَمٍ بِدَمٍ كَذَبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ

[١] ص ٤٥٢ الطبعة الأميرية الثالثة . [٢] عبر وظلمات . [٣] ألقوه في أرض منكرة نعلم لكم حجة أبيكم . [٤] ماخاب منه عن الناظر وأظلم من أسفل « السيرة » السارة .

أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴿١٩﴾ فَأَدْلَى دَوْلَهُ قَالَ يَبْشُرُ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً ﴿٢٠﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ وَشَرَوْهُ ﴿٢٢﴾ بِشْتَيْنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَأَوْا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴿٢٤﴾ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ ﴿٢٥﴾ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٧﴾ يوسف

شرح وعبرة

(١) (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) أى لقد كان في قصة يوسف وإخوته علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء (للسائلين) أى المسكرين الذين من شأنهم أن يسألوا عن الأمور ويفكروا فيها ، وفيها من العبر ما ينسب به رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيداء قریش له ، لأنه إذا عرف ما فعله إخوة يوسف به - ويجمعهم به أب واحد - وأنهم دبروا له ما دبروا المجرّد أن يعقوب عليه السلام كان يختصّ ولده يوسف وأخاه بشيء من العطف والحنان - إذا عرف الرسول ما فعله أولئك الاخوة بأخيهم حرّضة لعامل المحسد في قلوبهم فانه لا يحزن من عمل قریش الذين ناصبوه العداوة وصنعوا معه من صنوف الإيذاء ما لا يليق ولا ينبغي . (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أئينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين) . فهم المفسرون أن ذلك الأخ كان أحما من الأمّ ليوسف ، أما هم فكانوا إخوة من الأب فقط والآية ترينا السبب الذي حلّ لإخوة يوسف على حسده ، وقولهم (ليوسف) بلام القسم إشارة إلى أنهم تأكدوا من أيهم ذلك الايتار (ونحن عصبة) جماعة أقرباء فينا الكفاية والمنفعة ، فنحن أولى بهذه المحبة من صغيرين لا كفاية فيهما ولا نفع ، وفاتهم ما قاله بعض فصحاء العرب لكسرى حين سأله : أى بنيك أحبّ إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يورث ، والمرضى حتى يبرأ .

و يوسف كان صغيرا ، وفوق ذلك كانت تظهر عليه مخايل التجابة والفكاه ، وقوى ذلك الرؤيا العجيبة التي أتته على مستقبل بامر كما نسوا أن مسألة المحبة قد لا يكون للانسان كسب فيها ، فقد يكون للرجل ولانسان ولكنه يشعر بمحبة لأحد الولدين فوق محبة للآخر ، وإن كان الغالب

[١] الذي يرد الماء ليستقى القوم . [٢] أخوه على أنه متاع فتجارية . [٣] باعوه بشن ناقص عن قيمته . [٤] منزله ومقامه ، والراد تقديده بالإحسان . [٥] لا أحد يتعمه مما يتناه .

أن المحبة للأولاد في الكبر تعتمد الخصائص والمزايا ، فمن كان مطيعا لوالديه كانت محبتهم له أكثر ومن كان فيه نجابة وذكاء وحرص على مصلحته ومصلحة أبويه وما إلى ذلك كان إقبال أبويه عليه أكثر لهذه الأسباب ، ولابد أن يكون يعقوب كان حبه ليوسف إلهاما من الله تعالى ، أو لما رأى فيه من الخصائص مالم يرى في غيره من بقية إخوته ، فلاذنب له في هذه المحبة ، وعلى فرض أن له ذنبا فاذنب يوسف وأخيه في أن يحبهما أبوهما يعقوب ؟ وهل يستطيع أن يقول لأبيه : انزع من قلبك حبي وإشفاقك عليّ ، وسوّى باخوتى في المحبة ؟ هذا ما لا يستطيعه يوسف ولا سبيل إليه ، ولا ذنب له فيه ، ولكن الحسد وحبّ الأيثار يحملان إخوة يوسف على أن يكيدا ليوسف وأخيه ذلك الكيد ، ويدبرا لهما ذلك التدبير .

وقد أوجد الله في الإنسان غريزة الحسد لطلب المجد والرفعة وعلو الشأن ، ولبساقى الانسان غيرة في المفاخر والفضائل والمجد ، فيكثر العمل ويزداد العمران ، وهو الذى يسمى [بالغبطة] ولكن الانسان أساء في استعمال ذلك الخلق ، وطغى في تضرّفه والانتفاع به ، فأخذ يعمل على إزالة العمة والفضل عن المحسود ، وبذلك لحقه من القهم وعقاب الله ما لحقه ، ويظهر أن الحاسد الذى يتغنى زوال نعمة الغير ، ويعمل لذلك ، يحسّ من نفسه انحطاطا عن المحسود ، وأنه لا قبل له بمجاراته في وسائل النعمة ، وطرائق الفضل ، وأن الطريق المألوف لتلك المجارات يكفه من الجهد والمشقات ما لا قبل له به ، وأنه لذلك أراد أن يختصر على نفسه الطريق ، ويصل إلى غايته بدون أن يكلف نفسه مشقة أو عناء ، فعمل على أن يفتك بالمحسود ، ويحول بينه وبين الحياة ، وبذلك يصل إلى أمنيته من طريق براها سهلة ، ولكنها مخوفة بالأخطار والمخاوف .

فقد كانت عاقبة الحسد من إخوة يوسف إقدامهم على الكذب ، وإلقاء أخيه يوسف في ذلّ العبودية ، وإبعاده عن أبيه المشفق ، وإلقاء أبيهم في الحزن الدائم والأسف العظيم . والشأن في الحسد أن لا يكون إلا بين المتشاركين في حال : كالجار والعبد والقريب ، والمشارك في صناعة أو تجارة أو زراعة أو إمارة أو علم أو سنّ ، أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع ، وكلما ارتفع صبت الانسان حسده من يشاركه في ذلك الصب ، وترى العالم لا يودّ أن يشاركه في ذلك المجد أحد ، ويزداد الحسد كلما ازداد الصب وحسن الذكر (إن أبانا في ضلال حين) خطابين في تدبير أمر الدنيا وكيف يؤثر حبّ يوسف علينا مع صفه وعدم نفعه ونحن عصبه نقوم بمصلحه من أمر دنياه ومواسيه .

(٢) (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) نزول على طاعة داعي الحسد ، وشروع في قضاء شهوتهم في يوسف ، وكان ذلك الرأى كان محل وفاق منهم إلا الذى قال (لا تقتلوا يوسف) (أو اطرحوه أرضا) منكورة مجهولة بعيدة عن العمران (يخل لكم وجه أبيكم) يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم ، فالمراد سلامة محبة لهم عن يشاركهم فيها ، وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصور معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ، ويجوز أن يراد بالوجه الذات ، كما قال تعالى (ويبقى وجه ربك « ٢٧ ») (١) ذلك هو الذى

يحملهم على أن يكيدوا ليوسف ويكروا به ، وهو أن تسلّم لهم محبة أيهم ، ويخلو لهم وجهه ، فلا يلتفت الى غيرهم ، ويغضهم بالعطف والرعاية ، ولوصح هذا سببا للحسد لاساغ للمرأة أن تقتل ضربها ليخلو لها وجه الزوج ، وللتلميذ أن يقتل زميله ليخلو له وجه أستاذه ، وللوظف في عمل من الأعمال أن يفتك بأخيه في ذلك العمل ليخلو له وجه رئيسه ، ولبطانة الملك أن يقتل صاحبه ليخلو له وجه الملك ، والأمر الواقع أن الناس قد غلب عليهم ذلك الخلق : خلق الحسد المنموم وأغضبوا به ربهم وخالفهم ، والذي يزين لهم ذلك العمل الشيطاني هو أن يخلو لهم الوجه ، ويستأثروا بالمنفعة ، وأنهم يتأسون باخوة يوسف في كيدهم ومكرهم بأخيه ، ولا فرق بين معاملته الناس وبين اخوة يوسف إلا أشكال ومظاهر ، أما الجوهر فهم متفقون فيه ، ذلك أن القتل حسي ومعنوي ، أو عبارة أخرى مادّي وأدبي ، فاخوة يوسف اتفقوا في أول الأمر على قتل يوسف قتلا ماديا ، أو ما يؤول الى ذلك القتل من وضعه في أرض مهجورة لا أمان للذي يعيش بها ، ثم لما أشار عليهم واحد منهم بأن القتل عظيم وحسن لهم إلقاءه في قعر الجب أجابوه الى ما قال .

أما القتل الفاشي اليوم في المتنافسين فهو قتل أدبي ، ألا ترى الى الرجلين وقد وليا عملا من الأعمال يكيد خيبت النفس منهما للآخر ، ويدبر له من وسائل الفتك ما لا يعلم حده إلا الله تعالى ليخلو له وجه الرئيس ، ويستأثر بالخطوة منه والمكانة عنده ، ولا سيما إذا كان الرئيس صاحب نفوذ وسلطان ، لأنه يرى زميله مشاركا له في تلك المحبة ، أو يمتاز عليه فيها ، ففسد له نفسه أن تحتلق على صاحبه المغتربات ، ويدسّ يده وبين ذلك الرئيس حتى تسوء بينهما العلاقات ، وقد ينتهي الأمر بإبعاد ذلك الزميل من العمل الذي يعمل فيه ان لم يكن فضله منه ، وذلك قتل أدبي سبه حرص الانسان الظالم على أن يخلو له وجه رئيسه .

ثم ألا ترى ذلك الخلق خلق الحسد فاشيا في بطانات الملوك والأمراء كل يريد أن يكون موضع السرّ ومكان الخطوة والرضا ، ولا يسمح لزميله أن ينظر بتلك المنزلة ، وهو قادر على أن يحول يده وبينها ، ولتلك تجدهم أحزبا وشيعا ، كل حزب يكيد للآخر ويدسّ له ، ويعمل على إسقاطه والتسكيل به ، إلا من كان له خلق متين ، ودين صالح ، فانه لا يسمح لنفسه بذلك العمل الخبيث ، وقليل مأم ، وذلك الصنف من البطانة لاتلبث مع الملوك إلا قليلا ، لأنها لا تستطيع أن تعيش في جو عوا بالساس ، كما لا تستطيع أن تجارى أصحاب الأهواء والشهوات ، فتعارهم بسلاحهم ، وتناضلهم بمثل ما يناضلون به ، ذلك شيء من العبرة في يوسف واخوته ومواقفه الله علينا من عملهم وسيرتهم .

نرجو أن لاتكون ممن تأسّى بأولئك الاخوة في ذلك الحسد المنموم الذي جرّ عليهم من غضب الله وسخطه ماجر ، وأن يكون حديدنا اقربا من فضله الله علينا في العلم والفضل هو القبطه لهم ، وتحتي مثل ما لهم ، وأن لا يكون هذا الفتي مما يمتته الله تعالى ويغضه ، بل يكون غنيا للخير مع الأخذ في أسبابه والعمل على الوصول إليه ، وأن يكون موقفنا من أعطاه الله مالا أو جاها موقف الراضى بما أعطاه الله وقسمه ، المطمئن لقول الله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورقعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا)^(١) ورحمة ربك

خير بما يجمعون «٣٣» ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا ^(١) لمن يكفر بالرحن ليوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون «٣٤» وليوتهم أبوابا وسرا عليها يتكثون «٣٥» وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للثقين «٣٥» (٢) .

(وتكونوا من بعده قوما صالحين) الضمير ليوسف عليه السلام ، أو للقتل الذي يدل على قوله (اقتلوا يوسف) والمراد بكونهم صالحين صلاح دينهم وانتظام أمورهم بخلاف وجه أبيهم لهم ، أو (صالحين) تائبين إلى الله تعالى عما جنبتهم ، وما أشبه هذا بقول الفسقة إذا أنت أردت أن تردعهم عن الفسق ، وتحول بينهم وبين الفجور : تنوب إلى الله بعد أن تمتع أنفسنا وباب التوبة مفتوح .

وهذا إيمان في المعصية . وكأنهم أخذوا على الله عهدا أن يقيمهم إلى مابعد المعصية ، وأن يمهلهم حتى يتحسبوا من التوبة إذا كانوا يريدونها ، وماعلموا أن الموت قد يفجأهم فلا يمكنون من توبة ، ولا يوقنون لآبائه ، وهنالك يندمون ولا ينضمهم الندم ، على أن ذلك القول ليس من شأنه أن يصدر من رجل حريص على التوبة ، وإنما يصدر من رجل لا يبالي أعصى الله أم أطاعه ، أَرْضاه أم أسخطه ، وإلا فكيف يحرص على التوبة من يقدم على عصيان الله تعالى راضيا مختارا ولام له إلا إرضاء شهوة نفسه ، معتمدا على أن يصلح ما بينه وبين الله بعد ذلك العصيان .

والشأن في المؤمن أن يكون خائفا وجلال من عصيان الله تعالى ، ولا يقع فيه إلا لأسباب وقتية جاهلة ، وإنما تزول المعصية كل رجل طيب الخلق الوادع لا يمتد أحد أو يشتمه إلا إذا طرأ سبب قاهر كأن أغضبه أحد أو حرك فيه داعية الانتقام ، فوقع منه على خلاف العادة سبب أو لمن ، فإن ذلك الحدث النادر لا يخرج عن أن يكون طيب الخلق وادع النفس (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليا حكما «١٧» (٣)) وكذلك يقال إذا قلنا المراد من قوله (صالحين) أي يصلح ما بينكم وبين أبيكم بغير تمهونه فإنه تعليل بالأمانى ، وكأنهم يتفانون بأبهم يعقوب عليه السلام بذلك القول فيما بينهم ، ويقولون نعمل يوسف ما فعل ، وبعد ذلك فصلح أبانا ونرضيه ، وهو شيء هين ، وما دروا أن ذلك العمل سيغير عليهم مغارم ، وأن أباهم سيتألم منهم لما لا يمتد ، وستؤس العلاقة بينهم وبينه حتى لا يكون فيها شيء من الصلاح ، ولكن الشيطان يهون على الإنسان المعصية ، ويريه أن الخلاص من آثارها أسهل شيء على النفس ، ومن شأنه دائما أنه إذا زين للرجل سوءا يفسد عليه قلبه التي تحمل به ، ويريه أنه من السهل عليه الفرار منه ، فإذا كان سارقا أراه أنه في استطاعته أن لا يعلم به أحد ، وإذا اعترضه أحد في الطريق فتك به وخلص منه ، وإذا زين له زنا أراه أنه في استطاعته أن يعمل ذلك العمل وهو بعيد عن الرقابة حتى لا يفضح أمره ، وإذا زين له القتل أوحى أنه قل أن تتوفر عليه شهادة الشهود حتى يقتل في ذلك القتل ، وهكذا وهكذا .

(٣) قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف) الخ : أى إن ذلك القاتل وهو واحد منهم لم يسمه الله لنا لأن العبرة لا تتوقف على معرفة اسمه - قد خالف إجماعهم واستعظم القتل ، وأشار بالقائه فى غيابة الجب : أى قمره ، سعى به لغيوبته عن العيون ، والجب : البئر الكبيرة التى لم تبن ، وسعى بذلك لأنه جب : أى قطع ولم يطل (يلتقطه بعض السيارة) يأخذه من البرور يرفعه منه بعض الذين يسيرون فى الأرض (إن كنتم فاعلين) أى إن كنتم مصرين على عمل يتعلق بيوسف ، ويشير بهذا التعليق إلى أنه متألم من ذلك العمل ، ولكنه يشير بذلك لأنه أقل أثرًا من القتل ، وفيه توفيق بين أغراض إخوة يوسف وبين مصلحته بوضعه فى ذلك المكان على بعض المرات يلتقطه فيحفظ حياته .

ومنه نعلم أن القوم أو الجماعة إذا قسوا وغلظت منهم الكبد لانعدم أن نجد فيهم من رقت قلبه ، وغلب عليه الشقاق ، فآخوة يوسف أصروا على قتل أخيهما أوما يكون ذريعة إلى ذلك القتل ، لكن واحدًا منهم أشار عليهم بعدم القتل رجاء أن يكون فى ذلك الرأى مصلحة ليوسف وإفاد حياته ، ويظهر أن داعى الشفقة قد قلب على داعى الانتقام لأنهم إخوة قبل كل شيء ، فنزلوا على رأى ذلك القاتل ، وعدلوا عن قتله (قلوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناحقون) اعتراف منهم بأن يعقوب عليه السلام كان يحسنّ منهم بما يوجب عدم أمنهم عليه ، فأخذوا يسألونه عن السبب ويعجبون منه : أى لم نخافنا عليه ونحن نريده الخير ونشفق عليه ، وذلك قوله (وإنا له لناحقون) يحاولون أن ينزلوه عن رأيه فى حفظه منهم ، والحيولة بينهم وبينه .

ثم أخذوا يرغبوه بما يحبه فى تركه لهم ، فقالوا (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) يريدون أنه يشترك معنا فى التمتع بأكل الفواكه ونحوها ، من الرقة . وهى الخصب والسعة ، وشاركنا فى الألعاب التى تعودناها بالاستباق والصيد ولركض وغير ذلك (وإنا له لحافظون) من أن يناله شيء من الأذى ، وقالوا ذلك بأسلوب المؤكد لأن يعقوب كان شديد الحرص على ولده يوسف وكان سيئ الاعتقاد فى إخوته ، فبالقوا فى دعوى حرصهم عليه ، فقالوا [أولًا] وإنا له لناحقون و [ثانيًا] وإنا له لحافظون .

(قال إني ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأتم عنه غافلون) .
أراهم أن ذهابهم بيوسف محزن له ، ويخشى من تركه معهم أن يأكله الذئب فى وقت يغفلون عنه فيه .

ومنه نعلم أن يوسف كان صغيرا فى ذلك الوقت ، لأن الذى يخشى عليه من الذئب هو الصغير والذى يضل عنه إخوته ويكون معرضا للخطر لهذه الفظة هو الصغير . أما تحديد سنه فى ذلك الوقت فلا سبيل إليه إلا بوسى عن المصوم . وهنا تتجلى شفقة الآباء على أبنائهم الصغار وحنانهم عليهم فى وقت الضعف ، ولو علم الأبناء ما تقاسيه الآباء فى سبيل حرصهم على حياتهم ما فكر ولد فى عقوق والديه ، وما تأفف مهما عند الكبر والضعف عن الكسب ، وهذه الشفقة التى يضعها الله تعالى فى قلوب الوالدين هى الحكمة بالغة وغايات سامية ، وهى بقاء النسل وعمارة هذه الحياة ، ولولا تلك الشفقة ، وذلك العطف البالغ مات الأبناء جوعا ، وتركوا للطوارئ فتعل بهم ما تفعل ،

وتعرضوا لأخطار لا قبل لهم بها ، وهلكوا من الجهل وسوء الترية ، ولكن حكمة الله تعالى .
قضت بأن يجعل في قلوب الآباء ذلك الحنان والطف وتحت تأثير هذه العوامل تعيش الأبناء ،
وتربى الترية الصالحة ، ويضحى في سبيل حياتهم الصالحة ومستقبلهم المرجو من شقاء الأبرين
ما يضحى ، ولولا أن هذه العاطفة التي أودعها الله في الأبرين قد يكون معها جهل الأبرين بوسائل
السعادة للأبناء - لآتت هذه العاطفة أكلها كل حين باذن ربها ، وأثمرت ثمرتها الصالحة ،
ولكن الجهل في كثير من الآباء يجعل هذه العاطفة شرًا مستطيرًا على الأبناء ، وخطرا على
أخلاقهم وحياتهم .

ألا ترى الى الأم الجاهلة بوسائل الترية كيف تعطي ولدها من الأطعمة الفليضة ما يفسد
معدته ، ويجعل حياته ضعيفة ضئيلة ، وبذلك يكون مستعدا للأمراض معرضا للآفات ، بل
قد نرى من بعض الأمهات الجاهلات من تكون حاملات بين الولد وبين شفاؤه إذا أوجد الطبيب
له من الأدوية ما تعود به صحته ، ومأجلها على ذلك كراهتها لصحة ولدها ، وإنما هو الجهل يريها
النافع ضارا ، والضرار نافعا ، وقد يصاب الولد بمرض خبيث يوجب على أبويه أن يذهب به الى
مستشفى من المستشفيات العامة حتى لا تنتشر العدوى فيمن يتصل به من إخوته وأبويه ، فقف
الأم الجاهلة أو الأب الجاهل حجر عثرة في سبيل نقله من البيت وإسعافه بالعلاج الناجع حيث
المستشفيات العامة المستعدة لمثل هذه الأمراض ، فإن وجوده بالمستشفى ومعه أطباء كثيرون فيه
استعداد للطوارئ ومضاعفات المرض ، أما البيوت فانها لم تعد لمثل ذلك ولا سيما إذا كانت بيوت
فقراء ، فانها لم تكن على قواعد الصحة ، ولم يتوفر فيها من الهواء الطلق ونظافة البقعة ما يساعد
المريض على شفاؤه من المرض ، بل هي بما اشتملت عليه من القذارة ورياءة الموقع وحبس الهواء
تضاعف المرض ، وتحول دون الشفاء ، كل ذلك من جهل الآباء وتحكيم العاطفة تحكما أعمى .
ثم قد نرى من النساء الجاهلات حيولة بين الولد وبين تربيته لأن أستاذة قسا عليه يوما ،
فتكون تلك القسوة سببا في حرمانه من التعليم ، وبقيائه في ظلمات الجهل والفساد ، وقد تعلم
الولد قلعيا ناقصا ثم تريد الحكومة أن تكمل له التعليم وترسله في بعثة الى بلد أجنبي ، فيكون
الحائل بين الولد وذلك الخبر أتمه الجاهلة حرصا منها على مصلحة ولدها فيما تزعم ، وخوفا عليه
من [الغربة] والذهب في ذلك كله لم يكن على الأم وإنما هو على من أهمتها وتركها بدون ترية
حتى نشأت على ذلك الجهل القاضح ، وتحكمت في بنينا ذلك التحكم بسم العاطفة الجاهلة ، لا بلسم
الحق والانصاف ، ولو أنها فعلت لتصرفت تصرفا معقولا ، فلم تتقلب عاطفتها على عقلها ، بل
سارت مع العقل جنبا الى جنب ، وخافت على ولدها في موضع الخوف ، وأمنت في موضع الأمن ،
وشجعت على الأسفار ، وغرست في نفسه محبة المجد ، والاستهانة بالمشاق والعقبات . ومتى يمن الله
علينا بتلك الأم وذلك الوالد ؟ ومتى تكون الآباء قدوة صالحة للأبناء ، وهاتلا يتحدث في الخبر
والفضيلة والشجاعة الأدبية ؟

نسأل الله أن يجعل ذلك الزمن قريبا ، وأن يعهد لنا أسباب السعادة ووسائل الحياة الحقة .

(قالوا نحن أكله الذئب ونحن عصبه إنا إذا خلسرون) يريدون أن يؤكدوا لأبيهم يعقوب .

عليه السلام أنه لا يمكن أن يسلط عليه الذئب الذي تخشاه ، لأنهم جماعة أقوياء قادرين على دفع الذئب عنه ، ولو حصل ذلك لكانوا جماعة خاسرين وضعفاء لا يستطيعون حفظ مواشيهم ، ولا حراسة أموالهم ، وأى خسارة أكبر من أن يتهاونوا في أشيهم حتى يصدر عليه الذئب ؟

اعتذر لهم نبي الله يعقوب بأمرين : [الأول] قوله (إني ليحزني أن تذهبوا به) . [الثاني] قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) . وقد أجابوا أيام من الثاني ، أما الأول فأعرضوا عنه ، لأن حزن يعقوب عليه السلام على ولده هو الذي كان يفيظهم ، فكان من المعقول أن يعبروا ذلك العذر آذانا صمًا ولم يحيدوا أيامه عنه .

(٤) (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب) الخ جواب لما عذفوا تقديره أقدموا على فعلهم ، وقد أكثر المفسرون فيما حصل من يوسف عند إلقائه في الجب من أحداث البكاء والامتناع وغيرها ، ونحن نمسك عنها لأنه لا طريق لاثباتها إلا خبر المعصوم ، وليس عندنا خبر صحيح فيها (وأوحينا إليه لذتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) أى ألهم الله يوسف ليخبرن إخوته بصنعهم هذا به بعد اليوم ، وهم لا يشعرون عند إخبارهم بأنك يوسف ، أو وهم لا يشعرون بما أوحينا إليك ، والقصد من هذا الالهام تأنيس يوسف وتقوية قلبه وهو في ظلمة الجب ، وبشارته بما يتول إليه أمره من خلاص من هذه الشدائد والمحن ، وأنه سيتولى عليهم ويصيرون تحت قهره وسلطانه ، ولله هذه البشارة في ذلك الوقت الصعب ، ما أردها على قلب يوسف ، وما أوحج يوسف إليها ، أنها بشارة تهون عليه المصائب ، وتشد قلبه على الصبر ، وتعطيه قوة معنوية تجعل الصعب أمامه سهلاً ، وتتحول به الظلمة نورا ، والشدّة رخاء ، والوحشة أماناً ، كيف وهي بشارة من خالق يوسف ورب يوسف وإخوته ، يريه فيها أنه سيأتي عليه وقت يطلع فيه إخوته على ما كان منهم مع أشيهم ، وأنه سيخلصه من هذه الشدائد مرهوقاً بعناية الله ، مكتوفاً بحياطته ، ومن ظفر بهذه البشارة فهو جدير بأن يرضى بكل ما يليق من شدائد ، وما يعمل به من مكروه .

وان عظماء الرجال ليستعذبون الموت ، ويستهنون بالتغريب والنفي في سبيل آمال عظيمة ، قد استولت على نفوسهم ، وتعلكت مشاعرهم ، وفي هذه الآمال يسألون على المصائب ، وتشتد العزائم ، وتقوى الرغائب ، وأن هذه الآمال أيا كانت درجاتها لم تصل إلى حد الوحي الإلهي فكيف إذا كانت وحياً من الله ، وبشارة صادقة ، يشعر صاحبها بعلم ضروري أن ما فيها حتى لا باطل فيه وصدق لا كذب معه ، لاشك أن القلب إذا بشر بأمثال هذه البشارة يكون موقف صاحبها من الشدائد فوق موقف صاحب الآمال ، ومنزله من المصائب التي تحل به منزلة المستهين المستخف . وجلة القول أن بشارة يوسف عليه السلام بما آل أمره عناية عظمى من الله به في ذلك الوقت الصعب ، ورعاية كبيرة من علام القيوب في وقت من شأنه أن تنزّل فيه القلوب ، وتضطرب له الأفئدة ، ودرس من دروس التربية يتلقم الرسالة التي تتطلب من صاحبها جدّاً وعزماً .

(وجاءوا أيام عشاء يكون قالوا يا أبانا أذهبنا نسقي وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) بعد أن فعلوا فعلتهم المنكرة ، جاءوا أيام آخر النهار يتصنعون البكاء ، منورين في

أنفسهم عنرا باطلا ، وسببا كاذبا ، هو أنهم ذهبوا للاستباق وتركوا يوسف عند المتاع فأكله الذئب ، وقولهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أى ما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين لسوء ظنك بنا ، وفطرت عجبك ليوسف ، أو ولو كنا من أهل الصدق ، فكيف مع سوء ظنك بنا ؟ وقولهم (وما أنت بمؤمن لنا) إحساس منهم بجهلهم ، وشعور بأنهم لا يثق قولهم من أيهم موقع القبول والرضا ، (كاد المراتب أن يقول خذوني) وهو أسلوب من شأن الكاذب أن يلجأ إليه فيعاجل من يتهمة بمثل ذلك القول ، ويقول له : مهما قمت لك من أدلة ، وذكرت لك من براهين ، فأنت سيء الظن بى ، لا تصدق لى قولا ، ولا تقبل منى دليلا .

(وجاءوا على قيصه بدم كذب) وصف بالمصدر للبالغة كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه ، والزور بذاته . قيل انهم ذهبوا سخطا ولطمخوا القميص بدمها ، وظنهم أن يشقوه ، فقال يعقوب كيف أكله الذئب ولم يشق قيصه ؟ فاتهمهم بذلك ، والقرآن لم يبين لنا طريق الدم ولا الحيوان الذى أخذ منه ، وإنما أخبرنا أن الدم كذب وزور .

أما ملاحظة يعقوب عليه السلام على ذلك القميص الملوّث بالدم فهى ملاحظة عقل وفكر ، لأن الذئب إذا أكل طفلا فالشأن فيه أن يحرق قيصه ، فبقاء القميص سليما من الغزير عنوان كذب هذه الدعوى ، وما أشبه ذلك بدعوى امرأة العزيز أن يوسف أراد بها سوءا ، فجاء الشاهد الذى هو من جهتها وقال (إن كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قيصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قيصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) وهو تحكيم للقرآن ، لأن الشأن فى المراتب أن يتأخر ويجرّه البرىء الى الباب ، فإذا كانت امرأة العزيز صادقة كان تمزق قيصه من أمام ، لأنها تجرّه منه الى الباب وهو يمتنع عليها ، وإن كانت كاذبة يكون هو الذى يسارع الى الباب ليشتكوها الى سيده ، فتجرّه لثمنه فيمزق قيصه من خلف ، فلما رأى القميص قد من دبر قال العزيز لاسرائة (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) (قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمرا) أى قال يعقوب ليس الأمر كما تدعون ، بل زينت لكم

أنفسكم أمرا عظيما ارتكبتموه مع يوسف (فصبر جيل) أى فاصبرى صبر جيل ، أو فصبر جيل أمثل من الشكوى ، وإذا لم يكن الصبر من نبي الله يعقوب على مصيبتة فى ابنه وفلذة كبده جيلا فمن يكون ؟ (وإِنَّ الْمُسْتَعَانَ عَلَى مَا تَصِفُونَ) أى على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف ، ونبي الله يعقوب قدوة صالحة فى الصبر على المصائب ، واحتمال المكروه والرجوع الى الله تعالى فى أن يربط قلبه على الحق ، ولا يجيد السخط إليه سبيلا . وما أجدرنا بالتأسي به فى مثل ذلك المصائب ، والرجوع الى الله تعالى كما رجع يعقوب عليه السلام . والصبر الجليل هو الذى ليس معه شكوى للخالق وبث حزن اليه ، ونبي الله يعقوب كان على ذلك الحال ، فقد قال حينما اشتد به الحزن وأفزعته الأسى (إنما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) لأنه رسول ومن شأن الرسول ذلك ، فلا بد أن يكون صبره جيلا ، وإن الصبر على أمثال هذه المصائب هو جهاد للنفس ومحاربة للهوى ، وارعام للشيطان ، وما أحوج صاحبه الى أن يستعين بربه على ذلك الجهاد

المرة، والعمل الشاق ، ولا عجب أن يجعل العبر نصف الإيمان لهذه الاعتبارات .

(٥) وجاءت سيارة فأرسلوا واردم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأمرته بضاعة والله عليم بما يعملون) جاء رفقة يسيرون من مدين الى مصر فنزلوا قريبا من الحب (فأرسلوا واردم) الذى يتقدم الرفقة الى الماء فيجئ الأرشية والهداء ، يقال أدليت النمل إذا أرسلتها في البحر ، ودلوها إذا أخرجتها ، فرأى يوسف معلقا بالهداء ، أو رآه في قصر البحر وهو ينزع الماء ، وأعلى حفرة في البحر ، كل محتمل ، وقوله (يا بشرى) نداء لها : أى هذا أوانك فاحضرى ، كأنه يقول لأصحابه أبشروا ، وقرى يا بشرى بالياء (هذا غلام) ولم ينزعج الوارد من تعلق يوسف بحبال الهداء أو رؤيته في قصر الحب بل استعبر ، لأن يوسف كان حسن الطلعة جبل الوجه ، ومن يراه لا يستطيع أن يجد الخون إليه سبيلا ، فانطلق لسانه بالبشرى وهداء الأصحاب ، وقوله لهم : هذا غلام ، ولو كان المرنى غير يوسف لفزع الوارد من رؤيته في ذلك المكان الذى لم يؤلف فيه وجود غلمان (وأمرته بضاعة) أى أخى الوارد وأصحابه أمر يوسف عن بقية الرفقة خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه ، بل يخص به الوارد وأصحابه دون بقية السيارة ، والبضاعة ما بضع : أى قطع من المال للتجارة ، أو الضمير للسيارة جميعها ، لا لطائفة منها ، أى إن هذه السيارة أخفت أمر يوسف فلم تدمه على أنه لقيط ، بل أخفت أمره وادعت أنه بضاعة وصلت اليهم كبقية الأموال ، ولعل حكمة ذلك خوفهم أن يكون تبعاً لقوم ضل الطريق منهم فوقع في البحر ، فلا أذاعوا أمره على أنه لقيط لوصلهم أذى من قومه ومتويعه ، ولذلك أخفوه على أنه مال كبقية الأموال .

(والله عليم بما يعملون) وعيد للسيارة بأن الله يعلم عملها وسيحاسبها عليه ، لأنه ما كان لهم أن يستبضعوا مائس لهم ، أى الضمير لاختوة يوسف ، فهو وعيد لهم على ماضعوا مع أخيه يوسف ومع أبيه يعقوب عليها السلام .

(وشروه بثمن بخس) باعوا يوسف بثمن مبخوس ناقص عن القيمة لئله نقصا فاحشنا ، وقد بين ذلك الثمن القليل بقوله (درهم معدودة) ومن شأن المعدود أن يكون قليلا (وكانوا فيه من الزاهدين) الراغبين عنه ، ولذلك باعوه بثمن طفيف ، ولقد كان زهد السيارة في يوسف على جاهه وحسن طلعتة لحكمة عالية ، وهى يعلمون له من عزيز مصر ، وكان من أمره مع ذلك العزيز ما كان مما سيشرحه القرآن الكريم في الآيات الآتية ، ورب متهود فيه عند قوم مرغوب فيه عند آخرين ، وقد يثر الطفل أو الجاهل على الهرة فيظنها حجرا عاديا فيلقنها الى من يعرف قيمتها ويعلم مقدارها .

(وقال الذى اشتراه من مصر لاصرائه أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) قيل إن الذى اشتراه قطيفر صاحب أمر الملك ، وكان على خزائن مصر ، وكان يسمى العزيز ، وليس عندنا نص قاطع على أن اسمائه كانت تسمى زليخا أو واعيل ، والعبارة لا تتوقف على معرفة الأسماء ، ولذلك لم يعرض القرآن لها فسواء علينا أمحت الروايات التاريخية بها أم لم تصح ، وقوله (أكرمى مثواه) أى اجعل مقامه عندنا كريما وحسنا : أى أحسنى تعهده (عسى أن ينفعنا) فى ضياعنا أو أموالنا ، ونستعين به على مصالحنا (أو نتخذه ولدا) ثقبنا ، ويظهر أنه كان عقيبا

وقد تفرس الرشد في يوسف ، ويحتمل أنه لم يكن عقيبا ، ولكنه أحب يوسف وقال لآمناف من تبنيه ، لأنه تفرس فيه حسن المستقبل وعظمة التاريخ .

قال العلماء : أفرس الناس ثلاثة . عزيز مصر . وابنة شعيب التي قالت يا أبت استأجره ، وأبو بكر حين استخلف عمر .

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) أى وعلى ذلك النحو الذى رأيت ، والصنع اللطيف الذى قدمناه بالجماعة من كيد إخوته ، وتعطيف قلب عزيز مصر عليه ، مكنا له في أرض مصر ، إذ صار واحدا من بيت العزيز الذى هو على خزائن مصر ، وصاحب أمر الملك (ولعلمه من تأويل الأحاديث) أى صنعنا به من الطائفة الخفية ماصنعنا (والله غالب على أمره) لارذة شئ . في أمر يوسف ولا في غيره ، وقد أراد اخوة يوسف أمرا ، ودبر الله غيره فظهرهم (ومكروا مكرا ومكروا مكرا وهم لا يشعرون « ٥٥ »)^(١) (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لطائف صنعه ، وخفايا لطفه ، وإن الشر الظاهر قد يكمن فيه الخير الكثير ، كما حصل ليوسف في الحب ، وأن الخير والنصر الظاهري قد يكون وراءه الشدامة والحسرة ، كما نصر اخوة يوسف ورموه في الحب ، ثم انتهى الأمر بأن صار سيدهم ، وأن مافعلوا به كان من أسباب ارتقائه .

وقيل (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) أى جعلناه ملكا في أرض مصر ليقوم العدل ويدير أمور الناس (ولعلمه من تأويل الأحاديث) فيعلم معاني كتب الله وأحكامه ، وتعبير المناجات ، والمراد أن الله تعالى كما أنجاه من كيد اخوته ، وعطف قلب العزيز عليه ، جعله ملكا على أرض مصر ، لأن ذلك هو المتبادر من كلمة (مكنا) كما قال (وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونعطيهم لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون « ٥٥ »)^(٢) فالتمكن في الأرض : جعله صاحب مكانة فيها وثبت قدمه عليها ، وكأنه جبل شاخ لا يستطيع أحد أن يزلله عن مكانه ، وذلك لا يكون إلا بالقوة التي أعطاه الله إياها ، والتفوذ والسلطان الذي حصل عليه .

ثم عقب ذلك بقوله (والله غالب على أمره الخ) ليرينا أنه لا غرابة فيها صنعه الله تعالى مع يوسف ، لأنه غالب على أمره ، ولا راد لقضائه وحكمه ويظهر أن كلمة [ملك] التي جرت في عبارة المفسرين يربدون بها صاحب السلطان والتفوذ ، فهي ترادف كلمة [سلطان] ولذلك جاء في هذه السورة (وقال الملك اتوني به استخلصه لنفسى) فلما كلفه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) فالتمكن في الأرض في هذه الآيات هو التمكن في تلك ، وإنما يراد به أن يكون وزيرا نافذ الكلمة صاحب حول وطول ، ولم يرد بقوله (اجعلني على خزائن الأرض) أن يتناول له عن ملكه ، لأن ذلك غير معهود طلبه من الملوكة ، وكذلك لم يعمد أن الملوكة تجيب إليه على فرض طلبه منها ، فالتلك لما أحبه وطلب أن يحضروه ليستخلصه لنفسه ، وشهد له بالأمانة والمنزلة طلب منه يوسف لذلك أن يوليّه خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم ، وقد أجابه إلى ذلك ، فأصبح بهذه التولية صاحب أمر ونهى ، وصار وزيرا له مكان العزيز .

(ولما بلغ أشده آتيته حكما وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين) تكملة لقصة يوسف عليه السلام ، فبعد أن قص علينا رؤياه ، وحسد إخوته له على محبة أبيه ، ومكرهم به وإحباط ذلك المكر ، وتطيف قلب عزيز مصر عليه حتى وصل الى ما وصل إليه من النفوذ ، أرانا أنه لما بلغ أشده : أى متى استعداد قوته (آتيته حكما وعلمًا) قيل الحكم : هو الحكمة . وقيل : العلم المؤيد بالعمل . وقيل : قوة الحكم بين الناس والقضاء فى مصالحهم ، أو الحكم هنا حكم النبوة ، و (علمًا) أى فقها فى الدين وتنكيرها للتفخيم : أى حكما وعلمًا لا يعرف كنههما ولا يقدر قدرهما والآية ليست نصا فى نبوة يوسف عليه السلام ، وإنما بدلت على ذلك آيات أخر كآية (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فآلزمتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ٢٤) (١) (وكذلك نجزي المحسنين) أى كما جزينا يوسف على صبره بالعلم النافع والحكمة الصالحة نجزي كل محسن على أحسنه .

يوسف عليه السلام

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ ^(٢) لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ^(٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ ^(٤) بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأْيَ ابْنِهَا مِنْ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ الشَّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ^(٥) وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَةَ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(٦) قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِي إِنْ كَانَ قَيْصُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ^(٧) وَإِنْ كَانَ قَيْصُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ^(٨) فَلَمَّا رَأَى قَيْصُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنْ كَيْدُكَ عَظِيمٌ ^(٩) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ^(١٠) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا ^(١١) حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ^(١٢) فَلَمَّا سَمِعَتْ

[١] خافر . [٢] نال ، وقرئ هت بكسر الميم ومعناه : تيات .

[٣] لتتقم منه لأنه لم يطاوعها ولم بها لينفع عن نفسه . [٤] خرق حبه شفافا حتى وصل

الى الفؤاد ، والشفاف : حجاب القلب .

بِعَاكِرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِنًا وَهَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرِجْ عَلَيْنِ فَلَمَّا رَأِيَتْهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَّتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَاسْتَعَصِمَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ وَلَئَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ ﴿٣٤﴾ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنَّهُنَّ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٧﴾ يوسف

شرح وعبرة

(١) (دراودته التي هو في بيتها عن نفسه) الخ ليس المراد أن يوسف عليه السلام وقع له ذلك الحادث بعد أن آتاه الله حكماً وعِلماً كما هو الظاهر من ذكره بعده ، لأن القرآن كما قلنا غير صراحة ليس من أغراضه أن يذكر الحوادث مرتبة على حسب أزمنتها كما هو الشأن في كتب التاريخ بل مهمة القرآن مهمة هداية وعبرة ، فقد يذكر القصة ويبدأ فيها بالحادثة قبل حادثة تسبقها في الزمن لأنها أهم منها ، ولحكمة قضت بذلك ، والله تعالى أراد أن يرينا قصة يوسف في صغره وعطف أبيه عليه ، والمنام الذي رآه وقصه على أبيه ، وتحذير أبيه له أن يقصه على أخوته فيكيدوا له كيده .

ثم اتقل إلى حسد أخوته له على هذه المحبة ، وتدبير مكيدة له .
ثم عقب ذلك بعبارة أنهم أن يتركه ليشترك معهم في السباق والتمتع ، وخوف أبيه عليه ، ثم حدث إلقائه في البئر والتقاط بعض السيارة له ، ثم يمه إلى رجل من مصر ، ثم تمكنه في الأرض واعطائه حكماً وعِلماً ، ثم لتبيل ذلك بقوله (وكذلك نجزي المحسنين) أي كما جزى يوسف على إحسانه نجزي كل محسن .

ثم شرح لاحداثا من حوادث احسان يوسف الذي جزاه الله عليه فقال (وراودته) الخ الآيات فقصة المراودة ، وسجن يوسف ، وظهور برأته ، كل ذلك من إحسانه الذي كافأه عليه بالحكم والعلم ، وكل ذلك كان قبل أن يسلط الله على مصر ، ويختاره الملك على خزائن أرضها . والذي جرى أمراً العزيز على صراودته أنه كان خادماً عندها في البيت ، فطمعت فيه كما يطمع النساء المخدومات في خدامهن ، بل كانت تظن أنها ستجيب إلى ما طلبت وهي صاحبة الفضل عليه شأن سائر النساء اللاتي يكنن مثلها في الغنى والجاه والسلطان الذي يرى إليها من زوجها العزيز ،

ولكن يوسف عليه السلام أراها أنه لم يكن خادما عاديا ، بل هو فى ذو خطر كبير ، وشأن عظيم ، وإن الله تعالى سيختاره لخدمته قبل أن تصطفيه امرأة العزيز لقضاء لباتها ، وأنه أجل وأعظم من أن يكون خادما لامرأة شهوانية ترضى عنه إذا هو خالف ربه ومولاه ، وتغضب عليه إذا هو اعصم وحافظ على أخلاقه ودينه (ورأوته) من راد يرود إذا جاء وذهب : كأن المعنى خادعته عن نفسه وفعلت مايفعله المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لا يريد أن يخرج من يده .
يحتمل أن يفليه عليه ويأخذه منه ، وهى مفاعلة من طرف واحد نحو مطالبة المائن ، ومحاولة المديون ، ومداواة الطبيب ، ويصح أن يراد بصيغة المفاعلة مجرد المبالغة فى الاحتيال ، والفعل فى موافقته إياها .

وفى ذكر الموصول ، ويبان أن يوسف فى بيتها رتحت سلطاتها ، ثم تعلق الأبواب واستعدادها له : اعلا . لسان يوسف ولأن ذكر الاسم فضيحة . وكونه فى بيتها وتعلق الأبواب ، كل ذلك داع الى الواقعة ، فإن المستر لاسيا مع من يملك أمره يفعل مايفعله الذى استبان فعله وانكشف حاله ، فالفظة مع هذه الأحوال ، وتسهيل سبيل الفاحشة ، وتوفر أسبابها - أرقى ماوصل إليه الأخيار وقوله (غلقت) يشير الى أن الأبواب كانت كثيرة (وقالت هيت لك) أى أقبل وبادر ، وقرئ (هت لك) أى تهيأت لك ، من هاء يهيى بكاء يحجى : إذا تهيأ .

(قال معاذ الله) أعوذ بالله معاذاً أن أقع فى مثل ذلك ، وهى كلمة تدل على النفور من المعصية والاشمئزاز ، وذلك هو المنتظر من فى أعذه الله لأن يكون رسولا ، وقوة صالحة فى الخير ، ومثالا يحتذى فى البعد عن الماسم ، ولم يرد يوسف عليه السلام أن يقف عند حد تمؤده بربه ، وتحسنه به من إجابة امرأة العزيز الى ماطلبت ، فأضاف الى ذلك قوله (إنه ربي أحسن مثواي) والضمير لله تعالى ، والرب هو الربى له بنعمته الظاهرة والباطنة ، وهو الذى حفظه فى الحب ، وعطف عليه قلب العزيز ، وأنجاه من مكر اخوته ، وإذا كان هذا فعل الله معه ، فكيف يقابل ذلك الاحسان بالاساءة ؟ وكيف يقارف امرأة ليست له زوج ؟ ثم عقبه بقوله (إنه لايفلح الظالمون) يريد أنه إذا فعل ماطلب منه كان ظالما ، ولم يكتب الله للظالمين فلاحا ، وإنما حظهم دائما الخيبة والخسار ، [فأولا] استعاذ بالله ، ثم علله بقوله : إنه ربي أحسن مثواي ، ثم بقوله : انه لايفلح الظالمون .

وقيل الضمير فى قوله (إنه ربي أحسن مثواي) للعزيز ، والمراد أنه رب البيت ورئيسه ، أو سيده الذى رباه فى بيته ، وجعله تحت رعايته وكفنه ، وقوله (أحسن مثواي) أى أكرم تولى ، وإقامتى بيته ، وأوصى امرأته بذلك ، إذ قال لها (أكرمى مثواه) ولايلق أن أقابل ذلك الاكرام الذى تقدم به العزيز بإساءة ، ومن اللؤم أن أخونه فى أهله ، ولو فعلت ذلك كنت ظالما ، ولايفلح الظالم ، ولما منع من ارادة كل من المعنيين لكلمة (ربى) والمراد أن إجابتها لما طلبت إغضب الله تعالى الربى لنا بنعمه ، وخيانة لصاحب البيت ، ومقابلة للحسنة بالسيئة ، حيث أوصى امرأته أن تكرم مثواي ، فلا يطبق فى أن أقابل ذلك الاكرام بإساءة ، لأنى لو فعلت ذلك كنت ظالما مع خالى ، ومع رب البيت ، ولا أرضى لنفسى ذلك الخلق ، ومهما يكن من شيء فإن

يوسف غير مستعد لأن يجيب المرأة الى ماطلبت ، وناقر نفورا شديدا من السير في ذلك الطريق الوعر الذى يقضب الله ويستخطه ، ويجعله رجلا لثما يجحد الجليل وينكر الاسنان .

ولعل في عفة يوسف عليه السلام ، وقوله في شأن العزير (انه ربي أحسن مثواى) عبرة لقوم انحطت قلوبهم ، وتدنت أخلاقهم ، وفقدوا معنى كرم الطبع وشرف النفس ، فلم يتعفوا أن يسفحوا بامرأة جار أوقرب أو صاحب فضل ، لعل هناك عبرة لهؤلاء الذين أغضبوا ربهم . وقطعوا حقوق جيرانهم وأقربائهم ، ونسوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم « ما زال جبريل يوصى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » (١) كانوا حتى القراية ، وأن الزنا بامرأة الجار عذابه مضاعف . وكذلك الزنا بامرأة القريب فاحشة وقطيعة رحم ، لأن الشأن في الزنا أن يؤثر عداوة في القلوب ، ويترك أثرا غير محمود ، فإذا قال نبي الله يوسف (إنه ربي أحسن مثواى) فليقل الرجل إذا سؤلت له نفسه أن يضيق بحيلة جاره (انه جارى أحسن جوارى) وإذا سؤلت له نفسه أن يفجر بامرأة قريبه يقول (انه قريبي قد وصل رحي) وكذلك إذا زيفت له نفسه أن يواقع امرأة صاحبه يقول (انه صاحي أحسن الصحبة) .

وجلة القول أن نبي الله يوسف كان مثالا صالحا في الوفاء ، ورعاية حق المحسنين ، ومقابلة الاحسان باحسان مثله . فليكن لنا عبرة في ذلك الرسول ، واتعاط بغيرته وأخلاقه .

(٢) (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) يستطيع القارئ أن يفهم المراد من هذه الجمل بعد أن سمع أن نبي الله يوسف أجاب امرأة العزيز تلك الاجابة الجافة التي تدل على نفوته من المعصية ، وتحليل ذلك النفور بقوله (إنه ربي) الى آخر الآية ، ويستطيع القارئ أن ينزه نبي الله يوسف عما شجن به بعض كتب التفسير عما لا يليق بفضي أعبده الله لأن يكون رسولا وهياؤه ليتولى زعامة أمة في دينها وخلقها ، ولولا أن بطلانه من الظهور الى حد كبير لعنبت ولرذ عليه ، وحسب القارئ أن يفكر في القصة وهو بعيد عن آراء المفسرين ، والقرآن كفيلا بأن يفهمها تفة خالصة من الاسرائيليات والمقتريات .

فالقرآن يريدنا أن امرأة العزيز تعلق قلبها بيوسف وظنت [وبعض الظن إثم] أنه خادم كبتية الخدم لا يخالف لها أمرا ، فراودته عن نفسه ، وهيات له أسباب الفاحشة ، بأن غلقت الأبواب ، وخلصت إليه حتى لا يحتمن من شيء ، فلم يعلمها في ذلك ، واستعاذ بالله ، وقال لوفضلت ذلك أكون ظالما ، واقلب من خادم وادع ، وفي مطيع الى شخص ناز ، وبدل ثورته هذه الكلمات ، لأنها لا تصدر إلا من قلب امتلا بالغضب . وبذلك يمكن أن تفهم المراد من قوله (ولقد همت به وهم بها) وهو أنها همت به لتنتقم منه لأنها خائفة عليه اذ لم يجبها الى ذلك الطلب وهي سيدة مطاعة لم تتعود أن يعصى لها أمر ، ولا سيما من خادم كيوسف ، ومن ناحية أخرى فإن شغفها بيوسف قد وصل بها الى حد الجنون ، فإذا تأنى عليها وحال بينها وبين ما تشتهي ، فإن ذلك يؤلمها ألما شديدا ، بل ويزعجها ، فإذا همت بيوسف هم اذاء فلا تة أنصاع عليها فرصة كانت تصدق أنها مواتية ، وخيب ظنها في وقت كانت تعتقد فيه أنه عند ظنها فيه ، ولا يعقل أن

يكون هما يوسف بعد فقرته منها واستعاذته بربه إلا على ذلك النحو .

أما عهد بها فهمم^١ دفاع عن النفس ، وفرار من المعصية ، وسد لأبواب الشر والنفس ، لأن ذلك هو اللائق يوسف من جهة مكانته ، ومن جهة مستقبله ، ومن جهة الواجب عليه في ذلك الظرف العصيب ، وما أدق موقف يوسف في ذلك الوقت ، وما أشق مهمته مع امرأة جاهلة ، قد تملكها الشهوة ، وغرّها سمكها وسمك زوجها العزيز وهو فني يخدم في ذلك البيت ، وليس له ناصر إلا مولاه وخالقه ، ولا مفيت له إلا من يعلم سره ونجواه ، وما الذي كان يفكر فيه يوسف ليخلص من ذلك البلاء ، وماذا كان يفعل لو طال به ذلك الحال بينه وبين امرأة العزيز ؟ وتحت يدها الخدم والحشم ، وفي قبضة يدها السلطة والنفوذ ؟ وما الذي كان يمنعها من قتل يوسف في ذلك الوقت الذي يغلي فيه قلبها كإغلي المرجل ؟ وما الذي كان يمنع يوسف من مقابلة الشر بالشر ، والشدّة بالشدّة ؟ وهل إذا طال ذلك الوقت باسرة العزيز ، ويوسف هل كان يقف تيار الشر عند حدّ الاثنين ، أو يتخطاهما إلى أناس آخرين ؟ ذلك هو الذي سوّج حذف الجواب في قوله (لولا أن رأى برهان ربه) والربّ هنا هو ربّ البيت وهو العزيز ، وبرهانه علامة أنه حضر : أى لكان ما كان مما لا يعلم حدّه إلا الله تعالى ، لحذف الجواب لتذهب النفس فيه كلّ مذهب يمكن ، وذلك أسلوب من أساليب التخييم والتعظيم ، وكأنه يريد أن يرينا أن جواب هذا الشرط لا يستطيع العبارة أن تنفي به ، وأيّ جواب قدرته فهو أقلّ مما أريد به ، ولذلك حذف الجواب . فإذا قلت (لولا أن رأى برهان ربه) لقتله ، لم يلم بالمراد ، وكذلك إذا قلت لقتلها ، وكذلك إذا قلت لتطاول الشرّ وتفاقت الفتنة ، وما إلى ذلك مما يناسب المقام .

وجلة القول : أن امرأة العزيز همت يوسف لتنتقم منه أن لم يجعها إلى طلبها ، وهمّ بها ليدفع عن نفسه ، فاهتمّ هنام^٢ بعمله والانتقام من ناحية امرأة العزيز ، وهو عمل إيجابي ، ودفاع من يوسف وهو موقف سلبي ، وقد ينقلب إيجابيا ، وهو كقوله (وهتمّ كلّ أمة برسولهم ليأخذوه) «٥»^(١) وقوله (لولا أن رأى برهان ربه) أى حصل ما حصل مما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، وبعد لذلك قوله بعد (كذلك ليصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) أى فعلنا يوسف [كذلك] من تسخير العزيز للحضور في ذلك الظرف الذي اشتدّ فيه النزاع بين يوسف وامرأته وهو نعمة كبرى على يوسف ، ومخرج من ذلك المأزق ، وتخليص له من يد امرأته ، ولولا حضور العزيز في ذلك لكان ما كان .

فالله تعالى يرينا أنه هيا^٣ ليوسف ذلك المخلص ليصرف عنه السوء والفحشاء ، ثم علل ذلك بقوله (إنه من عبادنا المخلصين) أى الذين أخلصوا في عبادة الله تعالى ، ومن كان كذلك فقد تكفل الله به مثل ذلك ، أو الذين استخلصهم الله لأن يكونوا رسلا وأئمة ، وما دام يوسف من ذلك الصنف ، تكفل الله له بأن يصرف عنه السوء والفحشاء ، ونظيره قول الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ٣١ و ٤٠)^(٢) .

(٣) (واستبقا الباب) تسابقا إليه لحذف الجار ، أو ضمن الفعل معنى ابتدر : أى ابتدر كلّ

منهما الباب وسبق إليه ، فأما يوسف فقد أراد الفرار منها ليخرج وليشكرها الى سيدها ، وأما هي فأسرعت وراءه تريد أن تمنحه الخروج ، واجتذبه من وراءه فأخذت قبضه ، والتقت الشق طولا (وقدت قبضه من دبر والنياسيدها لدى الباب) أى وجدا سيدها وهو العزيز لدى الباب ولم يدخل لأن الأبواب كانت مغلقة (قالت ماجزاء من أراد بأهلك سواء إلا أن يسجن أو عذاب أليم) وفي الأمثال [ضربني وبكى وشتني واشتكي] كذلك امرأة العزيز مع يوسف لما رأت سيدها عند الباب يريد المخول ، وقد يكون أحسن وهو لدى الباب بشيء مما دار بين يوسف وامرأته من نزاع ، أرادت أن تشفي غل صهرها وحققها على يوسف لما فاتها من التمتع به ، وتوقعه في الشرّ جزاء إبانته عن مطاوعتها - فتقدمت الى زوجها شاكية باكية قائلة (ماجزاء من أراد بأهلك سواء إلا أن يسجن أو عذاب أليم) تريد أن تفهمه بذلك أنه هو الذى راودها وأنه لم يكن منها سوى الالباء . وفي قولها (ماجزاء من أراد) بصيغة الماضى ، وتحديد الجزاء بسجن أو عذاب تمويه على العزيز ، ومحاولة إفهامه أن ذلك أمر وقع من يوسف ، وأن جزاءه على ذلك أمر لا يصح أن يكون موضع مناقشة أو جدل ، بل هو أمر مفروغ منه ، وقولها (بأهلك) استفزاز للعزيز ، وإشغال لثأر القمرة في نفسه ، لأن فتاه أراد سواء بأهلك ، ولو قالت [ماجزاء من أراد في سواء] لفات ذلك الغرض ، وهو محاولة إلهاب العزيز والتأثير عليه ، وتلفتنا الآية من جهة أخرى الى أن امرأة العزيز كانت صاحبة سلطان عليه ودلال ، حتى اجترأت أن تتحدّ الجزاء وتقرح على زوجها أحد أمرين : السجن ، أو العذاب الأليم .

ولو أن امرأة العزيز كانت امرأة عادية لأبلغته الحادث مجردا عن تعديد العقوبة ، فبادرت الى ذلك القول لترى العزيز أنها غاضبة للشرف والكرامة اللذين يحميها ويؤدو عنهما ، ولتشفي صدرها باقتراح عقوبة في اعتقادها أن العزيز يغزل على رأبها فيها ، وفي اعتقادها أن أمثال هذه التهمة لا تحتاج الى بحث وتحقيق ، لأنها تتعلق بشرف العزيز وأهلكه ، فليس بعد البلاغ إلا العقوبة ، وفاتها أن هناك إلها يرقبها ، وربما هو لها بالمرصاد ، وأن ذلك الإله اذخر لى أطاعه في وقت الشدة ، وجاهد في سبيل دينه وخلقه ما شاء الله أن يجاهد ما يخلصه منها ، وضاء الجبين ، أبيض الصحيفة وأنه سيقض له من آثارها ما يشهد ببراءة يوسف من ذلك الجرم الذى حاول إلصاقه به ، وسيقضى لها من النسوة كذلك من يشهد هذه الشهادة ، وستعرف هي ببراءة يوسف مما نسبته اليه من إرادة السوء بها ، وستقول هي للنسوة (أنا راودته عن نفسه فاستعصم) وهكذا يقتصر حق يوسف على باطل امرأة العزيز ، ويؤوب بالعودة والكرامة ، وتبوء بالخزي وسوء السيرة (قال هي راودتني عن نفسي) أى بعد أن قالت فيه ما قالت واتهمته عند زوجها بأنه أرادها سواء ، واقرحت على العزيز عقوبة ، وحاولت إلهاب نفسه بذلك الأسلوب الذى ينه ، عند ذلك لم يجد بدا من أن يقول الحق ، وهي أنه راودته عن نفسه ، وهي كفة جرئة من خادم لسيده أمام مغلوبته من شأنها أن تصدر من قلب مؤمن مطمئن ، ومن شأنها أن تدلّ على صدق قائمها ، ولو كان يوسف على رية من جهة نفسه ما استطاع أن يراجع امرأة العزيز في حضرة زوجها بذلك القول ، وأن يبهتها ذلك البهت ، ولكنه الحق لا يخشى باطلا ، ولا يعمل حسابا لشيء ، ولا يحابي ولا يبدى ،

ظهر على لسان فني خادم ضد سيدة مخدومة مطاعة في بيتها وأهبتها وعظمتها ، تستطيع أن تدبر
لذلك الخادم من أنواع التشكيل والمذاب ماشاء لها الهوى ، وسوّلت لها النفس .

لم يبال يوسف بكل ذلك ، بل قال الحق ، والحق أحق أن يقال ، ولو أن امرأة العزيز لم تبادل
يوسف بذلك التهمة أمام زوجها لاستحى يوسف أن يقول ما قال لزوجها ، ولكنكم عليها تلك
القطة ، ولكنها بدأت [والبادئ أظلم] بدأت فقلت فيه الباطل ، فاضطر أن يقول فيها الحق .
(٤) (وشهد شاهد من أهلها) الخ ، كثر كلام المفسرين في ذلك الشاهد أكل رجل أم

صيا ، ورجح الرازي في تفسيره الكبير أنه كان رجلا لوجوه :

(الأول) أن الله تعالى لو أنطق الطفل بذلك الكلام لكان مجرد قوله أنها كاذبة برهانا على
كذبها ، أما الاستدلال بما في قوله من المنطق من قد القميص من قبل ومن دبر فلم يمكن
محتجا إليه .

(الثاني) قوله من أهلها ، فانها سيقت لقوية الشهادة ، ولا يصار الى هذه التقوية إلا حيث
كان الشاهد رجلا ، ولو كان صيا في المهد لكان قوله حجة ، ولم يبق لهذا القيد فائدة .

(الثالث) أن لفظ الشاهد لا يقع إلا لمن تقتضيه له معرفة بالواقعة ، ولحاطة بها ، وذلك
لا يكون إلا من رجل .

والذي جل المفسرين على ذلك ولوعهم بالتريب ، وورود حديث ينسبه المفسر أبو السعود
للحاكم ، وفيه [تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب
جريج . وعيسى عليه السلام] وتصحيح الحاكم إذا تردد به لايوثق به عند المحدثين . فان من
عادته أن يتساهل في التصحيح فيصحح الضعيف .

وعندى أن ذلك الشاهد هو رجل كما رأى القميص قتلا عن جماعة من المفسرين ، وأن الحجة
في منطق الشاهد وتحكيمة العقل في شهادته ، وفراسته في تحقيق الحق من قولهما ، إذ يقول (أن
كان قيصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) الخ لأن الملجم على المرأة وهي تدافعه إنما
يظهر أثر دفاعها في مقم قيصه ، والمهارب من المرأة العاقلة بشو به إنما يظهر أثر ذلك في ثوبه من
الخلف ، لأنه يكون مستديرا لها وهي تجاذبه من خلف ، فظهر صدق يوسف وكذب امرأة العزيز
حينما رأوا قيصه قد من دبر ، فصاد العزيز على امرأته باللوم وقال (إنه من كيدك إن كيدك كبر
عظيم) وأمر يوسف بكتان الخبر ، وأمرها بالاستغفار لذنبا ، وجزم بأنها عظيمة فيما صنعت .

ذلك هو المنطق الذي امتازت به شهادة ذلك الشاهد ، وتبين به الحق للعزيز . أما كونه من
أهلها فلان الشأن في أمثال هذه الحوادث أن يطلع عليها أهل المرأة [أولا] وتكون محصورة
فيهم ، لأنها مسألة تتعلق بالأعراض ، ومن شأن الأهل أن يحرموا على كتابتها جهد المستطاع ،
ويروى أن ذلك الشاهد كان مع العزيز عند وصوله الى الباب ، وقيل إنه كان بالبيت محتجيا لم
يشعر به أحد ، وسواء صح ذلك أم لم يصح ، فان المهم شهادته وما فيها من حجة ومنطق . .

وأن ما شهد به ذلك الشاهد على حدث امرأة العزيز مع يوسف يصلح أساسا للتحقيقات
الجنائية التي يقوم بها ضباط المباحث ورجال التبايل عند ما يريدون أن يفتروا على حقيقة واقعة

من الوقائع ، ويتبينوا وجه الصواب في المسئلة والأخذ بالقرائن وتحكيم العقل في الحوادث والجنائيات هو شأن الناس في كل زمان ، وقد تقدم ذلك النوع من تحكيم القرائن ، وأصبح له شأن كبير حتى أنشئوا له في مصر وغيرها وظائف ، وأعتقوا له ما يلزم من معدات ، وكل كشف ذلك النوع عن مخبات ، وفضح من أستر جنائيات ، وأعلن القضاء على أداء مهمته ، وسهل له المضى في عمله . وانك لترى للحققين أساليب باهرة عند شروعهم في تحقيق قضية ، وترى رجال المحاماة قد برعوا في توجيه أسئلة للشهود تكشف من القضية كل غامض ، وتزيل منها كل لبس ، مما يجعل الحق واضحاً أبلج ، والباطل كاسفاً جليح . ولو أنك ذهبت الى قاعات المحاكم الجنائية لرأيت من ذلك النوع ما يثلج صدرك ، ويطمئن نفسك ، وقوله (انه من كيدك إن كيدك عظيم) الضمير فيه لما حصل من امرأة العزيز مع يوسف حيث خانت زوجها ، واتهمت يوسف بأنه طلب منها الفاحشة (إن كيدك عظيم) أى معاشرة النساء لأنك أنك ألفت حيلة ، وأعظم كيدا .

قال بعض العلماء : (اتى أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان ، لأن الله تعالى قال - ان كيدك عظيم - وقال - ان كيد الشيطان كان ضعيفا « ٧٦ » (١)) .

وعندى أن الله تعالى وصف كيد الشيطان بالضعف لأن من استولى عليه الشيطان أو طاف حوله طائف منه يذهب عنه الشيطان عند تذكره لربه ورجوعه اليه ، ولذلك يوصف الشيطان بالخناس الذى يخنس وينقبض كلما ذكر اسم الله تعالى ، ولذلك يقول في شأنه (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون « ٩٩ ») (٢) فالشيطان ضعيف في كيده لا يسلط إلا على ضعيف الايمان الذى لم يعصم بربه وخالفه ، وان ذلك الكيد عظيم في ذاته ، باعتبار أثره وعاقبته .

أما كيد النساء فهو عظيم في ذاته ، وهو لم يصل اليهن إلا بواسطة تسويل الشيطان لهن ، ولولا أنه ينفخ في أوداجهن ، ويفرهن بالفاحشة ما فعلن فعلهن ، وكل امرأة فاسقة معها شيطان أو شياطين ، يزين لها الفاحشة ، ويتلمس لها طريق الخلاص منها ، فالشيطان هو الذى أغراها حتى طلبت من يوسف الفاحشة ، والشيطان هو الذى عظم في عينها امتناع يوسف وتأنيه عليها ، وقال لها كيف يكون خادما لك ثم تمتنع عليك ذلك الامتناع ، ولولا شيطانها ما ألصقت يوسف أنه أراد بها سوءا ، ولشكرته على عفته ، واستخلصته لنفسها لأمانته كما طلبه الملك بعد ظهور برائه وقال (اتقنى به أستخلصه لنفسى) وقال له (انك اليوم مكين أمين) .

وقد راجعت النيسابورى بعد الفراغ من التلخيص الذى علقت على قول بعض العلماء ، وإذا هو يقول : وأقول لاشك أن القرآن كلام الله إلا أن هذا حكاية قول الشاهد فلا ثبت به ما ادعاه ذلك العالم ، ولو سلم فلماذا أن كيد الشيطان ضعيف بالنسبة الى ما يريد الله تعالى امضاء وتنفيذه ، وكيد الشيطان ضعيف بالنسبة الى كيد الرجال ، فانهم يقلبهم ويسلبون عقولهم إذا عرض أنفسهم عليهم ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « النساء جائل الشيطان » اهـ .

وجلة القول أن كيد النساء جزء من كيد الشيطان ، وهو عظيم الخطر ، كبير الأثر ، لأنه كيد فيما يتعلق بالأعراض ، وما كان من ذلك النوع فهو جد خطير ، وان كيد الشيطان قد وصفه

الله بالضعف لأنه يعتمد الباطل ، ويعول على زخرف القول ، كقول الرجل البخيل لك [أحرص على مالك ولا تضعه فإن الرجل إنما يكون رجلاً للمال ومن ليس معه قرش لا يساوى قرشاً] يحاول بذلك أن يصرفك عن بذل المال في وجوه الخير ، وهو كما يقول الله في شأن الشيطان الذي يأمر بالسخط (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ٤٦٨ »)^(١) فكيفه لا يعدو أن يكون تضليلاً ، وكيد ذلك حاله هو كيد ضعيف ، ومن ناحية أخرى فإن أول الآية يطالب بالجهاد والشجاعة ، ويقوّى قلوب المؤمنين ، ويرينا الفرق بين قتال المؤمنين وقاتل الكافرين ، وأن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله ، وأن الكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت والباطل ، ويحرض المؤمنين أن يقاتلوا أولياء الشيطان وأنصاره ، لأنهم لا قلب لهم ، فهم ضعفاء العقيدة ضعفاء النفوس ، لا يؤمنون بعاقبة ، ولا يدينون دين الحق (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت يقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ٤٧٦ »)^(٢) ولا شك أن براءة يوسف من تهمة امرأة العزيز أمام زوجها وأمام ذلك الشاهد وقوله لها (إنه من كيدك) الخ هي [أوله شهادة] ليوسف عليه السلام بالبراءة من رجل حاول امرأة العزيز أن تؤذيه عليه ، وتثير فيه عاطفة الغيرة ، وترى أن يوسف الذي أمر بأكرام مثواه أراد بأهله سوءاً ، ولذلك عقبه بقوله (يوسف أعرض عن هذا) أى دع هذا الحديث ولا تذكره لئلا يفسد بين الناس ، أو لا تكثر هذا الأمر وتتأثر به ، ثم التفت إليها وقال (واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين) أمرها بالاستغفار من ذنبها .

ثم علل ذلك بأنها كانت في عملها هذا مع يوسف من جملة الخاطئين ، وحكا بصيغة التأكيد لأنه وثق من صدق يوسف ، وكذب امرأته ، ولأسبغ بعد شهادة الشاهد .
وفيه دليل على أن العزيز حليم قليل الغيرة إذ لم يزد على ذلك مع امرأته ، ولذلك كثرت الاشاعة حتى اتهمها نساء المدينة بأنها راودته عن نفسه .

(هـ) (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) الخ . لما شاع أمر يوسف تحدثت به النسوة ، وخاضوا في شأن امرأة العزيز وضعفها أمام شهوتها ، وقالوا إنها تراود فتاها [وهو الشاب الحديث السن] (عن نفسه قد شغفها حب) أى شق شغاف قلبها ، وهو حجابها حتى وصل إلى فؤادها ، وجبا منصوب على التخييز المحوّل عن الفاعل : أى شق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد ، وذلك أشد أنواع الحب (إننا لنهاها في ضلال مبين) لأنه لا يليق بها وهي امرأة العزيز ، وفي ذلك البيت الكبير أن تنزل إلى ذلك المستوى الذي لا يليق بنتها ، وهو مراودة الفتى ، فإن اللائق بمثل امرأة العزيز أن تكون في عفة وعزّة ، ولم تكف النسوة بوصف امرأة العزيز بالضلال ، بل وصفته بأنه بين وواضح لا يشك فيه أحد (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأً) الخ لما بلغ امرأة العزيز ما قاله النسوة وخوضهن في قصتها ، والمكر هنا الغيبة ، سميت مكرًا لما فيها من الخفاء ، وقيل إن امرأة العزيز استكتمت النسوة أمرها فأفشيت عليها - لما سمعت امرأة العزيز قول النسوة فيها (أرسلت إليهن وأعتدت لهن

متكأ) هيات لمن مايتكنن عليه من نمارق ومساند ، ويقع ذلك اعداد طعام يقم لمن ، ويطلق [التكأ] على نفس الطعام فان كل من دعوته ليعلم من عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكى عليها ، فيكون الطعام متكأ على سبيل المجاز ، وسواء أكان المتكأ هو مايتكأ عليه عند الطعام والشراب أو نفس الطعام ، فان المال واحد ، فان امرأة العزيز أعدت طعاما وفيه مايقطع من لحم وفاكهة (وآت كل واحدة منهم سكينا) على ما هي العادة في أطعمة المتمدنين من قدام المصريين ، فلما أخذن يأكلن وأمسكت كل واحدة بسكينها انتهزت تلك الفرصة (وقالت اخرج عليهن) يابوسف وهو لا يصح لها أمرها (فلما رأته) أى رأى النسوة يوسف (أكبرته) أعظمته ودهشن عند رؤيته لذلك الحسن الراق والجبال الفائق ، كما شاهدن فيه مهابة وهيبة وعدم الثفات الى الشهوات من النساء والمطاعم ، وإذا كان الجبال مقرونا بهذه الصفات حق للنسوة أن يهبنه (وقطعن أيديهن) أخذن يقطعن أيديهن بالسكاكين التى معهن وهن يظنن أن يقطعن مامعهن من طعام أو فاكهة . أذهلهن جمال يوسف وكاله عن نفسهن ، فلم يشعرن بأن التقطيع فى الأيدى أو فيما معهن من الطعام (وقلن حاش لله) معاذ الله (ما هذا بشرا) أى تنزهها عنه أن يخلق هذا بشرا ، لأننا لم نعهد فى البشر ذلك الجبال والكمال (إن هذا إلا ملك كريم) وحين ذاك وصلت امرأة العزيز الى ما كانت تقصد من دعوة النساء للطعام ، ونجحت فى تلك الوليمة التى أعدتها للنساء الخائضات فى شأنها مع فاتها .

(قالت فذاكن الذى لمتنى فيه) أى ذلك الفتى الغريب فى حسنه ، البعيد فى مكانته ، الخارق للعادة فى صفاته ، هو الفتى الذى صورتن فى أنفسكن ، وفهمتن أنه فتى عادى كبقية الفتيان ، وقلتن فى أنفسكن إنها امرأة ضعيفة أمامه لم تستطع ضبط نفسها ، ولا ملك عواطفها من جهة ، وقد مرر عليكن [لأول مرة] فذهلتن عن أنفسكن ، ونسين أن فى الأيدى سكاكين تشغل بقطع الطعام ولذا ذلن الفاكهة ، فقطعنن أيديكن وقلتن (حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) فلماذا لا تصدقننى فيما فعلت ، وقد أمضيت معه زمنا طويلا ، أطالع جماله ، وأرى حسنه فى كل وقت من أوقات الخمسة ؟ وحين ذاك اشترك معها النسوة فى عجة يوسف ، وإكبار يوسف فلم تبق فريدة فى تلك العجة ، وان كانت العجة تتفاوت ، فان العجة التى مضى عليها زمن طويل تختلف اختلافا كبيرا عن العجة التى حدثت .

وبادامت النسوة قد اشتركن مع امرأة العزيز فى عجة يوسف وإكباره ، أو ما دامت النسوة قد علمن من حسن يوسف وجماله ما تضر فيه امرأة العزيز ، فلا تحقن أن تصارحنهم بالأمر ، وتكاشفنهم بالحقيقة ، وتقول لهم (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وهى شهادة من امرأة العزيز بصدق يوسف فيما قال لزوجها ، وبرأته مما اتهم به ، وليست هذه شهادة عادية ، بل هى شهادة لها شأنها وقيمتها ، لأنها شهادة مما اتهمته بإرادة السوء وهى امرأة العزيز ، وهى خصم فى قضية الاتهام [والفضل ما شهدت به الأعداء] وقولها (فاستعصم) ولم تقل فامتنع لتدلنا على أن يوسف كان شديدا فى امتناعه كما يدل عليه الصيغة ، فان الاستعصام بناء بمبالغة يدل على الامتناع البالغ والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة وهو يحد فى الاستزادة منها ونحوه استمسك ، واستجمع

الرأى ، واستفحل الأمر .

والعجيب لبعض المفسرين ينسبون ليوسف عليه السلام من الأكاذيب ما تنزهه منه الله . اتهمته وهى امرأة العزيز ، وكأنهم أصبحوا خصما ثانيا ليوسف عليه السلام يحاولون بشى الأساليب أن ينسبوا إليه ما هو منه براء ، وبالتهم كانوا فى إضافهم كإمرأة العزيز ، بل كانوا أقل منها إنصافا .

ومن عجيب أمرهم أن قبلوا فى قصة يوسف ماصح ومالم يصح من الروايات ذاهلين عن أنه فى اعتد الله لأن يكون رسولا ، وهىأه لأن يكون قدوة سالحة ، ومثالا يحتذى فى العفة والأمانة يجب أن يهذب بذلك المثل العملى : النساء والرجال ، ونسوا أن العبرة فى قصة يوسف مع امرأة العزيز أنه شاب من أجل الشبان صورة ، وأكلهم بنية ، يخلو بإمرأة ذات منصب وسلطان ، هى سيدة له وهو عبد لها ، فيجعلها الافتتان بجماله وكجالة على أن تذل له ، وتغنون بعلمها ، وتدوس شرفها ، وتراوده عن نفسه ، والمعهود فى أدنى النساء ترية ومنزلة أن يكن مطالبات لاطالبات ، فيسبعها يوسف من حكمته ، ويرىها من كجالة وعصمته : ما هو أفضل قدوة فى الإيمان بالله والاعتصام به ، وفى حفظ أمانة السيد الذى أحسن مثواه ، واتقنه على عرضه وشرفه ، ويقول لها (معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون) فتشعر بالذلة والمهانة ، والتفرط بالشرف والحيانة ، فهن بضربه أو قتله ، وبهم هو بالدفاع عن نفسه ، ويكاد يحصل ما لا تحمد عقبا من جراء ذلك النزاع (لولا أن رأى برهان ربه) .

فكيف يتفق ذلك ومقاله المفسرون من أقوال منكورة ، وما نسبوه إليه من روايات مختلفة ، ولكن الله تعالى تكفل ببراءة يوسف على يد العزيز بعد شهادة الشاهد ، وتكفل ببراءة يوسف على لسان امرأة العزيز نفسها أمام النسوة ، وهى شهادة لها قيمتها فى المسألة لأنها الخصم ليوسف ومصدر اتهامه .

(٦) لما شعرت امرأة العزيز بأن النسوة عذرنها فى شغفها بيوسف ، واشتركن معها فى إكبار ذلك الجال اعترفت أمامهن بأنها التى راودته عن نفسه فاستعصم ، ولم ترد أن تقف عند ذلك الحد ، بل أصرت على التحدى فى الباطل ، فقالت (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) قلنا فيما تقدم أن حبا ليوسف قد وصل بها الى حد الجنون ، ولولا ذلك ما أصرت على مطالبة يوسف بالفاحشة ، وما تجرأت على هذه الكلمة فى جمع من النسوة .

ولعل الذى هوّن عليها ذلك أنها أمنت أمر النساء ، لأنهن أصبحن شريكات لها فى محبة يوسف ، أو عاذرات لها فى تلك المحبة ، ورأت من زوجها العزيز سهولة ولينا ، إذ كل مقالها عند ظهور كذبها وصدق يوسف (إنه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) .

وإذا كان زوجها من الذين وعدم البيرة الى ذلك الحد ، والنسوة اللاتي تكلمن فى شأنها قد أمتحن أن يتكلمن فيها مرة ثانية ، وهى امرأة العزيز صاحب خزان الملك ، وهى السيدة المطاعة ، ويوسف فتاها وخادمها ، فلماذا لاتبى على طمعها فيه ، ورجائها فى الحصول على غايتها

وقد خاطبت يوسف أول مرة بقولها (هيت لك) أى بأسلوب لين هين ، فيه اغراء لاطلوب ، فلم يجيبها يوسف الى ماطلبت ، فرأت أن تلون له الخطاب ، وتغير له الأسلوب ، فخاطبته خطاب للمهتد المتوحد ، وقالت (لئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) وهنا كشفت القناع عن أنها صاحبة الأمر والنهي ، وإن أمر السجن والتعذيب فى يدها وتحت سلطانها ، فأقسمت للنسوة أن لم يفعل يوسف ما تريد منه لابتدأ أن يسجن ويحشر مع الأذلاء من الصوص وسفاكى السماء وأصحاب الجرائم .

ماذا كان من يوسف ؟

(قال رب السجن أحب الي مما يدعوننى إليه) جواب رجل أعدّه الله لأن يكون نبيا ، وهىء لأن يكون زعيما دينيا ، جواب ما أردّه على قلب المؤمن ، وأجبه الى نفسه ، يقول يوسف فيه مخاطبا لربه ومولاه وصاحب الفضل الأول عليه ، إن السجن على ما فيه من شظف العيش ، وخشونة الفراش ، وحيلولة بين الرجل وبين الحياة ، هو أحب الي نفسى مما يدعوننى إليه لأنهن يدعوننى الى عصيانك ، والخروج على طاعتك ، وامتهان النفس ، وضياغ الخلق والكرامة ، وضعف الإرادة ، فأنا أفضل أن أعيش فى السجن متحملا ما فيه من تعذيب على ما يدعوننى اليه من عصيانك ، والفسوق عن أمرك .

وانها لبرة عظيمة من نبي الله يوسف ، ترينا كيف يؤثر الانسان غليظ العيش على ناعمه مادام ذلك العيش الناعم من ورائه ضرر يتعلق بالخلق أو النفس . ومن حق الزعماء أن يكثر وا من قراءة هذه الجلة عند ما يعاملهم الغاصب معاملة امرأة العزيز ليوسف ، حينما طلبت منه ما لا يليق بخلقه وكرامته وتوعده ان لم يجيبها الى ماطلبت أن يسجن ، أو يعذب العذاب الأليم ، فقال لها (رب السجن أحب الي مما يدعوننى إليه) فاذا كانت امرأة العزيز تملك سجنى فانها لاعمك خلقى وكرامتى ، وإذا كانت تستطيع أن تعذب جسمى فانها لاعمك أن تعذب روحى ونفسى وكذلك المستعمرون إذا طلبوا من الزعماء أمرا يضرب بمصالح بلادهم ، ويهود عليها بالشر ، كأن يطلبوا منهم أن يستكروا عن المطالبة بالجلالة ، أو يقدموا لهم مصالح البلاد لقمة سائغة ، وهددوهم ان لم يصيخوا لأمرهم أن يضعوم فى السجن ، أو يعذبوهم العذاب الأليم - فليقولوا لهم ما قال يوسف (رب السجن أحب الي مما يدعوننى إليه) لأن السجن لا يضيع حقا ، بل يقته ، ولا يززع عقيدة ، بل يقويها ويؤيدها ، والسجن سكن العظماء ، وماوى المصلحين ، وأرواب المبادئ .

وكم أعان السجن على حق ، ومحص من نفوس ، وأعتها لأن تكون قوة مستعدة للطوارئ والأحداث ، وكم خلق السجن لأنصار الباطل أعداء ، ولأنصار الحق أولياء ، ولحزب الشيطان قوة لا قبل لهم بها ، وما من مبدأ من المبادئ إلا وهو فى حاجة الى ما يجيه ، ويضع فيه إكسبر الحياة ، ولا شئ أفعق للبادئ من اضطهادها ، وللقائد من الفتن التى تتربأ بها . (وان لا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين) فزع من يوسف الى الله

تعالى في ذلك الوقت الصيب ، ورجوع إليه في وقت اشتدت فيه ظلمات الفتنة ، واستفحل أمر النسوة ، وكاد أن يطغى فيه حزب الشيطان على حزب الرحمن ، خلا الحق لامرأة العزيز ، وأمنت كلام النسوة ، وأطمأنت من جهة زوجها ، لأنها جرت عليه ضف الفيرة ، فهدئت وتوعدت ، وأرغت وأزهدت ، وقالت له بلفة الأمر الذي لا يخالف : انك ان لم تقبل ما أمرك به سجنك وعذبتك ، وأزلتك من ذلك البيت الرفيع الى درجة المحرمين ، فيخاطب ربه بأن السجن أحب إليه مما يدعونه إليه ، ثم يلجأ إليه أن يصرف عنه كيدهم بلطفه وتدييره ، وأنه ان لم يفعل الله - وهو فاعل ولا بد - يميل يوسف اليهن ويدخل في عداد الجاهلين الذين لا يعملون بما يعملون وهو في معنى السماء من يوسف في وقت الشدة .

وجدير بمن دعا ربه في ذلك الوقت ليخلصه من محنته ، وينقذه من فتنته ، ولازم له من طلب الخلاص إلا إرضاء ربه ، والوقوف عند حدوده - .
جدير بمن لجأ الى ربه في ذلك الوقت أن يستجيب الله دعوته ، ويطيعه ما طلب ، وأنفك .
قال (فاستجيب له ربه فصرف عنه كيدهم) .

ثم علل ذلك بقوله (إنه هو السميع العليم) فهو سميع لأقوال يوسف ، عليم بما يريد ويقصد ، وكذلك هو سميع لامرأة العزيز ، عليم بجهريتها وسلطانها ، وقتها ليوسف بوسائل مختلفة ، فترة تحاول الوقعة بينه وبين العزيز ، وتقلب الحق باطلا ، والباطل حقا ، وترى أنه أراد سوءا بأهله ، وجزاؤه في ذلك : السجن أو العذاب الأليم ، وصمة تقول للنسوة على مسمع من يوسف (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصافرين) ونسبت أن هناك إلها يعلم سرها وتجواها ، ويدبر ليوسف الخير كما تدبر له الشر ، وأن تدييره فوق تدييرها ، لأن تدييرها الى فساد ، وتدييره الى صلاح .

وقد نسب يوسف المسكر الى النسوة جميعهن في قوله (وان لاتصرف عني كيدهن) لأنهن شاركن امرأة العزيز في محبته ، والتوله به ، أولأنهن عذرنها في محبتها ، وطلبن منه أن يطيعها ، وزين له مطاوعتها ، وقلن له اياك وإلقاء قسك في السجن والصغار .

وعندى أن يوسف قد نسب المسكر الى النسوة جميعا مع أن الماكر به امرأة العزيز وحدها لأن مكر المرأة الواحدة ينسب الى الصنف كله ، فهو مكر لصنف النسوة ، أو للاشارة الى أن مكرها بلغ من عظم أثره أن صار مكر النساء جميعهن فهو كيد امرأة واحدة في ظاهر الأمر ، ولكنه في معنى مكر الجماعة .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) الضمير في لهم للعزيز وأهله : أي ظهر للعزيز وأهله من بعد ما رأوا الآيات الدالة على صدق يوسف ، وبرائه مما نسب إليه أن يسجنوه الى زمان ، وذلك أنها أفهمت العزيز أن جاء يوسف في البيت قد يكون سببا في إشاعة الفاحشة ، وفي فضيحة العزيز ، فوضعه في السجن أعون على السر ، وفي الوقت نفسه ترى يوسف أنها استطاعت أن تفقد عييدها معه ، وتجعله في السجن ، لأن ذلك الوعيد لم يعلم به العزيز ، وانما كان يحضر النسوة على مسمع من يوسف ، فتم لها ما أرادت ، وتقبلت على العزيز وألقت

يوسف في السجن ، وهى مع ذلك لا تزال طامعة فيه ، غنية نفسها بذلك الوقت الذى يرسل لها فيه أنه على استعداد لاجابة طلبها ، والنزول على إرادتها ، وحين ذاك يصدر الأمر العزيمى باخراج يوسف من السجن ، ونسيت قوله (ربه السجن أحب إلى مما يدعونى إليه) وأن يوسف أبعد من ذلك كله غرضاً ، وأعلى نفساً ، وأصلب عوداً ، وهيهات أن يلين لامرأة شهوانية همها فى قضاء حاجتها ، ورضاؤها فى الحصول على مأربها ، هيهات أن يؤثر يوسف مرضاة امرأة على مرضاة ربه ، وفيها زائلا على نعم مقيم .

يوسف عليه السلام

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ
 إِنِّي أَرَانِي أَطْحَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا بَتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ «٣٦» قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ
 يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا إِنَّمَا عَلَّمَنِ رَبِّي وَإِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ «٣٧» وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ «٣٨» يُصْحَي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ
 اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٣٩» مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ تَمْيْتُوهَا أَنْتُمْ
 وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ آمَرَ الْأَتَّعْبُدُوا إِلَّا لِيَاةِ
 ذَلِكَ الَّذِي يُقِيمُ ^(١) وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٤٠» يُصْحَي السَّجْنِ
 أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ
 فَضِي الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ «٤١» وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي ^(٢)
 عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَّهُ السَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَيْثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ «٤٢» وَقَالَ
 الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ^(٣) وَسَبْعٌ سُتَبِلَاتٍ

[١] الثابت الذى تقوم به ، صالح الناس . [٢] صفى عند الملك بصفى . [٣] جمع عجاف وهى الغزيلة .

خُضِرَ وَآخَرَ يَابِسَتْ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَتُّونِي فِي رُبِّي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّبِّ بَا
تَعْبُرُونَ «٤٣» قَالُوا أَضَلُّتُ «١» أَهْلُكُمْ وَمَتَّخِمْ بَتَّابِيلِ الْأَخْلَمِ بِلَمِينِ «٤٤»
وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ «٢» بَعْدَ أَمَرِهِ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ «٤٥»
يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ
سِنَابِلٍ خُضِرَ وَآخَرَ يَابِسَتْ لَمَلَى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ «٤٦»
قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا «٣» فَاحْصَدْتُمْ سَبْعَ قَدْرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا
تَأْكُلُونَ «٤٧» ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ «٤٨» ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ حَامٌ فِيهِ يُمَاتُ النَّاسُ
وَفِيهِ يَمْعِرُونَ «٤٩» وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ
إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْتَ أَيْدِيَهُنَّ إِنْ رَبِّي بِكَيِّدِهِنَّ عَلِيمٌ «٥٠»
قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رُودَّتُنَّ يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ
سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْأَنْ حَصَصَ «٥١» الْحَقُّ أَنَا رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ
لَمِنَ الصِّدِّيقِينَ «٥١» ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنَّ لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ
الظَّالِمِينَ «٥٢» وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ
رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ «٥٣» وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ
إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ «٥٤» آمِينَ «٥٤» قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي
حَفِيظٌ عَلِيمٌ «٥٥» وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ «٥٥» مِنْهَا حَيْثُ

[١] جمع ضمت ، وهو الحزمة من الميتة أو الضبان ، وهو شبه الأحلام المخططة .

[٢] تذكر . أمة : مدة طويلة . [٣] طالعين أى مستمرين . [٤] تخبئون .

[٥] النب والخبثون والسم ، أو من صعره إذا أجهأ . [٦] نبت واستقر .

[٧] صاحب مكاة ومنزلة . [٨] يتخذ منها خبوا له ومكناً .

يَسَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ « ٥٦ » وَلَا أَجْرَ
الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ « ٥٧ » يوسف

شرح وعبرة

(١) (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إلى أرانى أعصر خرا وقال الآخر إلى أرانى أحل
فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبشنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) أى دخل فى محبة يوسف
فتيان ، قبل كانا فتيين **للك** [أحدهما] خبازه ، و [الثانى] شرايه : أى صاحب الشراب ، وأهما
أدخلا السجن بتهمة السم **للك** ، وفهم الآلة لا يتوقف على محبة هذه الأخبار (قال أحدهما إلى
أرانى أعصر خرا) وهو صاحب شراب الملك (وقال الآخر إلى أرانى أحل فوق رأسى خبزا تأكل
الطير منه) وهو الخباز .

(نبشنا بتأويله) أخبرنا بتأويل ما رأينا (إنا نراك من المحسنين) أى من الذين يبيدون عبارة الرؤيا
ويحسنونها ، أو من المحسنين لأهل السجن فى معاملتك لهم ، والأحسن أن يطلق لفظ المحسنين
ويراد به أنه من أهل الاحسان . والاحسان : الاتقان وتأدية الشيء كاملا ، ومنه حديث « ان الله
كتب الاحسان على كل شيء » ومن الاحسان تعبير الرؤيا وتأويلها تأويلا صحيحا .

(قال لا يأتىكما طعام ترزقانه إلا بأتىكما بتأويله قبل أن يأتىكما) قال السدى : لا يأتىكما طعام
ترزقانه فى النوم . يريد بذلك أن علمه بالرؤيا ليس بقاصر على مقاصدها على . وقيل لا يأتىكما طعام
فى اليقظة إلا أخبركما أى طعام هو ؟ وأى لون هو ؟ وكما تكون عاقبته إذا أكله الانسان . وحاصله
ادعاء العلم بالمغيبات ، وهو مجرى مجرى قول عيسى عليه السلام (وأنبئكم بما تأكلون وما تدرجون
فى بيوئكم « ٤٩ ») ولعل حكمة مبادرتهم بذلك تطمين صاحبيه على حياتهما ، لأنه عهد
عندهما وفى عصرهما أن الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما مسموما فأرسله إليه ، وكأنه يقول
لهما : اطعما على ما يقدم لكما من طعام ، فكل ما يصل إليكما أبلغكم ما فيه من خير أو شر ،
ومحبة أو مرض .

(ذلكما مما علمنى ربى) أى ذلك التأويل للرؤى والأحلام مما علمنى ربى وفقهنى فيه ، وعلم
تأويل الرؤيا يعتمد فقه الانسان وفراسته : كما يعتمد صفاء النفس وقوة التفكير ، وكل ذلك فضل
من الله تعالى يؤتيه للانسان ، ولذلك نسب تطعيمه الى ربه ، لأنه الواهب لذلك الاستعداد ،
المانع لذلك الفضل .

هذا إذا ذهبنا الى المعنى الأول فى قوله (لا يأتىكما طعام) الخ . أما إذا فهمنا أنه إشارة الى
إخبار الصاحيين بالغيب ، وبيان ما فى الطعام من محبة أو مرض ، وأمثال ذلك يكون قوله (مما
علمنى ربى) أوحى الى ، لأن علم الغيب مقصور عليه تعالى لا يطلع عليه أحد إلا من طريقه هو
(انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بملته وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبع ملة أبائى ابراهيم واسحق

ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (ذلك كما علمني ربى) أى ان سبب ذلك التعليم أنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله الخ ، وهو يرينا أن المؤمن بالله أهل لأن يفيض الله عليه من العلم والمعرفة ما لا يعلم حده إلا الله تعالى .

وقد انتهز يوسف هذه الفرصة لينصح صاحبه في السجن ، وينشر مبدأه من الإيمان بالله تعالى ، وتوحيده ، والإيمان بالبعث والجزاء .

وقد جمع يوسف في تلك الدعوة أصول الإيمان الثلاثة ، وهى الإيمان بالله ، وتوحيده ، والإيمان باليوم الآخر ، وهل يوسف جاءته الرسالة وهو في السجن ؟ ولما لم يجد معه سوى صاحبه دعاهم الى أصول الإيمان الثلاثة ، أو أن ذلك كان ملة آبائه فأخذه عنهم ، ودعا دعوتهم ؟ كل محتمل ، وسواء قلنا ان يوسف نبى في ذلك الوقت أم لم ينبأ فإنه افترس هذه الفرصة وأخذ يدعو من معه الى دين الأنبياء جميعهم ، وقد تقدم بذلك بين يدي تأويل رؤيا الصالحين لأنه لو أجابهما الى ما طلبا أولاً لعاضت عليه هذه الفرصة ، وما استطاع أن يبلغهما التوحيد والإيمان بالله وثوابه وعقابه ، ولا سيما أن أحد الفتيين قد تأول له رؤيا تأويل يزعمه ، وهو أنه يصب فتاً كل الطير من رأسه .

فيوسف عليه السلام يرينا أن صاحب المبدأ والعقيدة من شأنه أن ينتهز الفوص لنشر مبدئه وعقيدته ، ومن شأنه أنه إذا طوب بشيء أو سئل عنه يخفى لها المناسبة لينشرها بين الناس ، وفي الأمثال [ان صح منك الهوى : أرشدت للحيل] ويرينا يوسف عليه السلام أن لا مانع من تعريف العالم نفسه بالناس وأن يحرم أنه يحسن كذا وكذا من العلم ، وليس في ذلك غشاضة على نفسه ، فيوسف لم يجد بأساً في أن يقول للصاحبين (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا بأتيكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلك كما علمني ربى) الخ ليلفت نظر الفتيين إليه ، ويحملهما على التوجه له . وقوله (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) تحريض لهما على الإيمان بالله لأن عاقبة المؤمن به أن يفتقه الله في دينه ، ويعلمه كما علم يوسف ، وقوله (واتبع ملة آبائي إبراهيم واسحق ويعقوب) يريد أنه من بيت النبوة تربى على الإيمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، والحكمة العالية ، والعلم النافع المفيد ، فاستمعاً الى ، وخذا العلم والحكمة عني ، وقوله (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) أى لا يلقى بنا ولا يبنى ونحن من هذه السلالة الطيبة ، والبيت الماجد أن نشرك بالله من شيء . من الأشياء (ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى ان ذلك التوحيد فضل من الله علينا ، وفضل منه تعالى على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على ذلك الفضل الذى هداهم إليه ، وأوصله لهم .

(٢) (يا صاحبي السجن ، أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) يريد يا ساكني السجن أو يا صاحبي فيه ، أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ يريد هل الخير للانسان أن يعبد إلها واحدا ، يعرف ما يحبه فيبادر إليه ، وما يبغضه فيدعه ويتركه ، أم الخير للانسان أن يعبد آلهة كثيرين ان أرضى هذا غضب ذاك ، وإن أغضب ذلك رضى هذا ، وهو أسلوب بديع من

أساليب الاقتناع ، يرجعنا فيه الى المؤلف من عدلت البشر ، وهو أن الانسان إذا كان له ملاك يتشاكسون فيه ، ويتنازعونه الملك والسلطان ، هل يستوى هو وعبد ليس له الاملاك واحد ، يعرف ما يطلبه منه فعمله ، وما ينهيه عنه فينذره ؟ ان الفرق بين العبدین كبير ، فالعبد الذى له ملاك متشاكسون فيه لايهدأ له بال ، ولا يطمئن له قلب ، أما العبد الذى ليس له إلا ماله واحد فيستطيع أن يعيش مع ذلك المالك هادئاً وادعاً ، وفي ذلك يقول الله تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا « ٢٩ ») (١) .

فنى الله يوصف يرينا أن توحيد الاله المعبود مصلحة للناس وخير لهم ، وتنظيم لعبادتهم ، وجمع لشتاتهم ، أما الشرك فهو مدعاة لتشويش نفس العابد ، وتفرق أصره ، فيها بينه وبين معبوديه ، ولذلك كان التوحيد متقا مع الفطر ، ومتناسبا مع القول ، ومتشبا مع المصلحة ، فمن ناحية تعدد الآلهة مدعاة لنزاعها الدائم ، وخلافها المستمر ، وذلك يفسد النظام ، كما قال تعالى (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا « ٢٠ ») (٢) وقال (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا ذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض سبعان الله عما يسفون « ٩١ ») (٣) ومن ناحية أخرى فلان الشرك مدعاة لتشويش أمر العابد ، واختلال نظامه ، فلا يستطيع أن يوفق بين مرضاة إلهين أو آلهة اختلفت مشربهم ، وتباينت مطالبهم . ذلك ما شير إليه نبي الله يوسف عليه السلام (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) يريد أنكم سميتم آلهة وعبدتموها ، وخلقتم ألفاظا فارغة لاسميات لها وخضعتم لها . والسلطان : الحقبة والبرهان . وقوله (ما أنزل الله بها من سلطان) أى حجة لأنها باطل ، والباطل لا ينزل الله به حجة ، وإنما ينزل حجة بالحق (إن الحكم إلا لله) في أمر العبادة والدين (أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم) الثابت الذى تقوم عليه مصالح الناس ومعاشهم ، وفيه حياتهم فى الدنيا والآخرة (ولكن أكثر الناس لا يفهمون) قيمة ذلك الدين .

(٣) (باصحابي السجن أما أحدهما فيسقى ربه خرا) وهو الذى رأى أنه يعصر خرا ولم يبين ذلك الأحد لوضوحه وجلائه : أى فيخرج من السجن و يعود الى سيده فيسقيه خرا ، لأن عصير العنب ما له أن يكون خرا ، والشأن فى العاصر أن يمدد للقوم شرابهم ، وكأنه أخذ عودته الى ما كان عليه ، وعصره خرا لسيدته من قرآن تتعلق بصاحب الرؤيا .

(وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) وهو الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خيرا تأكل منه الطير ، لأن ذلك هو المهود من أكل الطير من رأس الرجل ، ولعل تعيين طريق القتل وتحديد به بالصلب لأن المصاوب يبقى منتصبا ، ومن الممكن أن تسلط عليه الطير وهو على ذلك الحال ، أما الذى يموت بطريق آخر فالشأن فيه أن لا يكون كذلك ، فلا تسلط عليه الطير ، وإنما تسلط عليه دبدبان الأرض وهوامها ، ويظهر أنه كان من عادتهم إذا صلبوا أحدا تركوه على حاله مصلوبا حتى يتعفن وتأكل منه الطير ، ولعل ذلك النوع من التمثيل بالقتل كان خاصا بالجرائم المتعلقة بالملك ، وذلك مما يؤيد صحة الاخبار بأن ذلك الرأى كان خبار الملك واتهمه - وما أكثر هذه الاتهامات فى كل زمن - بأنه دس تلك فى طعامه سما .

(قضى الأمر القى فيه تستفتيان) أى بتّ في تعبيره وتأويله ، فليس محلا للمناقشة والجدل . وقد ظهر لى الآن حكمة قول يوسف (أما أحذرك) وقوله (وأما الآخر) بلفظ مبهم ، وهو أن يوسف لم يرد أن يواجه كل واحد من الصّاحين بتأويل ما رأى ، لأن إحدى الرّويين سارة ، والآخرى مريمجة ، ولذلك رأى أن يعبر بذلك اللفظ المبهم ، وإن كان المعنى مفهوما ، وذلك لتلف من يوسف في التعبير ، وحرص على عدم إزعاج صاحب الرّوياً قدر المستطاع ، وهو أدب ينبغى أن يراعى في باب التعبير .

(وقال للذى ظنّ أنه ناج منها اذكرنى عند ربك) أى قال يوسف للصّاحب الذى ظنّ أنه ناج من السجن وعائد الى ما كان عليه من النعم (اذكرنى عند ربك) أى اذكر مظلمتى عند سيدك ، والتضمير فى قوله (ظنّ) ان كان للرجل الناجى فالأمر ظاهر ، لأنه لم يكن هو وصاحبه مؤمنين بنبوة يوسف وإخباره عن الله تعالى ، بل كانا حسنى الاعتقاد فيه ، وكان وعظه لهما قد وصل بهما الى مجرد الظنّ ، أو فهما أن تعبير يوسف يرجع الى الفراسة ، وهى لا تقيد أكثر من الظنّ .

أما إذا كان التضمير ليوسف فالظنّ بمعنى اليقين لأن يوسف مؤمن بصدق نفسه فيما أخبر عن الله تعالى إذا كان تأويل الرّوياً بتوقيف من الله تعالى ، أو هو ظانّ ذلك التأويل ان كان عن اجتهاد وفراسة ، وإطلاق الظنّ على اليقين مألوف فى القرآن الكريم ، ومنه قول الله تعالى (الذين يظنون أنهم ملائكة ربهم وأنهم إليه راجعون «٤٦» (١)) قال ذلك فى وصف المؤمنين الخاشعين ، وإيمان هؤلاء لم يكن مجرد ظنّ ، وإنما هو يقين عبر عنه بالظنّ لقربه منه فى الرتبة والمنزلة ، والأظهر أن يوسف كان على بينة من تأويله ، وأن تأويله وصل من نفسه الى حدّ القطع واليقين وآية ذلك قوله للصّاحين بعد تعبير رؤياهما (قضى الأمر القى فيه تستفتيان) أى أنه ليس له تأويل سوى ذلك ، وإنما يقول ذلك من يثق بتأويله الى حدّ كبير ، وقوله (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلك كما علمنى ربى) هو إخبار بأنه على استعداد لأن يخبرهما عن مآل كل طعام يصل إليهما ، ولا يقول ذلك إلا واثق بما يخبره ، وهو بما يرجع أن ذلك التأويل كان إلهاما من الله تعالى مباشرة ، وأن مسألة الطعام التى استعادت لها يوسف كانت بوحى من الله تعالى ، كما أخبر عيسى عليه السلام أنه مستعد لأن يخبر قومه عما يأكلون وما يتخذون فى البيوت .

ولعلّ تأويل يوسف للرؤى والأحلام ، واستعداده للأخبار بالغيبات هو آية رسالته ، ودليل صدقه ، فإن كل رسول له من الآيات ما يثبت أنه يؤمن عليه الناس ، كما ورد فى الحديث الصحيح ويظهر أن تأويل الأحلام كان له شأن فى عصر يوسف ، وإلا فما بال يوسف بمجرد وضع رجله فى السجن يقصّ عليه قتيان دخلا معه السجن مارآيا ، وما بال الملك يرى الرّوياً فيسأل عنها الملائكة والأشراف من قومه وعشيرته ، ويهتم بتأويل هذه الرّوياً على غير عادة الملوك فى أحلامهم ورؤاهم فيعتذرون له بأنها أخطأ ، وأنهم ليسوا أهلا لتأويل الأحلام ، وليسوا من العلم الى حدّ يمكنهم من ذلك .

أما الاخبار بالقييلت فهو آية واضحة على صدق يوسف ، لأن الله استأثر بالقييل فلا يعلمه أحد إلا بتعلم منه . وأما تأويل الأحلام فيضه يعتمد الاطعام والوجى ، وبعضه يعتمد الفقه فى دين الله ، وقياس الأمور بأشباهها ، وبعضه يعتمد الكياسة والحدق وفهم الحياة ، والفراسة الصادقة ولذلك علمه الرسل وعلمه توابع الرسل ، وهذه أئمة المسلمين أخذوا بسهم وافر بل بأسهم فى ذلك العلم ، ووضعوا له قوانين ، ونبغوا فيه الى حد كبير .

وهذه مؤلفاتهم بين أيدينا : منها مؤلف محمد بن سيرين المحدث المشهور ، ومؤلف التاليسى ، وهما مطبوعان بمصر فى كتاب واحد ، وغيرهما كثير ، وهذا ابن خلدون يقول فى مقدمته :

(أما الرؤيا والتعبير لما فقد كان موجودا فى السلف كما هو فى الخلف ، وربما كان فى الملوك والأئم من قبل ، إلا أنه لم يصل إلينا فلاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الاسلام ، وإلا فالرؤيا موجودة فى صف البشر على الاطلاق ، ولا بد من تعبیرها ، فلقد كان يوسف الصديق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع فى القرآن ، وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر رضى الله عنه .

ثم اعلم أن التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله ، كما يقولون : البحر يدل على السلطان ، وفى موضع آخر يقولون : البحر يدل على الهمة والأمر الفادح ، ومثل ما يقولون : الحية تدل على العدو ، وفى موضع آخر يقولون هى كاتم السر ، وفى موضع آخر يقولون تدل على الحياة ، وأمثال ذلك ، فليحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ، ويعبر فى كل موضع بما تقتضيه القرائن التى تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا ، وتلك القرائن منها فى البيضة ، ومنها فى النوم ، ومنها ما ينقدح فى نفس المعبر بالخاصية التى خلقت فيه ، وكل ميسر لما خلق له .

ولم يزل هذا العلم متناظرا بين السلف ، ولكن محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء ، وكتب عنه فى ذلك القوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد ، وألف الكرماني فيه من بعده ، ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا ، والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبى طالب القيروانى من علماء القيروان ، مثل المتع وغيره ، وكتب الاشعرى للسالمى ، وهو علم مضى بنور النبوة للناسبة بينهما ، كما وقع فى الصحيح والله علام الغيوب (١) اه .

وجلة القول أن تأويل الأحلام يجوز أن يكون آية ليوسف ، ودليلا من دلائل صدقه ، أما إخباره بالقييل فى مسألة الطعام إذا فهما فى الآية أنها فى الاخبار بالقييلت فهى آية واضحة على صدق يوسف ، فإذا لم يكن يوسف قد أرسل إليه وهو فى السجن كان ذلك إرباسا لنبوته ، وتمهيدا لرسالته ، وقد عهد فى الرسل أن يتقدم رسالاتهم الارهاصات والخوارق ، وقد قال الله وهو يحدثنا عن مؤمن آل فرعون فما يحدث (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا « ٣٤ ») (٢) ولم يبين لنا القرآن ما هذه البينات أى الآيات المتواترة من الكتب التى كانت تنزل على الرسل ؟ أم هى دلائل صدقه ؟ وهل هذه الدلائل خوارق للعادة أو غير خوارق ؟ كل محتمل ، فان الله تعالى لم يلتزم مع كل

رسول أن يؤيده بخوارق ، بل يؤيده بآيات تدل على صدقه ، ومن آيات الصدق سيرته المرضية وتاريخه المجيد ، وعدم مطالبة الناس بأجر على ما يدعو اليه ، وأمثال ذلك .

ولقد كان يوسف الماضى المجيد ، والتاريخ الحافل بالصفات ، وقوة الإرادة ، والصبر والعفة في أخرج أوقات الفتنة ، وأشد أنواع الزلافة ، فكان مثلاً صالحاً ، وقدوة حسنة في الاستقامة ، والتضحية ، ونكران الذات - كل ذلك وأمثاله دلائل على يوسف إذا هو ادعى أنه رسول من عند الله ، ولعل الله تعالى ذكر لنا يوسف في هذه السورة . وقال (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) ليرينا أنها هي وحدها تكفي دليلاً على صدق يوسف عند ادعائه رسالة الله ، فإنها مشحونة بالصفات ، غاصة بالعبر ، ولا سيما فيما يتعلق بشخص يوسف ، وإرادته الحديدية ، وصبره على كيد امرأة العزيز ، بعد صبره على كيد إخوته ، وتفضيله السجن على فساد الخلق ومخاربة الله ، وامتناعه عن الملك بعد أن طلبه من السجن حتى تقوم الأدلة على برائه ، ويعلم الناس جليلة أموره ، كل ذلك أدلة على صدق يوسف ، وقوة إرادة يوسف ، واصطفاء الله ليوسف ، وإعداده لمنصب هو أعلى ما يصل إليه البشر في هذه الحياة : هو منصب الرسالة العظمى ، والخلافة في الأرض ، ليقم العدل ، ويحكم بين الناس بالحق .

هذا هو الفخر لا قهبان^(١) من لبن شيا بماء فكنا بعد أبوالا

(٤) (فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) أى أنسى الشيطان الشرائع أن يذكر يوسف وقصته عند ربه وسيده فكان ذلك سبباً في بقاءه في السجن بضع سنين ، والبضع من ثلاثة إلى تسع ، والوارد أنه لبث مدة بين ثلاث وتسع ، أما تحديدها فلا دليل عليه ، وهي عقوبة من الله تعالى ليوسف على قوله للذى ظلم نجاته من الرجلين (اذكرني عند ربك) روى ابن جرير عن مالك بن دينار قال : لما قال يوسف للساق اذكرني عند ربك قال قيل ليوسف اتخذت من دون الله وكلاً ؟ لأطيلن حبسك . فبكى يوسف ، وقال : يارب أنسى قلبي كثرة البلوى ، فقلت لمة : فويل لأخوتي .

وروى عن الحسن قال : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله يوسف لولا كفته ما لبث في السجن طول ما لبث . معنى قوله : اذكرني عند ربك . قال ثم يبكي الحسن فيقول : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

وقد عاقب الله تعالى يوسف بلبثه في السجن بضع سنين على هذه الكلمة ، وهي قوله (اذكرني عند ربك) ليرينا أنه لا ينبغي لمن أعدته الله للرسالة أن يعرض حاجته على أحد سوى الله تعالى ، ويقول المفسرون إن هذه العقوبة لأن يوسف عن اصطفاؤه الله تعالى ، فلا يليق به والحالة هذه أن يلجأ إلى مخلوق في دفع غلامته ، وإن كان التعاون على الخير ودفع الظلم مشروعاً لعامة الناس إلا أن اللائق بمقام يوسف تفويضه الأمر إلى الله تعالى ، وهو كقولهم [حسنات الأبرار سيئات المقربين] هكذا يقول المفسرون .

وأنا أرى أن من حق يوسف أن يبلغ غلامته لله بواسطة الساق الذى كان معه ، وأن يعمل

على تبرئة نفسه مما ألصق به .

وقد وصف الله المؤمنين بقوله (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ « ٣٩ ») (١) وقوله (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا « ٢٢٧ ») (٢) وإذا كان يوسف لم يستطع أن ينتصر لنفسه بالعمل فلا أقل من القول والبلاغ ، وإذا لم يكن من حق يوسف أن يدفع الظلم عن نفسه فلماذا واجه العزيز في حضرة زوجته بقوله (هـ رادني بن قضى) أليس ذلك دفاعا عن النفس ، وانتصارا من الظالم ؟ فإذا قال للساق (اذكرني عند ربك) فهو يريد دفع ظلم عن نفسه بواسطة رجل أسدى إليه جيلا ، وأحسن إليه أيام إقامته معه بالسجن ، عند ملك هو صاحب الأمر والنهي . وإذا أنسى الشيطان الساق أن يذكر يوسف عند سيده فاعلم ذلك لأن بلاه وفتنته لم تنته بعد ، وقد والله له أن يبقى في السجن بضعة سنين بعد خروج الساق .

وقد يؤيد أن يوسف محق في رفع ظلامته ، وأنها ليست محل غضب الله أو عتبه عليه قوله (فأنساء الشيطان ذكر ربه) أي أن ذلك الانساء الذي سلب على الساق كان من الشيطان ، ولولا أن الذكر كان موضع رضا من الله تعالى ما كان الانساء من الشيطان .
أما ماورد من روايات كرواية ابن جرير وغيره فقل أن يصح منها شيء كما قال أحمد بن حنبل قل أن يصح في باب التفسير شيء .

(هـ) (وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع خيل خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) رأى الملك هذه الرؤيا ، وعرضها على الملأ والأشراف من قومه من علماء وقبرم وطلب منهم أن يفتوه في تلك الرؤيا إن كانوا ممن يعبرون الرؤيا (تعبرون) تذكرون عاقبتها وآخر أمرها كما قول عبرت النهر : إذا قطعت حتى تبلغ آخر عرضه ، ونحوه أولت الرؤيا : إذا ذكرت ما لها وهو مرجعها (قالوا أضغاث أحلام) تخالطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ما جمع من أخلط النبات وحزم ، الواحد ضفت ، فاستعيرت لذلك ، والاضافة بمعنى من : أي أضغاث من أحلام . والمعنى هي أضغاث أحلام ، وقد جمع مع أنها حلم واحد ، كما قول فلان يركب الخيل ، ويلبس عمام الخنز ، لمن لا يركب إلا فرسا واحدا ، وماله إلا عمامة فردة ، تزيد في الوصف ، فهو لاء أيضا تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام ، ويحتمل أن الملك قد قص عليهم مع هذه الرؤيا غيرها .

(وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) إما أن يرهوا المنامات الباطلة خاصة فيقولوا ليس لها عندنا تأويل ، فإن التأويل إنما هو المنامات الصحيحة السليمة ، وإما أن يترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا بتأويل الأحلام مطلقا بعلماء بخار ير (وقال الذي نجا منهما) وذكر بعد أنه أنا أنبشكم بتأويله) الضمير للصاحبين : أي قال الرجل الذي نجا من صاحبين وهو الساق ، وقد تذكر علم يوسف بالرؤيا وتأويله لها بعد مدة : أي أنه لم يتذكر وهو في مجلس الملك الذي وجه فيه إلى الملأ

سؤالهم عن هذه الرؤيا ، بل تذكر قصة يوسف وعمله بعد مدة طويلة من الوقت الذى وقع فيه السؤال (أنا أنبئكم بتأويله) أخرجه بمآل هذه الرؤيا وعاقبتها (فأرسلون) أى الى يوسف فى السجن وسهلا لى طريق مقابلة فيه ، فأرسلوه فذهب إليه وقابله (يوسف أيها الصديق) أى وقال (يوسف أيها الصديق) الخ ، والقصة فيها إيجاز على عادة القرآن أن يحذف من القصة ما يدل عليه السياق ، وفيه دليل على أن العلم يرفع من شأن صاحبه ، ويربجه الناس إليه أى وجد . وحيث حلّ ، وقد وصف يوسف بأنه [صديق] أى كثير الصدق حتى أصبح الصدق خلقا له ، وعادة لما جرت عليه وهو معه فى السجن من صدقه البالغ ، ولما جوب عليه من صدقه فى تأويل رؤياه .

(أفنتا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف) الخ (قال تزرعون سبع سنين دأبا) أى دأبين على عادتك المستورة ، أو هو خبر بمعنى الأمر : أى لزرعوا سبع سنين دأبين على زراعتكم) فما حصدم ففروه فى سنبله إلا قليلا عما تأكلون) أى تركوا ما حصدم من الغلال فى سنبله ثلثا يأكله السوس إذا درستموه (إلا قليلا عما تأكلون) أى فادرسوه ، والمواد أن يزرعوا سبع سنين بجد واجتهاد ، وكل ما جعوه من الغلال يدخرونه فى السنايل حتى لا يضرهم القساذ ، ولا يدرسون منه إلا القليل الذى يحتاجون إليه فى الأكل ، ذلك هو تأويل البقرات السمان ، والسبع السنايل الخضر أولها بسنين خصبة فيها الزرع والخير ، لأن السنين من البقر هو الذى يؤكل ، وهو الذى فيه الخير لأصحابه فى لحمه ولبنه وما يتعلق به ، وكذلك السنايل الخضر .

(ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلهن ماقدمتهم لمن إلا قليلا عما تحضنون) أى ثم يأتى بعد السنين السبع الخصبة سبع سنين مجدية شديدة على الناس يفنين ماقدمتهم لمن : أى يأكل أهلن ما اذخرتم لأجلهن فى السنين الخصبة (إلا قليلا عما تحضنون) تحزرون لبذرو الزراعة ، ذلك هو تأويل البقرات العجاف والسنايل اليابات (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يمهرون) أى ما يصلح للعصر كالعنب والزيتون والمسم ، والمراد بذلك كثرة النعم ، وعموم الخصب فى الزرع والثمار ، فيغاثون فيه بالمطر ، ومتى حلّ المطر حلّ الخصب والخير .

وقد أخذ يوسف عليه السلام من تحديد البقرات والسنايل بالسبع أن سنى القحط سبع ، وأن سنى الخصب كذلك . أما الاخبار بأن يكون عام بعد السبع فيه يفاث الناس فليس فى الرؤيا ما يدل عليه ، فليكن ذلك من إلهام الله ووجه له ، ولو قال ثم يأتى من بعد ذلك وقت فيه يفاث الناس لقلنا ان يوسف فهم ذلك من تحديد البقر والسنايل بالسبع ، ومعناه أن بعد السبع المجذب الماحل يعكسون الخصب المستمر ، أما وقد حذره بالعام ، والعام : هو السنة فلا سبيل الى ذلك التحديد إلا من طريق الوحى أو من طريق اختص يوسف بفهمه . وهو تأويل خبير بهم الملك أن يقف عليه ، ويعلم مصدره ويفين قيمة هذه الرؤيا ، لأنه خطر يهدد دولته وأمنه ، وهو خطر المجاعة التى أخرج عنها يوسف ، ولو كانت مجاعة تبقى شهرا أو سنة لكان الأمر ، ولكنها مجاعة تبقى سنين . والمهم من تأويل يوسف فوق اخباره بهذه المجاعة أنه وصف الملك طريق للخلاص منها ، وثوقها ، حتى لاتقع أمته فى ضيق . ذلك كله مما حمل الملك على أن يطلب يوسف ،

وهو لم يعلم من اسمه أكثر من أنه فني سجين ، وكان يظن أنه سجين بجريمة عادية نسبت إليه كبقية السجناء ، وما كان يدري أن هناك مؤامرة قد دبرت ضده كفاه أمانته وعفته ، وإيقاعه على شرف العزيز ، ومقابلة الاحسان بالاحسان . وجريمة هذه أسبابها لا بد أن يقيض الله للنهم بها من يخلص منها .

(٦) وقال الملك اتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) طلب يوسف لمناسبة تأويله رؤياه الخطيرة ، فلم يكن من يوسف إلا التأتى ، وقال للرسول (ارجع الى ربك) وسيدك وهو الملك (فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) أى ماشأنهم وقصتهم ، وهل لاحظن على يوسف ما يؤيد تهمة امرأة العزيز أو ما يبرئه ؟ ولعل يوسف طلب أن يكون السؤال للنسوة لأنه لم يكن يظن أن امرأة العزيز تعترف أمام الملك بأنها خاطئة ، فكان أمه في النسوة فوق أمه في امرأة العزيز .

وتأمل ذلك الصبر البالغ ، وهذه الإرادة الحديدية التي تجملت في يوسف ، يطلبه الملك من السجن لحاجته إليه ، ومعنى ذلك أن مدة المحنة قد انتهت ، وأذنت بالخروج ، وكان المنتظر أن يتلقى يوسف ذلك الأمر بفرح الصبر ، فيهرول الى الخروج ، ولكن يوسف الصديق ، يوسف المعد لأن يكون رسولا ، يوسف الذى امتحن بامرأة العزيز ورأودته عن نفسه فقال لها (معاذ الله إيه ربي أحسن متواى إنه لايفلح الظالمون) حفظ لربة البيت احسانه ، ولولاه وخالفه فضله عليه ، يوسف صاحب هذا الخلق المتين لم يكن همه أن يخرج من السجن غسب ، وانما همه أن يخرج ظافرا منتصرا ، همه أن يخرج من هذه القتة كالابرز الخالص ، وأن يظهر للجماهير أنه قدوة حسنة ، ومثال صالح فى الخلق وحسن السيرة .

ولو تصور الانسان ما يقاسيه السجين ، وما يلقي من شظف العيش ، وأن يوسف قد لبث فيه بضع سنين بسبب نسيان صاحبه أن يذكره عند ربه وقد أوصاه بذلك .

لو تصور الانسان ذلك كله لعلم مقدار التضحية التي غشى بها يوسف الصديق في ردة رسول ذلك وقوله له (ارجع الى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) ومعنى ذلك أنه لا يريد أن يخرج من السجن الا حيث فقت برأه ، وعلم الناس جميعا أن محبته بيضاء نقية ، لم تندس بشئ من الفار ، وذلك حزم وعزم من يوسف يحفظه له التاريخ ، وحسبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه [لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ^(١)]

وهي شهادة لها قيمتها ، ومنقبة ما أعظمها من منقبة ، تعلمنا كيف يستهين الانسان بالشدة في سبيل طهارة النفس وبراءة العرض ، وترينا أن عذاب الجسم وإن عظم دون عذاب الروح ، فإن عذاب الجسم الى زوال ، أما عذاب الروح ، وألم الضمير ووخه فهو عذاب الأبد فلا يوازيه شئ من عذاب الجسم ألا ترى الى المؤمنين فى كل زمان يستهينون بعذاب أجسادهم فى الجهاد والحرروب فى سبيل راحة قلوبهم ، وقيامهم بواجبهم نحو دينهم وديارهم .

وقد ترى فى الرجل مالا يحصى من الضربات والطعنات ويبلغ به الألم الجسمانى ما يبلغ ، وهو

راض مطمئن ، لأنه في سبيل راحة قلبه والطمئنان نفسه ، ولا عجب فهو أكم موقت في سبيل نعيم دائم ، وهو كابتلي الرجل العمليات الجراحية وفيها شق بطن أو بتر عضو من أعضائه برابطة جأش .
وقب راض في سبيل أن يعيش بعد ذلك عيشة مريحة ويحيا حياة هادئة مطمئنة .

وقد حدثنا التاريخ عن سلفنا الصالح أن الرجل كان ينتهي من ميدان القتال وفيه من أثر الطعن والنزال ما يودى بحياته ، ويمرّ عليه صاحبه وهو يلفظ النفس الأخير ، فيأخذ في تسليته فيلقاه مقتبطا بحاله ، مسرورا بما آل إليه ، لأنه مات في سبيل الواجب ، وقتل لأعلاء كلمة الله ، وسيموت شهيدا يشهد له دمه وعمله ، وسيكون قدوة صالحة لمن يأتي بعده .

كل ذلك في سبيل راحة النفس وسعادتها ، وكل ذلك في سبيل حياة طيبة تتبع هذه الحياة ، وكل ذلك في سبيل الله كرى الطيبة والسيرة الحسنة .

فبي الله يوسف يضرب لنا ذلك المثل وهو رضاء بالسجن حتى تظهر براءته لبرئنا أن شظف العيش ، وخشونة الحياة ، وحزمان الرجل من ذلك العيم الذي نرى : سهل وهين في سبيل السيرة الطيبة ، وراحة القلب ، وأن تعلم الناس أن السجن يرى عما نسب إليه ، بعيد مما رعى به .
وهكذا يجب أن يضفي الناس براحة أجسامهم في سبيل راحة قلوبهم ، وأن يفضلوا الحياة اختسنة التي فيها كرامتهم على الحياة الناعمة إذا كان فيها مساس بتخلفهم .

وقد نلح من خلق يوسف المتين ، وارادته الحديدية ، وصبره على المكروه ، واحتفاله في سبيل الكرامة وحفظ الخلق - قد نلح من ذلك سلوة الزعماء وهم في غيابة السجون ورضاهم وهم مكبلون بالسلاسل والأغلال ، وطمأنينة نفوسهم وإن كانت أجسامهم في شقاء ، وثبات أفتدعهم وإن كانت أجسامهم في عناء .

فم قد يكون ذلك في الزعماء ماداموا مؤمنين بصحة مبادئهم ، موثقين بأن حقهم سينتصر على باطل غيرهم ، واثقين بأن الله ناصرهم ومؤيدهم ، فإذا جادهم رسول وهم في السجن يساومهم على بلادهم في سبيل راحة أجسامهم رفضوا ذلك باباء وشتم ، وقالوا للرسول كما قال يوسف أرجع الي ربك وقل له (رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) ولا سبيل الى المساومة في مصالح البلاد ، ونكون خائنين للأمانة التي وضعت في أعناقنا ، والمهد الذي أخذناه على أنفسنا ، إذا نحن أثرتنا راحة أجسامنا على راحة قلوبنا وضايرنا ، ونكون ملامسا وقدوة غير صالحة إذا نحن أجبنا الى ماطلب ، وقدعنا عذب الناس في سبيل مبادئهم ، فكان عقابهم نصرا لها ، وتأييدا ، وكان سجنهم إطلاقا للبلاد من أغلالها ، وفكها لها من قيودها وسلاسلها .

وليقلوا الرسول الغائب : ان لنا قدوة حسنة في نبي الله يوسف ، وضعته الشهوة الجامحة في السجن ، فلما طلبه الملك لعله وفضله ، قال له لا أخرج من السجن إلا حيث أجبني طلبي ، وهو أن تسأل النسوة عن أمري ، ليخبرنك أبري أنا أم مجرم ؟ وهل سجنى كان ظلما أم حقا ؟ فلتكن إجابتنا لك كاجابة يوسف لرسول الملك : لا نخرج من السجن إلا إذا نظر الذي أرسلك في مطلبنا ، واعترف بأننا محقون لمبطلون ، وأتأثيريون لامتهمون ، وإذا لم نستطع أن نكون كنيي الله في إشار السجن الى أن نجاب الى ما نطلب فلتكن كنيي الله في أن لا يكون خروجنا

من السجن في سبيل عمل هو ضارّ ببلادنا ، وله مساس بخلفنا زكرامتنا ، فلا أقلّ من أن نخرج كرماء كما دخلنا ، لم تقسب لآمتنا في ضرر ، ولم تخلف لها عارا ، وذلك أقلّ ماتطلبه الزعامة من حق ، وماتوجه من فضحية - اما أن ندخل السجن لأننا نطالب بحق ، ونخرج منه لأننا اعترفنا بأننا معطشون فيها نطالب به فذلك ما لا يليق بزعيم ، ولا ينبغي لمن يعرف لنفسه كرامة .

(٧) فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم) طالب رسول الملك أن يرجع الى ربه وهو الملك الذي طلب يوسف ، وأن يسأله عن النسوة اللاتي كنّ مع امرأة العزيز وقطنن أيديهن ماشأنهم ؟ والمراد تبيح الملك ليقف على حقيقة الواقعة التي تتعلق بيوسف في ذلك الوقت الذي يحتاج اليه فيه ، وقوله (ان ربي بكيدهن عليم) أراد به مولاه وخالفه ، فهو عليم بكيدهن ، وسيجزيهن على ذلك الكيد ، أو أراد به العزيز ، علم كيدهن عند وقوع الحادثة ، وشهادة الشاهد أمامه ، وقال بعد شهادة الشاهد (انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) ولك أن تقول : انه أراد بالرب الملك ، وأنه عليم بكيد النساء .

ومن أدب يوسف مع امرأة العزيز أنه لم يذكرها بسوء أمام الرسول ، ولم يعرض لها في القصة وكأنها أجنبية عنها ، بل طلب من الملك أن يسأل النسوة .

(قال ما خطبك إذ راودتني يوسف عن نفسه) أي فأحضر الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز . وسألهن ذلك السؤال .

وقد أضاف المراودة الى النسوة جميعهن لأنهن راودنه لأجل امرأة العزيز ، لا لأنفسهن ، وقلن له أطع مولانك وسيدتك ، متعاونات معها على الاثم ، مشتركات في الحرمة ، لذلك نسب المراودة اليهن .

أما القول بأن كل واحدة من النسوة راودت يوسف عند الوليمة التي أقامتها امرأة العزيز فهو بعيد ، لأنهن في ضيافتها . أولا فلا يشاركنها في معشوقها ، ولأنهن رأينه لأوّل مرة يمرّ عليهن . ثانيا لم تجر العادة بأن امرأة تراود رجلا أو فتى لأوّل مقابلة ، فالظاهر أن المراودة كانت ممنون لأجل امرأة العزيز ، أولم يكن ممنون مراودة ما وانما كان ممنون رضا واقرار لما فعلته امرأة العزيز في قولها (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) وقد عهد اضافة الفعل الى الراضى به ، وعقوبته عليه لجريمة الرضا .

وقد نسب الله تعالى الى قوم صالح أنهم عقروا الناقة ، وما عقروا إلا واحد منهم ، ولكنهم لما رضوا بذلك العمل المنكر وأقرّوه ، وكان في استطاعتهم انكاره نسب العقور إليهم جميعا ، ليرينا أن الأمة متضامنة متكافلة في خيرها وشرّها ، وأن على الناس إذا راؤا منكرا أن يضربوا على يد صاحبه ، وإلا عمهم الله ببذاب من عنده .

وأولئك النسوة لم يلفظ الله تعالى عنهن الانكار على امرأة العزيز عند ما قالت (وإنني لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) بل حدّثنا القرآن أنهن أخذتهن نفسوة الجبال ،

وزهلن عن أنفسهم عند مرور يوسف عليهم ، وأن امرأة العزيز استطاعت أن تعثر الى نفسها أمامهم حيث علمن بيوسف الى ذلك الحد الذى أنساهن أنفسهن حتى قطعن أيديهن ، واستطاعت أن تقطع أنفسهن عن الكلام فى شأنها ، والتحدث فى قصتها ، وكأنها تقول لمن لم تستطعن أن تثبتن أمام جمال ذلك الفتى لأول مرة مرة عليكم فيها ، فلتعترننى وقد عاشرته المدة الطويلة وصبرت عليه ذلك الزمن ، فهن راضيات عن عمل امرأة العزيز مع يوسف ، وتهديدها له ، بل وفوق الراضيات ، ولو كن فى مركز امرأة العزيز لقطعن كما فعلت ، وأكثر مما فعلت .

فلا عجب أن ينسب الملك المراودة إليهن جميعا مع أن الذى راود يوسف هو امرأة العزيز وحدها . (قلن حاش لله ماعلنا عليه من سوء) وحاش لله : كلمة تنزيه ، والمراد تنزيه الله أن ينسب سوءا ليوسف ، كأن نسبة سوء إليه ضرب من المحال ينبئ تنزيه الله عنه ، والمراد منها مع التنزيه التعجب من عفته وتزاهته (ماعلنا عليه من سوء) أى من أى نوع من أنواع سوء كما يعطيه لفظ «ومن» الدال على التفي المستغرق (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) حصحص : أى ظهر الحق أجردا لمرد لا نستره شبهة ولا تهمة : كما يحصى ويسقط الشعر أو ريش الطائر . أثبت واستقر ، من قولهم حصحص البعير إذا أتى مباركة للانخا فالكلمة بمعناها أبلغ ما يعبر به عن المعنى المراد فى هذا المقام ، وكانت حصصة الحق وظهوره بما ظهر من وقائع القصة ، وهى فرار يوسف منها [أولا] ومن إشارته عبثة السجن البائسة فى خشوتها ومهابتها على عبثة القصور العالية فى نعمتها وزينتها [ثانيا] ومن شهادة النسوة اللاتى تصبنه [ثالثا] (أنا راودته عن نفسه) مغالبة على نفسى ، فائدة لقلنى وشرفى وحسبى (وايه لمن الصادقين) فى قوله (هى راودتنى عن نفسى) .

قال المفسرون : لما راى يوسف حومة سيدته فى قوله (مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) دون أن يقول مابال زليخا أرادت أن تكافئه على ذلك الفعل الحسن ، فأزالت الفطاء واعترفت بأن الذنب منها .

ونظيره ما يحكى أن امرأة جاءت بزوجه الى القاضى وادّعت عليه المهر ، فأمر القاضى بأن يكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من أداء الشهادة ، فقال الزوج : لا حاجة الى ذلك فأنى مقرر بصديقها فى دعواها ، فقالت المرأة لما أكرمنى الى هذا الحد فاشهدوا أنى أبرأت ذمتى من كل حق لى عليه اه .

يريدون أن امرأة العزيز لما رأت أدبا جانا من يوسف قابلت ذلك الأدب بتلك الشهادة (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان «٦٥» ١١) ولم يكن ذلك أول أدب رآته من يوسف فان الفتى الذى يؤدبه ربه ليصطفيه لرسالته ، ويهديه ليختاره وسيطا بينه وبين خلقه ، لا ينتظر منه إلا أن يكون مؤدبا ، وهل أوقعه فى هذه المحنة مع امرأة العزيز إلا أدبه مع مولاه الذى قال لامرأته (أكرمى متوا) .

ولو أن امرأة العزيز أرادت أن تقابل يوسف بتل ماضل ، وتجزيه على أدبه جزاء وفقا ،

ما وقتت منه هذه المواقف ، ولكن سلطان الجلال ، وضعف الخلق ، وسوء التربية ، هو جعلها تسقط هذه السقطة ، وتكبر تلك الكبرياء ، وقد لا يكون في حسابها أن تسيء إليه ، ولكنها الشهوة الجاهلة ، والمحبة العمياء ، وغرورها بنفسها وسلطنة زوجها ، أوقعها فيها أوقعها ، ووصلت بها الى ما وصلت ، فلما عاد إليها رشدها ، ويشت من الحصول على غايتها ، ووصلت المسألة الى الملك وطلب النسوة ، وألحقن عما يعلمن في يوسف ، وظهر للناس من أمر يوسف ما يثبت براءته رأت أن تعترف بالحق وتبرئ ساحة ذلك التقى المتهم فقالت (الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه) ولم تقف في تركيتها ليوسف عند ذلك الحد ، بل جعلته في عداد الصادقين في كل ما يقول ويفعل ، وهي شهادة لها قيمتها من امرأة العزيز أمام الملك ، بعد شهادتها ببراءته أمام النسوة ، وقولها لهن (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى امتنع بقوة وشدة ، فوق براءة يوسف أمام العزيز عقب حادث المراودة ، فالنسوة سمعن من امرأة العزيز براءته ، وشهدن أمام الملك ببراءته ، وامرأة العزيز اعترفت أمام الملك بالبراءة ، والعزيز علم من تحقيق تهمة المراودة ، وشهادة الشاهد أن يوسف برىء ، والله شهد له بعد هذا وذاك [وطوبى لمن شهد الله له] ، أنه صرف عنه سوء والفضحاء وأنه من عباده المخلصين ، فإذا بقي بعد هذا من شبهة توجه الى يوسف ؟ أو محاكمة يتعلق بها الكاذبون والمؤلفون ؟ .

(ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم) من كلام امرأة العزيز ، لأن ذلك وقع وهو في السجن ينتظر جواب الرسول ، والضمير في (يعلم) ليوسف : أى أنها أقوت بزناحته وعفته وهو في السجن ليعلم أنها لم تتكلم فيه وهو غائب بباطل حتى تكون خاتنة له ، لأن الله لا يهدي كيد خائن ، وكأنها تلوم نفسها على تلك الخيانة التي خانتها لخادماها الأمين ، وفتاها المطيع ، إذ ألصقت به تهمة هو برىء منها ، كما تعسف نفسها على خيانة زوجها العزيز إذ راودت فتاها عن نفسه ، وذلك خيانة له ، وتعبط يوسف على أمانته وعفته في بيت سيده الذي أمرها أن تسكرم مشواه ، كما تقبضه على أمانته مع ربه وخالفه في قولها (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) وكأنها تقول : ان الله تعالى لم يوفقها في كيدها ليوسف ، لأنه كيد أساسه الخيانة ، وكيد ذلك حاله لا يهدي الله صاحبه ولا يوفقه للنجاح ، أما الكيد الذي أساسه الإصلاح ، وتثبيت الفضيلة في الأرض ومحاربة الفساد ، فإنه كيد محمود ومكر حسن .

وجدير بذلك الكيد أن يؤيده الله وينصره ، كما يترك الرجل الربى بولده ليصرفه عن الفاحشة ، ويحوّله إلى الطاعة ، وكما يترك الله بأعداء الرسل ويدير لهم ، لينصر الحق ، ويخذل الباطل (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين « ٥٤ ») (١) لأن مكروه للإصلاح ، أما مكروهم فهو للإفساد ومحاربة الرسل .

ثم ترينا الآية الكريمة [وفيها الشهادة ليوسف من امرأة العزيز بالصدق والعفة] أن الله تعالى وضع في نفوس النسوة إجلال الأتقياء وإكبارهم ، وإن لم يضع في قلوبهم محبتهم ، فأمرأة

العزيز على حومانها من طلبها ، وتصف يوسف عن تمكثها من شهوتها ، وذلك من شأنه أن أن يوغر الصدور ، ويلاها حقدا وحقا ، وهو مادعاها الى أن تلصق به من التهم ماهو منه برى . شهدت له في النهاية بالصدق والعفة ، واعترفت له بالكرامة ، وهي تحله من مويدها القلب المحل الأول في الاحترام والاحلال .

وتلك آية من آيات الله في الفرق بين أهل الاستقامة وأهل الفسوق والفجور ، أودع الله في قلوب الناس اجلال المطيعين ، واحترامهم ، حتى من الفسقة والفجرة .

وانك ترى ذلك ظاهرا جليا في طبقات الفراشين والبوايين قرى المستقيم منهم يهابه سيده ، ويخشاه رب البيت ، ويعمل لضبه حسابا أى حساب ، وإن كان سيده فاسقا ، ورى سيده الفاسق على العكس من ذلك ، تراه صغيرا في نظر بوابه ، مهينا عند فراشه وسائر خدمه ، حتى ولو كانوا فسقه يشتركون معه في الفسق والفجور ، (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم) من تمة كلام امرأة العزيز تقول فيه : انها لم تبرئ نفسها من الائم ، ولم تنزههم عن الفاحشة ، لأن النفس أمارة بالسوء ، فهي لم تخرج عن أنها امرأة غير مصومة ، عرضة للعصيان ، فاذا نسبت الى يوسف تهمة هو برى منها فذلك من نفسها الأمارة بالسوء (إلا ما رحم ربي) بالعصمة من المحرمات (إن ربي غفور رحيم) رجوع منها الى الله تعالى في أن يغفر لها ما سلف ويرحمها في جملة من يرحمهم .

(٨) (وقال الملك اتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلفه قال إنك اليوم لدينا مكين) .

بعد أن ظهرت براءة يوسف بما نسب إليه ، وخرج من الفتنة مرفوع الرأس وضاء الجبين ، وبعد أن طلبه الملك ليخرج من السجن فأبى ألا تظهر براءته مما نسب إليه ، بعد ذلك كله طلبه الملك ليستخلصه لنفسه : أى يجعله خالسا له من شائبة الاشتراك ، وقد كان يوسف قبل ذلك خالسا للعزيز (فلما كلفه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى فلما حضر يوسف من السجن وكله الملك ، وعرف مواهبه وكفائته ، قال إنك اليوم عندنا (مكين) صاحب مكانة ومنزلة (أمين) على كل شيء يسند إليك ، لأن الهى اتّمن على امرأة سيده عند طلبها الفاحشة ، وبعد أن غفلت الأبواب وقالت له (هيت لك) ولم يكن له فيه مانع من الفاحشة سوى نفسه التى بين جنبيه وضيق الهى يتوعده بالتأييب والتوبيخ - ان الذى يؤتمن فى مثل ذلك الوقت الذى مهدت له فيه وسائل المعصية ، وأزيل من طريقها كل عقبة ، وقد طلبته إليها سيده ومولاه فيقابلها بالفور والاشترار ، ويستصم من المعصية فى قوة وشدة ، الذى يصنع ذلك كله ، ويؤثر حياة السجن على المعصية ، وشظف العيش فى سبيل مرضاة الله على نعيمه فى سبيل مرضاة الشيطان : جدير بالملك أن يطلب أن يكون بطانة له خالصة من دون الناس ، يأتمنه على أسراره ، ويأتمنه على شئون دولته ، ويأتمنه على خاصته وآل بيته ، ولذلك أطلق فى قوله (أمين) ومعناه أمين على كل شيء يؤتمن عليه ، فانه لاشيء أصدق من التجربة ، ولا أدل من الفتنة ، والأعصير تمر بالانسان ، فيخرج منها إما منزعزع العقيدة ضعيف الارادة ، واما ثابت القلب رابط الجأش ، قد صهرته الشدة ، وصلته الحوادث ، ومحمت نفسه الشدادت ، وأصبح رجلا عظيما مستقما لاطوارى ، مهيتا للاحداث .

وقوله (فلما كلمه) يشير الى أن الملوك من شأنها اذا سمعت برجل نابه وشاب مثقف ، خير بالشئون العامة ، يستطيع أن يستفيد منه الملك في مهام دولته ، وأن يستعين به على المشاكل التي تعرض له - من شأن الملوك الذين يحرسون على مستقبل دولتهم ، ويعملون على أن يبقى الملك فيهم ، أن يتخبروا لمملكتهم أصلح الناس ، وأعلمهم بشئون الحياة ، وأدراهم بقضايا الأمور . ومن الملوك من يحقد على الرجل النابه ، ويتألم من ذائع الصيت ، ويتأف من حسن الملك وكان الرجل المكف في أمته عدو من أمة أعدائه ، وخصم من خصومه ، وما درى أنه قوة من قواه وعدة ينفعه وقتما ، وأن العلم في كل زمان لا غنى للناس عنه ، والكفاءة في الرجال من تنفع بها السولة ، وتسود بها البلاد ، وأن الفقر المدقع ، والنقاء الذي لا يدانيه شقاء ، في خلوة السولة من رجال ذوى كفاءة ومقدرة في شتى الشئون ، ومختلف العلوم ، وأنه لا تستوى أمة غنية برجالها وعلمها ، وأمة فقيرة في العلم والرجال ، وما سبقنا القرييون إلا بفنهم برجالانهم ، وعولمهم النافعة المفيدة ، وما تأخر المسلمون إلا بفقرهم من هذه النواحي .

ولو أن ملوك المسلمين تأسوا بذلك الملك الذي طلب يوسف ليستخلصه لنفسه ، ويدخره للملمات ، لو أنهم تأسوا بذلك الملك ، فاحتضنوا النابه من أمهم ، والكف من رجالتهم لسعدوا وأسعدوا شعوبهم بذلك العمل ، ولكنهم مع الأسف الشديد يستخلصون من يوافقونهم على شهواتهم ، ويطاوعونهم على أهوائهم ، ويسارعون إلى إشباع نهمهم ، وسد مطامعهم ، يستخلصون من القوم أدرانهم نفسا ، وألأمهم طبعاً وأكثرهم نفاقاً ، وأبعدهم عن الأمانة ، وعزة النفس ، وهم الذين إذا استشارهم الملوك ضلّوهم ، وإذا استصحبوهم خانوهم ، ويصوّرون لهم النابه من الأئمة بصورة إشعة ، ويعملون على أن يجعلوا بينه وبين الملك سداً كما يصوّرون نهضة الأئمة التي فيها حياتها وحياة ملكها بصورة تنقّذ منها النفوس ، وتأف لها الطباع ، ويجهدون في أن يضعوا الأشواك والعقبات في سبيل هذه النهضة لدى الملك ، ويفهمونه أنها حركة يراد بها التمر ولا يراد بها الخير فيحولون وجهه عنها ، ويصرفونه عن العناية بها .

وكان هذه البطانة فهمت أن النصح لا يفسيفه الملك ولا يتقبله ، فآثروا عليه الفتن ، وعلمت أنها إن أظهرته على أمور الدولة على حقيقتها سوف يضلّه شخص آخر ، فيعود على البطانة باللائمة ، ويسقط فيها الفتن والتدليس .

لذلك رأت أن تؤثر عليه من الناحية التي يعمل إليها ، وتصل إلى محبته لها من الطريق الذي ترى أنه أدق لوصولها ، ولو أن تلك البطانة انتقلت إلى ملك مصلح لاسرعت إلى الإصلاح والدعوة إليه ، وحبيته في ذلك العمل . لأنها تعرف من نفسه ميلاً إلى الإصلاح .

وجلة القول أن بطانة الملوك اليوم إلا القليل منها تأخذ من نغية الملك وتشير عليه ، ومن مبوله فتتصلح له ، فما تأمر به البطانة هو ما يهواه الملك ويحبه ، وما تنهى عنه البطانة هو ما يقيضه الملك ويكرهه ، فهي تردّد صدها في أمرها ونهيها ، وتنطق بأمره في ترغيبها وترهيبها ، فليس لها كلمة مع الملك ، ولا تستطيع أن تقول له إن ما تشير به قد خفي عليك وجه المصلحة فيه ، وأن

الخير في تركه ، وما انتهى عنه الخير للناس في العمل به ، لأنها قبلت ذلك العمل على هذا الأساس وهي أنها لا رأى لها مستقلا ، ولا كلمة لها اذا كانت تنضب صاحب الأمر والنهي ، ومن دخل عملا على أساس أنه لا رأى له فيه ولا إرادة ، بل إرادته تبع لإرادة الغير ، وتفكيره كذلك ، لا فني له عن التزام ما دخل على أساسه .

وما انتهى يقتظر من رجل يريد أن يعيش من ذلك الطريق ، وأن يثرى على أساس مثل هذه الوظائف ، لا ينتظر من ذلك السنف إلا أنه يفسى نفسه واستقاله في سبيل حصوله على الحطلم وأنه يرى الحق مهين الجناح ضعيف الجانب فلا يستطيع أن ينصره بكلمة ، وأنه يرى الباطل قد طغى على الحق ، فلا يجد من نفسه شجاعة على كلمة حق ، لأنه يتوهم أن في كفته إغضايا للملك ، وهو حريص على رضاه .

أما البطانة التي تتصل بالملوك من غير طريق الوظائف فقد يربى فيها ما لا يربى من بطانة الموظفين ، فاتهم اذا نصحوا لا تخشون ضيلع رزق أو فوات مال ، واذا غضب الملك لتسيحهم اليوم فيبعضى عنها وقتا ، وكذلك البطانة التي يختلها الملك بعد الاختبار ، ويصطفها لنفسه بعد التجربة الصحيحة كيوسف فانها تستطيع أن تصل الى ما لا تستطيعه البطانة الأولى ، وأن الملك الذي يوفى الى بطانة من ذلك السنف هو الملك الذي أراد الله بملكه خيرا .

يحدثنا أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق : إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإن أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء : إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يمه .

وروى البخاري عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف ونهيه عنه ، وبطانة تأمره بالشر ونهيه عنه ، والمصوم من عصمه الله » .

(٩) قال اجعلني على خزائن الأرض (إني حفيظ عليم) من حق يوسف بعد ذلك البلاء الطويل ، وبعد مرور فتن كقطع الليل المظلم ، وبعد هذه التجارب التي عرّفته كيف يكيد الاخوة لأخيه ، وكيف يفعل الحسد بالنفوس ، وكيف يفعل مكر النساء بالرجال الأبرياء ، والنفوس الطاهرة - من حق يوسف بعد ذلك كله ، وبعد أن قال له الملك (إنك اليوم لدينا مكين أمين) أن يطلب منه ذلك الطلب ، وهو أن يجعله وزيرا على خزائن أرض مصر ، يتولى تدبير شؤونها ، ويحفظ خيراتها ، ويستعد للخطر الداهي سيهاجم المصريين في سنين القحط وأخبر به الملك في تأويل رؤياه .

(إني حفيظ عليم) تقليل لجهله على خزائن الأرض بأنه يحفظ ما استخفظه عليه من شئون الدولة ، عليم بتصرف الأمور وإدارتها على وجه مرضي لا انكالم فيه ولا تعقيد ، ومنهم من يفهم من قوله (على خزائن الأرض) اجعلني وزيرا لمالية مصر ، لأن الخزائن جمع خزنة ، والشأن في الخزائن أن يودع فيها المال ، وقوله حفيظ : أي أمين على المال ، لا أبصره في الشهوات (وعليم) عندي علم بجميع المال وتصرفه ، ولا شيء يحتاجه الوزير أمم من أمانته وعلمه ، ولا فني

لأحدهما عن الآخر ، فقد يكون أميناً ولكنه جاهل ، فيضيع مال السولة بجهله ، وقد يكون عالماً ولكنه خيث النفس خائن ، فيبعثر المال في شهوته ومصالحه ، وقدم الصفة الأولى وهي قوله (حفيظ) ليرينا أنها أهم شيء في الوالي أو الوزير ، وأن الفاقد للأمانة خطر داهم على السولة وموافق البلاد ، وإذا كان عالماً مع فقدته لذلك الوصف كان خطره أشد ، فيستطيع أن يلعب بمال السولة ، ويستخدم علمه ومواهبه في تضليل الناس وتليس الأمور عليهم ، أما الأمين إذا كان جاهلاً وغلط كان غلطه عن حسن نية وقصد حسن ، وقد يتنبه إلى غلطه فلا يعود إليه بعد ، وكل من جرت الأمانة على الوالي أو وزير المالية الخائن من خيانات ، ووقفت له على فضائح وعجائز ، كل ذلك لأن أصل السولة لم يسند إلى وزير صالح في خلقه وأمانته ، بل أسند إلى لئس من اللصوص غير أنه لئس لم يتعود أن يدخل السجون ، لأن عنده من الحصانات والوظائف ما يفرق بينه وبين لصوص السجون ومجرميها .

وكان من حق الناس أن تعتبر بقول يوسف لذلك (إني حفيظ عليم) ليريه أن من فيه ذلك الخلق ، وذلك العلم ، فهو أولى بأن يلي أمور الناس ، ولا سيما ما يتعلق بحياتهم ومعاشهم : وهو المال ، وإن من فقد ذلك الخلق لا يليق لذلك المنصب ولا ينبغي له ، بل يجب أن يطرد عن تلك الساحة طرداً ، وأن يحال بينه وبينها بشئ الوسائل ، ومختلف الطرق ، فيوسف الصديق بين الملك كيف يختار الوزراء ، ويعلم كيف يرشح لهذه الوظيفة ، ويريه أن الأساس الأول لذلك هو الحفظ والأمانة ، والأساس الثاني هو العلم والبراعة ، ولا غشاضة على الملك في أن يسمع من يوسف ، وينفع بنصح يوسف ، يأخذ بمشورة يوسف ، فانه ملهم من الله ، ومؤيد منه ، ومن كان كذلك أخذت عنه الحكمة والعلم النافع المفيد .

وفي مطالبة يوسف للملك أن يجعله على خزان الأرض لأنه حفيظ عليم دليل على أن المستعد لعمل ما له أن يعرض نفسه على صاحب الشأن فيه لاختباره ، وليس في ذلك غشاضة عليه ، فالذي يحسن علماً من العلوم ، أو صناعة من الصناعات له أن يعرض نفسه ليفيد ويثمر فيها علم وأتقن ، والذي يجد من نفسه استعداداً للنيابة عن الأمة يعرض نفسه عليها وبين لها ما يتنازع به على غيره من علم أو صناعة أو فن من الفنون التي تحتاجها الأمة وتحتاج من يحققها ويتقنها ، والذي يجد من نفسه استعداداً لأن يقضى بين الناس ويحكم بينهم له أن يطلب القضاء ، ويبين مواهبه ، وما حصل عليه من شهادات .

وماورد من النهي عن طلب الامارة والحرص عليه وكذلك القضاء فمحمول على الرجل الذي ليس مستعداً ولا يستطيع أن يقوم بأعبائها ، ويدل لذلك أن أباً ذرّ الففاري طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله أملاً وأميراً ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكبه ، وقال : يا أباً ذرّ أنتك ضعيف ، وانها إمارة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها . رواه مسلم .

فما دام الإنسان يأمن من نفسه الضعف ، ويعلم أنه لا يستطيع الاضطلاع بالعمل الذي يطلب فن الانصاف أن لا يطلبه ، لأنه إن أجيب إليه والحالة هذه كان وجوده في ذلك العمل الذي طلب

ضارا بمرافق البلاد ومصالحتها ، وفوق ذلك كان قبوله لتلك العمل تعطيلاً لمواهب الرجل الكفء ، وحرماناً للبلاد منه ، ولو أن الناس فطنوا لتلك وتوجه كل واحد لما يحسن من الأعمال ، وما يتقن من الفنون لاستراحوا وأراحوا .

فيوسف عليه السلام يضرب لنا هذا المثل ، ويطلب من الملك في شجاعة وجرة أن يجعله على خزائن الأرض ، ويعلل طلبه بأنه حفيظ عليم ، لتأسي به في ذلك ، ونطلب من ولاة الأمور أن يضعوا كل واحد فيما يحسن .

أما أن يطلب الرجل العمل ليعيش منه وإن كان يجعله [وهناك من يعلمه من القوم] فذلك مالا ينبغي ولا يليق . وكما لا يليق بالرجل أن يطلب ما لا حق له فيه كذلك لا ينبغي أن يجاب الى ذلك الطلب ، ولكن الناس غفلوا عن كل هذا ، فأخذ كل واحد يطلب ما يحسن وما لا يحسن ، وقد يجد ذلك الشيء من ولاة الأمور من يشجعهم على عيشهم ، ويبيحهم الى طلبهم .

ومن غريب ما رأيت فيما يشبه ذلك ويقرب منه أن رجلاً من المطر بشين قابلي يوماً ما ، وطلب أن يعرف بيتي ليعمل موعداً يجتمع فيه ، فسألته عن سبب طلب الموعد ، فقال : ان له مؤلفاً يريد عرضه على . فسألته في أي فن ذلك المؤلف ؟ فعرفني أنه في علم العقائد ، فدهشت ، وسكت طويلاً ، لأني أعلم أنه كاتب عادي في إحدى الوزارات ، وترقى تربية عامة كما يرى طلبة المدارس الابتدائية ، فقلت له وضروري أن تنشر ذلك المؤلف ؟ فقال نعم . وبعد أخذ موعد متى لم يحضر فيه ، وكأنه فهم من طجة الكلام معه استنكارى عليه أن يدخل نفسه في عداد المؤلفين .

وبعد أيام حضر عندي بالملز وقدم لي نسخة من الكتاب ، وليس في الكتاب جديد ، وإنما هو قطع من مجلة كتب ، قد ضم بعضها الى بعض فاعتقد أن مثل ذلك يسمى تأليفاً .

والقرآن الكريم يلفتنا دائماً الى الرجوع الى الرجال المختصين في العلوم والفنون ، وأن نسال أهل الفكر ، وأن نأتي البيوت من أبوابها ، ونبناها أن تأتيها من ظهورها ، ومعنى يتن الله على الأمة بالوقوف عند تعاليم القرآن ، والانتفاع بحكمه وأحكامه .

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) أى مثل تمكيننا له بانجائه من الحب وتخليصه من السجن وتزيينه في عين الملك ، (مكنا له في الأرض) وثبتنا قدمه بها ، أو المعنى وعلى ذلك الأسلوب الذي سمعت من التدرج يوسف ، والتلطف في مسألته ، إذ ألمعنا واحداً من اخوته أن يقترح عليهم أن يجعلوه في غيابة الحب ، وسخرنا له من التقطه منه ، وباعه لعزير مصر ، ثم حينئذ فيه ، ثم أنجينا من كيد امرأته ، وأعانه على أن يصير في السجن بعد أن طلبه الملك حتى وضع أمره ، وذاع صيته ، وطلبه الملك ليكون صفياء له من دون الناس .

بهذا الأسلوب اللطيف والتدبير الخفي الذي لا يعرف ما فيه من عبر سوى الخاصة من الناس ، مكنا ليوسف في الأرض ، ومهدنا له طريق الملك والسيادة ، وهو الذي تدل عليه الآية في آخر القصة (إن ربى لطيف لما يشاء) يريد أنه إذا شاء أمرها دبر أسبابها ، ووضع مقتداتها ووسائله ، وهو لطيف في صنعه ذلك ، ينفذ بلفظه في بواطن الأمور بدقة وخفاء ، ولذلك ختم الآية بقوله (إنه هو العليم الحكيم) .

ولاشك أن من يحيط علمه بالأشياء جليلها وحثيرها ، خفيها وظاهرها ، وهو مع ذلك حكيم في صنعه ، لا يعمل إلا وفق المصلحة ، هو لطيف لما يشاء ، وهو يقرب من قوله في آية أخرى (ومكروا مكرا ومكروا مكرا وهم لا يشعرون) غير أن اللطف يمتاز بأن معه رفيقا بخلقته في تديره ، ووجههم في الوصول الى ما يريد ، فلطفه تديره الخفي في رفق ولين .

ويؤيد ذلك المعاني الواردة في اللطيف ، فمن معاني الشفاف الذي لا يحجب ما وراءه كالزجاج والماء النقي والماء الذي له هذه الصفة لا يرى له لون ، ومن معاني الصغر الذي بلغ في صغره الى حد لا يمكن الرأى من رؤيته ، أولا يمكنه من الاحساس به ، ومن معانيه أنه مقابل للشيء المادى كالروح وكل ما وراء المادة ، وهي معان يجمعها معنى الخفاء والدقة - ذلك هو المتبادر من كلمة (وكذلك) وإلا فمن الذي كان يشعر أن حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له كانت سببا في وصوله الى بيت من بيوت مصر الكبيرة ، ومن الذي كان يشعر أن تهمة امرأة العزيز له كانت سببا في إعلاء شأنه وذبوع صيته ، ومن الذي كان يحس أن وجوده في السجن كان مدعاة لتعريف الملك به ، واصطفائه لنفسه ، كل ذلك من المقدمات التي لاصلة بينها وبين نتائجها في بادئ الرأى ، وهي تلخص في أن يوسف حسده إخوته ، فكان بذلك الحسد وزيرا لمصر ، له الأمر والهي .

(١٠) (يقبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) .

ربنا الله تعالى أنه مكن ليوسف في الأرض يقبوا منها من الأمكنة ماشاء ، ومعنى يقبوا يتخذها مباءة ومسكنا له ، والمراد أنه مسلط على أروض مصر جميعها لافرق بين مكان ومكان (نصيب برحمتنا من نشاء) أى نصيب بعبادتنا في الدنيا من الملك والغنى من نشاء من الأفراد والجماعات مما اقتضت الحكمة أن تعطيه إياها كما قال (وكل شيء عنده بمقدار » (١)) أى بنظام وسنن لا يتخطاه ، ولذلك عقبه بقوله (ولا نضيع أجر المحسنين) أى ان عدل الله وحكمته يقضيان بأن لا يضيعا أجر محسن ، فمن عمل للغنى بإحسان واتقان حصل عليه ، ومن عمل للعلم بالتعلم تعلم ، ومن أحسن الى ربه وخلقه في غيبته وحضوره حبه الى النفوس ، وسهل له الأمور ، وتولى أمور الناس وحكمهم ، وفي هذا تحرير على العمل الصالح ، وأنه ينفع في الدنيا قبل أن ينفع في الآخرة ، ولذلك يقول الله فيه (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣٧)) (١) فالحياة الطيبة جزاؤه في الدنيا ، والجزاء بأحسن ما عملوا في الآخرة .

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أى ان الذي أعد الله تعالى للمؤمنين الأقياء خير مما كافأهم به في هذه الحياة ، وأن ما يكافئون به في الآخرة فوق ما يكافئون به في الدنيا ، بل لا يشترط نعيم الآخرة مع نعيم في الدنيا إلا بالاسم .
وقد بلغت عن الأستاذ الامام وهو يتكلم على الفرق الكبير بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة أنه قال ماثله :

ان الذي يذهب الى الشام ويرى ما فيه من فاكهة ينكر أن تكون من جنس ما يعرف في مصر ، ولابد أن يتخذ من فاكهة مصر ، فقد فضل الحبة الواحدة من الفاكهة في الشام الحبة في مصر أضعافا مضاعفة في حجمها وطعمها ولونها .

فإذا كان هذا الفرق الكبير بين نوعين من فاكهة واحدة في قطرين متجاورين ، فما بالك بفاكهة الدنيا وفاكهة الآخرة ؟ وفي الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى [أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر] واقروا ان شئتم : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) . رواه الشيخان : أى ان نفسا من النفوس كائنة من كانت لا تعلم ما أعد الله للمؤمنين مما قرأ به عيونهم من النعيم ، حسيا كان أو معنويا .

ونظر الآية التي نحن بسدد شرحها قول الله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المتقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، « ١٤ » قل أؤتيتكم خبير من ذلك . للذين اقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة رضوان من الله والله بصير بالعباد « ١٥ ») (١) .

يوسف عليه السلام

وَبَاءَ إِخْوَتَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَمَرَقَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ « ٥٨ » وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ^(٢) يَجْهَازِهِمْ قَالَ أَتَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْأَتَرُونَ أَنَّى أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ « ٥٩ » فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ « ٩٠ » قَالُوا سَرُّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَعِلُونَ « ٩١ » وَقَالَ لِفَتِيلِهِ اجْمَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْفُقُونَهَا إِذَا أَقْبَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ « ٩٢ » فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِيعٌ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلْنَا مِنَّا أَخَانَا نَكْتَلُ^(٣) وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ « ٩٣ » قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَهُ خَيْرٌ حَفِظَا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ « ٩٤ » وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْئِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا

[١] آل عمران . [٢] حيا لهم عدة السفر وأمنته .

[٣] أى من الطعام ما نحتاج إليه .

رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَعِيرُ^(١) أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَمْثَانَا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ^(٢) ٦٥
 قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ
 فَلَمَّا أَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ^(٣) ٦٦ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ
 بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ
 الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ^(٤) ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ
 حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَتِيمٍ
 قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٥) ٦٨ وَلَمَّا
 دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى^(٦) إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ^(٧) بِمَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ^(٨) ٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّعْيَاءَةَ^(٩) فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ
 مُؤَدَّنُ^(١٠) أَيْتَهَا الْبَيْرِ إِنَّكُمْ لَسُرِقُونَ^(١١) ٧٠ قَالُوا وَاقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْعَدُونَ^(١٢) ٧١
 قَالُوا نَفْعِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ^(١٣) ٧٢ قَالُوا تَأَلَّفَهُ
 لَقَدْ عَلِمْتُمْ مِاجَتَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سُرِقِينَ^(١٤) ٧٣ قَالُوا فَآ
 جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ^(١٥) ٧٤ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِنْ وُجْدٍ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ
 كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(١٦) ٧٥ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاهُ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهُمَا
 مِنْ وَعَاهُ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا^(١٧) لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ
 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ^(١٨) ٧٦ قَالُوا
 إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ
 أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا^(١٩) وَاللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا تَصِفُونَ^(٢٠) ٧٧ يوسف

[١] نظم من الميرة : وهي الطعام . [٢] ضم . [٣] تحزن .

[٤] مفرقة : كال يبقى بها لك ، وهي الصواع .

[٥] طبناء الكيد (ودين الملك) شريته . [٦] منزلة .

شرح وعبرة

(١) (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) أى بعد أن مكن الله ليوسف في الأرض ، وأعطاه سلطة وقوذاً ، وحلّ بمصر ما حلّ من القحط والمجاعة ، جاء إخوته يطلبون طعاماً فدخلوا عليه فعرفهم هو ، لأنه تركهم وهم كبار فلم يتغير فيهم شيء ، أمامهم فأنكره ولم يعرفوه لأنهم فارقوه وهو صغير ، ومن شأن الصغير أن يتغير بالكبر ، ولأن لباس الملك وعظمته من شأنها أن تلبس عليهم الأمور ، ومن شأنها أن تحول بين طالبي الحاجة كاخوة يوسف وبين الوالي كيوسف . (ولما جهزم بجهازهم قال اتوني بأخ لكم من أبيكم) أى ولما أصلح أمر أولئك الاخوة بجهازهم وهو عدة سفرهم من الزاد وما يحتاجون إليه ، وأصل الجهاز: ما يعد من الأمتعة للانتقال كهدد المسافر ، وما يحمل من بلد لآخر ، ويطلق أيضاً على ما تزف به المرأة الى زوجها .

لما جهزم بجهازهم وأعد لهم ما يلزمهم (قال اتوني بأخ لكم من أبيكم) ولما لم يفهم المفسرون وجهاً لتلك الطلب قالوا لابد أن يكون قد جرى بينهم وبين يوسف ما يوجب هذا الطلب قال الفخر في التفسير الكبير : واعلم أنه لابد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سبباً لسؤال يوسف عن حال أخيه ، وذكروا فيه وجوهاً .

[الأول] وهو أحسنها أن عادة يوسف عليه السلام إذا سأله انسان أن يعطيه حل يعبر لا يزيد عليه ولا ينقص ، وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة فأعطاهم عشرة أجمال ، فقالوا إن لنا أباشيخاً كبيراً وأخاً آخر بقي معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم بقي في خدمة أبيه ، ولابد لهما أيضاً من شيء من الطعام ، فجهز لهما أيضاً يعبرين آخرين من الطعام ، فلما ذكروا ذلك ، قال يوسف : فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم ، وهذا شيء عجيب ، لأنكم مع جالحكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لتلك الأخ أكثر من محبته لكم - دلّ هذا على أن ذلك [الأخ] أعجوبة في العقل وفي الفضل والأدب ، فجيئوني به حتى أراه اه .

وذكر المفسرون في بيان [الوجه الثاني] أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه سألهم من أتم ؟ قالوا نحن قوم رعاة من أهل الشام ، أصابنا الجهد فجئنا نتمار : أى نطلب الطعام ، فقال لعلكم جئتم عيوناً . فقالوا معاذ الله ، نحن إخوة بنوآب واحد ، شيخ صديق نبى ، اسمه يعقوب ، قال كم أتم ؟ قالوا كنا اثني عشر هلاك منا واحد وبقي واحد مع الأب يقضى به عن ذلك الذى هلك ، ونحن عشرة وقد جئناك ، قال فلدعوا بفضلكم عندي رهينة واتوني بأخ لكم من أبيكم ليبلغ الى رسالة أبيكم ، فعند هذا أقرعوا بينهم ، فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف ، فظفوه عنده ، ثم ذكر الفخر الرازى [وجهها ثالثاً] يقرب من الأول .

وقد اختار الفخر الوجه الأول وقال انه أحسنها ، على أنه لم يجزم به ، بل قال انه محتمل مناسب : أى في توجيه الآية وبيان السبب في أن يوسف طلب من إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، والنرض أنه تحدث إليهم حتى أوجد سبباً يقتضى أن يطلب أخاهم من أبيهم ، وهو شقيقه الذى كان يحده إخوته على محبة أبيهم له مع يوسف ، ولا يستطيع الرازى أن يجزم بسبب معين

من هذه الأسباب أو غيرها ، ولذلك قال انه محتمل مناسب ، وكذلك المفسرون لا يستطيعون الجزم بسبب معين لأنه لا طريق الى الجزم ، انما الذى يجوزون به أن يكون هناك حديث مطوى جرى بين يوسف وبين إخوته انتهى بيوסף إلى طلب أخيه من أبيهم .

(ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين) .

لما طلب منهم إحضار أخيهم جمع لهم بين الترتيب والترتيب [فالأول] قوله (ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين) أى المضيفين وكان قد أحسن ضيافتهم . [والثانى] قوله (فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) أى حرمتكم من الطعام الذى سافرت من أجله وحضرت للحصول عليه ، وكذلك أحرمكم من قربانى وأنا صاحب الطعام وصاحب الأمر والنهى . (قالوا سترادد عنه أباه وإنما لفاعلون) أى استخادعه عنه وبجته حتى نزعته من يده (وإنما لفاعلون) كل ما فى وسعنا فى ذلك ، أو لقادرون على المرافدة .

وقد عبروا بالمراودة الدلالة على الجهد والمشقة ، لأنهم يعملون أن أباهم يعقوب سوف لا يكون سهلا فى إجابتهم الى ما طلبوا ، وأنهم سيلقون فى ذلك العمل عناء ومشقة ، ولذلك لم يجوزوا للعزيز بأنهم سيوفون له بما طلب ، وكل ما فى الأمر أنهم وعدوه بالعمل للحصول على أخيه ، وقد لا ينجحون فى ذلك ، وذلك عقل وحزم من الاخوة ، وبعد عن المخاطرة فى الوعد . وهكذا ينبئ للرجل أن يكون محتاطا فى وعوده ، ولا سيما اذا كان الموعود به ليس فى قبضة الواعد ، بل هو شركة بينه وبين غيره .

وكثير من الناس يتورط فى مواعيده ، ولا يستطيع أن يبنى بها ، ويعرض نفسه للكذب . والسبب الغالب على الناس فى تورطهم أنهم وهم يعطون المواعيد لا يعملون حسبا للوفاء قبل أن يبتوا بالموعد ، والواجب على من يعطى موعدا لك بأن يوفيك ذلك فى يوم كذا أن يكون مطمئنا لحصوله على الدين قبل ذلك اليوم ، وكذلك من يعدك بأنه يتم لك العمل فى وقت ما ، لابد أن يكون واثقا من نفسه فى إنعام ذلك العمل فى الموعد الذى حددته .

أما الذى يعد وهو غير واثق من الوفاء ، أو لم يفكر فيه فهو غفلى آثم ، قد عرض نفسه لأن تهمه الناس بالكذب والقدر ، وحس الصانع أو التاجر أن يكون كاذبا فى وعده لتضيع ثقة الناس به ، وحسب المؤمن الحازم أن يكون صادقا وفيا لثقت الناس به .

(٢) (وقال لفتيانہ اجمعوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا اقبلوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) أى يوسف قتيابه أن يسأوا ما كان معهم من بضاعة ليأخذوا بها الطعام فى رحال إخوته ، ورحل الرجل : ما يستصعبه من الأثاث (لعلهم يعرفونها) أى بيان لسر ذلك العمل وهو أنهم متى وجدوا بضاعتهم التى سافروا بها لتكون ثمتا للطعام ، وعرفوا أن العزيز جمع لهم بين ثمنهم وطعامهم . متى رأوا ذلك عرفوا حق العزيز عليهم فى ردها له ، وحقه عليهم فى وفائهم بمواعيدها فهو أسلوب من أساليب التوريط ، لجأ إليه العزيز وهو يوسف الصديق ليكون وسيلة لحسن ظنهم فيه ، ويسهل عليهم مهمتهم عند أبيهم يعقوب ، وبذلك يرجعون إليه ومعهم أخوهم من أبيهم (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنما له لحاظون)

بعد رجوعهم إلى أبيهم يعقوب قالوا له : يا أبانا منع منا الكيل : أى فى المستقبل فأرسل معنا أخانا من أينا (نكتل) أى نرفع المانع من الكيل .

ثم لما كان لهم سابقة مع يوسف بلدوا أعلم بقولهم (وإنا له لحافظون) من أن يناله مكروه ولم يفصل لنا القرآن ما قالوه لأبيهم فى تقليل طلب يوسف لأخيه ، بل أجله كما أجله عند قوله (فلما جهزهم بجهازهم قال اتوني بأخ لكم من أبيكم) فيجوز أن يكونوا قد شرحوا له ما دار بينهم وبين العزيز ، ويجوز أن يكون أبوم قد سم مناقشتهم والجدل معهم ، واكتفى بقوله لهم (هل آمنكم عليه إلا كما أمتكم على أخيه من قبل) يريد أى قد جربت أمانكم وموائقكم ، فإن كنتم قد وقتم بوعدكم لى عند أخذ يوسف فلتوفوا بوعدكم فى حق أخيه .

و يظهر أن الضرورة إلى الطعام كانت ملحة وشديدة ، ولذلك تساهل يعقوب عليه السلام فى شأن ابنه الثانى ، وقال وهو عمتلى حزنا (فانه خير حافظا وهو أرحم الراحمين) وهو لجوء إلى الله تعالى فى أن يتولى حفظ ابنه الثانى ، فانه نعم الحافظ (وهو أرحم الراحمين) وأرجو أن يتم على بحفظه ، ولا يجمع على مصيبتين : مصيبتة به ، ومصيبتة بأخيه .
فاذا كان نبي الله يعقوب قد ضعف أمه فى أولاده العشر من جهة ابنه فان أمه فى الله قوى ورجاءه فيه لم ينقطع ، فذلك رجع إليه ، واستحفظه ابنه ، فانه خير من يحفظ له ابنه ، وهو أرحم الراحمين ، فتوجه إليه النفوس عند الشدة ، ويقصد عند الاضطرار .

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا مانبقى هذه بضاعتنا ردت إلينا) قد بدأ الاخوة بتبليغ أبيهم أنهم قد منعمهم العزيز الكيل ، وأن يرسل معهم أخاهم ليعطيهم الطعام الذى يحتاجون إليه ، لأن ذلك أهم شيء عندهم ، يريدون أن يعملوا لتذليل هذه العقبة التى وضعا العزيز فى طريق أخذهم ما يحتاجون من الطعام ، وكان ذلك قبل أن يفتحوا أمتعتهم فلما فتحوها وجدوا بضاعتهم التى سافروا بها ردت إليهم فى متاعهم مع الطعام .

ويقول المفسرون : ان البضاعة كانت أدما [جلدا] وفلا وورقا ولم يكن معهم نقود فى ذلك الظرف ، فلبأوا الى طريق المقايضة ، وهى أول شيء يبدى به تبادل الناس فى بيعهم وشراهم ، ولا مانع أن تكون بضاعتهم كذلك متى همت الأخبار .

وفهم الآية لايتوقف على معرفة بضاعتهم ، ويكفى أنها شيء بضع : أى قطع لتجربه ، وقولهم (مانبني) يحتمل أن يكون للنبي ، والمعنى : مانبني فى ذلك القول ، وإنما قول الحق ، وهو من البنى وهو العدوان والتمدى ، أو مانطلب شيئا وراء ما فعله العزيز ، ويجوز أن تكون للاستفهام أى ما الذى نبنيه ونطلبه مع ذلك الفعل ومع هذه المكلمة ؟ وقوله (هذه بضاعتنا ردت إلينا) أى إن ذلك هو منتهى الكرم فى المعاملة (ونغير أهلنا) إذا رجعنا إلى العزيز : أى نجلب لهم مبرة وهى طعام يعمل من غير بلدك (ونحفظ أخانا) من الخافوف (ويزداد كيل بعر) أى حله باستصحاب أخينا (ذلك كيل يسر) سهل عليه ميسر لا يتعاضمه .

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتينى به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ماقول وكيل) أى قال لهم أبوم : لا أعطيكم أخا يوسف حتى تطون عهدا من الله

أتوثق به ، والمراد عهد مؤكد بذكر الله تعالى أو الحلف به على أن تأتوني به إلا إذا غلبتم فلم تطيقوا حفظه ، أو إلا أن تهلكوا جميعا .

فلما أعطوه العهد والميثاق قال يعقوب : الله شاهد على ما نقول وحفيظ عليه ، وهو الذى سيحاسبكم ويجازيكم إذا كنتم تريدون الوفاء أو العذر .

(٣) (وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكمل المتوكلون) .

قيل إن يعقوب عليه السلام نصح لبنيه ذلك النصح خوفا عليهم من العين ، لأن الشأن فى الأولاد القئين بلقوا ذلك العدد وكانوا على شيء من الجلال ، ومشوا مجتمعين أن ينظروهم الناس نظرة حسد ، فيعانونا : أى يصابوا بالعين .

وقد ورد فى الإصابة بالعين أحاديث ، ولم يمتد الناس إلى اليوم إلى كيفية تأثير عين الحاسد على المحسود ، وكل ما قالوه : انها خاصة فى بعض النفوس نبتت منها بواسطة العين وغيرها إلى الخارج ، كما أودع الله فى بعض المعادن خاصة الجاذبية .

وقيل إن نصح يعقوب لبنيه لم يكن خوفا عليهم من العين ، بل لأنهم اشتبهوا بمصر وتحدث الناس بهم وكلامهم ، فقال لهم يعقوب : لا تدخلوا المدينة من باب واحد حتى لا يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم ، والآية محتملة للأمرين .

(وما أغنى عنكم من الله من شيء) استدراك من نبي الله يعقوب على قوله المذكور ، يرينا به نبي الله أن تدبير العبد لا يرفع قضاء الله تعالى فقد يكون ناقصا لا يفي بالغرض ، لأنه تدبير مخلوق محدود فى علمه واستعداده .

أما تدبير الله تعالى فأساسه العلم المحيط ، والحكمة العالية ، فإذا دبر الله شيئا لم يكن إلا مادبره ، أما العبد فقد يدبر ، ويأخذ فى الأسباب والمقتضات ثم لا تحصل النتائج لأنه ترك أسبابا يحجبها ، أو أن السبب الذى أتى به ناقص غير تام ، وليس المراد أننا ندع الحذر ونترك الأسباب ، لأن الله تعالى يقول (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة « ١٩٥ ») (١) وقال (يا أيها الذين آمنوا خفوا حذركم « ٧١ ») (٢) بل المراد الرجوع إلى الله تعالى مع الأخذ فى الأسباب لأنه الذى يلهم الانسان كيف يحتاط ، ويعلمه كيف يرقى فى احتياطة شيئا فشيئا ، ويتعلم من التجارب والأحداث ما لم يكن يعلم .

فنبى الله يعقوب يرينا أنه يجب على الانسان أن يحتاط ، ويأخذ فى الأسباب ، ومع احتياطة يعلم أن احتياطة لا يبطل قضاء الله وقدره ، فقد يكون احتياطة من العين مثلا ناقصا ، فتأتى العين لنقصان المانع منها ، وقد يكون احتياط السليم من عدوى المرض كذلك ، لأنه لم يكن على الطريق الذى رسمه أهل الفن وهم الأطباء ، ولذلك تأتى العدوى مع الاحتياط لأنه ناقص ، وقد يكون آخذا فى أسباب الرزق ولكنه جاهل بتلك الأسباب : كرجل يتجرع جهل بطرق التجارة فيكون السبب الذى باشره ناقصا ، ومن أجل ذلك لم ترتب عليه نتائج ، وقد يعمل الطبيب أو

الرجل الكيماوى تجارب واسكنها ، لم تهر ولم تصل الى غايتها ، لأنها تجارب ناقصة ، وهكذا وهكذا .
وجلة القول أن يعقوب عليه السلام يطلب بالأخذ فى الأسباب ، وأن ذلك لا ينافى التوكل
على الله تعالى ، ويرينا أن هناك ربا هو ربّ الأسباب والمسببات ، وأن علمه هو العلم المحيط ،
وحكمته هى الحكمة العالية ، وأنه إذا دبر شيئا ، وسبق به علمه ، وجرى به قضاءه ، فأما يدبره
على ذلك الأساس ، فلا يستطيع أن يردّه أحد ، أما المخلوق فهو محدود فى علمه محدود فى استعداده
محدود فى تفكيره ، فقد يظن السبب مانعا ، والمنايع مبيدا ، ويرى السبب الناقص كاملا ، والضعيف
قويا ، لذلك يجب أن يستفيد الانسان دائما من التجارب ، ويطلب المزيد من العلم (وقل ربّ
زدنى علما « ١١٤ »)^(١) ويعترف دائما أنه ما أوتى من العلم إلا القليل ، وأن ما علمه الانسان
فى جانب ما جهله ليس بشيء .

(إن الحكم إلا الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) نعم إن الحكم لله فهو المنفذ لأمره
منى أراد (عليه توكلت) أسندت أمورى إليه ، وفوضته له (وعليه فليتوكل المتوكلون) وعلى
كل مؤمن به أن يفوض أموره إليه ، فهو الذى يعلم من الأسباب ما لا تعلم فيعلمها لنا ، ويعلم
من المواقع والعقبات ما خفى عنا فيرشدنا إليها ، وذلك هو معنى التوكل ، وهو أن تأخذ فى الأسباب
بقدر استطاعتك ثم ترجع إليه وتفوض أمورك إليه فيما وراء الأسباب التى تعلمها ، وليس التوكل
كما يفهمه العامة هو التواكل ، وهو أن ندع الأسباب ثم ترجع الى الله تعالى ليوصلك الى المسببات
فإن ذلك حق وسفه ، فالذى يدع العمل للرزق ثم يطلبه من الله ويزعّم أنه متوكل عليه : كاذب فى
دعواه ، والذى لا يطلب العلم من طريقه المألوف وهو التعلم ثم يطلبه من الله لأنه متوكل عليه
كاذب كذلك فى توكله ، لأن طريق العلم هو التعلم ، والذى يطلب الشفاء من مرضه ثم لا يداوى
نفسه بالطريقة المألوفة للناس ويزعّم أنه فى ذلك متوكل عليه كاذب ، والذى يرى بنفسه فى
أحضان المرضى بدون أن يأخذ لنفسه الحطة والوقاية من العدوى زاعما أنه متوكل على الله هو
جاهل معنى التوكل ، والمرأة التى تدع طعامها مكشوفاً معرضاً للأفاعى والحشرات ثم تدعى أنها
متوكلة على الله كاذبة فى دعواها .

والأمثلة فى ذلك كثيرة ، وهى كلها ترجع الى الطمع فى النتائج بدون مقدمات ، والغايات بدون
وسائل ، وهو طمع مذموم ، وتصلح كاذب ، وإما الصلاح الصحيح هو الذى يتفق وسنة الله
فى ربط الأسباب بمسبباتها ، ولذلك يقول عمر [لا يجلس أحدكم عن طلب الرزق ثم يمد يديه الى
السماء ويقول : اللهم ارزقنى ، فإن السماء لا تنظر ذهاباً ولا قبضة] .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء) أى أن اخوة يوسف
أطاعوا والدهم ، ودخلوا المدينة متفرقين لا مجتمعين ، ولكن ذلك الاحتياط الذى أمرهم به أبوهم
لم يدفع عنهم السوء المتخّر لهم وهو اتهامهم بالسرقة وأخذ أخوتهم بسبب أن صواع الملك وجد فى
رحله ، فيعقوب كان تفكيره متوجها الى ناحية وقضاء الله كان متوجها الى ناحية أخرى ، لتعلم كما
قدّمنا أن تفكير العبد محدود ، وتدييره لا يمكن أن يصل الى تدبير الاله .

وتأمل نصيحة يعقوب لأولاده وقوله لهم (يا بني لا تدخلوا من باب واحد) وقد صنعوا بأخيه يوسف ما صنعوا ، تعلم مقدار شفقة الآباء على الأبناء ، وأن إساءة الأبناء للآباء لا تنزع الشفقة منهم ، ولا سيما إذا كان مصدرها حسد البعض للبعض ، وحرص الحاسد على أن يتخلوله وجه المحسود ، كما يحب الزوج الضرتين وهما يتناحران للاستئثار بمحبة ، ويتقاتلان للوصول الى مرضاته فيعقوب عليه السلام لم تنهوا عنه نفسه على التفريط في أبنائه ، وقد حصل منهم ما حصل لأنه عاقل يعلم أن الحسد قد يبلغ بالفوس الى مثل ما بلغ بالاخوة والى أكثر من ذلك ، ويرينا أنه ينبغي للآباء أن تكون من سعة الصدر وتغليب الرحمة على الغلظة كما كان يعقوب مع بنيه ، ينصح لهم بأن لا يدخلوا المدينة من باب واحد .

(إلا حاجة في نفس يعقوب قضائها) أى إن يعقوب ما كان ليرد عن أولاده ما أذخر لهم من حادث السرقه ، ولكن حاجة في نفس يعقوب أظهرها ووصى بها ، وهى دعوة بنيه الى الأخذ فى الأسباب ، والاحتياط ، لأن ذلك هو الذى يجب على المؤمن أن يأخذ حذره جهد الطاقة ، ثم يفوض الأمر بعد ذلك الى الله تعالى (وإنه لنوع علم لما علمناه) أى ان يعقوب عليه السلام لصاحب علم بسبب تعليم الله له ، ومن علمه الذى علمه له أن يأخذ فى الأسباب ، ويعتقد بعد ذلك أن احتياط العبد لا يغير شيئا من قضاء الله تعالى ، إذا كان قد سبق فى علمه شيء وراء ما فتر العبد ويدبر ، وذلك هو التوكل الصحيح (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) هذه الحكمة العالية والعلم الصحيح ، ففهم الآباء الذى يدع الأسباب جانبا ويعيش بجمله وحقه ويزعم أنه متوكل على الله ، ومنهم المالحذ الذى يشكر أن هناك إلها قدرته فوق القدر ، ومشيئته فوق كل مشيئة ، ويرى أن الأسباب التى وصلنا إليها هى كل شيء ، وأن النتائج منوطه بها وجودا وعدما ، ولو فكروا قليلا فيما حولهم من حوادث ، وما يحيط بهم من عوالم ، لعرفوا أن الانسان قد يرد الخير ويعمل له فيكون الشر ، وقد يريد الشر بأحد من الناس ويدبر له فيكون الخير ، كما حصل ليوسف واخوته ، وقد يريد نفع صديق فيضره ، أو اهاذ مظلوم فيزيده ظلما الى ظلمه ، كل ذلك أدلة واضحة على أن هناك إرادة وراء إرادة الانسان ، وتديرا فوق تديره ، وأن الركون الى الأسباب الظاهرة ، واعتقاد أنها الكل فى الكل من الخطأ الفاحش .

(٤) (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال ائى أنا أخوك فلانبتش عما كانوا يعملون) أى بعد وصية أبيهم لهم ذهبوا الى الدزير ، فلما دخلوا على يوسف ضم أخاه إليه وهو الذى طلبه منهم ومنع الكيل من أجله ، وقال له فيما بينه وبينه (إئى أنا أخوك) يوسف (لا تبتش بما كانوا يعملون) لانكن شديد الحزن بمعاملتهم لى ولك ، وهى بشارة ما أُردها على قلب أخيه ، فتحى ففقه أبوه منذ سنين ، ولم يوقف له على خبر ، فيتلقى بشارته به ، وهى بشارة مع معاينة وحضور ، ولا يستطيع الكاتب أن يصور مقدار ما عسى به أخو يوسف من السرور فى ذلك الوقت ومن اطف الله به أنه لم يكن سرورا قاتلا لأنه سرور مناجى ، ولو كان سرورا بوجود الأخ الغائب لكان محدودا ، ولكنه سرور بوجود أخ غائب ، وإن ذلك الأخ أصبح عزيزا لمصر ، وماحب الأمر والنهى .

ولهذا قوله (فلاتبئس بما كانوا يعملون) تذكيره بما فعله الاخوة ليعلم أنه يوسف حقا ، فقد يخفى عليه يوسف كما خفى على اخوته ، لأنه فارقه صغيرا فتغير بالكبر ، ولأن ملابس الملك من شأنها أن تلبس على الراى . فأراد يوسف أن يطلعه على قصته على وجه يحمل لطمائن الى هذه البشارة ، ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليكون ذلك تهيدا لما يصنع به يوسف من جعل السقاية في رحله ، ونسبته الى السرقة في بادى الراى ، ولوأنه جعل السقاية في رحله قبل أن يخبره أنه أخوه لغزغ من ذلك العمل ، واعتقد أنه تدبير يراد به سوء ، ولكن تقديم هذه البشارة ، وتذكيره بما فعله إخوته ، وتطمينه من هذه الجهة جعله في مأمن من إرادة السوء به .

(فلما جهزم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه) السقاية هى المشربة التى كان يشرب بها الملك ، وهى الصواع يقال لها كانت لسقاية الملك ، ثم جعلت صاعا يكال به ، فان صح ذلك كان هذا دليلا على عزة الطعام ، وانه لمعهزته يكال بكيل حقير (ثم أذن مؤذن) نادى مناد وأعلم معلم (أيتها العبر إنكم لسارقون) العبر القافلة ، وهى اسم الابل التى يحمل عليها الأحبال فسمى بها أصحابها قيل ان ذلك التأذين لم يكن باذن يوسف ، وإنما الذى صنعه هو أنه جعل السقاية في رحل أخيه ، فلما طلبها الفتيان ليكيلوا بها لم يجدوها ، ولم يكن هناك أجنى سوى الاخوة ، فظنوا أنهم هم الذين سرقوها في متاعهم ، وقيل ان ذلك التأذين كان بأمر يوسف ، وقول المؤذن (إنكم لسارقون) تعريض بسرقتهم يوسف من أبيه وإلقائه في الحب ، وتضليله بأن الثوب أكله ، ووضع الاسم الكذب على قصصه ، والتعريض لايده كذبا كما في قول ابراهيم لقمرود [هذه أختى] والمراد أنها أخته فى الدين والملة وان كانت زوجا له .

وقيل ان هذه الصيغة ليست صيغة خبر ، وإنما هى صيغة استفهام على حذف الهزمة : أى هل سرقتم الصواع ؟ فهى جملة انشائية ، والانشاء لا يقال فيه سرق ولا كذب .

وسواء كانت الجملة استفهما أو خبرا أريد به التعريض بما فعلوا مع يوسف أو من عمل الفتيان فقد فهم الاخوة منها أنها نسبت إليهم أسرا لا يلىق بهم ، لذلك قالوا بعد أن أقبلوا على الفتيان اقبال دحشة واستغراب (ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حل بغير وأنا به زعيم) أى قالوا لهم نفقد مشربة الملك ، أو الكيل الذى نكيل به الطعام ، ولمن جاء به حل بغير من الطعام ، لأنه كان أهم شيء عندهم ، وأنا به زعيم : أى كفىل بأن أؤديه الى من رده .

(قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) يقول المفسرون : ان قولهم (تالله) قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم ، وإنما قالوا (لقد علمتم) ليستشهدوا بعلمهم ، لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأماتهم فى مجيئهم الأول والثانى ومداختهم للزور .

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟) أى فما جزاء السارق ان كنتم كاذبين فى دعوى البراءة (قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين) .

وقد جعلوا جزاء السارق أن يؤخذ فى سرقته ، لأنهم واقفون من براءتهم ، معتقدون أن صعوبة الجزاء لا ينالهم شيء منها (فبدأ بأوعينهم قبل وعاء أخيه) حتى لا يفهموا الحيلة (ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف) أى كدنا لمصلحته ودبرنا له وعدناه الحيلة والمكر

بوضع الصواع في رحل أخيه، ثم سؤلهم عن جزاء السارق ، وإفتاء الاخوة بأن جزاءه من وجده في رحله ، ثم بيده أوعيتهم في التفتيش قبل وعاء أخيه ، واخبار أخيه قبل هذه الواقعة بأنه أخوه حتى لا يزعج من حادث السرقة (ما كان يأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله) أى ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه منهم في شريعة الملك وحكمه إلا أن يشاء الله سببا آخر للاخذ ، فألمسه ذلك كله ليتم له اخذ الاخ بهذه الحيلة (نرفع درجات من نشاء) أى في العلم والفضل (وفوق كل ذى علم عليم) أى من هو أعلم منه ، وفي ذلك تنوبة بشأن العلم والذكاء .
(قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أتم شراً مكانا والله أعلم بما تصفون) .

قيل : إن يوسف دخل كنيسة فأخذ تمثالا من ذهب فدفعه ، وقيل أعطى دجاجة كانت في المنزل لسائل ففسده إخوته إلى السرقة لمثل هذه الحوادث ، وهى عند التأمل ليست بسرقة .
وقيل : إن ذلك كذب من الاخوة وبهت ليوسف ، وقد أسر يوسف هذه المسألة في نفسه ولم يبدها لهم وقال في نفسه (أتم شراً مكانا) لأنكم سرقتم يوسف : أى أتم شراً مغزلة في السرقة (والله أعلم بما تصفون) تقولون أو تكذبون .

يوسف عليه السلام

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا تَخَذَ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَلُّونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا ^(١) مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرْنْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَنَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسُئِلَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ^(٢) الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ هَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسُ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبِيتُ عَنْهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ^(٣) ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَأَلَّاهُ

[١] يَسُوا ، والسين والناء اللبائية ، كاستعم ، و (خلصوا منه نجياً) اغردوا عن الناس بئناجون .

[٢] القوم الذين معهم أحوال الميرة . [٣] مكثوم ومملوء بالغنى على أولاده .

فَقَتُوا^(١) تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ «٨٥»
 قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي^(٢) وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ «٨٦»
 يٰبَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا^(٣) مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْسَئُوسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ
 لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ «٨٧» فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا
 يٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعةٍ مُرْجَةٍ^(٤) فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ
 وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ «٨٨» قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
 بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ «٨٩» ءَلَوْ أَدْنَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ
 وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ «٩٠» قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ «٩١» قَالَ
 لَا تَثْرِبَ^(٥) عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٩٢»
 أَذْهَبُوا بِمِصْرِي هَذَا فَالْقَوْمُ عَلَى وَجْهِ أُنَى بَاتٍ بَصِيرًا وَأَتَوْنِي بِأَهْلِكُمْ
 أَجْمَعِينَ «٩٣» وَلَمَّا فَصَّاتِ^(٦) الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
 تُفَنِّدُونِ «٩٤» قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ «٩٥» فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ
 أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ «٩٦» قَالُوا يٰأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ «٩٧» قَالَ
 سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «٩٨» فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى
 يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ «٩٩» وَرَفَعَ
 أَبْوِيهِ عَلَى الْمَرْثَى وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا^(٧) وَقَالَ يٰأَبَتِ هَذَا تَابُوتُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ

[١] لائزال «حرَضًا» مشرفاً على الهلاك . [٢] أصل البث التفريق وإثارة الشيء ، وللراد
 ما أطوت عليه النفس من الغم لا يريد أن يبينه لأحد إلا الله تعالى . [٣] تمرنوا خبرهما ، و (روح الله)
 فرجه . [٤] تدفها التجار رداً عنها . [٥] لا تأليب ولا عتب . [٦] خرجت من عريش
 مصر «تفندون» تخرنن . [٧] حيوة بتحية تلبس به ، وهي سجود لله .

قَدْ جَمَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ (١) مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَجَّ (٢) الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) يوسف

شرح وعبرة

(١) (قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين) . لما وقع ذلك الحادث وهو وجود الصواع في رحل أخى يوسف ، وقد أفضى الاخوة بأن جزاء من وجد الصواع في رحله أن يؤخذ فيه - اضطربوا وتذكروا ما كان من وصية أبيهم وأخذهم الميثاق عليهم ، فأخذوا يستعطفون العزيز مرة من جهة أبيهم وأنه شيخ كبير ، وقد أعد هذا الولد لخدمته ، ومرة من جهة أخلاقه وشماته ، وقولهم له (إنا نراك من المحسنين) وقد طلبوا من العزيز أن يأخذ واحدا منهم رهينة بدله فلم يسمح يوسف بشيء من ذلك ، وقال لهم (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى نعوذ بالله معاذنا من أن نأخذ رجلا بريئا مكان رجل وجدنا المتاع عنده .

(إنا إذا الظالمون) إذا نحن أخذنا البريء وتركنا المتهم ، وكان ذلك ظلما يقتضى فتوأم أن الذى يوجد الصواع في رحله فجواؤه أخذه فيه ، فهو ظلم حسب مذهبهم الذى أفتوا به يوسف . (فلما استأسوا منه خلصوا نجيا) أى فلما يئسوا من العزيز ومن قبوله شفاعتهم ، والسين والتاء للبالغة : أى فلما يئسوا من العزيز إلى حد بعيد من اليأس ، فقد يئس الانسان ويكون عنده شيء من الأمل ، أما هؤلاء فلم يكن في يأسهم شيء من الرجاء (خلصوا نجيا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لمخالطهم أحد (نجيا) أى ذوى نجوى ، أو فوجا نجيا مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا ، أو تمحضوا كأنهم التناجى نفسه ، لاستجماع قوام وإفاضتهم فيه بجد واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التناجى وحقيقته ، كما تقول : رجل جور ، ورجل عدل .

وكان تناجيهم في تدبير أمورهم على أى صفة يذهبون ؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهيم ؟ والآية تمثل لنا صورة ارتباط الاخوة لتلك الحادث ، حادث حجز أخيهيم في الصواع ، ورجوعهم إلى أبيهم فاقدين له بعد أن فقدوا يوسف ، وترينا أن ذلك العمل قد شغل أذهانهم وشت أفكارهم وآية ذلك أنهم توسلوا الى العزيز بكل أسباب التأثير عليه ، فلما لم ينجحوا في مهمتهم اعتزلوا

الناس جانباً ، وأخذوا يتناجون ، وكانهم لفرط إقبالهم على ذلك النتائج ، وانهمامهم به ، وحرصهم عليه اقلبوا نجوى .

(قال كيريم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين) .

يذكرهم كيريم في السنن أو في العقل أو فيها معا بذلك الموثق الذي أخذه عليهم أبوم وهو يشير إلى قوله (لن أوسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنى به إلا أن يحاط بكم) .

وقوله (ومن قبل ما فرطتم في يوسف) ما فيه مصيرية ، وهي وما بعدها في تأويل مصدر محله الرفع بالابتداء ، وخبره الظرف قبله : أي وقع قبل تفريطكم في يوسف ، أو محله النصب عطفا على مفعول ألم تعلموا ، وهو قوله (أن أباكم) كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا ، وتفريطكم من قبل في يوسف ، ولك أن تجعل ما موصولا اسميا : أي ومن قبل هذا ما فرطتموه أي قدمتموه في يوسف من الجناية العظيمة ، من التواطؤ وهو السلف والمقدم ، أما على ما قبله فهو من التفريط ، وهو التقصير والامال .

والمنى أن كيريم يذكرهم بذلك الميثاق الذي أخذه عليهم أبوم ، ويذكرهم بساقتهم مع يوسف وجناباتهم عليه ، يريد أن المسألة قد بلغت من الصعوبة مبلغا عظيما ، ولذلك عقبه بقوله (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي) في الانصراف إليه (أو يحكم الله لي) بالتصاف عن أخذ أخي ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب (وهو خير الحاكمين) لأنه لا يحكم إلا بالعدل (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين وإسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون) أي إن ذلك الكبير أخذ رأيي وبقي بمصر فلم يرجع إلى أبيه ، وقال لهم ارجعوا إلى أبيكم فقولوا له يا أبانا إن ابنك سرق ، وقد نسب إليه السرقة بناء على ما شاهد من استخراج الصواع من وعائه ، أو سرق في قول الملك وأصحابه ، أو ظهر عليه ما يشبه السرقة ، وإطلاق اسم أحد الشبهين على الآخر جائز . وعن ابن عباس أنه قرأ «سرق» بضم السين وتشديد الراء على البناء للمفعول . أي نسب إلى السرقة .

(وما شهدنا إلا بما علمنا) أي بقدر ما تيقنا من رؤية الصواع في وعائه (وما كنا للغيب حافظين) أي ما كنا حافظين للأمر الخفي ، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولعل الصواع دس في رحله من حيث لا يشعر ، أو ما علمنا أنه يسرق حين أعطيناك الموثق ، ثم بالغوا لا يبيح في إزالة التهمة وقولوا له (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون) . قيل : القرية هي مصر ، وقيل : قرية على باب مصر ، وقع فيها التفتيش ، والعير : القافلة ، والمراد سل هؤلاء جميعهم وهم يخبرونك بكنه القصة .

(٢) (قال بل سؤلكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم) أي زينت لكم أنفسكم أمرا أردتموه ، وصورت لكم التبعيح حسنا (فصبر جميل) أي فاصبري صبر جميل ، أو فصبر جميل أمثل شيء يصنع في مثل ذلك الوقت العصيب . والصبر الجليل

هو الذي لاشكوى فيه المخلوق كما قال (إنما أشكو بني وخزني إلى الله) (عسى الله أن يأتيهم بهم جميعاً) أى يوسف وأخيه والكبير الذي تخلف بمصر حياء من أبيه وخجل منه (إنه هو العليم) بحالي في الحزن والأسف (الحكيم) الذي لم يبتلى بذلك إلا الحكمة ومصلحة .

(وتولى عنهم وقال يا أسنى على يوسف وإيشت عيناه من الحزن فهو كظيم) أى أعرض عن بنيه يعقوب كراهة لما جاؤا به ، أو انحاز في ناحية عنهم حتى لا يظهر أمامهم بظاهر الجذع ، وكثيراً ما يختار الرجل البعد عن الناس في مثل ذلك الوقت لينفس عن نفسه ، قرئ يا أسنى ياء المتكلم ، وقرئ بالالف المنقلبة عن الياء ، ينادى أسفه وكأنه يقول له احضر فهذا وقتك وأوانك ، والأسف هو أشد الحزن ، وقد تأسف على يوسف دون أخويه مع أن الرزء الجديد أشد على النفس وأظهر أثره ، ليرينا أن رزء يوسف لم يزل جديداً مع تقدم عهده ، وأنه أكبر رزء . وآه ، ولأن الرزء في يوسف كان أصل الرزايا الأخرى ، فكان أسفه عليه أسفاً على الكل ، ولأنه كان علماً بحياة أخويه دون حياة يوسف .

(وإيشت عيناه من الحزن فهو كظيم) أى أنه لما أكثر البكاء حتى سواد عينيه فجعله يابضاً فضمت بصره ، و (كظيم) علوه من القيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم ، فعمل بمعنى مفعول ، من كظم السقاء إذا شده وهو علوه ، أو (كظيم) بمعنى كظم : أى محسك لحزنه غير مظهر إياه . ولاصير في أن يتألم نبي الله يعقوب لهذه الشدائد ، ويحزن الحزن العميق لتلك الأحداث ، لأن هذه طبع الانسان واستعداده ، ويمتاز الصالحون بأنهم لا يفيضون بهم في حزنهم ، ولا يخرجون به إلى مالا يحسن ، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم ، وقال إن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا تقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ، والأنبياء بشر يجرى عليهم ما يجري على سائر الناس من الحزن والفرح ، والتألم للصاب ، والاستبشار بالنعم .

(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) .

يقول بعض المفسرين : الأظهر أن الذين قالوا ذلك ليسوا أولاده الذين تولى عنهم ، وإنما هم جماعة كانوا في النار من خصمه وأولاد أولاده ، وهو الظاهر من توليه عن أولاده وبكائه بعيداً عنهم ، والآية تحتل أن أولاده هم الذين قالوا ذلك بعد أن عرفوا أنه تركهم لينتدب خطه مع يوسف وأخوته ، وينادى أسفه ، وحزنه (تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) هو قسم فيه معنى التحجب من مكث يعقوب على ذكر يوسف ، والحرض فساد في الجسم والعقل للحزن والحب ، حتى يكون لا كالأحياء ولا كالأموات ، أرادوا أنك تذكر يوسف بالحزن والكاء عليه ، حتى تشرف على الهلاك ، أو تهلك ، وهي كلمات اشفاق على نبي الله يعقوب ، كأنهم يقولون له هؤلاء على نفسك الأسم ، واقتصد في ذلك الحزن ، وارحم نفسك فانها مشفية على الهلاك .

(قال إنما أشكو بني وخزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) .

قال العلماء إذا أسر الانسان حزنه كان هماً وإذا لم يقدر على إسراره لعظمه فذكره لغيره كان

بنا ، فالبث أصعب ألم - الذى لا يصبر عليه صاحبه فيثبته على الناس ليفرج عن نفسه ، من البث وهو التفريق ، فعنى الآية أنى لا أذكر الحزن الشديد ولا التليل الى أحد من الخلق ، وإنما أذكره لله تعالى ، فقلوبى وشكائى ، ودعوى وما أصنع (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى أعلم من رحمة وإحسانه مالا تعلمون ، فأرجو أن يأتينى الفرج من حيث لا أحسب .
(يابنى) اذهبوا فاحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

ناداهم بقوله (يابنى) يستحهم على تعرف أخبار يوسف وأخيه بذلك الأسلوب (فتعجبوا من يوسف وأخيه) اطلبوا من طريق الحاسة كالسمع طلب المعرفة بالسمع ، والتبصر : طلب المعرفة بالبصر ، والمراد أجهدوا حواسكم ومواهبيكم فى معرفة أخبار يوسف وأخيه وهو فى معنى التجسس بالجسس ، وإن كان الثانى كثر فى الشر (ولا تيأسوا من روح الله) فرجه وتغيبه ، وقرئ من روح الله بضم الراء : أى رحمة (إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وكان اليأس من رحمة الله عنوان الكفر ، لأن اليأس سبب الظن بربه ، يستدل فيه أن قدرته تعجز عن بعض المقدورات ، ومثله يأس العاصى من قبول الله تعالى له ، وتعظيم ذنبه عليه ، قد نهى الله عنه فى قوله تعالى (قل يا عباده الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) إنه هو الغفور الرحيم « ٥٣ » (١) (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز منا وأهلنا الضرر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى للمتصدقين) هنا كلام مطوى : أى قبلوا وصية أبيهم ، وعادوا الى مصر ، فلما دخلوا عليه ، قالوا ذلك القول .

وسمادهم بالضرر : الفقر والحاجة الى الطعام ، والمراد بأهلهم من خلفهم (وجئنا ببضاعة مزجاة يدفعها كل ناجر ويردها رغبة عنها ، من أوجبته إذا دفعته . قال تعالى (ألم تر أن الله يجزى سبحانه » « ٥٣ » (٢)) أى يسوقه ويدفعه بواسطة الريح ، وقيل (مزجاة) قليلة ، يريد أننا قوم فقراء ، جئناك بجن قليل ، وربما يؤيده قوله (وتصدق علينا) فإن ذلك لا يكون إلا حيث كان الثمن الذى معهم قليلا لآبئى بطلبهم ، وقوله (فأوف لنا الكيل) أى الذى هو حقنا ، وتصدق علينا بالإغماض عن رداء البضاعة أو قلتها ، والمراد أعطنا حقنا وزدنا عليه صدقة منك علينا (إن الله يجزى للمتصدقين) بما هم أهل له .

(٣) (قال هل علمتم ما فلتتم يوسف وأخيه إذ أتتم جاهلون) أنتم من جهة الدين ، وصاف الجلالة بصيغة الاستفهام ليخفف عليهم وقع القول : أى هل علمتم قبح ذلك العمل الذى عملتموه مع يوسف وأخيه ؟ وقبل أن يتم الجلالة ختمها بكلمة اعتذار عنهم وهى قوله (إذ أتتم جاهلون) لا تعلمون قبحه ، فلذلك قدمت عليه : أى هل علمتم قبحه فتيتم الى الله منه ؟ لأن الاستعجاب يجر الى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيح لهم فى الدين ، لامتابة ، إشارا لحق الله تعالى على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه للكروب ، ويتشفى الفيض المحقق ، ويدرك ناره اللوتور ، فله أخلاق الأنبياء ما أسهلها ، ولله عقولهم ما أوزنها وأرجحها !

(قالوا أمنا لك لأنك يوسف) عرفوه من الخطاب ، أو لعله رفع شيئا من ملابسه فعرفوه (قال أنا يوسف) صرح باسمه تطمينا لما جرى عليه من ظلم اخوته كأنه قال : أنا الذى ظلمتمونى على أشنع الوجوه ، والله أوصلنى الى أعظم المناسبات ، أنا ذلك الأخ الذى قصدتم قتله ثم صرت الى مازون ، ولهذا قال (وهذا أخى) مع أنهم كانوا يعرفونه لأن مقصوده أن يقول : وهذا أيضا كان مظلوما كما كنت ، فصار منعما عليه من الله تعالى (قد من الله علينا) بكل خير دينوى وأخروى أو بالجمع بعد التفریق .

ثم علل ذلك بقوله (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) من يتق يحارم الله كافيها ، ويصبر عن معاصيه ، وعلى التعذيب فى سبيل التقوى ، فان الله لا يضيع أجره ، بل يكافئه فى الدنيا ويثيبه فى الآخرة .

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) اعتراف منهم بتفضيله عليهم بالتقوى والصبر ، وسيرة المحسنين ، وإن شأنا أن كنا لخاطئين . قال الأموى : المخطئ : من أراد الصواب فصار إلى غيره ، ومنه قولهم : المجتهد يخطئ . ويصيب . والخاطئ : من تعمد مالا يذنبى . ويؤيده قول العزيز لاسرائئله (واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) أى للمتعمدين للآثم .

(قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) لا تأنيب ولا توبيخ ، وقيل المراد لا ذكر لكم ذنوبكم ، واشتقاقه من الثرب بسكون الراء ، وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش ، ومعناه إزالة الثرب كالجلد لإزالة الجلد ، والقرىض لازالة المرض ، لأنه إذا زال الثرب وهو الشحم كان ذلك غاية الهزال والعجز ، فضرر مثلا للتقرع الدنف المضى الذى يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه ، و (اليوم) ظرف للتثريب : أى لا أثر بكم اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغیره ؟ (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وذلك منتهى الكرم من نبي الله يوسف ، يعفو عنهم ثم يدعو الله لهم ، ولا غرابة فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضا من باب الكعبة يوم فتح مكة وقال لقریش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال أقول ما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم .

(اذهبوا بقيصى هذا فأثروه على وجه أى يأت بصيرا وآثروا بأهلكم أجمعين) يذكرون فى القمص روايات وخصائص ، وكل ما نعطيه الآية أنه قيص كان معروفا لنبى الله يعقوب ، فهو أمانة أن صاحبه حى (يأت بصيرا) أى يصير بصيرا كقولهم : جاء البناء محكما : أى صار محكما ، ويشهد له قوله (فارتد بصيرا) وقيل يأت الى بصيرا ، لأن القمص ايدان بأن زمن المحنة قد انتهى ، ومدة الحزن قد مضت ، وضعف بصر أبيه ما جاء إلا من الحزن ، ففى زال السبب زال السبب (وآثروا بأهلكم أجمعين) أى يأتنى أى ويأتنى أله جميعا .

(ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى لما خرجت العير التى تحمل إخوة يوسف وتحمل القمص للبشر بحمائه من عريش مصر ذاهبة الى الشام (قال

أبوم (إني لأجد ربح يوسف) أى أتم رأيتك ، وذلك من خوارق العادة لئبى الله يعقوب أن يدرك بحاسة الشم من مسافات ليس من شأنها أن يبلغ الشم إليها (لولا أن تغدون) تنسبوتنى الى القند : وهو الخرف وإنكار العقل من الهرم (قلوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) أى قال الحاضرون عنده لاتزال فى ضلالك الأول بما تكابد على يوسف من الأخران .

(فلما أن جاء البشير أفتاه على وجهه فارتد بصيرا) فرجع بصيرا كما كان ، والظاهر أن وجوده بصيرا كان مجرد اللقاء القصيص على وجهه ، ولم تمض مدة تبرا فيها عينا يعقوب من آثار الحزن (قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون) فأعلم أنه رحيم مخلقه ، لطيف بعباده ، وأن لايأس من روحه ورحته (قلوا يا أبانا استغفرو لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) اعترفوا لأنبيهم بالذنب ، وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم ، فوعدهم ذلك .

(٤) (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) أى فلما دخل آل يعقوب على يوسف ضم إليه أبويه ، وعانقهما قيل إنه حين استقبلهم زل لهم هو فى ضيقة أو بيت بعيد ، فدخلوا عليه وضم إليه أبويه (آمنين) على أنفسكم وما يلزمكم من طعام أو غيره من وسائل الحياة ، وقيل ان قوله ذلك إذن لهم بالدخول فى مصر لأنهم كانوا لا يدخلونها إلا بالجواز ، ولعل ذلك إذا صبح سبه القحط الذى حل بمصر فرأى ولاة الأمور بها أن لا يدخلها الغرباء ، لئلا يضعفوا عليها المجاعة .

(ورفع أبويه على العرش) أى السرير الرفيع الذى كان يجلس عليه ، أو المكان العالى الذى أعده له ، وليس بلام أن يكون سريرا أو كرسي (وخرأوا له سجدا) قال ابن عباس : خرأوا لأجل وجدانه سجدا لله تعالى وكانت سجدة شكر . وقيل : جعلوا يوسف كالقبة وسجدوا لله شكرا على لقائه ، أو يرد بالسجدة الواضحة الثام على ما كانت عادتهم فى ذلك الزمان من التحية ، ولعلها ما كانت إلا انحناء ، لأن هذا هو الملاقى بمركز نبي الله يعقوب ويوسف عليهما السلام ، ولا يمرض ذلك قوله (وخرأوا) لأنه يأتى بمعنى المرور كقوله (لم ينجروا عليها صما وعميانا » (١) أى لم يجرأوا عليها صما وعميانا (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) إشارة الى رؤية السكواب الأحد عشر وسجودها له ، فذلك تأويلها وتفسيرها ، قد جعلها الله رؤيا صادقة (وقد أحسن فى إذأخرجنى من السجن) لم يمرض لمسألة الاخوة ورميهم له فى الحب لأنه قال لهم (لاترتب عليكم اليوم) (وجاء بكم من البدو) أى من البادية ، وهى نعمة عظيمة نقل الله فيها آل يعقوب من البادية الى مصر صاحبة العظمة القديمة (من بعد أن زرع الشيطان بينى وبين إخوتى) نطق من يوسف إذ نسب زرع الشيطان ووسوسته إليه وإلهم ولم يجعلها لهم وحدهم ، لما قلنا من أنه لم يرد تأنيهم (إن ربى لطيف لما يشاء) لطيف التدبير لأجل الأمر الذى يشاؤه ويريده ، رفيق حتى يحى على وفق الحكمة والسواب ، ثم علل ذلك بقوله (إنه هو العليم الحكيم) .

(رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث) يذكر فضل الله عليه بأنه أعطاه

شيئا من الملك وهو ملك مصر ، ولا يخفى ما في كلمة من من الأدب وهضم النفس ، وفضله عليه بأن علمه شيئا من تأويل الأحاديث (فاطر السموات والأرض) مبدعهما لا على مثال سبق (أنت ولي في الدنيا والآخرة) ناصرى ومتولى شئى ، ولولا أنك ولي وناصرى ما وصلت إلى ما وصلت وما خلصت من هذه الفتن المظلمة ، والحوادث الجمة (توفي مسلما وألحقني بالصالحين) أى أمتى متقادا لأمرى ونهيك ، واقفا عند حدودك ، وألحقني بالصالحين من آبائي ، أو الصالحين من الأمم ، وذلك آخر قصة يوسف عليه السلام ، يعترف فيه أن الله وليه في الدارين ، وناصره في الدنيا والآخرة و يطلب منه أن يميته على الطاعة والانقياد ، وأن يلحقه بالصالحين في منازلهم التي أعدها لهم وفي أعمالهم التي وفقهم لها .

ثم ختم قصة يوسف كعادته بقوله (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) يخاطب بذلك نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، ويريه أن قصة يوسف مع إخوته ومع امرأة العزيز ، ومع ملك مصر من الأنباء التي غابت عنك وعن قومك ، وهي دليل من دلائل صدقك ، وبرهان من براهين رسالتك ، لأنك لم تكن معهم وهم يمكرون بيوسف ، ولكنه تعليم من الله ووحي صادق منه ، علمك إياه وجعله تسلية لك ، وحجة على صدقك ، فليعتبر بذلك المعتبرون .

دعوة شعيب

إلى الله تعالى

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ^(١) النَّاسَ أَشْيَاءَ هُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ^(٢) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا ^(٣) عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ حَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ^(٤) ^(٥) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي

[١] تنقصوا . [٢] تطلبون الطريق إلى الله ذات عوج بالظن والتفكيك فيها .

أَرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَخُكِّمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُمْوَ خَيْرُ
 الْحَكِيمِينَ «٨٧» قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ
 وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كُرْمِينَ «٨٨»
 قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جِئْنَا اللَّهَ مِنْهُمَا وَمَا يَكُونُ لَنَا
 أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا
 رَبُّنَا أَفْتَحْ ^(١) يَتَنَبَّأُ وَيُنَبِّئُ قَوْمَنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ «٨٩» وَقَالَ الْمَلَأُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخٰسِرُونَ «٩٠»
 فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُثَمِينَ «٩١» الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا
 كَانُوا لَمْ يَغْتَبُوا ^(٢) فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخٰسِرِينَ «٩٢» فَتَوَلَّى
 عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى ^(٣)
 عَلَى قَوْمٍ كٰفِرِينَ «٩٣» الْأَمْوَاف

شرح وهبيرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أرسل إلى مدين أخاهم في النسب أوالدار شعيبا . ومدين قبيلة سميت
 باسم أحد ذرية إبراهيم عليه السلام ، وأنه حينما بعثه الله الى مدين (قال) لهم (يا قوم اعبدوا الله
 ما لكم من إله غيره) شأن جميع الرسل في بدء دعوتهم بالتوحيد (قد جاءكم بينة من ربكم)
 حجة وبرهان على صدق دعوى شعيب .
 ومن المفسرين من يرى أن هذه المعجزة لشعيب عليه السلام لم تذكر في القرآن كما ذكرت
 معجزة صالح وهي الناقة ، ومعجزة موسى عليهم السلام ، والأصل أن كل رسول يؤتاه الله من
 الآيات ما من شأنه أن يؤمن بمثله البشر .
 روى الشيخان من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من الأنبياء
 نبي إلا وقد أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله الي فأرجو
 أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .

[١] افصل واسم . [٢] من غنى بالمكان : طالع مقامه فيه مستغنيا به عن غيره .

[٣] أحزن الحزن الشديد .

ومنه من قال : ان الجنة كل ما تبين به الحق فهي تشمل المعجزات الكونية ، والبراهين العقلية ، ويرجح الوجه الأول قوله (فأوفوا الكيل والليزان الخ) فان عطف الأمر بالفاء لا يصح إلا إذا كان مبنيًا على ما هو سبب له وهو اليقظة على صدقه ، ووجوب طاعته ، ولو كان معطوفاً على قوله (اعبدوا الله) لعطف بالواو .

(٣) بدأ الدعوة بالتوحيد لأنه أساس العقيدة ، وركن الدين الأعظم ، وقفي عليه بالأمر بإيفاء الكيل والليزان إذا باعوا ، والنهي عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا ، لأن ذلك كان فاشيا فيهم أكثر من سائر المعاصي ، فكان شأنه كشأن لوط عليه السلام إذ بدأ بنهي قومه عن الفاحشة التي كانت فاشية فيهم .

وكذلك يذبح للداعي إلى الله أن يتفقد القوم ليعرف مواطن الضعف منهم ، والجرائم للتفشية فيهم ، ليعمل على نهيمهم عنها ، وتنفيرهم منها .

ومن الجهل النافذ أن ينهى القوم عن منكرات لا يعرفونها وليست مألوفة لديهم ، وقد يكون كلام الداعي في هذه المنكرات مدعاة لسؤالهم عنها وتعرفهم لها ، فيكون الواعظ أشبه بداعية إلى المنكرات بدل أن يكون داعية إلى الفضائل ، وجلة القول أن مركز الواعظ من الأمة مركز الطبيب الذي يعرف الماء فيصف الدواء ، وقد يكون هناك أدواء كثيرة ولكن بعضها أخطر من بعض ، فثلا مرض الحيات والأوبئة أخطر على الناس من الأمراض الجلدية ، فهل من العقل أن يعنى الطبيب بمرض جلدي يستطيع المريض أن يعيش معه أياما وشهورا ، ثم يغفل عن مرض من أمراض الحلي الفتاكة ، أو يتفاضى عن نوع من أنواع الوباء حتى ينتشر ، ويقضى على الأخضر واليابس !!

فإذا كان للتفتش في قرى الريف تقطيع الزرع ، وتسميم البهائم ، وحرق الغلال ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها ، وتأريث العداوة والبغضاء بين البيوت والأسر ، وكتمان الشهادة ، ومدهانة عصايب السوء ، وعدم التعاون على تأديبهم بواسطة الحكومة ، ومعالجة الحكماء على أخذ الرشاش إذا كان ذلك هو للتفتش في قرى الريف ، فعلى الداعي إلى الله تعالى أن يحرص همه في علاج هذه الأمراض ، وتطهير النفوس من أولئك الجرائم .

وإذا كان للتفتش في المدن : مرض الزنا ، واللواط ، وشرب الخمر ، والادمان على المخدرات ، واتخاذ أخدان بدل الزوجات ، والكذب والنفاق ، وضعف العزائم ، وما إلى ذلك من فساد ، فعلى الواعظ أن يكثر من الكلام على ذلك النوع من الجرائم .

ومن المضحك أن تسمع من واعظ في القاهرة مطالبة الناس بقتية الزرع من العودة في أكبر مسجد من مساجدها ، وهو يعلم أنه لا يضم بين جوانبه سوى الموظفين في مصالح الحكومة على اختلاف درجاتهم .

من المضحك أن تسمع من الواعظ أمثال ذلك اللغو في مكان لا صلة له بالمزارع ، ولا لأهلها بذلك الواجب ، ولو أن الواعظ كان بقرى الريف ، وأخذ يطاون الحكام على القيام بذلك الواجب إزاء الزراعة التي هي العماد الأول لتروية البلاد لاستحقق من الله على عمله هذا الأجر ، ومن

الناس الشكر ، ولكنه مع الأسف الشديد لم يعرف قيمة نفسه ، ولم يتحدد مركزه من عظمهم ، وهل هو طبيب يعالج أمراض الناس ، أو مهرج ، وهل هو قائم بعمل جدى سيحاسبه الله عليه ، أو هو مجرد رسوم ومظاهر ؟ .

الحق أن الامة شئت ذلك الوعظ من الوعظ الذى لا يتصل بحياة الامة فى أخلاقها ، وعلومها وصناعاتها ، لافى قليل ولا كثير ، والحق أن للامة بعض العذر إذا هى فترت من ذلك الوعظ نفور الشاة من القذّب .

وإذا كان السواد الأعظم من خطباء المساجد لا يزالون عاكفين على دواوين فات زمانها ، وانتهى وقتها ، وعملت لجليل غير الجليل ، وزمان غير الزمان ، فكيف تنهض بأولئك الخطباء ، وكيف نسعد بقوم لا يحسون ما تحس ، ولا يشعرون بما نشعر من آلام ، وبآلئهم يأخذون من الديوان الفكرة ، ثم يصبغونها فى أسلوب جذّاب ، وقول طلى ، أولئهم حفظوا ما فى الديوان من عبارات ثم أخذوا يؤدونها للناس ، ولكنهم مع الأسف يصعد الرجل منهم إلى المنبر ، وورقات الديوان فى جيبه ، فإذا جاء أوان الخطبة وضع عينه فى الورقات ، لا يرفعها إلا حيث انتهت الخطبة .

فقل لى بربك : أى صلاح للامة يرجى من ذلك الواعظ البالى فى موضوعه وشكله ، وأى حياة للناس يطلبونها من هذه الطائفة التى لم تستطع أن تفهم ما تريد أداءه ، فتؤديه ببساطة طلبة جذابة . وانك لو حاولت أن تصلح من شأن أولئك الضعفاء لرجعت بانسائبات الأمل .

فهذا كتاب [مفتاح الخطابة والوعظ] الذى طبعته منذ ثمان سنين ، وقد فتحت فيه للواعظ باب الانفعال فى الوعظ والخطابة ، ومهنت له الطريق ، وسهلت له ذلك العمل الى أقصى حدود التسهيل ، جمعت فى الكتاب كل ما يحتاجه الواعظ من أبواب العبادات ، والعلامات ، والأخلاق ، والسكرات الظاهرة ، ثم جمعت فى كل باب ما يناسبه من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلقت عليه بعض تعليقات تشرح غريبه ، وتبين مجمله ، وتلفت إلى حكم الشريعة فى أبوابها المختلفة ، طبع ذلك الكتاب بعد أن عرض على لجنة من كبار العلماء ، وقررت أن الكتاب صالح لأن يكون مادة يستعين بها الواعظ فى دروسهم ومواعظهم ثم عرضه على وزارة الأوقاف فأعلنت منه ألف نسخة وزعتها على مساجدها وزواياها ، ليكون مرجعا للواعظ يحضر منه خطبته ، ويستعين به على درسه .

ولو أن الواعظ أراد أن يخطب فى موضوع من مواضع الكتاب ، ثم لم يكن منه إلا أن ينال آيات القرآن الكريم ، وما معها من أحاديث ، لكان ذلك العمل البسير خطبة مملّة بالموضوع الذى يخطب فيه ، فكيف إذا أضاف الى الآيات شيئا من التعليق والتفسير .

طبع ذلك الكتاب وقدمته لوزارة الأوقاف مقبلة بأن الكتاب سيعمل نهضة واسعة فى الوعظ والخطابة ، ولكن مع الأسف ، الوعظ هو الوعظ ، والجود على التقديم هو الجود ، والتعويل على دواوين الخطباء بالغ أشده ، والكتاب ملقى عند أئمة المساجد كهدة من عهد الأوقاف ، أو قطعة من الحصى البالى ، تركت فى زاوية من زوايا المسجد .

والعلة فى ذلك كله هم أولئك الأئمة الذين قعد بهم الضعف عن أن يجاروا الزمن ، فيعتلوا له

ما يناسبه من أساليب ، وانك لو فعلت معهم ما فعلت لكى قير من أساليبهم ما وجدت لذلك سيلا هذا رأينا فى جهرة آئمة للساجد وان كان القليل منهم على ما نحب من قوة ونشاط ، وفهم لما يحيط بهم من ظروف ، وما يلزمهم من علل وأمراض ، وزجو أن تنطب تلك القلة ، فيصبح الجميع أو الأكثر مؤدباً لعمله ، مضطماً بما كلفه الله به من مهام وواجبات .

أما أمتنا فى وعظ المراكز والأقاليم فهو فى جلته فوق أمتنا فى آئمة الساجد ، ورجاؤنا أن يكونوا بمن يدعون الى الله على بصيرة يدينهم ودينهم وشئون أمتهم ، وأن يكونوا منها بمنزلة الروح من الجسد ، وأن يسدد الله خطاهم ويوفق ولاية الأمور لمساعدتهم فى مهمتهم ، والأخذ بناصرهم .

(٣) يطالب نبي الله شعيب عليه السلام قومه بإبقاء السكيل والميزان لأن التطفيف كان شائعاً فيهم ، وقد نعد الله للطوفين بالويل ، فقال (ويل للطوفين) (١) الذين إذا اختلفوا على الناس يستوفون (٢) وإذا كالوم أو وزنوم يخسرون (٣) ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون (٤) ليوم عظيم (٥) يوم يقوم الناس لرب العالمين (٦) (١) وفى الآيات بيان التطفيف ، وهو أن الرجل إذا أخذ من الناس مكيلاً أو موزناً استوفى حقه ، وإذا كال الناس أو وزنهم أخسر السكيل والميزان ، وهو خلق ردىء ، يوجد الآن فى المسلمين ولا سيما التجار منهم ، فتجدهم يعملون نوعين من السكيل : نوعاً للشراء ونوعاً للبيع ، وإذا لم يستطيعوا الوصول لتلك العمل خوفاً من سلطة الحاكم فانهم يستبقون عندهم المكيال القديمة .

والشأن فيها أن يتأسس كلهم القمم ، فتقص عن الكيال الجديدة - يستبقون ذلك النوع من المكيال ليكيلوا الناس به إذ دام باعوم ، أما فى شرائهم فيعمدون الى الجديدة منها ليكتالوا بها ، وهو ضرب من الغش والخديعة ، يلجأ إليه التجار وأصحاب الحبوب والزرار ، ولذلك نزع الله البركة من التجارة : كما نزعها من الزروع فسلط عليها الآفات .

ومما نهى الله عنه نبي الله شعيب أن لا يخسوا الناس أشياءهم . والخس : هو النقص ، والأشياء أهم من السكيل والموزون ، كاللواشى والمعدودات ، ويشمل البخن فى السائمة ، والغش والحيل التى تنتقص بها الحقوق ، ويشمل بخن الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل ، وكل ذلك فاش فى هذا الزمان فأكثر التجار باخسون مطفون ، مخسرون فيها يبيعون ويشترى ، وأكثر أهل العلم والأدب وكتب السبابة بخاسون لحقوق صنفهم ، وينكثون على غيرهم ما أعطاه الله بياعت النبي والحسد والفرور .

وأكبر أنواع البخن ، ما تراه من رجال السبابة ودعاة الاستعمار ، إذا نبغ فيهم رجل شادوا بذكره ، ووضعوا له التماثيل ، وأحلوه من المكانة العلمية أو السياسية حيث يستحق ، أما إذا نبغ فى البلاد التى احتلها فرد أو جماعة ، فانهم لا يعترفون لهم بنبوغه ، ولا ينزلونهم حيث أنزلتهم مكاتبتهم فى العلم والثقافة ، بل يتعاضون عنهم ، ويتناسون ما أعطاهم الله من مواهب ، ومامنهم من مناهيا وخصائص ، حتى يموت فيهم ذلك النبوغ ، وحتى لا يتأسى أحد بهم فى الطريق الذى سلكوه ، والتضعفات التى قاموا بها ، وكثيراً ما يلجأ المستعمر الى قتل النبوغ من ناحية أخرى

سوى تثبيط النابغ ، والخط من شأنه .

تلك الناحية هي أن يصرّفه عن الجهة التي نبغ فيها ، ويشغله بعمل لا يمتّ إلى مواهبه بصلة ، فمثلا إذا نبغ في البلاد رجل مهندس ، فانه يشغله بعمل إداري لئلا يلهي في تلك الناحية الهندسية التي ترجو البلاد من وراثتها نفعا كبيرا ، وخيرا واسعا ، وإذا نبغ رجل في علم الكيمياء شغله المستعمر بعمل كتابي أو ما يشبه ذلك العمل ، وبمرور الأيام على ذلك النابه تنأكد معلوماته ، وتنتهي تجاربه ، ويصح أنرا بعد عين ، لم تحن البلاد من نبوغه شيئا ، ولم تستفد من عبقريته فائدة ، ألا قائل الله السياسة وأغراضها ، فانها هي العلة الأولى في حرمان البلاد من نبوغ أبنائها ، والحيلولة بينها وبين ثمرات رجلها ، قاتل الله السياسة فانها هي التي تحمل المستعمر على أن يبخس أهل البلاد حقهم ، وينقصهم قيمتهم ، فان المستعمر إذا اعترف لأهل البلاد بالنبوغ ، واستفادهم أن يديروا دفتها ، ويقوموا بما عليهم لبلادهم من أعمال وتكاليف - فقد أقام على نفسه الحجة بوجوب الجلاء ، وترك البلاد لقومها وأصحابها .

يق من نخس رجال الاستعمار الناس أشياءهم نوع خفي من أنواع البخس ، لا يفتن له سوى الخاصة من الناس ، ذلك النوع هو شراء ذلك النبوغ بمن زهيد ، لاستئقيد منه البلاد ، بل هو شرّ مستطير عليها ، شراء ذلك النبوغ بالمناصب الكبيرة ، وشغل أصحابه عن التفكير الجدي فيما يعود على الأمة بالخير بتلك المناصب التي تشغل جميع أوقات الرجل ، وإن الرجل متى أحس بأنه في منصب كبير يدرّ عليه مالا جبا ، وشعر بأنه ذوسلطان ونفوذ - متى أحس الرجل ذلك الاحساس ، ضعف احساسه بالواجب عليه نحو أمته ، وأصبح يفكر في بقاء ذلك المنصب ، ويعمل له حسابا وألف حساب ، وحين ذاك يأخذ في استعمال نبوغه فيما يسمونه الحكمة والتؤدة في الأمور ، وإتيان البيوت من أبوابها ، وما إلى ذلك من الكلمات العسولة التي تحمل في طياتها الجبن ، والخور ، والهزيمة والتردد ، كل ذلك بفضل سلطان المنصب الكبير ، وللال الجمّ والنفوذ الواسع . ولو نظر الإنسان نظرة فيها شيء من الامعان لعرف أن المستعمرين دائما يعمدون إلى الأزياء فيكبّلونهم بالمناصب ، كما يضمّنواكم أفواههم ، وصمم آذانهم ، وبذلك يكون نبوغهم لهم لا عليهم ، ودكّوهم مستخدما في تثبيت أقدامهم وشرعية بقائهم .

(٤) (ولتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، والبغى والعدوان على الأنفس والأعراض ، وافساد الأخلاق والأداب بالاثم والقواش الظاهرة والباطنة وافساد العمران بالجهل وعدم النظام ، فقد أصلح الله تعالى حال البشر بنظام الفطرة ، وكال الخلقة ومكنهم من اصلاح الأرض بما آتاهم من القوى العقلية والجوارح ، وبما أودع في خلق الأرض من السنن الحكيمة ، وبما بحث به الرسل من مكلمات الفطرة .

يلفتنا إلى أن الاعراض عن دعوة الرسل ، ومناصبتهم العداوة هو إفساد في الأرض ، لأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إعلجاءوا بمعاداة الناس في دينهم ودنيائهم ، جاءوا بالأخلاق المرصية والأعمال الصالحة ، جاءوا ليحلوا للناس الطيب ، ويحرموا عليهم الخبيث ، ومادامت دعوة الرسل هي دعوة إلى الإصلاح في الأرض ، فانخروج عليها فتنة في الأرض وفساد كبير (ذلكم خير لكم)

الإشارة الى كل ما تقدم من أمر ونهي : أى هو خير لكم في دينكم ودنياكم ، لم يكن تكليف إعانت ، فانه تعالى لا يأمر إلا بما هو نافع لكم ، ولا ينهى إلا عما هو ضار بكم ، وهو غنى عنكم ، ولو شاء لأعنتكم ، وقوله (ان كنتم مؤمنين) يريد أن مقتضى إيمانكم بالله ، وأنه للشرع الذى لا يدو حد الحكمة والمصلحة ، ولا يحل للناس إلا الطيب ، ولا يحرم عليهم إلا الخبيث .

مقتضى ذلك الإيمان اتباع رسوله والعمل بجميع ما جاء به من عند الله ، وان خالف الهوى ، أولم تظهر له منفعة بادية الرأى ، بل مقتضى الإيمان اتباع الرسول حتى فيما يظن للمؤمن أنه مناف لمصلحته ، فتحصل له فوائده ومنافعه ، وإن لم يعلم أنه علة لها بحسب حكمة الله وسفنه ، فكيف إذا علم ذلك بالتفقه في الدين ، والوقوف على حكمه وأسراره .

وقد عهد في القرآن الكريم التقيد بهذا الشرط في مواطن كثيرة فتراه في سورة البقرة يؤنب المفرقين بين رسول ورسول في أصل الإيمان ، ويقول (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم . قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين «٩١») ليريه ان مقتضى إيمانهم بما أنزل عليهم من الكتب أن لا يقتلوا رسولا من الرسل ، ومثله في سورة آل عمران (قل قد جاءكم رسول من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموه ان كنتم صادقين «١٨٣») .

وترى نبي الله عيسى عليه السلام وهو يخط قومه وقد اقترحوا عليه ائزال مائدة من السماء . يقول لهم (انقوا الله ان كنتم مؤمنين «١١٢»)^(١) يريد أن مقتضى إيمانكم أن لا تخرجوني ، وترى القرآن الكريم في سورة الأنفال يقول (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) .

وتراه وهو يحرض على قتال قوم نكثوا الإيمان ، وهو باخراج الرسول من بلده وبدءوا المؤمنين بالعداوة ، يقول لهم في سورة التوبة (اتخشونهم فانه أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين «١٣») وتراه في سورة النور بعد أن وعظ الذين جاءوا بالافك ، وأخذ يذكركم بما يجب عليهم نحو اخوانهم المؤمنين من ظن الخير ، والاحتياط في الرى بالزنا ، وبعد أن بين الله أنه لولا فضل الله عليهم لسهم فيما أفوضوا فيه عذاب عظيم ... بعد ذلك كله يقول لهم (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين «١٧») .

من ذلك كله تعرف أن الفرض من هذا الشرط حفز النفوس الى العمل ، وسوقها الى الامتثال مادامت قد آمنت بأن الله تعالى لا يشرع للناس إلا ما فيه الخير ، ولا يريد بتشريعه إعانتها ، ومادام أساس تشريعه العلم المحيط ، والحكمة العادلة ، وأن الرجل منا إذا وثق بطبيب من الأطباء أسلم له نفسه ليعطيه من الأدوية ما شاء ، ويدخل على نظام معيشته من الأساليب ما يريد ، وقد يكون في دوائه القضاء العاجل على ذلك المريض ، بل يعلم الرجل نفسه للطبيب ليعتر عضوا من أعضائه لاغنى له عن بتره . يقبل المريض على الطبيب راضيا مطمئنا ، ثم يكلف نفسه استساعة دوائه المر ، وعلاجه للمرض ، ويصبر على عملية البتر أو يقر البطن أو اخراج عضو من أعضائه الباطنة ، كل ذلك لأنه وثق بذلك الطبيب المحدود العلم ، القليل البضاعة في صناعة الطب ، أفلا يعلم نفسه

لامله قادر حكيم ، له من العلم المحيط ، والقدرة الشاملة ، والحكمة الواسعة ، ما لا يعرفه غيره ، ولا يحيط به سواه . إذا كان الإيمان بالطبيب - وهو عرضة للخطأ ولم يؤت من العلم إلا القليل - قد يصل بالرجل الى حد أن يسلمه نفسه ، فيحرم على نفسه من أنواع المأكولات والشروبات ماحومه عليه الطبيب ، ويبيع نفسه ما أباح ، وقد يمكث الشهر أو الشهرين وهو محمي من بعض الأطعمة أشوق ما تكون إليه ، ومن بعض الأثرية التي ما تكون عنده ، أفلا تكون الثقة بالله تعالى أعلى وأغلى من هذه الثقة ؟ والاطمئنان الى تحليله وتحريمه فوق الاطمئنان الى أوامر الطبيب ونواهيه ؟ .

نعم ان الإيمان بالله تعالى أعظم من إيمان الناس بعضهم ببعض ، والثقة بشريع الله الذي لا يأتيه الباطل ، ولا يعترض للخطأ أقوى وأشد ، وعلى المؤمن أن يتق بأمر الله تعالى ونهيه ، ووعدوه ووعيدة ، فان فقه حكمة الله في تشريعه فذلك فضله ، وان جهل حكمته فليعمل على فقهاها ، ولا يجرمه جهله بالحكمة أن يدع العمل بما جهل ، فان فقهه العامة بحكمة الشارع تغنيه عن فهم الحكمة الخاصة للباب الذي جهل حكمته .

وقد ضرب الامام الغزالي مثلاً لتلك الطبيب بمفالك دواء قد ركب من عدة عقاقير ، على نسب خاصة ، فهل من العقل أن تقول للطبيب لا أتعاطى دوائك إلا بعد أن أعرف ماحواه من عقاقير ، وما اشتمل عليه من نسب ، أو العقل والحكمة أن تدع ذلك التنصّل للرجل الذي درس العقاقير ، وعرف خصائصها ، ودرس الأمراض فعرف علاجها ويركب لها من الأدوية ما يناسبها ، وشرط فيها من النسب والأوضاع ما يمكن من القضاء عليها ، فالدين في جلته معقول واضح ، وفي أوامره ونواهيه على وفق الحكمة والمصلحة وقد يعرض لبعض الناس شبهة في حكمة عمل خاص فتقف به تلك النسبة عن الاطمئنان لتلك العمل ، كالحجج شرعه الله ليكون وسيلة من وسائل التعارف واتصال الشعوب بعضها ببعض .

وقد أشار الله تعالى الى تلك الحكمة بقوله (يجعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ^(١)) وقال (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق «٢٧» لينهدوا منافع لهم ^(٢)) فإذا جهل الانسان حكمة السي بين الصفا واللوة ، أو حكمة ربي الجبل فحسبه أن يعرف الحكمة العامة ، وكالصلاة شرعها الله تعالى لأنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما قال (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ^(٣)) فإذا جهلنا حكمته في أن جعلها خاساً في كل يوم وليلة ، وجعل الظهر أربعاً والمغرب ثلاثاً ، والصبح اثنتين ، فلنكمل حكمة ذلك التنصّل الى الشرع الحكيم ، كما وكنا حكمة نسب الدواء الى الطبيب الذي يعرف جلته وتفصيله ، وكالصوم شرعه الله تعالى ليعدنا به للتقوى ، كما قال (لعلكم تتقون «١٨٣» ^(٤)) فإذا جهلنا حكمته في جعله شهراً في كل عام ، فلا يقف بنا جهل حكمة العدد عن أداء الصوم ، وهكذا .

وحسبنا أن نعرف أن العبادات معقولة في جلتها ، وإن كانت قبيحة في تفصيلها ، ولعلنا بعد زمن نفقه هذه الحكم ، ونقف على أسرار التشريع ، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله

واسع عليهم «٥٤»^(١) (يؤتى الحجة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب «٢٦٩»^(٢)).

(٥) (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كانوا يجلسون في الطريق فيقولون لمن أتى عليهم : ان شعبيا كذاب فلا يقتلكم عن دينكم . وفي رواية عنه . بكل صراط : طريق - توعدون قال : تخوفون الناس أن يأتوا شعبيا .

وروى عن مجاهد تفسيره بالسبيل المجازى : أى بكل سبيل حق . ويصح إرادتهما معا فهو ينههم أن يقعدوا بكل طريق يتوعدون المؤمنين ويتهدونهم إذا هم آمنوا ويصدون عن سبيل الله ودينه الحق المؤمنين بالقوة أو بضروب الفتنة والتعذيب كما حصل من قریش في بدء الاسلام كانوا يعذبون ضعفاء المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ، ويصرفوهم عن الحق كبلال بن رباح كان مملوكا لأمية بن خلف الجحفي ، فكان يجعل في عنقه حبلا ويدفعه الى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد ، وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لتضجت ، ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعب اللات والعزى ، فيقول : أحد أحد . ومثله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه ، كانوا يعذبون بالنار ، فرتبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صرا آل ياسر فوعدكم الجنة . وخباب بن الارت سبي في الجاهلية فاشترته أم أتمار ، وكان حدادا ، فلما أسلم كانت مولاته تأتي بالجديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر ، فلا يزيد ذلك إلا إيمانا ، هذه مثل من فعلته قریش مع المؤمنين ليصدوهم عن سبيل الله ، وهو يرينا مقدار حق أعداء الحق على المؤمنين ، وتألمهم من إيمانهم في كل زمان .

أما قوله (وتبغونها عوجا) فالمراد أنهم أضافوا الى قعودهم بكل طريق يتوعدون المؤمنين فيه ، ويصدونهم عن سبيل الله .

أضافوا الى ذلك أنهم يغيثون طريقة الرسل معوجة أو ذات عوج : أى غير مستقيمة فأصحاب الظلم العظيم - وهو الشرك - يشوبون التوحيد بشوائب كثيرة من الوثنية ، أعماها الشرك في العبادة ، فلا يتوجهون فيه الى الله وحده ، بل يشركون معه في الدعاء والتوجه غيره (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء^(٣)) وإذا أنكر عليهم منكر يتأولون فيقول العاصي : المحسوب منسوب ، الواسطة لالتكر ، ويقول دعى العلم : هذا توسل واستشفاع ، لآعبادة ولادعاء ، والأولياء أحياء في قبورهم كالشهداء ، والظالمون بالابتداع يغيثونها عوجا بما يزبدونه في الدين من البدع والمحدثات ، ومستندهم في هذه البدع النظريات الفكرية ، والتأويلات الجدلية ، واستحسانات ينكرونها أصولها ، يأخذون بفروعها ، وعواقبهم يقولون قال فلان من المؤلفين ، وفعل فلان من الصوفية الصالحين ، ونحن لانفهم كلام الله ولا كلام الرسول ، وإعنا نفهم كلام هؤلاء الفحول .

والظالمون بالزندقة والنفاق يبعثونها عوجا بالشك فيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصد عنها .

والظالمون في الأحكام يبعثونها عوجا بترك تحريم ما أمر الله تعالى به من التزام الحق ، وإقامة ميزان العدل ، والسواة فيها بين الناس بالقسط ، بأن لا يحابي أحدا لفناء أو قوته ، ولا يهضم حق أحد لضعفه أو فقره ، ولا لنفسه أو كفره (ولا يجرمكم شئ من قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى «٨»^(١)) والظالمون بالغلو فيها جعلوا يسرها عسرا ، وسعها ضيقا وحرجا ، وزادوا على ما شرعه الله من أحكام العبادات ، والمحظورات والمباحات أضاعا ما أنزله الله في كتابه ، وما صح من سنة رسوله ، مما ضاقت به مطولات الأسفار ، التي تنقضى دون تحصيلها الأعمار ، ومنهم من جعل غاية الاهتمام بها الفقر والمهانة ، والقلة والاستكانة ، خلافا لما نطق به الكتاب من عزة المؤمنين ، وكونهم أولى بزينة الدنيا وطيباتها من الكافرين .

فهذه أمثلة لمن يبعثونها عوجا من التمين إليها ، والدعين لهدايتها ، وأما أهداؤها الصرخاء فهم يلعنون في كتاب الله وفي خاتم رسوله جهرا بما يخلعون من الأفك ، وما يحرقون من الكلم ، وما يخترعون من الشبهات ، وما يخفون من الشككات .

ثم أخذ نبي الله شعيب عليه السلام يذكركم بنعم الله عليهم ، إذ كانوا قليل العدد فكثرتهم الله تعالى بما بارك في نسلهم ، فعلمهم أن يقابلوا أفعال هذه النعمة بشكره ، والعمل بوصاياه ، ثم أمرهم أن ينظروا كيف كان عاقبة الفاسدين من الشعوب المجاورة لهم ، كقوم لوط وقوم صالح ، وكيف أهلكتهم الله بضادم ، فيجب أن يكونوا عبرة لهم في ذلك .

ثم أخذ يقول لهم إذا كان بعضكم قد آمن بما أرسلني الله به إليكم من التوحيد والعبادة والأحكام المقررة للإصلاح ، وبعضكم لم يؤمن بها ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بالفعل ، وهو خير الحاكمين ، لأنه يحكم بينكم بالحق والعدل ، فإن لم يعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم ، فسيرون ما يحل بهم .

(٦) (قال الملا الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لنعدون في ملتنا) كان هذا ردهم على دعوة نبي الله شعيب لهم أن يعبدوا الله وحده ، وأن يوفوا الكيل والميزان ، ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، ولا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ولا يصعدوا الناس عن سبيل الله ودينه ، ولا يشككوا في عقائدهم ، وأن يذكروا نعم الله عليهم وفضله معهم .

كان ردهم عليه الوعيد والتهديد ، بدل أن ينظروا في هذه الدعوة أي حق أم باطل ، وهل هي دعوة إلى مكارم الأخلاق أم إلى الفاسد منها ، فأقسموا ليكون من اللائ المستكبرين إخراج شعيب والذين آمنوا معه من بلدهم ، أو ليعودوا في ملتهم ، وعلى شعيب ومن معه أن يختاروا لأنفسهم . قيل التعبير بالعود يقتضي أن شعيا ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهو صحيح بالنسبة للمجموع فجاز أن يحاطبوا بذلك [وفيهم نبي الله شعيب] من باب التغليب ، لأن شعيا

وجميع الأنبياء موصومون من الكفر حتى قبل النبوة ، أولان شعيبا لم يعرف عند قومه قبل النبوة بعة تحالف ملتهم ، لأنه وقف من عقائدهم وأعمالهم موقفا سلبيا ، لم يشاركهم فيها ، ولم ينهم عنها غسواء واحدا منهم ، كما قالوا لصالح عليه السلام (يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) وكان رجائهم فيه لوقوفه منهم ذلك الموقف ، ومنهم من قال : العود الرجوع الى الشيء بعد الانصراف عنه بالذات أو بالقول والعزيمة ، ومنه نته والمعوذ الى غيره ، ولا يقتضى هذا المعنى سبق الكون فيه ولا عدمه .

يقول نبي الله لم بعد ذلك التهديد (أولوكنا كارهين) يريد أنعود في ملككم على كل حال حتى حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها ، وما يترتب عليها من الفساد في الدنيا والآخرة ، أولوكنا كارهين لأحد الأمرين ، وهو استفهام تعجب من صنيعهم واستنكار لطلبهم ، ووجه التعجب والامكار جهل هؤلاء بكنه الدين والملة ، وكونه عقيدة يدان الله بها ، وأعمالا يتقرب إليه بأدائها ، وجعلهم يكون حب الوطن وألف السكن لا يبلغ هذه المنزلة ، ويجعلهم هذا ظنوا أن شعيبا عليه السلام قد يؤثر هو ومن معه المجتمع بالاقامة في وطنه ، ومجاعة أهله في كفرهم وردائهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد والنضال ، ذلك بأن الملة عند أولئك الملا رابطة تقليدية . وعصبية قوية .

وملة الرسل عليهم السلام ليست كذلك ، بل هي دين مالك للنفس ، حاكم على الوجدان والعقل ، يقصد به الكمال البشرى الأعلى بمعرفة الله تعالى والقرب منه ، وما يقع ذلك من صلاح الدنيا وسعادة الآخرة ، فان تمكن صاحبه من إقامته في وطنه وإصلاح أهله به فهم أحق به بداء ودواما ، وان منع فيه حرته ففقد في دينه كان تركه واجبا .

(إن الدين توفاهم الملائكة ظلمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا «٩٧» إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا «٩٨» فأولئك عسى الله أن يسفو عنهم وكان الله عفوا غفورا «٩٩» ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مزاغيا (١) كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما «١٠٠» (٣) .

هذا وان طريق نفي المصالح ، والحيولة بينه وبين وطنه ، ومسقط رأسه : هو طريق المفسدين وأعداء الإصلاح منذ زمن بعيد ، فهؤلاء قوم لوط يدعونه نبي الله لوط عليه السلام الى عبادة الله وإلى ترك الفاحشة ، فيكون جوابهم له (أخرجهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون «٨٢» (٣) يتعاونون على اخراج لوط وشيعته من بلده ، ثم يملكون ذلك الاخراج بأن لوطا ومن معه أناس يتطهرون من الفاحشة الذين تلوّثوا بها ، فأصبحت الطهارة من الفواحش جريمة عند أولئك القوم ، يستحقّ ذووها أن يحال بينهم وبين وطنهم ، كما أصبحت هذه الفاحشة عادة مألوقة

[١] منمبا يذهب إليه . [٢] النساء . [٣] الأعراف .

لائعجها الطباع ، ولا تنفر منها النفوس ، وبذلك صار للعرف عند منكرها ، والمنكر معروفا ، وذلك أحط دركات النفوس ، وأدون مغلة تصل إليها الفطر .

وهؤلاء اللائ للسكر من قوم شعيب يتوعدونه باخراجه من بلده ، أو يرجع الى باطلهم ، فيفسد عقله ، ويدنس فطرته ، ويحمل مواهبه ، ويلقى مانصب الله له من أدلة وبراهين على حقية دعوته ، ووضح طريقه ، يهدونه ذلك التهديد ، ويهدون من معه من المؤمنين المخلصين ، الذين عرفوا أن طريقه حق فابعوه ، وأن ماعد القوم باطل فتركوه ، وكأنهم يقولون لشعبة نبي الله شعيب : يجب أن نلقوا عقولكم ونهملوا مواهبكم ، وتكروا إنسانيتكم ، فلا يكن لكم الحق في أن تختاروا من الطرق أيها ، ومن الخطط أوعها ، ومن الأدلة أقواها ، والذي يختار لكم غيري ، ويرسم لكم الطريق سواكم ، وسواء عليكم بعد ذلك رضيت أم سخطتم ، اطمانتم الى ذلك العمل أو اضطررتم .

وهؤلاء الذين كففروا بالرسول جميعهم يقولون لهم (لنخرجكم من أرضنا أولنعودن في ملتنا ١٣٥)^(١) وهؤلاء المستعمرون وصنائع المستعمرين يقولون لطلاب الاستقلال وزعماء الأمم قالة الكفار للرسول (لنخرجكم من أرضنا أولنعودن في ملتنا) وملة المستعمرين أن تبقى البلاد ملكا لهم ، يمتنون بحيراتهم ، ويستأثرون بالحكم فيها ، يوظفون فيها رجالهم ، ويصرفون تجارتهم ومصانعهم ، ويوجهونها خيرم وخير بلادهم .

ملتهم أن لا يسمحوا لأحد أن يصيح في وجه الظالم ليطالبه بالعدل ، أو يرفع رأسا للطالبة بحق ، ملتهم أن تبقى الناس عبيدا لهم مسخوين ، وأداة طبع ، يعملون وهم يمتعون ، ويكدون وهم مرفهون ، إذا ظلمهم شكرهم على ظلمهم ، وإذا استبدوهم جدوم على أحكامهم .

تلك هي ملة للمستعمرين وصنائع المستعمرين ، يزعمون أن الله بهم خير الانسانية ، وخلقهم ليكونوا أوصياء على الشعوب والأمم ، يعملون لهم الصالح ، ويتجنبون لهم الضار ، لا يبلغ شعب من الشعوب سن الرشد إلا حيث شهدوا له بذلك ، ولا يصل الى المكانة اللاتقة به من الثقافة إلا حيث اعترفوا له بالوصول ، وهم لم يبعثوا إلا لشر الانسانية ، والحيولة بينها وبين المكان اللائق بها .

ألا ترى كيف يعملون بين الأمم وبين العلم النافع ، والطبع الثمر المفيد ، وكيف يسلطون عليها من جيوش الشهوات ما يفسد أخلاقها ، ويذهب بكرامتها ، وكيف يعملون بين النبوغ والأمة حتى لا تستطيع أن تقتنع بالنابيين من أبنائها ، والاخصائين من علمائها .

يفشرون العلم النافع في بلادهم ويحرمونه على غيرهم ، يهتمون بالعدل والانصاف في معاملتهم ، ويقوضون أركانهم في مستعمراتهم ، يملأون العالم بأساطيلهم في البر والبحر ، ومعادتهم الحربية في السلم والحرب ، ثم لا يسمحون لما معهم من البلاد أن يكون له جيش يذكر ، أو معونات تنفع وتفيد ، أهذه هي الرصاية التي اتدبهم الله لها على جميع الشعوب والأمم ، أهذا هو الرق الذي يتعون أنهم خدامه المخلصون ، ورجله العاملون ، أم ذلك هو الخداع والترير ؟

ان الشعوب والأمم قد عرفت كيف تأخذ لها مكانا تحت السماء ، وتخطط لها طريقا للبقاء ، وعرفت أن الذي وهبكم من أسباب القوة ووسائل البطش ما هبكم لم تنفذ خزائنه .

وفي الحق أنه لم يعد الناس يفتحون آذانهم لأولئك الكلمات المعسولة ، بعد أن جرّبوا من دول الاستعمار كلّ بلاء ، وذاقوا منهم الحلو والمرّ ، وعرفوا أنهم قوم لا يرهبهم سوى القوة ، ولا يفضّضهم إلا السلطان والتفوذ ، ومقياس الطفولة عندهم وبلوغ سنّ الرشد : القوة والضعف . فالشعب الذي لا يزال ضعيفا في حريته ، محدودا في علمه ومؤهلاته ، فقيرا في رجاله وأبنائه ، هو ذلك الشعب الذي يستحقّ عند القوم الوصاية .

أما شعب استطاع أن يكسر لهم عن نابه ، ويقلب لهم ظهر الحجب ، ويبدل راحتهم تعباً ، وصفاهم كدراً ، ويوقعهم في مشاكل لا قبل لهم بها - شعب هذا حاله يستحقّ منهم العناية والنظر ، وأن يدخل في مصاف البشر ، يستحقّ أن يستضيء بالشمس ، ويستظلّ بالسما ، يستحقّ أن ينفع بخبراته ، ويجمع بثمرات بلاده .

وترى أولئك الدول مع اعترافهم بنبوغ الشعب وقوته وبراوغون معه ويداورن ، فإذا طالبهم بالناء الحامية التي وضوها ظلاماً ألغوا اسمها ، وأبقوا حقيقتها ، تحت عنوان لاذع ، واسم جذاب ، وإذا طالبهم بالاستقلال أجابوه الى اسمه ، وكبلوه بقيود تذهب بثمرته ، وتضيع الفائدة منه كلّ ذلك ليكون مظهرهم أمام العالم للمتمدّين مظهر النصف السابر للزمن .

هذه هي وصايتهم على الأمم ، ورقابتهن على الشعوب ، وإذا قام نفر من القوم يواجهون هذه الحقائق ، ويصرخون في وجه الاستعمار ، قابلوهم مقابلة منكورة ، وقالوا لهم ماقالة الكفار للرسول (لنخرجكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا) وقد نسوا أن الله أوحى إليهم (نهلكن الظالمين) ولفستكنكم الأرض من بعدهم) وهو وعد من الله لا يتخلّف ولا يتخلف ، واننا آمنّا بوعد الله ووعيده ، وأنه لا يرضى ظمناً في الأرض ، ولا أن يتعب الناس بعضهم بعضاً ، وانما يرضى للناس العزة والكرامة ، والعدل والاستقامة ، فليجرب الظالمون من أنواع الاستبداد بالمصلحين ماشاءت لهم التجارب ، فان النصر حليف للتقين (ولقد سبقت كلتنا لعبادنا المرسلين « ١٧١ ») انهم لهم النصورون « ١٧٢ » وان جذدنا لهم الغالبون « ١٧٣ » (١) .

(٧) (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) بيان من نبيّ الله شعيب عليه السلام لأهمّ الأمرين وأولاهما بالرفض والكراهة ، وهو انشاء لفظ الخبر - فاما أن يكون قسماً مؤكداً لرفض دعوة الملائكة إلى العود في ملتهم ، كما يقول القائل : برئت من الله أو من رجة الله تعالى ان فعلت كذا - فيكون مقابلة لتسميهم بقسم أعرق منه في التوكيد واما أن يكون تعجباً خرج على غير مقتضى الظاهر ، وأكد بهد الفعل الماضي .

والمنى ما أعظم اقتراءنا على الله تعالى ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وإذا كان من يقبح ملتكم بعد مفترينا على الله تعالى بقوله عليه مالا يعلم ، لاجهادية من الوحي ولا برهان من العقل ، فكيف يكون حال من افترى عليه وضل عن صراطه على علم (بعد إذ نجانا الله منها) .

قد علمت أن شعباً عليه السلام مستثنى من ذلك لأنه معصوم ، والكلام على التغليب ، والمراد بعد أن نجانا الله من الاتقاء إليها ، ومشاهدة أضلها .

(وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) رفض آخر للعود في ملتهم مؤكداً بلفظ

التأكيد معطوف على مناسبه ، والتعير يدل على نفي الشأن وهو أبلغ من نفي الفعل ، لأنه نفي له بالليل ، وهو كونه غير مستطاع ، ولا جاز على سغن الله في الاجتماع .

والمنى : ليس من شأننا أن نفوذ فيها إلا حال مشيئة الله التصرف في جميع الشئون ، فهو وحده القادر على ذلك لا يقدر عليه غيره ، لا أتم ولا نحن ، لأننا موقوفون بأن ملتكم باطلة ، وملتنا هي الحق ، والواقن لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره ، وأما ذلك يد مقلب القلوب سبحانه ، وهرن مشيئته ، وقوله (وسع ربنا كل شيء علما) يرينا أن مشيئته تجري بحسب علمه ، وحكته في خلقه . ومن حكته وسنه في خلقه أن يقيم حجته بأهل الحق على أهل الباطل ، وينصرهم عليهم بالقول والفعل ، وكأنه يقول لهم : إذا كان الأمر كذلك فلا قطعوا إذا أن يشاء ربنا الحق بنا عودتنا في ملتكم بعد إذ جئنا بفضلله منها ، وأقام الحجة عليكم بنا ، وما كان تعالى ليدحض حجته ، ويطل سفته ، فيقتل الهدى ضلالا ، والنور ظلمة ، والبصر عمى ، حتى يحولنا من إيمان إلى كفر ، ومن سعادة إلى شقاء ، فقلوه (إلا أن يشاء الله ربنا) استثناء مؤسس للأن من قوم شعيب من عودته عليه السلام مع من آمن معه في ملتهم فهو لتأكيد النفي ، ونظيره قول الله تعالى (سنقرئك فلا تنسى «٦» إلا ماشاء الله ^(١)) إذ ليس المراد أن الله تعالى يشاء نسيانه وقتلنا ، وإنما المراد أنه لا ينسى ما قرأه عليه مطلقا ، والإيثار بالمشيئة للتنبيه على أن عدم النسيان بفضل الله وكرمه ، لا بالإيجاب عليه ، فلو شاء أن يجعله كذلك لفعل ، وعلى ذلك جاء الاستثناء في قوله تعالى في سورة هود (وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير محذود «١٠٨» ^(٢)) أى غير مقطوع ، فلا استثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأيد والتخليد بكرم الله تعالى وسعة جوده ، لا بتجسيم عليه وإيجاب ، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع .

(٨) ان من يقابل الملأ المستكبر العاتى بتلك اللقابلة لا غنى له عن ركن شديد يأوى إليه ، وحسن حصين يعتمد عليه ، فليس غريبا أن يقول شعيب بعد أن هدده قومه بالخراج من بلده إلا أن يعود في ملتهم و بعد أن أيامهم من ذلك المود ، وأقام لهم الأدلة على أنه غير مستطاع . ليس غريبا أن يقول نبي الله شعيب (على الله توكلنا) أى إليه وحده وكلنا أمنا ، مع قيامنا بكل ما أوجه علينا ، فهو يكفيننا أمر تهديدكم ، وكل ما لم يجعله في استطاعتنا من جهادكم (ومن يتوكل على الله فهو حسبه «٣» ^(٣)) وهكذا يجب أن يتوكل على الله كل داع إليه ، ويتأوى بنى الله شعيب إذا جتبه الجنة ، فتألب عليه أعداء الحق وأنصار الباطل ، وأخذوا بهدونه بالأن من العذاب لا قبل له بها ، فيقوم بما أوجه الله عليه وما اقتضته حكمته من أسباب النصر الكونية التي تدخل تحت استطاعته ، ثم يرجع إلى الله تعالى فيما لا يقدر عليه من الأسباب ، فإذا كان واعظا استوفى للوضع الذى يعظ الناس به بحثا ، وأحاط به من جميع نواحيه وكون له رأيا في ذلك الموضوع خلاصا من الشبه ، بعيدا عن الشكوك ، وبذلك يكون داعيا إلى الله على بصيرة .

ثم بعد ذلك كله ، وبعد أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والوعظة الحسنة ، بكل أمره إلى الله تعالى في أن يصرف عنه أذى القوم ، ويحول بينهم وبين أن يئلاوه بسوء ، ثم يرجع إليه فيما يجد من الشاكل مما لم يعمل له حسابا .

وكثيرا ما رأينا شكوكا وشها توجه إلى الله اعى ثم يلهمه الله عليها الجواب النافع والرد الحسن ، وكل ذلك بفضل توكله على ربه ، ورجوعه إلى خالقه وبارئه ، بعد أن يعد لموضوعه العدة ، ويهيئ له الأسباب والمقتضات ، فمن يترك العمل بالأسباب فهو جاهل مفرور ، لامتوكل منصور ولا مأجور ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله : أترك ناقته سائبة ويتوكل على الله تعالى « اعقلها وتوكل » رواه الترمذى . وقال تعالى لرسوله بعد أن أمره بمناورة أصحابه في غزوة أحد (فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » ١٠٩ » (١)) وإنما يكون العزم بعد الأخذ في الأسباب . ومن أراد أن يكون ناجيا لا يكتفيه أن يكون عنده مال يشتري به ما يريد ، بل عليه أن يدرس للوضع الذى يريد أن يعمل فيه ، وقد أصبحت التجارة فنا من الفنون العظيمة التى ألقت فيها الأسفار ، وأنشئت لها للدارس المختلفة .

ومن السفه والحق أن يأتى الرجل الذى لا يتصل بالتجارة لا في قليل ولا كثير ، لم يتصل بها علما ولا عملا ، ثم يعمد إلى طائفة من المال ليشتري بها بقالة أو أوقية أو ما يشه ذلك .

إن تاجرا هذا حاله لابد أن يكون حظه النفس ، ولا يفتيه أن يقول : إنه متوكل على ربه ، لأنه كاذب في ذلك التوكل ، ولا يفتيه أن يكون مسلما طيب السيرة والسمة ، فإن ذلك كله شيء والاستعداد للتجارة شيء آخر ، فإن الله تعالى جرت سنته بأن عد من يعمل للدنيا من طريقها المعتاد ، وأسبابها الصحيحة أيا كانت نحلته ، وأن يخلد من لا يأتى السيوت من أبوابها ، وإن كان على دين صحيح ، وأخلاق طيبة ، ويخطئ بعض الناس حينما يعجبون من صنع الله معهم إذا زوى عنهم الدنيا وأعطاهم انبرهم ، الذين هم على دين باطل ووفية منكورة .

وسبب خطئهم أنهم حسبوا أن الدنيا يعطيها الله تعالى لمن يحب وإن خالفوا سنته ، ويحرمها من لا يحب وإن حذقوا طريق جمع المال وتبخره بطرق الاقتصاد (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » ١٨ ») ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » ١٩ » كلا نعد هؤلاء هؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » ٢٠ » انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » ٢١ » (٢) .

هذه أمثلة ضربناها للقارى حتى لا يفهم أن التوكل هو التواكل ، بل التوكل الصحيح القيام بما أوجب الله عليه من الأحكام الشرعية ، ومراعاة ما اقتضته حكمته من الأسباب والسفن الكونية والاجتماعية .

ثم قال نبي الله شعيب (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) . يطلب من الله تعالى بعد أن أدى ما عليه من بلاغ وبعد أن صبر على إيذاء قومه حتى يلتهم

العودة كلمة غير متقوصة ، وقامت عليهم الحجة أن فصل بينه وبين قومه بلحق الذي مضى به سفته في التنازع بين الرسلين والكافرين ، وبين سائر المؤمنين الصالحين والبطلين الفاسدين في الأرض ، وأنت خير الحاكمين لاحاطة علمك بما يقع به التخاصم ، وتفردك عن الظلم ، واتباع الهوى في الحكم .

(٨) لما يسى الملا من عودة شعيب ومن معه أخذوا يقولون لمن معهم (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملته على ملة آياتكم وأجدادكم ، وخاسرون اثرونكم وربحكم ، بما حذقتموه من تطفيف الكيل واليزان وبخس الناس أشياءهم ، وقد أكدوا قولهم هذا في قولهم (لئن) الدالة على القسم وتوسيط (إذا) بين طرفي الجملة ، وبجىء الجملة اسمية ، كل ذلك من المؤكيدات لضمونها ، الخلدعة لاسمعيها (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) وفي سورة هود (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) .

وقد علمت من قصة نبي الله صالح أن الذي حلّ بجمود صاعقة يصحبها صوت شديد هو الصيحة ترجف منها القلوب ، فالعذاب قد اشتمل على ذلك كله : كذلك عذاب قوم شعيب هو رجفة وصيحة ، فأصبحوا في دارهم التي أرادوا إخراج شعيب منها ، والحيولة بينه وبينها جاثمين على ركبهم من هول ما أصابهم .

ثم أراد أن يصور لنا ما أصاب القوم من هلاك ، وما حلّ بهم من تدمير ، فقال (الذين كذبوا شعيبا كأن لم يقنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) ليرينا أنهم أصبحوا أثرا بعد عين ، فانهت عظمتهم ، وزال كبرياؤهم ، وجعلهم الله أحاديث .

واظركيف يكرر الله علينا كلمة (الذين كذبوا شعيبا) بأسلوب الخطابة المؤثرة في الوعظ والتوبيخ كما تقول ، كما تقول : أنت الذي جنيت علينا ، أنت الذي سلطت علينا أعداءنا ، أنت الذي فرقت كلمتنا ، ثم يختم ذلك الأسلوب بقوله (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) وهو رد على قولهم (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) ليريبهم أن الذي خسروا دينه ودنياه هم الذين كذبوا شعيبا ، أما المؤمنون بشعيب فقد أنجاهم الله في الدنيا وسينجيهم في الآخرة .

ثم كان من نبي الله شعيب أن تولى عن قومه بعد أن حلّ بهم من عذاب الله ما حلّ ، وأخذ يخاطبهم بأنه أبلغهم رسالات ربه ، وعصمهم النصح ، ولكنهم لا يسمعون الناصحين ، فالعيب عليهم لاعليه ، فكيف يحزن عليهم ، وقد أعذر إليهم ، وبذل جهده في سبيل هدايتهم ونجاتهم وانما يأسى من قصر فيها يجب عليه من النصح والارشاد .

شعيب عليه السلام

وَلِإِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالزِّينَانَ إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

مُحِيطٌ^(١) «٨٤» وَيَقُومُوا أَوْفُوا لِلْكَيْلِ وَالْزَيْزَانُ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَ مِنْهُمْ وَلَا تَقْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «٨٥» بَقِيَتْ^(٢) اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُحْفِظٍ^(٣) «٨٦» قَالُوا يُشْعِبُ أَوْلَادَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَبْرُكَ مَا يَمْنُوكُ ، أَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَقْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ «٨٧» قَالَ يَقُومُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ «٨٨» وَيَقُومُوا لَا يَخِرُّ مِنْكُمْ^(٤) شَيْقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ «٨٩» وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ^(٥) «٩٠» قَالُوا يُشْعِبُ مَا تَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ «٩١» قَالَ يَقُومُوا أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَانْخَافُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَا^(٦) إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «٩٢» وَيَقُومُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ^(٧) إِنِّي عَلِيلٌ سَوْفَ تَمْلَهُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَوْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ^(٨) «٩٣» وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ^(٩) فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جُثَيْنٍ^(١٠) «٩٤» كَأَنْ لَمْ يَنْفُتُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَذِينَ كَمَا بَعْدَتْ كُفُودُ «٩٥» هود

[١] مهلك : أو مستأصل . [٢] ما يبقى لكم من الحلال ، أو طاعته . [٣] أحفظكم من الضائع أو أحفظ عليكم أموالكم فأجزيكم عليها أو سديق عليكم نعم الله تعالى مع سوء صنيعكم . [٤] يكسبكم مكاره . [٥] عظيم الاحسان بالمتقين . [٦] منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغيرات النسب . [٧] مصدر مكن مكانة فهو مكن : أي حملوا على قدرة منهم على مداوى . [٨] صوت الذئاب . [٩] مبعين لازمين لأما كنهم « يفتنوا » يفتنوا .

شرح وعبرة

(١) بعد أن دعاهم شعيب إلى عبادة الله وحده ، وعلم قصص الكيال واليزان ، قال لهم (أفي أراكم بخير) يريد أنكم في ثروة واسعة فتنبكم عن التطفيف ، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفضلون ، ثم خوفهم من عذاب الله تعالى إذا هم خالفوه وخرجوا عن حدوده ، فقال (وإني أخاف عليكم عذاب يوم يحيط) توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لا يخرج منه أحد ، والمحيط من صفة اليوم في الظاهر ، وفي المعنى من صفة العذاب ، وذلك مجاز مشهور ، كقوله (هذا يوم عصيب) قيل إنه تخويف من عذاب الاستئصال في الدنيا الذي يحيط بهم كالحاطة الدائرة بما في داخلها ، فينالهم من كل وجه ، وذلك مبالغة في الوعيد ، كقوله (وأحيط بجره «٤٢»^(١)) وقيل إنه تخويف من عذاب الآخرة لأنه اليوم الذي نصب لاحاطة العذاب بالمعذنين فلا يشذ منهم أحد ، وهو صالح للأمرين جميعا .

وبعد أن أمرهم ثانيا بإيلاء الكيل واليزان بالقسط والعدل ، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم ، قال (بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) وهو كقوله في سورة الأعراف (ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين) والمراد أن ثواب الله خير لهم من التطفيف والاختصار والبخس ، وإنما أطلق على الثواب بقيت لأنه الذي يبقى لصاحبه ، أو المراد أن ما يبقى لهم من الحلال بعد إيلاء الكيل والوزن خير من التطفيف ، لأن الناس إذا عرفوا إنسانا بالصدق والأمانة ، والبعد عن الخيانة ، وتقوا به ورجعوا إليه في معاملاتهم ، فيفتح عليه باب الرزق ، وإذا عرفوه بالخيانة والكر انصرفوا عنه ، ولم يحاططوه فتضيق عليه أبواب الرزق .

ومن ذلك نعرف أن طاعة الله تعالى تفيد صاحبها في دنياه وأخراه ، وتكسبه من سعة الرزق وثقة الناس به ما لا يكسب غيرها ، ويستطيع التاجر الصدوق أن يعيش ورأس ماله تلك الثقة التالية ، يستطيع أن يعيش على حساب ما لغيره من المال موفور الكرامة محترما .

أما التاجر الكذوب فلا يلبث أن ينكشف أمره ، وتفضح أعماله ، وإذا عاش سنة فلا يستطيع أن يعيش سنين ، لذلك كانت (بقيت الله) خيرا للناس في دنياهم ، وخيرا لهم في آخرهم ، ولعل في ذلك عبرة لتجارنا الذين مرتوا على الكذب ، وتوقدوا النش والخديعة .

أما قوله (إن كنتم مؤمنين) فهو مطالبة بمقتضى الإيمان ، وقد استوفينا الكلام على هذه الجملة في قصة شعيب من سورة الأعراف .

(وما أنا عليكم بحفيظ) ما بعث لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازكم عليها ، وإنما بعث مبلغا ، ومنها على الخير وناصحا ، وقد أعلنرت حين أنذرت ، أو لاستطيع أن أحفظ عليكم نعم الله إذا أتم كفرتموها ، فهو تهديد لقومه بزوال نعم الله عليهم إذا هم استمروا على عصيانه ، والخروج على حدوده وتعاليمه .

(٢) (قالوا يا شعيب أسلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آبؤنا أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء)

قابوا دعوة نبي الله شعيب الحادة بكلمات التهكم الساخر ، وأراد أن هذا الذي يأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل ، وأن مثله لا يدعوك إليه داعي عقل ، ولا يأمرك به أمر فطنة ، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان ، وهو صلاتك التي تداوم عليها في ليالك ونهارك ، وهي عندهم من باب الجنون الذي يتولج به المجانين والموسوسون ، فقد سخروا [أولاً] من نبي الله شعيب عليه السلام في عبادته ، ثم سخروا منه [ثانياً] في أمره ونهيه ، وقد أضافوا الأمر إلى الصلاة في تهكمهم ، لأنهم ينكرون أن يكون طريقه الوحي السامى .

وما أقرب الشبه بين [للالاستكبر] من قوم شعيب وبين طائفة من شبابنا اليوم ، الذين لا يقفون من المصلين موقفاً سليماً غريباً ، بل يسخرون من صلاتهم ، ويتكلمون بهم في ركوعهم وسجودهم ، ويستحقون من الرجل أن يضع جبهة على الأرض ، وأن يعفر وجهه بالتراب ، خضوعاً لله واعترافاً له بالجليل ، وفي الوقت نفسه يسمحون لأنفسهم أن يخترعوا ساجدين لأرباب النفوذ وأصحاب السلطان ، رغبة فيما بأيديهم من حطام ، أو رهبة مما عندهم من بطش وقوة ، يستقبحون أن يخضعوا للخالق صاحب السلطان الأعظم ، ومالك السموات والأرض ، ويبيحون لأنفسهم أن يذلوا لعبد لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، بل يستبجح فريق منهم أن يذلّ أمام قبر من قبور الصالحين متوسلاً بصاحب القبر أن يدفع عنه شراً ، أو يجلب له خيراً .

فنحن أمام تيارين متناقضين : تيار الإلحاد واللا دينيين ، الذي ينكر أن هناك إلهاً يستحق أن تخضع له الرقاب ، وتذلّ له النفوس ، وتبارك الأشرار الذي دخل على المسلمين كما دخل على غيرهم من الأمم ، غفلطوا إيمانهم بظلم ، وهم القبور يبالغون في تعظيم الصالحين ، حتى طلبوا منهم ما لا يطلب إلا من الله تعالى ، ووضعوا موضعاً غير لائق بهم ، وسيتبرهون منهم ومن شركهم وكلا الطرفين : طريق الإلحاد ، وطريق الشرك : ظلم بين ، وخروج عما ينبغي .

أما الإلحاد فإنه إنكار لما لله من آيات ودلائل في النفوس والآفاق ، وهي أوضح من أن تذكر ، وأكثر من أن تعدّ ، وأما الشرك فلا لأنه تسوية للمخلوق بالخالق ، والعد بالرب ، والفقير بالفتى ، والملوك بالمالك .

فهاتان زعمتان متناقضتان : إحداها تبالغ في العزة حتى تنكر الخضوع لاله ، وأخرى تمتهن إنسانيتها حتى تخضع لعبد من عباد الله ، وقد تمتهن في امتهاها نفسها حتى تخضع لحجر تحته يدها ، أو خشب من صنعها وعملاها . نفوذ بلية من الإفراط والتفريط ، ونفوذ بلية من جهل الرجل نفسه ، ونسيانه خالقه ورازقه ، كانهوذ به من خضوع الإنسان للإنسان ، وعبادة المخلوق للمخلوق . (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون «٦٤» (١)) .

وقوله (أو أن تفعل في أموالنا ما نشاء) عطف على قوله (ما يعبد آباؤنا) فالمراد أن ترك أن تفعل في أموالنا ما نشاء : من تخفيف وإخسار وغير ذلك . ينكرون على نبي الله شعيب أن

يأمرهم بترك عبادة الأوثان ، وترك أن يضعوا في أموالهم عند البيع والشراء ماشاءت لهم الشهوات وزينت لهم الصالح .

(إنك لأنت الحليم الرشيد) أرادوا نسيته الى غاية السفه والتي ، فعكسوا ليتكوا به ، كما يقال للشحيح الخسيس : لورأك حاتم لسجد لك ، أو أرادوا إنك معروف عند قومك بالحلم والرشد فلماذا تأمرهم بترك دين ألفوه عن آباءهم وأسلافهم وترك عمل يعود عليهم بالثراء والمال الجم ؟ وفاتهم أن الرشد في أن يعرف الانسان ربه ويشكروه على ماوهبه من النعم ، ويضع نفسه حيث وضعها الله من إجلال وإكرام ، وأن مالم عليه من عبادة الأوثان ، وأكل مال الناس بالباطل لا يتصل بالرشد في قليل أو كثير .

وانما الرشد فيما دعاهم إليه ، وحضهم على الوصول له من سعادة في الدنيا والدين .

(٣) قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وورثتي منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

يطالب قومه أن يخبروه ان كان على بينة من ربه بالعلم والهداية ، والدين والنبوة ، ورزقه رزقا حسنا استغنى به عن أن يسأل الناس أجرا على هدايتهم وتبليغهم الدين ، ولا يريد أن يخالف قومه إلى ماينهم عنه فيستأثر به دونهم ، وانما يريد أن يصلح مااستطاع إصلاحه ، ولا يعتمد في إصلاحه إلا على ربه ، فهو الذي يوفقه ، ويزيل من بين يديه عقبات الإصلاح ، وهو الذي يرجع إليه ويعتمد عليه - يطالب قومه أن يخبروه ان كان على هذه الصفات أليق بهم أن يقولوا في شأنه ما قالوا وأن يتكوا به ذلك التكم الشأن ؟ وقد خلطهم بأسلوب غير القاطع فأتى بأن ترفقا بهم ، وكأنه يريد أن أولئك الصفات لاتنفق والسفه بحال من الأحوال فان الرجل الذي آناه الله علما وهداية ، فكان على بينة من ربه ، ورزقه الرزق الحسن فكان يعيش من كسبه وكده ، ولم يطلب من قومه أجرا على دعوته ، ولا يريد أن يسبقهم الى شهواتهم التي نهاهم عنها ، من تطفيف التكيل وإخسار البزاق ، وما الى ذلك ، وانما هو مؤمن بما يدعو إليه ، قدوة صالحة في تمسكه بالفضيلة وبعده عن الرذيلة ، وهذه الصفة من أخص صفات الدعاة الصادقين ، ولذلك يلقنا الله إليها في قوله (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون « ٣١ ») (١) وما دام لم يرد بدعوته أجرا من الداعين ، وهو مؤمن بما يدعو إليه ، مقتنع بأحقية ، فهو لا يريد سوى إصلاح قومه جهد استطاعته . ورسول ذلك حاله ، وتلك دعوته لايصح أن يقابل بالتهكم والمزء ، وانما يقابل بالاجلال . (ويا قوم لا يحرمكم شئني أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم بعيد) .

يحذّرهم نبي الله شيب أن لاتحلمهم مشاقهم له أن يعصوا الله ويخرجوا عن حدوده فيصيبهم من العذاب ما أصاب من قبلهم من المكذبين ، وكثيرا ما يجر التحذير في العداوة إلى ما لاتحمد عقباه ، وكأنه يقول لهم : كونوا قوما عقلاء مفكرين وزنوا الأمور بميزان الحكمة والانصاف ،

انظروا في دعوتي لكم ، لتروا اى دعوة أساسها الشهوة والهوى ، أم أساسها الصلحة وطلب مرضاة الله تعالى ، ولاتساروا الهوى وداعية الانتقام ، فان ذلك يجبركم الى ما تسم لأقبل لكم بها .

بهؤلاء قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقهم الله وجعلهم آية للناس ، وهؤلاء قوم هود لما عتوا عن امرالله وخرجوا عن حدوده أرسل الله عليهم ريحا صرصرا في أيام نوحات ليذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، وهؤلاء ثمود هدام الله فاستحبوا الممى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب اهلون بما كانوا يكسبون ، ثم قال لهم (وماقوم لوط منكم بعيد) يريد أنهم أقرب المالكين منكم فكان عليكم أن تمثروا بهم ، وقد كروا بما حصل لهم ، ثم أسرم أن يستغفروا ربهم وأن يتوبوا ليه فانه رحيم بمن استغفره ، ودود لمن إله أباب .

(٤) (قالوا يا شبيب ما ننتقه كثيرا مما تقول) كان جواب قومه بعد ذلك الترفق البالغ ، والأدب الجم ، وبعد أن أقام عليهم الليل على حقية دعوته ، وبعد أن خوفهم من عذاب ربه - كان ردكم بعد ذلك كله أن يقولوا له (ما ننتقه كثيرا مما تقول) وهو كقول قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم (قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون «٥» (١)) قالوه على وجه الاستهانة به ، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه : لا أدري ما تقول . أو جعلوا كلامه هذيانا وتخليطا لا ينفعهم كثير منه ، أو قالوا ذلك اخبارا بالواقع لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له ، فعاقبهم الله تعالى على ذلك الاعراض بعدم فتحه والوقوف عليه (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يدها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا «١٠» (٢)) (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا «٤٥» وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على آذانهم نفورا «٤٦» (٣)) .

لم يقنوا من نبي الله شبيب عند ذلك الحد بل قالوا له (وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) ربت فيهم نكرة الجاهلية ، وقلب عليهم بطش الجبارة ، فأخذوا يهددونه بالضعف ، ويعيبونه بأنه لا يقدّر على الامتناع منهم إذا أرادوا به مكروها ، ثم أروه أنهم لولا رهطه لم يمتاروه عليهم ، ولم يتابعوه في الدين - لقتلوه شر قتله (وما أنت علينا بعزيز) وإنما يعزّ علينا رهطك ، لأنهم من أهل ديننا ، وعلى ملّة آبائنا .

وانظر كيف برّد عليهم ردّا مؤثرا فيقول (يا قوم أرهطى أعزّ عليكم من الله) فتعاملون لهم حسابا دونه ، وتخشونهم وهو أحقّ بالخشية ، وكيف يلحق بكم أن تتخذوه كالشيء النبوذ وراء الظهر لا يعبأ به ، وذلك جهل فاضح ، وضلال بعيد .

فمن أسوأ ضروب الجهل ، وأبشع أنواع الضلال : أن يعمل الناس حسابا للخلاق وينسون بطش الخالق ، وأن يهون عليهم رسل الله فيكذبونهم ويهدّدونهم بالنبي والقتل وما إلى ذلك ، ويمز عليهم أن يضربوا رهطاً من الناس ، وطائفة من البشر ، لأنهم مالتهم في الشهوة ، وشاركهم

في الآثم ، وإذا كان الخلق يعمل لنفسه حساب فأولى بذلك الخالق ، لأن غضبه سبب في الشقاء الأبدى ، والمذاب المقيم .

وقد عقب ذلك الأسلوب المؤثر بقوله (إن ربي بما تعملون محيط) قد أحاط بأعمالكم علما ، فلا يخفى عليه شيء منها ، وسيحاسبكم عليها الحساب العادل ، ويجزىكم الجزاء الأوفى ، ثم قال لهم يا قوم اعملوا ماشاء لكم المولى على تمكنكم من العمل ، وقدرتكم على الكيد ، معترزين بمالكم من قوة وعدة ، ناسين ربكم وخالفكم ، إني عامل على مبدئي وعقيدي سوف لا أحيده عنه ، وسوف تعلمون من بآتيه عذاب يحجزه أمل الناس ، ويحقره عند الجاهل ، وسوف تعلمون الكاذب من الصادق ، وانتظروا اني معكم منتظر ، وأنا واثق من وعد ربي بالنصر ، وعنايته بجنده وحزبه ولما جاء أمر الله بالهلاك أنجى شعبا والذين آمنوا معه بفضل من الله استحقوه بالطاعة ، وأخذ الذين ظلموا صيحة العذاب ، فأصبحوا في ديارهم يركن على ركبهم ، من شدة ما أصابهم ، كأن لم يقيموا في البلاد ، ولم ينعموا بنجاتها .

ثم ختم القصة بالعداء على مدين بالهلاك كما هلكت نمرود ، والفرض من ذلك السعاء أنهم استأهلوا عذاب الله تعالى بصيانتهم ، وتكذيبهم لرسولهم ، وهي عبرة ما أشدها من عبرة ، ونكال ما أعظمه من نكال .

شميب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ^(١) الْمُرْسَلِينَ « ١٧٦ » إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ « ١٧٧ » إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ « ١٧٨ » فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا « ١٧٩ » وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَلِئِينَ « ١٨٠ » أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ « ١٨١ » وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ « ١٨٢ » وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ « ١٨٣ » وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ ^(٢) الْأَوَّلِينَ « ١٨٤ » قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ « ١٨٥ » وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَئِنْ الْكَذِبِينَ « ١٨٦ » فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا ^(٣) مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ « ١٨٧ » قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَفْعَلُونَ « ١٨٨ » فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ^(٤) إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ

[١] شجر مختلف . [٢] الخلق . [٣] قطا جمع كفة ، والهاء السطاب .

[٤] سحاب يظل ، وأكثر ما يشمل فيها يتوضع ويكره .

يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٨٩» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٩٠» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٩١» الشعراء.

شرح وعبرة

(١) الجديد في هذه السورة أن الله أرسل نبيه شعبيا إلى أصحاب الأيكة ، وهي غيضة نبتت ناعم الشجر كانت بقرب مدين ، وكان شعب أجنبيا منهم ، أما شعب مدين فلم يكن شعبا أجنبيا منهم ، ولذلك جعله أبا لهم دون أصحاب الأيكة ، ومكانهم كان بالحجاز مما يلي الشام (١) على خط عرض يوافق خط عرض قفط في البر الأفريقي ، فهي إلى الجنوب من القصير في الجهة المقابلة . وقد نسب لهم تكذيب الرسلين جميعهم مع أن الذي أرسل إليهم شعب لما قلنا من أن دعوة الرسل واحدة في صدقها وقيلامها على الحق والبرهان ، فالذي يكذب رسولا من الرسل مع قيام الأدلة عنده على صدقه مكذب للرسل جميعهم .

وترى في هذه السورة أن شعبيا عليه السلام قال لأصحاب الأيكة ما قاله لشعب مدين ، ومنه تعرف أن أخلاق الشعبين كانت واحدة ، وزاد في هذه السورة مطالبتهم بقوى الله الذي خلقهم وخلق من سبقهم من الأجيال .

بعد هذه الدعوة الواحدة الرشيدة قابله بقولهم (إنما أنت من السحرة) الذين غلب على عقولهم ، فأصبحوا لا يهتدون ما يقولون (وما أنت إلا بشر مثنا) ومن كان بشرا لا يصلح أن يكون رسولا .

وقد سبق في قصة نبي الله نوح عليه السلام الرد على هذه الكلمة ، ونعيد منها الحكمة البالغة التي وردت على لسان بعض المفسرين .

[عجبا لأهل الضلال لم يرضوا للرسالة بشروا ورضوا للألوهية بحجر] وهي حكمة يصف بها كل من قال (وما أنت إلا بشر مثنا) ثم هو مع ذلك يعبد من خلق الله ما يعبد ، ثم قالوا (وانظرك لمن الكاذبين) في دعوى الرسالة عن الله تعالى .

والعجب لأولئك القوم يعرفون أن شعبيا لم يكذبهم فيما يخبرهم به من أمور الدنيا ثم يزعمون أنه يكذب على ربه في أمور الدين ، فإذا كان لا يستحل الكذب على الناس فكيف يستحل الكذب على الله تعالى ؟ ثم كيف يلتفتهم إلى أنه لم يسألهم أجرا على تبليغهم الدين ، وإنما يطلب الأجر من الله تعالى ، وذلك شأن الصادق الذي يعمل عن اقتناع ، ويدعو وهو مؤمن بما يدعو إليه ، وهذه أمانة الصدق ، ودليل الثقة بصاحب الدعوة ، ومع ذلك يقولون له (إنما أنت من السحرة) وهل السحر يدعو الناس على ذلك الأساس ، ويرشدهم بذلك الأسلوب ؟ وإذا كان شعب يدعومهم إلى أن يعطوا كل ذي حق حقه ، فلا يطفئوا كيلا ، ولا يخسر ميزانا ، ولا يبخسوا أحدا شيئا من حقه .

إذا كانت هذه الدعوة دعوة مسح ، فكيف تكون دعوة العقلاء ؟ وإذا كان ذلك الأسلوب أسلوب كذب ، فكيف يكون أسلوب الصديق الصدوق ؟ وإذا كان شعيب مسحاً في عقله ، فلماذا خافه اخوانهم شعب مدين ؟ ولماذا كانوا يفعلون بكل طريق يوصلون المؤمنين به ويستوثقون منه ؟ ولماذا تعودوه بالتقى هو والمؤمنون من القوم إذا لم يعد في ملتهم ؟ وما قيمة رجل مغلوب على عقله ؟ ولماذا لا يستوى عندهم رجوعه في ملتهم وعدم رجوعه ؟ ويقاؤه في الله وعدم بقائه ؟ أليس الناس عقول تترف بها الدعوة البنية على العقل والحزم ، وتفرق بينها وبين الدعوة التي يقوم بها مجنون ، ويدعو إليها كاذب ؟ إذا كان مغلوباً على عقله فدعوه لجنونه يقتضى عليه ، وإذا كان كاذباً في دعوته فكذبه سيفضحه يوماً ما .

الحق أن القوم كانوا مضطربين ، فلا تستطيع أن توفق بين قولهم وعلمهم ، ولا تستطيع أن تبين علمهم على المنطق ، فكان طبيعياً أن يكون موقفهم مع نبي الله شعيب موقف جاحدين لدعوته ، مكذبين لرسالته ، لذلك كان موقفهم منه أن يقولوا .

(٢) (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) وهو نظير قول عاد لمود : (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » ٧٠ ») (١) وقول نوح لنبي الله صالح (يا صالح اتقنا بما تعدنا إن كنت من اللوئلين » ٧٧ ») (٢) ويشبه قول كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ٣٣ ») (٣) وهو أسلوب من الجحود ببلوغ يطلبون فيه أن كان القرآن هو الحق من عنده أن يعاقبهم على إنكاره كما فعل بأصحاب النيل أو بعباد آخر ، يريدن في كونه حقا وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا كما تقول : إن كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة وتسمية القرآن حقا على سبيل التهمك ، وكان في وسعهم أن يقولوا [إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه] ولكن القوم جاحدون ، وبآيات الله مكذبون ، وعلى حدود الله خارجون ، ولشهواتهم يسلون ، فيقابلهم نبي الله شعيب بقوله (ربّي أعلم بما تملكون) محيط بما تستوجبون عليها من العقاب ، فإن أراد أن يعاقبكم عليها بأسقاط كسف من السماء فعل ، وإن أراد عقاباً آخر عاقبكم به وإن أراد أن يؤخر عذابكم إلى أجل فهو صاحب الشأن في ذلك كله ، كما قال نبي الله نوح عليه السلام حين قال له قومه (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » ٣٣ » قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين » ٣٣ ») (٤) .

(فكذلك بره فآخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) .

برنا الله تعالى أن سبب عذابهم هو تكذيبهم لنبي الله شعيب ، وأنه لم يكن هناك فاصل بين التكذيب والعذاب ، وهو تهديد لكل من يكون منه مثل ذلك التكذيب .

يرى أن الله سلط عليهم الحرّ أياها ، فأخذ بأقسامهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب ، فاضطروا إلى الخروج للبرية ، فأغلقتهم سحباً وجدوا لها برداً ونسيا ، فاجتمعوا تحتها ، فأمرت عليهم ناراً ، فاحترقوا جميعاً ، والله أعلم .

ويظهر أن عذاب ذلك اليوم كان معروفاً ، وقد عقبه بقوله (إنه كان عذاب يوم عظيم) . وقد ختم القصة بقوله (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم) ليرينا أن فيها صنعة الله مع قوم شيع عبدة لمن أراد أن يعتبر ، وذكرى لمن كان له قلب ، وفيه مع ذلك نسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم إذا لم يطمعه قومه ، حتى لا يتحسر على عدم إسلامهم ، ولا يأسى على قوم لم يعرصوا على سعادتهم ، وتذكير بجزاة الله وغلبته ، وأنه الظاهر فوق عباده ، ولولا راحته بالناس لجل لهم العذاب كما عجل لقوم شيع ومن تقدمهم من الأمم .

دعوة موسى

إلى الله تعالى

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ «٢٠» يُقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ «٢١» قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دْخِلُونَ «٢٢» قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَغَلِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٢٣» قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقِيلَا إِنَّا هَاهُنَا مُعْدُونُ «٢٤» قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ «٢٥» قَالَ فَإِنَّهَا مُرْمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ «٢٦» الله

شرح وعبرة

(١) لقد كانت مهمة نبي الله موسى عليه السلام من أشقِّ المهمات .

[أولاً] لأن بني إسرائيل مرتوا على القلّة ، وألقوا الاستعداد ، فكان قتلهم من ذلك الحال من أشقّ الأعمال .

[ثانياً] ملاقاه من جبروت فرعون وطيانه .

وقد كان من علاجه لقلّة بني إسرائيل أن يذكرهم بعم الله تعالى عليهم ، وهو أسلوب حكيم في الوعظ يبدأ الداعي إلى الله بأحياء إحساس الشرف وشعور الكرامة في قلوب الموعوظين ، فاستمدّ بذلك لقبول للوعظة ، ولفظ [نعمة] يفيد العموم بإضافته إلى اسم الله تعالى .

ثم بين مراده بذلك العموم بذكر ثلاثة أشياء ، وهي أعظم أركان النعم ومجامعها .

[الأول] وهو أشرافها جعل كثير من الأنبياء فيهم ، وهو يصدق بوجود البلغ نبى الله موسى وأخيه هارون ومن كان قبلهما عليهم السلام .

[الثاني] جعلهم ملوكاً وقد غاير في الأسلوب فقال (وجعلكم ملوكاً) ولم يقل وجعل فيكم ملوكاً للإشارة إلى أن معظم رجال الشعب صاروا ملوكاً ، بعد أن كانوا كلهم عبيداً للقيط ، ومعنى الملك هنا: الحرّ المالك لأمر نفسه ، وتدير أمر أهله ، فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال ، بعد ذلك الرقّة والاستعداد .

ففي التفسير المأثور من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً عند أبي حاتم «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودانة وامرأة كتب ملكاً» وهو محار تستعمله العرب ، يقولون لمن كان مهتماً في معيشته ، مالكا لمسكنه ، مخدوماً مع أهله : فلان ملك ، أو ملك زمانه : أى يعيش عيشة الملوك .

[الثالث] ابتاعهم ما لم يؤت أحد من عالمي زمانهم وشعوبه التي كانت مستعبدة للملوك الغاة كالقيط والبابليين . وقيل : المن والسوى . وقيل : الفمام الذى ظلمهم في التيه ، وهو يشمل كل هذا وغيره من نعم الله التي اختصهم بها .

(٢) (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) وسماها الله مقدسة لطهارتها من الوثنية بما بعث الله فيها من الأنبياء دعاء التوحيد .

ومنهم من فسرها بالبركة ، وهو يصدق بالبركة الحسية والمعنوية .

روى ابن عساكر عن معاذ بن جبل أن الأرض المقدسة ما بين المريش إلى النترات ، وعن قتادة أنها الشام ، والمعنى واحد ، وهي القطر السوري في عرفنا اليوم . وقيل : هي بيت المقدس ، والأوّل هو الصحيح ، فإن بني إسرائيل ملكوا الشام وفيه فلسطين (كتب الله لكم) كتب لهم الحق في سكنائها إذا أنتم أطيعتم الله تعالى ، فهي كتابة مشروطة بشرط هو الطاعة والإصلاح في الأرض ، ويؤيد ذلك ما ورد في سورة الاسراء التي تسمى أيضاً سورة بني إسرائيل .

(وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً) «٤» فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عاداً لئلا أولى بأس شديد تجاسوا لخلال الأسرار وكان وعداً مفعولاً «٥» ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفراً «٦» ان أستمتم أحنفتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما

دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تقيرا «٧» عسى ربكم أن يرجمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا «٨» وهي تفيد أن الله قضى على بني إسرائيل أن يفسدوا في أرض الشام مرتين قبل الاسلام ، فسلط عليهم كل مرة من يذلهم ويستولى على مدينتهم ومسجدهم ، وبذلك ما استولوا عليه اهلاكا ، وقد كان ذلك .

ثم ختم القصة بقوله (عسى ربكم أن يرجمكم وإن عدتم عدنا) .

قال المفسرون : وقد عادوا وعاد انتقام العدل الالهى منهم ، فسلط عليهم الروم قبل المسيحية و بعدها ، ثم المسلمين ، وصرقوا في الأرض كل تمزق .

(ولا ترتدوا على أدياركم فتتقلدوا خاسرين) لا ترجعوا عما جئتمكم به من التوحيد والعدل ، والهدى إلى الوثنية ، والفساد في الأرض بالظلم والظن ، فيكون هذا الرجوع إلى الوراثة انقلاب خسران لهذه النعم ، ومنها الأرض المقدسة ، فتعود الدولة فيها لأعدائكم ، ووجه آخر في الارتداد وهو النكوص عن دخولها ، والجن عن قتال من فيها من الوثنيين ، وقد فرض عليهم قتالهم ، والخسران على هذا خسران ثواب الجهاد ، وخيبة الأمل في امتلاك البلاد ، وعقابهم بالتيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أعقابهم .

(٣) (قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين) .

قلنا : إن مهمة نبي الله موسى شاقة ، فقد كان استعباد المصريين لبني إسرائيل قد أذلهم ، وأفسد عليهم بأسهم ، وكان ذوغناق الذين يسكنون أمامهم في الأرض المقدسة أولى قوة وأولى بأس شديد ، وكانوا كبار الأجسام طوال القامات ، وهو المراد من كلمة [جبارين] من قولهم : نخلة جبارة : أى طويلة لا ينال ثمارها بالأيدى ، والجبار من أسماء الله تعالى ، فيه معنى العظمة والقوة ، والعلق على خلقه ، وكونه لا يمكن أن يناله أحد بتأثير ما .

فنبى الله موسى لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة العاصرة الآلهة ، أمرهم بدخولها مستعدين لقتال من يقاثلهم من أهلها ، وأنهم لما غلب عليهم من الضعف والذل باضطهاد المصريين لهم أبوا واعتذروا بضعفهم ، وقوة أهل تلك البلاد ، وحاولوا الرجوع إلى مصر [كما كان بعض العبيد يرجعون باختيارهم إلى خدمة سادتهم في أمريكا بعد تحريرهم ومنع الاسترقاق بقوة الحكومة لأنهم ألفوا تلك الخدمة والعبودية ، وصارت العيشة الاستقلالية شاقة عليهم] وقالوا لموسى إنا لن ندخل هذه الأرض مادام هؤلاء الجبارون فيها ، كأنهم يريدون أن يخرجهم منها بقوة الحكومة لتكون غنيمة باردة لهم ، وجعلوا أن هذا يستلزم أن يبقوا على ضعفهم وجبنهم ، وأن يعيشوا بالخراب ماداموا في الدنيا ، لا يستعملون قواهم في دفع الشر عن أنفسهم ، ولا في جلب الخير لها .

وحينئذ يكونون أكفر الخلق بنعم الله ، فكيف يؤيدهم بآيانه طول الحياة ؟ .

(قال رجلان من الذين يخافون أنهم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب) .

من رحمة الله بالشعوب أنها إذا فسدت لم يكن الفساد دائما شاملا ، بل تبقى أقلية محتفظة بصلاح فطرتها ، معقزة بكرامتها ، فالشعب الاسرائيلي على إيمانه في النبل ، وإخلاذه إلى الجبن

لم يخل من رجلين قد أنعم الله عليهما بالطاعة والتوفيق ، حتى في حال الخوف من الجبارة ، يقولان للشعب (ادخلوا عليهم الباب) وبعدها يثقل إقدام دخلوه ، ويأمرهم الشعب أن يتوكل على الله إن كان مؤمنا به ، فلا يعمل حسابا للجبارة ، ولا يخشى بأسا للأقوياء ، بعد بذل الوسع فيما يصل إليه كسبهم من وسائل القوة ، وأسباب الثور ، وقد وعدوا الشعب بالثقل لما يعلون من سنة الله مع الرسل وعادته مع الصالحين .

وما أحسن قول الرجلين (إن كنتم مؤمنين) لتعرف منه أن الإيمان لا يجمع الجبن والخور وإنما المؤمن كله شجاعة وإباء ، لا يرضى بالضعف ، ولا يخضع للذل ، والشأن فيه أن يعيش كريما أو يموت كريما .

ولولا شجاعة سلفنا الصالح وسخاؤه بأعز شيء لديه وهو نفسه التي بين جنبيه ، في سبيل إعلاء كلمة الدين - لولا ذلك ما انتصر حق على باطل ، وما بقي للساكنين عز ، وللمؤمنين شوكة . (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت صوامع ^(١) وبيع وصلاوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولنصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز « ٢٠ ») ^(٢) .

(٤) لم تنفع موعظة الرجلين للشعب الاسرائيلي ، لأن للرض أقوى من الهواء ، فلا بد أن يتقلب عليه كما هي سنة الله تعالى في تنازع القوى والضعيف فأكدوا له أنهم لا يدخلون الأرض المقدسة مادام فيها الجبارة ، لأن دخولها يستلزم القتال وهم ليسوا أهلا له (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) إذا كنت قد أخرجنا من أرض مصر بأمر ربك لنسكن هذه الأرض فاذهب أنت وربك الذي أمرك بذلك فقاتلا الجبارين واستأصلا شأقتهم (قال رب اني لأملك إلا نفسي وأخي) يث حزنه وشكواه الى الله تعالى ويقتصل عن فسق قومه عن أمره فهو يقول : لا أملك أمر أحد أحله على طاعتك إلا أمر نفسي وأمر أخي ولا أأني بغيره أن يطيعك في العسر واليسر ، والمنشط والمكره (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) بقضاء قضيه بيننا إذ صرنا خصما لهم وصاروا خصوما لنا ، أو افصل بيننا وبينهم إذ أخذتهم بالعقاب على فسوقهم ، فلا تعاقبنا معهم في الدنيا (قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يفتنهم في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) قضى الله ولا راد لقضائه أن تكون الأرض المقدسة محرمة على بني اسرائيل تحريما فعليا ، لا تكليفا شرعيا ، مدة أربعين سنة ، يسرون في برية من الأرض تائبين ، متحيرين ، لا يدرون أين يفتنهم في سبهم ، من التيه ، وهو الحيرة يقال : تاه يتيه ، ويتوه لته . ويقال : مفازة تيهاء ، إذا كان سالكوها يتحرون فيها ، عاقبهم الله بحورهم من الأرض أربعين سنة ، عقابا عادلا حتى يبعد ذلك الجيل الذي نشأ على الذل ، وترقى على العبودية لغير الله تعالى ، ولذلك بغتم القصة بقوله (فلا تأس على القوم الفاسقين) .

يسليه حتى لا يبلغ في الحزن على أمثال هؤلاء الذين فسدت فطرم ، وانحطت مداركهم ، ونزلوا عما يليق بالإنسان . وعلينا أن نصبر بهذه الأمثال التي بينها الله لنا ، ونعلم أن اصلاح الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد إنما يكون بإنشاء جيل جديد ، يجمع بين حرية البدانة واستقلالها .

وعزتها ، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها ، وقد قام بهذا في العصور السالفة الأنبياء ، ويقوم به بعد ختم النبوة ورتبة الأنبياء الجامعون بين العلم وبين الله في الاجتماع ، وبين البصيرة والصدق والاخلاص في حب الإصلاح ، وإثارة على جميع الأهواء والشهوات .

ويقول الأستاذ النجار : ان قوله تعالى (أر بعين سنة) ليس ظرفاً لقوله (محرمه) فان تحريم هذه الأرض عليهم تحريم أبدي لا مفيد بأربعين سنة ، فان الرجال الصالحين للحرب الذين عصوا أمر موسى أتوا في البرية أثناء السنين الأربعين ولم يدخل أحد منهم أرض الموعد فكانت محرمه عليهم باطلاق ، ولذلك يرى الوقف على قوله (محرمه عليهم) .

وأنا أرى أن لضرورة الى ذلك ، فان سنة القرآن أن يخاطب الشعب متكافلاً متضامناً ، وكثيراً ما تكون النعمة للآباء ، ولكنه يمتنع بها على الأبناء ، انظر الى قوله (يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ووعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى) وإعما نجي آباءهم ووعدهم ما وعدهم ولكنه يخاطبهم بما كان لآبائهم ليربهم أسهم متكافلون مع آباءهم في الخير والشر ، والنعمة على الوالد نعمة على الولد .

فاذا كان الله تعالى قد حرم الأرض على بني اسرائيل فاعما يحرمها على الشعب نفسه عقوبة له على الجبن ، وان كان ذلك المقاب في شخص الحاضرين ، فالعنى يستقيم سواء وقفنا على قوله (محرمه عليهم) أو وصلناها بما بعدها .

أما الأرض التي تاهوا فيها فهي أرض سيناء ، تاهوا في بريتها من عهد خروجهم الى أن مات موسى عليه السلام وعبروا نهر الأردن وملكوا أرميا . وما معها من الأرضين . والسر في ذلك كما أوضحه ابن خلدون أن نفس بني اسرائيل كانت حقيرة لأنهم ألفوا الفل والمهوان في ملك المصريين ، ومن كان كذلك لا يصلح لقتال ولا استقلال ، والعلماء يقولون أن حضارة العلم خمس عشرة سنة ، أما حضارة الأخلاق فثلاثون سنة ، فاذا أخذت أمة تستمسك بالأخلاق فاتها لانجني الثمرة إلا بعد أربعين سنة ، حتى يفنى الجيل الذي نشأ في الاستعباد ، وينشأ جيل ألف الحرية .

موسى عليه السلام

ثُمَّ بَشَّأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِثَانِيَانَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُوا
كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ «١٠٣» وَقَالَ مُوسَى يُفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ «١٠٤» حَقِيقٌ ^(١) عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ
مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ «١٠٥» قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَانِيَةٍ

[١] جدير ، وعلى بمعنى الباء ، أو حريس ، وقرئ على بتشديد الاء . ومنه واجب على .

قَاتَ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُجْبَانٌ ۚ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنُّظَرِ ۚ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَذَّاءُ ۚ تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ ۚ ﴿١١١﴾ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٢﴾ يَا تَوْكُ ۚ كُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٣﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَتْ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تَتْلِي وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكُ ۚ ﴿١١٦﴾ قَالُوا أَتَقْوَىٰ فَلَمَّا أَتَوْا سَحَرُوا ۚ ﴿١١٧﴾ أَعْيَنَ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٨﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ۚ ﴿١١٩﴾ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٢٠﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ فَغَلَبُوا هَٰنَا ۚ وَأَقْبَلُوا صُغِيرًا ﴿١٢٢﴾ وَالْأُتَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْآلَمِينَ ﴿١٢٤﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٥﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ أَكُمُ ۚ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرُؤٌ فِيمَا كُنْتُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۚ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٦﴾ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضْلِبَنَّكُمْ أَتَجْمِيعُ ۚ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُقْلِبُونَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا نَنْفَعُ ۚ ﴿١٢٨﴾ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِمَا جَاءَنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٩﴾ الأعراف

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى في هذه القصة أنه بعد أن أرسل هودا وصالحا ولوطا وشعبا عليهم السلام بث موسى بن عمران الى فرعون وملكه ، وقد ذكرت قصة نبي الله موسى في عدة سور مكية

- [١] الذكر العظيم من الحيات . [٢] آخر امره واسم اخيه . [٣] موهاو عليهم وأوقروا في قلوبهم الرب والخوف . [٤] تناولوه وتبتلع « ما يافكون » يهرون به الناس من الحق من السحر . [٥] تنكر بالبيان أو العورة .

بين مطوالة ومختصرة، وتكرر ذكره في خطاب بنى اسرائيل من سورة البقرة الدنية حتى زاد ذكر اسمه في القرآن على ١٣٥ مرة .

وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه من حيث انه أوفى شريعة دنيوية ، وكوّن الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدينة . أما فرعون فهو لقب ملوك مصر القدماء ، كلقب قيصر الملوك الروم ، وكسرى الملوك الفرس الأولين ، والشاء ملوك الإيرانيين في هذا العصر ، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضا . وقد اختلف في اسمه الحقيقي وزمنه ، وأحدث الأقوال أن اسمه ريان أبا .

وقد اكتشفت جثته في أحد النواويس وكتب بشأنه للرحوم أحمد نجيب بك الأثرى الشهير «صاحب الأثر الجليل في قدماء وادى النيل» مقالا ضافيا في التّؤيد أيام العثور على جثة ذلك الرجل وأكد أنه فرعون موسى ، وأن قوله تعالى (فالיום ننحيك بيدك لتكون لمن خلفك آية) تحقق بالعثور على جثته ، ومن علاماته أن ذلك الرجل أرنبة أنه مأكولة غير موحودة ، فعمل ذلك بأن السمك أكل ذلك المكان من جسمه ، وأنه ألقي الى الساحل ، وأن للصربين أخذوه وحطوه ودفنوه . قال الأستاذ النجار : وأنا أميل الى وأيه .

وهناك رأى آخر في فرعون موسى هو أنه منفتح سليل الأسرة التاسعة عشرة وهو ابن رمسيس الثاني الذي ملك من سنة ١٢٩٢ الى سنة ١٢٢٥ قبل المسيح ، وقد نشر ذلك البحث بأهرام ٧ مايو سنة ١٩٣٢ (١) .

أما ملاّ فرعون فهم أشراف قومه ورجال دولته ، ولم يقل الى فرعون وقومه بل وجه الدعوة الى فرعون وملائته ، لأن فرعون ورجال دولته هم الذين كانوا مستعبدين لبنى اسرائيل ويدهم أصرم ، وليس لسائر المصريين من الأمر شيء .

وقد بعث الله نبيه موسى لانتقاد قومه بنى اسرائيل من فرعون ورجال دولته ، فليس من الحكمة أن توجه الدعوة الى قوم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا ، إنما الحكمة أن توجه الدعوة الى من يدهم الأمر ، وان كان المنعقد بالدعوة الشعب الاسرائيلي ، والآيات هي الدلائل التي تدل على صدقه فيما يبلغه عن الله تعالى (فظلموا بها) ظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبرا وجحودا فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرّموا من الإيمان بأبناعهم لهم (فانظر كيف كان عاقبة الفسدين) وهو تشويق لتوجيه النظر لما سيقصه الله تعالى من عاقبة أمرهم ، إذ نصر رسوله موسى عليهم وهو فرد من شعب مستعبد لهم ، وهم أعظم أهل الأرض دولة وصوله .

نصره عليهم بإبطال سحرهم ، ثم بارسال أنواع العذاب على البلاد ، ثم بانتقاد قومه وإغراق فرعون ومن تبعه من ملائته وجنوده ، وهي عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدى الدهر على التائبين ان القلب للآفة اللادنية على الحق ، ولا سيما للفرورين بعظمة دول أور وبأظلمة لمن استضعفهم من أهل الشرق ، وحجة على أولئك الباغين بالأولى .

(٢) (وقال موسى يا فرعون انى رسول من رب العالمين) الخ سيدهم ومالكهم ، وأنه

يقتضى هذه الرسالة لا يقول على الله إلا الحق ، إذ لا يمكن أن يبعث رسولا يكذب عليه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شيء ، فهو حقيق بالصدق والتزام الحق فى التبليغ عن ربه ، وهو شديد الحرص على ذلك الصدق .

وقد اشتمل كلامه على عقيدة الوحدانية ، وهى أن للعالمين كلهم ربا واحدا ، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة فى التبليغ .

وقد ناقشه فرعون البحث فى وحدانية الربوبية الماثلة لله تعالى فى سورة الشعراء ، فوصفه موسى بما يليق به تعالى كما سأله هو وهارون عن ربهما فى سياق سورة طه ، وجاء فيها حكاية الله عنهما فيها ذكر البحث والجزاء .

فعلم من هذا أن موسى قد بلغ فرعون وملاؤه أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، والبعث والجزاء (قد جشتم ببيتة من ربكم) حجة واضحة عظيمة الشأن ، ثم بنى على هذا قوله (فأرسل معى بنى اسرائيل) بإطلاقهم من أسرك ، وعتقهم من رق قهرك ، ليذهبوا معى الى دار غير دارك ، ويمدوا فيها رقبى وربك ، فكان جواب فرعون على هذه الدعوة المتواضعة أن (قال ان كنت جئت باية فات بها ان كنت من الصادقين) .

شك أولا فى مجيئه باية ، ثم شك ثانيا فى صدقه فيما يخبر به عن الله تعالى (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان ممين وزرع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) .

لم يلبث موسى أن ألقى عصاه التى كانت جمينه أمام فرعون ، فاذا هى ثعبان بين لاختفاء كونه ثعبانا يسى وبذئق من مكان الى آخر تراه الأعين - وزرع يده : أخرجهما من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه فاذا هى بيضاء للناظرين إليه ، وهم فرعون وملؤه ، أولكل من ينظر . والنظرة : هم الذين يجتمعون لرؤية الأمور الفرية .

وقد وصف الله تعالى بياضها فى سورة طه والمخل والقصص بأنه (من غير سوء) أى من غير علة كالبرص .

(٣) (قال الملا من قوم فرعون ان هذا ساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فهاذا تأمرسون) لزمتهم الحجة وقام عليهم الدليل وسد عليهم أبواب التفكير بذنك الآيتين الواضحتين آية العصا وآية اليد ، فهاذا كان منهم ؟ كان منهم أن رموا موسى بالسحر ، وأنه عليم بذلك السحر ماهر فيه ، ومن الذى رماه بذلك ؟ رماه الملا من قوم فرعون وأعوانه فى الاستبداد والظلم .

ثم حاولوا استفزاز فرعون وإطابة من ناحية موسى فقالوا : إن موسى يريد بذلك العمل أن يخرج فرعون وشيعته فرعون من أرضهم بسحره ، ولأنك أن وطن فرعون عزيز عليه فضلا عن ملكه وسلطانه ، فاذا قيل لرجل مستقب : ان فلانا من الناس يعمل على تقويض ملكك وذهاب دولتك وهو يؤلف الناس حوله على ذلك الحساب - إذا قيل لملك مستقب ذلك القول ذهب صوابه وطار له - لتلك لجأ الملا من قوم فرعون حين عرفوا أن موسى عليه السلام سيظهر عليهم ، وبأخذ الشعب منهم الى تلك المسيسة العنيفة ، وذلك الأسلوب النحط ، فأخذوا يؤلبون عليه

فرعون من ناحية ملكه ، وبحرّضونه عليه من جهة سلطانه وعظمته ، وهى ناحية حساسة تفعل بنفوس السقيّدين فوق ما تفعل الخمر .

ولاندرى كيف ينهمون نبيّ الله موسى بذلك التهمة ، وليس لموسى حظّ سوى انتقاد بنى اسرائيل من بطش فرعون ، وتريّفهم باله هو ربّ فرعون ، وشيعة فرعون ، وسواء عليه بعد ذلك بقى فرعون فى أرض مصر أم خرج منها ، فذلك شيء لم يكن فى حساب موسى ، ولم يدخل فى حدود دعوته ، ولا برناج رسالته ، ولكن المعجز عن مقابلة الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، يحمل أصحابه على هذه الفرية وأمثالها . فعوذ بالله من الخذلان بعد التوفيق ، والضلالة بعد الهدى .

السحر وأنواعه

كان السحر فنا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه فى مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون ، وكان كذلك عند أقربائهم من البابليين ، وكذا الهنود وغيرهم ، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة اهتدى علماء الأفروج وغيرهم الى تعليل بعضها ، أو كشف حقيقته ، ولا يزالون يجادلون تعليل بعضه .

واللغنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التليس والحيل تخفى حقيقتها على جواهر الناس لجهلهم بأسبابها ، ولذلك كان الأقوام الجاهلون يعدّون آيات الرسل الكونية التى يؤيدهم الله تعالى بهامان قبيل السحر ، ويجعلون هذا مانعا من دلالتها على صدقهم ، لأن السحر صنعة تتلقى بالقرين والتمايم ، والسحر لا يروج إلا بين الجاهلين ، ولا يكاد يوجد فى البلاد التى ينتشر فيها العلم ، بل يسمى أهلها بأسماء أخرى كالشعوذين والمحتالين والسجالين .

ومن ذلك يخفى من يقول: ان السحر من خوارق العادات التى هو الجنس الجامع لمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، لأنه صنعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص القرآن ، وبالاختبار الذى لم يبق فيه خلاف بين أحد من علماء الكون وهو أنواع :

[أحدها] ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواصّ المادّة المعروفة للعامل المجهولة عند من يحرم بها ، ومنها الزئبق الذى قيل ان سحرة فرعون وضعوه فى جبالهم وعصيمهم ، ولوشاء علماء الطبيعة والكيمياء أن يجعلوا أنفسهم سحرة فى أواسط افريقية الممجيّة وأمثالها لأروهم من عجائب الكهرباء وغيرها ما يخضعونهم به لعبادتهم لو ادّعوا الألوهية فيهم .

[النوع الثانى] الشعوذة التى مدار البراعة فيها على خفة الدين فى اخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها ، وغير ذلك مما هو معروف فى هذه البلاد وغيرها .

[النوع الثالث] نوع مدله على تأثير الأنفس ذوات الارادة القوية فى الأنفس الضعيفة ذات الأمزجة العصبية القابلة للأوهام والانفعالات التى تسمى فى عرف هذا العصر بالهستيرية ، وهذا النوع هو الذى قيل ان أصحابه يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين .

وممنهم الذين يكتبون الأوقاف والطلسمات للحب والبغض وغير ذلك .
ومن هذا النوع ما استحدث في هذا العصر من التنويم المغناطيسى ، أما مأخذ السحر من
اللغة فهو كل ما لطف مأخذه ودق خفي ، وقالوا سحره وسحره^(١) بمعنى خدعه وعلاه ، وقالوا : عين
ساحرة وعيون سواحر ، وفي الحديث الصحيح « إن من البيان لسحرا » والسحر بالفتح والتحريك
الرثة ، وهى أصل هذه المادة ، والرثة فى الباطن ، فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لا يهتدى إليه
غير أهله فهو باطن خفى ، ومنه الخداع ، وهو أن يظهر لك شيئا غير الواقع فى نفس الأمر فالواقع
باطن خفى ، وتأثير العيون فى عشاق الحسان ، والكلام البليغ فى عشاق البيان مما يخفى مسلكه
ويهتق سببه ، حتى يهسر على أكثر الناس الوقوف على العلة فى تأثيره .

(فإذا تأمروا) من قولهم : صمى ، بمعنى أضر على . وقولهم : تأمر القوم واتمروا
مثل تشاوروا واشتاوروا : أى فما الذى تشيرون به فى أمر ذلك الرجل ؟ (قالوا أرجوه وأخاه) .
قال الملا لفرعون بعد التشاور : أخر أمره وأمر أخيه ، ولا تفعل فيه بأدى الرأى ، وأرسل
فى مدائن ملكك (حاشرين) جامعين للسحرة منها (يأتوك بكل ساحر عليم) بفنون السحر
ماهر فيها ، وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسى .

(٤) رضى فرعون بذلك الرأى فبعث فى طلب السحرة فجاءوا ، وقالوا لفرعون (إن لنا
لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين) .

طلبوا من فرعون أجرا إن هم غلبوا موسى ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، وزاد عليه أن لهم مع
ذلك الأجر المادى أجرا أدبيا هو أن يكونوا من المقربين منه فيجتمع لهم اللال والجاه ، وذلك
منتهى نعيم الدنيا ، وقد حكى عدتهم بالقربى بصيغة المؤكد لنفعهم منه أن كان حريصا على القلب
لموسى (قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نسكون نحن الملحقين) .

خبروه لتفهم بأنفسهم ، واعتدادم بسحرم ، وإرهابا له (قال ألقوا) .
أمرهم أن يتقدموه فيها جاءوا لأجله ولا بد لهم منه وهو السحر ، وأراد التوسل به إلى إظهار
بطلان السحر ، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن ثم وسيلة لإبطاله إلا ذلك ، وقد صرح
به فيما حكاه الله عنه فى سورة يونس [قال موسى ما جئتكم به السحر إن الله سيدبطله إن انه لا يصلح
عمل الفاسدين وبحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون] (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم
وجاءوا بسحر عظيم) . وفى سورة طه [فإذا جابههم وعصمهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسرى
فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى] وانما أضاف السحر الى الأعين
ليرينا أن ذلك النوع من السحر تمويه وتخيل ، ولذلك شرحه فى آية طه بقوله [يخيل إليه
من سحرهم] .

والمراد أنهم أوقعوا فى خيال الناس أن لذلك السحر حقيقة فى الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد
صنعة وخيال .

وقد قيل : انها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا ، وكذلك الجبال كانت معمولة من آدم :

أى جلد محشوة زنبقا ، وقد حفروا قبل ذلك تحت الواضع أسرابا وجعلوا فيها آزرابا (١) ملثوها نارا فلما طرحت عليه وحى الزنبق حركها لأن من شأن الزنبق إذا أصابه النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان بمؤها على غير حقيقته ، ويحتمل أن يكون بحيلة أخرى كإطلاق أبخرة أثرت في الأعين فجعلتها تبصر ذلك ، أو يجعل العصي والحبال على صورة الحيات وتحركها بحجر كانت خفية سريعة لا تدركها أبصار الناظرين ، وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمى السيمياء .
(وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك الخ) .

أوحى الله إلى موسى بأن ألقى عصاك فقد جاء وقتها فإذا هي تتلع ما يافكون من السحر ، وتسمى السحر إفاكا لأنه يافك الناس ويصرفهم عن الحق إلى الباطل .

والعنى : أن عصا موسى أزلت ما أحدثه - حرم في أعين الناس من تمويه وخداع ، ولذلك عقبه بقوله (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) أى قُتِبَ الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخيل ، وذهب تأثيره (فذلوا هناك واقتلبوا صاغرين) غلب فرعون وملؤه في ذلك المجتمع العظيم الذى كان في عيد لهم ، ويوم زينة من مواسمهم ، لتكون النضيجة ظاهرة لجاهل الناس ، ولم يصف القلب لموسى لأن ذلك لم يكن يكسبه وصنعه (واقتلبوا) عادوا من ذلك الجمع صاغرين : أذلة بما رزقوا من الخذلان والخيبة (وألقى السحرة ساجدين) خرّوا سجدا كامئا ألقاهم ملق لشدة خورهم .

والمراد أن ظهور بطلان سحرم ، وإدراكهم لجأة حقيقة آية موسى ، وعلمهم أنها من عند الله تعالى قد ملأت عقولهم يقينا ، وقلوبهم إيمانا ، فكان هذا اليقين في الإيمان البرهانى الكامل والوجدانى الحاكم على الأعضاء والجوارح : هو الذى ألقاهم على وجوههم سجدا لله رب العالمين ، ولم يبق في أنفسهم أدنى مكان لفرعون وعظمته المتنبوية الزائلة . (قالوا آمنا رب العالمين رب موسى وهرون) .

فانظر كيف يجمعهم فرعون من اللدائن ، ويعدمهم ويميتهم إذا هم غلبوا موسى عليه السلام ، فيأخذهم موسى منه بقوة الحجة ، ونصوح البرهان فينقلبون حرا عليه وقوة لموسى عليه السلام ، وفى ذلك عبرة كبرى لمن يحاولون صرف الناس عن الحق ، والخيالة بينهم وبين عقائدهم .

ولو كان اسطوان اللادة على النفوس ماسلطان العقائد ما قتلت السحرة من فرعون على ماله من سلطان ونفوذ ، وما انضموا إلى نبي الله موسى وسحره وباقوة فرعون وسلطان فرعون ، وانظر ماذا صنع فرعون بعد ذلك الخذلان النفاض (قال فرعون آمنت به قبل أن أذن لكم) .

فهم فرعون أن قلوب الناس بيده ، وإيمانهم تحت سلطانه ، فعاب عليهم أن يؤمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ، وجعل أن القلوب لا تخضع إلا للحجة ، وأنها متى اتجهت إلى الحق ، تطاعت إليه ثم صادفها البرهان لا تستطيع أن تقاومه ولا غنى لها عن الخضوع له .

جعل فرعون تلك السنة التى جعلها الله تعالى للنفوس ، فزعم أن سلطانه عليها كسلطانه على الأجسام ، فكما لا تستطيع الناس أن تتحرك حركة في عهد استبدادى بدون إذن من المستبد

لا تستطيع القلوب أن تقتل من يطار إلى حق ، ومن ضلال إلى هدى إلا باذن منه ، وذلك منتهى النباوة .

ثم عقب ذلك بقوله (إن هذا لمكر مكرتوه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) .

ومام بالتواطئ مع نبي الله موسى ، وأن ما فعلوا من إظهار الرغبة في التلب عليه كان خديعة لفرعون وملائه ليخرجوا من المدينة أهلها ، وجاء في سورة طه (إنه لكبيركم الأذى عامك السحر) . وجملة القول أن فرعون قد سقط في يده بإسلام السحرة ، فرة يتب عليهم أنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ، وسمرة يتهمهم بأن موسى كبيرهم في السحر ، وأهم دبروا ذلك العمد مع موسى قبل اجتماعهم به ليخرجوا من المدينة أهلها ، وأخيرا لجأ إلى الوعيد والتهديد فقال (فسوف تعلمون) ما يحل بكم من العذاب على ذلك الكفر والخداع .

ثم فصل ذلك الوعيد بقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) وهو وعيد يحاول به فرعون أن يحوه به على قومه الصريين حتى لا يتبعوا السحرة في الإيمان بموسى . وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد في شعب يخاف أن ينقض عليه باجتماع كلته على زعيم آخر ، بدعوة دينية أو سياسية ، وهو وعيد شديد ، وتهديد لهم بالقتل بهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، حتى لا يستطيعوا أن ينفصوا بما بقي لهم من الأيدي والأرجل ، وبعد ذلك التقطع يصلهم في جنود النخل حتى يكونوا عبرة لغيرهم من يفكر في الإيمان برب موسى وهارون . وقد جاء ذلك الوعيد بصيغة التأكيد ليرى القوم أنه فاعل ذلك ولا بد ، وأنه لم يكن هاذلا في ذلك الوعيد وإنما هو جاد .

لم يهتدم فرعون بحبس أجسامهم ، ولا باخراجهم من أوطانهم ، ولا بمصادرتهم في أموالهم ، ولا بحرماتهم من وظائفهم ، وإنما هتدم بما هو أشد من ذلك كله : هو التخليل بهم ، وجعلهم عبرة ونكالا لغيرهم .

توعد فرعون السحرة بذلك الوعيد ، وهتدم ذلك التهديد ، فإذا كان جوابهم له وردتم عليه ؟ (قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) يريدون أنهم لا يبالون بما يكون من قضائهم عليه وقته لهم ، لأنهم راجعون إلى ربهم راجون مغفرته ورحمته بهم ، فتمجبل قتلهم سبب لقرب لقائه ، والفتح بحسن جزائه ، ويجوز أنهم أرادوا إنا وإياك سنقلب إلى ربنا ، فلئن قتلنا فما أنت بخالد بعدنا ، وسيحكم عز وجل بيننا وبينك .

وجاء في سورة طه (قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهنا عليه من السحر والله خير وأبقى) .

(وما نقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) لانكرهنا ولا تعيب علينا إلا أمرا لا يصح أن ينكر : هو أنهم آمنوا بآيات الله ، ودلائل ربو بيته لما جاءتهم ، وهو كقوله (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) فإذا كان هذا ذنبا فعاقب عليه ونسحق عليه ذلك الوعيد

فاضل ماشئت أن تفعل ، واستبد ما زرين لك الاستبداد ، ولذلك ختموا قلوبهم بذلك السماء (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) .

طلبوا من الله تعالى أن يهيم صبرا واسعا يفرغه عليهم كما يفرغ الماء من القرب حتى يفتوا على الايمان ، وأن يتوفاهم إليه مسلمين له ، مدعنين لأمره ونهيه ، مستسلمين لقضائه ، غير مفتونين بهديد فرعون ، ولا مطيعين له في قول أو فعل .

والصبر من صفات النفس التي تعينها على احتمال المكاره والآلام بغير تهرم ولا حرج يجعلها على ما لا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل ، ولا شيء كالايمان بالله تعالى والخوف منه والرجاء فيه يقوى هذه الصفة في النفس .

موسى عليه السلام

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ ^(١) مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقْلُ أَبْنَاءَهُمْ وَلَسْتَحْي ^(٢) نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَاهِرُونَ «١٢٧» قَالَ مُوسَى أَقِيمُوا يَاللَّهُ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ «١٢٨» قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ
بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ
فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ «١٢٩» وَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ^(٣) وَنَقْصٍ مِنَ
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ «١٣٠» فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ
تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا ^(٤) بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «١٣١» وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَآ
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ «١٣٢» فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ
وَالْغَمَّ ءَالِهَتِ مُفْضَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ «١٣٣» وَلَمَّا وَقَعَ
عَلَيْهِمُ الرَّجْزُ ^(٥) قَالُوا يُمُوسَى أَذْغِ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنْ كَشَفْتُ عَنَّا

[١] أنذر . [٢] نستحي . [٣] الجذب ونقص العيشة . [٤] يتشاءموا .

[٥] كل عذاب تضارب له القلوب أو يضطرب له الناس .

الرَّجَزَ لَثُومَينَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ «١٣٤» فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
الرَّجَزَ إِلَى أَجَلٍ مِمَّنْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ^(١) «١٣٥» فَأَتَيْنَاهُمُ مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ
فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ «١٣٦» وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ
كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَيْ بُرْكَانَا فِيهَا وَنَعْتُ كَلِمَتُ رَبِّكَ
الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ
وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ «١٣٧» وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَقْتُوا عَلَى قَوْمِ
يَسْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ
قَوْمٌ تَجْهَلُونَ «١٣٨» إِنْ هُوَ إِلَّا مُتَّبِعٌ ^(٢) مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٣٩»
قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ «١٤٠» وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ
مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ «١٤١» الأعراف

شرح وعبرة

(١) (وقال اللاء من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض الخ).
لما لم ينجح اللاء من قوم فرعون في دسيتهم الأولى ، وهي أن موسى ساحر عالم بالسحر
يريد بسحره أن يخرج فرعون وملاه من أرضه ، وتبين أن ما أتى به ليس سحرا وإنما هو مبطل
للسحر ، ثم كان من وراء ذلك إيمان السحرة الذين جمعهم فرعون ليهزموا موسى ، ثم تبع السحرة
في الإيمان حزب .
لما كان ذلك كله لجأوا إلى أسلوب جديد يألبون به فرعون على موسى وشيعته ، فقالوا
لفرعون : أترك موسى وقومه ؟ وهم الذين تبعوا السحرة في الإيمان ليفسدوا في الأرض وليتركوك
وأهلكك كالشيء اللقا ^(٣) فيظهر للصريين عجوزك ، يستفزون بذلك الأسلوب فرعون السدقة
ليحول بين بني إسرائيل وبين موسى : إما بحبه ، وإما بقتله .
وانظر إلى قولهم (ليفسدوا في الأرض) وكيف يعدون دعوة موسى إلى التوحيد ، وإقناده
الناس من ظلم فرعون وبطلته إفسادا في الأرض ، وبالتالي يعدون ما هم عليه من باطل إصلاحا

ولا تدرى أقالوا ذلك عمالة فرعون وإرضاء لشهوته ، وقضاء لباأنهم هم ، لأن أعوان السبق
و بطانات الظالم التي تنتفع من ظلمه واستبداده ، وتميش على حساب بطشه وسلطانه ، يظهرون
جبهة الشعب أمام ذلك الظالم مظهر غير مظهره الحقيقي ، فيسمون الإصلاح فسادا ، والدعوة الى
الحق تهريجا ، أو أن ذلك الملا بلغ من حقه وغباوته أن كان الإصلاح الذي يدعو إليه بى الله
موسى في نظره إفسادا في الأرض .

والذى تميل إليه النفس أن ذلك القول وأمثاله شأن بظانة السوء التي تلتف دائما حول
الظالمين ، وتميش في أحضان الحكام السبقين ، لاقتناعها أنها لا تستطيع أن تميش إلا في أولئك
الأوساط المظلمة ، ولا تستطيع أن تصيد إلا في الماء العكر ، فليس لها من المؤهلات ما تستطيع أن
تميش به على حساب نفسها ، ولامن الأخلاق ما يسمح لها بقول الحق والاعتراف بالأمر الواقع .
وقد ساعدتهم على ذلك أنهم رأوا من حاكمهم للسبق استبدادا لذلك القول ، ولولا علمهم أن
ذلك القول وأمثاله يتفق وشهوة صاحبهم ماقالوه ، فهم إنما يصارحون الناس بما يجيش في صدورهم
وما يناسب مع أطمأء وشهوته ، فهو شر يكلمهم في الجرم ورئسهم في الاثم ، عليه وزره ووزرم .
لذلك صور الملا من قوم فرعون موسى وخزبه بتلك الصورة البشعة ، صورة الفساد في الأرض .
و يعلم الله أن إفساد موسى في الأرض هو إنقاذ بني إسرائيل من استبدادهم ، والحيولة بين
الشعب وبين بطشهم ، فاذا كان فيه إفساد فهو إفساد سياستهم ، وإحباط تديريهم ، وتفتت الجمهور
من أيديهم ، وذلك ما يحشاء فرعون وملأ فرعون الذين يعيشون على حساب غيرهم ، وينعمون
بشقاء أمتهم ، ويثرون بافكار إخوانهم ، ويرقون مناصب الدولة ووظائفها الكبرى على حساب
إذلال بني جلدتهم . ألا قائل الله قوما ذلك حالهم ، و بعدا لطائفة تلك أخلاقهم .
بقى أن الملا يقول لفرعون (ويدرك وألتهك) وهل كان لفرعون آلهة ، وهو يقول (أنا
ربكم الأعلى) .

قيل : إن فرعون وضع لقومه أصناما صفارا وأمرهم بعبادتها ، وقال : أنا ربكم الأعلى ورب
هذه الأصنام .

واستظهر بعض المفسرين أن فرعون لم فصل به العبادة أن يعتقد في نفسه أنه خالق للسموات
والأرض ، وليس هناك من العقلاء من يعتقد فيسه ذلك ، لأن فساد معلوم بضرورة العقل ،
والأقرب أنه كان دهريا ينكر وجود الصانع ، وكان يقول : مدبر هذا العالم السفلى هو الكواكب
ولربى تلك الطائفة طائفة بني إسرائيل هو نفسه . فقلوه (أنا ربكم الأعلى) أى صريكم ،
والنعم عليكم والمظم لكم . وقوله (ما علمت لكم من إله غيرى) أى لا أعلم لكم أحدا يجب عليكم
عبادته إلا أنا ، وذا كان مذهب ذلك لم يعد أن يكون قد اتخذ أصناما على صور الكواكب يعبدونها
ويتقرب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب .

واليهود في تاريخ قديم المصريين أنهم كانوا يعبدون الكواكب ومنها الشمس ، واسمها في
لغتهم [رع] وأن مصر هي السليمة الوحيدة للعبود [رع] منذ وجود الآلهة ، وأن فرعون مصر
الملك [منفتاح] سليله أيضا وهو الجالس على سدة المعبود [شو] وأن الاله [رع] التفت الى

مصر فولى [منفتح] ملك مصر ، وشئ له أن يكون مناضلا عنها فتخضع له الولاة .
واذا كان فرعون مصر يعتقد أنه سليل الشمس وابنها ، والشمس معبودة لقدماء المصريين .
فلا يبعد أن يتطلع إلى عبادة الناس له ، ولا بعد في أن يقول (أنا ربكم الأعلى) لأنه سليل
للعبود [رع] وحال فيه .

(قال سقنل أبناءهم ونسجى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) يريد فرعون أنه سيحول بين
موسى وبين الشعب من طريق إبادته ، وذلك بأن يقتل أبناء المؤمنين ويسبقى نساءهم كما كان
يفعل ذلك من قبل .

ثم أراد أن يبين أن ذلك ميسور له وسهل عليه ، لأنه فوقهم بالسلطان والنفوذ ، مستعمل
عليهم بالغلبة ، فلا يستطيعون افسادا في الأرض ، ولا اخراج بنى اسرائيل من تعبيد فرعون ،
وفي سورة المؤمن (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحبوا نساءهم
وما كيد الكافرين إلا في ضلال « ٢٥ » وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن
يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد « ٢٦ ») .

وهو يريد أن التهديد كان لحزب موسى المؤمن كما ترينا آية المؤمن أنه كان من قوم فرعون
من يدافع عنه ويحول بين فرعون وبين بطشه بموسى ، ولذلك يقول (ذروني أقتل موسى) .

(٢) (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده
والعاقبة للمتقين) ذلك هو الجواب الطبيعي الذى كان ينتظر من نبي الله موسى بعد تهديد فرعون
لمن آمن معه بقتل أبناءهم واستحباب نساءهم ، يقول لهم ' استعينوا بالله على هذا الطاغية ، واصبروا
على إبذانه ، فإن الأرض التى وعدتم دخولها ، وهى فلسطين أو الأرض مطلقا ملك لله يورثها من
يشاء من عباده ، وليست ملكا لفرعون ولا لملا فرعون ، فهى بحسب سفته دول ، والعاقبة الحسنة
التي ينتهى إليها النزاع بين الأمم للذين يتقون بمرعاة سته الله تعالى فى أسباب إرث الأرض ،
كالاتحاد وجمع الكلمة ، والاعتصام بالحق ، وإقامة العدل ، والصبر على المكاره ، والاستعانة بالله تعالى
ولاسيا عند الشدائد ، ونحو ذلك مما هدى إليه وحيه ، وأبدته التجارب .

ومראה عليه السلام أن العاقبة ستكون لكم بارث الأرض بشرط أن تكونوا من المقين
له بأقامة شرعه والسير على سفته فى نظام خلقه ، وليس الأمر كما توهمون ويتوهم فرعون وقومه
من بقاء القوى على قوته والضعيف على ضعفه ، فإذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام
لقومه ، وبم أجابوه ؟ (قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا) يعنون أنهم لم يستفيدوا
من ارساله لآلئهم من ظلم فرعون شيئا فهو يؤذهم ويظلمهم بعد ارساله كما كان يؤذهم من قبله
أو أشد ؟ (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظروكم تعلمون) فهو
يرجو لهم من فضل الله تعالى أن يهلك عدوهم الذى سخرهم وآذاهم بظلمه ، وأن يحلهم خلفاء
فى الأرض التى وعدهم بإياها ، فينظر سبحانه كيف يعملون بعد استخلافه إياكم فيها ، هل تشكرون
النعمة أم تكفرون ، وهل تملحون فى الأرض أم تفسدون ؟ ليحازيكم فى الدنيا والآخرة بما
تعلمون ، وقد عبر بسمى ولم يقطع بالوعد لئلا يتكلموا ، ويتركوا ما يجب من العمل ، أو لئلا يكذبوه

لضعف أنفسهم بما طال عليهم من القل والاستحذاء لفرعون وقومه ، واستظمامهم للملك وقوته . وهو أسلوب آخر من أساليب التسلية والعزاء بعد أن أمرهم بالاستئمان بالله تعالى والصبر ، وأمرهم أن الأرض ملك لله يعطيها من يشاء ويحرمها من يشاء ، وإطعامهم في تقويض ملك فرعون واستخلافهم في الأرض مصحوب باحتياط من نبي الله موسى ، وتحريضهم على بقاء الملك والقوة فيهم إذا هم حصلوا عليه .

(٣) (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات املهم بذكرون) تفصيل لمقتضات الهلاك الموعود به فيما قبل هذه الآية ، وانجاز وعد الله تعالى لبني اسرائيل بالاستخلاف في الأرض وقد صدرت الجملة بالقسم الدالة عليه لانه لتأكيد مضمونها وتعتيم شأنه ، كيف لا وهو من أظهر آياته على تأييد رسله ، وقدرته على الادانة للظالمين المستضعفين من الأقوياء الظالمين .

وقد كثر استعمال مادة الأخذ في العذاب كقوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد «١٠٣»^(١) - فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر «٤٢»^(٢) - فأخذناه أخذاً وبلا «١٦»^(٣)) وآل فرعون قومه أو خاصته وأعوانه في أمور الدولة وهم الملاء من قومه الذين كثر ذكركم في قصته ، ووجهه أنهم هم الذين المعاندون لموسى ، وأما وقوع العذاب على غيرهم بالتبع لأنهم كانوا موافقين ومتربين لهم على ظلمهم (واقفوا فتنة لاقصين الذين ظلموا منكم خاصة «٥٥»^(٤)) وتأمل قوله تعالى (املهم بذكرون) لنتهم أن الله تعالى ما أخذهم بالسنين المجدية وضيق العيشة الارجاء أن تذكركم هذه الشدة بضعفهم أمام قوة الله تعالى . وعجز ملكهم الجبار المتفطرس ، وعجز آلهتهم ، واملهم إذا تذكروا اعتبروا ، فرجعوا عن ظلمهم لبني اسرائيل ، وأجابوا دعوة موسى ، فان الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب ، وترجع الأنفس الى مرضاة الله (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) .

يرينا الله تعالى بهذه الآية أن أولئك الشدائد التي أخذ بها بني اسرائيل رجاء التذكر لم تقدم شيئاً ، فبقوا على عنادهم وأصرّوا على شركهم ، فاذا جاءتهم الحسنة من خصب ورياء قالوا : هي لنا دون غيرنا ، ونحن المستحقون لها لما لنا من التفوق على الناس ، وان تصبهم سيئة من جذب أوجاعهم أو مصيبة أخرى في الأبدان أو الأزواق تشاءموا بموسى ومن معه من الأنصار ، ورون أنهم أصيبوا بشؤمه وشؤمهم ، وغفلوا عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى ، لأن هذا عندهم من الحقوق كإحواش السقذيين في ظلمهم لمن يستضعفونهم .

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله (ألا إنما طأرهم عند الله ولكن أكرمهم لا يعلمون) فالشؤم الذي نسبوه الى موسى عليه السلام وعدوه من آثار وجوده فيهم : هو عند الله لا عند موسى ، فهو تعالى قد جعل لكل شيء قدراً من حسنة وسيئة ، ووضع لنظام الكون سفناً تكون فيها المسببات على قدر الأسباب ، وبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل البلاء عليهم ، وهو امتحان لهم عما يسوؤهم ليرجعوا عن ظلمهم ، ولكن أكرمهم لا يعلمون حكم التصرف الرباني في الخلق ولا أسباب

الخبير والشر ، ولو كانوا من أهل العلم والمعرفة مانسبوا الى موسى السيئات والى أنفسهم الحسنات فهم قوم جمعوا بين رذيلتين : رذيلة العناد للرسول صلى الله عليه وسلم ، ورذيلة الجهل .

وتأمل احتياط القرآن الكريم في قوله (ولكن أكرمهم) ولم يقل (ولستكم) لبرئنا أن فيه قلة من أهل العلم والانصاف لم يقتروا بملك فرعون ولا بجبروت الملك . وأن هذه القلة هي التي كانت تناصر موسى عليه السلام سرًا ، وفيهم مؤمن آل فرعون الذي كان يكتن إيمانه ويقول : (أنقذوني رجلاً أن يقول ربي الله) الى آخر الآيات ، ومن هذه القلة الحزب الذي آمن بموسى بعد إيمان السحرة وهم الذين هدم فرعون بنقتيل أنبائهم واسبقاء نسايم .

(٤) (وقالوا مهما تأتنا به من آية لمسعربنا بها فاعنك بمؤمنين) فالقوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات ، ولم يذعنوا لما أيد الله تعالى به موسى من الآيات ، بل أصرّوا بعد إيمان كبير السحرة على عدّ آيتى موسى من السحر ، وقالوا له : انك ان تحبنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدل بها على حقية دعوتك لأجل أن تصرفنا بها عما نحن فيه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا فاعنك لك بمصدقين (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والهمم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) .

أرسل الله تعالى بهم هذه اللصائب والنكبات آيات واضحات على صدق نبي الله موسى ، فاستكبروا عن الإيمان به استكباراً مع اعتقاد صحة رسالته ، وصدق دعونه بأننا ، وكانوا قوماً راسخين في الاجرام والنزوب مصرين عليها .

أما الطوفان فغناه في اللغة : ما طاف بالشيء وغشيه ، وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض . قيل : هو الأمطار المفرقة المثلثة للزرع والثمار ، وكذلك أرسل الجراد فأكل الزرع واجتاح الثمار .

وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الخنطة ، وعنه أنه العيس ، وهو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له ، وانه قال مجاهد وعكرمة وقتادة ، وعن ابن جرير أنها دواب تشبه القمل تأكل الابل ، وجزم الراغب أن القمل صغار الفباب ، وسواء قلنا انها السوس الذي يفسد الزرع والحبوب أو الجراد الصغير أو دواب تشبه القمل أو الفباب ، فهي من الضررات التي أصيب بها قوم موسى عليه السلام في زرعهم أو إبلهم أو في محبتهم ، لأن الفباب قدر يحمل المدى وجرائم الأمراض ، فاذا كثرت في جهة من الجهات قصص على أهلها عيشتهم ، وأفسد عليهم محبتهم وانظر كيف أذل الله المستكبرين من فرعون وملأه الذين يدعون الألوهية - أذلهم الله بأضعف المخلوقات ، وكأنه يقول لهم : إذا كنتم ضعفت عن مقاومة في أضف خلقي فكيف يدعى زعيمكم فرعون أنه ربكم الأعلى ، وكيف تماثلونه في ذلك الزعم الخاطي ؟ .

وما أقرب الشبه بين أولئك القوم في تزييع الله لهم وتزييعهم قيمتهم بذلك الأسلوب وبين المشركين إذ يقول لهم (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلمهم الفباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » ٧٣) ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز (٧٤) (١) .

وأما الضفادع فقبل إنها كثرت عندهم حتى نضت عليهم عيشتهم بقوطها في طعامهم وشرابهم ووجدانها في فراشهم وبين ملابسهم .

وأما الهم : فقيل هو الرعاف سلطه الله عليهم . وقيل : دم كان في مياه المصريين (ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) الخ .

لما حلَّ العذاب الذي تضطرب له النفوس بقوم موسى لجأوا إليه وقالوا : ادع لنا ربك بما عهد عندك أن تدعوه به فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء - أن يكشف عنا هذا الرجز ، ونحن نقسم لك الآن كشفته عنا (لنؤمن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالنوء) فلما كشف الله عنهم العذاب الى حد من الزمان هم بالنوء لاحالة فمذبذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الامهال وكشف العذاب الى حوله (اذاهم ينكثون) في عهدهم ويحشون في قسمهم (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم) وهو البحر ويطلق على النيل ، وعلل هذا الانتقام كما علل أمثاله (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) .

(هـ) (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) الخ .
بعد أن أرانا الله تعالى ما فعله بأعداء الحق من الانتقام منهم وإغراقهم في اليم بسبب تكذيبهم بآيات الله وغفاتهم عنها - بعد ذلك عرفنا أنه قد كافأ أفعالهم وعبادته الخاصين الذين كانوا مستضعفين بالأمس ، كافأهم بتورثهم أرض الشام وجعلهم خلفاء الله فيها (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا) والمراد أن كلمة الله ووعده ابني اسرائيل باهلاك عدوهم قد نفذ ومضى كاملاً ، وذلك بسبب صبرهم على الشدائد التي كابووها من فرعون وقومه (ودصرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أحبط الله على فرعون وقومه ما كانوا يصنعون من باطل ، وأفسد عملهم عليهم ، والعرش : رفع اللباني والسقايف للنبات والشجر المسلق كمراش العنب ، ومنه عرش الملك ، والمراد أن الله تعالى أدخل الخراب على عمل فرعون جيئه ، ولا سيما ما يتعلق ببقاء عرشه ، والاحتفاظ بملكه ، فقد كان حربه لحزب الله احتفاظاً بالعرش ، وخوفاً على الملك ، فدصر الله عليه عمله وأفسد عليه تديره ، لأن الله لا يصلح عمل مفسد .

وقد أرانا الله بفساده هذا مع فرعون أن لللك الذي يرعى ملكه بظلم الناس والاستبداد معهم قصير ملكه مصير فرعون وملائته .

(وجاوزنا بني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يكفون على أصنام لهم) الخ .
يرينا الله تعالى أنه تخطى بني اسرائيل البحر الذي أغرق فيه فرعون وملائته ، فرآوا على قوم عاكفين على أصنام يعبدونها فطلب أصحاب موسى أن يجعل لهم إلهاً مثل آلهة هؤلاء ، لأن الوثنية عاقلة بنفوسهم ، وخلق التقليد متمكن منهم ، ونسوا أن مهمة موسى عليه السلام محاربة الوثنية وأنه إنما بعث إليهم ليخرس في قلوبهم حب التوحيد ، ويبحث منها عروق الشرك .

جهلوا ذلك كله وغفلوا عنه ، ولعلك كان ردة عليهم أن قال لهم (إنكم قوم تجهلون) .
وصفهم بالجهل اللطيق غير متعلق بشيء ، وهو يشمل كل ما يصلح له من الجهل الذي هو فقد

العلم، ولجهل الذى هوسه النفس ، وطيش العقل ، وأهمه المناسب لإقام جهل التوحيد ، وما يجب من أفراد الرب بالعبادة ، وما يتناسب مع مهمة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم .
ثم قال (إن هؤلاء مبتدع ما هم فيه وليل ما كانوا يعملون) أى إن هؤلاء القوم الذين يمكنون على هذه الأصنام مقضى على ما هم فيه بالتبarr والمهلك ، وليل ما كانوا يعملون من الأصنام وعبادة غير الله لا بقاء له .

ثم أراد أن ينكر عليهم ذلك الطلب الذى طلبوه من موسى عليه السلام فر(قال أغير الله أبنكم لما هو فضلكم على العالمين) والاستهتام فى الآية للانكار للشرب معنى التعجب .
ثم أيد ذلك الانكار بما يعرفون من آيات الله تعالى فيهم ، وهو تفضيلهم على أهل زمانهم برسالة موسى وهارون منهم ، وتجهيد ملة أبيهم فيهم .
ثم عطف عليه أظهر نعمه عليهم فقال (وإذا أنجبناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) .

موسى عليه السلام

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِمَشْرِيقَتِهِمْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ أَرِنِي أَنْظُرْ
إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي
فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنكَ
تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ
بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي
الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ
بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ
الَّذِينَ يَسْكُبُونَ^(١) فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعِ الْهَوَىٰ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا

[١] اتكلف وظهر بعد غناء ، والدَّفْعُ : الدَّقُّ ، أو ضرب منه ، يقال ناقة ذكاه لا ستام لها ، (وجهه ذكاه) : أى أرضاً مستورة ، (وخر) : سقط من علو شائع ، (وصفاً) : مفضياً عليه من تأخير الماعلة . [٢] صيغة تكلف ، من الكبر ، وهو نمط الحق بعدم الخضوع له واحتمار الناس ، (الرشد) : الصلاح ولاستقامة وهدى ، وهو الفساد .

وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ «١٤٦» وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٤٧» وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَائِهِمْ عِجْلًا ^(١) جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ «١٤٨» وَلَمَّا سَقَطَ ^(٢) فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ «١٤٩» وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبًا أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَهْلِكْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ^(٣) وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَمَقُوا نَارًا وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِالْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «١٥٠» قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «١٥١» إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاءُهُمْ غَضَبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ «١٥٢» وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «١٥٣» وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ^(٤) أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ «١٥٤» الأعراف

شرح وعبرة

(١) (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) الخ عطف على قوله (وجاوزنا بني إسرائيل البحر) . وهذه الآيات نزلت في بيان بدء وحى الشريعة لموسى عليه السلام ، أما الوحى المطلق فقد بدأ

[١] ولد البقرة ، (جسد) لا يأكل ولا يعرب ، يريد أنه هيك من الخلق وليس بسجل حقيقى ، (خوار) : صوت . [٢] نسوا . [٣] من عجله : سبقه ، ولحق : اتبعه عن أمره ، وهو انتظار موسى لحظتين لهذه وما وصاكم به ، فبينت الأمر على أن اليباد قد بلغ آخره . ولم أرجع إليكم . [٤] كان الغضب يهده ويهول له : قل لقومك كفنا وهو تمثيل .

في جانب الطور الأيمن من سيناء منصرفه من مدين إلى مصر ، وإنما المذكور هنا بدو وحى كتاب التوراة .

ربنا الله تعالى بهذه الآيات أنه ضرب لموسى موعدا لمكاثته وإعطائه الألواح الشتملة على أصول الشريعة فقبل ذلك ، وجعل ذلك الموعد ثلاثين ليلة ثم أتبعها بشر ، وأن موسى عليه السلام قال لأخيه هرون لما أراد الذهاب إلى ميقات ربه (اخلفني في قومي) وترأس عليهم للحكم بينهم والإصلاح فيهم ، ونهاه عن اتباع سبيل الفسدين ، وهو لا يكون من نبي ، لأن الإفساد منه ماهو واضح جلي ، ومنه ما هو خفي ، ومنه الفرائع المشبهات التي يختلف فيها الاجتهاد ، ويأخذ التقي فيها بالاحتياط . واتباع سبيل الفسدين يشمل مشاركتهم في أعمالهم ، ومعاشرتهم والإقامة معهم ، في حال اقترافها ولو بعد العجز عن إرجاعهم عنها .

ومن ذلك ما يجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام فيصح نهيهم عنه تحذيرا من وقوعهم فيه بضرب من الاجتهاد كالذي وقع الاختلاف فيه بين موسى وهرون عليهما السلام في قصة عمل السامري الذي حكاه الله تعالى عنه في سورة طه (قال ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا « ٩٢ » ألا تبصير أفصيت أمسى « ٩٣ » قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي « ٩٤ ») .
(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه الخ) .

لما حضر موسى عليه السلام للميقات الذي وقته الله له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه من وراء حجاب امتشرفت نفسه العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة بأن تجعل لي من القوة على حل تحليكم ما أقدر به على النظر إليك ورؤيتك (قال لن ترائي ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترائي) أي إنك لا ترائي الآن ولا فيما يستقبل من الزمان ، ثم استمر ك بما يدل على تهليل النبي ، ويخفف عن موسى وطأة الرد بأعلامه مالم يكن يعلم من سنده ، وهو أنه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته ، ولكن انظر إلى الجبل فإني سأجعل له فان ثبت لدى التجلي وبقي مستقرا في مكانه فسوف ترائي ، لمشاركته له في مادة هذا العالم الثاني .

وإذا كان الجبل في قوته ورسوخه لا يثبت لهذا التجلي لعدم استعداد مادته لقوة تجلي خالقه فاعلم أنك لن ترائي أبدا وأنت مشارك له في كونك مخلوقا من هذه المادة ، وخاضعا للسنان الربانية في ضعف استعدادها (وخلق الإنسان ضعيفا) . (فلما تجلى ربه للجبل) انتهت وهبط من شدته وعظمته وصار كالأرض المدكوك أو النافقة للكاه ، وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه ، كمن أخذه الصاعقة ، والتجلى إنما كان للجبل لا لموسى فكيف لو كان له ؟ (فلما أفاق) موسى من غشيته (قال سبحانه) نزيها لك وتقديسا عما لا ينبغي في شأنك عما سألتك أو من لوازمه (تبث إليك) أن أسألك الرؤية وأن أتخطى ما رسمته لي (وأنا أول المؤمنين) أن لا يراك أحد في هذه الحياة .

(قال يا موسى إني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي) هنالك قال الله لموسى : إني استخلصتك من الناس ، واخترتك مفضلا لك على أهل زمانك برسالاتي ، وجعلها باعتبار تعدد

ما أرسل به من العقائد والعبادات ، والأحكام السياسية والحربية والدنية والشخصية ، وقرى برساتي بالافراد ، واصطفيتك بكلامي بتكليمي لك بعد وصي الالهام من غير توسط ملك وان كان من وراء حجاب ، وهو ما طلب موسى رضى ليحصل على الرؤية مع الكلام فأعلمه الله تعالى أنه غير مستحق له (نخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) خذ ما آتيتك من الشريعة والتوراة وكن من الشاكرين نعمتي بها عليك وعلى قومك . يشير بذلك إلى أنه لا ينبغي لموسى أن يتخطى ما أعطاه الله تعالى ولا يطلب من ربه ما لا ينبغي لئله أن يطلبه لأنه رسول ، والشأن في الرسول أن يأخذ ما آتاه الله ، ويدع ما لم يكنه به ، ويشكر ربه على ما آتاه وهده .

(وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء) أعطينا له ألواحا كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيبا وترهيبا وتفصيلا لكل نوع من أصول التشريع ، وهي أصول العقائد والآداب ، وأحكام الحلال والحرام (نفذها بقوة) قبلها بحجة وعزيمة وحزم ، لأن المراد بها تكوير شعب جديد بترية جديدة ، خلفه كل المخالفة لما نشأ عليه من الذل والعبودية لفرعون وقومه ، فإذا لم يكن للتولى تربية هؤلاء القوم ، والرشد لهم صاحب زوجة قوية وبأس شديد ، فانه يمجز عن سياستهم ، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) .

قيل : إن (أحسن) هنا بمعنى ذى الحسن النام ، وليس فيه تفضيل شيء على آخر ، وهو ما يعبرون عنه بقولهم : اسم التفضيل على غير بابه . وقيل : إن فيها الحسن والأحسن ، فأصول العقائد من الإيمان بالله تعالى وتوحيده أفضل من الأحكام العملية ، والفرض مثلا أحسن من النفل ، والأوامر أفضل من النواهي ، والمراد بأخذهم بأحسنها الشروع والابتداء قديما للامم على اللهم (سأريكم دار الفاسقين) أى وقل لهم : سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتي ، كيف يصير إلى الهلاك . وقال ابن جرير : هو كما يقول القاتل لمن يخاطبه . سأريك غدا ما يصير إليه حال من خالفنى . وقيل : معناه سأريكم دار الفاسقين من أهل الشام وأعطيكم إياها . وقيل : منازل فرعون .

(٢) (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بين الحق والباطل) بيان لسنة من سنن الله تعالى في ضلال البشر بعد مجيء البينات لهم ، وهي تسلية لتبينا محمد صلى الله عليه وسلم من جهة كفار قريش ، لأن شأنهم شأن جميع الأمم الذين أضلهم الله بعد أن قامت عليهم الحجة بالبيان كما قال في سورة التوبة (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم «١١٥») .

وقد ذكر هذه السنة عقيب بيان ما أنزله على قوم موسى عليه السلام من التوراة ، وفيها من الرعاظ ما يكفي لهدايتهم لو كانوا يريدونها ، ليرينا أن قوم موسى قد حرمهم الله تعالى الهداية ، وسأل بينهم وبين قههم آيات التوراة ، وشرح صدورهم لما فيها ، لأن هذه سمته في المتكبرين للعاندين . وقد وصف أولئك الذين يصرفهم عن الهداية بصفات :

[أولها] أنهم يتألون في الأرض ويظهرون للناس أنهم من طبقة فوق طبقتهم ، ومن طينة

غير طبيعتهم ، ومن لوازم ذلك أنهم لا يأبهون لما يأتي على أيديهم من الحق ، وما يصلهم منهم من خير .

وقد وصف ذلك التكبر بقوله (بغير الحق) لأن ذلك هو الشأن في التكبرين فهو لبيان الواقع ، ولك أن تفهم أن الآية تشير إلى أن هناك تكبرا باطلاً ، وهو التكبر على التكبرين ، وأنصار الباطل ، وأصحاب الشهوات ، فهؤلاء وأمثالهم إذا تكبر الرجل عليهم ورأى أنه أعظم منهم ، واستهان بجاههم عليه من باطل ، فلا يدخل فيمن يصرفهم الله تعالى عن آياته لأن تكبره بالحق لا بالباطل .

وقد ورد تفسير التكبر بغط الحق وعدم الخضوع له ، واحتقار الناس بحيث يرى التكبر أنه أكبر من أن يخضع لحق ، أو يساوى نفسه بشخص آخر ، وكثيرا ما يفهم الناس من الرجل الذي لا يتخالط الناس ولا يتصل بهم أنه متكبر ، وكذلك يفهمون من رجل متأنق في ملبسه أنه متكبر وهو فهم خطأ ، ولذلك ورد « التكبر غط الحق » و بطر الحق » .

[نانبها] عنادهم وإسرافهم في ذلك العناد للشار إليه بقوله (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) فإن كثرة الآيات وتعددتها إنما تفيد طالب الحق الذي عنده جهل أو شك أو سوء فهم ، فإذا خفيت دلالة بعضها فقد ظهر له دلالة غيره ، أما الذي لا يطلب الحق فلا يجديه كثرة الآيات ولا وضوحها .

[ثالثها] أنهم (إن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً) لأنهم صمموا على الضلال واستمروا صرعى التي والفساد ، فإذا رأى أحدهم سبيل الرشاد واتجه جلية لاختار لنفسه جعلها سبيلاً له بإثارها وتضيئها على ما هو عليه ، وما كل أحد يصل إلى هذه الدرجة من التي ، لأن من الناس من يسلك سبيل التي على جهل ، فإذا علم بما تنتهي به إليه من الفساد ، ورأى لنفسه مخرجاً منها تركها ، واختار سبيل الرشاد عليها .

[رابعها] أنهم (إن يروا سبيل التي يتخذوه سبيلاً) وهذه الصفة شر مما قبلها ، فإن هذه صفة إيجابية وتلك سلبية ، وبينهما حال أخرى هي حال من ليس فيه من نور البصيرة ما يجعله على سلوك سبيل الرشاد إذا رآه نصف همة ، ولكنه يكره التي والفساد ، إذ لم يصل من اعتلال الفطرة وظلمة البصيرة إلى تفضيله على الرشاد ، فن اجتمعت له هذه الصفات فهو الذي أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلم تبق له سبيل من أسباب الحق يسلكها .

وقد علل الله تعالى ذلك الجزاء العادل بقوله (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) ليرينا أن الله تعالى لم يخلقهم مطوعين على الضلال ، ولم يكرهم عليه إكراهاً ، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الملهمة على الحق والصدود عن سبيله الموصلة للرشاد (وكانوا عنها غافلين) لا يسطونها حقها من النظر والتدبر ، لاشتغالهم عنها بأهوائهم ، وبذلك قطعوا على أنفسهم طريق الهدى ، فالتفتة هنا : هي التفتة للماضي لهم من أسباب العلم والفتنة الناشئة من أعمال العقول وتعطيل الآذان والأسماع ، وهي المينة في قوله تعالى من سورة الأعراف (وقد

ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (١٧٩) « وهى الفظة التى يقولون عنها وهم فى جهنم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » ١٨٠ « فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ١٨١ » (١) .

وقد وضعت باللسنة الله تعالى فى الهداية والاضلال فى كتاب [آيات الله فى الآفاق] واستوفيت فيه كل الآيات التى لها تعلق بذلك الموضوع ، وهى مشكلة القضاء والقدر التى ضل فيها كثير من الناس وشرحناها شرحا يوفق بين بعضها وبعض ، ويزيل ما فيها من شبه ومشاكل .

(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون)
 الظاهر أن الآيات فى الآية السابقة هى المعجزات والبيّنات : من براهين عقلية وعلمية وكونية ، والآيات هنا المنزلة من حيث اشتغالها على الهداية والاصلاح ، وتركيز النفس من خرافات الشرك ، وفساد الأخلاق ومنكرات الأعمال ، ولقاء الآخرة هى ملاقات الله عز وجل والصبر إليه (واعلموا أنكم ملاقوه ٢٢٣ » (٢) .

والمراد أن الذين كذبوا بآيات الله المنزلة بالحق والهدى وكذبوا بقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء على الأعمال لا يجوزون هناك إلا ما كان من تأثير أعمالهم النفسية والبدنية فى أرواحهم وأنفسهم من خيرزكاها وأصلحها ، أو من باطل وشرّ دسأها وأفسدها ، فالجزاء فى الآخرة أثر للعمل مرتب عليه ترتب السبب عن السبب كأنه هو نفسه ، ولذلك ختم الآية بقوله (هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون) وقال فى سورة الأنعام (سيجزىهم وصفهم إنه حكيم عليم ١٣٩ ») (٣) (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) الخ فى الوقت الذى توجه فيه موسى لملاقات ربه اتخذ قومه من الذهب والنفضة عجلا جسدا له صوت يشبه صوت العجل ، وذلك لانهم الوثنية وتمكن الشرك من نفوسهم ، وفى سورة طه إن الذى اتخذ لهم ذلك الحليّ عجلا يعبد هو السامرى ، إذ يقول (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهمكم وإله موسى فنسى ٨٨ ») .

وقد نسب اتخاذها الى قوم موسى لأنهم رضوا بعمل السامرى وأثروا وكانوا مستعدين له ولذلك نسب إليهم اتخاذها كما نسب عقر الناقة الى قوم صالح ، مع أن الذى عقرها واحد منهم ، وكذلك نسب العاصي والمنكرات الى القوم جميعهم إذا كانوا بها راضين ، ثم أراد أن يوضح أولئك القوم على اتخاذهم صورة عجل من الحليّ ليمدوهم فقال (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) وفى سورة طه (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضررا ولا نفعا ٨٩ ») .
 والمراد أن أولئك القوم جماعة بلنوا من السفه والحق إلى أقصى حدود الحماقة والسفه إذ يستعبدون الحليّ من الذهب والنفضة من نساء المصريين ثم يعطونها السامرى ليصنع لهم عجلا ويزعم أن ذلك العجل الذى صنعه بيده هو إله الذى يستحق العبادة ، أو أنه إله موسى الذى كان يطلبه ففسى وأخذ يطلبه فى طور سيناء ، ولو كان عند هؤلاء شيء من العقل لعرفوا أنه عجل مصنوع

لا يستطيع أن يكلمهم ولا يستطیع أن يهديهم سبيلا ضالوه ولا يجيبهم إذا هم خاطبوه ولا يكلمهم إذا خالفوه ولا تفهم إذا أخطأوه ، ومعبود ذلك حاله لا يستحق أن يعبد بحال .

وبعد أن بين أن اتخاذ ذلك العجل معبودا سهفه وحق لأنه صنع أيديهم أعاد انكار اتخاذ وقال (اتخذوه وكانوا ظالمين) فأضاف اتخاذ إليهم مرة ثانية ، وأرانا أنهم كانوا ظالمين لأنفسهم بذلك اتخاذ لأنهم يرون أنه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم ، ولا يهديهم لما فيه رشادهم ، فهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبه دليل ، بل عن تقليد لما رأوا عليه للصريين من عبادة العجل (أيس) من قبل ، ولما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد (ولما سقط في أيديهم) وندموا على عملهم هذا (ورأوا أنهم قضاوا) بعبادة العجل (قالوا) وأكدوا القول (لنن لم يرجعنا ربنا ويفر لنا لنكونن من الخاسرين) لسهادة الدنيا ، وهي الحرية والاستقلال في الأرض التي وعدنا بها الله تعالى ، ولساهادة الآخرة ، وهي دار الكرامة والرضوان .

(ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) الخ .

يرينا الله تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع من الميقات غاضبا على أخيه هارون ، وذلك أنه ضعف في سياسته لهم ، ولم يكن ذا عزيمة في خلافته فيهم ، حزنا على ما وقع منهم من الشرك وإغضب الله عز وجل (قال بسما خلفتموني من بعدى) أى بسا خلافة خلفتمونيها بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة الرب تعالى ، وكان الواجب عليكم أن تختلفوني باقتناء سيرتي ، ولكم خلفتموني بصدتها ، إذ صنعت لكم صنما كأصنام أولئك القوم ، فعبدوا بعصمكم ، ولم يردعكم عن ذلك سائرهم ، فالترى يخ عام ، وفيه تعرض بهارون عليه السلام ، وفيه من العبرة أن الصلح إذا رأى تيار الفساد قد غلب على مبادئه من مجهود ، وقضى على ما خلفه هو أو غيره من أثر صالح مرضى فانه يحزن لذلك حزنا عميقا ويعمل على استرجاع ذلك الأثر ، ويحتمل على من كان سببا في ذلك الفساد من قريب أو بعيد .

فهذا نبى الله موسى بمضى الأيام في دعوة القوم إلى توحيد الله تعالى ، ويدأب على محاربة الشرك والوثنية أياما وليالى ، ثم يترك أخاه هارون عليه السلام فيقطع القوم في حلمه ولين جانيه ، فيفترس السامري تلك الفرصة ، ويضل القوم بعمل عجل من حلى الذهب والفضة على نحو خاص بحيث إذا صرحت الهوا منه صوت كصوت العجل ، ويستل سداجة بنى اسرائيل وجههم بحقيقة تلك الصنعة ، ويريه أن ذلك هو الذى ينبغي أن يعبد ، فيعود نبى الله موسى فيحزن على ذلك العمل الحزن العميق ، ويأسف غاية الأسف على إضلعة مجهوده بسبب ضعف قومه ، واستعدادهم لكل أنواع التخريف ، ثم يصنع بأخيه هارون من أنواع التعنيف والشدة ما يصع - كل ذلك ليرينا أنه ينبغي للمؤمن أن يعلمن للاصلاح ، وأن يترجع من الوثنية والشرك كما ارتجع لذلك نبى الله موسى ، وغضب على أخيه ذلك الغضب الشديد الذى جعله ينسى ألواح التوراة ويلقيها من يده ، ويأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه فينأى لذلك أخوه هارون ، ويتنذر عن عمله هذا وموقفه من قومه ذلك الموقف السلى - بأن القوم استضعفوه واستلوا جانيه وقاربوا أن يقتلوه ، فلو وقف منهم موقفا إيجابيا في إنكار الشرك وعبادة العجل لكان منهم ما كان مما لا يقف عند حد .

وقد نوسل إليه نبي الله هارون بأسلوب من شأنه أن يرق القلوب ، ويكسر من حدة الغضب ، ف(قال) يا ابن أم أن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت في الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين) يريد يا من تجمعي بك أم واحدة لا تعجل بتعني ومؤاخذتي ، فاني لم آل جهدا في الانكار على القوم والنصح لهم ، ولكنهم استضعفوني فلم يرعوا النصحي ، ولم يمشلوا أمري وكادوا يقتلونني ، فلا تفعل بي من الاهانة والممانبة ما يشمت في الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين لأنفسهم بعبادة العجل في درجة واحدة من الغضب والمؤاخذة فليست منهم في شيء . هنالك (قال) موسى (رب اغفر لي ولأخي) طلب من الله أن يفرله ما أغلظ به على أخيه من قول وفعل ، وأن يغفر لأخيه ما عساه قصر فيه من مؤاخذة القوم لما توقعه من إيذائهم له (وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وهو ثناء على الله تعالى يدل على مزيد الثقة في الرجاء ثم قفى على ذلك ببيان عاقبة عبدة العجل من غضب الله عليهم وذلتهم في الحياة الدنيا . وقيل : ان هذه القصة هي للسامري الذي أضل القوم واتخذ لهم العجل ، حيث قال له (اذهب فان لك في الحياة أن تقول لامساس «٩٧» «١١») أى لا يمسك أحد ولا تمس أحدا ، ثم قال (وكذلك نجزي للمفترين) أى هذه سنة الله في جزاء المفترين على الرسل في كل زمان .

ثم أراد أن يرينا أن هذه عاقبة من عمل السيئة وعكف عليها وبقى على ذلك حتى الموت ، أما من عمل السيئة ثم تاب منها وآمن فإن الله يفرله ما قدم من سيئات (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) وهو حكم عام يدخل فيه متخذو العجل وغيرهم ، ليرينا أن الذنوب وإن عظمت وجلت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ، ولكن لا بد من حفظ الشريعة ، وهي وجوب التوبة والانابة ، وما وراءه طمع فارغ ، وأشعية باردة ، لا يلتفت إليها حارم .

ثم يرينا الله أن الغضب لما سكنت عن نبيه موسى (أخذ الألواح وفي نسخها) أى ما نسخ منها وكتب هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبونه ويخشون عقابه وغضبه .

موسى عليه السلام

وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِجَالًا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَنتَ لَكُنَّا بِمَا قَعَل الشُّكَّاهُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ^(١) نُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ «١٥٥» وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا مُدْنَا ^(٢) إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

فَسَأَ كُتِبَ لَهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ «١٥٦»
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُوهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ^(١) وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ
ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ^(٢) وَنَصَرُوهُ وَأَتَمُّوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ «١٥٧» قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتِمُّوا لَكُمْ تَهْتَدُوا «١٥٨» الأعراف

شرح وعبرة

(١) (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) .

يرينا الله أن موسى عليه السلام انتخب من قومه سبعين رجلا يصحبونه لليقات الذي ضربه
له ربه ، فلما أخذتهم رجفة الجبل الذي تجلى الله عليه عند سؤال موسى الرؤية حزن موسى ،
ودعى أن لو أهلكهم الله قبل خروجهم مع موسى لذلك الموعد حتى لا يقول بنو اسرائيل : قد
ذهبت بخيارنا لاهلاكهم فيقع في حرج شديد معهم (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) وهم الذين
طلبوا رؤية الله جهرة ، أو الذين عبدوا العجل ، أو كلابا (إن هي إلا فتنتك) بلاؤك واختبارك
بالأمور الشاقة تبتلى بها الناس ليظهر استعدادهم وما انطوا عليه من ضلال وهداية ، فضل بهذه
الفترة من تشاء من عبادك ، ولست بظالم في تقديرك ، وتهدي من تشاء ، ولست بمحباب لهم في
توبيخك ، بل أمر مشيتك دائر بين العدل والفضل (أنت ولينا) متولى أمورنا والقائم علينا
بما تكسب نفوسنا (فاغفر لنا) ما يترتب عليه المؤاخاة ، والعقاب من مخالفة سنتك ، أو التقصير
فيما يجب من ذكرك وشكرك (وارحنا) برحمتك الخاصة فوق ما شملت به الخلق من رحمتك
العامة (وأنت خير التافرين) حلما وكرما وجودا ، فلا يتعاطمك ذنب ، ولا يعارض غفرانك
ما يعارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوى نفس (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة)

[١] تظلم القى يأخذ صاحبه وبجبه من الحراك لثقه ، وهو مثل ثقل التكليف ، والأغلال : مثل لما

كان في شرائهم من الأشياء العاتية .

[٢] صنعوه حتى لا يهوى عليه عدو من الزر واللع ، ومنه انتزير لأنه منع من مساومة القبيح .

من العافية ، وبسط الرزق ، وعن الاستقلال والملك ، والتوفيق للطاعة (وفي الآخرة) بدخول جنتك ، ونيل رضوانك ، وهو كقوله (ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار «٢٠١»^(١)) (إنا هدانا إليك) تبنا إليك ، ورجعنا عما فرط من سفهاتنا .
(قال عذابي أصيب به من أشاء) الخ : أى قد كان من سبق رحمتي غصبي أن أجعل عذابي خاصا أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين ، وأما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين ، فهي من صفاتي القدسية الأزلية التى قام بها أسمى العالم ، والعذاب ليس من صفات الله تعالى ، بل من أنعاله للرتبة على صفة العدل .

ولهذا عبر عن التعذيب بالنذل المضارع ، وعن تعلق الرحمة بالفعل الماضى ، وهذه الرحمة هي العامة المبذولة لكل مخلوق ، ولولاها لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وجفوره (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مازك على ظهورها من دابة «٤٥»^(٢)) . وهناك رحمة خاصة يوجهها الله تعالى ويكتبها لبعض المؤمنين المحسنين ، وما كتابته الأفضل منه ورحمة ، أما العذاب فلم يرد في الكتاب ولا في خبر المصوم أن الله تعالى كتبه على نفسه ، ولكن أثبته وتوعد به ، فكان لابد من وقوعه يقتضى ذلك الوعد (فسأ كتبها للذين يتقون) الخ ، سأ كتب رحمتي كتابة خاصة وأثبتها بمشيئتي اثباتا لا يحول دونه شيء لئوم جمعوا بين أولئك الصفات الآتية .

[أولها] (للذين يتقون) وقد حذف متعلق التقوى لبيدنا أنهم يتقون كل ما ينضب الله تعالى من الكفر والمعاصي والفرد على الرسل وما إلى ذلك ، ولربنا أن التقوى أصبحت عادة لهم وخلقاً من أخلاقهم ، وصاروا جديرين بذلك الوصف وهو أنهم (يتقون) وإذا قفوا في محرم من المحرمات فاعلموا بذلك على وجه الشذوذ والندرة لأسباب وقتية تزول المعصية بزوالها ، وذلك لا يخرجهم عن كونهم من أهل التقوى .

[ثانيها] أهم (يؤتون الزكاة) فلم يكن في نفوسهم شح بالمال ، وخص الزكاة بالذكر لأن فئنة حب المال تقضى بنظر الفعل والاختبار أن يكون المسافعون للزكاة أكثر من التاركين لغيرها من الفرائض ، وفيه إشارة إلى حب اليهود للدنيا وافتانهم بالمال وجهه ومنع بذله في سبيل الله تعالى .

[ثالثها] ما أشار له بقوله (والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى يصدقون بجميع آياتنا التي تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إذعان منى على العلم والایقان دون التقليد للآباء وعصية الأقوام .
[رابعها] (الذين يقيمون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) والأمي نسبة إلى الأم ، والمراد به الذي لا يقرأ ولا يكتب ، وكان أهل الكتاب يسمون العرب بالأميين (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل «٧٥»^(٣)) (هو الذي يث في الأميين وسولا منهم «٢»^(٤)) ولم ينقل أن الله تعالى يث نبيا أميا غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهو وصف خاص لا يشارك محمدا صلى الله عليه وسلم فيه أحد من النبيين ، والأمية آية من آيات نبوته فانه جاء بعد النبوة بأعلى المأموم النافعة ، وهو ما يصلح ما فسد من عقائد البشر ، وأخلاقهم

وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم ، وعمل بها ، فكان لها من التأثير في العالم ما لم يكن ولن يكون من خلق الله .

وقوله (الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) معناه الذى يجدون صفته وفته مكتوبة عندهم في التوراة والانجيل بحيث لا يشكون أنه هو ، وقوله (عندهم) لزيادة التقرير وبيان أن شأنه عليه السلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم ، وقوله (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) استئناف لبيان أهم ما يحتاجون إليه عند بعثه . والمعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه ، وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للقطرة والصلحة ، بحيث لا يستطيع العاقل النصف أن يردّه أو يعترض عليه ، والمنكر ما تنكره العقول السليمة وتنفر منه القلوب ونأباه .

قال الحافظ ابن كثير هذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فارعها سمعك فانه خير تؤم به أو شر تنهى عنه .

ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة ما سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (١)) .

وروى الامام أحمد بسنده إلى أبي حنيفة وأبي أسيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا سمعت الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعت الحديث عنى تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه) رواه أحمد بإسناد جيد ، وقوله (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) بيان لصفة أخرى من صفات ذلك النبي . والطيب ما نستطيع الأذواق من الأطعمة ونستفيد منه التغذية النافعة ، ومن الأموال ما أخذ بحق وتراض في المعاملة . والخبث من الأطعمة تمججه الطباع السليمة وتستفد منه ذوقا كالميتة والدم المسفوح ، أو تصد عنه العقول الراجحة لضرره في البدن كالخنزير الذى تتوله منه البودة الوحيدة - أولضرره في الدين كالذى يذبح للتقرب به الى غير الله تعالى على سبيل العبادة ، أى لاما يذبح لتكريم الضيفان ، والذى يحرم ذبحه أو أكله لتفريع باطل لم يأذن به الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى . والخبث من الأموال ما يؤخذ بغير حق كالربا والرشوة والسرقة والخيانة والنصب والسحت ، وقوله (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) تمثيل لثقل تكليف بنى اسرائيل وصعوبته كاشتراط قتل الأتانس في محبة توبتهم ، وهو يشير الى أنهم كانوا فيها أخذوا به من الشدة في أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والدنية والعقوبات كالذى يحمل أثقالا يثبط بها ، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل ، والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه ، فجاءت الشريعة المحمدية بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال صلى الله عليه وسلم لأمرية : ماذا ، وأبى موسى الأشعرى لما بعثها الى الجن « بشروا ولا تنفروا

ويسروا ولا تعسروا وتطوعا ولا تحتلفا) رواه الشيخان وغيرهما ثم ختم الآية بقوله (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

وللغنى أن الذين يؤمنون بالرسول النبي الأُمِّي عند مبعثه من قوم موسى ومن كل قوم ، ويعزروه ، بأن يمتنعوه ويحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والجلال ، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشتماز ، ونصروه باللسان واللسان ، واتبعوا النور الأعظم الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون الفائزون بالرحمة العظمى والرضوان .

ولعل في الآيات السابقة عبرة لقوم اعتمدوا على سعة رحمة الله تعالى ، وغفلوا عن عدله وحكمته اعتمدوا على قوله (ورحمتي وسعت كل شيء) وما دروا أن تلك الرحمة هي الرحمة التي تشمل المؤمنين والكافرين ، والبشر والمجان ، كما تشمل الإنسان والحيوان الأعجم ، وتشمل الموات والحشرات فهي جميعها في رحمة الله تعيش ، فمن رحمة بهم أن سخر لهم الرزق ، ومتعهم بالصحة ، وأمدتهم بالعافية وصوّروهم فأحسن صورهم ، وهداهم كيف يعيشون في هذه الحياة ، وكيف يتعاملون ، كل ذلك رحمة من الله ببنى الإنسان .

أما الرحمة الخاصة التي يمتاز بها المؤمن فقد كتبها على نفسه فضلا منه وإحسانا (الذين يتقون ويؤنون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) إلى آخر الآيات ، وما كتبها لفاجر أو فاسق ولا لبعيل شحيح ، كتبها لقوم يتبعون الرسول النبي الأُمِّي الذي بشرت به التوراة ، وأخبر به الإنجيل ، الذي يأمرهم بما تعرفه نفوسهم ، ويهتفون عما تنكره فطرتهم ، ويحل لهم الطيب ويحرم عليهم الخبيث ، ويضع عنهم أثقلامهم من التكليف الشاقة .

ثم ختم الآية بذلك الحصر الخفيف وقال (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) ولا فلاح لغير هؤلاء عن سمنوا على الصبيان ، وتمودوا الفسوق والفجور ، وهي آية ما أشدها على نفوس أرباب الشهوات ، وما أقساها على قلوب المنهاونين بأوامر الله تعالى ونواهيه ، وكان على الذين آمنوا أنفسهم بقوله (ورحمتي وسعت كل شيء) أن لا يغفلوا عن الآية التي تليها ليعلموا أن أصحاب أولئك الصفات هم الذين كتب الله على نفسه لهم الرحمة ، وقضى لهم بالقوز والملاح .

ولعل وعظما اليوم يفتنون لذلك النوع من الاغراء على المعاصي ، وتهوين المنكرات على الناس - أعلمهم يفتنون لذلك ، ولا يقفون من الناس موقف البشر برضوان الله ورحمته حسب ، وإنما يقفون مبشرين ومنذرين ، مبشرين برحمته ، مخوفين من بطشه وعذابه ، مذكّرين بقوله سبحانه وتعالى (يأيها عبادي أني أنا الغفور الرحيم «٤٩») وأن عذابا هو العذاب الأليم «٥٠» (١) فهو واسع الرحمة ، ولكنه لا يرضعها إلا للوضع الذي يستحق ، والمكان الذي يذني أن تكون فيه ، فانه حكيم والشأن في الحكم أن يكون كذلك ، وقد بين الله ذلك للوضع بقوله (فسأكتبها للذين يتقون) إلى آخر الآيات .

(٢) (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) .

هذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والمجم ، وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبي العربي بأمر الله تعالى ، فينبشهم به أنه رسول الله تعالى إليهم كافة ، لا إلى قومه العرب خاصة ، كما زعمت المسيحية من اليهود فهو كقوله (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون « ٢٨ » (١)) وقوله (وأوحى إلى هذا القرآن لأندركم به ومن بلغ « ١٩ » (٢)) أى وأنذر به كل من بلغه من الثقلين ، فمن قال انه يؤمن برسالة الى العرب خاصة لا يستند بإيمانه لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية ، وما في معناها كقوله تعالى (تبارك الذى نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا « ١ » (٣)) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين « ١٠٧ » (٤)) . ثم وصف الله عز وجل نفسه في هذا اللقائم بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وبالإحياء والاماتة فقال (الذى له ملك السموات والأرض لإله إلا هو يحيى ويميت) وبنى على ذلك الدعوة الى الإيمان على طريق التفرع (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأتى) ليلفت النظر الى تلك المعجزة الظاهرة معجزة الأتية (الذى يؤمن بالله وكتابه) أى يؤمن بما يدعوكم إليه من توحيد الله تعالى ، وكتابه التشريعية التى أنزلها لهداية خلقه ، وهى مظهر علمه وحكمته ورحمته ، وكتابه التسكينية التى هى مظهر إرادته وقدرته .

وبعد أسرم بالإيمان أسرم بالاسلام فقال (واتبعوه لعلكم تهتدون) أى رجاء اهتدائكم بالإيمان واتباعه لما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة .

وهنا نكتة لطيفة : هى أنه قال فى صفة الرسول صلى الله عليه وسلم (واتبعوا النور الذى أنزل معه) وهنا قال (واتبعوه لعلكم تهتدون) فان تلك فى اتباع القرآن خاصة ، وهذه تشمل اتباعه صلى الله عليه وسلم فى العمل بالقرآن ، كاتباعه فى صفة الصلاة وكيفيتها ، وعدد أوقاتها ، وسرها وجهرها وطولها وقصرها وما الى ذلك ، واتباعه فى صفة الحج ، وصفة بقية العبادات التى أجلها القرآن وبينها الرسول صلى الله عليه وسلم من طريق العمل كما يشمل اتباعه فى اجتهاده واستنباطه من القرآن الذى أقره الله عليه إذا كان تشريعا - كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها قياسا على الجمع بين الأختين للنصوص فى القرآن .

والتشريع : إما عبادة أسمرنا بالتقرب الى الله تعالى بها وجوبا أو ندبا ، وإما مفسدة نهينا عنها اتقاء لضررها فى الدين كدعاء غير الله فيما ليس من الأسباب التى يتعاون عليها الناس ، وكأكل المذبح لغير الله ، أو لضررها فى العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامة ، وإما حقوق مادية أو معنوية أسمرنا بأدائها الى أهلها ، كالوارث والنفقات ، ومعاشرة الأزواج المعروف ، أو أسمرنا بالتزامها لضبط المعاملات كالوفاء بالعقود .

وليس من التشريع الذى يجب فيه امتثال الأمر ما لا يتعلق به حق لله تعالى ولا خلقه ، لا جلب مصلحة ولا دفع مفسدة ، كالعبادات والصناعات ، والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث ، وما يرد فيها من أمر ونهى يسميه العلماء إرشادا لا تشريعا لا ملازمته عليه وعيد كليس الحرير .

وقد ظن بعض الصحابة أن إنكار النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور الدينية المبينة على التجارب للتشريع كتقليع النخل ، فامتنعوا عنه فخرج عمر رديئاً بإيسا ، فراجعه في ذلك فأخبرهم أنه قال مقال عن طلق ورأى لا عن تشريع ، وقال لهم « أتم أعلم بأمر دنياكم » كما ورد في صحيح مسلم ، وحكته تنبيه الناس إلى أن مثل هذه الأمور الدينية والمعاشية لا يتعلق بها لغاتها تشريع خاص ، بل هي متروكة إلى معارف الناس وتجاربهم .

وكانت الصحابة يراجعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يشق عليهم أحوالهم من رأيه صلى الله عليه وسلم واجتهاده الديني ، أو بأمر من الله تعالى ؟ وإن لم يكن تشريعاً كسؤاله عن الوضع الذي اختاره للنزول فيه يوم بدر ، قال له الحباب بن المنذر رضي الله عنه : أهدأ منزل أنزلك الله ليس لنا متقدم عنه ولا متأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه بأنه رأى لا وحى وأن العول فيه على الصلحة ومكايد الحرب أشار بغيره فوافقه صلى الله عليه وسلم .

ومنه يعلم أنه لا يدخل في باب التشريع مثل حديث « كلوا الزيت وادفنها به فإنه طيب مبارك (١) » بل هو من أمور العادات ، بخلاف حديث « كلوا لحوم الأضاحي وادفروا (٢) » فإن الأضاحي من الفسك ، والأكل منها سنة ، فأمر الضحى به للندب ، وادفنها جائز له ، ولولا الأمر به لظن تحريمه أو كراهته للاقاة الأضاحي باليد ، فهي ضيافة الله تعالى للؤمنين في أيام العيد ، وكذلك ليس من باب التشريع ما ورد في الشيب من صبغه بالسواد ، بل هو من الأمور العادية المتعلقة بالزينة الباحة ، إذ لا تعبد فيه ولا حقوق لله ولا للناس .

موسى عليه السلام

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ «١٥٩» وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَئِي عَشْرَةَ أَشْهُبًا (٣) أَمَّا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَىٰ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِمِصْرِكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ (٤) مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ النَّعْمُ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّى (٥) وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «١٦٠» وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ (٦) وَأَدْخَلُوا الْبَابَ سَجْدًا تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَجِدُ الْمُحْسِنِينَ «١٦١» قَبْدَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ

[١] رواه أحمد . [٢] رواه أحمد والمالك . [٣] فرقاً وجامات .

[٤] انجبرت . [٥] مادة يضاء تنزل من السماء كالطال ، حلو الطم تشبه السيل ، وإذا جبت .

تكون كالصنع ، وهو الترحيب ، والسلى : طير السمان المعروف . [٦] الدعاء بأن يحط عنهم خطاياهم .

الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾
 وَمَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً ^(١) الْبَحْرِ إِذْ يَعْبُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
 حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَاقِمًا وَيَوْمَ لَا يَتَذَكَّرُونَ لَهَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْأُهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُلْكُهُمْ أَوْ مَعَذِبُهُمْ
 عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا
 مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ
 بَئِيسٍ ^(٢) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا ^(٣) عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ
 كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ ^(٤) رَبُّكَ لِبَنَةِ نَارٍ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ
 مَنْ يَسْمُؤُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾
 وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ اثْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ ^(٥)
 بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا
 الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ ^(٦) هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ
 مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
 وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّهُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ
 يُمَسِّكُونَ ^(٧) بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾
 وَإِذْ تَقَرَّبْنَا ^(٨) إِلَىٰ الْجِبَلِ فَوَقَّعْنَاهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
 بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ الأعراف

[١] قرية منه « يدون » يتجاوزون حكم الله بالصيد الحرم عليهم فيه « سبتهم » تعطيتهم السبت
 « شرما » ظاهرة على وجه الماء . [٢] شديد من البأس ، وهو الشدة ، أو البؤس ، وهو المكروه .
 [٣] تكبروا « خاسين » : صاغرين أدلاء . [٤] أعلم صيغة نفل ، من الأيذان وهو الإعلام .
 [٥] اختبرناهم : [٦] عرض هذا الحطام الحقيق من متاع الدنيا كالهدية والرشا .
 [٧] يمسكون به في جميع أحوالهم وأوقاتهم . [٨] رضاه أو زلزاله ، وهو مرفوع فوقهم مظل لهم ،
 من جنى السماء : مزه وهضبه ليخرج منه الزبدة .

شرح وعبرة

(١) (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحقّ وبه يعدلون) .

لما بين في الاستطرد السابق كتابه رحته الخاصة للذين يتبعون محمدا صلى الله عليه وسلم من قوم موسى وعيسى عليهما السلام وقال فيهم (أولئك هم المفلحون) فقي على ذلك بيان أن من قوم موسى طائفة تهدي الناس بالحقّ الذي جاءهم به من عند الله ، ويعدلون به إذا حكموا بين الناس لا يتبعون فيه الهوى ، ولا يأكلون السحت والرشا .

والظاهر أن هؤلاء ممن كانوا في عصره و بعد عصره ، فإن الأمم العظيمة لا تخلو من أهل الحق والعدل ، وهذا من بيان القرآن للحقائق ، وعدله في الحكم على الأمم ، كقوله (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما « ٧٥ »)^(١) ولا ينافي ذلك قوله (يهدون - ويعدلون) المفيدة للحال ، لأن أمثاله مما حكى فيه حال الفارين وحدهم بصيغة المضارع كثير ، فهو تصوير للماضي في صورة الحاضر . وقال بعض المفسرين : المراد بهؤلاء من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ، ولكن الآية ليست صريحة في هذا ، بل السياق ينافيه لأنها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به صلى الله عليه وسلم ، والصريح في ذلك النوع مثل آية آل عمران (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم « ١٩٩ » .

فآيات في خيار أهل الكتاب أنواع :

[الأول] ما هو صريح في الذين أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، وقد أئنت عليهم قبل الإيمان به و بعده . كقوله تعالى (الذين آتيناكم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون به « ١٢١ »)^(٢) وقوله (الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون « ٥٢ » وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقّ من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين « ٥٣ » أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا)^(٣) .

[الثاني] ما كان صريحا في الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام واستقاموا معه ، ثم في عهد من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة العاتية قبل بلوغ دعوتها كالآية التي نحن بصدد تفسيرها . [الثالث] المحتمل للقسامين كقوله تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون « ١١٣ » يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين « ١١٤ » وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين « ١١٥ »)^(٤) .

والعبرة في الآية التأسى بالقرآن الكريم في بيان الحقائق وعدله في الحكم ، فالرجل الذي اتخذ القرآن إماما له ، ونورا يهتدي به يتأسى به في حكمه على الأفراد والشعوب ، فلا يسرف في المدح

[١] آل عمران . [٢] البقرة . [٣] القصص . [٤] آل عمران .

أو انهم ، ولا يتعالى في بيان التلويح .

ألا ترى القرآن يقول في أهل الكتاب (ونسوا حظا مما ذكرنا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين « ١٣ ») (١) .
وإذا سمعت هذه القصة من رجل لم يتهذب بتهذيب القرآن ، ولم يتأدب بأدبه ، نجد منه الأساليب الخطابية ، والمؤثرات الشعرية ، وتجدد يبالغ في تحريف أولئك لدينهم ، وإهالمهم لتعاليمهم حتى ليخيل إليك أن ما بقى من دينهم بدون تحريف لا يبلغ عشر مشارما أضاعوه ، ثم تراه يقول (الاقبلا منهم) ليريك أن الفساد لم يكن عائنا فيهم بل كان فيهم فريق قليل على صلاحه ورشده .
فالقرآن يرينا أنه لا يصح أن تحملنا العصية للدين أو الكتاب على أن ندمط أهل الكتاب حقهم أو نبخسهم أشياءهم ، وإنما الواجب على المؤرخ أن يذكر ما لهم وما عليهم ، ولا أدل على اهتمام القرآن بالعدل في الأحكام من قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوادمين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون « ٨ ») (٢) .

(٣) (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما) .

يقين الله تعالى على بني اسرائيل أن جعلهم الله أسباطا وجاعات يمتاز كل منها بنظام خاص في معيشته وبعض شؤنه ، والشهور في معنى السبط أنه ولد الولد ، وقد يخص بولد البنت ، وأسباط بني اسرائيل : سلال أولاده العشرة ، فالأسباط بيان للفرق والقطع التي هي أقسام بني اسرائيل كما سميت الفرق في العرب بالقبائل ، والأم بيان للراد من معنى الأسباط الاصطلاحي ، والامة : الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد .
والراد أن الله تعالى يقين عليهم بأن كثرتهم وجعلهم أمما وشعوبا ، فكان عليهم أن لا يغالوا هذه النعم بالكفران ، بل يقابلوها بالشكر .

ثم يقين عابهم بأنه أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام حين طلب قومه منه السقيا أن يضرب بصاه الحجر فتجرت منه اثنا عشرة عينا ، وقد عرف أناس كل سبط المكان الذي يشربون منه ، إذ خص كلا منهم بعين لا يأخذ الماء إلا منها ، لما في ذلك من النظام واتقاء ضرر الزحام ، وهي نعمة أخرى فوق نعمة الماء .

ثم سخر عليهم النعام يلقي عليهم ظله فيقيم لفتح حرارة الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها ، وحرها المعتدل .

ثم أنزل عليهم المن والسلوى ، وقال لهم (كلوا من طيبات ما رزقناكم) ولكنهم ظلموا بالكفر بهذه النعم ، وبمجرد آيات الله تعالى وشؤم ظلمهم عائد إليهم ، ولا يعود على ربهم وخالقهم منه شيء ، ولذا لا يقول (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

ثم يذكرهم الله تعالى حين أمرهم بسكنى قرية معروفة لهم وأن يأكلوا منها حيث شاءوا من أنواع النعم ، وأن يدخلوها خاضعين خاضعين داعين أن يحيط عنهم خليلهم ، ووعدهم أن سيزيد

المحسنين نعيما الى نعيمهم ، غالفوا أمر الله تعالى خلافا لا يقبل التأويل حتى كأنه قيل لهم غير الذى قيل ، فأرسل الله عليهم عذابا من السماء (بما كانوا يظلمون) .

وقال فى سورة البقرة (فأنزّلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون « ٥٩ ») وهو يرينا أن العذاب كان خاصا بالذين ظلموا ، لاعلماء ، ومجموع الآيتين ربما أنهم كانوا جامعين بين الظلم الذى هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو الغير ، وبين الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة ولو فى غير الظلم للنفس أو للناس .

والعبرة فى ذلك أن تنقّ الظلم والفسق ، ونعلم أن الله تعالى يعاقب الأمم على ذنوبها قبل الآخرة ، وأنه عاقب بنى اسرائيل على ذنوبهم ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل وكثرة وجود الأنبياء فيهم .

(٣) (واسألمهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) الخ ، وهو تفصيل لقوله فى سورة البقرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) يخاطب بها علماءهم ، والخطاب فى قوله (واسألمهم) لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والسؤال فيه للتقرير للتضمن للترجيع ، والادلاء بعلم ماضيهم ، يريد واسأل بنى اسرائيل عن أهل المدينة التى كانت حاضرة البحر قرية منه رابكة لشاطئه ، إذ يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه (إذ تأنيهم حيتانهم) يوم تعظيمهم للسبت ظاهرة على وجه الماء (ويوم لا يسبوتون لأنبيئهم) .

قيل : إنها اعتادت أن لا يتعرض لها أحد لصيدها يوم السبت فأمنت وصارت تظهر فيه ، وتخفى فى الأيام التى لا يسبوتون فيها لما اعتادت من اصطباذها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها فى يوم السبت أغرامهم ذلك بالاحتيال على صيدها ففعلوا (كذلك نبأهم) مثل ذلك البلاء بظهور السمك لهم نبأهم وتخبرهم (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم عن أمر ربهم واعتادتهم حدود شرعه .

(٤) (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم ولعلمهم يتقون) أى واسألمهم عن حال أهل القرية فى الوقت الذى قالت أمة وجاعة منهم (لم تعظون قوما) الخ والآية تدلّ على أن الذين كانوا يعدون فى السبت بعض أهل القرية لا كاهنهم وأن أهلها كانوا ثلاث فرق : فرقة العادين التى أشير إليها فى الآية الأولى ، وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان وعظوم ليكفروا عنه ، وفرقة اللاعنين للواعظين التى قالت لهم : لم تعظون قوما قضى الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد ، فهو إما مهلكهم بالاستئصال أو بعذاب شديد دونه ، أو مهلكهم فى الدنيا ومعذبهم فى الآخرة .

والآية ترينا أن الأمة قد تسرف فى العدوان ، وتتمادى فى الباطل ، وتملك عليها الشهوات جميع حواسها ومشاعرها ، فيقلّ أمل الواعظ فيها ، وتنقلب عليه روح اليأس ، وكثيرا ما يحسن المصلح ذلك الاحساس ، ويشعر ذلك الشعور ، ولا سيما إذا رأى الفساد قد شمل الخلاصة والدائمة ، ولم يدع فريقا من الأمة بدون أن يفسرّب إليه ، وخاصة العلماء الذين هم من الأمة بمنزلة الرأس من الجسم .

إذا رأى المصلح أن أولئك القوم جرفهم تيار الفساد ، فاندمجوا مع العامة في الشهوات واللذائش وشابخوا الجاهل من الناس في اللامعة والنفاق ، وأصبحوا يداجون ويدارون ، وجاء عرض من أغراض هذه الحياة ، ومتاع زائل .

إذا رأى المصلح ذلك فانه يحزن الحزن كله ، ويأس اليأس كله ، ويتم ذلك التمسك كله ، وحين ذاك يقول في نفسه : ماذا أصنع وماذا يصنع المصلح ؟ أ يصلح العتبة أو الخشبة ؟ يصلح الرأس أو الجسم ؟ وما سبل ذلك الإصلاح ؟ وكيف يستطيع إصلاح العتبة ، وإخلاء قد ضربوا لهم الأمثال السيئة في الرذيلة ، وعبدوا لهم طريق الشهوات ، وهوتوا عليهم للسكرات ، وجروهم على ما لا ينبغي من المحرمات ؟ وكذلك يحزن المصلح حين يرى ولادة الأمور وأصحاب الحول والطول ، وذوى النفوذ والسلطان من الأمة ، قد فسدوا إلى حد بعيد ، وتجاهروا بذلك الفساد ، فلا يلبون بأن يعصى الرجل منهم على رموس الأشرار ، ولا يستنكف أن يفتضح الله تعالى على صرعى من الجاهل .

والشأن في الناس أن تكون على دين رؤسائهم وأصحاب السلطان فيهم ، يفسدون بفسادهم ويصلحون بصلاحهم ، يتأسون بهم في الخير والشر ، ويقتلون بهم في كل عمل .

إذا رأى المصلح الفساد قد تنفط في جميع طبقات الأمة ولم يدع فريقا منها بدون أن يصل إليه ضفت عند ذلك نفسه ، وتسر إلى اليأس ، فيأخذ في التحفط إلى نفسه ، مافائدة الوعظ ، وما غاية الارشاد ؟ وما هو الأمل في ذلك العمل الذي لا يجدي ولا يفيد .

يرينا الله تعالى بهذه الآية الكريمة أن طاقة من أهل القرية قد استولى عليها اليأس ، وانقطع فيها الأمل في صلاح من معهم من الذين يعدون في السبت ، فأخذت تنكر على الواعظين وعظلمهم وعلى المصلحين إصلاحهم وتقول لهم (لم تطوبوا قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) وما فائدة الوعظ وما قيمة الارشاد ؟ فكان جواب الواعظين (معذرة إلى ربكم) فعظهم وعظ غير نعتد به إلى ربكم من السكوت عن النكر وقد أمرنا بالتناهي عنه (ولعلهم يتقون) وجاء في انتفاعهم بالوعظة ، وحلا لهم على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه ، أي فنحن لم نياس من رجوعهم إلى الحق .

وفي هذا بيان لما ينبغي أن يكون عليه الواعظ ، ينبغي له أن لا يياس من الإصلاح ، وأن يعلم أن الوعظ أثره وغايته في النفوس ، وإن كانت الغاية تتفاوت بمقدار استعداد النفوس للوعظ وتأهبها للتأثر به .

فن النفوس ما هو مستعد للإصلاح استعدادا قريبا ، فإذا وصل وعظ للمصلح إلى ذلك الصنف ، فإن النفوس تستفيد من الوعظ في الحال ، ومنها ما هو مستعد لاستعدادا بعيدا ، ولا غنى للواعظ عن الصبر على ذلك النوع من النفوس ، وإذا لم يكن هو ثمرة ذلك الوعظ فسيجنيه من بعده من المصلحين .

ومن الجهل أن يعتقد الواعظ أن ثمرة وعظه لابد أن يجدها في الحال ، وما مثل الواعظ إلا كفلاح يصلح الأرض ويمتها للزراعة والانبثاق ، ولأرض مملوءة ، فنها الصالح الذي يجني ثمرة . بمجرد وضع البذر فيه ، ومنها غير الصالح الذي يحتاج إلى زمن طويل ، فإذا لم يجد الزارع ثمرة .

ذلك النوع الآن فسيجده من بعده ، وكلّ مجهود يقوم به الزارع في الأرض لايضيع ، وكذلك الوعظ والصلحون ، فكثيرا ما انتفع الواعظ باصلاح من سبقه ومجهود من تقدمه ، وكثيرا ما اصطدم الواعظ بافساد من سبقه ، وكتان من تقدمه ، ولا أدلّ على ذلك من احتجاج العاتة بسكوت العلماء السابقين ، وغفلة فريق منهم عما أوجه الله عليه من بيان الدين للناس ، فكم سمعنا منهم : قد كان فينا الشيخ فلان والشيخ فلان ولم نسمع منهم ذلك ، ولم ينكروا علينا ماتنكرون ، وهل لتلك من معنى سوى تأييد ماقلنا من أن ترك الناس بدون اصلاح مدعاة لموت نفوسهم ، وقسوة قلوبهم ، وتسلط الشهوات عليهم ، وأن تعهدهم بالوعظ يخفف من وطأة النساد ، ويقلل من قيمة الشهوات ، ويضعف من سلطان الباطل ، وأن تجاوب الأصوات بالوعظ والارشاد ضرورة من ضرورات الأمة ، وحاجة من حاجات البشر (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيم » ١٦٥ » (١) .

إذا لاحظ الواعظ ذلك كله ، فإن اليأس لايجد الى نفسه سبيلا ، وأقلّ فائدة للوعظ أن يكون حجة على أنصار الباطل وأصحاب الشهوات ، وأن يكون قد قام بما أوجه الله عليه من انكار النكر وتقييح شأنه للناس وأن يكون وعظه عدّة لغيره من المصلحين فيما يستقبل من الزمان وتكاثرة يعتمد عليه من يجيء بعده ممن يريد الاصلاح . ويعجبني ماحكى عن بعض الزراع أنه مرّ به رجل فوجده يزرع نوعا من الأشجار لايمر إلا بعد مائة سنة فقال له لماذا تزرع وأنت واثق من أنك لايجي ثمرته ؟ فقال له الزارع : قد زرعه آبائنا فحينئذ ونحن نزرعه ليجي أبناؤنا .

وما أحسن قول الله تعالى حكاية عن أولئك الواعظين (معهرة الى ربكم) وعلى الواعظ أن يكثر من تبرير هذه الحكاية حتى تخرج بلحمه ودمه ، فيؤثري واجبه في الوعظ امتثالا لأمر الله تعالى ، وثقة بأنه أدري بمصالح الناس ، وما يعود عليهم بالخير ، وأنه أعلم منا بفائدة الوعظ ، والدعوة الى الله تعالى ، وأنها ركن ركين من أركان الدين لا يستقيم أمر الناس بدونها ، ولذلك أوجب على الأمة أن يكون منها طائفة تدعو الناس الى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهام عن النكر ، وأنه إذا فقدت هذه الطائفة صارت الناس فرقا وشيعا ، فينحاز كلّ فريق لشهوته ، ويتعصب لهواه (ولتكن منكم أئمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن النكر وأولئك هم المفلحون » ١٠٢ » ولانكرونا كافرين تفرّقوا واختافوا من بعد ما جاهد البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » ١٥٥ » (٢) .

وقوله (ولعلمهم يتقون) رجاء من الواعظين في أن أولئك القوم يفتنّون بتلك الموعظة كلام أو بعضهم ، فقد يكون في الطائفة الفاسدة أفراد صالحون أو مستعدون للاصلاح ، فخرمانهم من الوعظ خسارة كبرى على المستعدّ .

وما دام هناك احتمال أن طائفة تستفيد من الوعظ فلا بأس ، وهو ظاهر إذا كان الوعظ موجها لأئمة وطائفة ، أما إذا كان الوعظ موجها لشخص معين فإن الواعظ متى عرف بالاحتياط من ذلك الشخص أنه ليس مستعدّا للوعظ ، ولما تأهبها للتذكر فليس عليه بأس من ترك وعظه .

ولعل ذلك هو محل قول الله تعالى (فذكر ان نعمت الذكرى «٩»^(١)) فشرط في التذكير ان تنفع الذكرى ، أما إذا لم تنفع فهي من العبث .

وهناك من فوائد الوعظ عدا ما تقدم حاية للمؤمنين من الفساد ، ويقايتهم من الشر ، فهو بمثابة الحياولة بين السليم والأجرب حتى لا يعبده الجرب فيصبح الكل مريضاً ، فإذا لم يفد الوعظ في نكثير سواد الأصحاء فهو يعجدي في وقوف الررض وعدم انتشاره ، فان العدوى الخلقية أسرع من عدوى الأجسام ، والتأثر بأرباب الشهوات والأهواء أضعاف التأثر بالمصابين بالأمراض الجسمية ، وكل انسان مستعد لأن يتأثر بالتأثير والشر استعداداً قوياً أو بعيداً ، فإذا سمع الصنف الصالح من الأمة الوعظ ، وتعهده للصالحون بالارشاد فان ذلك يكون وقاية له من التطلع لأرباب الشهوات والانغماس معهم .

ومن أجل ذلك أوجبت الشريعة الإسلامية الوعظ على المنابر في كل أسبوع مرة عدا المواعظ التي يتبرع بها فريق من الأمة ، وكثيراً ما نرى في البيت الواحد الصالح والطالح ، و نرى صراعاً بينهم في صلاحهم وسادهم ، فترى الصالح في البيت يمثل قول المواعظ وعمله ، ويحاول أن يظفر بأخيه الفاسد لينقله من هذه الفسق ، ويذهب به الى حيث يذهب الصالحون المؤمنون .

ونرى صاحب الشهوة مغرماً باللهو والخلاعة ، تجري كلمات اللهو على لسانه ، وتظهر خفة الطيش على جوارحه ، وهو في طريقه هذا يحاول أن يضم إليه أخاه ويكسب صاحبه ، ولا يزال بينهما ذلك الصراع ان ظاهراً وان خفياً حتى يتقلب القوى على الضيف سنة الله في كل صراع فإذا لم يكن الوعظ من وعظهم سوى حاية للمؤمنين والحياولة بينهم وبين الشهوات ، فذلك فائدة كبرى ، وغاية من أجل الغايات ، فكيف إذا كان من وراء ذلك إعداد النفوس للصلاح ، وجعلها مهيةً لارشاد ، وإقامة الحججة على أرباب الشهوات والمعاصي ، وإظهار هذه الطاقة بظهور لا يلبق بالناقل ولا يتناسب مع الكرامة ، ويبان أن حياة الناس المعنوية والمادية في طاعة ربهم ووقوفهم عند ما رسم لهم ، وأن الفل كل الفل في أن يكون الناس كالبهائم لا يسيرون إلا على بطونهم وقضاء شهواتهم ، وأن الانسان قد أعدّه الله بما هبأه له حياة وراء هذه الحياة ومعيشة أرقى من تلك العيشة ، ولا يستطيع الوصول الى تلك الحياة الغالية الا بتزكية نفسه وطهارة روحه ، وإعما يكون ذلك كله بالهدى الصحيح والعلم السافح .

وجله القول أن اليأس من الشيطان ، فإذا تسلط عليك أيها الواعظ فخر به بما تستطيع وقاومه بكل ما أوتيت من قوة ، وقم بما أوجه الله عليك من وعظ وارشاد ، ودع ما لا تستطيع من هداية القلوب لخلقها وبارئها فهو القدي يصرفها كما يريد ويقلبها كما يشاء (وإما يزعجك من الشيطان زعج فاستند بالله انه سمح عليم «٢٠٠»^(٢)) .

(٥) فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) فلما نسي العادون في السبت المذنبون ما ذكروهم به ووعظهم به اخوانهم المتقون ، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالشيء للنسي في كونه لا تأثير له ، أنجينا الواعظين

من العقاب الذى استحقه فاعلوا سوءه ، وأخذنا الذين ظلموا وهدم بعذاب شديد .
وانظر الى قوله (بما كانوا يفسقون) لتعرف أن نزول العذاب بهم سببه فسقهم المستمر
لاظلمهم فى الاعتداء فى السبب فقط ، ولو كان هذا هو السبب لكفى أن يقول (لأخذنا الذين
ظلموا) وكان وصفهم بأنهم ظلموا تعليلا لأخذهم بالعذاب على قاعدة أن تعليق الحكم أو الجزاء
على المشتق يدل على أن المشتق منه علة له ، ولكن الله أراد أن يرينا بذلك التعليل أن سنته
فى أخذ الأمم والشعوب فى الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب أن يظهر أثر الذنوب فيها بالاصرار
والاستمرار عليها ، وهو ما أفاده هنا قوله (بما كانوا يفسقون) وليس من سنته أن يؤاخذ كل
ظالم فى الدنيا بكل ظلم يقع منه قل أو أكثر لقوله (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على
ظهورها من دابة «٤٥»)^(١) وقوله (ويعفو عن كثير «١٥»)^(٢) بل قد يعاقب الظالم وتند
يؤخره ، وهو حكيم فى ارجاء العقوبة ، عليم بما تقضى به المصلحة .

والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ، ونجاة الصالحين الذين نهوم عن عمل سوءه ، وسكنت
عن الفرقة التى أنكرت على الواعظين وعظهم ، فقيل انها كانت مع المالكين لأنها لم تنه عن
المسك ، بل أنكرت على الذين نهوا عنه . وقيل : بل نجت لأنها كانت منكرة للنكر ، ولذلك لم
تفعل ، وإنما لم تنه عنه لياسها من فائدة النهى وجزمها بأن القوم قد استحقوا عقاب الله
باصرارهم فلا يفيدهم الوعظ .

وتستطيع أن تأخذ من الآية فائدة أخرى للوعظ والواعظين ، والاصلاح والمصالحين ، هى
نجاتهم من سوءه الذى أنزله الله تعالى بأصحاب الذنب ، ولولا ذلك الانكار الذى كان منهم لمهلكوا كما
هلك المذنبون (وانقروا فتنة لاصبين الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب «٣٥»)^(٣)
(فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى تعلقت إرادتنا بأن يكونوا قردة
خاسئين صغرى من أذلاء ، فكانوا كذلك . قيل : إن هذا تفصيل للعذاب البئيس فى الآية السابقة
وقيل : هو عذاب آخر وأن الله تعالى عاقبهم أولا بالبؤس والشقاء فى العيشة ، لأن من الناس من
لا يريه إلا الشدة ، كما أن منهم من يريه الرضاء والنعمة ، وبكل يتلى الله عبادهم (وبولناهم
بالحسنات والسيئات لهم يرجعون) ولكن هؤلاء القوم لم يزدحم البؤس إلا عتوا واصراروا على
الفساد والظلم ، فقدم عليهم ربهم بذنوبهم ، ومسخهم مسخ خلق وبدن ، فكانوا قردة بالفعل ،
أو مسخ خلق ونفس ، فكانوا كالقردة فى طيشها وشرها وفسادها لما تفصل إليه أيديها ، وهو
قول مجاهد قال : مسخت قلوبهم فلم يوقفوا لفهم الحق ، وهى عاقبة من أوحش العقاب ، وغاية من
أشد الذل على النفوس ، ولعل فيها عبرة لقوم استهانوا بالمعاصى ، واستمروا الفواحش ما ظهر
منها وما بطن ، وفسقوا عن أمر الله وضلوا ضلالا بعيدا ، لهم يعلمون أن الله تعالى الذى مسخ
سلفهم فى الشهوات ، وأتمهم فى الضلال ، فصاروا قردة وخنزير ، طباعهم طباعهم ، ونفوسهم
نفوسهم - لهم يعلمون أنه قد مسخ أولئك الأقوام بسبب فسقهم واصرارهم على المعاصى ، وأن فى
قدرته أن يمسح من كان مثلهام ذلك المسخ المعنوى الذى يقضى على كل فضيلة فى النفوس ،

ويعحواكل خلق من أخلاق الإنسانية الفاضلة ، لعل لهم مذكرا في أولئك الأقوام وماحل بهم من عقوبات فيقلعوا عن سيئاتهم ، ويرجعوا إلى ربهم وخالقهم ويشوبوا إلى رشد ، والله تعالى واسع الفضل يقبل التائب ، ويعفو عمن أساء ، متى أصلح مافسد ، وبطل سيئاته حسنات ، وعمل عملا صالحا (وإني لفتار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى «٨٣») (١) .

(٦) (وإذ تأذن ربك ليعقبن عليهم إلى يوم القيامة) الخ : أى اذكر لهم أبها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم المرة بعد المرة أنه قد قضى عليهم في علمه وكتب على نفسه وفاقا لما أقام عليه نظام الاجتماع البشرى من سننه ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من بسوهم سوء العذاب أى يوقعه بهم عقابا على ظلمهم وفسقهم ، وهو هنا سلب الملك واخضاع القهر .

وقد فصله الله تعالى في سورة الاسراء (وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن عواقب كبيرنا «٤» فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبدا لنا أولى بأسا شديدا نجاسوا (٥) خلال السيار وكان وعدا مفعولا «٥» ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا «٦» ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تنبيرا «٧» عسى ربكم أن يرجحكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا «٨») وقوله (وان عدتم عدنا) أى ان عدتم بعد عقاب المرة الأولى إلى الافساد عدنا إلى التعذيب والاذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذى أقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلي ، وقهرهم واستذلهم ، ثم جاء الاسلام ضاده أولئك الأقوام الذين كانوا هربوا من الفل والنكال ، ولجثوا إلى بلاد العرب فغاشوا فيها أعزاء آمين .

ثم عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم ، فلم يوفوا له بل غدروا به وكادوا له ، ونصروا المشركين عليه ، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم ، فأجلى بعضهم وقتل بعضا ، إلى أن جاء عمر رضى الله عنه فأجلى من بقى منهم .

ثم فتح عمر سورية بعضها بالصلح كيث المقدس ، وبعضها عنوة ، فانتقل اليهود من سيادة الروم الجائرة إلى سلطة الاسلام العادلة ، ولكنهم مع ذلك ظلوا أذلة يفقد الملك والاستقلال (إن ربك لسريع العقاب) اللائم الذى تنسق عن أمره وتفسد في الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا «١٦») (٣) أى أمرناهم بالحق والعدل ففسقوا عن أمر الله ، وأفسدوا وظلموا في الأرض ، فحق عليهم القول بمقتضى سننه تعالى في الخلق خل بهم الملاك على الفور (وانه لفتور رحيم) لمن تاب بعد الذنب وأصلح ما كان أفسد ، كما قال في سورة طه (وإني لفتار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى «٨٣») .

وقلما ذكر الله تعالى عذاب الفاسقين للفاسدين إلا وقرنه بذكر الغفرة والرحمة للثابتين المحسنين

[١] طه . [٢] ترددوا «غيرا» من يفرع الرجل من قومه «يتبرا» يهلكوا .

[٣] الاسراء .

حتى لا يأس صالح مصلح من رحته بذنب عمله بجهالة ، ولا يأمن مفسد من عقابه اغترارا بكرمه وعفوه وهو مصرّ على ذنبه .

ثم بين تعالى كيف بدأ إذلال اليهود بازلة وحدتهم ، وتزيق جماعتهم ، فقال (وقطعناهم في الأرض أمما) فرقناهم في الأرض أمما متقطعة ، بعد أن كانوا أمة متحدة (منهم الصالحون) كالذين نهوا الذين اعتدوا في السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله تعالى فيهم من بعد موسى الى عهد عيسى عليهم السلام ، والذين آمنوا بمحمد خاتم النبيين (ومنهم دون ذلك) فلم يبلغوا وصف الصلاح ، وهم درجات : منهم الغلاة في الكفر والفسق كالذين كانوا يقتلون النبيين يثير الحق ، ومنهم السامعون للكذب الأكالون للسحت ، وما إلى ذلك مما هو شأن الأمم الفاسدة (وبأولياهم بالחסنات والسيئات لعلهم يرجعون) .

ابتلى الله سرايهم واستعدادهم بالنعم التي تحسن ، وتقربها إليهم ، وبالعقوبات التي تسوء صاحبها ، وربما حسفت بالصبر والرضا عواقبها ، رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم ، فيعود رحته وفضله عليهم (تخلف من بعدهم خلف) خلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح والسبّ والفاخر (وورثوا الكتاب) الذي هو التوراة عنهم ، وقامت به الحجة عليهم بوجود الكتاب في أيديهم بعد سلفهم يقرءونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي ، والتحليل والتحرير ، ولا يعملون بها (يأخذون عرض هذا الأدنى) أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى : أي هذا الخطام الحقير من متاع الدنيا وهو ما كانوا يأكلون من السحت والرشا والنجار بالدين والمحاباة في الحكم والفتوى (ويقولون سيفقر لنا) فاننا شعبه الخاص ، وسلائل أنبيائه ، ونحن أبناءه وأحبائه (وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه) جملة في موضع الحال : أي يقولون ذلك وهم مصرّون على ذنبهم إن يأتيهم عرض آخر مثل الذي أخذوه أولا بالباطل لا يتعففون عنه .

وانما وعد الله بالمغفرة للتائبين الذين يتركون الذنوب ندما وخوفا من الله تعالى ورجاء فيه ، ويصلحون ما كانوا أفسدوا ، وقيل (يأخذون عرض هذا الأدنى) يأخذون ما يعرض لهم من أعمال سلفهم السافلين المنحطين المشار إليهم بقوله (ومنهم دون ذلك) و يتركون أعمال سلفهم الصالحين ، ويقولون سيفقر لنا ، والحال أنهم مصرّون على الاجرام كما يفيد قوله (وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه) والأوّل أظهر .

وقد ردّ الله عليهم زعمهم أن الله سيفقر لهم أولئك الذنوب مع إصرارهم عليها في قوله (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحقّ ودرسوا ما فيه) وهو يرينا أن سيئات أولئك الأقوام كانت في تحريف الكتاب والمحاباة بأحكام الله تعالى في التحليل والتحرير في نظير ما يصلون عليه من مال أوجه لدى الحكام ولاة الأمور كقوله (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصتوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون « ٩ ») وقوله (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب اتيناهم للناس ولا تكتمونه فنبهوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون « ١٨٧ ») (٢) .

وقد سرى كثير من ذلك الفساد إلى رجال الدين من المسلمين الذين ورثوا الكتاب الكريم والقرآن الحكيم ودرسوا مافيه ، غلب على أكتفهم الطمع في حطام الدنيا القليل وعرضها الدنيء . والنزور بالنسبة إلى الاسلام والتحنى بقلبه ، والتعلل بأمانى للنفرة مع الاصرار على الذنب ، والانتكال على المكفريات والشفاعات ، وهم يقرءون مافى الكتاب من النهى عن الأمانى والأوهام ، ومن نوط الجزاء بالأعمال ، والنفرة بالتوبة والاصلاح ، وكون الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله لمن رضى عنه كقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارضى) وهم من خشيتهم مشفقون « ٢٨٥ » (١) ولن يرضى الله عن فاسق ولا عن منافق (فان رضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين « ٩٦ ») (٢) . وما قص الله علينا مثل هذه الآيات من أخبار بنى إسرائيل إلا لتعتبر بأحوالهم ، وتتنق الذنوب التى أخذهم بها ، ولكنتنا مع ذلك كله اتبعنا سنهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، ونحمد الله إن لم يكن ذلك الانواع فينا عاتما ، ولا يزال فينا طائفة ظاهرة على الحق إلى أن يأتى أمر الله . نسأل الله أن يجعلنا منها ، ويعصمنا من الفتنة فى ديننا ، ويجعل الحق رائدنا ، والاخلاص حليفنا . ثم قال (والله لآخره خير) من ذلك العرض الحسيس (الذين يتقون) الرشا ومحارم الله (أفلا تعقلون) قيمة ذلك الوعظ ؟ .

ثم أراد أن ينبه إلى أن المستمسكين بالكتاب وأقاموا الصلاة التى أوجبها الله عليهم [وخصها للإشارة إلى علق مكانها من الدين] لا يضيع الله تعالى أجرهم ، وعلى ذلك بقوله (إنا لا نضيع أجر المصلحين) وهو دليل لما قبله ، ومثله قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لنضيع أجر من أحسن عملا « ٣٠ ») (٣) .

(٧) (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم) أى وادكر أنها الرسول النبىء الأسمى إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل : جبل الطور : أى رضناه كما عبر به فى الآيات الأخرى وهو المروى عن ابن عباس ، أو زلزله وهو مرغوع فوقهم مظل لهم ، كما يقال تنق السماء : إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة .

قال الجهور : إنه اقتلعه وجعله فوقهم [فان قيل] : لو كان كذلك لكان ظلة بالفضل لا كالظلة فان الظلة : كل ما أظلك من فوقك ، ويصدق رفع الجبل فوقهم كالظلة بوجودهم فى سفحه ، واستظلالهم به .

قلنا : إنه وإن صح هذا التأويل فان رفع الجبل على الوجه الأول إنما كان لاختفهم لا لظلالهم ، وأما ظنهم أنه واقع بهم فاعما جاء من زلزله واضطرابه ، على أن الله تعالى قادر على قلعه وجعله فوقهم .

وكم وأما من آياته ما هو أدل على قدرته تعالى من ذلك (خذوا ما آتيناكم بقوة) أى قلنا لهم فى تلك الحالة : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيزة ، وعزم على احتمال مشاقه (واذكروا مافيه لعلكم تتقون) اذكروا مافيه من الأحكام وأوامرها ونواهيها ، أو أعمالها به مثلا تنسوه ، فان ذلك يعدكم للتقوى ، ويجعلها مرجوة لكم ، فان الجدة وقوة العزم فى إقامة الدين

يهذب النفس ويزكيها ، والنهائون والاعخاص فيه يدسها ويفورها (قد أفلح من زكاهها « ٩ »
وقد خاب من دساها « ١٠ ») (١) .

وقد اعترض بعضهم رفع الجبل بأنه لا كراه على الإيمان وإلجاء اليه ، وذلك يناقض التكليف
قال الأستاذ الامام في رده على ذلك القائل : لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه
بأساويه النصيح ، فهو لا يحتاج في فهمه إلى إضافات ولا ملحقات .

وقد ذكرنا مسألة رفع الطور فوق بني إسرائيل ، ولم يقل : إنه أراد بذلك الاكراه على
الإيمان ، وإنما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم ، فقد قال تعالى في سورة الأعراف
(وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه للعلم
تقون) والنتق : الزعزعة والهرق والجذب والنفض ، ونتاج الشيء يفتقه وينتقه ، من بابي ضرب
ونصر ، نتقا : جذبه واقتله ، وقد يكون ذلك في الآية بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير
بالنتق ، وهو في الأصل بمعنى الزعزعة والنفض .

والفهم من أخذ البنايا أنهم قبلوا الإيمان وعاهدوا موسى عليه ، ورفع الطور وظنهم أنه
واقع بهم من الآيات التي رأوها بعد أخذ البنايا كان لأجل أخذ ما آتاه من الكتاب بقوة واجتهاد
لأن رؤية الآيات تقوى الإيمان ، وتحرك الشهور والوجدان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية هذه
الآية بقوله (خذوا ما آتيناكم بقوة) أي تمسكوا به ، واعملوا بجمدة ونشاط لا يلبس نفوسكم فيه
ضعف ، ولا يصحبها وهن ولا وهم .

ثم قال (واذكروا ما فيه) بالمحافظة على العمل به ، فإن العمل هو الذي يجعل العلم راسخا
في النفس مستقرا عندها ، ويؤثر عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال « يمتد العلم
بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل » : انظر تفسير آية « ٦٤ » من سورة البقرة .

موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ « ٧٥ » فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ « ٧٦ » قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلَحُ
السَّحَرُونَ « ٧٧ » قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا ^(٢) عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ
لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَنَّا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ « ٧٨ » وَقَالَ فِرْعَوْنُ
أَنِّي نَأْتِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ « ٧٩ » فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ

مُلْقُونَ «٨٠» فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ «٨١» وَيُخَوِّتُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَةٍ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ «٨٢» فَأَمَّا أَمِّنُ لُؤْلُؤُا إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ ^(١) فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ «٨٣» وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ تَهْتِكُونَ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ «٨٤» فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ وَكَانَ رَبُّنَا لَا تَجْعَلُنَا فِتْنَةً ^(٢) لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٨٥» وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «٨٦» وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ^(٣) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يَمِينًا وَاجْعَلُوا يَمِينَكُمْ قِبْلَةً ^(٤) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «٨٧» وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ ^(٥) عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ ^(٦) عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ «٨٨» قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٨٩» وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا ^(٧) وَعَدُوا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٩٠» ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ «٩١» فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدِيكَ إِيَّاكَ لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَقَفِلُوهُ «٩٢» يونس

[١] غالب قاهر . [٢] موضع فتنة : أى عذاب لهم يخنقوننا به من ديننا ، أو فتنين لهم ، يقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أسبغوا . [٣] من تبوءوا للكلان : اتخذه مبادء كتومته : اتخذه وطنًا . [٤] مسجدًا . [٥] أزل أثرها ، والافتقار بها . [٦] استوتق منها حتى لا يضلها الإيمان . [٧] طلب الاستسلام من غير حق ، وعدوا : ظلمًا .

شرح وعبرة

(١) ثم يثنا من بعدهم موسى) إلى آخر الآيات .

يريد الله تعالى أنه بث بعد رساله السابقين في الآيات السالفة الذكر (موسى وهرون إلى فرعون وملائه) مؤيدين بآيات الله تعالى ودلائل قدرته (فاستكبروا) عن قبولها ، وتماطلوا على الإذعان لها (وكانوا قوما) دأبهم الاجرام ، وعادتهم الافساد في الأرض ، وأنهم لما جاءهم الحق من عند الله تعالى (قالوا إن هذا لسحرمين) وقد سبق الكلام على شرح السحر وأقسامه في سورة الأعراف عند الكلام على قصة موسى عليه السلام .

والعجيب من أولئك الأقوام أن يقطعوا بأن ما جاء به موسى سحر ، وأنه سحر واضح بين لا يشك فيه أحد ، فيقول لهم نبي الله موسى قول المتعجب (أقولون للحق لما جاءكم) وحذف القول لأنه معلوم ، وكأنه استعظم أن ينطق به ولو على وجه الحكاية لقولهم ، فهو ينكر عليهم أن يقولوا في شأن الحق الذي جاء به ما قالوا ثم قال (أسحر هذا) أي هذا الذي جئت به عن الله تعالى سحر؟ (ولا يفلح الساحرون) من كلام نبي الله موسى أيضا : أي أيمن أن يكون ما جئت به عن الله سحرا مع أن الساحر لا يفلح كما قال موسى للسحرة (ما جئتم به السحر إن الله سيظهر إن الله لا يصلح عمل الفسدين) فإذا كان منهم بعد إنكار نبي الله موسى عليهم أن ما جاء به سحر؟ كان منهم أن رجعوا إلى الآباء فنسحوا بتقليدهم ، واعتصموا بسلفهم الطالح في النسك بآثارهم (قالوا أجبنا لفتننا وما وجدنا عليه آباءنا) يريدون أن عملاك هذا من العبث ، ومحاولة باطلة ، فإن ديننا هذا قد وجدنا عليه الآباء ، وورثناه عن السلف ، فلا يمكن أن نعيد عنه وهي حجة لانسمعها إلا من قوم قد أعوزتهم الحجة ، فرجعوا إلى الآباء يتسحسون بهم ، وإلى من تقدمهم في ذلك العمل يقولون على قياتهم ، ولو كان آبؤهم لا يفتلون شيئا ولا يهتدون .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم (وتكون لكم الكبرياء في الأرض) يخشون من نبي الله موسى وأخيه هرون عليهما السلام أن تكون دعوتهما دعوة إلى الملك لادعوة إلى الرسالة ، فيضيع الملك على فرعون وملائه بمن يدر عليهم الملك المال الجرم والخير الكثير .

وهذه الكلمة من ملا فرعون هي إذكاء لشهور الملك وأبهة السلطان ، وتأريث للعداوة والبغضاء لموسى وصاحبه ، لأنه يحاول بعمله هذا أن يسلب فرعون ملكه ، ويقتضى على نفوذه وعظمته ، وهي دسيسة خبيثة ذنبئة ألفتها من بطانات الملوك والأصمراء ، وتعودها من حواشي السوء ، إذا كرهوا رجلا دسوا عليه تلك الدسيسة ، واتهموه بذلك التهمة ، لأنهم يعلمون أن الملوك لا تتأثر بشيء تأثرها بما عسى ملكها ، ويتعلق بسلطانها ، فإذا لقوهم تلك الكلمة فأنهم لا يناقشونهم فيها ، ولا يطلبون عليها دليلا ولا شبه دليل من ذلك المبلغ الساس ، وهي طبيعة من طبائع الملك ، وخلق من أخلاقه ، لا تخص رجلا دون آخر ، ولا تتعلق ببجل دون جيل .

وقد يعلم ملا فرعون أن موسى عليه السلام وأخاه هرون لا يريدان ملكا ، وإنما يريدان إصلاحا في الأرض وإقناده لبني إسرائيل من بطش فرعون وظلمه ، ولكن بطانات السوء تأتي إلا أن تظهر المصلح بذلك الصورة التي من شأنها أن يطير لها لب فرعون ومن على شاكلته من

الظلمة والمستبدّين ، ولذلك لجئوا إلى تلك السيسة : دسيسة أنهما يريدان ملكا ، ولا يريدان رسالة .
ويعتدل أن يكون ذلك القول من ملأ فرعون شعورا منهم بأن موسى وهرون إذا نجحا في دعوتهما انتهت إليهما العظمة ، وذهب فرعون وسلطان فرعون ، لأن عظمتها أساسها الباطل ، أما عظمة موسى وأخيه هرون فأساسها الحق وبقاء الصالح ، فالعاقبة لعظمة موسى وأخيه ، وبذلك يصبح فرعون وملأ فرعون أفرادا عاديين لا يؤبه لهم ، ولا يقام لهم وزن ، بل ينظر لهم نظر الانسان للشيء البغيض الممقوت .

إذا كان ذلك هو ما يفي به طاعة فرعون كان ذلك اعترافا منهم من قرارة نفوسهم بأن موسى وأخاه على حق ، وأن فرعون وملأه على باطل ، وأن العاقبة ستكون لموسى وأخيه ، والهلاك لفرعون ومن معه ، ثم الأسلوب مع ذلك أسلوب تحريض على موسى وأخيه ، وإيهام الناس أنهم طلاب شهرة وكبرياء ، لاطلاب حق ورسالة ، ومهما يكن من شيء فانها أساليب شيطانية أساسها الشهوة والوقعة ، فإن فرعون متى وقر في نفسه أن موسى وهرون سقتهى دعوتهما للناس بالقضاء على ملكه ، أو صرف الناس عنه وتركه كالشيء الفاقد المنبذ ، متى وقر في قلبه ذلك فانه لا يألو جهدا في عمار به موسى ودعوته والتنكيل به في سبيل اعتزازه بملكه وحرصه على سلطانه وأهله ، ثم عبا على ذلك بقولهم (وما نحن لك بمؤمنين) مصدقين فيما جتياه .

(٢) (وقال فرعون اتنوفى بكل ساحر عليم) الخ .

يرينا أن فرعون لما اضطرب أمره وخاف على نفسه من موسى وهرون ، قال لملأه : اتنوفى بكل ساحر عليم بالسحر ، لينقلب بهم على موسى ، وأنهم لما جاءوا (قال لهم موسى اتقوا ما أتم ملقون ، فلما اتقوا قال لهم (موسى) إن ما جئتم به السحر إن الله سيبطله) بالمعجزة والدليل الواضح (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) .

وقد فصل الله ذلك في سورة الأعراف وطه ، والجديد في القصة قول موسى عليه السلام (إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) وهو وعد من نبي الله قد بناء على الثقة بخبر الله تعالى ، ثم علل ذلك بقوله (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) وهي قاعدة من قواعد الاجتماع وسنة من سنن الله في الخلق ، إنه لا يصلح عمل مفسد ، لا يقبته ولا يديه ، بل يسلط عليه السار والهلاك ، وهو كقوله (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض «١٧» (١)) ومن آيات الله تعالى في المفسدين أن لا يوفقهم لخبر ، ولا يعينهم على حق ، وإذا دبوا أسرا في سبيل الشيطان والهوى لابد أن يغفلوا عن مواطن ضعف في ذلك التدبير ، تقضى على تدبيرهم وتذهب يباطلهم من حيث لا يشعرون .

واضطرب لهم مثلا للزور الذي يلجأ الى وثيقة فيزورها على رجل من الناس ، أو إلى شهادة فيلفقها على برى . ليلصق به جريمة من الجرائم ، تكفل الله ووعد بأن ذلك المزور لا يصلح الله عمله ، ولا يتم له تديره ، ولا بد أن يفشل عن ناحية من النواحي يكون فيها هلاكه والقضاء عليه ، وإذا شئت أن تعرف كيف لا يصلح الله عمل مفسد ، فارجع الى الخبراء الذين لهم دين ودقة كيف يكشفون ما يسلط المزورون ، ويفضحون ما يدبر للفسدون .

ثم ارجع إلى التضايا الجنائية التي تقام على حساب شهود مسترزين ، وأفراد فاسدين ، يحاولون أن يوقموا بشهادتهم الأبرياء ، ارجع إلى هذه التضايا وما أكرهها في أيام الحزن والشدائد واضطراب السياسة العامة لتعرف كيف يكشف رجال المحاماة المؤامرات التي تدبر للأبرياء ، وكيف يحبطون ما يحاك خيوطه للساكنين .

ولو فرض أن مفسدا نجح في عمله ، أو أن منقورا قضى له بتزويره ، فليس ذلك لأن الله أصلح عمله ، بل لأنه لم يجد من المهرة ما يكشف تدبيره ، ويوضح عمله ففعل باطله على حق غيره ، لأن الحق لم يجد ناصرا ، والباطل لم يجد خادلا ، كل ذلك مصداق لتلك الآية الكريمة ، وتحقق لتلك الوعد الإلهي (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) وهي آية عجيبة من آيات الله تعالى في الفرق بين المصلح والمفسد .

نرى المصلح دائما موفقا للخير ، وإذا عرض له مانع لم يكن في حسبانته أعانه الله على تذهيله ، وإزال من طريقه العقبات ، وألهمه كيف يسير ، وإذا أخطأ صرمة استفاد من خطئه كما يستفيد من صوابه .

أما المفسد فإن الله تعالى لا يدعه ليم عمله ، ولا ليؤديه على الوجه الكامل ، بل لابت أن يترك فيه من النقص ما يقضى على ذلك العمل ، ويوجد في سبيله من العقبات والأعراقيل ما لا قبل له به ، ولا يترك ذلك الباطل ليق و غير لأنه غير صالح للبقاء .

والعبرة في الآية الكريمة بالناس بالله تعالى والخلق بخلقهم ، في أنه لم يترك الساحر ليفتن به الناس ، بل أبطله بالمعجزة ليرينا إذا نحن رأينا باطلا كيف لا نتركه ليق ويفتن الناس به ، بل نقضى عليه بالحق ونكشف أمره للجماهير .

فاذا رأينا رجلا مشعوذا يؤثر على بسطاء العقول بما يبرهم من أساليب الشعوذة ، ويحاول أن يبرهم أنه يملك لهم من أمر الله ما يملك أحد من خلقه كلمه بالتيب ، أو نحو يله قلوب العباد من حجة إلى بفض ومن بفض إلى حجة ، إذا رأينا رجلا ذلك حاله فلا ينبغي أن نسكت عليه ، بل يجب أن نكشف باطله للناس حتى لا يخذعوا به ولا يبطله .

ثم قال نبي الله موسى (ويحق الله الحق بكلماته ولو كرهه المجرمون) أي يثبت الله الحق بأوامره تعالى وقضائه التي قضى فيها بذلك ، أو بكلماته التي أنزلها على رسله (ولو كرهه المجرمون) ذلك ، فهو لا يبالي بكبراهتهم ، ولا يهتم لأمرهم ، وإنما يهني بأمره هو وإمضاء سنته .
والعبرة في ذلك أن نعمل على إحقاق الحق وإبطال الباطل ، ولا نزعى عاطفة أحد ولا أهواء فريق من الناس ، فاذا كره فريق من الناس أن نجهر بالحق أو نذيعه بين الجماهير فلا نعمل حسابا لكرهاته ولا نقيم وزنا لارادته ، لأنه لا طاعة للخلق في معصية الخالق .

(٣) فما آمن موسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم أن يقتلهم) أي فلم يؤمن بموسى بعد ذلك الجهد إلا طائفة من أولاد قومه ، وهو يرينا أن الشأن في الآباء أن تكون متعصية على الدعوة ، حريصة على التقاليد ، قد شاخت منها العقول ، وأنت طريقا خاصة في تدينها ، فمن الصعب عليها الرجوع عن ذلك الاتق وتلك التقاليد .

وإذا شئت أن تعرف كيف يكون خروج الشيوخ عن مألفها صعبا فانظر الى رجل ألف كيفا من الكيوف من صفرة ، وامتزج بلحمه ودمه ، ومضى على ذلك الحال زمنا طويلا ، ثم حاولت أن تحول بينه وبين ذلك الكيف ، فانك تجد من أعصابه وعادته المستحكة ما يحول بينك وبين محاربة مآلف ، ويندر من الشيوخ من يقلعون عن عادة ألقوها من الصدر ، وتؤدوها منذ زمن بعيد ، وكذلك الحال في كل مألف ، فإذا ألف الناس دينا تقليديا ورثوه عن الآباء ، وأخذوه بمقتضى العادة بدون بحث ولا تمحيص ، ثم حاولت أن ترزحهم عن ذلك الدين ، وتحملهم على البحث كنت قد كلفتهم غير مألفهم ، وغير عاداتهم ، وقليل من هؤلاء من يستمع لدليل أو ينصاع لحجة أو برهان ، ولابد أن يكون ذلك الصنف من الشيوخ الذين يقتصون على عاداتهم ، ويثورون على الفهم وعاداتهم ، ويأخذون في تمحيص آرائهم ومذاهبهم ، ووضعها تحت مشرط النقد ، وجعلها خاضعة لكل ما تخضع له الآراء من حق أو باطل - لابد أن يكون ذلك الصنف من الشيوخ قد ظهرت نفسه ، وقويت ارادته ، وعلت همته حتى لا تحتم فيه العادة ، ولا يتأثر بما ألفه سنين عدة ، كأبي بكر رضى الله عنه الذى كان أول شيخ قبل دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان صديقه الأكبر ، ولعلنا نلح من ذلك السر في أن مشيخة قریش كانت تحارب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب العوان ، وتدبر له المكائد ، كأبي جهل عمرو ابن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي ، وأبي لهب بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان أشد عليه من الأبعد ، وعقبة بن أبى معيط الجار الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكعب بن الأشرف وغيرهم ممن قتل في غزوة بدر وأحد والخندق وغيرهم من صناديد قریش . أما الشباب الذى لم يتأثر بأولئك العادات ولم تألف نفسه طريقا خاصة في الدين والتذهب ، فانه مستعد لمناصرة الجديد من الآراء أكثر من مناصرة الشيوخ ، وقل أن تجد جودا في شاب ، كما قيل أن تجد مرونة في شيخ ، ونجد ذلك وانحما جليا في الجمعيات الخيرية ، والوزعات الوطنية والقومية ، تجد الجمعيات لا تقوم إلا على الشباب ، والأعمال الحرة لا تسير إلا بالشباب ، وحرارة الوطنية تجدها أظهر ما تكون في الشباب .

وتجد الشاب مستعدا للتأثر بروح الجماعة فوق استعداد الشيخ ، بل قد يكون ضعفه في ذلك التأثر ، فإذا رأى جماعة في مظاهرة من المظاهرات رأيته يندفع إليها بدون شعور ولا تفكير ، وتجده أسرع ما يكون الى أولئك القوم وان لم يفهم دعوتهم أو يتدبر غايتهم ، ذلك أن حرارة الشباب فيه تدفعه الى أمثال ذلك العمل ، ولو حاول أن يمنع نفسه منه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وسببه استعداده وطبيعته ، وما كان طريقته طبع الانسان ، واستعداده لا يمكن أن يقاوم بحال من الأحوال ، ولذلك تجد المحاكمات في القضايا السياسية قائمة على الشبان دون الشيوخ ، وعناصر المظاهرات والاجتماعات الشبان ، والمناصرين لأرباب المبادئ المناهقين عنهم الشبان .

لذلك كان المؤمن من بني اسرائيل إذعانا لمبادئ موسى عليه السلام (ذرية من قومه) لاشيوخ معبرون ، لأن الشأن في الشيوخ أن يكون إيمانها بعد إيمان الشبان ، وأكثر ما يكون فيها الإيمان نفاقا وثقة .

وانظر الى قوله (على خوف من فرعون وملهم أن يقتنهم) لعلم أن أولئك القترية التي آمنت بموسى قد آمنت به وسيف فرعون مسلول على من يؤمن ، وأحكامه العرفية مشهورة ، وإيمان في ذلك الظرف العصيب هو إيمان لا يعبأ صاحبه بتهديد ، ولا يعمل حساباً لوعيد ، هو إيمان الواقى بالله المطمئن لوعده ووعيده . وما أشبه ذلك الايمان الذى وقع من القترية بإيمان السحرة الذين دعاهم فرعون لمناصرتهم فغلغلو ، وطالهم بأن يكون في صفه فعادوه ، فهدم بالحديد والنار ، وقال لهم (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أنا أشدّ عذاباً وأبى » ٧١) قالوا لن نؤثرك على ملجأنا من الينبات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا « ٧٢ » ^(١) إيمان وصل إلى القلب فلم تؤثر عليه المؤثرات ، وتمكن من النفس فلم ينفع معه وعيد ولتهديد ، وهكذا العقائد متى تمكنت لايقب شيء أمامها ، والعزائم متى صحت تغلبت على كل قوة في هذه الحياة ، لأنها من قوة الحق ، وقوة الحق لايقوى عليها شيء .

ثم أراد أن يصور لنا جبروت فرعون ، وفضل المؤمنين بموسى في ظل هذه الأحكام فقال (وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن السرفين) ليرينا أن فرعون كان متغلباً على بني اسرائيل قاهراً لهم في الأرض لا يستطيعون مقاومته ، وإنه من السرفين في الظلم المتجاوزين للحدود في الاستبداد بالناس .

(١) (وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فليكنوا ان كنتم مسلمين) . قال موسى حين رأى خوف قومه من فرعون وبطشه بهم : يا قوم ان كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوعدوه ووعيده فكلوا أموركم إليه وحده وأسندوها في العصمة من فرعون إليه لا الى غيره ، فهو الذى يحكمكم من كيده وينقذكم من بطشه ، وقوله (ان كنتم مسلمين) أى مستسلمين لقضاء الله متقدين له فافعلوا ذلك ، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين ، فان العلق بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقضى له . والعلق بالاسلام وجوده . فان التوكل لايتحقق بدونه .

ونظيره ان أحسن إليك زيد فأحسن إليه ان قدرت عليه ، فان الاحسان شرط في وجوب الاحسان ، أما القمرة فهي شرط في الوجود ، ولاغنى لموسى عليه السلام عن أن يربط قلوب قومه بربه ، ويصل بينها وبينه في مثل هذه الظروف العصيبة ، لأن صلتها بخالقها تسكنها قوة وثبتها على الحق ، وتجعلها تستعين بكل ماينالها من أنواع الايداء ، وتشتق لها طريقاً للخلاص من كيد فرعون . وكذلك يجب على المؤمنين إذا نابهم أمر في سبيل الحق وحل بهم مكروه ، أن يرجعوا الى ربهم وينبئوا الى خالقهم وبارئهم ، فيطلبون منه المعونة على خصمهم وتوفيقهم للخلاص منه (فقالوا على الله توكلنا) لأن التوكل كانوا مخلصين (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) دعاء منهم أن لاينفذ بهم فرعون وقومه ، لأنك لو سلطتهم علينا لوقع في قلوبهم أنا لوكلنا على الحق لما سلطتهم علينا ، فيصير ذلك شبهة في اصرارهم على

الكفر ، أولأجعلنا مقتولين بهم فنصرف عن الدين الحق الذى قبلناه ، كما قال (على خوف من فرعون وملتهم أن يقتلهم) .

ثم طلبوا من الله تعالى أن ينجيهم برحته منهم ، وقد أجاب الله دعاءهم ، ونجىهم وأهلك من كانوا يخافونه ، وجعلهم خلفاء فى أرضه (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر يوتيا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) .

أوحى الله إلى موسى وأخيه أن يتخذوا بمصر بيوتاهم مبادء ومرجعا لقومهم يرجون إليها فى العبادة والسكنى ، ويستوطنونها ، وأن يجعلوا بيوتهم مساجد متوجهة نحو القبلة ، قيل انهم أمروا بعمل بيوتهم مساجد خيفة من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذونهم ويقتولونهم عن دينهم كما كان للسامون على ذلك الحال فى أول أمرهم ، وقيل أمروا بذلك لما أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة ، وقيل ان اللراد من قوله (قبلة) أن تكون متقابلة فى مكان واحد حتى يعتصد المؤمنون بعضهم ببعض ، ويتعاونوا على الحق الذى أمرهم الله تعالى به ، ويسل بعضهم بعضا على الشدائد التى تنوبهم (وأقيموا الصلاة) لذكروا بها سلطان ربكم عليكم ورحته بكم ، ونبأوا بأقامة ذلك الركن على يقينكم وإيمانكم ، (إن الانسان خلق هالوا « ١٩ » إذا مسه الشرّ جزوعا « ٢٠ » وإذا مسه الخير منوعا « ٢١ » إلا للمصلين « ٢٢ » الذين هم على صلاتهم دائمون « ٢٣ » » (١) .

ثم قال (وبشر المؤمنين) وترك للبشر به لتذهب قسهم كل مذهب فيما يشعرون به ، وللراد بشرهم بأن العاقبة لهم وبرضوان الله ورحته بهم .

(٥) (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) الخ ، ذلك مظهر آخر من مظاهر جبروت فرعون يتجلى فى دعاء نبي الله موسى عليه السلام بعد دعاء قومه ، لربنا كيف يرجع المكروب إلى ربه ، وينب للضر إلى خالقه ، فيقول موسى مخاطبا لربه : ربنا انك أعطيت فرعون وملأه فرعون زينة ، وهى ما يتجلى به من لباس أو حلى أو فرش أو أثاث أو غير ذلك من زينة الحياة ، وأعطيته أموالا تجتمع بها فى هذه الحياة ، وقوله (ربنا ليضادوا عن سبيلك) .

قبل هو دعاء بلفظ الأمر كقوله (ربنا اطمس ، واشدد) وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله عرضا مكثرا ، وردد عليهم التنازع زمانا طويلا ، وحذرهم عذاب الله واتقاهم ، ورآهم لايزيدون على عرض الآيات إلا كفرا ، وعلى النصيحة إلا نبوا ، ولم يبق فيهم مطمع له ، وعلم بالتجربة أنه لايعمى منهم الا الذى والضلال ، وأن إيمانهم كالحال الذى لايدخل تحت الصحة - أو علم ذلك بوحى من الله تعالى - اشتد غضبه عليهم ، وأفرط مقته وكراهته لحالهم ، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، كما قول : لمن الله ابليس وأخرى الله الكفرة ، مع علمك بأنه لا يكون غير ذلك وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حياة ، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخنقوا ، كأنه قال ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال ، وليكونوا ضلالا ، وليطع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا ، وما على منهم ،

هم أحقّ بذلك وأجدر ، وهو يشبه دعاء نبي الله نوح على قومه إذ يقول (ولا ترد الظالمين إلا ضلّالاً » ٢٤) (١) وهو دعاء يتفق وسنة الله تعالى في الخلق ، فكان دعاء موسى عليه السلام على ملاّ فرعون من ذلك القليل .

وقيل اللام في قوله (ليضلوا) للتعليل والمراد أن الله تعالى أعطاهم الزينة والأموال في هذه الحياة مع كفرهم ليستدرجهم بها كما قال (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » ١٨٢) وأملى لهم أن كيدى متين « ١٨٣ » (٢) .

والمراد أن الله تعالى يعمل هؤلاء للكذابين ويمدّ لهم في أسباب المعيشة كيدهم ومكرهم لاجبا فيهم ونصرا لهم كما قال (فذرهم في غمرتهم حتى حين » ٥٤) أيحبسون أعما تمدّم به من مال وبين « ٥٥ » فسارع لهم في التغيرات بل لايشعرون « ٥٦ » (٣) .
ونظيره ماورد في حديث الشيخين من حديث أبي موسى « ان الله ليبلي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وقيل اللام للعاقبة والصيرورة ، والمراد أن الله تعالى أعطاهم تلك الزينة وذلك المال لتسكون عاقبة أسرها أن يشكروه بها فكان عاقبة أسرم أن بدلوا نعمته كفرا ، وشكروه جحودا .

ونظيره قول الله تعالى في شأن موسى وهو صغير (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » ٨) (٤) لم تكن هذه غاية لآل فرعون من التقاطه ، وإنما التقطوه للتبني ورجاء النفع ، كما قال (وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون » ٩) (٥) ولكن كانت عاقبة النقاظهم أن صار عدوا لهم ، يبتدّ ملكهم ، ويقضى على سلطانهم ، وكذلك الحال في المال الذي منح الله به فرعون وقومه ، أعطاهم ليشكروه فجعلوا عاقبة أسره أن كفروه وحاربوه ، وهو تحسر من موسى على أولئك الأقوام الذين صنعوا بنعم الله عليهم ما صنعوا .

(ربنا اطمس على أموالهم) دعاء من موسى عليه السلام أن يطمس على أموال فرعون وملكه ، والطمس : المحو وإزالة الأثر .

يطلب موسى من ربه أن يطمس على أموال آل فرعون حتى لايتفتقوا بها في هذه الحياة ، وحتى لايستلوا بها على الناس ، لأنه للمال زينة لهذه الحياة وقوة لصاحبه يربط الناس به ويجمعهم حوله ، والطمس على الأموال يصدق بإهلاكها : كما يصدق بالحياة بينهم وبينها ، فيضلهم عن معادنها وماآخذها ، أو عن طريق تحويلها الى عملة يفتقع الناس بها ، وصدق على حرمانهم منها كما حرم قدماء المصريين من ثروتهم التي أودعوها جوف الأرض لأسمرا ، ثم انتفع بها غيرهم ممن بعدهم .

ونرى كثيرا من أثر ياء الناس قد طمس الله على أموالهم ، وحال بينهم وبين الانتفاع بذلك الأموال ، لشحهم بها على الصالح ، ويغفلهم بها على الفقراء ، فترام في غنهم فقراء ، وفي عزهم بالمال أذلاء ، وتجدهم بذلك المال معذّبين ، يواصلون الليل بالنهار في جمعه ، تطير قلوبهم لصياع

شيء منه كما قال (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزحق أنفسهم وهم كافرون «٨٥»)^(١) .

أولئك إذا عاشوا عاشوا عيشة الفقراء ، وإذا ماتوا ماتوا ميتة الأذلاء ، يعيشون حرًا ساعلى المال ، محرومين من النعيم ، فهل يشك أحد في أن ذلك الفريق من الناس قد طمس الله على أموالهم ، فلم يكن لها أثر في الحياة بذكر ، لافي دور العلم ، ولا في دور الصناعة ، ولا في معاهد الدين ، ولا في ملاجئ أصحاب العاهات والمعوزين ، وأى فرقة بين هؤلاء وبين من سبط على أموالهم الشهوات فبعثتها ، والأهواء ففترقتها ، وصرفها أصحابها في محاربة الله تعالى ونشر الفساد في الأرض .

نعم هناك فرق بين موقف البخلاء من الملم وموقف الأشعفاء ، ذلك الفرق أن البخلاء كنزوه فلم يصرفوه ، وقد بينه من بعدهم في وجوه الخير .

أما أرباب الشهوات فبذلوه فيما يغضب ربهم ، ويهدم محبتهم وكيانهم ، ويعود على نفوسهم بالتدسية والشر ، فهم شر من البخلاء ، لأن موقفهم من الشر إيجابي ، أما البخلاء فموقفهم من المال سلبي ، وكل من الفريقين مصداق لدعوة موسى عليه السلام ، قد طمس الله على ماله وحال بينه وبين الانتفاع به ، إما بأساكه وإما ببذله في وجوه الشر .

(واشدد على قلوبهم) اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تفصح للايمان (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) جواب للآلاء الذي هو (اشد) أودعاء بلفظ النهي (حتى يروا العذاب الأليم) يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفقهم الايمان إذ ذاك ، لأنه إيمان إلهاء واكمراه ، لا إيمان عن رغبة واختيار .

(قال قد أجبت دعوتكما) دعوة موسى وهارون ، وقد أضاف الدعوة إليهما مع أن المسمى موسى عليه السلام ، لأن هارون شريك في الرسالة ، ووزيره في الدعوة الى الله تعالى ، فدعوة أحدهما دعوة من الآخر .

وفيه دليل على اجابة دعوة المضطر وللظلم والفساد ، ودليل على بطلان قول من يقول ان الدعاء لا ينجع المسمى ، والآية نص في اجابة الدعاء بما طلبه موسى عليه السلام ، وهو نظير قول الله تعالى لموسى عليه السلام في سورة طه (قد أوتيت سؤالك يا موسى «٣٦») . بعد أن طلب من ربه أن يشرح له صدره ، ويسر له أمره ، ويحل عقدة من لسانه ، ويجعل له أخاه هارون وزيراً له يعاونه في الدعوة .

ولا أدري ماذا يقول للسكران لاجابة الدعاء بنفس ماسأل السائل في مثل ذلك النص القاطع ؟ (فاستجب) ابتنا على ما أتينا عليه من الدعوة والزام الحجة فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلا (ولا تبعان سبيل الذين لا يهتدون) أى طريق الجهالة بعبادة الله تعالى في تعليق الأمور بالصالح كما قال لنوح عليه السلام (اني أعظك أن تكون من الجاهلين «٤٦»)^(٢) . (٦) (وجوزنا بيني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بنياعدوا) تحطينا بيني اسرائيل

البحر وقد نسب الله التخطي إلى نفسه ليعلم أنه من عمل الله تعالى لامن عمل موسى عليه السلام ، وقد شرح الله ذلك التخطي في سورة طه فقال (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبدى فأضرب لهم طريقا فى البحر يسا لاتخاف دركا ولا تخشى » ٧٧) فأنبئهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم « ٧٨ » وأضلّ فرعون قومه وما هدى « ٧٩ » فكانت مجاوزة البحر ببنى اسرائيل بوحى من الله وأمر منه كما كان فرق البحر حتى صار فيه طريق يبس لآما فيه يتدبره وارادته ، وهى آية كبرى من آيات الله مع نبيه موسى ، وقوله (فأنبئهم فرعون بجنوده) كأن فرعون لم يرض لبنى اسرائيل أن يتركوا له المكان الذى هو فيه ويفرّوا بدينهم إلى جهة أخرى وقضى عليه جبرونه أن يتمهم هو وجنوده ليحولوا بينهم وبين المعجزة ، ويجازوهم على ذلك الفرار ، وذلك متتهى القسوة ، وامعان فى الظلم ، وكان يكفهم لو كانوا مقتصدى فى الظلم أن يدعوا بنى اسرائيل لينهبوا حيث شاءوا ويتركوا لهم وطنهم ، ولكن الجبروت قضى عليهم أن يحاربهم حتى فى طريق الفرار منهم ، ولذلك عقبه بقوله (بنيا وعدوا) أى ان فرعون وجنوده كانوا بناة عاذين فى نعيمهم لبنى اسرائيل .

ويرينا من جهة أخرى أنهم ماتبعوهم ليصالحوهم على اللقاء ، ويضعوا حدا لهذه الخصومة الجائرة ، وانما نعوهم للبنى والعدوان ، وما دروا ما خبأ لهم القدر ، وما دبر الله لهم فى تلك الرحلة (حتى إذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين) هنالك آمن ذلك الجبار العاقى ، وهنالك عرف أن هناك قوة فوق قوته ، وجبروت يتشال معه جبروته ، وهنالك وقد أحاطت به أسباب الهلاك ومقدمات الموت يؤمن بالاله الذى آمنت به بنو اسرائيل ، ويؤكد ذلك الاعيان بقوله (وأنا من المسلمين) فبرّد الله عليه بقوله (الآن) أى أنؤمن الساعة فى وقت الاضطراب حين أهلك الفرق وأبست من الحياة ؟

ينكر الله تعالى عليه ذلك الإيمان القهرى ، ويريه أنه لا قيمة لإيمان ذلك حاله ، وذلك أسبابه ، إنما الإيمان الذى يرفع صاحبه هو الإيمان الذى صدر من صاحبه وهو مختار ، طامع فى الحياة أمل فيها ، أما الإيمان عند حضور الموت ، وحاول مقدماته وأسبابه فلا يرفع صاحبه ، لأنه إيمان اضطرارى لافضل له فيه (ولست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال ائني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما « ١٨ ») (١) لذلك ينكر الله تعالى على فرعون إيمانه عند الفرق ويقول له (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) الضالين الضالين عن الإيمان والحق (فالיום ننحيك بيدك لتكون لمن خلفك آية) وقرئ ننحيك بالحاء : نلقيك بنحية مما على البحر بيدك لاروح فيك أو بيدك كاملا لم ينقص منه شئ . (لتكون لمن خلفك آية) علامة لمن وراءك من الناس وهم بنو اسرائيل ، وكان فى أنفسهم أن فرعون أعظم شأما من أن يفرق ، وقيل عبرة لمن يأتي بعدك من القرون يظهر بها للناس عبوديتك ومهاتك ، وأن ما كان يدعيه من الربوبية باطل ، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما زور لعصيان ربه عز وجل ، فما الطارق بغيره من

الضعفاء ؟ أو لتكون عبدة لمن بعدك من الملوك فلا يجترؤا على مثل ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وهوانك على الله .

وقد سبق لنا في قصة موسى من سورة المائدة الكلام على جثة فرعون الموجودة بدار الآثار وهل هي جثة فرعون صاحب موسى أو غيره (وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لتافلون) أى هذه آيات الله يطلع الناس عليها ويربهم لها ، وكان من حق الناس أن تنفع بهذه الآيات ، وتذكر بهذه العبر ، ولكن الكثير منهم غافل عن آيات الله معرض عنها ، لا يعيرها التفانا ، ولا تصل إلى قلبه .

فهذه آية الله في فرعون القى ملاء الأرض ظلما وبطشا ، وادعى أنه الرب الأعلى ، وقال لبني إسرائيل : ما علمت لكم من إله غيري ، فأغرقه الله في اليم ، وأخرج بدنه جثة هامدة لا تستطيع حراكا ، قد حيل بينه وبين الحياة ، هذه آية الله في فرعون يجعلها عبدة لمن يأتي بعده من الملوك الظالمين ، والحكام المستبدين ، الذين نسوا ربهم وخالفهم ، واعتزوا بسلطانهم الكاذب وعظمتهم الزائلة ، وينجيه يبدنه وبقية دهورا وأعواما ليعلم الناس أن هذه جثة فرعون ، وجسد ذلك الطاغية الذي طبق الأرض بنيا وظلما ، هذه جثته استوت مع جثة أقل الناس عزما وأضعفهم سلطانا ، وأصبحت خاضعة لكل مانحضع له الأبدان من محبة وفساد ، وضف وقوة ، هذه آية الله في فرعون يذكرنا بها القرآن ، ويلهينا بها التاريخ ، ومع ذلك فالظالمون غافرون في ظلمهم ، منغمسون في شهواتهم ، لا يحدرون إلا عن أهوائهم ، ناسين أن لهم ربا يربى ثوابه ، ويغشى بطشه وعذابه ، وأهم مهمما بلغوا من سلطان قلن يلبثوا ما بلغه عدو الله فرعون ، وقد حل به ما حل .

اللهم وفق المسلمين لفهم كتاب ربهم والاعتبار بماضى سلفهم ، والانتفاع بسيرة المتقدمين منهم ، وألمم الناس رشدهم حتى ينتفعوا بغطات القرآن ، ويسعدوا به كما سعد سلفهم الصالح ، فلا يكون القرآن حجة عليهم بل يكون حجة لهم .

موسى عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِهِ ^(١) اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ^(٢) وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ آبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ

[١] ونائه التي وقت على الأمم قبلهم . [٢] يكفونكم ويعفونكم ما يسوءكم وبذلك من العذاب .

بَلَاءٌ ^(١) مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ^(٢) وَإِذْ تَأَذَّنَ ^(٣) رَبُّكُمْ لَنْ يَخْلُقَ أَكْبَرًا مِنْكُمْ وَلَنْ يُؤْتِيَ الْأَرْضَ حَيْمًا فَإِنَّ اللَّهَ لَمَنِّي حَمِيدٌ ^(٤) اِبْرَاهِيمَ

شرح وعبرة

(١) (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) أى كما أرسل الله تعالى محمدا لايخرج الناس من الظلمات الى النور ، كما قال في أول السورة كذلك برينا أنه أرسل نبيه موسى واسأرا أنبيائه عليهم السلام لايخرج الناس من ظلم الضلال والجهل الى نور الهداية والعلم ، وقوله (أن أخرج) معناه : أى أخرج : أى قلنا له ذلك ، وأيام الله وقاته التي وقت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي (٢) قار ويوم الفجار (٤) ويوم قضة (٥) وغيرها ، وعن ابن عباس أن أيام الله نعماءه وبلاؤه ، فأما نعماءه فإنه ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم للنق والساوى وقلق البحر لهم وما الى ذلك ، وأما بلاؤه فاهلاك القرون (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى ان في أيام الله عبرا لكل رجل صابر على بلاء الله حين يسمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، وصابر : كثير الصبر ، وشكور : كثير الشكر ، وفي تذكره بأيام الله عبرة له وتنبيه له على ما هو عليه . وقيل : أراد بصابر شكور للمؤمن ، لأن الشكر والصبر من سجايه (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) الخ : أى واذكر الوقت الذي قال فيه موسى لقومه اذكروا نعم الله عليكم .

ثم أخذ يمدد النملير بهم بها ، ويربطهم بمسديها وواهبها ، وقوله (ويذبحون أبناءكم) بعد قوله (يسومونكم بسوء العذاب) مع أن تذبيح الأبناء من العذاب إشارة الى أنه نوع ممتاز من العذاب فصار كأنه جنس آخر لذلك عطف عليه بالواو ولم يجعل تفسيرا له ، وفي سورة البقرة (يذبحون أبناءكم) بدون واو لأنه تفسير لما قبله ، والتفسير لا يعطف على المفسر ، وكان استبقاء النساء بلا واختبارا ، لأن بهاءهن منفردات عن الرجال ليس عليهن من يقوم بأمرهن في النفقة والاعفاف بلا كبير .

(٢) (واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)

من جهة ما قاله موسى لقومه ، كأنه قيل واذكروا إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، وسين تأذن ربكم ، ومعنى تأذن ربكم : أذن ربكم ، ونظير تأذن وأذن تواعد وأوعد وتفضل وأفضل ، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل ، كأنه قيل واذا أذن ربكم ايذا

[١] امتداد . [٢] أعلمكم إعلاماً بلياً . [٣] يوم لبني شيبان اتصرت فيه العرب من الصبح .

[٤] بكر الفاء ، كان بين فريش وفيس غيلا .

[٥] بكر الفاء ، اسم لموضع كان فيه موقعة بين بكر وتغلب .

بلغا تنفي عنده الشكوك وتزاح الشبه ، فقال (لئن شكرتم) ماخوئكم من النعم (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة ، ولاضاعف لكم ما آتيتكم .

واظنر الى تأكيد الوعد بنون التوكيد في الفعل ولام القسم ، فهو يعدّ بذلك وعدا مؤكدا (ولئن كفرتم) ما أنعمت به عليكم لأعذبكم وأسلبكم هذه النعم ، ثم دلال على ذلك بقوله (إن عذابى لشديد) فهو دليل الجزاء فدست مسدده ، وذلك من بلاغة القرآن في الإيجاز .

وقد أكد ذلك الوعيد كما أكد الوعد ، أكدّه باللام في الخبر ، وتصدير الجلة بأن ، وجعل الجلة اسمية بدل أن تكون فعلية ، ثم أكد تأكيداً معنوياً إذ أقام الدليل على مجازاته للكافرين بقوله (إن عذابى لشديد) وأن ما تأذّن به موسى قومه ليس خاصا بهم وإنما هو شأن عام لله تعالى مع خلقه في كل الأزمان ، سنته معهم أنهم إن شكروه زادهم ، وإن كفروه عاقبهم .
(وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لعنّى حديد) .

يرى نبي الله موسى قومه أن انتقامه من كافرى نعمه لم يكن سببه وصول ضرر إليه من ذلك الكفران ، ومكافأته للشاكرين لم تكن لأن نقما يصل منهم إلى الله تعالى ، وأراهم أنهم إن كفروا هم وأهل الأرض جميعا فلا يبقى على وجهها مسلم فإن الله تعالى غنى عن إيمانهم (جديد) مستحق للحمد بكثرة أنعمه وأياديه ، أو أن قوله (جديد) إشارة إلى أن الله تعالى محمود في غناه بخلاف غنى المخلوق فإن فيه المحمود والمنموم ، فالرجل الذى ينفق الناس بفناه ، ويضعه في المكان الذى يستحق هو محمود الغنى ، والذى لا ينفع الناس بماله ، أو يتعالى عليهم بذلك المال ، ويستخره لاذلالهم والتنكيل بهم ، أو يحارب به وبه وخالفه ، كل أولئك غناهم ليس بحميد ، وإنما هو غنى مذموم .

أما غنى الله تعالى فلا يكون إلا حيدا ، لأنه لا يضعه إلا في المكان الذى يستحقه ولا يصرفه لخلقه إلا على وفق الحكمة ، وآية ذلك قوله (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم «٢١»^(١)) خزائن الرزق بيده وتحت سلطانه ، ولكنه لا ينزله للناس إلا بقدر ، ولا يسلطهم عليها إلا بحساب ، فن عمل الدنيا وأحسن عمله لها حصل عليها أيا كانت نخلته الدينية ، كما أن من عمل الآخرة كان حظه الحصول عليها (كلما تده هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا «٢٥»^(٢)) .

وكما أن خزائن الرزق بيده خزائن العلوم والمعارف بيده يعطيها بمقدار وبهيا لمن يعمل ، يعطيها لمن يتعلم ، ويبدل النفس والنفس في تثقيف نفسه وترقية روحه ، وكذلك سيادة الناس بعضهم بعضا يعطيها بسنن وعلاقاتها بنواميس ، لا يعطيها إلا لمن يستحقها ويأخذ الأسباب الطبيعية لها ، كل ذلك من آثار غنى الله تعالى ، وكونه حيدا في ذلك الذى يهبه لمن يستحق ويعطيه لمن يستأله .

موسى عليه السلام

وَهَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى «٩» إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي

«انست نارا لستى ، اتيكم منها بقبسى» (١) أو أجده على الدار هدى (١٠) فلما
 أتتها ردى يموسى (١١) إني أنا ربك فأخلق نملك إنك بالوادي المقدس
 طوى (١٢) وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى (١٣) إني أنا الله لا إله
 إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري (١٤) إن الساعة آتية أكاد أخفيها
 لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع
 هواه فتردى (١٦) وما تلك بيمينك يموسى (١٧) قال هي عصاى أتوكوا
 عليها وأهش (١٨) بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى (١٨) قال ألقها
 يموسى (١٩) فألقها فإذا هي خية تسعى (٢٠) قال خذها ولا تخف سنعيدها
 سيرتها الأولى (٢١) وأضرم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية
 أخرى (٢٢) لنريك من آيتنا الكبرى (٢٣) أذهب إلى فرعون إنه
 طغى (٢٤) قال رب أشرح لي صدري (٢٥) ويسر لي أمري (٢٦) وأحلل
 عقدة من لساني (٢٧) يفقهوا قولي (٢٨) وأجعل لي وريثا من أهلي (٢٩)
 هرون أخى (٣٠) أشدذ به أذرى (٣١) وأشركه في أمري (٣٢) كن
 نسيحك كثيرًا (٣٣) ونذرك كثيرًا (٣٤) إنك كنت بنا بصيرا (٣٥)
 قال قد أوتيت سؤالك يموسى (٣٦) ولقد مننا عليك مرة أخرى (٣٧) إذ
 أوحينا إلى أمك ما يوحى (٣٨) أن أقدفيه في الثأبوت (٣٩) فأقدفيه في النيم
 فليلقه النيم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة منى
 ولتصنع (٤٠) على عيني (٣٩) إذ تمشى أختك فتقول هل أذلکم على من يكفله

[١] نار مقبسة في رأس عمود أو فيلة أو غيرها . [٢] اسم مكان .

[٣] أخطبها ورق الشجر ليستطفاكه ، وقرى أهنس بالين ، وهو زجر الذم وعدى بلى لتضنيه
 معنى الإنهاء ، أى منجأ ومقلا عليها . [٤] صندوق ، واليم : البحر ، وهو نيل مصر .

[٥] تربي تحت رجلي .

فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ^(١) فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ^(٢) يَمْوُئُونَ^(٣) «٤٠»
وَأَصْطَلَمْتُكَ^(٤) لِنَفْسِي «٤١» أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا^(٥) فِي
ذِكْرِي «٤٢» أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى «٤٣» فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَنَا لَمْ لَهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى «٤٤» قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ^(٦) عَلَيْنَا أَوْ أَنْ
يُطْغَى^(٧) «٤٥» قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى «٤٦» فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا
رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَحْذَبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ
وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى «٤٧» إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ
كَذَّبَ وَتَوَلَّى «٤٨» ط

شرح وعبرة

(١) (وهل أتاك حديث موسى) الخ .

بعد أن أرى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أنه ما أنزل عليه القرآن ليشقى به ، وينعب بفرط
تأسفه على قومه ، أراد أن يسليه بقصة موسى مع قومه ليتأسى به في عمل أعباء الرسالة ، ومؤاساة
الشدائد ، حتى ينال عند الله تعالى الفوز والمقام المحمود ، فقال (وهل أتاك حديث موسى) وهو
استفهام في الصورة ولكنه يقصد منه تقرير الجواب في قلبه .

وهذه الصيغة أبلغ في ذلك ، كما يقول المرء لصاحبه : هل بلك خبر كذا ؟ فيطلع السامع
إلى معرفة ما يوحى إليه ، ولأن القصة يراد منها تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله
(كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) أي كذلك القصص الذي يقبث فؤادك ويقوى يقينك
بأنه وجزائه ، نقص عليك من أنباء ما سبقك من الأجيال .

أما حديث موسى الذي يريد أن يقصه عليه فهو أنه رأى ناراً بعد أن قضى الأجل الذي
اتفق عليه هو وصهره ، كما قال في سورة القصص (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من
جانب الطور نارا «٢٢») والایناس : الرؤية ، ولذلك عبر في هذه السورة بقوله (رأى) . (فقال
لأهله) أقيموا في مكانكم (إني آنست نارا على آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى) وكانوا

[١] حاصداً من عنة يدانة . [٢] مقدار من الزمان يوحى فيه للأنبياء غير محدد ولا متأخر .

[٣] استصلمتك واصطغيتك . [٤] قصصاً . [٥] يماجلنا بالعقاب .

في حاجة إلى العفو بالنار، كما كانوا في حاجة إلى من يهديهم لأنهم ضلوا الطريق، ولذلك قال في القصة (لعل آتيكم منها بجبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون « ٢٩ ») .

(فلما أتاه نودي يا موسى إني أنا ربك) فهو وحى رحاني (فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى) ولعل - بسبب أمره بالخلع أن نعليه كانا من نوع قدر لا يلبس بموسى عليه السلام أن أن يلبسه في ذلك المكان المقدس، روى أنهما كانا من جلد حار ميت غير مدبوغ، وهو مروي عن علي رضي الله عنه، وقول مقاتل والضحاك وقادة والسدي كما روى في بعض الأحاديث أن جبريل عليه السلام جاء محمدا صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فأخبره أن في نعله أذى، فخلعه في صلاته واستمر فيها، فلما رآه أصحابه خلعوا نعلهم، فسألهم لماذا خلعتم؟ قالوا: رأيناك خلعت نعلك، فقال إن جبريل عليه السلام أخبره أن في نعله أذى فخلعه، فلا حق لكم في الخلع، ولذلك روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في نعله .

قصة موسى عليه السلام وأمر الله له بخلع نعله لا تصلح حجة لمن ينسكروا الصلاة في النعال، وهي ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال بعض السلف: إنها من الزينة التي أمر الله بتحاذها عند كل مسجد، وما من مذهب من مذاهب الأئمة إلا وفيه قائلون بجواز الصلاة في النعال، واعتبرها بعض الفقهاء من السلف .

وكان الصدر الأول من الصحابة والتابعين يصلون في نعلهم إلى أن اتخذت البسط في المساجد فتعود الناس أن يخلعوا نعلهم عند دخول المسجد، وقد اتخذ الجاهل تلك العادة دينا، وأصبحوا ينسكرون على من يصلي في نعله، ويعتدونه مبتدعا أو متطرفا، ويناصروهم على ذلك بعض العلماء الجاهلدين، وإما البدعة في نسيان هذه السنة التي كان عليها السلف السالم، والحيولة بين الناس وبين يسر الدين وسهولته في مثل ذلك العمل .

وفي اعتقادي أن الدين لو بلغ للناس على طبيعته التي كان عليها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه وتابعيه، ما برّم له الناس تبرّمهم له الآن مثقال بقشيدات الفقهاء، وتنطعت بعض المؤلفين، والله دثر الامام مالك إذ يقول [لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها] . وقد جربنا على كثير من متعديني هذا العصر الترجيح بتعاليم الدين حين تبينه على بساطتها وسهولتها، وفي الأمثال [عدوّ عاقل خير من صديق جاهل] .

نعم إن أولئك المتشددين أصدقاء للدين جاهلون، لا يعرفون كيف يحببون الناس فيه، ويزيحون من طريقهم العقبات والعراقيل .

(٢) وأنا احترتك اصطفتك لرسالي، واجتبتك لتسكون سفيرا بيني وبين خلق، وما أغلى هذه الكلمة التي خطب بها نبي الله موسى، ولو كانت من عظماء الدنيا أو ملك من ملوكها لكان لها قيمتها في نفس رجل قيلت له، فكيف وقد قيلت من ملك الملوك: خالق السموات والأرض (فاستمع لما يوحى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) .

بدأ الله بتوحيده ، ثم عقبه بطلب عبادته ، وختم الصلاة لأهميتها . وقوله (لذكرى) أى لتذكرنى بها ، ثم عقب ذلك بقوله (إن الساعة آتية) وقوله (أكاد أخفيها) . قال أبو مسلم : أكاد بمعنى أريد ، وهو كقوله (كذلك كدنا ليوסף) .
ومن أمثالهم للتداول : لا أفضل كذا ولا أكاد : أى ولا أريد أن أفعله (لتجزى كل نفس بما تسعى) متعلق بقوله (إن الساعة آتية) .

بين لنا أن الساعة قد أعدها الله تعالى للجزء ، فقد تضمنت الجمل المذكورة [أولا] الدعوة إلى توحيد الله تعالى [ثانيا] الدعوة إلى عبادته [ثالثا] الاخبار بالساعة وأنها آتية لا ريب فيها ليجزى كل أحد بما قدم من الأعمال .

(فلا يصدّك عنها من لا يؤمن بها وانع هواه فتردى) أى لا يصدّك عن ذكرها وصرافتها أو عن تصديقها ، والراد كن شديد الشكيمة صلب المعجم ^(١) حتى لا يابح منك لمن يكفر بالبعث أن يطمع في صدّك عما أنت عليه ، لأن من لا يؤمن بالآخرة متبع لهواه ، وأنت إن ضلت ذلك هلكت مع الهالكين .

(٣) (وما لك يمينك يا موسى) سأل موسى عما يمينه وهو يعلم ليجيبه موسى بأنها عصاه فيها من القوائد كبت وكيت ، حتى إذا تأكد موسى من ذلك كله أمر بالقائها ، وتعتيب الله ذلك الالتقاء بجعلها حية ، ولو قلها حية قبل أن يسأله عنها ، وبناء كد من حقيقتها قبل الانقلاب لتشكك موسى عليه السلام في أن ذلك الذى صار حية هو العصا التى كانت بيده ، أو شئ آخر ؟ كما تقول لصاحبك : ما الذى في يدك ؟ فيقول لك هو [درهم] فيقول لك سأحوّله الى [دينار] تريد بذلك القول أن يتأكد منه ومن حقيقته حتى لا يشك فيه بعد التحويل (فإذا هى حية تسمى) والحية : اسم جنس يقع على الذكر والأنثى ، والصغير والكبير ، أما الثعبان فهو العظيم من الحيات ، والجأن الحقيقي .

وقد عبر عن الحية مرة بالثعبان ، ومرة بالجأن للإشارة إلى أنها كان لها أطوار مختلفة ، فتبدو أول أمرها صغيرة دقيقة ، فصيح أن يعبر عنها بالجأن ، ثم تتورّم وبتزايد حجمها حتى تصبح ثعبانا ، أو للإشارة إلى أنها كانت في شكل الثعبان من جهة عظمها ، وفي خفة الجأن وسرعته ، ولعلك قال (فلما رأها تهتزّ كأنها جانّ « ٣١ » ^(٢)) . وقوله (تسمى) تسمى بسرعة وخفة (قال خذها ولا تخف سعيدها سيرتها الأولى) .

أمر الله نبيه موسى أن يأخذ العصا وقد زعم منها ، لأنه لم يتعوّد ذلك المنظر الذى تنقلب فيه العصا حية ، فأمره الله تعالى بأخذها ، وأن لا يخاف من إيذاها له ، ووعد أنه يبيدها عصا كما كانت (واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء) والجناح : الجنب استعير من جناح الطائر ، وهو المراد بادخال اليد في الجيب كما ورد في سورة النمل .

ومجموع الآيات يدل على أنه أمر بأن يضمّ يده إلى جانبه واضما عليها ذراعه ، وأن يكون ذلك الضمّ بواسطة إدخال يده في شقّ قميصه . وقوله (من غير سوء) أى من غير آفة تنفذ

[١] المعجم كقص ، يقال رجل صلب المعجم : عزيز النفس . [٢] القصص .

منها النفوس كالبرص أو غيره من الآفات (آية أخرى) علامة أخرى على صدقك بعد آية العصا (لغيرك من آياتنا الكبرى) أى خذ هذه الآية بعد آية العصا ليريك من دلائل قدرتنا قبل أن ندعو فرعون ، فتكون واقفا من صدقك ، مؤمنا بأن الله معك .

وقد اختص موسى عليه السلام بقلب العصا حية له ، وإخراج يده بيضاء بعد إدخالها تحت إبطه دون غيره من الرسل ، لأنه يعلم من بطش فرعون وجبروته ما ليس لنبيه من أقوام الرسل ، فكان من الحكمة أن ثبت الله قلب موسى قبل أن يرسله إلى فرعون ، ويطمئن نفسه إعدادا له لتلك الدعوة الشاقة ، وهى دعوة فرعون وملائه للإيمان ، ودهوتهم لأن يسلوا بنى إسرائيل لنبي الله موسى ويعفوم من بطشهم وعذابهم ، ولذلك قال بعد هذا الإعداد لموسى عليه السلام (اذهب إلى فرعون انه طغى) والطغيان : مجاوزة الحد ، وهل هناك طغيان فوق قوله لبنى إسرائيل (أنا ربكم الأعلى « ٢٤ ») . وقوله (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرسا لعل أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين « ٣٨ » واستكبر هو وجنوده في الأرض بين الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون « ٣٩ ») (١)

(قال رب اشرح لي صدري) الخ .

لما طلب الله تعالى إلى موسى أن يتوجه إلى فرعون يدعوه وقال له في أسباب الدعوة (إنه طغى) عرف موسى عليه السلام أهمية الأمر وصعوبته ، فطلب من ربه استعدادا لذلك العمل أمورا .

[أولا] أن يشرح له صدره ، وشرح الصدر : بسطه بنور إلهي ، وسكينة من جهة الله تعالى . ولا شك أن شرح الصدر قوة معنوية يستعين بها نبي الله موسى على أداء تلك المهمة الكبرى فله مدعاة للصبر واحتفال المشاق ، والاقبال على الدعوة بهمة ونشاط ، أما ضيق الصدر والسامة فهو من أسباب الضعف ، وخور المزينة والذل .

[ثانيا] أن يسر له أمره بتوفيق الأسباب ورفع الموانع والعقبات .

[ثالثا] أن يحل عقدة من لسانه لينفهموا قوله . ولا شك أن قوة البيان يحتاجها الرسل ، ويتفهمون بها ، وقد اعترف نبي الله موسى وهو يطلب من ربه مؤازرة أخيه هارون بأن أخاه أفسح منه لسانا ، ولعل الآية تشير إلى أن عقدة لسان موسى عليه السلام الاجال الذي كان في عبارته وقد علل ذلك بقوله (يفتقها قولي) والفقه : الوصول إلى أعماق القول والتغلغل فيه . ولا شك أن القول البين الواضح أعون على ذلك .

[رابعا] أن يجعل له وزيرا من قرابته هو هارون أخوه ، واشتقاقه من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه ، أو من الوزر بفتح الزاي وهو اللجأ ، لأن الملك يعتم برأيه ويلجأ إليه في أموره ، أو من المؤازرة ، وهى للمعاونة (اشدد به أزرى وأشركه في أمرى) .

طلب من الله أن يشده به أزره وقوته ، ويشركه في أمر الرسالة ، وفيه بيان لحكمة اختيار الوزير من قرابته ، لأن الشأن في التريب أن يكون حريصا على نجاح قريبه ، فلم يطلبه لمعاونة أو

ايتار بذلك للنصب ، لأنه منصب مخوف بالأخطار ، عحاظ بالأشواك ، ولعل السر في قول بعض الزعماء : وقد دلى الوزارة [أريد أن أجعلها كذا لجا ودما] انه يريد ما أرادته نبي الله موسى من وزارة أخيه هارون ، فهو حسن القصد طيب النية ، وان كان خصومه السياسيون قد أخذوا عليه تلك الكلمة ، التي سبقه إليها نبي معصوم ، ورسول من خيرة الرسل ، والأمور بمقاصدها . وقوله (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) بيان من نبي الله موسى لتأنيته من تلك الوزارة ، وهي غاية شريفة ومقصد جليل ، لم يرد بها أن يؤازره على إذلال الناس وظلمهم ، أو يعاونه على التسيكيل بهم وتمكين قدم الناصب في بلادهم ، وإنما طلب أخاه وزيرا له لتكون الغاية من تلك الوزارة أن يسبحوا الله كثيرا ، ويذكروه بما يطيع به ذكرا كثيرا فيعبدهوا كما ينبغي ، ويوحدهوا كما يجب ، ويسكروه على ما وهبهم من نعم ، وما أسداهم من فضائل ، وذلك ما ينبغي أن تكون عليه الوزارات في كل زمان ومكان ، يراد منها التعاون على البر والتقوى ، ولا يراد بها التعاون على الاثم والعدوان .

ولكن للتعميرين في زماننا هذا أصبحوا يعمدون في بعض الظروف الى أحط الأمة أخلاقا ، وأمعنا في الرذيلة وأبدها عن الخلق الفاضل والحياة ، يعمدون الى ذلك الصنف من الأمة فيعطونه الحكم ، ويكثونه من السلطان والنفوذ ، فلا يجمع معهم من الوزراء إلا من فسد ضميره ، وغاض منه معين الحياة ، ولا هم له إلا دراهم يجمعها ، وسلطة يتمتع بها ، وفي سبيل تلك العظمة الكاذبة ، وذلك النفوذ المستعار ، يعطى الناصب بكلنا يديه ، ويمكن له في الأرض ، ويذهب بمصالح البلاد ومرافقها الى هاوية الفساد والخراب ، وهذه وزارة الناصب المسبقة ، وأحكام المستعمرين في الأرض بواسطة رجال من الأمة الغصوبة المهضومة ، أساسها التعاون على الاثم والعدوان واضطهاد الأرباب والتضييق على الأحرار ، وتبديد أموال الدولة في الشهوات والأهواء وتخريبها من المصانع الباقعة والعلوم المفيدة .

أما وزارة الرسل ، أما حكومة خيرة المصلحين في الأرض ، فهي وزارة أساسها الحق ليثبت ويبقى ، وعمادها التعاون على البر وكل ما يعود على الناس بالخير في دينهم ودنياهم ، وشتان ما بين الوزارتين : وزارة الحق ، ووزارة الباطل ، أو وزارة حزب الله وجنده ، ووزارة المستعمر وذنبه . (٤) قال قد أنيت سؤلك يا موسى) أجب الله دعاءك فشرح لك صدرك ، ويسر لك أمرك ، وحل عقدة من لسانك ، وجعل أخاك هارون وزيرا لك . والسؤل : السؤل ، وفي الآية ان الله تعالى قد أجب موسى بنفس ما طلبه ، وهي دليل على نفع الدعاء ، ثم أراد أن يريه أن اجابته لما طلب ليست أول فضل لله تعالى عليه فقال (ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا الى أمك ما يوحى) ألمهما ما ألمها .

وقد أبهم في الوحي به للاشارة الى أهميته ، لأنه كان نجاة لموسى من كيد فرعون ، إذ كان من عادته أن يذبح الأبناء ، فلاجل أن ينجو ذلك المولود الذي علم الله أنه سيكون نبيا ألهم أمته ما ألهم ، ثم بين ذلك بقوله (أن اقذفه في التابوت فاقتفيه في البئر) ولم يكن إلماها لأم موسى لأنها من الأبناء ، لأنهم لا يكونون إلا رجالا كما قال (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم

من أهل القرى «١٠٩»^(١) بل كان وجهه لها كوجهه إلى النحل أن تتخذ من الجبال ديوتا ومن الشجر ، ألهمها الله أن تجعل له صندوقا فتضعه فيه ، وأن تلقى بذلك الصندوق في نيل مصر وقال لها (لا تخافي ولا تحزني) على ولدك ، لأنه سيرده إليها بتدبيره وحكمته ، وألهمها أنه سيبقي ويكون رسولا من رسل الله (فليلقه اليم بالساحل) أى إن الله تعالى قال لليم ألقه يساحل النيل ومتى قال للنبي ، كن فإنه يكون ، وقرول الله تعالى لليم هو قول كوفى ، لا قول لفظى ، ونظيره (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قلنا أئينا طائعين « ١١ »^(٢)) . وقوله (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى « ٤٤ »^(٣)) (يأخذ عذولى وعدوله) جواب الأمر باللقاء ، وتكرير العذو للبالغة ، والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضربه ، بل تؤدى إلى المحبة ، فان الأمر بما هو سبب للهلاك من قذفه في البحر ، ووقوعه في يد عدو الله تعالى وعدو موسى يشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهري (وألقيت عليك محبة منى) أى أحبك ومن أحبه الله خسه تلك المحبة ، فقوله (منى) متعلق بقوله (ألقيت) . وقيل معناه : زرعت محبتك وأنت صغير في قلوب الناس بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ، ولذلك أحبك عدو الله فرعون وآله ، ولذلك جاء في سورة القصص (وقالت اسماءة فرعون قرّة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) وهم لا يشعرون « ٩ »^(٤)) (ولتضع على عيني) متعلق بالقيت : أى ألقيت عليك محبة آل فرعون ليتعطف عليك ، ولترى بالحنو والشفقة بمراقبتي وحفظي ، وأوّل لمحذوف أى ولأجل أن تصنع على عيني وتحت إشرافى فعلت ذلك (إذ تمشى أخذك) .

بعد أن حرّم الله عليه المراضع فلم يقبل لهم ثديا ، وحن لملك آل فرعون جاءت أخته التى كانت تقسه وتتبع أثره (فتقول) لهم فى صفة الناصح (هل أدلكم على من يكذله ، فرجعناك إلى أمك كي تقرّ عينها ولا تحزن) .

هذه مئة يمين الله تعالى بها على نبيه موسى ، ويريه أن الذى حفظه وهو فى البحر ثم حفظه وهو فى أحضان أعداء الله وأعدائه ، وسخر له أخته لترشد آل فرعون إلى كاف له بعد أن امتنع عن الرضاعة ثم رده إلى أمه بعد ألمها الشديد ، وحنها البالغ .

إن الذى صنع به ذلك كله جدير بأن يحفظه من فرعون ووطس فرعون ، وهو رجل راشد كبير ، فهذه القصة هى تأنيس لنبي الله موسى ، ثم عقبها بقصة أخرى فقال (وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وقتناك فتونا) .

وقد بين الله قصة القتل فى سورة القصص وسنشرحها فى مكانها بشيئة الله تعالى ، والراد منها ههنا أن الله تعالى يمتحن عليه بالتجربة من غمّ القتل الذى وقع منه خطأ وتحايضه تخليصا من الذنن (فلبثت سنين فى أهل مدين « ١٠ »^(٥)) كلها شدائد وقتن (ثم جئت على قدر يا موسى) على مقدار من الزمن يبعث فى مثله الرسل ليس بالتأخر ولا بالتعجل (واصطفتك لنفسى) أعددتك لرسالتي وهيا لك لخدمتي .

[١] يوسف . [٢] ضلت . [٣] هود . [٤] القصص .

[٥] هى فى بلاد الحجاز مما على العام إلى الجنوب من القصير من الجهة الشمالية .

(٥) اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى .

بعد أن أجاب موسى إلى ما طلب ، وهباً للرسالة أمسه أن يذهب هو وأخوه هارون عليهما السلام مؤيدين بآيات الله تعالى ودلائل ربوبيته ، ونهاها أن يقصرا في ذكر الله تعالى ، لأن ذكره يزيدهما قوة إلى قوتيهما ، ثم أعاد ذلك الأمر بقوله (اذهب إلى فرعون انه طغى) والطاغى لاغنى له عن دعوة الى الله تعالى تقيم عليه الحجة ، وتقطع عنده أمام الله تعالى ، وقد كرر نسبة الطغيان إليه لنعلم أن الحاجة الى التذكير تنأكد متى كان هناك طغيان ومجازاة للحد (فقولا له قولاً لينا) بيان لآداب الدعوة وما ينبغي أن تكون عليه .

وقد بين الله القول اللين في سورة النازعات (فقل هل لك إلى أن تزكى ١٨) وأهديك الى ربك فتحشى (١٩)) لأن ظاهره الاستفهام والشورة ، وعرض مافيه الفوز العظيم ، وقوله (لعله يتذكر أو يخشى) أى اذهب إلى فرعون على رجاؤكما وطمعكما في أن يتذكر أو يخشى ربه ، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يفر عمله ، ولا يخيب سعيه ، والنهاية من ارسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن الزام الحجة ، وقطع المذرة (ولوأنا أهلكنكم بهذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ففجع آياتك من قبل أن نذل ونخزى (١٣٤) (١) .

وإذا كان الله قد أمر موسى وأخاه أن يذهبا الى فرعون على رجاؤهما فيه ، فذلك لأنه ينبغي لكل واعظ أن يتجه الى من يعظ على ذلك الرجا ، لأنه اذا بئس لا يستطيع أن يعظ ، وقد علم الله أن فرعون سيصرّ على إباءه ، ويبقى على كفره ، ولكنه مع ذلك أمر رسله بالذهاب إليه ، وإقامة الحجة عليه ، وأمرهما بأن يذهبا إليه راجين لياثمين ، لتكون هذه سنة في الوعاظ والمرشدين ، وقاعدة في الإصلاح والصلحين ، لا ينبغي لواعظ أن يياس ، ولا يصلح أن يدع الإصلاح .

ومن ناحية أخرى يبين الله لما أن من آداب الدعوة أن تكون لينة لاغلظة ، ولا سباً مع المتكبرين ، لأن الاغلاظ عليهم لايزيدهم إلا تكبرا وعتوا (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) (٢)) (قالوا ربنا إننا نخاف أن يقرط علينا أو أن يطغى) مع ذلك الاعداد الذى أعد الله له موسى ومع إجابته دعاءه ، وبيان أنه تعالى لطيف به من أول نشأته ، ومنان عليه في تربيته .

مع ذلك كله قال موسى وهارون حينما كانا بالذهاب إلى فرعون : ربنا اننا نخاف من فرعون أن يحول بيننا وبين الرسالة بالمعاجلة بالعقوبة ، أو أن يتجاوز الحد معنا في الايذاء ، وقد كانت مهمتهما من أشق مهمات الرسل ، فقد كان عدوها عبيداً ، وهو فرعون وملاً فرعون .

وقد استعبد الشعب الاسرائيلى وطالت عليه مدة الاستعباد حتى ألف القتل والمهوان ، فكان اقتاده من مخالب فرعون [والحالة هذه] من أصحاب الأمور وأشققها (قال لانخافا إني معكما أسمع وأرى) معكما بالمعونة والحفظ أسمع وأرى مايجرى بينكما وبينه من قول وفعل ، لأنكما توابي وحلفائي في الأرض ، وقد أرسلتكما لانتفاذ كلمتي وحفظ ديني ، والإصلاح في الأرض ، فلا أدعكما

لجبار كفرعون ، بل أراكم وأحافظ عليكم ، وليس ذلك الوعد خاصا بنبي الله موسى وأخيه هارون ، بل هو عام لكل من يبايع دعوته ويحفظ عهده (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون « ١٢٨ » . (١) (ولقد سبقت لكتنا لعبادنا المراسين « ١٧١ » إياهم لهم المنصورون « ١٧٢ ») وان جندنا لهم الغالبون « ١٧٣ » (٢)) وليس معنى كتابة النصر لرسول الله وجنده أنه لا يناهضهم من أعدائه أذى ، ولا يصيبهم سوء ، بل النصر لحزب الله أقامته الحجة على حزب الشيطان ، بحيث لا يتكون هذه الحياة إلا بعد وضوح الحق واختفاء الباطل .

وقد يلجأ للمطل إلى القوة المادية فيقتل بعض أنبياء الله ، ويعذب بعضا آخر ، بعد أن تعوزه الحجة ، وينقصه البرهان والهدى ، فيجسكون التجاؤء إلى التعذيب والقتل عنوان خذلانه ، وعلامة على نصر أعدائه ، ورب معذب أو قتل كتب الله له النصر ، ولهدوته الظفر والتأييد ، ورب جار أو عنيد كتب الله عليه الفل وسجل عليه الخذلان ، فكان الأول حيا في موته ، منتصرا في قبره ، وكان الثاني ميتا في حياته ، مكبوتا في جبروته وكبريائه فهو نصر معنوى ، يظفر فيه الحق بالباطل ، وتظهر فيه الحجة على التقليد ، والبرهان على الشبهة ، وقوة الروح على قوة المادة ، وقديكون مع النصر المسمى نصر مادي ، كأنجاه الله موسى ومن معه من الفرق ، وإغراق فرعون وجنود فرعون ، وأنجاه الله إبراهيم من النار بعد أن دبروا له ما دبروا ، وصنعوا له ما صنعوا ، وأنجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من ندير قریش قتله ، كل ذلك نصر مادي معه نصر معنوى .

(فأنبأه فقالوا إما رسولاً ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) رسولان من قبل الله تعالى جئنا لانتقاد بنى إسرائيل من بطشك وظلمك ، وهو غرض كبير من أغراض الرسل أن يتقنوا الناس من أن يظلم قويمهم ضعيفهم ، أو يستعبد كبيرهم صغيرهم .

من أهم أغراضهم أن يوزعوا العدالة على الناس على السواء ، ويجمع الجميع بحجة الطبع في هذه الحياة ، وقد عني القرآن الكريم بدعوة الناس إلى العدل ، وتفجيرهم من الظلم ، ولم يقف عند ذلك الحد ، بل نهى الناس أن يقتربوا من الظالم (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون « ١١٣ » (٣)) ولولم يكن من آثار الدين سوى الإقلاع عن الظلم ، وإتقاد الإنسان من محال الإنسان لكفى .

جاءت الرسل لذلك الغرض وأمثاله ولكن الناس غفلوا عن ذلك ، فأخذ بعضهم يظلم بعضا ، ولا سيما رجال الحكم ، أخذوا يستعبدون الناس ، ويهيدون لهم عهد فرعون مع الشعب الإسرائيلي فلا يقيمون لحقوق الناس وزنا ، ولا يعملون لهم حسابا ، فصاروا خلفاء لفرعون وجنودا له ، وسيحل بهم من غضب الملقح ما حل بفرعون (قد جئناك بآية من ربك) بيينة وبرهان يدل على صدقنا في دعوى الرسالة (والسلام على من اتبع الهدى) وعد من قلعهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبة الدنيا والآخرة ، وفيه ترغيب له في اتباعهما على ألطف وجه

وأحسنه (إننا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) ولم توجه كلمة العذاب إليه تلطيفا للخطاب لأنهما أسرا أن يقولوا له قولنا .

هذه جلة الدعوة التي وجهها نبي الله موسى وأخوه هرون إلى فرعون ، وقد تضمن قولهما (إنا رسول ربك) الدعوة إلى الرسالة ، وأن هذه الرسالة من قبل إله صعب العالم ، ثم توعداه بالعذاب إذا هو كذب وأعرض ، ووعداه بالسلامة من العقاب إذا هو اتبع الهدى ، وهي كلمة جامعة للإيمان والعمل الصالح .

موسى عليه السلام

قَالَ قَنْ رَبُّكُمْ يُمُوسَى «٤٩» قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى «٥٠» قَالَ قَا بَالِ الْقُرُونِ الْأُولَى «٥١» قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى «٥٢» الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى «٥٣» كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمْنَاكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ الْإِنْفَى «٥٤» مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى «٥٥» وَلَقَدْ أَرَيْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى «٥٦» قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يُمُوسَى «٥٧» فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى ^(١) «٥٨» قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ^(٢) وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ صُحًى «٥٩» فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى «٦٠» قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَنْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ ^(٣) يَتَذَابِ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى «٦١» فَتَنَزَّعُوا أَزْهُمَ يَدْتَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى «٦٢» قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى «٦٣» فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَمْلَى «٦٤» قَالُوا يُمُوسَى إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ وَإِنَّا أَنْ نَكُونَ

أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى «٦٥» قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْفَى «٦٦» فَأَوْجَسَ ^(١) فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى «٦٧» فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى «٦٨» وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى «٦٩» فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُدُجًا قَالُوا ءِامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى «٧٠» قَالَ ءِامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ نَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قَطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَتَعْلَمُونَ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى «٧١» قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا «٧٢» إِنَّا ءِامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهٍ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى «٧٣» إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى «٧٤» وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى «٧٥» جَنَّاتٌ عَذْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى «٧٦» وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِمَبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا ^(٢) وَلَا تَحْشَى «٧٧» فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَشَّيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَهُمْ «٧٨» وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى «٧٩» يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ ^(٣) وَالسَّلَوى «٨٠» كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى «٨١» وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءِامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى «٨٢» طه

[١] أضر الخوف . [٢] إدراكا . [٣] مادة حلوة تشبه عمل النحل ، والسلاوى : الطير الهان .

شرح وعبرة

(١) (قال فن ربك يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) أى أعطى خلقته كل شئ، يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو أعطى كل شئ صورته وشكله الذى يطابق المنفعة النبوطة به، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الاصر، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان، كل منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه (ثم هدى) عرفه كيف يرتفق بما أعطاه، وكيف يتوصل إليه .

قال الزمخشري: والله دَرَّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى السهم، ونظر بعين الانصاف، وكان طالبا للحق !

وقد شرحت هذه الآية الكريمة بما يصلح أن يكون رسالة فى كتاب [آيات الله فى الآفاق] .
(قال فما بال القرون الأولى) سأله فرعون عن شئون القرون الأولى، فأجابه أن علمها لم يكن من شئون الرسل، وإنما هو شأن من شئون الله تعالى، يقصر علينا ما يرى المصلحة فى تبليغه، ويحفى عنا ما لا يحتاج إليه فى (قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربي) ويبعد عن الصواب فى معرفة شئ منها (ولا ينسى) ما علمه لأن النسيان والاضلال من شئون الخلق .

ثم عقب ذلك بقوله (الذى جعل لكم الأرض مهادا) فراشا صالحة للشي والضرب فيها لطلب الرزق (ولكم فيها سبلا) فلم يجعلها جميعها جبالا حتى لا تكون صالحة للشي، ولم يجعلها جميعها بحارا، بل جعل فيها الماء واليابس، وجعل فيها الجبل والسهل (وأزله من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) مختلف فى طوله وقصره، ولونه وطعمه، ودرجة حرارته وجوضه (كلوا وارعوا أنعامكم) أى آذنين لكم فى الانتفاع بها، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا دوابكم بعضها (ان فى ذلك لآيات لأولى الهى) فى ذلك كله من الأرض التى مهدها، وجعل فيها السبل للعيشة، وانزال الماء من السماء فأثبت به النبات المختلف - فى ذلك كله دلائل وعبر لأصحاب العقول .

وقد سأل فرعون موسى عن القرون الأولى، فأجابه أن علمها عند الله فى كتاب، ثم استطرد لذكر آيات الله تعالى ودلائل قدرته، ليريه ويرى قومه آثار ربه فى الأرض . وآثاره فى الزرع الذى تنبش منه، وآثاره فى الماء الذى ينزل من السماء، وهى فرصة أتاحها لموسى كيف يصف له ربه، وبقم عليه الحجة من الآيات التى يقع عليها بصره وسمعه .

وفى قوله (فأخرجنا) انتقال من لفظ النبية الى لفظ المتكلم حيث لم يقل (فاخرج) اإذانا بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتدعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شئ على إرادته، ومثله قوله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ «٩٩»^(١)) وقوله (لم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها «٢٧»^(٢)) (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأثبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تفبتوا شجرها «٦٠»^(٣))

ثم عقب ذلك كله موسى عليه السلام بالتهديد للبعث فقال (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ليرى فرعون أن الاله الذى قدر على البدء قادر على الاعادة ، وإن نشأتنا من الأرض كما قال فى سورة المؤمنون (ولقد خلقنا الانسان من سلاة من طين « ١٢ ») وسنعود الى الأرض فنصير جزءا منها كما كنا ، ثم يخرجنا الله من الأرض عند البعث .

يرينا الله تعالى بذلك البسط الذى واجه به فرعون مع أنه لم يسأل إلا عن القرون الأولى أنه ينبغي للواظن أن يتحين الفرصة لثب وعظه ، وتبليغ دين الله ، وإقامة حجته على الطغاة .

وقد كان من توفيق الله تعالى لى أن طلب منى وأنا مدرس بمعهد طنطا قراءة القصة النبوية فى أيام المولى ، فافترست (١) هذه الفرصة ، وأخذت أبلغ الناس دين الله ، وأشرح لهم مضايه ويسره ، وأنه جاء بسعادة الدنيا والآخرة ، ولاغنى لأحد عن تعلم الله تعالى وهديه الذى جاء به الرسل ، وقد قال وكيل من وكلاء مديرية طنطا بعد سماعه أول صرة : هذا درس علم وهكذا يجب أن تكون الحفلات .

وقد كانت هذه الحفلات تجمع المدر ووكليه ، والأطباء ، ورجال المحاماة ، والأعيان والوجهاء وكانت بفضل الله تعالى موضع سرور جميع الطبقات ماعدا طبقة العلماء الرسميين ! ! وكذلك كنت أطلب بأحياء الليالى التى تمودوا إحياءها فى طنطا كإيلة القدر وعاشوراء والمعراج والصف من شعبان . فكنت أحول هذه الحفلات الى عظات ، وتذكير للحكام بما يجب عليهم من العدل ، والتجار بما يجب عليهم من الصدق ، والعلماء بواجبهم من التعليم والإرشاد ، وكنت شديد شكير على النفاق والمتافقين ، ومداهنة ولاية الأمور بما لا يتفق وكرامة العلم ، ومشايقتهم فى الأهواء والشهوات . وكان يتألم لهذه المحاضرات من يحسون من أنفسهم تلك الأخلاق الذميمة ، من رجال العلم والإدارة ، وكانت العاقبة لهذه المحاضرات تقلى الى معهد أسويط صرنيين ليحال بينى وبين ذلك العمل ، ولكننى كنت أقابل ذلك النقل بما ينبغي أن يقابله به كل مصلح واثق بمايقول ، مؤمن بما يدعوا الناس إليه - كل ذلك استغلالا للفرصة التى أناحت لى أن أعظ الحكام فى بيوت الله ، وأن أذكر التجار والأعيان الأطباء ، وأدعو كل صنف الى تقوى الله فى عمله ، وصرايته فيما اتقن عليه .

(٢) (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) .

يرينا الله تعالى أنه بصره إياها وعرفه مخنها فكذب بها لظلمه ، وأبى أن يخضع لها ويقبلها . قيل : الآيات تشمل آيات التوحيد وآيات النبوة ، فأيات التوحيد هى التى عرض لها فى الآيات السابقة ، وآيات النبوة هى النسخ : من العصا واليد وقلق البحر وانفجار الماء من الحجر والجراد والقمل والضفادع والدم وتنق الجبل - وقيل المراد بها آيات النبوة فقط .

(قال أجبنا لنخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) .

قال بعض المفسرين : يلوح من جنب هذه الكلمة أن فرائصه كانت ترعد خوفا مما جاء به موسى عليه السلام ، لعله وإيقانه أنه على الحق ، وأن الحق لو أراد قود الجبال لانقادت ، وأن

مثله لا يخذل ، ولا يقل ناصره ، وأنه غلبه على ملكه لاهياله ، وقوله (بحرك) تملل وتحير ، وإلا فكيف يخفى عليه أن ساحرا لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ، ويغلبه على ملكه بالسحر . وقد شرحنا قصة السحرة وجمع فرعون لهم ووعدهم الأجر إذا هم غلوا ، وتهديده لهم بعد الإيعان وعدم مبالاهم بالتهديد - شرحنا ذلك كله في قصة موسى من سورة الاعراف كما بينا غباوة فرعون في قوله لهم (أنتم به قبل أن آذن لكم) وأنه لم يدرك أنه ان ملك أجسام الناس فلا يستطيع أن يملك قلوبهم .

والجديد في هذه السورة أن موسى عليه السلام حينما التقي بالسحرة في الموعد الذي ضربوه أخذ يعظهم ويقول لهم (ولبكم لا تقفروا على الله كذبا فيسحقكم بعذاب وقد خاب من اقترى) فلا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا ، لأنكم ان فعلتم ذلك أهلككم الله بعذاب ، وختم في حياتكم لأن هذه عاقبة المفتري ، وهو ظريف ينفع فيه الوعظ ، ويفيد فيه التذكير ، ومع أنهم خصومه وعظهم ، ولم يباس من ضمهم إليه وقد أفاد الوعظ ، ونجحت التكرير ، فأصبحوا من أنصاره بعد أن كانوا من خصومه . وتجد في هذه السورة أن سحرة فرعون حين أقروا جلالهم وعصيتهم خيل الى الراى أنها تسمى ، وأن موسى حين ذلك أضمر خوفا في نفسه ، فطمأنه الله تعالى وقال له (لا تخف ابك أنت الأعلى) لأنك على الحق ، وبالحق تنطق ، ومن كان على الحق فهو الأعلى ، فهو عزيز منزلة ومكانة ، وهو تظمين آخر لنبي الله موسى بأنه سيغلب فرعون وملاه ، وستكون له المأفة ، وهى بشارة لكل من يستعين بربه ، ويستصم بحالقه ، بأنه لا يخاف من البطل ، ولا يذعر من حزب الشيطان ، لأن كيده ضعيف ، وباطله لا يلقى ولا يدوم ، وفي هذا المعنى قول الله تعالى في سورة آل عمران وهو يحرض المؤمنين على الثبات والصبر على الجهاد (ولا تهنوا ولا تنهزوا وأتم الأعوان ان كنتم مؤمنين « ١٣٩ ») .

وبعد إيمان السحرة وتهديد فرعون لهم بأشد أنواع العذاب (قالوا) له (ان نؤثرك على ما جاءنا من الآيات والنبي فطردنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا برنا لبغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) وهى عظمت بالقوة ، وحكم غالبية ، صدرت من قوم امتلأت قلوبهم بالحق فازدروا كل شئ في سبيله ، حتى تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتفيل بهم ، إذ رأوا أن ما جاءهم من الأدلة والبراهين لا يقدمون عليها صرخاة فرعون ، وكذلك لا يؤثرونه على الإله الذى فطرم وخلقهم ، لذلك قالوا : أحكم بما شئت ، وانفذ ما تريد ، لأنك انما تحكم هذه الحياة المحدودة ، وستلقى جزاءنا وتلقى جزاءك فى حياة بعد هذه الحياة ، ولا نستطيع أن نؤثر حياة ثانية على حياة باقية ، إنا آمنا برنا لبغفر لنا خطايانا وبغفر ما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير منك وأبقى ، فهو الجدير بالإيمان به .

ثم ختموا العظة بقولهم (انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) لا يموت فيها فيستريح من العذاب كما يستريح الميت ، ولا يحيا حياة يستريح لها ، فهو بين الحياة والموت ، لم يتمتع براحة الموتى ، ولا ينعم الاحياء (ومن يأت مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تركى) ومن آمن ذلك

الإيمان ، ووثق من ربه تلك الثقة ، واقتنع ذلك الاقتناع ، جدير بأن يستخف بهذه الحياة الى حد عدم المبالاة بشئ . في سبيل إيمانه . اللهم ثبت إيماننا ، وقوّ يقيننا ، وشدّ عزيمتنا ، كما شددت عزم الذين آمنوا بموسى من سحرة فرعون ، حتى لم يبالوا بتهديد فرعون ، ولا بجبروت فرعون ، ولم يحاولوا قلبهم سوى الخوف منك ، وجعلوا إجلالك فوق كل إجلال ، وتوقرك فوق كل توقير وأصبحوا مثلاً عالياً في التضحية والفضيلة ، فكانوا قدوة حسنة وأسوة صالحة .

(٣) (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي) الخ يجوز أن يكون سبب إبحاء الله تعالى إلى نبيه موسى بالمهجرة أن عدوّ الله فرعون أمن في الأيذاء بعد حادث السحرة ، لأن إيمانهم غاظه ، ولذلك تهّدّم بتقطع الأبدى والأرجل وتصلبهم في جذوع السخل ، وبدلّا لذلك أن السنة العاتية مع كل رسول أن يأذنه الله بالمهجرة فراراً من الاضطهاد ، وليخلص بدين المؤمنين من أمته من الفتنة .

ثم لما تمهم فرعون بجنوده في المهجرة ليؤذوهم كان مدبراً له ولجنوده أن يفرق لموسى وقومه أن ينجو ، ويجوز أن يكون السبب الأول لمهجرة موسى مع قومه هو انجائهم واغراق فرعون ، أما الطريق اليبس الذي كان فيه العبور فلم يعلم بالضبط ، ويستبعد صاحب كتاب [قصص الأنبياء] أن يكون العبور من المكان الذي يسمى [بركة فرعون] بينها وبين السويس بضع ساعات يسير السفن .

ويرى أن خليج السويس كان يمتد في تلك الأزمان الى البحيرة المرة أو يقرب منها ، وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم ، وبصورة أخرى أنهم عبروا من مكان شمالي المكان المعروف بعبور موسى في البرّ الأسوي وهي لاتبعد عن السويس كثيراً اه .

وقولهم (فأضرب لهم طريقاً) أى اجعل لهم ، من قولهم : ضرب له في ماله سهماً : جعل له ذلك ، وضرب اللبن : عمله ، وتفسره آيات الشعراء (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم «٩٣») فاضرب الطريق تكوينه وجعله بواسطة ضرب البحر بالعصى وانفلاقه انفلاقاً يبعد ما بين النهرين حتى صار قاع البحر يابساً يستطيع معه موسى وقومه أن يعبوا البحر (لاتخاف دركا ولا تخشى) في موضع الحال . أى حال كونك لاتخاف أن يدرراك فرعون ، ولا تخشى ذلك ، وقرئ (لاتخف) على الأمر ، وقوله (فتنصّبهم من اليم ماغنيهم) أى غطاهم من الماء شئ . كثير لا يعلم كنهه إلا الله (وأضلّ فرعون قومه وماهدي) أضلهم طريق الهدى ، وأبعدهم عن الرشاد ، ولم يراد به هنا أن يستنصر عن قوم فرعون ، وإنما يريد أن عقبة طاعتهم لفرعون وعملاته ذلك الضلال البعيد ، وماذا عليهم إذ هم خرجوا على فرعون ، ولم يبالوا برعيده كما خرج عليه السحرة ؟ وهل أعان فرعون على ضلاله وإضلاله سوى ضعف قومه وهوان شبهه عليه ؟ ولو أنه رأى منهم صلابة في الحق ، وفضرة من الظلم ، واستنكاراً للباطل ، ما وصل في طغيانه إلى ذلك الحد ، وحسبنا أن الله تعالى يقول فيه وفي قومه (فاستخفّ قومه فأطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين «٥٤»^(١)) وقوله (وماهدي) تهكم بفرعون في قوله (وما أهديكم إلا سبيلاً الرشاد «٢٩»^(٢)) .

ثم أخذ يذكر بني اسرائيل بنعمه ويسرد لهم فضله عليهم يستفيدون من ذلك التذكير ، ثم ختمه بقوله (واي لتغار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وهو كقوله تعالى حكاية عن الذين يحملون العرش ومن حوله في استغفارهم للذين آمنوا (فاغفر للذين تابوا وامنوا سيلا وهم عذاب الجحيم ٧٠) (١) حتى لا يطمع في المغفرة من هو مصرا على العصية دائب على مغاضبة الله تعالى فان ذلك خلاف سببه ، ولذلك كان دعاء اللاتكة بالمغفرة للذين تابوا وامنوا سيلا الله ، وهو للراد بقوله (وعمل صالحا ثم اهتدى) .

موسى عليه السلام

وَمَا أَجْعَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى «٨٣» قَالَ ثُمَّ أَوْلَاءَ عَنِّي أَتَرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى «٨٤» قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَيْنِكَ وَأُضْلِمُوا السَّابِرِ «٨٥» فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي «٨٦» قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا «٨٧» وَلَكِنَّا خُلْنَا أَوْزَارًا «٨٨» مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلَقَى السَّابِرِ «٨٩» فَأَخْرَجَ لَهُمْ غِيَاءً جَسَدًا «٩٠» لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ «٩١» أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا «٩٢» وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي «٩٣» قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى «٩٤» قَالَ يَهُودُ مَا مَلَكَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا «٩٥» أَلَا تَتَّبِعُنَ أَفْقَصَيْتَ أَمْرِي «٩٦» قَالَ يَنْتَوِمُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي «٩٧» قَالَ فَا خَطْبُكَ «٩٨» يُسْمِعِي «٩٩» قَالَ بَصُرْتُ «١٠٠» بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ «١٠١»

[١] فاخر . [٢] بأن ملكنا أمورا . [٣] جمع وزر ، وهو الحمل والحمل .

[٤] ميلا قد خلا من الروح ، وخوار : صوت . [٥] فمك وشاك .

[٦] علت ما جهلوا . [٧] تالجه .

الرَّسُولَ فَبَدَّلَهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي «٩٦» قَالَ قَاذُھَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ^(١) وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ مَا كُفًّا لَنُخْرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا «٩٧» إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا «٩٨» ط

شرح وعبرة

(١) (وما أعجلك عن قومك يا موسى) أى شئ عجل بك عنهم ، ينكر عليه ذلك ، وكان قد مضى مع التقاء إلى الطور على الموعد المضروب وقد بين الله ذلك الموعد في سورة الأعراف بقوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمّ) مبرات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين «١٤٢» ثم قال (واحتار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا «١٥٥») وهذه الآية التي نحن بصددها شرحها تربنا أن موسى عليه السلام سبق قومه في لقاء الله تعالى ، فسأله عن السبب منكرًا عليه ذلك السبق ، فكان جوابه (هم أولاء على أترى) ليس بيني وبينهم إلا تقدم يسير لا يعتد بمثله في العادة ، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة ، يتقدم بثلاث الفد - وأسمهم ومقدمهم . ثم عقب ببيان السبب في ذلك في قوله (وعجلت إليك رب لترضى) فقد سبقت النقاء تشوقًا إلى رضاك ، وتنجزا للموعدك .

(قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري) أخبره الله أنه قد اختبر قومه من بعده ، وابتلاهم بالعجل الذي صنعه السامري من حلي القوم . وقد نسب الضلال إلى السامري ، لأنه هو الذي استغف جهلهم ، وألهمهم الوثنية وصنع لهم صورة تشبه العجل ، وجعله صوتًا كصوته ، ولولا أن السامري وجد من القوم استعدادًا لذلك الخرافة ماضية (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) شأن الرجل الذي يحرس على الحق أن يذهب ، وعلى مجهوده أن يضيق سدى (قال يا قوم أم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا) إذا أتتم بقيتم على الإيمان (أطفال عليكم العهد) مدة مفارقتي لكم (أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي) .

يريد أم هي شهوة ومحبة للشرك حلتكم على ذلك العمل المغضب لله تعالى فنقضتم موعدي معكم بأنكم لاتعودون إلى الشرك ، ولاترجعون إلى الوثنية (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) باختيارنا وقدرتنا (ولكننا حننا أوزارنا من زينة القوم فنقضناها فكذلك ألقى السامري) حننا أحمالًا من حلي القوم التي استعرتها منهم ، فنقضناها في نار السامري التي أوقدها (فكذلك ألقى السامري) أرام أنه يلقى حليا في يده مثل ما ألنوا (فأخرج لهم عجلا جسده له خوار) وقوله

(جدا) إشارة إلى أنه هيكلا خال عن الروح كقوله (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب «٣٤» (١))

يريد هيكلا قد خلا عن آثار الحياة (فقلوا هذا الحكم وإله موسى فنسى) أى نسى موسى أن يطلبه ههنا وذهب ليطلبه عند الطور ، أوفنسى السامرى وترك ما كان عليه من الإيمان (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) تفرغ لعباد العجل وتوخيخ لهم بأنهم بلنوا من النبوة حدا كبيرا ، إذ يبدون هيكلا لا يرجع إليهم قولا إذا هم طلبوه ، ولا يملك لهم ضرا إذا هم خالفوه ، ولا نفعا إذا هم أطاعوه (ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) .
برينا أن هارون قد نهام عن عبادته وجلهم على عادة الرحمن فقصوه وأصرّوا على شركهم (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لاتبعن أقصبت أمرى) أى مادعاك وحلك على أن لاتبعنى فى وصيتى إذ قلت لك (اخلفنى فى قولى وأصلح ولا تنفع سبيل المفسدين «١٤٣» (٢)) فلم تركت قتالهم وتأديبهم ؟ (قال يا ابن أم لا تأخذ بلعيتى ولا برأسى فى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى) يريه أن الحامل له على عدم قتالهم خشية التفريق لو كانت بعضهم ببعض غشيت عتابك على اطراح ما وصيتنى به من ضم التفريق ، وحفظ السماء ، ولم يكن لى بد من ملاحظة وصيتك ، والعمل على موجبها ، وفى سورة الأعراف يقول (إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلونى فلا تشمت فى الأعداء ولا تجملنى مع القوم الظالمين «١٥٠» (٣)) .

وعذر نبي الله هارون مجموع الأمرين : حرصه على وصية أخيه موسى ، وخوفه أن يتفرقوا إذا حارب بعضهم بعضا ، وضعفه أمامهم وقربانهم من قتله ، فرأى أن يدع المسألة الى حضور أخيه موسى فيأخذ رأيه فيما يجب أن يكون .

ومن العجب أن يكون حرص هارون على وصية موسى مدعاة للوم أخيه عليه ، وعلى كل فالمسألة خلاف فى الاجتهاد فى الخطة التى كان ينبغي أن يكون عليها هارون ، فهو يرى رأيا لم يوافقه عليه موسى ، والأمور الاجتهادية يختلف فيها الناس اختلافا كبيرا ، والخطأ فيها مغمور ، ولذلك قال موسى عقب غضبه على هارون (رب اغفرلى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين «١٥١» (٤)) .

(٥) (قال فما خبرك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى) .

بعد انتهاء موسى من تعنيف أخيه هارون رجع إلى السامرى وسأله قصته ، فقال له السامرى (بصرت بما لم يبصروا به) علمت ما لم يعلموا (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أخذت طائفة من تعاليم الرسول وهو موسى (فنبذتها) طرحتها (وكذلك سولت لى نفسى) زيفت وحسفت ، وهى مسألة انتصر فيها العلم على الجهل ، والقوة على الضعف ، فالسامرى كان أعلم من بنى إسرائيل بشئون المعادن ، وكيف تصاغ وتحول من شكل إلى شكل ، وأنها إذا وضعت على هيئة عجل ،

وجعل فيه تجويف يمرّ منه الهواء أحدث ذلك التجويف بواسطة مرور الهواء صوتا يشبه صوت العجل ، ثم يرى بنى إسرائيل أن ذلك العجل هو إله موسى الذى كان يطلبه فنييه فى ذلك المكان حين ذاك (قال) له نبيّ الله موسى (فأذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لاساس) .

وأظهر ما قيل فيه قول مقاتل : أن موسى عليه السلام أخرجه من محلة بنى إسرائيل وقال له اخرج أنت وأهلك ، فخرج طريدا إلى البرارى ، وللعنى أتى أبعلك بإسامرى فى بعدك عن الناس بحيث لو أردت أن تخبر غيرك من الناس عن حالك لا تجد إلى ذلك سبيلا ، ولا تستطيع إلا أن تقول لاساس ، ومعناه نبي السامرى من ديار بنى إسرائيل ، لأنه مفسد مضلّ ، فمن المصلحة أن يحال يده وبين الشعب الإسرائيلى حتى لا يفسده مرة أخرى ، ذلك حظه فى الحياة ، أما حظه فى الآخرة فقد بينه الله فى قوله (وإن لك موعدا أن تغلظه) بإعقابك الله فيه العقوبة الكبرى ، ويجزيك الجزء الأوفى (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقه ثم لنفسفه فى اليمّ نسفا) وهو إصلاح آخر من نبيّ الله موسى ، وإهانة واضحة لعباد ذلك العجل الذى اتخذه السامرى ، وهو تحريقه ولو كان عباد العجل فيهم ذرة من العقل لرجعوا إلى أنفسهم فحسبوا عليها بالظلم ، إذ عبدوا إلهما لا يدفع عن نفسه ضررا ، ولا يجاب لهابديه نفعا ، وما أشبه ذلك بما صنعه نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بالأصنام التى عبدها قومه ، فجعلها قطعاً صغيرة ، لئلا بها من يعبدها ، ويحرقها للنظر ، ويلهب نفسه للبحث عن الحق ، وبعد تحريق ذلك العجل ينسفه فى البحر ، وعمل موسى عليه السلام هو قطع جذور الشرك ، وقضاء على ذرائع الوثنية ، وسدّ لفرائع الفساد ، فتنوا بالسامرى فنفاه وحال بينهم وبينه ، وعبدوا العجل الذى صنع من الذهب فخرقه ونسفه فى البحر ، حتى لا يبقى فى نفوسهم ذرة من الاشتباه فيه والفتنة به .

وكذلك فعل عمر حين رأى الناس أخذوا يتبركون بالشجرة التى حصلت عندها البيعة وقطعها ليستأصل جذور الشرك ، وذرائع الوثنية . فاللهم وفقنا للتأسي بالسابقين الصالحين ، والاهتداء بأعمال الرسل المتقدمين ، ومساك أن تبصرنا بدينك ، وتهدينا للعمل بكتابك .
ثم ختم النعمة بقوله (إنا إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ومع كل شئ عليم) .

موسى عليه السلام

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ «٥٥» إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ «٥٦» فَقَالُوا أَوَإِذَا نَحْنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبَدُونَ «٥٧» فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ «٥٨» وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَمَّا نَهَضُوا يَهْدُونَ «٥٩» الْمُؤْمِنُونَ

شرح وعبرة

(١) (ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين) أى إرسالاً مصحوباً بالآيات (وسلطان مبين) من السلاطة، وهى التمكين من التهر (ولو شاء الله اسطهم عليكم فلقاتواكم «٩٠» (١)). ومنه سمي السلطان، وهو يقال فى السلاطة نحو (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً «٣٣» (٢)) وقوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون «٩٩» (٣)) إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون «١٠٠» (٤)). وقوله (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان «٣٣» (٥)) ويطلق السلطان على الحجة لما فيها من الهجوم على القلوب والتسلط عليها، ومنه قوله تعالى (فأتونا بسلطان مبين «٩٠» (٦)) أى بحجة واضحة، فيحتمل أن يكون السلطان هنا هو الحجة ذات التسلط على الخصم، ويكون ذكره بعد الآيات لبيان أن هذه الآيات هى دلائل على قدرة الله تعالى وصدق رسوله موسى عليه السلام، ومن هذه الناحية كانت آيات، ومن ناحية أخرى هى ذات سلطان وقهر لمن يطالع عليها معتبراً بها، ويجوز أن يكون السلطان هنا حجة خاصة هى آية العصا، وسماها سلطاناً مع أنها داخلة فى الآيات إشارة إلى أن قوتها قوة ممتازة حتى كأنها نوع آخر لتلك خصصها بالذكر وقيل: إن السلطان هنا هو سلطان القلب للعنوى، والتهر الأدبى، وهو فوق السلطان المادى وهو الذى يدل على قوله فى سورة طه (لا تخف إنك أنت الأعلى «٦٨» (٧)) وألقى مافى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى «٦٩» (٨)) وكأنه يقول: ولقد أرسلنا موسى مصحوباً بآيات الصدق وسلطانه للعنوى على فرعون وملاته.

وقد وصف السلطان بأنه مبين لأنه ظاهر لكل من قرأ قصة فرعون مع موسى، وظاهر لقوم موسى، وآية ظهوره استعانة فرعون بالسحرة ليطأوا عمل موسى، ثم ارتعاجه من إيمانهم بموسى بعد أن عرفوا أنه رسول من قبل الله تعالى لا ساحر، ثم تهديده لهم على الإيمان ورميهم بأنهم متواطئون معه على هدم فرعون وملك فرعون (إلى فرعون وملاته فاستكبروا وكانوا قوماً عالين) فاستكبروا عن الانقياد، وكانوا قوماً شأنهم مجاوزة الحدود والتكبر، والجملة ترينا أن ذلك خلق فيهم لم يكن من الأعراض التى تظروا وتزول (فقالوا أنؤمن لبشر ينزلنا من السماء قوفاً) قالوا ذلك فيما بينهم بطريق اللامحبة، أنؤمن لرجلين من البشر مماثلين لنا فى البشرية والحال أن قومهما وم بنو إسرائيل خادمون منقادون كالعبيد، وكأنهم قصدوا بذلك الحط من شأنهما عليهما السلام، وتزول مرتبتهما عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية، وهو أن بنى إسرائيل الذين يمشوا لبعوثهم عبيد لنا، ولا فرق بينهما وبينهم، وكأنهم قالوا على وجه الانكار: أنؤمن لرجلين مساوين لنا فى البشرية؟ وذلك هى الشبهة التى أوردها أقوام الرسل عليهم ورحمهم الله عليهم فى سورة الفرقان وسورة الأعراف وكثير من السور.

ثم عرضوا بشأن الرسل وقالوا: إن قومهما عالون لنا فكيف نؤمن بهم ونسوى أنفسنا.

بأولئك العبيد في طاعة موسى وهارون ؟ وهو كقول الملا من قوم نوح (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) يريدون أنه لا يصح أن نكون قروا لأولئك الأقوام الذين هم أدنىء في المهنة ونحن على ما نحن عليه من عظمة وقوة ، كذلك فرعون لا ينبغي أن يكون مع عابديه في قرن واحد ، تربطهم ملة واحدة ، ودين واحد ، وذلك هو الامعان في التكبر ، والعلو في احتقار الناس والاستخفاف بهم (فكذبوا فما كانوا من المهلكين) من كان هذا حاله فتكذبه بالرسول أثر طبيعي لحالته النفسية ، فكان عاقبة التكذيب إهلاك الله لهم بالفرق (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم بهتدون) .

يرينا الله تعالى أن التوراة التي أنزلها الله على نبيه موسى كانت بعد غرق فرعون وأنها كبقية الكتب السماوية أنزلها الله نورا وهداية ، فآمن بها من آمن ، وكفروا بها من كفر

موسى عليه السلام

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ «١٠» قَوْمَ فِرْعَوْنَ
الَّذِينَ يَقُولُونَ «١١» قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ «١٢» وَيَضِيقُ صَدْرِي
وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ «١٣» وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ
يَقْتُلُونِ «١٤» قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبْنَا بَيْنَانَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ «١٥» فَأَتَيْنَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٦» أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ «١٧»
قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ مُّهِمَّةٍ سِنِينَ «١٨» وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ
الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ «١٩» قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ
الضَّالِّينَ «٢٠» فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي
مِنَ الْمُرْسَلِينَ «٢١» وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدْتُ «٢٢» بَنِي إِسْرَءِيلَ
قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ «٢٣» قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ
كُنْتُمْ مُوقِنِينَ «٢٤» قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ «٢٥» قَالَ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ «٢٦» قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

لَخَبُونُ «٢٧» قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٢٨»
 قَالَ لَنْي أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ «٢٩» قَالَ أُولُو جِنَّتِكَ
 بِشَىءٍ مُبِينٍ «٣٠» قَالَ قَاتِلِي بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٣١» فَأَلْقَى عَصَاهُ
 فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُبِينٌ «٣٢» وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ «٣٣» قَالَ
 لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ «٣٤» يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ
 بِسِحْرِهِمْ فَإِذَا تَأْمُرُونَ «٣٥» قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَيْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ «٣٦»
 يَا ثَوَكُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ «٣٧» فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيلَيْتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ «٣٨»
 وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ «٣٩» لَعَلَّنَا تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا مِنْ
 الْغُلَبِينَ «٤٠» فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ
 الْغُلَبِينَ «٤١» قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لِمَنْ الْمُقَرَّبِينَ «٤٢» قَالَ لَهُمْ مُوسَى
 أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ «٤٣» فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِزَرْفٍ فِرْعَوْنَ إِنَّا
 لَنَحْنُ الْغُلَبُونَ «٤٤» فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ «٤٥» مَا يَأْفِكُونَ «٤٥»
 فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُلْجِدِينَ «٤٦» قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ «٤٧» رَبِّ مُوسَى
 وَهَارُونَ «٤٨» قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي
 عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَاسْتَوفُوا مَعْلُومَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ
 وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ «٤٩» قَالُوا لَاصِرٌ «٥٠» إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ «٥٠» إِنَّا
 نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ «٥١» وَأَوْحَيْنَا إِلَى
 مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِمِائِدِي إِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ «٥٢» فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ
 حَاشِرِينَ «٥٣» إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ «٥٤» وَإِنَّهُمْ لَنَا لَعَائِظُونَ «٥٥»

وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاضِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ ﴿٥٨﴾ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتَيْنَاهُمُ الْمَشْرِقَيْنِ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا رَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَتُحِبُّ مُوسَىٰ إِنَّ لِمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَتْ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلَّوْنَا ﴿٦٤﴾ ثُمَّ الْأَخْرَيْنِ ﴿٦٥﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرَيْنِ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ الشعراء

شرح وعبرة

(١) بدأ في هذه القصة بعد قوله في أول السورة (تلك آيات الكتاب المبين «٢») لذلك باخض نفسك أن لا يبكوا مؤمنين «٣» إن نشأ تنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين «٤») .
بعد أن أراه الله أنه يشفق عليه أن يقتل نفسه حسرة على ما فاتته من اسلام قومه أمره أن يذكر قصة نبي الله موسى مع عدو الله وعدوه فرعون ليقبلي بهذه القصة ، ويتأسى بذلك الصبر الذي كان من نبي الله موسى وأخيه هارون ، فقال له (وإذ نادى ربك موسى) الخ ، وقوله (ألا يتقون) تعجيب لموسى عليه السلام من حالهم التي شنت في الظلم والعسف ، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم من أيام الله (قال رب اني أخاف أن يكذبون) الخ .
من عادة القرآن في القصص أن يجعل في بعض السور ما يسطه في بعض آخر ، وقد بسط الله خوف موسى من بطش فرعون ، وطلبه أن يحل عقدة من لسانه ، وأن يشرح صدره ، ويجعل أخاه هارون وزيرا له يساعده في الأمر ويشد به الأزر في سورة طه ، وقوله (ويضيق صدري ولا ينطق لساني) عطف على قوله (اني أخاف أن يكذبون) والمراد أنه يخشى بطش فرعون به ، وعنده من عقدة اللسان ما لا يمكنه من بسط الدعوة وإقامة الحججة .
لذلك طلب أن يرسل الله إلى هارون ليكون وزيرا معه ، وهارون أفصح لسانا منه كما قال (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون «٣٤») (١) والردء : المعين والناصر ، وهو المراد بالوزير في سورة طه ، وقوله (ولهم على ذنب فأخاف أن

[١] منازل حسنة . [٢] دخلين في وقت الشروق . [٣] قربنا . [٤] القصص .

يقتلون) قد شرحه الله تعالى في سورة القصص ، و بين أن رجلين اقتتلا وكان أحد المقتتلين من شعبة موسى ، وأنه استغاثه الذي من شيمته على الذي من عدوه ففضربه موسى فأتى فأتى ، وسترها مفضلة في سورة القصص (قال كلا فاذهابا يأتنا إنا معكم مستمعون) لا عذر لكما في التأخر عن دعوة موسى ، وعلل ذلك بقوله (إنا معكم مستمعون) وقال في سورة طه (لتخافا أني معكما أسمع وأرى «٤٦») .

ثم طالهما بأن يقولوا لفرعون (إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل) وفي سورة طه (ولاتعذبهم) فيقول فرعون لموسى بعد أن بلغه رسالة ربه (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) فرد عليه موسى بقوله (فعلتها إذا وأنا من الضالين) أى قبل أن يهديني الله بالرسالة ، لأن الرسول قبل أن يوحى إليه ضال (ووجدك ضالا فهدى «٧»)^(١) (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان «٥٢»)^(٢) أو الضالين : المخطئين ، كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل ، أو الضالين : الضالين عن الصواب الناس من قوله (أن فضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى «٢٨٢»)^(٣) وقوله (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين) رد على قول فرعون : ألم نربك فينا وليدا بأن لا مانع من أن أتربى عندك ثم يعنى الله إليك ، ولا مانع من أن يختص من شاء بما شاء من الفضل ، فتربى عندك في الصغر لاتطمئن في رسالتى ودعوتى لك إلى الله تعالى ، وهل وجود فضل لك على فى الصغر يعنى من تبلغ رسالة الله إليك ؟ وأى صلة بين هذه وهذه ؟ وهل دعوتك إلى الله كفران لنعمتك على وأنا صابر ؟

ثم أراد موسى أن يكرر على امتتان فرعون بالترية فيبطله من أسلمه وأبى عليه أن يسمى هذه النعمة إلا نعمة فقال (ولك نعمة منها على أن عبت لبني إسرائيل) يريد أن حقيقة انعامه عليه تعبيد لبني إسرائيل وإذلال لهم ، لأن سبب تربيته لموسى خوف أتمه من ذبح الأبناء واستحياء النساء ، فكانت نعمة لبني إسرائيل تسبب عنها نعمة لبني الله موسى ، والشر إذا سبب خيرا لا يؤجر عليه فاعل الشر ، ولا يصح له أن يعترف به ، وكان موسى يقول أتريد أن تعترف على بالترية وما جاءت للإنفاذ لحظة استعباد بني إسرائيل وتذيع أبنائهم ؟ دع النعمة بهذه الحسنة فانها مغمورة بنعمة أكبر منها .

وقد كان موسى في هذه الحاجة شديد الذكاء حاضر البديهة ، لم يلبث فرعون أن يذكره بنعمة التربية حتى عقبها موسى بنعمة التعبيد لبني إسرائيل ، وحين ما قال له أتذكر نعمة التربية ، رد عليه بقوله : أتذكر سبب هذه النعمة والظروف المحيط بها ؟ وهل سمعت لك هذه النعمة وحببت لك فضلا ؟ مع أنك لم تقصد إليها وإنما قصدت إلى الشر فكان الخير .

(٢) (قال فرعون وما رب العالمين) الخ أخذ فرعون يناظر موسى ويدأله عن رب العالمين الذى بعثه إلى الناس ، (فقال) له موسى : هو (رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين) أى من أهل الإيقان .

هناك عجب فرعون من قول موسى، و (قليلن حوله) من اللا (الاستمعون) فعقب موسى على ذلك الانكار بقوله (وبكم ورب آبائكم الأولين) فهو الذى خلقكم وخلقهم، وهو الذى رباكم بفضل ورأى، فليس ربكم فرعون، وإنما هو عبد من عبيد الله، خاض لسفنه، مستعد لما يقضى به عليه. عند ذلك تحرك فرعون، لأن موسى حاول أن يأخذ القوم منه فقال (ان رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) وكيف لا يكون مجنوناً وقد تجاهل فرعون، وجبروت فرعون فؤادهم موسى بقوله (رب للشرق والغرب وما بينهما ان كنتم تعلمون) فهمون قيمة ذلك القول، وحقية هذا الكلام.

هناك عمد فرعون الى البطش، ولجأ الى الوعيد والتهديد، لأنه لم يجد حجة ردّها قول نبي الله موسى (فقال انى اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين).

لم يقف فرعون عند تحذير قومه من اتباعه، وتحذيرهم من الاستماع له، بل طمع في أن يتخذ موسى إلهاً، وهو أسلوب خيث في تهديد القوم، وحملهم على بقائهم على مام عليه، وكأنه يقول لهم: ها أنا أهددك الرسول بالسجن إذا هو اتخذ إلها غيرى، ولا بدّ له من أن يدع ذلك الاله الذى يدعوكم إليه، ويتخذنى إلهاً.

وإذا كان موسى منها عن اتخاذه غير فرعون فكيف بينى اسرائيل؟ فيقول له موسى عليه السلام في لطف (أولجئتك بشئ مبین) يريد أنصرّ على أن تسجدنى ولوجئتك ببرهان بين وضح على صدق؟ وهو استدراج لفرعون حتى يدع التهديد بأقوة المادية، وإلجاء له الى رؤية الأدلة، والاطلاع على الآيات، هناك (قال) فرعون (فأت به ان كنت من الصادقين) هناك أتى العصا فانقلبت ثبانا واضحا للناس (وتزع يده فإذا هي عصا للنارين) وهناك استنار أشرف قومه ماذا يصنع مع موسى؟ وهناك استنفر أولئك اللا بقوله (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) وهى كلمة تشف عن ضعف فرعون أمام الحق، وخذلانه أمام الدليل والبرهان، فأشار عليه اللا أن يؤخر أمره وأمر أخيه ويبحث حاشرين في الدائن يأتيونه بكل سحر عليم، (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون آمن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين) (فقال نعم) لكم الأجر، ومع ذلك تكونون من اللقر بين منى، وهو دليل آخر على ضعف فرعون ومسالكه على الانتصار على موسى، وهناك أتى السحرة الحبال والعصى (وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) يحتمل أن يكون هذا قصبا من أيمان الجاهلية، ويحتمل أنه استعانة بعزة فرعون على القلب، وقد خذلهم الله فقلب موسى، لأن اللعز غير الله لا بد أن يذل، ثم آمن السحرة بموسى، وإله موسى، فهتدم فرعون، فلم يبالوا بذلك التهديد، و (قالوا لاضرر إنا الى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يفرنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) وقد بسطت شرح قصة السحرة والسحر في سورة الأعراف.

(٣) (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبون).

علل الاسراء باتباع فرعون وجنوده لهم ليوقعوا بهم الأذى، وسبب ذلك الاتباع إيمان السحرة وأن صاروا من جند موسى بعد أن كانوا من حزب فرعون، وكان إيمان السحرة مدعاة

لافتتاح فرعون ، لأنهم كانوا علماء لهم قيمتهم ، فكان لايمانهم ضجة كبرى ، وقد أحدثت في حاشية فرعون هزة عنيفة ، وزلازا كبيرا (فأرسل فرعون في الدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لما نظنون وإنا نجميع خذرون) .

استصرخ فرعون وقومه ، واستنثت عشيرته ، وبثت في مدائن ملكه من يحشرون الناس إليه ، ويجمعونهم حوله ، ليكونوا تحت أمره ، قائلين في دعوتهم (إن هؤلاء لشرذمة قليلون) يريدون حزب موسى الذى آمن به وفيه السحرة ، وأنهم مع قتلهم لما نظنون لنا ، وإنا جئنا لخذرون من ظفرهم بنا ، وانتصارهم علينا ، وهى كلمة تمثل سلطان الحق على الباطل ، وما يحس به حزب الشيطان من حزب الرحمن .

ترينا هذه الكلمة أن أنصار الحق على قتلهم هم قذرى في أعين حزب الشيطان ، وشجى في خلوقهم لا يبدأ لهم بال مع وجودهم ، ولا يستريح لهم ضمير ماداموا فيهم ، وهى آية كبرى من آيات الله فى الحق والباطل ستبقى ببقاء السنين .

يعترف فرعون وحزبه أن قوم موسى طائفة قليلة ، أما فرعون فعه الملك وصلواته ، والحكم وعظمته ، مع الخدم والخشم (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي « ٥١ ») (١) معه ذلك كله ، وليس مع موسى إلا ربه الذى خلقه ، وقلبه الذى بين جنبيه ، وإيمانه الذى يهتصم به ، وعقيدته التى دطمئن إليها ، يخاف فرعون موسى ، ويغشى عاقبته ، ويقول فى وصفه ووصف من معه بصيغة المؤكرد (وإنهم لنا لما نظنون وإنا نجميع خذرون) فليعتبر بذلك أرباب السلطان ، وأصحاب النفوذ والجاه ، وإلصاقا أن سلطانهم لن يصل إلى سلطان فرعون ، وملكهم لن يبلغ ملكه ، ومع ذلك كان فرعون وجنده خائفين من موسى وجليلين ، شأن البطل مع الحق ، والمتكبر مع للتواضع ، وللتعز بنفسه مع التعز بالحق (فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز) الخ .

ربنا أنه أخرج فرعون وقومه من هذه الجنات التى كانوا ينعمون فيها ، والعيون للنفجرة فى هذه الجنات وفى غيرها (وكنوز) فيها المال ، وحال بينهم وبينها ، فلم ينفخوا بها ، وكان ذلك إجابة لبعوة نبي الله موسى (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليأخذوا عن سيملك ربنا لطمس على أسوأهم « ٨٨ ») (٢) .

ولا شك أن إخراج فرعون وملأه من المال الذى كنزوه طمس له ، وحرمان لفرعون وقومه منه (ومقام كريم) موضع للأقامة حسن وهى للتفرد البهجة ، أخرجهم الله من تلك النعم وأورثها بنى إسرائيل (فأنبعهم مشرقين) عند شروق الشمس ، وهو يدل على حرص القوم على إدراك قوم موسى (فلما تراءوا الجمعان) جمع موسى وجمع فرعون (قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن مى ربى سيهدين) إلى سبيل النجاة منهم ، لأنه هو الذى أمرنى بالهجرة .

وما أحسن هذه الثقة التى يشتها نبي الله موسى بربه إذ يقول لقومه حين خافوا (كلا) لا تخافوا (إن مى ربى) بالمعونة والتأييد ، ومن كان الله معه فلن يظله أحد (سيهدين) إلى ما فيه مصلحتى ومصلحتكم .

رحيم ذلك أوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه موسى فانفلق البحر فرقتين فكان كل فرق كالجلل العظيم في علوه ، وقرب الله الآخرين وهم قوم فرعون من بني إسرائيل ، وأودى بعضهم من بعض حتى لا ينجو منهم أحد ، وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرق الآخرين ، ثم قال (إن في ذلك آية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم) في نجاة موسى ومن معه ، وغرق فرعون وشيعته آية كبرى من آيات الله في الأرض ، وما تنبه عليها أكثرهم ، ولا انتفع بها غالبهم ، وهو فيدنا أن الذي غرق مع فرعون هم طائفة من قومه ، ولذلك قال في بعض الآيات (فأنبههم فرعون وجنوده) وأن الذي بقي بلا غرق لم ينتفع بهذه الآيات ، وبقي على شركه وثنيته (وإن ربك هو العزيز الرحيم) غالب على أمره لا يهزمه شيء ، رحيم بحلقه في عقوبته ..

موسى عليه السلام

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ أَوْ نَذِيرٍ فَذَاهِبْ أَوْ تَكُنْ مِنَ الْذَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ « ٨ » يُعْصِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ « ٩ » وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ « ١٠ » إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ « ١١ » وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثِيَابٍ رَايَتْ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ فَاسْقِيَنَّ « ١٢ » فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ « ١٣ » وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ « ١٤ » النمل

شرح وعبرة

(١) الجديد في هذه القصة أن موسى عليه السلام حينما وصل المكان الذي فيه النار نودي أن يترك من في النار ومن حولها ، ولما رآه في النار من في المكانا وهو موسى لقربه منها ، وعن حول مكانها الملائكة ، والمكان هو البقعة المباركة التي وردت في سورة القصص (فلما أتاه نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين « ٣٠ »

وبمجموع الآيات يعطينا أن الله تعالى بارك من في النار ، ومن حول النار ، كما جعل البقعة التي حصل فيها كلام الله لموسى مباركة . والسبب في أن هذه البقعة بورك وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الأمر العظيم فيها ، وهو تكليم الله موسى عليه السلام ، وجعله رسولا ، وإظهار المعجزات على يديه ، ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات في قوله (ونجيناه ولونا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين « ٨١ » (١)) وحقت أن تكون كذلك ، فهي مبعث الأنبياء ومهبط الوحي ، وكفات (٢) الأنبياء أحياء وأمواتا (وسبحان الله رب العالمين) تنزيه لله تعالى عما لا يليق به من صفات المخلوقين كحلول أو اتحاد أو غير ذلك .

وذلك التنزيه كالتهميد لاعلام موسى أن كلام الله له وجهه إليه لم يكن على نحو كلام المخلوقين بعضهم مع بعض ، وقيل : إنه تعجب لموسى من ذلك الأمر : كأنه يأمره بأن يقول (سبحان الله رب العالمين) وإذ أن ذلك الأمر مريده ومكونه رب العالمين ، وفي اختيار كلمة (رب) إشعار بأن ماسبقه موسى عليه السلام من الله تعالى هو من باب تربية العالم تربية روحية ، لأنه شريعة والنشأ مربية للروح ، كما أن النعم الظاهرة تربي الجسم ، ولا غنى للإنسان عن تربية روحه مع تربية جسمه . وقوله (ولم يعقب) أى لم يرجع بعد أن ولى .

وقد خاف موسى لأنه لم يألف أن تنقلب العصا ثعبانا يمشى في الأرض بسرعة وخفة ، ولذلك أطلق عليه جان ، فانه الثعبان الصغير الذي يمشى بسرعة ، ومن جهة أخرى قد يظن موسى أن انقلاب العصا نسي لأمر أريد به تكفيرا لما حصل منه قبل النبوة ، ولذلك قال الله له (باموسى لا تخف إني لا يخاف لمسى الرسالون) وهى كلمة عظيمة صدرت من إله يرى بها نبي الله موسى أنه لا يفتنى للرسول أن تخاف محضرقى ، لأنهم تحت رعائى ولطفى .

ولما كان موسى قد يعلق بذهنه أن يكون ذلك الحادث له صلة بفعله مع القبطى طمأنه الله تعالى بقوله (إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم) وهو من التعريضات التي يلفظ مأخذها ويدق مسلكها ، وقوله (مبصرة) أى واضحة جلية .

وقد نسب الابصار لها مع أنه لما قبلها ، لأنهم اتصاوا بها وكانوا متعلقين بها بنظرهم وتفكيرهم فيها ، فكان إصايرهم ما فيها من جلاء كأنه إصاير نفس الآيات ، أو جعلت كأنها بصير فتهدى ومنه قولهم : كلمة عيناء ، وكلمة عوراء ، لأن الكلمة الحسنة ترشد ، والكلمة السيئة تفوى ، وقرئ مبصرة [بفتح اليم] وهى كقولهم : عجيبة ومبخللة : أى مكان يكثر فيها التبصر (قالوا هذا سحر مبین) أى واضح لاشك في أنه سحر بعد مجئ الآيات واضحة جلية (وجحدوا بها) أنكروها ، والحال أن أنفسهم قد أيقنت بها ، وعلمت أنها حق من عند الله (ظلموا وعلموا) أى ان الحامل لهم على ذلك ظلمهم وترفهم على نبي الله موسى ، وذلك أشد أنواع الكفر أن يوقن القلب وينكر اللسان .

وقد عرفنا الله تعالى بهذه الجملة أن فرعون وملاؤه كانوا يعلمون من قرارة نفوسهم أن موسى عليه السلام رسول صادق فيما أخبر به عن الله تعالى ، ولكن كبرهم وتعاليمهم على الناس قضى عليهم

أن يكذبوه ويخلقوا له التهم ، وذلك هو كفر الجحود ، وهو الذى يستحق به صاحبه الخلود فى جهنم ، ومثله ما حكاه الله عن أعداء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى سورة الأنعام (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون «٣٣») أى انهم لا يعتقدون أنك كاذب فى دعوى الرسالة لأنهم لم يجربوا عليك كذبا فيما بينك وبينهم ، ولكنهم يجحدون بآيات الله لظلمهم وخروجهم عما يبنى وقعالهم على تعاليم الرسل ، ولذلك عقب الآية التى معنا بقوله (فانظر كيف كان عاقبة للفسدين) كان عاقبتهم ما فعل الله بهم من الاغراق فى اليم .

موسى عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمُ^(١) «١» تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ «٢» تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٣» إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّخِرُ آبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ «٤» وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ «٥» وَنُكَلِّمُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ «٦» وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَشِيَ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ «٧» فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِلِينَ «٨» وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ^(١) عَيْنِي لِئَلَّا يَتَقَتَّلُوهُ عَمَى أَنْ يَقَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمُرُونَ «٩» وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فُرْعَا^(٢) إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا^(٣) عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «١٠» وَقَالَتِ لِأَخْتِهِ قُصِّيهِ^(٤) فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جَنْبٍ^(٥) وَهُمْ

[١] من قرئت عنه تهرت : سرت . [٢] صغراً من العقل .

[٣] شددنا عليه وقويناه بالصبر . [٤] اتبى أثره . [٥] بعد .

لَا يَشْمُرُونَ «١١» وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى
 أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ «١٢» فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ
 عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَرَتَّلْنَاهُ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «١٣»
 وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «١٤»
 وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ
 شَيْعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنْفَتْهُ الَّتِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّتِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ «١٥»
 مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ «١٦» قَالَ
 رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «١٧» فَأَصْبَحَ فِي
 الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّتِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ «١٨» قَالَ لَهُ مُوسَى
 إِنَّكَ لَمَوِيٌّ مُبِينٌ «١٩» فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ
 يٰمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
 جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ «٢٠» وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ
 أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يٰمُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ «٢١» بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي
 لَمَكِّ مِنَ النَّاصِحِينَ «٢٢» فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ «٢٣» القصص

شرح وعبرة

(١) (تلاوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) نقص عليك يا محمد من خبر
 موسى وفرعون ما فيه العبرة ، وقوله (بالحق) أى محققين في ذلك القصص ، وقوله (لقوم يؤمنون)

[١] الورك : هو الطعن ، والدفع والفرج بجمع الكف . [٢] مينا . [٣] يستنيه .
 [٤] يتشاورون فيه .

بيان لمن يستفيد من ذلك القصص ، وهم الذين استمدوا للايمان ، وهم الذين قال فيهم (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون «١١١» (١)) .

(ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيما يستعطف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين) .

لقد كان فرعون مثلاً من أمثلة الاستبداد ، وعنواناً للظلم واستعباد الناس ، وقدوة سيئة في الشر ، ولذلك قال في آخر قصته يصنه هو وأعوانه (وجعلناهم آئمة يمدحون الى الدار) .

[فأول شيء حدثنا الله به عن فرعون] أنه علا في الأرض وتجاوز فيها الحد وطنى ، ولم تكن سيرته في الحياة سيرة عباد الله طائعين ، بل سيرة صرعة متكبرين .

[وثانيها] أنه جعل أهلها شيما وأحزابا يستعين بعضهم على بعض ، ويذلّ بكلّ حزب ماعداه من الأحزاب ، ويذلهم جميعهم بعضهم ببعض ، ويأمنهم جميعا بواسطة ذلك الحزب الذى غرسه فيهم ، حتى إذا تحرك حزب لنا وأنه قام حزب آخر ليدافع عنه ، لاهبة فيه بل إرضاء لشهوة الحزبية ، وكذلك فعل المستعمرون بالبلاد التى احتلوا ، جعلوا أهلها شيما وأحزابا سياسية ففسدوا الأمم عنهم بعضهم ، ووجهوا دفة الجهاد الى ناحية غير الناحية التى تردها الأمة .

ومن عجيب أمرهم أنهم يخلقون هذه الأحزاب ، وينفذون فيها معنى الحزبية بأساليب شيطانية ثم مع ذلك يطلبون منها الوحدة ، إذا هى طلبت منهم مصلحة من المصالح أو عملا من الأعمال وكأنهم يملقون اجابته الى ما يطلب على محال أو قريب من المحال ، إذ الحزبية لا يمكن أن تزول مادامت الأمة الفاسدة بأسطة سلطانتها على الأمة المنضوية ، لأن الناصب من أهم أغراضه فى الاستعمار أن لا يمكن الأمم من الوحدة ، وأن يحول بينهم وبين اتحاد الكلمة ، ولا سيما إذا كان المستعمر قد ممكن لجميع الأحزاب من الحكم ، وأذاقها لذّة السلطة ، فأصبحت حريصة على استبدادها بالسلطان ، وذلك ما لا يتفق واتحاد الكلمة ، واجاع الأمر ، وكان فرعون كان اماما للمستعمرين ، وقوة للفاصيل ، ينسجون على منواله ، ويترسمون خطواته ، ولم نذهب بعيدا ، ونبعد بين فرعون وبين أولئك الناصبين حتى نقول انه امام لهم وقوة سيئة في الشر ، وفرعون أول الناصبين للملك بنى اسرائيل من أمهائه ، وأول الخارجين على دستور الله العادل الحكيم الذى يقضى بالشورى فى مصالح الناس ومرافقها ، ويقضى بأن يخلق الناس أحرارا فى بلادهم لا يتعبد لهم أحد ، ولا يذلهم أحد ، كما قال عمر بن الخطاب [منذكم تعبدت الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا] .

فإذا كان الناصبون خارجين على السانير المألوفة للبشر ، وفرعون خارج على الدستور الإلهي الذى رضىه لعامة الناس فى أنحاء الأرض ، فتكون مبعدين إذا قلنا ان فرعون قد فتح الباب للفاصيل ، وسق لهم السفن السيئة ، وإغما هو أولهم ، وعمودهم الفقرى ، وهو ربهم الأعلى الذى على عليهم من وحيه الشيطاني ما يستقيحون به ارهاق الناس وإذلالهم ، ولا غنى لكل

مستعمر من التفكير في سيرته والبحث في عاقبه ، وستكون نهايتهم كنهاية فرعون : خذلان
بين ، وذلك فاضح ، وعبرة مكشوفة ، سيؤولون بما ياء به إمامهم وقدوتهم ، ويندمون حيث
لا ينفع الندم ، كما ندم فرعون حين ألجأه الفرق ، و (قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به
بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين) .

فقال الله له منكرا عليه ذلك (آلاّن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فالיום تنجيك
بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لمنافون) لم يقل الله منه إيمانا
في الوقت الذي ذهب فيه سلطانه ، وأحاط به الموت ، لأنه كان عاصيا من قبل وكان من المفسدين
في الأرض ، وإنما ينفع الإيمان في وقت يتمكن فيه فرعون من الإيذاء ثم يدعه طاعة الله ،
وزولا على أمره ونهيه .

وكذلك المستعمرون سيحل بهم من الموت الأدنى ما حلّ بفرعون ، ثم يقولون لمن ظلموهم
[وقد حلّ بهم من أسباب الهلاك ما حلّ] لقد كنا مخلصين لكم ، حريصين على مصالحكم ،
فأشفقوا علينا ، ولا تقابلوا الشر بالشر ، وهناك يقول لهم المظلومون [آلاّن وقد اسدحتم ظلمنا
من قبل وإذلالنا في بلادنا ، والحيلة بيننا وبين ثمار أعمالنا ، نحن لا تقبل منكم في ذلك الوقت
اخلاصا ولا صدق لكم كلاما] .

و [الثالث] من أخلاق فرعون أن يستغف طائفة منهم ، وهي الطائفة التي ليس فيها من
الناعة الخلقية ما يحول بينها وبين السفينة ، ونحمد الله أن لم يقل يستغفهم ، بل قال (يستغف
طائفة منهم) لعلم أن الضعف الخلق إذا حلّ بقوم لم يعمهم جميعهم ، بل يحلّ بطائفة منهم ، وكذلك
رجال الاستعمار وأذنانهم يستغفون طائفة من الأمة [ولا تخافوا الأمم من ضعفاء] فيرونها بالمال
تارة ، وللنصب تارة أخرى ، ليضموها إليهم ، حتى إذا أخذت الأمة تطالب بحقوقها ، وتدود عن
حياضها ، قامت لها تلك الطائفة فوقفت في سبيلها ، وحالت بينها وبين ما تريد .

وقد كان بلاء المسلمين في أنحاء الأرض على يد طائفة منهم ، تناصر الغاصب ، وتعاون
المستعمر ، وتأخذ على عاتقها إيجاد كل حركة من شأنها أن تدفع عليه عيشته ، أو تقض
مضجعه ، حتى يعيش في بلاد المسلمين أمنا بأيدي المسلمين أنفسهم ، وينفذ أغراضه الاستعمارية
من طريقهم هم ، ويعطل شعائر الدين ، ويحرب دور العلم ، ومساجد العبادة ، ويعمل كل ما يريد
على حساب تلك الطائفة الضعيفة ، التي قنعت بالسلطان الزائف ، والحكم المستعار ، ورضيت أن
تعيش كالأنعام على بطنها ، لا إرادة لها ولا اختيار .

وعلى المسلمين أن يظنوا تلك الطائفة ، وأن يأخذوا على أيدي الظلمة ويقفوا في وجه
الاستبداد ، ويحولوا بين الأمة وبين سموم هذه الفئة . حتى لا يترسب إلى فئات أخرى فيصبح
الدهاء عضلا ، والملاج مستحيلا ، فقد نهى الله عن الظلم كما نهى عن مظاهرة الظالمين ، بل عن
قربانهم ، وتوعد الذين يركنون إلى الذين ظلموا أن تمسهم النار ، كل ذلك ليقى الظالم وحيدا في
ظلمه ، فريدا في بنيه ، وقد فكر في اقلاعه عن الظلم إذا أحسن تلك الوحشة ، وشعر بأنه يفيض
مقوت ، ولكن الأمة قفريه بالظلم إذا رأى منها من يصفه بالعدل ، ونحيبه في الإيذاء إذا وجد

الناس تقبل عليه في ثناء وإطراء ، فاللهم أبقذ الأمة من ظلم الظالمين ، وضعف المستضعفين ، وهبها حياة قوية مشمرة ، وخلقنا متبنا تسبديل به الضعف قوة ، والهو ان عزا (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) ذلك من جبروت فرعون وبطشه ، وهو جبروت لم نسمع بمثله في التاريخ ، وليست الآية تفسيراً لقوله (يستضعف طائفة منهم) بل كلام مستأنف جديد من لما علوه في الأرض ، ولا عجب أن يصنع فرعون ذلك الصنع (انه كان من المفسدين) ومن كان خلقه الافساد في الأرض لا يستغرب منه ذلك العمل .

(٢) (وزيد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض) ذلك من نبأ فرعون عطف على قوله (ان فرعون علا في الأرض) والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، وقد وقعت هذه الجلة قصاصاً لفرعون ، وانتقاماً منه ، وكفأً له على ما قدم ، فقد أمان فرعون الشعب الاسرائيلي وأذله ، وأخذ يذبح الأبناء ، ويستحيي النساء ، ونسي ربه وخالفه ، وادّعى أنه الرب الأعلى ، فقال الله له : لقد كان منك ما كان ، وكان منا أن تعلقت ارادتنا أن نمنّ على الشعب الذي استضعفته وأذقته العذاب ألواناً ، ونجعلهم أئمة يقتدى بهم في الدين والعنيا ، يتأسى بهم الناس ، ويقتدون بهم في الخير ، أو نجعلهم ولاة في الأرض وملوكاً كما قال (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين « ٢٠ ») (١) وهو خطاب للشعب الاسرائيلي وامتنان عليه بما أعطاه من قوة بعد ضعف ، وعز بعد ذل ، وملك بعد استعلاء ، وأورثه ملك فرعون وعظمة فرعون ، وكذلك الآيات التي معنا ربنا الله فيها أن فرعون علا في الأرض ، وصنع بأهلها ما لا ينبغي ، وظن أن عزه سيبقى ، وأن ملكه لا يزول ، ولكن الله أراد [ولاراد لما أراد] أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ولاة ، ونجعلهم الوارثين لملك فرعون ، وأن يمكن لهم في الأرض ، ويثبت فيها أقدامهم حتى لا يستطيع أحد أن يخرجهم منها ، ويطلق أيديهم في مصر والشام ، ويهيمهم السلطان والنفوذ ، ويرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يخافون من ذهاب ملكهم ، وهلاكهم على يد مولود منهم ، ذلك ما أراده الله تعالى لشعب بني اسرائيل ، ومتى أراد الله شيئاً نفذ .

والعبرة فيما صنعه الله مع الشعب الاسرائيلي أن سلط عليهم فرعون ، فابتلام به فوجد فيهم استعداداً للذل ، واستشهالاً للعبودية ، فبسط عليهم سلطانه ، وتعالى في بطشه ونكاله ، ولذلك يقول الله في وصنه (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين « ٥٤ ») (٢) .

ولو أن فرعون وجد من قومه مقاومة للباطل ، واستنكاراً للظلم ، لتلبوه على أسمه ، ووقفوه عند حده ، وقد بعث فيهم رسوله موسى لينقذهم من ذل فرعون ، ويدعوهم إلى التوحيد ، فكان من بني إسرائيل من يشايخ فرعون على حرب موسى ، وهم ملؤه للشكبرون .

وقد أيد الله موسى بآياته ، وصدقه بمعجزاته ، فجمع له السحرة رجاء أن يظفروا بموسى ، فكانوا حرباً على فرعون وملأ فرعون ، فاشتد عليه الأسر ، وقتله النيظ والحزن ، لأن حزب فرعون سيكبر على الرغم منه ، فضاعف الايذاء فأذن الله لموسى بالهجرة ، فأتبعهم فرعون

بجنوده ، خلّ به من الفرق ماحلّ ، وهنالك ذهب سلطانه ، وتقوّض ملكه ، لأنه تعالى في الظلم ، وأمن في الإبداء ، وأسرف في استعباد الناس ، فلم يبق إلا انتقام الله للعادل ، وغيرته للحق ، بقاء نصره بنجاة موسى وغرق فرعون آية عظمى ، وعبرة واضحة .

وفي كلّ زمن فراعنة يظلمون الناس ويستعبدونهم ، ويستمرّون الظلم لهم ، ومع أولئك الفراعنة بطانات شرّ ، يشكرونها على الظلم ، ويطرونهم على استعباد الناس ، ويحبونهم في الشرّ الذي هم عليه ، لأنّ لهم من وراء هذا حظا في الحياة من مال أو نفوذ .

وفي كلّ زمن يسلط الله على فرعونه من ينقص عليه عيشته ، ويقض مضجعه ، فإذا كفر حُزب فرعون و بطانات السوء ، ورضى الناس بالظلم فإن الله يسلط عليهم ، ويبقى الحال كذلك حتى يشعروا بالثقل ، ويعسوا العبودية ، ويستكروا ذلك العمل ، ويأخذوا في الخلاص منه ، وهنالك يحلّ بهم من تأييد الله ونصره ما هم له أهل ، فيجعلهم سادة بعد أن كانوا عبيدا ، وحاكين بعد أن كانوا محكومين (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ١١) (١) ذلك هو الطريق الطبيّ للقضاء على الفراعنة في كلّ زمان ، وقد يسلط الله عليهم من أنواع المهلك ما سلط على فرعون موسى إذا بالقوا في الظلم وأغرقوا في العسف والجور ، فيقلب الله لهم ظهر الحق ، ويسلمهم السلطان والملك ، ويثّل عروشهم ، ويهدم ملكهم ، جزاء لهم على بغيهم ، وانتقاما منهم على سوء عملهم .

وعلى ملاوك الأرض أن تعتبر بسيرة فرعون ، وما أنزله الله به من عقوبة ، وأن تدكر بعرشه الذي تقوّض ، وملكه الذي ذهب ، بعد أن كان له من الحول والطول ما كان حتى قال وهو يستخفّ بموسى وهارون (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا نصرّون ! » ١١) (٢) وقد نسي فرعون المسبّة أنه كم من عروش ثلّت ، وبمالك قوّضت ، فوق عرش مصر الذي يجلس عليه فرعون (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّز من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كلّ شيء قدير » ٢٦) (٣) .

ويرينا الله بهذه الآيات أن الضعيف لا يبقى على ضعفه ، بل قد يتحوّل الضعيف إلى قوى ، والقوى إلى ضعيف ، والحاكم إلى محكوم ، والمحكوم إلى حاكم ، لأن الأيام دول ، والله يقلب الليل والنهار ، والفلك يدور ، والسكين هو للفرور .

(٣) (وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه) الخ ، شروع في تربية الله لموسى ، واقتاده من فرعون حيث أُمّم أمّه أن أرضعه ، فإذا خافت عليه من فرعون ألقته في اليمّ بوضعه في تابوت وجعله في النيل ، وقد طمأئنها عليه ووعدّها أن يرده إليها وأنه سيحبّه نبيّا مرسلا ، وقد أتى محبته في آل فرعون حينما أعروا عليه وأوصوا بعدم قتله رجاء أن ينفعهم أو يتخذوه ولدا ، فالقطره فكان عدواً لهم وحزنا جزاء لفرعون وجنده على ظلمهم ، ثم تأملت أمّه لفراقه وأصبح فؤادها صفرا من العقل ، خلوا من الرضا ، لولا أن ربط الله على قلبها بالصبر لكشفت السرّ وأفادت التدبير .

وحين ذاك أوصت أخته أن تقع أثره . فرأته على بعد بدون أن تشعر قوم فرعون ، وقد حرم الله عليه التقام ندى للرضعات ، فتقدمت إليهم أخته في هيئة الناصح وقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، فزولوا على رأيها ، وردده الله إلى أمته كي تسر ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله بارجاعه لها حق لاصرية فيه ، وقد شرحنا القصة في سورة طه .

كل ذلك التدبير من نعم الله على موسى يذكره بها ، ليعلم أن الذي حفظه وهو صغير في كنف عبدة الله وعدوه فرعون جدير بأن يحفظه وهو كبير راشد .

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) تصديق لوعده الله تعالى لأنه وهو في المهد أمه سيحمله رسولا ، فهو يرينا بهذه الآية أنه برّ بوعده لأئمة ، وأعطاه الحكم والعلم ، فالحكم هو النبوة ، والعلم هو علم التوراة حين بلغ أشده واستوى : أى كملت قواه الجسمية العقلية . وقيل الحكم والعلم : هو الحكمة والعلم النافع كما قال (واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة « ٣٤ »)^(١) وقوله (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً « ٣٩ »)^(٢) وقوله (وكذلك نجزي المحسنين) أى كما جزينا أم موسى بذلك الجزاء وهو حفظ ولها وترتيبه في بيت الملك الذي خلقه للقضاء عليه ، وربطنا على قلبها بالصبر ، وحرّمنا عليه الرضا ، وسخرنا له أخته لترشدهم الى من يكفله ، وألقينا عليه محبة من الله يجذب بها قلب امرأة فرعون إليه ، ووفينا لها بالوعد ، وجعلناه رسولا .

كل ذلك لأن أم موسى كانت محسنة ، فكافأناها على إحسانها بذلك العمل ، أو وكذلك نجزي المحسنين : أى كما جزينا موسى على إحسانه في الصغر ، واستعداده للخير المطلق بذلك التدبير والخلق ، نجزي كل محسن ، والله يعلم ماذا أحسن به موسى ، فهو أدرى بأعماله ، وإن كان لم يقص علينا كل تاريخه ، بل قصّ خبر نشأته في بيت فرعون ، ولطفه به في بيت الظلم ومهد الجور والعسف ، كما قصّ علينا خبر قتله للرجل الذي كان يتشاجر مع رجل من أنصاره .

(٤) (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) الخ ، قيل المدينة هي القرية التي كان يسكنها فرعون ، وهي على رأس فرسخين من مصر . وقال الضحاك : هي عين شمس ، وليس في الآية دليل على أن قتل القبطي كان بعد النبوة ، لأن الواو لانفيد ترتيباً ، والقرآن الكريم لا يسرد لنا الحوادث . كما يسردها كتب التاريخ على نظام وجودها ، بل هو كتاب عبرة ، وترية نفسية وخلقية ، فيصح أن يذكر الحوادث مبتدئاً بأهمها ، وإن كان ترتيبه في الوجود متأخراً والمناسبة في قوله (ولما بلغ أشده) الخ أنه لما عرض لحدث نشأة موسى في حجر فرعون وبيته ، وأنه حفظه وهو صغير - مناسب أن يتم تاريخه ويقول : إن ذلك الطفل لما بلغ أشده واستوى آتاه الله الحكم والعلم كما وعد أمه .

قصة إعطائه الرسالة جاءت بين قصة ترتيبه ، وقصة قتله للقبطي مثل تلك المناسبة ، لأنها وقعت قبلها ، وبدلت لذلك قول فرعون له في سورة الشعراء (ألم تر بك فينا وليداً ولبت فينا من عمرك سنين « ١٨ » وفعلت فطنتك التي فعلت وأنت من الكافرين « ١٩ » قال فلعنتها إذا وأنا من

الناس «٢٠» ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين «٢١» .
 فرعون يذكره قصة قتل التبطى وأنه كافر بنعمة فرعون ، فيقول له موسى قد فعلتها قبل
 أن يهدينى ربي الى دينه ، كما قال فى محمد صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالا فهدى ، وأنه عقب ذلك
 فر منهم لما خافهم ، فوهب الله له الحكم وجعله من المرسلين ، وعطفه بالغاء الدالة على الترتيب ،
 وهونص صريح على أن قتل الرجل كان قبل الرسالة ، أما الآية التى معنا فكل ما فيها أنها عطف
 قصة التبطى على إينائه الحكم بالواو ، والواو لا تقتضى تعقبا ولا ترتيبا ، وذلك على فرض أن
 الحكم والعلم : ما حكم الرسالة وعلم النوراة ، أما إذا قلنا هو الحكمة والعلم النافع ولا يخلو عصر من
 العصور عنهما - إذا قلنا ذلك فالأمر أهون وأهون .

وقوله (قال هذا من عمل الشيطان) الخ لأنه خطأ وانحطأ من الشيطان ، وقد جرّ الى ذلك
 القتل ما يحصل كثيرا من الناس أن يشاجر حزابان فيستعين كل حزب بشيعة وتقوى المشاجرة
 فى بعض الأوقات بقتل ، والمشاكران لم يقصدا الى القتل ، ولا خطر لهما على بل ، ولذلك لا يعاقب
 القانون الوضعى على هذه المشاجرات عقوبة القتل ، بل يقولون هى مشاجرة أدت إلى قتل ،
 ونسب الى الشيطان ، لأن الحامل عليه غرض حزبي ، وما كان كذلك فهو من عمل الشيطان ،
 وقد طلب موسى أن يفر الله له ذلك لأنه هو الذى أخذ فى أسبابه ومقدماته ، وجريا على سنن
 القرينين فى استعظام ما فرط منهم ولو كان من محترات الصنائع (قال رب بما أنعمت على فلن
 أكون ظهرا للجرمين) يحتمل أن يكون قسما : أى أقسم بأنعمك على لا تؤوب فلن أكون بعد
 هذا عونا للجرمين . وأن يكون استعظافا : أى بحق انعمك على اعصمى فلن أكون معينا
 للجرم ، وسواء قلنا به قسم أو استعظاف فهو يبرأ من أن يظهر رجلا أو طائفة على إجرامها ،
 وهو خلق ديني انفتت عليه الشرائع السجاية ، وحثته الأديان ، بذلك يقول الله تعالى (وتعاونوا
 على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان «٢» «١») . ويقول (ولا تجادل عن الذين
 يخانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أشيا «١٠٧» «٣») .

فهو سبحانه ينهاى أن تعاون على الاثم ، وهو المحرم ثم العدوان ، لأن أكثر تعاون الناس
 عليه ، ونهاى أن تجادل عن الذين يخانون أنفسهم بعضيان الله تعالى ، فلاندافع عنهم ، ولا تنفتر
 عن أعمالهم ، أو تؤوبها أمام القانون .

وما أحوج رجال المحاماة إلى تدبر هذه الآية ، فإن الرجل منهم قد يعلم أن موكله مجرم آثم ثم
 هو مع ذلك يقبل التوكيل منه ، ويدافع عنه بكل ما أوتى من قوة .

ومن غريب أمر المحامين أنهم يعتفرون عن ذلك العمل بأنه قيام بالمهمة للثقة عليهم ، ولا
 ندري ما الذى أوجب عليهم أن يدافعوا عن مجرم ، ويعلموه كيف يتخفى معالم الاجرام ، وكيف
 لا يعترف أمام القضاء بما يكون حجة عليه ، أهو دينهم الذى ينهاهم عن الباطل عن المجرم ، أم هو
 القانون الذى خلق هذه المهنة خلقا لتتورق القضاء ، وتسهل مهمته عليه ، فالقاضى والمحامى
 شريكان فى نشر العدالة ، ونفسيران للحق والعدل ، ولكنه النعش يلجئ كثيرا من المحامين

لقبول التوكيل من المجرمين ، كالقتلة والصوص ، والهريين للخنذرات ، والتجربين بالأعراض ،
حانا الله من ذلك كله .

(فأصبح في المدينة خائفا يترقب فاذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه) يطلب منه العونة
في حادث آخر (قال له موسى إنك لغوى مبين) لأنك تسببت في قتل رجل وتقاتل اليوم رجلا
آخر ؟ و (مبين) بين الغواية ظاهرها ، وهو يدل على فقرة موسى عليه السلام من معاودة ذلك
العمل والرجوع إليه (فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما) الضمير للاستنصر لا لموسى فهو
الذي أراد أن يبطش بقطبي آخر هو عدوه ولموسى عليه السلام (قال) القبطي (يا موسى أتريد
أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون
من الصالحين) .

وقد وجه القول إلى موسى لأن حادث قتله للقبطي قد أشيع ، وكان سبب هذا القتل استنصار
الاسرائيلي بموسى ، وقد أعاد استنصاره له فظن القبطي لذلك كله أن موسى سيطاوعه و يقتله كما
قتل أخاه ، غلطه بذلك الأسلوب منكرا عليه أن ينضم إلى صاحبه كما انضم إليه بالأمس .
ومن البعيد جدا أن موسى يخطئ مرة في تشيعة للذي من شيعته ، ويكون من وراء ذلك
قتل رجل بدون ذنب ، ثم يعاود الخطأ مرة أخرى ، وكذلك من البعيد أن موسى يقابل الرجل
الذي يستنصره في المرة الثانية بقوله (إنك لغوى مبين) ثم ينحاز إليه مرة أخرى .

ومن البعيد أيضا أن يكون الخائف من موسى على نفسه في المرة الثانية هو المستنصر ، أما
على التوجيه الذي ذكرناه فالآية منسقة والمعنى مستقيم ، ولا سيما أن موسى تاب وأناب إلى ربه أن
يكون ظهيرا للمجرم ، فلا يمكن أن ينقض توبته في اليوم الثاني ، ولابد أن ينفع بذلك الخطأ الذي
وقع فيه في المرة الأولى ، وهو الشأن في المؤمنين فضلا عن أعدائهم الله للرسالة ، وهيامهم للزعامة
في الدين ، ثم جاء رجل يبغاه أن القوم يقشاورون في قتله ليخرج من المدينة ، ففرج وهو يدعو
الله أن ينجيهم من الظالمين . وقوله (من أقصى المدينة) يفيد أن مسألة القتل أشيع وعلم أمرها
لفرعون وغيره ، فلا مانع أن يوجه القبطي الخطاب إلى موسى على ذلك النحو الذي ترى . وجملة
القول أنه يعد بعد أن قال في شأن قتله للقبطي (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) .
و بعد أن قال (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي) و بعد أن قال (رب بما أنعمت علي فلن
أكون ظهيرا للمجرمين) - يعد بعد ذلك أنه أن يكون المرید للبطش هو موسى سواء أكان

يريد البطش بالقبطي أو يريد البطش بالاسرائيلي الذي استنصره ، لأن معناه أن موسى لم ينفع
بذلك الخطأ الذي أسف له وتدم عليه . وهناك سبب آخر يجمع من أن يكون البطش من موسى
بالاسرائيلي : هو أن الاسرائيلي من شيعه موسى فلم يعرف بالعداوة له وإنما هو عدو للقبطي فقط ،
اللهم إلا إذا ادعى أن العداوة جديدة بسبب أنه أوقع موسى في قتل القبطي للمرة الأولى فأصبح
بهذا الاعتبار عدوا لموسى ، ولكن ذلك خلاف الظاهر ، وكل ما يؤخذ على الوجه الذي اخترته
أن يكون مرجع الضمير في قوله (أراد) للاسرائيلي ، والضمير في قوله (قال) الذي هو عدو
وهو القبطي ، وهو اعتبار لفظي قد عهد مثله في التراكيب لا يرجع على الاعتبارات المعنوية التي
ذكرناها مرجحة للوجه الذي اخترناه .

موسى عليه السلام

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ «٢٢»
وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ
أَمْرَاتَيْنِ تَذْوَدَانِ^(١) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّهَاءُ^(٢) وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ «٢٣» فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ
مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ «٢٤» فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِخْيَاهُ قَالَتْ إِنَّ ابْنِي يَدْعُوكَ
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٢٥» قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَى اسْتَجْرَاهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ
اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ «٢٦» قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ
هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمْنِي حَجَجٍ^(٣) فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ «٢٧» قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي
وَبَيْنَكَ أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ «٢٨»
فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيَكُمُ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ^(٤) مِنَ النَّارِ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ «٢٩» فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يُمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ «٣٠» وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ^(٥) يُمُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ
مِنَ الْأَمِينِينَ «٣١» أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَبْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ^(٦) فَذَلِكِ بُرْهَانُ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَبَلَاءُهُ

[١] تدفان عن الماء لزحام الناس عليه . [٢] يصرف رهاة الغنم . [٣] سجين .

[٤] بجة . [٥] يرجع . [٦] الفزع .

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ «٣٢» قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ
يَقْتُلُونِ «٣٣» وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا
يَصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ «٣٤» قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْمِلُ
لَكُمْ سُلْطَانًا ^(١) فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ «٣٥»
فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا نَمِيعًا بِهِذَا فِي
ءِ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ «٣٦» وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ
تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ «٣٧» وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا
الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهُنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي
صَرْحًا ^(٢) لَعَلِّي أَطْلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ «٣٨»
وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ «٣٩»
فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ «٤٠»
وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ «٤١» وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ^(٤) «٤٢» الفصل

شرح وعبرة

(١) (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) .
لما فرغ موسى من مصر بسبب قتل القبطي توجه جهة مدين ، وهي بلاد واقعة في شبه جزيرة
سينا في شمال الحجاز وجنوب فلسطين ، تنسب إلى مدين ، وسميت القبيلة باسمه .
وقد طلب موسى من ربه أن يهديه الطريق السوي (ولما ورد ماء مدين) الخ بيان لقصته
في الزواج وسببه وهو مروهته ونجودته وأمانته بعد أن رأى من المرأتين ضعفا عن مقاومة الرعاة
وبعد أن أخبراه أن أباهما شيخ كبير لا يستطيع أن يسام مع المساهمين في سقي النعم ، وإن إحدى

[١] مينا . [٢] غلبة وقوة . [٣] يتأ طالياً ، وأطلع : أصدر .

[٤] الطرودين البعدين .

الرأتين جاءته تمنى في أدب وحياء ، وأخبرته أن أبها يدعو له ليجزيه أجر السقي ، وأن ذلك الشيخ حين وصل إليه موسى وقص عليه قصصه طمأنه وأزال خوفه ، و(قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) .

وهناك طلبت إحدى الرأتين من أبيها أن يستأجره للسقي وشهدت له بالقوة والأمانة ، وذلك لما يحتاجه الأجير ، ولأما إذا كان معه في البيت الذي يعمل فيه بنات ، أما القوة فقد عرفتها منه حين سقى لهما ، وأما الأمانة فقد عرفتها فيه وهو في ذلك العمل ، ثم عند عودته معها لاجابة طلب أبيها ، والنساء تعرف أمانة الرجل من غضب بصره وأدبه في ملاقاتهن ، والمفسرون يذكرون روايات في أدب موسى مع إحدى الرأتين وهو ذاهب معها ، وهي قدل على أدب موسى مع هذه المرأة ، وإذا لم يكن موسى من الأمانة مع النساء إلى حد يحجبها في استئجاره ، ويطلق لسانها بالثناء - إذا لم يكن موسى كذلك وأكبر من ذلك فمن الذي يكون ؟

وهناك افتتح الشيخ بصدق ابنته ، غلبه ليكون زوجا لاحدى بناته ، ولم يعين القرآن لنا البنت التي عرضها على موسى ، والظاهر أنها البنت التي شهدت له بالقوة والأمانة ، وقد جعل مهرها أن يخدمهم ثمان سنين ، فان أتمّ عشرةا فن عنده ، ولا يريد أن يشق عليه في ذلك الزواج ، ويظهر أنه وجدته معنما فلم يطالبه بمال ، ثم قال له (ستجدني ان شاء الله من الصالحين) الذين تأنس بهم ، ويأمنون بك ، لأنه لمح في موسى خلق الصلاح ، ومن الصالحين أيضا للقيام بحقوق النسب ، ومن أدب الشيخ أن يقول (ان شاء الله) فيكل المستقبل الى الله تعالى ، فأجابه موسى الى ذلك ، وقال له (أيما الأجلين قضيت) أجل الثمان أو العشر (فلا عدوان على) لا يعتدى على في طلب الزيادة (وإنه على ما تقول وكيل) شاهد ومهيمن على ذلك العهد الذي قضياه . وقد اختلف المفسرون في ذلك الشيخ أهو شعيب أم ابن أخيه أم غيرهما ؟ والأحسن تقويض علمه الى الله تعالى ، والعبرة لا تتوقف على معرفة اسمه .

(٢) قصة النار والعسا واليد قد شرحت في سورة طه ، والجديد هنا أن موسى عليه السلام يقول (رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أقصع منى لسانا فأرسله معي رداء يصدقني انى أخاف أن يكذبون) فيجيبه الله الى طلبه بقوله (سنشدك بأخيك ونجعل لك سلطانا فلا يسلون إليك بآياتنا أنما ومن اتبعك القالون) .

والمراد أن فرعون وملاه لا يستطيعان قتلكما ، وسنجعل لك سلطة وغلبة عليهم ، فلا تعمل حسابا لهم ولألائكهم ، ولا لسيئتك القديمة معهم ، وقوله (بآياتنا) اما متعلق بقوله (فلا يسلون إليك) أى ان آيات الله ودلائل قدرته وسلطانه تحول بينهم وبين وصولهم إليك بأذى .

ثم عقب ذلك بقوله (أنما ومن اتبعك القالون) واما متعلق بقوله (القالون) والمراد أنهم سيغلون فرعون وملاه بسبب الآيات التي أيدهم الله بها .

(فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا إلا سحر مفترى وما معنا بهذا في آياتنا الأولين) خسفوا آيات الله ودلائل صدقه سحرا ، ثم وصفوه بأن موسى هو الذي اختلقه ليصرف به الناس عن فرعون .

ثم عقبوا ذلك بأنهم ماصموا بدعوة موسى في آياتهم الأولين، وهناك (قال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الهدار) يريد نفسه: أي هو الذي يعلم الحق من للبطل، والرسول المؤيد بآيات، من الساحر، ويعلم من تكون العاقبة الحسنة له والثواب المقيم، وهو تعرض بفرعون ورجوعه إلى الله تعالى في حسابه للحق والبطل.

ثم عقب ذلك بقوله (انه لا يفلح الظالمون) وكأنه يقول: لو كنت ساحرا كما يزعم فرعون ما أفلحت، لأن الساحر لا يفلح، ولو كنت مفتريا ما أيدني الله، لأنه لا يؤيد كذبا، وإنما يؤيد المصادقين وينصرهم، ومادام الله مؤيدا لي فلست بالظالم، وإنما الظالم غيري.

(وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري).

لما لم يستطع أن يعارض دلائل موسى توجه إلى بطائنه (وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) وكلامه هذا قد تضمن نفى إله سواه: كما تضمن إثبات إلهية نفسه، ولم يرد فرعون أنه خالق للسموات والأرض والبحار والجبال وخالق لقنوت الناس، فإن العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول، وبدهيات المسائل، بل الإله هو المعبود، فالرجل كان ينفي الصانع، ويقول لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم، وينقادوا لأمره، لا ماظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقا للسماء والأرض، ولم يقل ذلك إرضاء لعقيدته، بل قاله يتغفل به بسطاء العقول، وصغار الأحلام، أما هو فكان موقنا بصدق موسى في دعوته، وأحقته فيما يقول، وآية ذلك قول نبي الله موسى له (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) (١٠٢) وقوله (وجحدوا بها واسمقنهن أنفسهن ظلما وعلا) (١٠٣). (فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلني أطلع إلى إله موسى) وهو دليل تجبر فرعون وتكبره وتفعله لمن معه من القوم، يومهم أن في استطاعته أن يعمل قصرا عاليا من الطين المحروق فيصعد عليه ليرى إله موسى الذي يدعيه، وهو تهكم بموسى عليه السلام، ولذلك عقبه بقوله (وإني لأظنه من الكاذبين) في دعواه.

ولقد كان فرعون مقتصدا حيث ظن كذب موسى ولم يقطع به، أو استعمل الظن موضع اليقين كقوله (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) (٤٦) (١٠٤).

(واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) تعالى فرعون وجنده بغير الحق، وظنوا أنهم لا يرجعون إلينا فتحاسبهم على ذلك التجبر.

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم) أخذه الله أخذ عزيز قادر، وأخذ جنده معه فألقاهم في اليم. إلقاء من لا يعتد به ولا يؤثر به، كقوله (ليبدن في الحطمة) (٤٤) (١٠٥). وقوله (فنبذوه وراء ظهورهم) (١٨٧) (١٠٦).

ثم قال (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) جعلهم الله عبرة ونكالا لمن يأتي بعدهم من القرون والأجيال (وجعلناهم آتمة يذعنون إلى النار) خذلناهم وحرمانهم التوفيق لأنهم ليسوا أهلا له بسبب

عنادهم وتكبرهم على الحق وأهله ، مع إيقان قلوبهم به ، فصاروا بذلك أئمة في الباطل ، وقدره في الشر ، يدعون بسيرتهم التي ساروا عليها ، وتاريخهم الأسود إلى النار ، ذلك حالهم في الدنيا (ويوم القيامة لا ينصرون) كما ينصر المتعة إلى الجنة ، فهم أشقياء في الدنيا تعساء في الآخرة (وأنبئناهم في هذه الدنيا لعنة) طردا وإبعادا عن رحمة الله (ويوم القيامة هم من الملقوحين) أى موسومين بحالة منكورة من سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، وسحبهم بالسلاسل والأغلال ، وغير ذلك .

والعبرة في هذا أن ذلك جزاء التكبر على رسل الله ، للستخف بأوامر الله ونواهي المناهض للرسول في دعوتهم ، وللصالحين في إصلاحهم ، سلط الله عليهم من وسائل الهلاك ماسط ، وحال بينهم وبين التوفيق بما كسبت أيديهم ، وجعلهم أئمة في الشر ، وقدره في الفساد ، وأنبئهم لعنة في الدنيا وسخزيهم يوم القيامة ، وهل هناك جزاء فوق ذلك الجزاء ، وخزي فوق ذلك الخزي الذى ناله فرعون وجند فرعون ؟

(واقعد آتينا موسى الكتاب) الخ برينا أنه بعد أن أهلك فرعون وجنده بالفرق أعطى موسى كتاب التوراة ليصبر به الناس من الضلال ، ويهديهم من التلويح ، ويرحمهم من القوضى ، شأن سائر الكتب السماوية والشرائع الإلهية .

موسى عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ «٢٣» إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَقُرُونٍ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ «٢٤» فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ «٢٥» وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ «٢٦» وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ «٢٧» وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ «٢٨» يَقُومُ

لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَ نَا قَالَ
فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ «٢٩» وَقَالَ الَّذِي
ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ الْآخْزَابِ «٣٠» مِثْلَ دَابِ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَهَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ «٣١» وَيَقَوْمِ إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ «٣٢» يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُذْبِرِينَ مَا أَلَكُمُ مِنَ اللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ «٣٣» وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ
بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْكُرْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ
بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ «٣٤» الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ
فِي آيَاتِ اللَّهِ يَتَغَيَّرُ سُلْطَانُ أَتْمُهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ «٣٥» وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ لِي صَرَحًا «٣٦»
لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ «٣٦» أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي
لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ إِفْرِعُونَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ «٣٧» وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ
الرَّشَادِ «٣٨» يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ
الْقَرَارِ «٣٩» مَنْ عَمِلَ سَنَنَةً فَلَا يُحْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ «٤٠»
وَيَقَوْمِ تَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ «٤١» تَدْعُونِي
لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَآشْرِكُ بِهِ مَا يَتَىٰ لِي بِهِ عَلِيمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَرِيزِ
الْفُطْرِ «٤٢» لَا جَرَمَ «٤٢» أَلَمْ نَدْعُوْنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي

[١] الجماعات السامية ، و (دأب) : طاعة . [٢] شاك .

[٣] بيتاً طالياً ، والأسباب : الطرق والأبواب .

[٤] هي ظنير لا بد ، كقولها : لا جرم أن لهم النار من الجرم وهو القطع : أي لا قطع لاستحقاقهم النار .

الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ «٤٣» فَسَتَذَكَّرُونَ
مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤْضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْمَعَادِ «٤٤» فَوَقَّيْهِ
اللَّهُ سَيَلَّتْ مَا مَكَّرُوا وَهَاقَّ ^(١) بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ «٤٥» النَّارُ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ «٤٦» ظافر

شرح وعبرة

(١) ابس في القصة حديد إلا قول الله تعالى (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) يريد أن
تديهم مقصي عليه بالقتل ، فقد دبر فرعون لبقاء ملكه أن يقتل الأبناء ، ويستحي النساء ،
فسخر الله له من يتولى هو بتريته ثم يكون حربا عليه وهو نبي الله موسى ، ثم عاد فرعون الى
مثل كيد السابق وهو هائل فيه .

(وقال فرعون ذروني أقتل موسى) يوم الناس ويرهم أن من حربه من يمنعه عن قتل
موسى وأن في استطاعته ذلك مع أنه خائف من قتله ويخشى أن يكون قتله سببا في تعجيل عقوبته
لأنه موقن من قلبه أنه رسول صادق وإن كان ينكر ذلك بلسانه (وليدع ربه) تحجر من فرعون
أنه لا يبالى برب موسى إذا دعاه لينصره على فرعون (إني أخاف أن يبدل دينكم) مام عليه
من عبادة فرعون أو عبادة آلهته (أو أن يظهر في الأرض الفساد) وذلك أيضا مما كرم فرعون
بقومه ، يرهم أن موسى يفسد عليهم معيشتهم إذا هم تبعوه .

وما علمنا رسولا كانت دعوته مدعاة إلى فساد ، إنما الفساد في تحزب الناس عليه ومعاداتهم
له ، والحقيقة أن الفساد الذي يخشاه فرعون هو فساد قومه عليه وخروجهم من قبضة يده ،
وذهاب سلطته وسلطانه ، فالفساد الذي يخشاه هو ذهاب ملكه ، لأنهم إذا رأوا الفرق بين طريق
رسول الله ، وبين طريق آله أعدائهم رغبوا في طريق موسى ، وفي ذلك فساد خطة فرعون وضياح
ملكه (وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) .

ربنا الله تعالى أن فرعون فوق تكبره ونجبره ينكر البعث والفسور ويوم الجزاء ، ومن
كان كذلك فهو جدير بأن يستعاذ منه ، وسيأتي ما يفيد أنه ينكر البعث في سورة الهخان .
(٢) (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم لئمانه) الخ .

قد رأيت أن أضمت إلى قصة موسى وعظ مؤمن آل فرعون ، لأن فيه من أساليب التذكير
بالله وباليوم الآخر ما نظم لمن له النفوس ، وتخشع له القلوب ، وفيه من المنطق المستقيم ما تقوم به
الحجة وتظهر به المحجة .

وما أحوج الواعظ الى مثل ذلك الوعظ الذى يتقدم به مؤمن آل فرعون إلى قومه وعشيرته ألا ترى إلى قوله (وإن يك كاذبا فليبه كذبه وإن يك صادقا يصبك بعض الذى يعدكم) يريد إن يك كاذبا فسيرديه كذبه وبوقه فى المهلاك ، وكيفيك مؤبة قتله ، وإن يك صادقا فى دعواه يصبك بعض الذى يعدكم من العذاب ، ثم يقول (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) فلكم لا يدوم ، ولا تستطيعون أن تدفعوا عنا عذاب الله إذا جاء ، ثم خوفهم من أيام الأحزاب الذين مضوا وما فعل الله بهم من البطش والكيده وخوفهم من يوم الجزاء الذى لا عاصم فيه من أمر الله ، وذكرهم بما فعلوه بنبي الله يوسف ، ثم دعاهم الى اتباعه ، وزهدهم فى الدنيا ومتاعها الزائل ، ورغبهم فى الآخرة ومتاعها اللقيم ، وقال لهم لماذا أدعوكم الى النجاة وتدعوننى أتتم الى النار ، تدعوننى للكفر بالله ، وأن أشرك به ما لا أعلم من الأصنام والأوثان ، وأراهم أن ما يدعونهم من الآلهة ليس له دعوة مستجابة فى الدنيا ولا فى الآخرة . وأن مرده الجميع إلى الله (وأن المسرفين هم أصحاب النار) وأراهم أنهم سيدكرون فى وقت ما قدمه لهم من النصح (و) قال لهم (أفؤض أسمى) بعد نصحي لكم (إلى الله) انه (بصير بالعباد) . وأرانا الله تعالى أن ذلك المؤمن الذى تقدم بالنصح لآل فرعون حفظه الله من سيئات مكرهم وحلّ بأس فرعون سوء العذاب .

وقد أجلنا فى شرح هذه القصة لأن الكلام على قصة موسى وهارون عليهما السلام قد طال ولأنها ذكرت على سبيل الاستطراد .

موسى عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَمَا كَانُوا يَجْرِمُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الدَّاحِى تَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْسُكُونَ ^(١) ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يُقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلِي وَلَا يُكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا

قَوْمًا فَاسِقِينَ «٥٤» فَلَمَّا اسْفُونا ^(١) اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ «٥٥»
فَجَعَلْنَاهُمْ مَلَكًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ «٥٦» الزخرف

شرح وعبرة

(١) بر: بنا الله في هذه السورة أن موسى قد أرسله الله الى فرعون وملائه ، وأنه لما جاءهم بالآيات الواضحة قابلوها بالضحك والهزء ، وأنه بعد أن أنام بالآيات أخذهم بالعذاب رجاء أن يرجعوا ولما كشف عنهم العذاب فكفوا .

بعد ذلك كله أخذ فرعون يعتز بسلطانه ، ويناخرهم بملكه ، وكان يوم الناس أن من أعطاه الله ملكا أصبح بملكه غنيا عن رسالة الله ودينه ، ومن وهبه سلطانا في هذه الحياة لا يصح أن يخضع لرسول ليس له هذا السلطان ، لذلك نادى في قومه و(قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) .

نعم: لك ملك ، والله ملك السموات والأرض ، لك الملك اليوم ، وسيتمحض الملك غدا لله ، فهل ملك مصر يفتيك عن عذاب الله من شيء ؟ وهل ملك مصر يبيح لك نسيان ربك وخالقك الذي وهبك ذلك الملك ، وسخر لك من نعمه ما سخر ؟ ثم قال (أفلا تبصرون) يريد أفلا ترون الفرق بيني وبين موسى الفقير المعدم ، وهى كفة ان جازت على البسطاء لا تجوز على العقلاء ، وان جازت على الدهماء . لا تجوز على المتكبرين ، ثم قال (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فأولاً ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين) .

يريد أن يفهم قومه أنه خير من موسى الذى هو ضعيف فى نظره حقير ، ولا يكاد يفصح عن غرضه ، وأراد بإلقاء الأسورة من الذهب عليه إلقاء مقاليد الملك ، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد رجل سوره يسوار وطوقوه بطوق من ذهب .

يريد فرعون أن موسى ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به ، وهو فى نفسه مخجل بما يعت به الرجال من اللسن والفصاحة ، ثم قال (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين) .

يريد أن فرعون لم يكن مستقلا بالاثم ، بل يشاركه قومه وعشيرته ، لأنه وجد فيهم استعدادا للشرك واستهلالا لعبودية ، فاستخف بهم فأطاعوه ، ثم علل ذلك بقوله (إنهم كانوا قوما فاسقين) أى ان النسق عادة لهم وخلق من أخلاقهم ، لذلك وجد فرعون منهم النصير والمعين ، ووجد منهم البطانة التى تعينه على ظلمه ، وتحسن له جبروته وكبرياه .

ومن ذلك نعرف أن الظلم إذا انتشر فى الأرض كان سببه ضعف القوم وعدم مكافئهم له ، وفى الأمثال العاتية [لماذا قرعنت يا فرعون ؟ لأنى لم أجد أحدا يردى] وهو فى معنى هذه الآية

الكريمة (فاستخفت قومه فأطاعوه) وعلينا دائماً أن لانسى هذه السنة في خلق الله ، وهو أن الباغي لا يستمر على بنيهِ إلا إذا وجد من قومه ما يحسن له عمله ، ويبرر له بطشه وظلمه .

ومن عجيب أمم الناس أن المسببة يظلمهم فيحمدونه على الظلم ، ويسبوا إليهم فيشكرونه على الاساءة ، ويفرّون بعضهم ببعض ففرحون بذلك الاغراء ، ويغترّبونهم بأيديهم ، ويفترّون بلادهم بمحبتهم ، يعمل ذلك كله فلا يجد من الناس إلا العين والناصر ، ولبت الناس يفتقون منه موقفاً سليماً فلا يقاومونه ولا ينصرونه ، ولو كانوا كذلك لكان الخطب ، ولكنهم يفتقون منه موقفاً إيجابياً ، حتى إذا فكر في ترك ما هو عليه حانوه على البقاء فيه ، أولئك هم الذين ضرّوا أنفسهم ، وأصبحوا كالأنعام بل أضلّ منها ، لا يعرفون لأنفسهم قيمة ، ولا يحفظون لها كرامة ، يرضون من هذه الحياة كما يرضى الحيوان الأعجم على بطنه ، وقضاء شهوته ، ولو كان مع ذلك هدم كرامتهم وضايح كيانهم .

(لما أسفوا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجللناهم سلفاً ومثلاً للآخرين) فلما أغضبوا الله تعالى ذلك الغضب الشديد وحاربوه هذه المحاربة انتقم منهم فأغرقهم أجمعين ، فجللناهم سلفاً فريقاً سلفاً وحديثاً عجيب الشأن للآخرين الذين يأتون بعدهم يعتبرون به ويتعظون بما فيه .

موسى عليه السلام

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُوكَ ﴿٢١﴾ قَدْ مَنَّ رَبُّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِمِائِدَتِي لَيْلًا إِنَّا كُنتُمْ مُتَعَبُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ^(١) إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ^(٢) ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ

عَلِمَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ^(١) ﴿٣٥﴾ فَأَتَوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ بُعِثٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ الدخ

شرح وعبرة

(١) يطالب موسى آل فرعون فيدفع ويقول لهم: اني لكم رسول أمين على وحي الله تعالى وأطلب إليكم أن لاتعالوا على الله في عدم طاعته ومناذرة رساله ، اني آتيكم بحجة واضحة ، ثم يستعيد بره وبرهم أن يرجوه ، والواد قتله ، فهو يعتصم بالله أن يحفظه من ايذائهم ، يقول لهم (وان لم تؤمنوا لي فاعزلون) لاتعترضوا لي بشركم (فدعاه ربه) قائلا (أن هؤلاء قوم مجرمون) فقال الله له (فأسر بعبادي ليلا اسكنكم متبعون) من فرعون وجنده (واترك البحر رهوا) .
 قيل : لما جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما كان ، فأمره الله أن يتركه ساكنا على انفلاقه فارا على حاله ليدخله القبط فاذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم ، وقيل : أمر أن يتركه فجوة واسعة لايحاول انطباقه بعد مرورهم وصرور قومه .
 وقد بين سبب ذلك في قوله (إنهم جند مفرقون) وقوله (فما بكت عليهم السماء والأرض) يريد ما تألم لهم أحد ، وفيه تهكم بهم وبحالهم النافية لحال من يعظم على الناس فقلده فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض (وما كانوا منظرين) لما جاء وقت هلاكهم (إن هؤلاء ليقولون) الخ ، اخبر من الله تعالى بأن فرعون وملائه يقولون (ان هي إلا موتتنا الأولى) يريدون أنه لا يأتينا شيء إلا الموتة الأولى ثم عقبوه بقولهم (وما نحن بمُنشَرِينَ) مبعوثين بعد الموت ، ثم أخفوا يتكلمون بقولهم (فأتوا با آبائنا ان كنتم صادقين) ،
 وقد رد الله عليهم في قوله (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم انهم كانوا مجرمين) الخ .

موسى عليه السلام

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾

وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى «١٩» فَأَرَاهُ الْكُتُبَى «٢٠» فَكَذَّبَ
وَعَصَى «٢١» ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْمَعِي «٢٢» فَحَشَرَ فَنَادَى «٢٣» فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ
الْأَعْلَى «٢٤» فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى «٢٥» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِمَنْ يَخْشَى «٢٦» التازعات

شرح وعبرة

(١) 'عرضنا للقصة من هذه السورة لنلفت النظر الى إعجاز القرآن الواضح ، وأسلوبه القاهر
وكيف تؤدي القصة بأسلوب طويل ، وأسلوب وسط ، ثم بأسلوب في غاية الاختصار ، ومع ذلك
نجد الأسلوب جميعه أخذاً مؤثراً في النفوس ، ولو تأمل الانسان القصة في السور الطوال ثم تأملها
في هذه لرأى أنها على اختصارها لم تدع من القصة شيئاً ، ألا تراه أشار الى المكان الذي وقع فيه
النداء ، ثم دعوة موسى ليذهب الى فرعون لأنه طغى ، ثم قوله له (هل لك الى أن تزكى وأهديك
الى ربك فتخشى) .

ثم أشار الى آيات موسى ، ثم تكذيب فرعون وإيائه ، ثم حشره الناس وقوله لهم (أنا ربكم
الأعلى) ثم أخذ الله له ، وجعل هذا الأخذ نكال الدنيا والآخرة ، ثم قال (ان في ذلك) العمل
الذي صنعه مع فرعون (لعبرة لمن يخشى) الله من الناس ، فذلك اجمال للقصة وقد فصلها القرآن
في السور التي عرضنا لها ، وهي جللتها وتفصيلها في منتهى البلاغة ، وغاية التأثير .

دعوة داود وسليمان

إلى الله تعالى

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْبَأْ
لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا
قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ
الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ «٢٤٦» وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ^(١) فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ ^(٢) بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِطَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ بِنِ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانْفُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ البقرة

شرح وعبرة

(١) (ألم تر إلى اللام من بني اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابث لنا ملكا فقال في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا) الخ .
عرضت لهذه القصة من سورة البقرة لأن لها صلة بداود عليه السلام من ناحية استعدادة للحرب : كما نين لنا حال طائفة من بني اسرائيل طلبوا الحرب ، ثم جنوا عنه بعد أن كتب عليهم ، وقد وضعنا هذه العظة تحت عنوان [داود وسليمان] وإن كانت في داود وحده ، لأننا رأينا

أن نضع داود وسليمان في عنوان واحد ، وقد تكون القصة في داود وحده ، أو شاملة لهما معا وكلمة (ألم تر) إذا خوطب به من سبق له العلم بما يذكر بعدها تكون للتعجب والتقرير والتذكير ، وإذا خوطب به من لا يعرف ذلك تكون لتعريفه به ، وتعجبه من شأنه ، وقد أجريت مجرى المثل في هذا المقام ، ففزل من لم يرتبط بعلاقة به منزلة من رآه ، كما به الظهوره وتقريره في نفسه بما لا ينبغي أن يخفى ، أو يفزل عن التعجب منه والاذعان له .

واللّا : القوم يجتمعون للشاور لاواحد له قاله البيضاوى وغيره ، وقال غيرهم اللّا لأشراف من الناس ، وهو اسم للجماعة : كالقوم والرهط والجيش ، وجهه أملاء ، سموا ملّا لأنهم يملّون العيون رواء ، والقلوب هيبة ، وكلا المعنيين يرجع الى الخاصة ولأعيان وما نسبهم بعملية القوم . وقوله (من بنى اسرائيل من بعد موسى) برينا أن ذلك اللّا من بنى اسرائيل ، وأن ذلك الحادث الذى يعجبنا الله منه ، وهو حادث طلبهم ملكا يقاتلون تحت رايته ثم جنهم عن القتال بعد أن كتبه الله عليهم - وقع لهم لا لغيرهم ، كما برينا أن نبى الله داود ، وابنه سليمان عليهما السلام أرسلهما الله تعالى بعد نبية موسى .

(إذ قالوا لنبيّ لهم ابعت لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) والقرآن لم يسم لنا ذلك النبيّ فهو من الرسل الذين لم يقص علينا القرآن قصصهم ، والظاهر أنه غير داود ، لأن داود لم يبق في ذلك الوقت ، لأنه قال في آخر القصة (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه بما يشاء) والتبادر من هذا أن القتال وقع قبل النبوة .

(قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا) أى هل قاربتم أن تحجموا عن القتال ان كتب عليكم كما أتوقع - أو - أتوقع منكم الجبن عن القتال ان هو كتب عليكم ، فعسى للقاربة أو للتوقع (قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) يريدون أى داع لما يدعوننا الى أن لا نقاتل وقد وجد سبب القتال وهو اخراجنا من ديارنا بإجلاء العدو إيانا ، وأفردنا عن أولادنا بسببه أيام واستعباده لهم .

والقتال في سبيل الله كما قال الأستاذ الامام هو القتال لاعلاء كلمته ، وتأمين دينه ونشر دعوته كي لا يلبوا على حقهم ، ولا يستقوا عن اظهار أمرهم ، فهو أعم من القتال لأجل الدين ، لأنه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته الدفاع عن الحوزة إذاهم الظامع للعاجم باغتصاب بلادنا ، والتمتع بجيرات أرضنا ، أو أراد العدو الباغي إزلالنا والعدوان على استقلالنا ، ولولم يكن ذلك لأجل فتننا في ديننا ، فإذا قال الله لنا (وقاتلوا في سبيل الله) فهو أمر مطلق ، كأنه أمر لنا بأن نحلى بحيلة الشجاعة ، ونقترب بل يسرائيل القوة والمزة ، لتكون حقوقا محفوظة ، وحرمتا مصونة ، لا نؤخذ من جانب ديننا ، ولا نقتال من جهة ديننا ، بل نبقى أعزاء الجانبين ، جديرين بمساعدة الحارين ، ألا ترى أن من ساق الله لنا العبرة بحالهم - أى في قوله (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) وذكرنا بسفته في موتهم وحياتهم لم يذكر أنهم قاتلوا وقتلوا لأجل الدين ، فاقاتل لحاية الحقيقة كالقتال لحماية الحق ، كله جهاد في سبيل الله ، فتفسير [الجلال] سبيل الله بإعلاء دينه تقييد لمطلق ، وتخصيص لقول عام من غير دليل .

ومنه نعلم أن ما يعمله شعوب المسلمين اليوم في جميع أنحاء الأرض مع المستعمرين من الدفاع عن بلادهم ، والنود عن حقيقهم وحفظ استقلالهم ، ولتهم وقوميتهم ، كل ذلك جهاد في سبيل الله وطريقه الذي يحبه و يدعو إليه ، وأن من يقا تل الحماة الحقة كالذى يقا تل الحماة الحق ، لأنا مطالبون بحمايتهما معا ، لأن الذى يفرض فى الحقة لا يستطيع أن يدافع عن الحق ، ولأن مسلوب العزة والكرامة والاستقلال لا يستطيع أن يقيم دين الله فى الأرض ، ولا أن يقيم حده ، ولا أن يحفظ أخلاقه وأخلاق أمته ، إنما الذى يستطيع ذلك هو العزيز فى بلاده ، القوى فى وطنه ، وهو الذى له من المنعة والقوة ما يحجب العدو ، ويرهب الحصم .

وقد طالبنا الله تعالى بالقوة ، وصرفنا عن العزة والمنعة ، إذ يقول (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) ثم علل ذلك بقوله (ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم « ٦٠ ») (١) فأرانا بذلك أنه ينبغى للمسلمين أن يكونوا من القوة بحيث يرهبهم أعداؤهم ويرهبهم من ليس يعلمو . وفى المثل [من لم يتذاب أكلته الذئاب] أليست هذه القوة هى التى أسماها الله تعالى بأعدادها لحماة الحقة والحق ؟ أليست هذه القوة لأرهاب الأعداء وإخافة الخصوم ؟ وهل لذلك من غاية سوى أن الله تعالى يريد للؤمنين أن يكونوا أعزاء لأذلاء وأقوياء لضعفاء ، وأن تكون بلادهم ملكا لهم ، وخيراتهم لهم لأخصومهم ، وأن يعيشوا تحت سلطانهم لانت تحت سلطان غيرهم ، وأن يحفظوا قوميتهم واستقلالهم ؟ ؟

و يتجلى ذلك فى قول الملائكة لنبيهم (وما لنا أن لا نقا تل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) فانك تفهم منه أن أولئك الملائكة بعد أن توقع منهم نبيهم أن يجنبوا عن القتا ل بعد طلبه ينكرون من أنفسهم الجنب عن القتا ل فى سبيل الله بعد أن وجدت أسبابه ، وتوفرت دواعيه ، وهو قولهم (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) فأخرج الرجل من بلده ، وبقه من موطنه ، والخيالة يده وبين بنيه وأهله : سبب من أسباب القتا ل فى سبيل الله .

قد يفهم ضعفاء العقول أن الإخراج من السيار خاص بالنفى والتغريب ، مع أن هناك نوعا من الإخراج هو شر من النفى والتغريب . وذلك هو إخراج السلم من بلده وهو مقيم فيه ، وإبعاده من خيرات بلاده وهى على صراى منه ، وحرماته من مجهودات شعبه وأمته ، وهى أدنى إليه من جبل الوريد .

ذلك النوع الذى يقا تل المسلمين فى بلادهم هو أضر عليهم من إخراجهم من وطنهم ، وتغريبهم عن بغيرهم وذرائعهم ، لأن البعيد من البلاد لا يرى كيف تبتر أموالها على الشهوات ، وكيف يجمع بها الأجنبى ، وأذنا ب الأجنبى ، وصاحب البلد فى فقر مدقع ، وأزمة خانقة ، البعيد من البلاد يتألم لبعده ، ولكنه لا يتألم لتلك النظر المحزن ، الذى يراه فى أمته كل يوم تطلع فيه الشمس ، يرى أمته فقيرة وهى الغنية ، مجدية وهى الخسبة ، شقية وهى السعيدة ، مهينة وهى العزيزة - كل ذلك لأنها فى يد غيره وتحت سلطان سواه .

ومثل الرجل الوطنى فى ذلك البلد مثل رجل اعتدى عليه لصوص وهو فى بيته ، ووضعوا فى

يديه السلاسل ، وفي رجله الأصفاد ، ثم أمسكوا لسانه عن الكلام ، وأخذوا يحربون في بيته ، ويستولون على خزائنه ويهيمنون على كل ما عنده من خير - كل ذلك وهو لا يستطيع حراكا ، اذا حاول أن ينطق بكلمة استغاثة وجد لسانه مغلولا ، واذا أراد أن يحرك من يده أو رجله وجدها في السلاسل والأغلال ، فهل يستوى ذلك الرجل الذي صنع به ذلك ، ورجل آخر أخذته القوة الفاشية ، فأبعده عن بيته وجيرانه ، وحالت بينه وبين ذويه ؟ أظن أن الفرق بينهما كبير .

فاذا لم يكن ذلك النوع من الايذاء إخراجا من البلاد فهو شر من الإخراج ، واذا لم يكن نهيا وتغريبا فهو فوق النفي والتغريب ، فكل بلد محتل من بلاد المسلمين هو بلد قد أخرج منه أهله وحيل بينهم وبين خيراته ، واستولى فيه الغاصب على كل مصارفته ، فاذا عاش فيه أهله فانما يعيشون غرباء ، واذا تمتعوا فيه بشيء من المتاع فانما يتمتعون بما يساقط من فئات الغاصبين . فاذا كان الذين يرى النفي والتغريب من أسباب الجهاد لحماية الحقيقة ، ويعتد ذلك قتالا في سبيل الله ، وطريقه الذي يحبه ويرضاه ، فأولى أن يعتد الجهاد في هذا السبيل قتالا في سبيل الله ويثبب الله عليه الثواب الذي أعدّه للجهاديين ، ويعاقب من يقف في سبيل ذلك الجهاد موقف المشبب ، فضلا عن يقف موقف الموالى للغاصب .

(٢) (فاما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) أى فاما أوجب الله القتال عليهم أعرضوا وحسوا إلا نفرا قليلا منهم . لأن الأثم إذا قهرها العدو ونكل بها يفسد بأسها ويفت عليها الجبن والمهانة ، فاذا أراد الله إحياءها بعد موتها ينفخ روح الشجاعة والاقدام في حيارها وهم الآفون ، فيعملون ما لا يعمل الآكثرون ، ولم يكن هؤلاء القوم قد استعد منهم للحياة إلا القليل .

قال الأستاذ الامام : وفي الآية من الدوائد الاجتماعية أن الأثم التي تفسد أخلاقها وتضعف ، قد تفكر في المدافعة عند الحاجة إليها ، وهزم على القيام بها إذا توفرت شرائطها التي يتحياونها ثم اذا توفرت هذه الشروط يضعفون ويحسبون ، ويزعمون أنها غير كافية ليعذبوا أنفسهم ومهم بمعذورين (والله عليم بالظالمين) الذين يظنون أنفسهم وأثمهم بترك الجهاد دفاعا عنها وحفظا لحقها فهو يحزبهم وضعفهم ، فيكونون في الدنيا إذلاء مستضعفين ، وفي الآخرة أشقياء معذبين .

وانظر كيف يصف الله الراكين للقتال بالظلم . ويصم الجبناء بمجاوزة الحد ، والخروج عما يفتي ، ويتوعدهم بأنه عليم بهم ، مطلع على أسرارهم وما سؤلته له نفوسهم ، وهو كقوله في الآيات السابقة (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) يسمع قول الجبناء في اعتذارهم عن أنفسهم : ماذا نعمل ؟ ما في اليد حيلة ، ليس لها من دون الله كاشفة . ليس لنا من الأمر شيء : لو كان لنا من الأمر شيء ما قدمناها هنا : فهذه الألفاظ هي منفاخ الجبن ، وعلل الخوف والحزن ، فهي عند أهلها تغلات وأعدار ، وعند الله ذنوب وأوزار ، وما كان منها حقا في نفسه فهو من الحق الذي أريد به الباطل - وان الله تعالى عليم بما يأتيه مرضى القلوب ، وضعفاء الإيمان من الخيل والارغبة ، والفرار من الاستعداد والمدافعة .

فاذا علمنا هذا وحسبنا به أفضنا ، عرفنا أن كلا من المعتذر بلسانه ، والمتعلل بضعاله مخادع لربه ، ولنفسه وقومه .

قال الأستاذ الامام : وكثير من الناس يهزأ بنفسه وهو لا يدري ، إذ يصدق ما يعتاده من التوهم ، وهذه شئنة المخدولين الذين ضربت عليهم القلة ، وخيم عليهم الشقاء ، تعمل فيهم هذه الوسوس مالا تعمل الحقائق ، وقد أئذرتنا الله تعالى أن نكون مثلهم ، بتذكيرنا بأنه سبحانه عليم لا يخفى عليه شيء .

يتوعد الله الجبناء في الآية التي معنا بأنه عليم بهم ، مطلع على سرهم ونجواهم ، ويصفهم بأنهم ظالمون لأنفسهم ، ولا غرو فقد رضوا لأنفسهم بالمهانة وقد أكرمهم الله ، كما رضوا بالله ، وقد كتب الله العزة للمؤمنين ، لم يعروا لأنفسهم كرامة ، ولم يماروا على الحقيقة ، وبذلك كانوا ظالمين ، وأن الذي يظلم نفسه بذلك النوع من الظلم ، ويرضى لها هذه العرة سيقا به الله تعالى على ظلمه ، ويضعه في الموضع الذي رضي لنفسه .

(٣) وقال لهم فيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) .

أخبرهم فيهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكا ، وأجابهم إلى ما طلبوا في قولهم (ابعث لنا ملكا فقاتل في سبيل الله) فأذكروا أن يكون طالوت ملكا عليهم ، وقالوا في إنكارهم (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه) ؟

لم يبين لنا القرآن وجه كونهم أحق بالملك منه ، وإن كان المفسرون يرون في ذلك روايات (ولم يؤت سعة من المال) جروا على المألوف من طباع الناس ، يرون أن الملك لابد أن يكون وارثا للملك ، أو ذائب عظيم ، يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له ، أو ذا مال عظيم يدبر به الملك ، وسبب هذا أنهم تعودوا الخضوع للشرفاء والأغنياء ، وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم القاتية .

(قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم) يخطئ الله القوم في زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب وسعة المال ، وقوله (اصطفاه عليكم) اختاره بما أودع فيه من الاستعداد الفطري للملك ، ولا ينافي هذا كون اختياره كان يبرح من الله ، لأن هذه الأمور هي بيان لأسباب الاختيار ، وهي الاستعداد الفطري ، والسعة في العلم التي يكون به التدبير ، وبسطة الجسم المعبر بها عن محبة وكمال قواه ، للاستنزاح لصحة الفكر ، على قاعدة [العقل السليم في الجسم السليم] والشجاعة والقدرة على المدافعة ، والهيبة والوقار ، وتوفيق الله تعالى الأسباب ، وهو ما عبر عنه بقوله (والله يؤتي ملكه من يشاء) .

قال صاحب المار : من الناس من يظن أن معنى اسناد الشيء إلى مشيئة الله تعالى هو أن الله يفعل بلا سبب ، ولا جريان على سنة من سنته في نظام خلقه ، وليس كذلك ، فإن كل شيء بمشيئة الله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) أي بنظام وتقدير ، موافق للحكمة ، ليس فيه جزاف ولا خلل ، فابتأه الملك لمن يشاء بمقتضى سنته ، إنما يكون بجعله مستعدا للملك في نفسه وبتوفيق الأسباب لسعيه في ذلك : أي هو بالجمع بين أمرين : أحدهما في نفس الملك ، والآخر في حال الأمة التي يكون فيها ، وفي الأحاديث المشهورة على ألسنة العامة « كما تكونوا يولى عليكم »

[قال في السور المشفرة : رواه ابن جريج في معجمه من حديث أبي بكره واليهيقي عن أبي اسحق السبيعي مرسلا] .

نم إذا أراد الله إسعاد أمة جعل ملكها مقويا لما فيها من الاستعداد للخير ، حتى يعلب خيرها على شرها ، فتكون سعيدة ، وإذا أراد إهلاك أمة جعل ملكها مقويا لمواعي الشر فيها ، حتى يئلب شرها على خيرها ، فتكون شقية ذليلة ، فتعدو عليها أمة قوية ، فلا تزال تنقصها من أطرافها ، وتفتات عليها في أمورها ، أو تناوشها الحوب ، حتى تزيل سلطانها من الأرض ، يريد الله تعالى ذلك فيكون بمقتضى سنته في نظام الاجتماع ، فهو يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه من يشاء ، بعدل وحكمة ، لا بظلم ولا عبث ، ولذلك قال (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون « ١٠٥ »)^(١) وقال (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين « ١٢٨ »)^(٢) فالمتقون في هذا المقام ، مقام استعمار الأرض والسيادة في الملك - هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد ، وضعف الأمم ، وهي الظلم في الحكم ، والجهل وفساد الأخلاق في العولة والأمة ، وما ينبع ذلك من الفرق والتنازع والتخاذل . والصالحون في هذا المقام هم الذين يصلحون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم ، بحسب استعدادها الاجتماعي .

أطلت في بيان معنى مشيئة الله تعالى في إتيان الملك ، لأنني أرى عامة المسلمين يفهمون من مثل عبارة الآية في إنجازها أن الملك يكون للواك بقوة إلهية هي وراء الأسباب والسفن التي يجري عليها البشر في أعمالهم الكسبية ، وهذا الاعتقاد قديم في الأمم الوثنية ، وبه استعبد الملوك الناس الذين يظنون أن سلطنتهم شعبة من السلطة الإلهية ، وأن محاولة مقاومتهم هي كحالة مقاومة الباري سبحانه وتعالى والخروج عن مشيئته ، وكان الأستاذ الامام أوجز في المدرس بتفسير قوله تعالى (والله يؤتي ملكه من يشاء) إذ جاء في آخره أن له تعالى سنة في تهيئة من يشاء للواك ومثل هذا الاجال لا يعقله إلا من جمع بين الآيات الكثيرة في إرث الأرض ، وفي هلاك الأمم وتنكوتها ، والآيات الواردة في أن له تعالى سنا في البشر لا تقبّل ولا تتحوّل ، وقد ذكرنا بعضها ومنها قوله تعالى (أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم « ١١ »)^(٣) خالة الأمم في صفات أنفسها وهي عقائدها ، ومعارفها ، وأخلاقها ، وعاداتها ، هي الأصل في تغير ما بها من سيادة أو عبودية ، وثروة أو فقر ، وقوة أو ضعف ، وهي التي تمكن الظلم من إهلاكها .

والغرض من هذا البيان أن نعلم أنه لا يصح لنا الاعتذار بمشيئة الله عن التصبر في إصلاح شئوننا اتكالا على ماوكننا ، فإن مشيئة الله لا تتعلق بإبطال سنته تعالى ، وحكمته في نظام خلقه ، ولادليل في الكتاب والسنة ولا في العقل ولا في الوجود على أن تصرف الملوك في الأمم هو بقوة إلهية خارقة للعادة . بل شريعة الله تعالى وخليقته شاهدان بضد ذلك ، فاعتبروا يا أولى الأبصار . (والله واسع عليم) واسع التصرف والقدرة ، إذا شاء شيئا وقع (عليم) بوجوه الحكمة يضع لهم السفن الحكيمية ، والظلم العادلة فلا يتركهم سدى .

(٤) (قال لهم فيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) .

قد كان انكار اللاء أن يبعث الله لهم طالوت ملكا بمثابة أن يطلبوا آية على صحة ذلك الاصطفاء ودليلا على صدقه ، ويظهر أنهم كانوا مؤمنين بنبيهم ، لأنهم طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا يقاثلون معه في سبيل الله ، فلذلك قال لهم نبيهم: ان علامة ملك طالوت عليكم ، واصطفاه الله له : (أن يأتيكم التابوت) وهو الصندوق الذي كان موسى عليه السلام يضع فيه التوراة ، وكانت تسكن إليه نفوس بني اسرائيل لأنه فيه كتاب الله ، ولذلك يصفه بقوله (فيه سكينه من ربكم) وقوله (وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون) أي أثر من بيت النبوة ، ويحتمل أن يكون ذلك الأثر هو التوراة أو بعضها ، ويحتمل أن يكون شيئا آخر (تحمله الملائكة) تسوقه إليكم وقد كانت العمالة استولت على ذلك التابوت لما حاربوهم وأذلّوهم ، وشقّ على بني اسرائيل أن يضع عليهم ذلك الأثر ، فجعل الله آية طالوت في ملكه أن يحييهم التابوت بعد ضياعه منهم من طريق خارق للعادة ، عبر عنه بقوله (تحمله الملائكة) (ان في ذلك) العمل الخارق (لآية لكم) علامة على أن طالوت قد اختاره الله ملكا عليكم (ان كنتم مؤمنين) بالآيات ، مصدّقين بالدلائل .

(فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر) الخ ، أوجز القرآن كعادته في إتيان التابوت الذي هو آية على أن ملك طالوت كان باستحقاق وجدارة ، وأنه أهل لذلك الملك ، وكأنه يقول : فإما ردّ إليهم التابوت قبالا أن يكون طالوت ملكا عليهم (فلما فصل طالوت) انفصل بهم من مقامهم ، وقادهم لقتال أعدائهم .

ولما كانوا من قبل كارهين للملك عليهم ، ثم أذعنوا من بعد ، وكان اذعان الجوع ورضاهم بما لا يمكن العلم به إلا بالاختار أراد الله أن يبتلي هذا القائد جنده ليعلم الطمع والعاصي ، فيختار الذي يرجي بلاؤه في القتال ، وثباته في معامع الزوال ، وينبئ من يظهر عصبانيته ، فان طاعة الجيش للقائد وقتته به من شروط الظفر ، وأخرج القواد الى اختبار الجيش من ولى على قوم وهم له كارهون . أخبر طالوت جنوده أنهم سيمرون على نهر يمتنعهم به بأذن الله ، فمن شرب منه فلا يعدّ من أشياعه المتحدّين معه في أمر القتال ، ومن لم يذقه بلرّة فانه منه ، وهو الذي يرصن إليه ويوثق به بحكم الثقة ، وأخبرهم أن من اغترف غرفة يسده لا يعدّ عمله مانعا من الاتحاد ، ولمسكن الذي لم يذقه أصلا هو في المرتبة الأولى .

(فشرّبوا منه لإقبيلا منهم) لأن القوم كانوا قد فسد بأسهم ، وتزلزل إيمانهم ، واعتادوا العصيان ، وشقّ عليهم مخافة الشهوة ، وإن كان فيها هوانهم ، ولم يبق فيهم من أهل الصدق والمزينة سوى القليل (فلما جاوزوه) والذين آمنوا معه قالوا لاطاقة لنا اليوم بمجالوت وجنوده) وكان جالوت أشهر أبطال أعدائهم الفلسطينيين ، والعبارة تشعر بأن جنود الفلسطينيين كانوا أكثر من الاسرائيليين .

قيل ان الذين آمنوا معه هم القليل ، وهم الذين قالوا (لاطاقة لنا اليوم بمجالوت وجنوده) وان أولئك المؤمنين (قال) الخالص منهم وهم (الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) أي يوقنون بذلك

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) وللمؤمنون مختلفون في قوة اليقين ونسوع البصيرة ، وقيل الضمير في (قالوا) للكثيرين الذين اتخفوا ، والذين يظنون أنهم ملاقوا الله هم القليل الذين ثبتوا معه ، كأنهم قاتلوا بذلك والنهر متوسط بينهما ، يظهر أولئك عندهم في الانخفال ، ويرد عليهم هؤلاء فيما يستنرون به .

والظاهر أن ابتلاء الله لهم بالنهر لم يكن الحد الفاصل بين الايمان والكفر ، بل هو حد فاصل بين قوة الارادة وضعفها ، ويظهر أن الوقت كان وقت قيظ شديد ، وحر بالغ ، فابتلاه الله بالنهر ليظهر قوى الارادة من ضعفها ، وسلم العزيمة من صريرها ، فاذا شرب الكثير من النهر فليس ذلك لأنهم كفار ، بل لأنهم ضعفاء العزيمة .

وعليه فالذين جاوزوا النهر مع طالوت فهم للمؤمن الذي لم يشرب والذي شرب وهم كثير . أما الذين قالوا لاطاقة لنا اليوم مجالوت وجنوده ، فالضمير فيه للذين يتحدث عنهم القرآن الكريم ، وهم الذين شربوا إلا قليلا منهم . برينا أن أولئك في جلتهم قالوا بعد مجاوزة النهر (لاطاقة لنا اليوم مجالوت وجنوده) وسواء أكان ذلك القول من الفريق للمؤمن أم الكافر ، والكل قد جاوز النهر ، أو كان من الفريقين مع بقاء الكافرين بدون تجاوز للنهر ، و مجاوزة المؤمنين ، لأن النهر صغير لا يمنعهم من عبادة بعضهم بعضا في ذلك الشأن .

وتأمل الفرق الكبير بين هلة الجبن وكلة الشجاعة ، وما تركه الأولى في النفس من هلع ، وما تركه الثانية من سكون وطمأنينة ، فكلمة الجبن كقولهم (لاطاقة لنا اليوم مجالوت وجنوده) يريدون أننا قوم ضعاف لا نستطيع أن نواجه جالوت وجنود جالوت ، لأنه جبار من المعالفة ، وهي تشبه قول بني إسرائيل أنفسهم لموسى حينما طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم (يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانا داخلون » ٢٢ (١)) .

هذه الكلمات وأمثالها تترك أثرا سيئا في نفس سامعها ، وتبطلهم عن العمل النافع والجهاد المفيد ، وكما يرى الجبناء بأمثال هذه الكلمات أناسا على الجبن ، ونشوم على الضعف ، ولكنهم لا يسمون الجبن باسمه ، وإنما يحببونهم فيه باسم الحزم ، والمحافظة على النفس :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك جريرة الطبع السقيم

أما كلمات الايمان الصادق ، والعقيدة القوية ، والارادة الحديدية ، فهي كلمات الآمل الذي لم يجد اليأس إلى نفسه سبيلا ، الطمأن الذي لم يتوصل إليه الشك والتردد ، هي كلمات المؤمنين المتخلصين ، والأقياء للمصلحين ، و فرق كبير بينها وبين كلمات الصنف الأول من القوم ، كقولهم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) أي إن نصر الله لم يكن دائما في صف الكثرة ، فقد تكون الكثرة على باطل ، وليس عندها من القوة المعنوية ما عند القلة ، وأن القوة المعنوية في القتال فضل ما لضعف القوة الحسية .

وقد نهى القرآن الكريم إلى أن هذه القوة هي قوة العقيدة في الله ، والثقة بشوايه وعقابه ، وأن النافذ لهذه العقيدة لا يستوى هو وصاحبها ، ألا تراه يقول في التحريض على القتال (ولا تمنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما « ١٠٤ » (١)) .

فتراه يريك أنك إذا حاربت القوم وليس لهم عقيدة في الله ، وعندك هذه العقيدة ، فإنهم يشتركون معك في آلام الجسم ، ومشقة القتال ، وأنت تمتاز عنهم بأنك ترجو من الله من الثواب مالا يرجونه ، وهي قوة معنوية أثرها ظاهر محسوس في جاعة المؤمنين إذا اشتبكوا مع غيرهم في قتال ، أو وقعوا في نزاع .

(٥) وكما شهد التاريخ بصدق هذه الكلمة ، وهي قولهم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) وهؤلاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا في قلة من جهة عددهم وعددهم ، وفتحوا في نصف قرن من الممالك ما سجله لهم التاريخ ، ودانت لهم الملوك والأمم بالاطاعة ، وخطبوا ودفم ، وبذل الله قلوبهم كثرة ، وضعفهم قوة .

وهذه غزوات المسلمين في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عهد خليفته الأول والثاني تريك العجب العجيب ، وتحقق لك صدق هذه الكلمة ، وانظر إلى قوله (باذن الله) لنفهم أن النصر الذي يناله المسلمون المؤمنون إنما هو بتيسير الله تعالى وتوفيقه ، وهذا ينسب إلى وسائل النصر ومقدمات القلب ، وأن في بعض جزئياته ما يشبه المعجز والخلق ، لذلك أضافوه إلى الله تعالى ، وقالوا (باذن الله) ولم يفتكروا بذلك بل عقبوا الكلمة بقولهم (والله مع الصابرين) بنصره ومعوته وتوفيقهم إلى أسباب النصر ، ومن كان الله معه فلا يفل .

ومن حق كل مؤمن أن لا يهولته زخرف الباطل ، ولا كثرة الفسدين ، ولا استعدادهم للحروب ، وتأهبهم للقتال ، عليه أن لا يأس من أن ينقلب القوى ضعيفا ، والضعيف قويا ، لأن الأيام دول ، ويوم لك ، ويوم عليك ، وعليه أن يعمل مع ذلك على نشر روح الرجاء في النفوس وأن ينبه قومه وذويه إلى سنن الله الحكيمية في قيام الأمم وسقوطها ، وضعفها وقوتها ، وإلى عدله تعالى في أن يولي بعض الظالمين بعضا ، وأن سنته بقاء الأصلاح (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض « ١٧ » (٢)) .

وان المستعمرين ما استولوا على بلادنا إلا لضعفنا في العلم والعمل ، وعدم نهوضنا إلى عالم الحياة ، فكانوا بذلك أصلح منا لبقاء ، وأمثل لطول الحياة ، ولذلك غلبونا على بلادنا ، واستولوا على نواصينا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال « ١١٦ » (٣)) لأنه لا يريد إلا بقوم استحقوه ، ونس من صلاحهم ، وأخذوا في أسباب الهلاك والفساد ، وكل شعب وصل إلى ذلك الحقد من الرض لا يرجي له بره ، ولا ينتظر له شفاء .

ونسبحتي لكل مصلح أن يجعل هذه الكلمة هجيرا ، ويمرّها كثيرا على لسانه ، وهو قوله

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) حتى لا يجحد اليأس إلى نفسه سيلا ، وحتى يغنى بها إيمانه ، ويقوى بها يقينه ، وأما زعيم بأن تكون هذه الكلمة أنبسه في الغربية ، وسيمره في الوحشة ، إذا قاطعه الناس وصلته بالله ، وإذا اضطهدوه الظالمون منه بأحسان الله إليه ، واعانته له ، وإذا قلب عليه سلطان الباطل ذكر هذه الكلمة فيضعف أمامه كل قوى . ويصغر في عينه كل كبير ، وتهون عليه كل صعوبة ، لأنه يستمد قوته من الله ، ويستعين في دعوته بالله ، ويصبر على مايناله في سبيل الحق .

(٦) ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) أى لما ظهر طالوت وجنوده لجالوت وجنوده وهم أعداؤهم الفلسطينيين . واشتبك الجيشان في القتال (قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا) على مشاق القتال (وثبت أقدامنا) بقيات القلوب ، واطمئنانها بالإيمان والثقة به (وانصرنا على القوم الكافرين) عبدة الأوثان (فهمزوم باذن الله) الذى أعطاهم ما سألوا ببركة توجههم إليه ، وتذكر ما يؤمنون به من قوته التى لا تعالب (وقتل داود جالوت) وكان جالوت عملاقا جبارا فقتله داود ، وهى منقبة لداود لا تسمى .

(وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) فسروا الحكمة هنا بالنبوة ، ويرى صاحب المنار أنها الزبور التى أوحاه الله إليه ، كما قال فى آية أخرى (وآتينا داود زبوراً « ١٦٣ ») (١) وبه كان نبيا ، وأما تعليمه مما يشاء فقد فسرها بصناعة العروج كما قال فى سورة الأنبياء (وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحججنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون « ٨٠ ») (٢) . وعندى أن الآية عامة تشمل هذا وتشمل غيره من فقه معاني النوراة ، ومعاني الزبور الذى أوحاه الله إليه ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) أى لولا أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، وأهل الفساد فى الأرض بأهل الإصلاح لمب أهل الباطل والافساد فى الأرض ، وبأهل على الصالحين ، وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم .

فكان من فضل الله على العالمين أن أذن لأهل دينه الحق ، الصالحين فى الأرض ، بقتال المفسدين فيها من الكافرين ، والبقاة المعتدين ، فأهل الحق حرب لأهل الداطل فى كل زمان ، والله ناصرهم مانصروا الحق ، وأرادوا الإصلاح فى الأرض .

والآية ترينا سنة عامة من سنن الاجتماع ، وهى مايعبر عنه علماء الحكمة فى هذا العصر بتنازع البقاء ، ويقولون ان الحرب طبيعة فى البشر ، لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة ، وهو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذى يقتضى المدافعة والمغالبة ، وقوله (لفسد الأرض) يؤيد السنة التى يعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعى أو بقاء الأمتل ، ووجه ذلك جعل هذا من لوازم ما قبله ، فكانته تعالى يقول « ان ما فطرت عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضا عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الأرض » : أى هو سبب بقاء الحق ، وبقاء الصلاح ، ويعزز

ذلك قوله تعالى في بيان حكمة الاذن للمسلمين بالقتل في سورة الحج (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظالموا وإن الله على نصرهم لقدير « ٣٩ » الذين أخرجوا من ديارهم بغیر حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصاوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز « ٤٠ » الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأحرموا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور « ٤١ »)^(١) . وقوله تعالى (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال « ١٧ »)^(٢) .

داود وسليمان عليهما السلام

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ^(٣) فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ « ٧٨ » فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا ، أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ « ٧٩ » وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ^(٤) لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ « ٨٠ » وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ حَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ « ٨١ » وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَقُولُ^(٥) لَهُ وَيَمْلُوكَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ « ٨٢ » الْأَنْبِيَاءُ .

شرح وعبرة

(١) (وداود وسليمان إذ يحكما في الحرت إذ نفشت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين فهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) .
أى واذكر لهم بالحمد داود وسليمان (إذ يحكما في الحرت) وهو الزرع وقد انتشرت فيه غم القوم (وكنا لحكمهم شاهدين) أى مطلعين على حكمهم (فهمناها سليمان وكلا) من الرسولين أعطينا حكما وعلما ، اذكر لهم هذه القصة لتكون دليلا على صدقك ، وبرها على حقبة قولك ، لأنك تقص عليهم من أنباء داود وسليمان ما كان غائبا عنك وعنهم ، ولولا أنك رسول صادق مؤيد بالوحي السماوى ما اطلعت على شئ من هذا . وقوله (إذ يحكما في الحرت)

[١] الحج . [٢] الرعد . [٣] انتشرت . [٤] الثوب في الحرب .

[٥] يدخلون تحت الماء ليخرجوا منه شيئا ، أو يستخرجون له الأعمال البديعة .

بصفة المضارع مع أن القصة قد مضت وصارت عليها من الغرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى - استحضار للصورة العجيبة ، وتصور للماضي بصورة النبي الحاضر ، وفرضه كأنه حاصل الآن .
والقصة التي يتلوها القرآن علينا ترينا أن الحادثة حادثة زرع انتشرت فيه غم ، ومن شأن الغم إذا انتشرت في زرع قسده ، وأن أصحاب الزرع اختصموا مع أصحاب الغم ، ورفعت القضية إلى داود وسليمان ليحكمها فيها .

ويقول المفسرون : إن داود أعطى رقاب الغنم لأصحاب الزرع نغرجا من عنده وصرا سليمان ، فقال كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه ، فقال سليمان : لو وليت أمركا لتقضيت بفير هذا ، أو قال غير هذا أرفق بالثريتين ، فبلغ ذلك داود ، فدعاه وقال : كيف تقضى ؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرت ينفع بذرهما ونسلها وصوفها ومنافعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرت مثل حرثه ، فإذا صار الحرت كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه ، وأخذ صاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ما قضيت ، وحكم بذلك .

والآية تحتمل ذلك ، ولأمانع منه إذا وردت رواية صحيحة فيه عن المعصوم ، وتحتمل غيره . وكل ما تفيد الآية قطعا أن داود وسليمان حكما حكيمين مختلفين ، وسبب الاختلاف أن المسألة اجتهادية وأن الله تعالى أخبرنا أنه فهمها سليمان ، فكان حكمه حوبا ، أما حقيقة ما حكم به كل واحد منهما فلا تدل عليه الآية ، فإن ورد به حديث صحيح فيها ، وإلا فلا ، والعبرة في الآية لا تنوقف على إضافة رواية إليها .

وتأمل قوله (وكلا آتينا حكما وعلمنا) بعد قوله (ففهمناها سليمان) لتعرف أن الله تعالى أعطى كلا من الأب الكريم وولده العظيم مقدرة على الحكم بين الناس وعلمنا يرشده إلى طريق الحكم ، غير أن الذي أوتي قوة الحكم قد يخطئ وجه الصواب . لأنه ليس هناك وحى ، والمسألة اجتهادية . وقد يكون الحادث له وجه مختلف من جهة قياسه بأشباهه ونظائره ، فيختلط الأمر على المجتهد ، فيخطئ الصواب ، وهو مأجور على كلا الحالين ، إن أخطأ فهو مأجور على اجتهداده ، وإن أصاب فهو مأجور على اجتهداده وتوقيته ، وقد ورد عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، فإذا حكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر » رواه الشيخان .

غير أن الفرق بين النبي وغيره : أن النبي لا يقره الله على الخطأ بل يرشده إلى الصواب . أما غير المعصوم فلا طريق إلى إرشاده إلى الصواب .

ثم كيف يعرض الاله على النبيين العظميين : نبي الله داود ، ونبيه سليمان ، ويريك أن قوله (ففهمناها سليمان) لم يكن لنقص في داود وعدم استعداد للحكم والقضاء ، غير أنه قد تنافوت القضاء والحكام مع استعداد الكل للقضاء ، كما كانت تنافوت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال « أقضانا على وأقرؤنا آتى » مع أنه كان في الصحابة قضاة كثيرون وقراء ، ولكن استعداد على القضاء كان فوق استعداد غيره ، وإتقان آتى للقراءة فوق إتقان كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

فلما كان قول الله تعالى (فقهناها سليمان) قد يسيء السامع فهمه ، ويخطئ فيه وجه الصواب ، عقبه بقوله (وكلا آتينا حكما وعلما) .

(٢) والآية ترينا فقه نبي الله سليمان في القضاء ، وكال استعدادده للحكم ، وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الثوب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك . فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتهما ، فقال اتنوني بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى .

وذلك من فقه سليمان عليه السلام ، وكال استعدادده للقضاء ، حكم أبوه داود للكبرى بناء على قرينة من القرائن ، أو لأن الولد كان تحت يد الكبرى ، والصغرى لم تستطع أن تقيم بينة على أنه ابنها . أما سليمان فعمد إلى أسلوب عجيب اكتشف به وجه الصواب في ذلك الحادث ، فأرى المرأتين أنه مستعد لأن يشقه نصفين . ويعطى كل واحدة نصفاً ، وهنا تجلت العاطفة ، وظهرت شفقة الأم جليلة واضحة ، لأن الأم لا ترضى أن يقتل ابنها على مرمى منها ، وتؤثر أن يعيش بعيداً عنها وتحت سلطان غيرها في سبيل حفظ حياته .

فلما أدنى سليمان بذلك وأراهم أنه منفذ ذلك لاجتماع لنص النزاع بين المرأتين ، قالت الصغرى [لا تفعل يرحمك الله] ولا نزاع بيننا [هو ابنها] فعرف سليمان أن هذه أمته ، فقضى به للصغرى . وذلك من أعمال سليمان للقرآن ، وتحكيمه للشواهد ، وهي مما يقين به وجه الصواب في المسائل ، فهي بينة ، لأن البينة ما يتبين به وجه الصواب ويظهر به الحق ، وقد أطال الحفاظ ابن القيم في ذلك الباب في كتاب [الطرق الحكيمة] وفي كتاب [إعلام الموقعين] ولو رجعت إليه في ذلك لرأيت ما يتلج صدرك ، ويقفك على عامه الواسع ، وفقهه العميق ، ثم ترى كيف تكون الشريعة حكيمة عادلة سالحة لأن تسعد الناس في دينهم ودنياهم . وكيف لا يقف القاضي من الحوادث مكتوف الأيدي ، لأن عنده من القرائن والأدلة ما يمكنه من كشف الحقيقة وإزالة الغطاء ، ويرى ابن القيم أن العمل بالقرآن هو شأن الناس في كل زمان .

وقد استدلل بقوى داود في مسألة الولد التي رواها الشيخان ، وقال : ان ذلك لم يكن قضاء بشهود ، وإنما هو قضاء بني على قرينة ، هي شفقة الأم التي حبلت عليها ، كما استدلل بقول الشاهد في قضية امرأة العزيز مع يوسف (ان كان قيمه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين «٢٦» وان كان قيمه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين «٢٧» فلما رأى قيمه قد من دبر قال إنه من كيدكن ان كيدكن عظيم «٢٨») وهو تحكيم للقرآن وعمل بمقتضى المنطق والعقل ، وقد وفينا الآية حقها في سورة يوسف ، كما استدلل بحوادث آخر وأفاض في المسألة ، واستوفى الكلام على معنى البينة واشتقاقها ، واستعمل القرآن الكريم لها ، جزاء الله عن دينه خيراً .

(٣) (وسخرنا من داود الجبال يسبحن والطير) قال الراغب : التسخير سياقه إلى الترض

المختص قهرا . قال تعالى (وسخر لكم مافي السموات وما في الأرض - وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار - وسخر لكم ذلك - كقوله سخرناها لكم لعلكم تشكرون - سبحانه الذي سخر لنا هذا ، وقد شرح ذلك التسخير بقوله (يسبحن) .

واختلف المفسرون في تسييح الجبال مع داود ، أهو خارق للعادة ، أو هي تسبح بلسان حالها على حد قوله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسييحهم) والمراد أن الجبال تقديس الله بلسان حالها ، وتشهده بأنه إله قادر حكيم ، منزّه عن النقص والعيث ، وكأنها تقول : إذا كنت في نظر بعض الناس خلقا لاغناء فيه ولا نفع ، فاني عند أصحاب العقول الراجحة ، والفقهاء الواسع ، خلقت لحكم ومصالح لا تقف عند حد ، فمن حكمها أن الله تعالى ينزل التلج عليها فيبقى في قلبها حافظا لشراب الناس الى حين نقاده ، وجعل فيها ليدوب بالتدريج ، فتجني منه السيول . وتسيل منه الأنهار والأودية ، فينبت في المروج ، والوهاد والربى ضروب النبات والفواكه والأودية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل ، ولولا الجبال لسقط التلج على وجه الأرض جلة . فأنحل بسرعة ، وعدم وقت الحاجة اليه ، وكان في انحلاله جلة هلاك ماسمة عليه ، وفيها من الأحجار ما يصلح للابنية ، وفيها معادن الذهب والفضة ، والحديد والنحاس ، والزربرد والزمرد وغيرها من أنواع المعادن ، وفيها من النافع أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها عما تحتها ، كما ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها .

والظاهر أن تسييح الجبال مع نبي الله داود كان تسييحا خاصا يفهمه داود عليه السلام ، وهو فضل من الله عليه ، لم يشركه فيه غيره ، ويدل ذلك قوله تعالى في سورة سبأ (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال آوئي معه والطير « ١٠ ») أي رجي مع التسييح ، أو رجي معه في التسييح كما رجع فيه ، ولو كان ذلك التسييح بلسان الحال لما كان فضلا خاصا بنبي الله داود ، وقال في سورة (ص) (واذا كره عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب « ١٧ ») انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق « ١٨ » والطير محشورة كل له أواب « ١٩ ») أي كل من الجبال والطير لأجل تسييح داود مسبح لأنها كانت تسبح بتسييحه .

وقوله (والطير) منصوب على المية ، والمعنى أن الطير كالجبال في أن الله تعالى سخرها مع داود لتسييح الله تعالى وتقديسه ، فبعد الطير كان مسخرها لداود كالجبال (وكنا فاعلين) لذلك التسخير ، فليس يبدع منا ولا عجب ، وهو دليل آخر على أن تسييح الجبال مع داود كان تسييحا إيجابيا ، وإلا لما ساغ قوله (وكنا فاعلين) وهي كلمة تدل على عظم الفعل وأهميته ، فاذا عجب منه فلاحق لكم في ذلك ، لأن الكون جميعه بيد الله تعالى ، وهو الذي يسخره كيف يشاء ، وفي أي ناحية شاء ، لا يتعاصى عليه شيء ، ومتى قال للشيء كن كان .

(٤) (وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحفظكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) أي علمناه عمل الشروع ، ثم بين لنا الغاية منها في قوله (لنحفظكم من بأسكم) أي لنحفظكم اللبوس من بأسكم إذا وقعت في حرب ، وقد بين ذلك في آية سبأ إذ يقول (وألنا له الحديد « ١٠ ») أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير « ١١ ») وسابغات : دروع واسعة ضافية ،

والسرد نسج السروع ، وقدر فيه : اجعله بقدر يتناسب مع المهمة التي عمل لها ، فهل الآية التي معنا شرح لآية سبأ . والآلة الحديد لداود كناية عن تعليم الله له صنعة السروع ولبوس الحرب ؟ ومادامت المسألة مسألة تعليم وإرشاد فليست من خوارق العادة ، أوهناك إلهة حقيقة ومع الآلة تعليم منه ؟ وموضع التعليم في آية سبأ هو قوله (أن اعمل سابقت وقدر في السرد) وهو المعنى من قوله (وعلماؤه صنعة لبوس) فآلة تعالى لأن له الحديد معجزة له ، ثم شفع ذلك بأن علمه صناعة السروع من ذلك الحديد اللين ، والآية تحتمل الفهمين .

وأنا أميل إلى الوجه الأول وأن إلهة الحديد لداود عليه السلام هو المراد من قوله (وعلماؤه صنعة لبوس) لأن الأصل في الآية أن تفهم على حسب المعتاد والمألوف ، ولا يذهب إلى فهمها على وجه خارق للعادة إلا حيث تعذر فهمها على الوجه المعتاد ، والأصل في الآيات أن يفسر بعضها بعضا .

(فهل أتم شاكرون) أي فضل الله عليكم بذلك التعليم ، وهو يرينا أن علم فنون الحرب ومعرفة الوفاة منه وحماية الدولة من أيدي الأعداء نعمة عظيمة ينبغي الشكر عليها ، وينبغي للقوم أن يهتموا بها ، لأنه لاجبة للعالم إذا لم يكن له قوة حريصة تحميه وتدافع عنه ، ولذلك يدعو القرآن الكريم إلى أن نأخذ الحذر من العدو ، وأن نمده ما نستهــطـع من قوة مادية ومعنوية ، ونسـكـر الذنـوة لاختلافها باختلاف المصور والأزمة ، ففي عهد داود عليه السلام كان القتال بالحرب والقتال أوشده أن يفسح دروعا للحرب من الحديد ، لثقي لابسهم السهام والحراب .

أما اليوم فتطورت العلوم والمعارف ، ودخل العالم في شأن جديد وأصبحت القوة الحربية للأمة تقاس بأساطيلها البرية والبحرية ، وطائراتها وغوصاتها ، بل وتقاس بصناعاتها وفنونها ، وتجارتها ، فكما تحارب الأمم بعضها بعضا بالمتنوعات النارية ، والغازات السامة الخائفة ، يحارب بعضها بعضا بالمصنوعات والمنسوجات ، وهذه دولة اليابان تحارب العالم كله بصناعاتها من جهة جودتها ، وسهولة فتحها ، وهي حرب عوان يعمل العالم له حسابا وألف حساب ، لأنه يتعلق بمشكلة البطالة التي تهدد الأمم من وقت لآخر ، ولها اتصال وثيق بقوة الأمة وما لديها ، ويقع ذلك توسعها في الاستعمار . فوسائل الحرب في هذا الوقت كثيرة مختلفة ، وقد تطورت بنسبة تطور العلم في علومه ومعارفه ، واتساع مرافقة ومشاكلة ، ومن لم يتدبأ أكلته الفئاب ، ومن لا ينظم الناس قظمه ، فليقنه لذلك السامون ، وليضربوا بسهم في هذه الحياة الملوثة بالمشاكل ، وليلبسوا لكل وقت لبوسه ، وإلا ذهب ربحهم ، وقضى عليهم القضاء الأخير ، وليعتبروا بغيرهم ، ويدكروا بما حل بهم من مصائب ، وما اتباهم من ويلات ، وليذكروا تاريخهم المجيد ، وسلفهم الصالح ، وما خلفه لهم من دولة ، وما تركه من ميراث ، والله معهم يعينهم وينصرهم مانصروا تعاليمه ، وآزرُوا دينه وشريعته .

(٥) (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين) أي وسخرها لسليمان الريح حال كونها عاصفة ، أي شديدة الهبوب : أي إن الله تعالى سخر له الريح تجرى بأمره كما يريد على قوتها وشدتها ، وذلك فضل من الله تعالى على نبيه داود ، فالريح التي

يرسلها الله على الجبال فتفسفها نسفا ، وتذرهما قاعا صفصفا لآثرى فيها عوجا ولا أمثا . والريح التي يصفها الله بأنها لا تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم ، والريح التي وصفها الله بأنها ريح عانية تقصف الرؤوس من الأجسام كما تقصف النخلة من جذعها - هذه الريح التي لها هذه القوة ، ولها هذه الآثار ، قد سخرها الله تعالى لداود تجرى بأمره رخوا سهلة ، حيث أراد داود ، ويقول بعض المفسرين انها أحيانا تكون عاصفة ، وأخرى تكون رخوا ، لأن الله وصفها بالوصفين جيما ، مع أن الله تعالى وصفها بأنها عاصفة في سورة الأنبياء .

ثم عقب الوصف بقوله تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ، فهي تجرى لمصلحة داود عليه السلام ، ولا يتفق ذلك مع قوتها وشدتها ، إنما اللائق بهذه الريح أن تكون رخوا ، ووصفها في سورة (ص) بقوله (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخوا حيث أصاب) .

فالظاهر أن عصفها يبان لشدتها في نفسها ، وأن لينها يبان عند أمره لها وارتفاعه بها . وقوله (تجى بأمره) أى أنها تحت تصرفه وسلطانها ، وهى معجزة لداود وقوله (إلى الأرض التي باركنا فيها) المراد بها بلاد الشام (وكنّا بكلّ شيء عالمين) أى بصحة التدبير فيه ، فنجزيه على ما تقتضيه الحكمة ، وإنا نعلم أن سليمان سيعرف نعمتنا ويشكرنا عليهما .

(ومن الشياطين من يعصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنّا لهم حافظين) أى وسخرنا لسليمان من الشياطين من يعصون له في البحار ، ويستخرجون منه اللؤلؤ والمرجان وما يكون فيها (ويعملون عملا دون ذلك) أى دون النوص كبناء المحاريب والتماثيل ، والقصور والقصور والجفان (وكنّا لهم حافظين) أن يزيفوا عن أمره ، ويخرجوا عن طاعته .

داود وسليمان عليهما السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ «١٥» وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ «١٦» وَخَشِيَ^(١) لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ^(٢) «١٧» حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «١٨» فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي^(٣)

[١] جمع . [٢] يباسون ويقعون ، أو يحبس أو لهم على آخرهم ليلاحقوا .

[٣] اجلسي موزما بالشكر مولاة به .

أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ «١٩» وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى
الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ «٢٠» لَا عَذَابَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَازِمًا لَهُ أَوْ
لَيَأْتِيَنَّكَ بِسُلْطَانٍ «٢١» مُبِينٍ «٢١» فَكَتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ
بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَفِينِ «٢٢» إِنِّي وَجَدْتُ أُزْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ «٢٣» وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ «٢٤»
أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ «٢٥» فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ «٢٥» اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ «٢٦» قَالَ سَنَنْظُرُ
أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ «٢٧» أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ
تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ «٢٨» قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيَتْ إِلَىٰ كِتَابٍ
كَرِيمٍ «٢٩» إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ «٣٠» أَلَا تَعْلَمُونَ
عَلَيَّ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ «٣١» قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ «٣٢» قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ «٣٣» قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا
أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُذْلًا وَكَذَٰلِكَ يَقْتُلُونَ «٣٤» وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ
يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ «٣٥» فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَمَا أَتَيْنِي اللَّهُ خَيْرَ
مِمَّا أَتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ «٣٦» أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أُذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ «٣٧» قَالَ يَا أَيُّهَا

الْمَلَأُوا أَيْكُمْ بِمَرَاتِنِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِي مُسْلِمِينَ «٣٨» قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ
الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيْ أَمِينٌ «٣٩» قَالَ
الَّذِيْ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا
رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ
شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ «٤٠» قَالَ
نَكَرُوا^(١) لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَهْتَدِيْ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ «٤١»
فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَكُنَّا
مُسْلِمِينَ «٤٢» وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ
كَافِرِينَ «٤٣» قِيلَ لَهَا اادْخُلِي الصَّرْحَ^(٢) فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ
سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ^(٣) مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ
مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «٤٤» النمل

شرح وعبرة

(١) (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين)
يخبرنا الله تعالى أنه أعطى داود وولده سليمان علما ، وهو علم القضاء بين الناس كما قال في آية
الأنبياء (وكلا آتينا حكما وعلما «٧٩») ففهم من قرنه بالحكم أنه علم متعلق به ، فالحكم الذي
آتاه الله إياها حكم أساسه العلم ، فالله تعالى يعين عليهما بأن آتاهما مقدرة على الحكم بين الناس ،
وأن هذه المقدرة أساسها العلم بوجوه الحكم وطرق القضاء ، وإن تملأوا فيه ، وكذلك آتاهما الله
علما بسياسة الدولة وتدير شؤونها ، كما علم سليمان مطلق الطير ، وفي الآية تنويه بشأن العلم
وعلاوة منزلته ، ولأهمية علم القضاء والسياسة ، إذ لا نستوى أمة عالمة وأمة جاهلة ، وكذلك
لا نستوى دولة فيها رجال قضاء وسياسة ، ودولة أقضرت من ذلك النوع من العلم .
وقد أصبح القضاء بين الناس ، وكذلك السياسة فنونا تدرس وتعلم ، وتطور العالم هو الذي
قضى بذلك ، ولعل المسلمين يهتمون بالعلم ويعنون به عنايتهم بأهم أمورهم ومصالحهم ، حتى

[١] اجعلوه متكررا متغيرا عن هيئته وشكله . [٢] القصر . [٣] على ، وقوارير : زجاج .

لايسبقهم الأجنبي في هذه العلوم ، وحتى لايقفوا والقافلة تسير ، ولايجمدوا والذلك يتحرك ويدور
لعلّ السامعين يفهمون أن نبيّ الله داود وولده سليمان لم يكونا ملكا إلا على أساس العلم وقاعدة
العرفه ، فإذا أرادوا أن يكونوا في عداد الأمم الناهضة والشعوب الحية فليهتموا بالعلم من جيع
نواحيه ، فان الأجنبي قد سلب عليهم ، لأنه علم وجهلوا ، وتقدم وتأخروا ، ونشط وتناموا .
(وقال الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) .

أى ان نبيّ الله داود وولده سليمان شكرا الله على تفضيله لهم على كثير من عباده المؤمنين
وهم الذين لم يؤتوا علما ، أو أوتوا علما ليس كعلمهما ، وتأمل كيف يستران بأنهما وإن آتاها الله
علما فقد فضل غيرها عليهما ، ولم يفضلهما على جيع الناس ، بل فضلهم على الكثير من المؤمنين ،
ليعلمنا كيف لايفتن الانسان بما أوتي من العلم ، وما وصل إليه من الفضل ، فان مايعطاه الانسان
من العلم في جانب ماجهله شئ قليل ، كما قال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا « ٨٥ »)^(١)

ومن جهة أخرى فان هناك من هو أعلم منه من المخلوقين ، ومنى عرف الانسان ذلك ، وأيقن
أن فضل الله لم يكن حجرا عليه ، وأنه فوق كلّ ذى علم عليم ، وعرف أنه لم يؤت من العلم إلا
قليل - متى عرف ذلك بعد عنه الغرور ، وعرف قيمة نفسه ، وطلب المزيد من العلم ، وفهم معنى
قول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وقد ربّ زدنى علما « ١١٤ »)^(٢) .

(٢) (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كلّ شئ . إن
هذا هو الفضل المبين) .

يرينا الله أن سليمان عليه السلام ورث أباه داود نوره وعلمه وملكه دون سائر أولاده ، ولم
يكن ذلك الميراث كما يرث أولياء العهد آباءهم في الملك بمقتضى نظام الوراثة ، وإنما هو توريث الله
لسليمان واصطفاه له لذلك النصب ، لأن الله أعدّه له بما آناه من الخصائص والمزايا التي تعدّه
لذلك المقام .

(وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير) المنطق والنطق كلّ لفظ يعبر عما في الضمير ، والأصوات
الحيوانية من حيث انها تابعة للتخيلات منزلة منزلة العبارة ، سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف
الأغراض ، بحيث يفهما ما هو من جنسه . قال البيضاوى : ولعلّ سليمان مهما صوّت حيوان
علم بقوّته الخدمية التخيل الذى صوّته ، والفرض الذى توخاه به .

ومن ذلك ما حكي أنه صمّ بلبل يصوّت ويرقص ، فقال : يقول « إذا أكلت نصف ثمرة
فعلى الدنيا العفاء » وصاحت فاختة فقال : انها تقول « ليت الخلق لم يخلقوا » فلملّ صوت البلبل
كان عن شبع وفراغ بال . وسياح الفاختة كلن عن مقاساة شدة وتألم قلب اه .

ولم يجزم البيضاوى بذلك الرأى ، بل صدره بكلمة [لعلّ] الدالة على الرجاء ، وأعله يرى أن
التبادر من الآية أن تعليم منطق الطير لسليمان كان معجزة له ، وإن كان ذلك الوجه الذى قرره
تحتله الآية ، فان قوله (علمنا) يحتمل أن يكون معناه أنه منحه الله أسباب العلم ومقتضاه ،
فأعطاه من الحكاء والفراصة ما يفهم به لغة الطير في حزنها وفرحها ، وشدة رخصتها ، ويسمع

من الطير في كل حالة من هذه الحالات ما يدل على غرضها الذي تقصه من التصويت ، وإذا سهل على الذين يراقبون الحيوان والطير أن يجدوا أصواتها تسكيف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجتها ومطالبها ، فواء الهرة المحبوسة يغير مواءها إذا طلبت السقاء ، والطعام أو الماء ، فكل صوت كيفيات ونبرات ليست في الصوت الآخر ، يفهمه عنها أبناء جنسها — إذا سهل ذلك على أولئك أفلا يسهل على نبي قد اختاره الله أن يعطى من قوة الحدس والذكاء ما به يفهم منطق الطير وماتريده إذا صوّت .

ان الآية تحتمل هذا ، ويكون قوله (علمنا منطق الطير) المراد به أن الله وهبه من الحدس وقوة الحدس ما يستطيع به فهم أصوات الطير ، وهو فضل عظيم من الله عليه يستحق عليه الشكر ، ويكون ذلك الامتنان كقوله (وكلّا آتينا حكما وعلما) والحكم الذي آتاه الله إياه ، وامتن عليه به هو المقدرة والاستعداد للقضاء بين الناس .

وكما تحتمل الآية ذلك تحتمل وجها آخر ، وهو أن الله اختصه بفهم لغة الطير لامن طريق الحدس ، بل من طريق الالهام ، فهو معجزة لسليمان كتسخير الريح ، وقد يؤيد ذلك قصة المدهد ، فان ما دار بينه وبين سليمان من حوار وأخذ ورد لا يمكن تأويله بمثل ما أول به البيضاوى ، فانه توعده بالعذاب الشديد إلا أن يأتي بحجة وعذر ، وقوله لسليمان : أحطت بعالم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبا يقين ، وإخبره أنه وجد امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم ، وعلمه بأنها هي قومها يسجدون للشمس من دون الله ، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، وقول سليمان له (تنظروا صدقت أم كنت من الكاذبين) الخ

كل ذلك لا يتفق ومافهمه البيضاوى في الآية ، وكذلك لا يتفق وما يتأول به بعض الناس قصة المدهد بالطير الزاجل للعلم ، فانه إذا سهل عليه أن يحمل رسالة من مكان الى مكان لايسهل عليه ذلك الحوار وهذه الأجوبة (وأوتينا من كل شيء) المراد به كثرة ما أوتي ، كما تقول فلان يقصده كل أحد ، ويسلم كل شيء ، تريد كثرة قاصديه ، وغزارة علمه ، والظاهر أن الأشياء التي أوتينا سليمان وأبوه هي حاجات الملك ، ولوازم العظمة ، كقوله في شأن بلقيس (وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) .

(ان هذا لهو الفضل المبين) الإشارة الى ما أعطاه الله لداود وسليمان عليهما السلام ، وهو قول براد به الشكر والمحمدة هو (المبين) الواضح الجلي فذلك اعتراف آخر بفضل الله عليهما بعد اعترافهما الأول (وقالا الحمد لله الذى فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين) نعرف من ذلك الخلق الذى كان عليه داود وسليمان أنه يذبح لكل أحد أن يعرف فضل الله في العلم أو المال أو الصحة أو النسل الصالح وغير ذلك مما لا يحد ، وأن يقابل نعمة الله عليه بشكره والاعتراف بفضلله ، لأن ذلك مدعاة للزيد من ذلك الفضل (وإذ نادى ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم وإن كنتم ان عذابى لشديد «٧»)^(١) .

وانظر كيف ينسب الفضل في كل هذه المواطن الى الله تعالى ، فيقول داود وسليمان عليهما السلام (الحمد لله الذى فضلنا) ويقول سليمان (يا أيها الناس علما منطلق الطير وأوتينا من كل شيء) أى ان الله هو الذى علما ، وهو الذى آتانا كل شيء ، ويقول الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهري في كتابه الجواهر : ان تعليم الله لنبية سليمان كان معجزة ، ولذلك قال علما ، ولم يقل تعلمنا ، أما نحن فنعرفه من طريق التعلم .

وقد عرف العلماء كثيرا من لغات الطيور : أى تنوع أصواتها لأغراضها المختلفة ، وفي هذا معجزة لهذا القرآن لقوله في آخر السورة (وقل الحمد لله سبريكم آياته فتعرفونها) وكأن الله يقول إنكم لا تعرفون لغات الطيور ، وقد علمتها سليمان ، وسيأتي يوم ينشر فيه علم الخلق ، ويطلع الناس على عجائبه ، فتعرفونها بالتعليم لا بالقوة الغدسية كالأنبياء ، يريكم الله إياها . ويرشدكم الى مواطنها فتعرفونها ، لأنكم مأمورون أن تعرفوا آيات على قدر طاقتكم .

(٣) وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون (أى جمع لسليمان جنوده المسخرة له من الجن وهو العالم الخفى الذى يقابل الانس ، ومن الانس والطير (فهم يوزعون) أى يسهون ويقومون ، وحكمة ذلك التفتيح أن كثرة الجيش قد تكون مدعاة للفوضى والهمجية ، فأرانا الله أن جيش سليمان مع كثرته وتنوعه هو سلس القيادة سهل الضبط ، أو يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ، وذلك شأن الجيش عند الاستعراض يجمع أوله على آخره بحيث يتصل بعضه ببعض ، لأن ذلك أربح للعدو ، وأعظم في نفس الرائي ، ولأمانع من ارادة المعينين جميعا ، فالجيش على كثرته سهل القيادة ، ويتصل بعضه ببعض عند الاستعراض .

(حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطركم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) هو واد بالشام يكثر فيه النمل ، أطلق عليه (وادى النمل) لذلك .

يرينا الله تعالى أنه بعد أن جمع لسليمان جنوده الكثيرة ساروا في الأرض ، حتى إذا مروا على وادى النمل ، قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . وهل قالت ذلك لأنها لما رأت الجنود قد أتوا على الوادى فرت منهم ، وصاحت صيحة نهت بها ما يحضرها من النمل إرادها ، فتبعها في الفرار ، فشب ذلك بمخاطبة العقلاء ومناعتهم ، فأجروا مجراهم حيث جعلت هي قائلة ، وما عداها من النمل مقولا لهم - أو أن لأمانع أن يخلق الله تعالى فيها النمل ، وفيما عداها العقل والفهم ؟ قيل بكل . وبدأ المفسر أبو السعود بالوجه الأول ، وكأنه يرجحه ويختاره .

ولنا في حاجة الى ادعاء أن الله تعالى خلق فيها نطقا ، وفيما عداها عقلا وفهما ، مادام سليمان قد علمه الله منطقها وهمه اشها ، فإذا صاحت بما حولها ، وفرت الى جهة غير الجهة التى فيها جنود سليمان ، فقد فهم سليمان من صيحتها وفوارها ما يريد بهذه الصيحة ، وهى هي في استعدادها وخلقتها .

ويظهر أن المفسر قد فهم من قول الله تعالى (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) أنها نطقت بمثل هذه الألفاظ ، لذلك يقول [مع أنه لا يمتنع أن يخلق الله فيها النطق وفي غيرها العقل والفهم] مع أن الراد أنها صوتت بما يفهم منه سليمان ذلك ما تدل عليه الآية غير أنه هل فهمها

سليمان بطريق الفراسة والحدس أو فهمها بالهام من الله تعالى معجزة له .
ذلك هو موضع الكلام في الآيات ، ولم يكن هناك نزاع في أن يتمتع أن يخلق الله فيها النطق
وفي غيرها العقل والفهم أو لا يتمتع .

(لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) جواب الأمر في قوله (ادخلوا مساكنكم) أمر
بدل منه مبين للغرض ، والمعنى لا تنكسوا في المكان الذي أنتم به فيحطمكم ، وقوله (وهم
لا يشعرون) اعتذار عن سليمان وجنوده إذا فرض أن كان منهم تحطيم للنمل ، وكأنها تقول:
لاخوتها من النمل كونوا على حذر من تحطيم جنود سليمان لكم ، وفروا إلى مساكنكم ، لأنه
إذا حطمكم فقد حطمكم بدون شعور ، فأتم الجانون على أنفسهم .

(٤) (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجبا من حذرها وتحذيرها ، وفي الوقت الذي تحذر فيه
قومها تلتفت نظر سليمان إلى أن في طريقه عالما هو أقل منه جسما ، وأضعف استعدادا ، ولا
يليق بسليمان وقد آتاه الله ما آتاه من الملك والسلطان أن ينقل عن ذلك العالم الصغير ، فإنه خلق
من خلق الله ، لا ذنب له في أن خلقه الله ضعيفا لا يستطيع أن يكافح من هو أعظم منه ، ولا حيلة
له في تحويله من الصغير إلى كبير ، ومن الضعف إلى القوة .

تلفتته إلى أنه ينبغي للقوى أن يلاحظ الضعيف ، وللكبير أن يرحم الصغير ، حتى ولو لم يكن
له به كائن مع الانسان . فبالك بالانسان مع أخيه الانسان ، إذا كان للخلق الضعيف حق
على المخلوق القوى أن يرعاه ويحتاطه لحايته ، وإن لم يكن من نوعه ، فحق الانسان على الانسان
في أن يرعى ضعفه ، ويحاطل للإبقاء عليه أولى ثم أولى ، ويحق لسليمان أن يبتسم ضاحكا من
قول النملة هذا ، وتلفتها في الاعتذار عن سليمان ، وأشاعر سليمان بلطف أنه مسئول عن هذه
العوالم الصغيرة التي يمر بها جيشه بعد أن نبه لذلك .

(وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه
وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) .

طلب من الله بعد حديث النملة أن يلهمه شكر نعمته عليه وعلى والديه في أن حشمر له ذلك
الجيش الجرار ، ونعمته عليه بتعليمه منطق الطير ، وفهمه ما تريده النملة من صوتها وفوارها ،
ولم يطلب نبي الله منه أن يلهمه ذلك الشكر فحسب ، ولكنه طلب منه مع ذلك أن يجعله مولها
بذلك الشكر ، معناه به ، لأمه له غيره ، كما تعطيه كلة (أوزعني) فانها تدلّ فوق دلائها على
الالهام - على أن يكون ذلك الشكر بوازع يحفزها إلى الشكر ، ويحضه عليه ، بحيث لا يدعه
وقتا ما بدون شكر لله تعالى ، ولما كان فضل الله عظيما على كل من سليمان وأبيه وأمه قال
(على وعلى والدي) .

(وأن أعمل صالحا ترضاه) أي وأوزعني أن أعمل صالحا ترضاه ، لأن ذلك هو الغاية من
الشكر المعنى ، بل هو الشكر فيكون تفسيره له ، ولذلك يقولون [الشكر صرف البديع جميع
ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله] ويقول الله تعالى (وقليل من عبادي الشكور «١٣» (١))

وقوله (رضاه) إشارة الى أن العمل قد يكون صالحا في نظر صاحبه ولا يكون صالحا عند الله تعالى ، لأنه عمل لم يكن على العلم الصحيح والوحي السماوى ، وهو ما أخذ من مشكاة النبوة ، بل أخذ من طريق التقليد الأعجمى ، واتباع الآباء والأجداد ، كما عليه كثير من مسلمي اليوم ، يأخذون عبادتهم عن مجاز الببوت ، وما عليه القوم ، وفيها كثير من البدع والخرافات ، فلا تهنّب نفوسهم ، ولا تصل بهم الى الغرض من كلّ عبادة شرعها الله على لسان نبيه .

أما الذى يأخذ دينه عن الله تعالى ، ويهتدى بهدى رسوله المصوم ، فيرجع إليه فى أشكال العبادات ، ومعرفة الحلال والحرام ، ويهتدى بشأن العبادة العناية اللاتئة ، فلا يقلد فيها بدون حجة أو برهان ، وانما يأخذها بأدلتها وبراهينها ويسأل أهل الذكر ان لم يكن فى استطاعته أن يفهم ذلك بنفسه - فذلك هو الذى يعمل العمل الصالح الذى يرضاه الله ويحبه ، وإذا أخطأ السبيل بعد ذلك الجهد ، ولم يوفق للصواب ، لأن المسألة التى أخطأ فيها الصواب مسألة اجتهادية ، فهو معذور فى خطئه ، مأجور على المجهود الذى بذله ، لأنه أدّى ما عليه ، وبذل ما يذبني أن يذل المؤمن التقي .

(وأدخلني برحمتك فى عبادك الصالحين) يطلب من الله تعالى أن يدخله فى رحته فى الدنيا والآخرة فى جملة الصالحين للحياتين ، الجامعين بين الصلاحية لعمارة الأرض والصلاحية لآرث الجنة ، وهى السعادة الكامله ، والنور الأكبر .

(هـ) (ونفتحه الطير فقال ما لى لأرى المدهد أم كان من الغائبين) أى تعرف الطيور فلم يجد فيها المدهد ، (فقال ما لى لا أرى المدهد) لأنه حاضر وهو محجوب عنى بستر ؟ أم كان غائبا ولعلك لم يره ، وكأنه يقول أولا : ما لى لا أراه ألسر ستره أو لسبب آخر ؟ ثم بداله أنه غائب فأضرب عنه ، وقال : أم كان من الغائبين .

(لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحه أو لأأتيه سلطان ميين)

يقسم نبي الله سليمان أن لا بد أن يذبح المدهد عذابا شديدا ، كسيف ريشه وجهه مع ضده فى قفص ، أو لأذبحه ليعبر به غيره ، إلا أن يأتيه بحجة تبين عفره فى تلك القبية (فكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين) أى فكث المدهد مكانا غير طويل فلما رجع سأله عما لقي فى غيبته (فقال أحطت بما لم تحط به) علمت ما لم تعلم . ولما كان الذى يعلم الشئ من جميع نواحيه يحيط بذلك الشئ عبر عنه بذلك ، وفى الآية دليل على أن الأنبياء تخفى عليهم أمور يعرفها غيرهم ، وذلك ليعرف الناس أقدارهم ، وليعلم الانسان من كل أحد ، لأن سليمان لم ير بأسا فى أن يتعلم من طريق الهدد ، وهو ذلك الطائر المعروف ألهمه الله فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة ، والاحاطة بالمعلومات الكثيرة لينبه الله تعالى على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحيط به ليشتاغر إليه علمه وتتحاقر إليه نفسه ويكون ذلك لطفا به فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء ، وأعظم بها من فتنة .

فاذا كان سليمان لم يعرف أحوال سبأ وملوكها . وقال له الهدد (أحطت بما لم تحط به) فلماذا

يأتف الانسان أن يتعلم من أخيه الانسان ، وإن كان أصغر منه سناً ، أو دونه في الوجاهة والمكانة وفي الحكم المشهورة [الحكمة صالة المؤمن يأخذها أتى وجدها] وذلك اكبار لشأن العلم ، واعلاء لمزله ، وأى اكبار أعظم من أن نرى الله سليمان يأخذه من طير من الطيور ، ويتلقاه من نوع غير نوعه ، ولا يرى غصاة على نفسه في ذلك ، ولعل الناس يظنون لهذا فيكبرون من شأن العلم كما أكبره سليمان ، ويهتمون به كما اهتم به سليمان ، ولا سيما العلم المتعلق بأحوال الممالك والأمم . (وجئتك من سبأ بنأ يقين) أى بنجر محقق ، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان كما يقول المؤرخون نسبت إليه القيلة .

(انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ . ولها عرش عظيم) بيان للنسب المتعلق بسبأ ، والمرأة هى بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب ، والضمير فى تملكهم لسبأ (وأوتيت من كل شئ) يحتاجه الملوك (ولها عرش عظيم) سرير كبير (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) فكانوا يعبدونها ، وعبر عن العبادة بالسجود لأنه أظهر أشكاهما (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من عبادة الشمس وغيرها من الأفعال والاعتقادات (فصدم عن السبيل) أى سبيل الحق والصواب (فهم لا يسمعون) إليه .

(أن لا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) بدل من (أعمالهم) يبين المراد بها : أى زين لهم الشيطان أعمالهم ، وهى عدم سجودهم لله تعالى ، أو مفعول لأجله : أى زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا لله ، وقرىء (ألا يسجدوا) بالتحفيف فتكون (ألا) للتنبيه ، وبأحرف نداء ، والنادى محذوف : أى يقوم اسجدوا لله الذى يخرج الخبوء والغائب فى السموات والأرض ، من نبات وأمطار وغيرها ، والمراد أنه فعلى يخرج للناس ما كان خفياً عليهم ، فالنبات قبل أن يولد كان خبأ فى الأرض فأظهره الله وأخرجه والأجنة فى بطون أمهاتها كانت كذلك ، فأخرجها الله وأظهرها ، وأنتم خلقها وورثها ، والكواكب تخفى فى النهار ثم يخرجها الله تعالى فى الليل ، ويظهر ضوءها للعالم ، والشمس تخبى عن طائفة بالليل وتظهرها بالنهار ، والأمطار يخرجها الله للعالم ويزلها من جهة العلو فتنتفع بها الناس (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) أى مع إخراجه الخبء يعلم ما تخفون وما تعلن ، والآله الذى له هذه الآثار ، وله العلم المحيط هو الذى يستحق أن يعبد .

أما الشمس التى يعبدها ذلك القوم فهى خلق من خلق الله تعالى ، وآية من آيات قدرته وعظمته ، فإذا كانت عظيمة النوائد ، كثيرة النافع ، فذلك لا يجعلها أهلاً لأن تعبد ، والذى يستحق العبادة الآله الذى خلقها ، وأعدّها لما خلقت من حكم ومصالح ، وذلكه ذلك التذليل (ومن آياته الليل والنهار والشمس والنمس وانتم لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون «٣٧» (١)) .

(الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم) أى إن الذى يستحق السجود ، ويعلم الخبء ،

ويعلم مانعني وما نعلم هو الله ، وهو الذي لا يستحق العباد غيرة ، وهو رب العرش العظيم ، وقد نكر عرش بلقيس ، وعرف عرش الله تعالى ايذاناً بالفرق بين العرشين ، وأى مناسبة بين عرش امرأة بالين ، وعرش إله له مافي السموات ومافي الأوض وما بينهما ؟ ان عرش الخالق وان عظم هو عرش محدود في زمانه ومكانه ، وسلطانه ، ومهدد بعروش آخر .

أما عرش الله تعالى فهو فوق العروش ، وسلطانه فوق كل سلطان ، هو عرش من يده ملكوت كل شيء . له الآخرة والأولى ، السموات والأرض على كبرها ، وعظم ما فيها من أنهار وبحار ، ونبات وأشجار ، وحيوان وانسان ، وكواكب سيارة ، وأخرى واقفة ، وعوالم قد ملأت هذه الكواكب - كل أولئك خاضعة لله تعالى ، مسخرة لسلطانه وقدرته .

فأين عرش بلقيس من ذلك العرش ؟ بل أين عروش القياصرة الأكسرة من ذلك ؟ وأين عرش أكبر ملكة في الأرض من عرش الله تعالى ؟ أليس صاحب ذلك العرش هو مالك الملك وهو الذي يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ؟ أليس أصحاب العروش جميعهم خاضعين لسنه ، مسخرين لارادته طائعين أو كارهين ، أليس هو مالك الأرض يورثها من يشاء من عباده وجعل العاقبة للمتقين الذين يقون أنفسهم بما يبيدهم ملكهم ، ويتقوض سلطانهم .

(٦) (قال سنظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) يريد سنختبر أمرك ، ونمتحن قولك ، لنعرف صدقك أو كذبك ، لأن ذلك شأن الملوك المدبرين ، لا يأخذون القول بالتسليم بدون حجة أو برهان (اذهب بكتابتك هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون) حله سليمان كتابه ، وأمره أن يلقه إليهم ، وأن يتولى عنهم بعد الالتقاء فينظر ماذا يقول بعضهم لبعض في شأن ذلك الكتاب ؟

(قالت يا أيها الملك) إلى ألقى إلى كتاب كريم) هو إنجاز على طريق القرآن ، وهو أن يحذف الجلة لأن في الكلام ما يدل عليها ، وكأنه يقول فذهب الهدهد بكتاب سليمان ، وألقاه إلى بلقيس فتلقته رجعت أشرف القوم وأصحاب الرأي ، وقالت (إني ألقى إلى كتاب كريم) الخ .

(إنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لاتعوا على واتنوني مسلمين) وقد وصفت الكتاب بالكرم الكرامة مضمونه ومرسله ، ولترابة شأنه ، لأن طريقه الهدهد ، وذلك غير مألوف للقوم ، وقد عرفت أنه من سليمان لأن اسمه كان عليه .

أما نص الكتاب فهو الجل الثلاث : [الأولى] بسم الله الرحمن الرحيم . الثانية (أن لاتعوا على) ومعناه لاتتكبروا ولا تتعاطفوا على الأجابة . الثالثة (واتنوني مسلمين) بيان للفرص من الكتاب ومعناه متقادي لله طائعين .

(قالت يا أيها الملك) أفنوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) لجأت إلى أشرف قومها وأصحاب الرأي ، وقالت لهم : أفنوني في شأن ذلك الأمر الطارئ ، وأشيروا على فيه ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تعضرون ، ويظهر أن ذلك كان رسالة منها إليهم تدعوم فيها للاجتماع ليقشاوروا في الأمر ، ويقينوا وجه الصواب فيه ، شأن الملوك أصحاب العقل الراجح ، والتفكير

الترن ، لا يستغلون بشئون الدولة ، ولا يستقون في تصرف الأمور ، لأن رأى الجماعة فوق رأى الفرد ، وعقول مجتمعة أرفع من عقل واحد .

ومنه نعلم أن مبدأ الشورى في الحكم مبدأ قديم ، قد اهتدى إليه الناس في عصورهم الأول ، وعملوا به في القرون القديمة ، لأن فائدته واضحة ، ونجربه جلية لا يختلف فيها اثنان . ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية باعتباره أصلاً من أصولها في سياسة الدولة ، وقاعدة من قواعدها في المصالح العامة ، فأمر الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يستشير أصحابه في الأمر الذى يعرض له ولهم كالحرب والسلام ، وعقد المعاهدات ، وما إلى ذلك (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) ثم قال له بعد هذا (فإذا عزمته فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين ، ١٥٩) (١) أى بعد أن تعد العدة للأمر ، وتسحه من جميع نواحيه ، وصممت بعد ذلك على الامضاء ، فلا يحول بينك وبينه تثبيط أو تشكيك ، لأن الرد لا يلبق بأصحاب العزائم الصادقة ولا رادة القوية ، وكذلك التسرع والشروع في العمل قبل استيفاء بحثه ، واستكمال ما يلزمه من معدات . وقد كان ذلك شأن النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فيما يعرض له من حوادث ، وما يقع من مشاكل ، وهذا أحد الصحابة الحباب بن المنذر في غزوة بدر وقد نزل المسلمون في مكان يستعدون فيه لمنازلة المشركين ، يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أعذا منزل أنزل الله حتى لا نجد عنه أم هو الرأى والمكيدة ؟ فيقول له بل هو الرأى والمكيدة ، فيقول الحباب : أنزل بنا منزلاً آخر وكان أصلح للسامين ، فزلهوا هذا المكان وكان فيه النصر والظفر .

لنعلم أن الأمر مادام شأناً من الشئون العامة التي تختلف فيه الأنظار ، ووجهة النظر ، يدنى أن يستشار فيه ، أما ما كان من باب العقائد أو العبادات ، أو ما يشبه ذلك ، كتجليل الحلال وتخريم الحرام ، فالأمر فيه موكول الى الوحي السامى ، واللقى عن الله تعالى ، ولذلك يقول الله تعالى ليبحث السامعين على أن يرجعوا في أمورهم العامة لأهل الرأى (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعنه الذين يستغيثونه منهم) ثم يعقب ذلك بما يدل على فضل الله علينا بذلك الارشاد فيقول (ولولا فضل الله عليكم ورحته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ٨٣) (٢) .

وأبلغ من الأمر بالشورى أن الله تعالى جعلها من صفات المؤمنين الذين يستحقون ثواب الله وجزاءه الحسن إذ يقول (فما أوتيتهم من شئ . فتعاضدوا على الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ٣٦) . والذين يحتجبون بكثرة الآثم والفواحش وإذا ما غصوا بهم بغفرون « ٣٧ » ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم وبما رزقناهم ينفقون « ٣٨ » والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون « ٣٩ » (٣) فأخبرنا أن الشورى شأن من شئون المسلمين ، وخلق من أخلاقهم ، كتركهم للآثم والفواحش ، وعفوهم عن ظلمهم ، واستجابتهم لربهم وخالقهم ، وصلاتهم وزكايتهم ، وانتصارهم إذا اعتدى الناس عليهم .

وكان ذلك الأسلوب أبلغ في الحث على الشورى لأنه يريك أنه الأمر الواقع في أمور المسلمين

وليس من شأنهم أن يتركوه ، ولا فرق عندهم بين طاعة أمر الله تعالى في الصلاة والزكاة وبين طاعة أمراء في الشورى .

فإذا كانت بلقيس قد عرفت فائدة الشورى بنظرها وتجاربها ، فإن الاسلام قد جعلها مبدأ من مبادئه ، وأصلا من أصوله في سياسة الدولة ، وتدير الأمور العامة ، أمر بهارسوله على أنه أكبر أصحابه عقلا ، وجعلها شأنا من شئون المؤمنين ، وخلفا من أخلاقهم كصالحاتهم وموهمهم وقد عرف النريون قيمة هذه المبادئ فأقاموها في بلادهم ، وحرصوا على مستعمراتهم ، وإن سمحوا بها للشعوب فأنما يسمحون بها مبتورة مقصورة الجناح ، حتى لا يستطيع القوم أن يقتنعوا بها ، ويجنوا ثمرتها .

وقد عمل بها المسلمون في قروهم الأولى . فانتفعوا بها وسادوا العالم ، عمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدر ما تحتمله حال المسلمين في ذلك الحين ، وكذلك فعل خلفاؤه الراشدون من بعده ، ومن ذلك استشارة أبي بكر فيمن يلي الأمر بعده ، وجعل عمر الشورى في نقر عينهم من الصحابة : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبد الله ، وكان أولئك نفرهم أهل المكانة الذين تخضع الأمة لأمرهم .

وجعل اختيار من يخلفه في الإمارة إلى هؤلاء النفر .

مضى المسلمون على ذلك المبدأ إلى أن أعرضت بنو أمية عن الشورى في عهد عثمان ، واستأثروا بالامارة عليه بما يرونه ، فكان ما كان من النفع . حتى استقر الأمر فيهم بقوة العصية لابل الشورى .

(٧) قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) كأنهم يشيرون بأن لا يخضعوا لسلطان ، لأنهم أصحاب قوة ، وأصحاب بأس شديد ، ثم تأذروا معها ، وقالوا والأمر إليك على عادة المشير إذا كان مرسوا لمن يسفشره ، ومن الناس من يفهم أن المعنى أنهم قوم حريون ، ليسوا من أهل الرأي والمشورة ، بل هم جند مطيع ، لم يتعودوا أن يعطوا رأيا في مثل ذلك الحادث ، وهو بعيد ، فانه فضلا عن أنه تسقى لبلقيس في توجيه الاستشارة إليهم ، وتعرض بفتاوتها ، وعدم علمها بمن تحت سلطانتها هل هم أهل حرب أم أهل رأي - لا يتفق مع قولها (ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) فانه ظاهر في أنهم مجلس الشورى ، وأهل الرأي والتفكير ، ولذلك خاطبتهم بقولها (يا أيها الملأ) وهم أشراف القوم وخاصتهم .

ويدل لصحة الرأي الأول في الآية قولها لهم بعد أن اعتزوا بقوتهم (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) فهي تقول لهم : إن سليمان إن قاتلناه ربما دخل بلادنا فأفسر بالأفئس والأموال ، والقرى والضياع .

(وكذلك يفعلون) أي إن هذه صفة الملوك الناعمين ، وهو الحاصل الآن في بلاد المسلمين على يد من استعمرهم من الفرنجة ، أذلوم وقهروهم ، وجعلوا أعزة القوم أذلة ، وأدنياء الدوس أصحاب الحول والطول ، وفاسدى الأخلاق الميمين على هذه الشعوب .

وكأنها تقول لهم : نحن على مالنا من قوة ، وما عندنا من بأس وشدة ليس من مصلحتنا أن ندخل معه في حرب ، ويظهر أنها اضطربت لكتاب سليمان على اختصاره ، وفزعت من أسلوبه على سهولته ، إذ رأت في كتاب سليمان أنه يدعو باسم الله تعالى ، ثم يعقب بقوله (أن لاتصلوا على واتوني مسلمين) ففهمت أن سليمان ملك لا كالملوك ، ملك مؤيد من الله الذي يستعينه في أموره ، ويصدر امره في مكائباته ، فرأت أن لاتدخل مع ذلك الملك في حرب ، ولاتشفيك معه في قتال ، وقالت لقومها : إذا وقفنا من ذلك الملك موقفا معاديا فربما فتح بلادنا واستولى على خيراتنا ، وكان معه جيش فاتح ، ومن شأن ذلك الجيش أن يفسد الحرت ويحرب القرى ، ويحصل العزير من القوم ذليلا ، والكبير ضيرا .

لذلك رأت أن تتقدم لقومها برأى يدل على عقلها الراجح ، وتذكيرها للذين ، هو أن ترسل الى سليمان هدية ، من شأنها أن تستوى النفوس ، وتلك القلوب ، فان كان سليمان ملكا مؤيدا من الله تعالى رد الهدية ، وان كان من ملوك الدنيا ولازم له إلا المال قبلها ، وهناك نقيض قوته المعنوية ، ومقدار ما عنده من عزم وحزم ، ثم يكون لما شأن آخر بعد تبين حاله ، ووضوح اسمه .

وقد وافقها الملك على ذلك الرأي ، وبعثوا بالهدية الى نبي الله سليمان .

(٨) فلما جاء سليمان قال أعمدوني بما جاء آتاني الله خير مما آتاكم بل أقم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) أى فلما جاء رسول بلقيس سليمان يحمل الهدية غضب سليمان ، وقال منكرا لملك العمل (أعمدوني بما) وهل أنا من طلاب المال الذين يشتون به ؟ وذلك هو للنظر من نبي كنى الله سليمان ، لا قبل رشوة في سبيل سكوته عن مطالبته بالاسلام ، وتركها بدون أن يدعوها الى الله تعالى .

(فما آتاني الله خير مما آتاكم) لأن الله أعطاه ملكا ونبوة ، أما هم فأعطوا ملكا لم يكن معه نبوة ، أو المعنى فما آتاني الله من فيض رحمته ، وواسع فضله في العلم والحكمة : خير مما آتاكم من المال ، لأن المال عرض زائل ، أما ذلك الفضل الوافر ، والرحمة الواسعة ، ورزق الله المعنوي فهو خير من رزقكم الحسى ، وقد فطن الناس بالمال منذ خلقه الله ، وظنت بلقيس أن سليمان ممن فطن كبقية الناس ، ولذلك أرسلت إليه بهدية لتتظر ماذا تتركه في نفسه من الأثر ، والى أى حد تؤثر عليه وعلى دعوته ، وهل تلك الهدية تكون مدعاة لسكوته عن الدعوة ، واعراضه عن الفتح الذى أرسل الى الكتاب تمهيدا له ، أو هو سيقابل المال كما يقابله به أصحاب النفوس العالية . يقابله بالرفض والتعفف ، والاباء والعظمة ، كل ذلك من أغراض ملكة سبأ .

فلم تجد من سليمان سوى هذه الكلمة النالية (فما آتاني الله خير مما آتاكم) .

ويجنى لكل مصلح أن يقول هذه الكلمة كلما عرض عليه رشوة ، أو تقدم البطل إليه بمرض من الأعراض الزائفة ، فإذا عرض الناس عليه منسبا ليتلهم به عن دعوته ، ويسكت به عن مبادئه ، ويطيع به داعي الهوى فيقبل كما قال سليمان (فما آتاني الله خير مما آتاكم) لأنه أعطى خفا عظيم ، وعقيدة صالحة ، وأصبح منارا يهتدى به السائرون ، ويستضيء به الضالون ، أعطى علما قد جهله

الناس ، وخلصا قويا متينا ، نعم إذا طوبى المصلح أن يسكت عن إصلاحه ، وأن يتغافل عن أخلاقه ومبادئه في سبيل وظيفة أو مال ، وسواء أكانت تلك الوظيفة متعلقة بشخص أو بأحد أولاده وأسرتة - إذا طوبى المصلح بشئ . من ذلك فلا ينسى ما قاله سليمان لأمرأى بلبس (أعمدون بحال فما آتاني الله خيرا آتاكم) .

وكثيرا ما يلجأ المستعمرون الى ذلك النوع من الرشوة ، وهذا الأسلوب من تلك قلوب الناس فيفسدسون القوم ، ويعترفون المنصر للتحرك الذى من شأنه أن يقض مضاجعهم ، ويؤلب عليهم فيسأومونه على الوظيفة ، ويتناعون شرفه وكرامته بدرهم معدودة ، فمن كان همه المال أجابه الى ما طلبوا ، ومن كانت دعوته خالصة أثر الفقر على الفنى ، وأنى أن يقبل ذلك ، وقديوته الصالحة ، وأسوته الحسنة : نبي الله سليمان ، إذ يقول للملكة سبأ (فما آتاني الله خيرا آتاكم) وإذا كان نبي الله سليمان أنكر على القوم أن يقدموا له رشوة حتى يسكت عن الدعوة ، ويتنازل عن طلبها الى الاسلام ، فان الله تعالى يخبرنا أن كثيرا من الأخبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، وكان ذلك أكلا بالباطل لأنهم يأكلونها باسم أنهم رؤساء دين ، يعلمون الناس ما يحتاجون ، ويرشدونهم الى دين الله الصحيح ، وتعاليمه الحقة ، ولكنهم يأكلون هذه الأموال . ويكتمون عنهم تعاليم الرسول ، ولذلك يقول (اشترؤا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون «٩» (١)) .

وقد أخذ الله الوثائق والعهود على الذين أوتوا الكتاب ليبينه للناس ولا يكتُمونه ، فكان منهم أن نبذوه وراء ظهورهم واشترؤا به ثمنا قليلا ، هو ذلك المال الزائل ، والخطوة عند الملوك والأمرأى .

وما أشبه ما يصنع أولئك الأخبار والرهبان بما تدعو إليه ملكة سبأ نبي الله سليمان ، غير أنها كانت لفة ، فسأقت من المال ماساقت باسم الهدية ، وما هي إلا رشوة ، ولا فرق بينها وبين هدية تقدم للتقاضى من رجل له خصومة عنده ، وهل يشك أحد في أن الهدية التي تساق على ذلك الوجه هي رشوة مقبعة ، تقدم للتقاضى لتوجهه الى الناحية التي يريد صاحب الهدية .

إذا كان نبي الله سليمان أنكر على ملكة سبأ ما صنعت ، فان الله تعالى قد ذم طائفة من أهل الكتاب بأنهم (سمعون للكذب أكلون للسحت) وهو الذى يجب على صاحبه عارا بسحت دينه ومروته ، ويذهب بأخلاقه وكرامته ، وقد أطلقوا على الرشوة سحتا لأنها تجعل صاحبها في هذه العزلة ، وكان يبنى للرابانيين والأخبار أن يكفوا الشعب عن أكل السحت وتناول المحرم ، ولكنهم مع الأسف وقع كثير منهم في ذلك البلاء ، وأصيب بفتنة المال ، فقبالوا الرشوة ، وأكلوا مال الناس بالباطل ، وكتبوا شيئا من الدين في سبيل إرضاء الرؤساء وأصحاب السلطان ، ولا ينظر من ملوث بذلة من الرذائل أن ينهى الناس عنها .

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرشوة بعد نهى القرآن عنها فيها قدمناه ، فقال فيما رواه أبو داود والترمذى « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشئ والمرتشئ » .

وقال فيما رواه الطبراني « الراشئ والمرثئ في النار » .

فاذا كان الراشئ والمرثئ طريدين من رحمة الله ، بعيدين عن رضوانه ورحته ، فكيف يقبلها نبي الله سليمان ؟ وكيف يأخذها من ملكة سبأ في سبيل أن يسكت عن دعوتها إلى الدين وحملها على المدخول فيه ؟ ؟ .

لم يقف سليمان عند ذلك الحد من الإنكار ، بل أرانا أن هناك فرقا بين ملكة سبأ وبين سليمان ، هي أنها تفرح بمثل هذه الهدية إذا قدمت لها ، وتأثر بها إذا هي سقت إليها (بل أتم بهديتكم تفرحون) أما هو فلا يفرح بالمال وإنما يفرح برضا الله عنه وتفضله عليه ، ورعايته بالاحسان تلو الاحسان ، وذلك شأن الرسل الذين اختارهم الله لتبليغ دينه ، وإعزاز كلمته .

وقد أباال المفسرون في بيان الهدية وما حوته ، وندع هذه الروايات جانبا ، لأنه يصعب إقامة الدليل على صحتها ، ولأن فهم الآية لا يتوقف عليها ، وكل ما تقيده الآية أنها هدية ملوك يراد بها التأييد على سليمان ، وتحويل وجهته ، واختبار مكاته ، وهل هو ملك مؤيد من الله تعالى أو ملك كبقية الملوك ؟ .

ومن شأن الهدية التي لها هذه الصفة ، ويراد بها ما أريد من هذه الهدية ، أو من شأن الرشوة التي تقدم من ملكة إلى ملك أن تكون عظيمة . أما نوع العظمة فلنسا في حاجة إلى بيانه أو تفصيله ، فاذا صحت فيه رواية فيها ، وإن لم تصح فلاية ليست في حاجة إليها ، ولو كان في بيانها عبرة لفصلها الله لنا .

(٩) (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) .

قد غضب نبي الله سليمان من ذلك العمل ، وتأثرت نفسه بما صنعت بلقيس ، وكأهاتهمه في دينه ، وتحدثه في كرامته وخلقه ، وفهمت أنه مستعد في الجلة لقبول الرشوة ولذلك أقدمت عليها ، وكان من آثار غضبه لديه وكرامته أن قال للرسول (ارجع إليهم) والمراد بلقيس وقومها (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) أي لا طاقة لهم بمقاومتها ولاقدرة بهم على مقاتلتها (ولنخرجنهم منها أذلة) أي من سبأ لاعز لهم (وهم صاغرون) أسرى مهانون .

(قال يا أيها الملاء أياكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين) أراد أن يرهبها آية تدل على أن ما أعطاه الله من الملك فوق ما أعطاهم ، وأن ملك الدنيا في جانب عجائب الله وبديع قدرته يسر ، والعرض كرمي الملك ، عرض على الملاء من جنوده ذلك السؤال ، ووجه إليهم ذلك الطلب ، وهو (أياكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين) وهل أرسل لهم جيشا كما وعد وهو يعلم أنه سيظفر بهم ويتقلب عليهم فيأتونه مسلمين خاضعين ؟ أو أن القوم لما عرفوا أن سليمان ملك موحى إليه ورفض الرشوة أذعنوا له وصمموا على أن يجيشوه وقد علم ذلك بوحى من الله تعالى أو من طريق غير الوحي ؟ الآية تحتل الأمرين .

(قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين) .

العفريت : الخبيث المتمرد : أي إن ماردا من مرمة الجن قويا قال لسليمان أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه . والمراد آتيتك به بسرعة ، وإني على حله لقوى أمين على

ما فيه من الجواهر فلا أخفى منه شيئا ، والجنّ عالم خفيّ قد يستطيع أن يراول من الأعمال فوق ما زاول نحن ، وستكشف الأيام كيف أن العفريت من الجنّ يستطيع نقل عرش بلقيس من اليمن إلى ملك سليمان بفارس : بل قال بعضهم إن علم استحضر الأرواح قرّب لنا هذه المعجزة وأرانا أن من الأرواح ما يستطيع نقل الأمتعة من مكان إلى مكان .

(قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) .

اختلف المفسرون في المراد من (الذي عنده علم من الكتاب) قيل : هو آصف بن برخيا كاتب سليمان وكان صديقا علما ، وقيل : جبريل ، وقيل : ملك آخر أيد الله به سليمان ، وقيل غير ذلك . والظاهر من كلمة (الذي) أنه كان معروفا عندهم ومن مقابلته بعفريت من الجنّ أنه لم يكن متمردا عاتيا ، بل كان من أهل العلم بالكتاب .

وقد أوجّل الله (الكتاب) ولم يبين المراد منه ، أهو الكتاب المنزّل : وهو التوراة ؟ أو جفّس الكتاب الشامل للتوراة وغيرها من الكتب ؟ أو المراد بالكتاب الكتابة ؟ الآية تحتمل كلّ ذلك ، فإذا كان المراد به جبريل أو ملك آخر فلا غرواية أن يكون عنده من القوة على نقل عرش بلقيس ما لم يكن عند غيره ، وإذا كان رجلا من الانس فتكون قدرته على نقل ذلك العرش كرامة له ومعجزة لسليمان أظهرها الله تعالى على يد واحد من تابعيه ، وإن كان ذلك على غير العروف في المعجزات : وهي أن تكون على يد الرسول نفسه ، ومهما يكن من شيء فانا نؤمن بما جاء به من كتاب الله ، ونضع تفسير هذه الخوارق للأيام نكشفها ، ولا نحملها من التأويل فوق طاقتها .

والظاهر من عرض (الذي عنده علم من الكتاب) على سليمان أن يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه أنه أقوى وأعلم من عفريت الجنّ بذلك العمل ، ولذلك استطاع أن يعده بالآينان به في أقلّ زمن ، وأن سليمان رضي به ناقلا للعرش .

(فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبارك في ما أكره ومن شكر فأنما يشكر نفسه ومن كفر فإن ربي غنيّ كريم) .

أي فلما رأى سليمان العرش حاضرا بين يديه قال : هذا من فضل ربي ، ومن حوله وقوته ، لا من حولي وقوتي ، ليختبرني بهذه النعم التي يقدمها إليّ ، «أشكره عليها أم أكفره ، ومن شكر الله أو للنعمة فأنما يشكر لنفسه ، لأن ثواب الشكر راجع إليه ، ومن كفر النعم فإن ربي غنيّ عن شكره ، كريم بالانعام عليه (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد «٧» وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لتنتي حديد «٨» (١)» .

(قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون) نكروا لها عرشها بتغيير هيئته وشكله ، لاختبر بذلك العمل ذكائها وعقلها ، ونمتحن استعدادها ، وهل تفطن لأن ذلك الذي نكروناه عرشها تقدّمها وقد تركته مغلقة عليه الأبواب ، موكّلة عليه الحراس ، ومتى عرفت أنه عرشها كان ذلك داعية لا يمناها ، لأن للمعجزة في نقله مقرونة بسبقه لها إلى سليمان ،

فاذا فطنت لذلك عرفت أن سليمان استطاع بجنوده ما لم يستطيعه ملك من ملوك الأرض فيكون ملكاً ونبياً .

(فاما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو) أى فلما وصلت ملكة ساً عرض عليها ذلك العرش الذى تركته ، ووجه إليها ذلك السؤال ، ولم يقل (أهكذا عرشك) لئلا يكون تلقينا للجواب وقد كانت لبقه فأجابت إجابة صرته ، وقالت (كأنه هو) لأن هناك احتمال أنه هو ، وأنه ليس هو (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) هو من كلام بلقيس تتحدث عن نفسها بنون العظمة التى تعودها الملوك .

والمراد أنها أوتيت العلم بكامل قدرة الله تعالى ، ومحة نبوة سليمان من قبل هذه المعجزة ، وكنا خاضعين لأمر الله تعالى ولأمر سليمان (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) أى منعها سليمان ، أو صدها الله تعالى عما كانت تعبد من دون الله ، وحال بينها وبينه (إنها كانت من من قوم كافرين) أى نشأت بين قوم يعبدون الشمس .

(قيل لها ادخلى الصرح) القصر (فلما رأت أنه حسبته لجة وكشفت عن ساقها) أى ظنت أن ذلك القصر لجة من الماء ، وكشفت عن ساقها لئلا تبطل (قال إنه صرح عمود من قوارير) أى ما نظيه ماء قصر محلى من زجاج ، وليس بماء ، فستر ساقها ، وعجبت من ذلك ، وعرفت أن ملك سليمان فوق ملكها ، وعظمت أيست كعظمتها .

(قالت ربّ إني ظلمت نفسي وأسأت مع سليمان لله ربّ العالمين) ظلمت نفسها بالكفر ، وظلمتها بعرض الرشوة على نبي كهذا ، وخضعت مع سليمان لله ربّ العالمين .

داود وسليمان عليهما السلام

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰحَبِيبُ أُوتِىَ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ الْخَدِيدُ «١٠»
 إِنَّ أَعْمَلَ سَافِرٍ (١) وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صُلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١١»
 وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ (٢) وَمِمَّنْ أَلْجِنُ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ «١٢»
 يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ (٣) وَتَمَثَّلَ (٤) وَجِفَانٍ (٥) كَالْجَوَابِ

[١] رجبى منه الفسبح . [٢] أى دروفاً واسمات « وقدر فى السرد » أى اجعل نسج الدروع

بقدر ونظام . [٣] التحاسى المناب . [٤] قصور حصينة .

[٥] جمع جفنة ، وهى القصة ، والجوابى : جمع جاية ، وهى الخوض الكبير الذى يجي ويجمع فيه الماء .

وَقُدُّورٍ^(١) رَاسِيَتِ أَعْمَلُوا، أَلِ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ^(٢)
فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ^(٣)
فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْمَذَابِ
الْمُؤَيَّنِ «١٤» سَأَ

شرح وعبرة

(١) (ولقد آتينا داود منا فضلا بإيجال أوتي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابقات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير) .

يرينا الله بهذه الآيات أنه أعطى داود من لئنه فضلا ثم شرح ذلك الفضل بقوله (بإيجال أوتي معه والطير) أى رضى معه التيسيح كما قال في سورة الأنبياء (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) .

ثم بين فضلا آخر عليه بقوله (وألنا له الحديد أن اعمل سابقات وقدر في السرد) وقد تقدم الكلام على إلهة الحديد لئنه داود، وأن ذلك معجزة أو آتانه له من طريق الصنعة كما قال (وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحسبنكم من بأسكم) كما في سورة الأنبياء ، وأن الآية تحتمل الأمرين . وقوله (أن اعمل سابقات) تفسير لقوله (وألنا له الحديد) . والوارد أنه يعمل دروعا تستر جسم الرجل في الحرب ، أو تستر الكنان الذى هو معرض للاصابة ، فلا تكون ناقصة (وقدر في السرد) أحكم نسج السروع واجله بقدر كما قال (إنا كل شيء خلقناه بقدر «٤٩»)^(١) . وقال (وكل شيء عنده بمقدار «٨»)^(٢) .

(واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير) إرشاد الى إصلاح دينهم بعد أن أورد لهم الى إصلاح دنياهم ، يرينا به أن الانسان فى حاجة الى الأمرين جميعا ، فبستند لئنه حتى لا يكون عرضة للأحداث والظوارى ، ويصلح من دينه حتى يقوى بذلك إيمانه ، وتهذب نفسه ، ويصبح خيرا لنفسه ولأقننه ، وللانسانية جميعا .

فانه تعالى يرينا بذلك الارشاد الذى قدمه لداود ومن معه أنه فى حاجة الى الأمرين : أمر الدنيا وأمر الآخرة ، وأن من عمل للدنيا فاستعد لطوارئها ، وتوفى شرها ، واجتهد فى خيراتها ، ثم قصر فى أمر الآخرة أعطاه الله من الدنيا ما عمل له ، ووصله إلى ما يريد ، ثم جعل له جهنم جزاء فى الآخرة (و) كذلك (من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) فان الله يعطيه ثواب العاملين (من) كان يريد العاجلة علمنا له فيها ما نشاء لمن يريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما

[١] جمع قدر ، وهو ما يطبخ فيه اللحم ، و « راسيات » ثيابات فى أماكنها لظلمها .

[٢] عصاه و « خر » وقع . [٣] القبر . [٤] الردع .

محدحورا «١٨» ومن أراد الآخرة وسمى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا «١٩»
 كلاً تمت هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا «٢٠» (١) . وقال (من)
 كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثمه منها وما له في الآخرة من
 نصيب «٢٠» (٢) .

هذه سنة الله مع خلقه ، يعطي الدنيا من عمل لها أيا كان دينه ونحلته ، ويعطي الآخرة
 كذلك من يسعى لها ، وطلب من المؤمن أن يعمل لدنياء وأخراه ، لأن الدنيا منعمة للآخرة ،
 ولذلك يقول الله وهو مبين وصية قوم قارون له (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك
 من الدنيا «٧٧» (٣) .

وأمرنا بالعمل لطلب الرزق ، وأن نمشي في مناكب الأرض ، وأن نتشر في الأرض ونبتغي
 من فضل الله ، كما أمرنا أن نعتد لأعدائنا كل ما استطعناه من قوة معنوية أو مادية ، وأن نأخذ
 حذرنا ولا نتخذ بطانة من دونا - كل ذلك لنعيش في هذه الحياة عبثة الأعزاء ، لا عبثة
 النمل والخوان .

فإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه داود أن يعمل دروع الحرب ، وأن يكون حكما في صنع هذه
 الدروع ، ثم أمره بعد ذلك وأمر قومه أن يعملوا صالحا فذلك لأنه يريد منهم أن يكونوا صالحين
 لدينهم ودنيائهم ، سعداء في حياتهم الأولى والثانية ، حامين لحقيقتهم ولحقهم ، وذلك هو شأن
 المؤمن ، وكذلك دين عامة الرسل . كلف الناس به ليعيشوا به عبثة السعادة ، ويجمعوا به بين
 خيري الدنيا والآخرة ، فلم يكن بدعا أن يكون دين خاتم الرسل دينا يبحث الناس على العمل
 للدنيا والعمل للآخرة ، وعلى كل مسلم أن يحرص على الأمرين : أمر دينه وأمر دنياه ، وأن
 الذي يخرط في أحدهما هو رجل أحمق ليس من العقل في شيء .

وكذلك الأمة التي تعنى بأمر دنياها وتظن أنها ليست في حاجة إلى أمر الدين ، هي أمة جاهلة
 فان أقل ما في الدين خلق قويم ، لا غنى للأنم عن الخلق ، ومن ناحية أخرى ، فان الأمم التي لم
 يكن لها وازع نفسي يصممها من المنكرات والفواحش لا يمكن أن يصممها قانون ، أو تتأدب من
 طريق الحكومات ، وهذه سلسلة الجرائم تزداد كل يوم في أمم العالم المتدنيين ويتفاقم شرها يوما
 بعد يوم ، والقوانين تقف أمام هذه الجرائم مكتوفة الأيدي ، وبرهنت الأيام على فشل هذه
 القوانين ، وضعفها عن القيام بهمة التهذيب العام .

وان الفرق بين سلطة القانون وسلطة الدين تريك أنه لاغنى للناس عن الدين ، ذلك أن
 الدين حارس يلزم صاحبه ، وشعور بوازع نفسي يهيمن على الرجل الدين ، ولا يستطيع صاحب
 ذلك الخلق أن يتخلص منه إلا بإرضائه والوقوف عند ما يريد ، فإذا همت نفسه بفاحشة من
 الفواحش سمع صوتا خفيا من ضميره يناديه لاتفعل ، ويذكره بما يعقب ذلك الفعل من ضياع
 خلقه وذهاب كرامته ، وإغضابه لربه وخالقه ، وأن ذلك الوازع لا يفرقه في غيبة الناس ولا في
 حضورهم ، ولا في سر أو علانية .

أما الذي يبش على حساب القانون ، فلا يخص من نفسه ذلك الوازع ، إلا إذا شعر أن وقوعه في النكر قد يطالع عليه الناس فيساق الى المحاكمة ، وهناك يفضح أمره ويهتك ستره ، وإذا استطاع أن يفل ذلك النكر حيث يفل من يد القانون لأنه لم يكن عليه من الرقاب من يشهد عليه - فانه له بدعة ، بل يقدم عليه ، دع ما يبيحه القانون الوضي من جرائم ومنكوات تجرمة الزنا التي تحميها الحكومات ، وتعطي رخصا للبخايا للاحتراف بذلك الفاحشة ، وجريمة شرب الخمر الذي لا يعاقب عليه قانون ، ولا يساق الشارب فيه الى دار الحكومة إلا إذا عمل عريدة في الطريق تفلق راحة الناس .

فالقانون عاجز عن تأديب الناس وتهذيبهم على فرض أنه يضع عقوبة لكل الجرائم ، فكيف اذا كان القانون أعرج مبتورا ؟ فلكل كان من مصلحة الناس أن يكون لهم دين يحرصون عليه ، ويبالون في العناية به ، وأن يكون لهم دنيا تناسب مع زمنهم الذي يعيشون فيه ، ومع تطورات الحياة [ومن لم يتدأب أكلته الذئاب] [ومن لا يظلم الناس يظلم] .
(اني بما تصلون بصبر) فأحاسكم عليه وأجزىكم به ، وهو صالح لأن يكون وعدا بالثواب وتوعدا بالعقاب .

(٢) (وسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) أي وسخرنا سليمان الريح حريها بالنداة مسيرة شهر ، وكذلك جريها بالمشي ، وذلك فضل من الله تعالى على نبيه سليمان ، سخر له الريح تجري بأمره ، وقطع في الندوة ما يقطع المشي أو الراكب للبحر مثلاً في شهر كامل ، وكان ذلك معجزة لنبيه سليمان ، وأصبح الآن علما ، فسخر الريح لأوروبا ، واستطاعت أن تستخدمه في الأسفار بالطائرات التجارية والحربية ، وان كانت في السرعة لم تصل الى الحد الذي وصل إليه سليمان عليه السلام كما سخر لها الهواء في الوقت الحاضر ، فانتفتت به بواسطة الترميزات الهوائية في نقل الأخبار والأصوات والأشكال من طريق العلم ، وأصبحنا ونحن بالشرق نسمع كل ما يدور في الغرب من خطب ومحاضرات وغيرها على بعد الشقة وطول السافة ، وكذلك هم يسمعون خطبنا ومحاضراتنا وما يدور في بلادنا ، وهو تسخير من الله طريقه العلم والتفكير ، ولعل الله يقرب لنا أمر هذه المعجزات بهذه الخوارق العلمية ، ويرينا أنها لم تكن من قسم المحال كما فهم بعض الناس ، وإنما هي أمر ممكن ، والدليل على امكانها وقوع ما يقربها من طريق العلم ، ولو كانت من قسم المحال ما وقعت ، وقد يؤيد ذلك قوله في سورة النحل (وقل الحمد لله سبىكم آياته فتعرفونها «٩٣») أي ربكم لها من طريق العلم فتعرفونها بالتعلم ، كما أراها للرسول من طريق المعجزة ، لأنها خارقة لعادة القوم ، وجاءت على غير المألوف لهم .

(وأسأله عين القطر) أي من فضل الله عليه ، ودلائل صدقه أن أسأل له السحاس : أي جعله سائلا من معدنه ينبع منه كما يسيل للماء من يفوعه ، ولذلك سماه هينا ، وذلك ليسهل عليه أن يحوله الى ما يريد ، وينتفع به في وجوه شتى .

(ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أصمنا نذقه من عذاب السعير) أي ومن فضل الله عليه أن سخر له من الجن من يعمل بين يديه ، وقوله (بين يديه)

يشير الى أن الله تعالى ألقي في قلوب الجن الخوف من سليمان ، وبذلك سخرها له وجعلها مطيعة لأمره ، ولولا خوفها من سليمان على قوتها وتوكلها ما صنعت له شيئا ، فهي تعمل له ما يريد بالسلطان الذى جعله الله له عليها ، وقوله (لئن ربه) أى لتسخره لها ، ولولا أن الله سخرها له ما استطاع أن ينفع بها : كما قال في معجزة عيسى عليه السلام (وأبْرِى الأَكه والأبرص وأحْيِ الموتى بآذن الله «٤٩») (١) .

(ومن يزغ منهم عن أمرنا بذه من عذاب السعير) تهديد من الله تعالى للجن ، يرينا به أنه فوق تسخيرها تسخيرها كوني سليمان ، وتذليلها لأن تكون تحت سلطته وتصرفه ، نهاها عن عصيان أمره ، وتوعدها أن يذيقها عذاب جهنم إذا هزأته عن أمر الله لها بطاعة سليمان وهو فضل كبير على سليمان أن يجعل عصيان أمره في شئون الدنيا مدعاة لعذاب العاصي بالسعير (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) بيان لعمل الجن السخرة لسليمان ، فهي تعمل له محاريب ، وهى القصور الحصينة ، بما فيها من القوة على حمل الأثقال وقتل لوازم البناء ، وكذلك يعملون له تماثيل وهى مظهر من مظاهر العظمة وهو دليل على مشروعية التماثيل ، وأن الاسلام إذا حرما فاعما يحرمها إذا كانت ذريعة للشرك والوثنية كالتماثيل التى تعمل للصالحين ، أما ما يعمد للعظماء الذين ليس من شأنهم أن يعبدوا بهذه التماثيل فليس هناك وجه لتحريمها ، وما ورد من الأحاديث فى النهى عن اتخاذ صورة أو تمثال فمحمول على ذلك ، ولو كانت التماثيل محرمة لذاتها ما ألحها الله لسليمان ، لأن الرسل جميعهم متفقون على محاربة الشرك وذرائع الشرك ، لأن التوحيد من الأصول التى لا تختلف فيها الشرائع السماوية ولكن الجن كالتماثيل كانت تعملها لسليمان ، وأقرها على ذلك العمل ، وادعاء أن ذلك النوع من التماثيل كان فى غير الحيوان كالأشجار مثلا خلاف الظاهر ، وكذلك القول بأن ذلك كان شرعا لسليمان ، وأنه مما يختلف فيه الشرائع .

والظاهر أنها لم تكن تماثيل لعبادة أممها ، وانما هى تماثيل لأغراض آخر (وجفان كالجواب) أى الحياض الكبيرة التى يجمع فيها الماء ولعل نبي الله كان يحتاج ذلك النوع ليحزن فيه الماء (وقدور راسيات) أى قدور يطبخ فيها ثابتة لاتنقل من مكان الى مكان اعظمها وكبر حجمها ، وذلك شأن الممالك الكبيرة ، والهلل الواسعة ، يحتاج رجالها من آلات الطبخ قدورا واسعة ثابتة لاتنقل لاعظمتها .

(اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) أى اعملوا يا آل داود ما أمرتكم به لتشكرونى على هذه النعم ، وأمر آل داود ، والمراد داود وأهل بيته ، وفيهم سليمان ، أو المراد بآل داود كل من ينتمى إليه وإن لم يكن من أقربيه .

يرينا الله تعالى أنه يذنى للانسان أن يقابل إحسان الله إليه بالشكر لا بالكفر ، وخاطب آل داود لأن نعمته على سليمان نعمة عليهم (وقليل من عبادى الشكور) أى قليل من عباد الله من خلقه الشكور ، وعادته الاعتراف بحميد الله تعالى عليه واحسانه إليه ، فلا ينسى نفعه ،

ولا يقلل عن فضله ، ومن شأن الذى يذكر ذلك دائماً أن لا يعصى ربه ، ولذلك يعرفون الشكر بأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق له .

(فأما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منفساته فلما خثر تبينت الجثث أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) .

أى فلما قضى الله الموت على سليمان ما دلّ الجثث على موته إلا دابة الأرض تأكل عظامه ، وقد كانت الجثث فى أمانة بعيدة عن سليمان لا يفترقون عن عملهم خشية أن يعاقبهم ، وبعد مدة لم يجدوها القرآن علم أحد الجثث بموته إذ رأى عظامه ملقاة على الأرض فرفضها فإذا الأرضة قد أكلتها ، فاستدلّ من أكل الأرضة لما أن سليمان قد تركها مدة طويلة ، وما كان ليتركها إلا لحادث من موت أو مرض ، وقد كانت العصا من شارات الرئيس والرياسة ، وبخاصة من كان ملكاً كسليمان لا يتركها مادام صحيحاً معافى .

وعلى ذلك الوجه فقوله (خثر) المراد به مات ، وفى التاموس وفى لسان العرب أن خثر نأثى بمعنى مات ، أو الضمير فى قوله (ما دلهم) لأهل سليمان ، والخور : السقوط ، وقد كان سليمان عليه السلام وجدنى محرابه ، وقد أدركه الموت وهو جالس منكئاً على عظامه فجاءت الأرضة وأكلت بعضه فانهار الجزء الذى أكلته ، فاخترل التوازن فخرّ ، فدلّ ذلك أهله على موته .

يقول الشيخ البحار بعد ذكر الوجهين السابقين : ومن رأى فعل الأرضة فى دنقلة المعجوز لا يستبعد ذلك ، فقد أخبرنى الشيخ محمد بك الحضرى أنه أهمل وضع أرجل مكتبته فى إناء فيه ماء وهو بدقيلة ، فلم تمض أيام حتى وجد الأرضة قد أثرت فى جزء مهم من تلك الأرجل اه .

(أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) الغيب هنا : ما غاب عنهم من موت سليمان ، وهو يدلنا على أن الجثث قد أخفى الله عنهم موت سليمان ، وأنهم أسفوا على بقائهم فى عملهم مدة مات فيها سيدهم ومسخرهم .

دابة الأرض

(٣) قال صاحب كتاب : [الجواهر فى تفسير القرآن] ما ملخصه : الأرضة دودة بيضاء تبنى على نفسها بيتاً مستطيلاً ، ولها شفران تنقر بهما الخشب والأجر والحجارة ، وجعها أرض - بفتح الراء - ويقال لها الخنث الأعشى ، ويقال انه يوجد ألف وخمسمائة نوع من الأرضة ، والمشهور منها لا يتجاوز الأربعين ، وكل نوع يمتاز عن سواه بصفات خاصة [فنه] البناء الذى يقيم هضبا فوق الأرض ، و[منه] ما يفتك بالأشجار الحية وينقها ، وجنده كالكواسر أو الضواري على جانب عظيم من القسوة ، و[منه] ما تشبه شقته قرون النيس فتتمدد وتقذف به الى مسافة عشرين سنتيمتراً .

وبعض هذه الحشرات يعيش فى جذوع الأشجار التى يحتفرها ، ويمد منها مسالك وأسراباً تذهب كل مذهب ، وتخترقها من كل ناحية حتى الجذور ، وبعضها يبنى عشه فى الأغصان ويوطئها حتى يقوى على مقاومة الأعصار ، وحتى يمنع على الإنسان الاقباله عليه فيضطر الى

نشره بالنشر .

وحيث أقامت الأرضة كانت عاملا للهدم والتخريب ، وما أقلت الأرضة في البلاد الحارة حشرة مثلها في حرب دأمة مع الانسان ، فتأكل بيوته من أسلمها ، وتفتني ما عنده من فراش وكساء وورق ومؤونة وخشب ونعال ونبات ، ولا ينجو شيء من موجوداته من هذا التخريب الفظيع الذي يتم في الخفاء فنعده من خوارق الوجود .

وإنك لتجد أشجارا كبيرة سليمة في الظاهر ، فلا تكاد تمد يدك إليها حتى تنهار ، لأنها مأكل من الباطن ، تلك أعمال الأرضة في التخريب المنزل ، وقد يفسد نطاقها فيشمل مدينة بأسرها .

ففي عام ١٨٧٩ نشب الأرضة بسفينة حربية أسبانية في ميناء [فرو] فلم يبق ولم يذر ، وزعم الجنرال [لكوك] أن جزر الأنفيل الفرنسية لم تقو في سنة ١٨٠٩ على رد الانجليز ، لأن الحشرة الهدامة كانت قد خربت المنازل ، وتركت للدافع والفخيرة في حالة لا تصلح معها للعمل .

ثم قال : إن الخلة عدو الأرضة الألد ، ولولاها لكانت الأرضة قد اجتاحت القسم الجنوبي من الكرة الأرضية .

ومن الأرضة ما خلق لنفسه جندا خاصا يمتاز برأس كبير يستعمله لسد الفتحة كأنه صمامة من الفلين ، وترود الخلة قرية الأرضة دائرة حولها ليل نهار ، باحثة عن صدع أو شق تنسل منه إليها ، ولهذا كانت الحيلة لها بالغة أقصى المستطاع ، وكانت مراقبة الشقوق شديدة ، ولا سيما الشقوق المصنوعة لتجديد الهواء ، فإن منازل الأرضة تحتاج إلى الهواء المتجدد ، وقد أقيم لذلك هندسة ونظام ليس من ورائها لعلماء الصحة اليوم مأخذ لعائب أو معلق لطاعن .

وإذا أتيج العدو أن يصيب أحد هذه الشقوق فإن أول ما يرى هو رأس أحد الجنود المدافعين وقد أخذ يضرب الأرض بمشفره إنذارا وتنبها ، فيسرع الحرس ، ثم الفرقة بأسرها ، وتسد بجماجمها الفتحة ، وهي تحرك في الهواء أحناكها الهائلة كأنها أوغال من الشوك ، أو تهجم على غير هدى هجوم الكلاب الضارية ، حتى تصيب العدو فتعص عليه عضا شديدا ، ولا تتخلى عنه إلا حاملة قطعة منه ، وجنود الأرضة تبقى بعد تفهقر العدو حيناً أمام الثغرة ، ثم تعود إلى قسلاقتها فترجع العمال المعدة للخدمة شارعة في ترميم ما تخرب بسرعة هائلة .

وقد روى [سافاج] أنه دمر منزلا للأرضة في المساء ، ولما عاد عند الصباح وجده قد أصلحه وأتم ترميمه ، وعلا بطبقة جديدة من الطين ، ولا عجب فإن السرعة في العمل مسألة حياة أو موت وأقل إهمال في ذلك هو دعوة لأعداء كثر ، وخاتمة ذلك الاستعمار .

ثم ختم صاحب كتاب الجواهر بحته الطويل بقوله : أيها المسلمون هذا اختراعه من كتاب [ملكمة الظلام] أو [حياة الأرضة] الذي عرّبه الدكتور [تقولا فياض] .

ثم أما أقضت في الكلام على [الأرضة] ومعيشتها وسياساتها ونظامها ، وإنما حرّكتني لذلك قوله تعالى (ما دلم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) يا مسيحان الله ما لنا ولا الأرضة ، وما لنا وللمنساء سليمان ، وما لنا ولأكل الأرض لها ، وما لنا ولكون سليمان لم يعلم اليهود موته إلا بعمل الأرضة .

عجيب والله هذا القرآن ، عجيب والله أن تكون هذه الكلمات باعثة لى على تعقب أحوال الأرض ، فإذا عرفنا منها ؟ عرفنا أن لله جنودا وجنودا ، وتلك الجنود لها ملوك ، ولها سياسات ونظم اجتماعية عجيبة ، وعرفنا أن فى أمم أوروبا من يدرسون هذه الحشرات ليستخرجوا منها علما عسى أن يرتقى به الانسان فى مستقبل الزمان .

أيها السامعون : إن الناس تنموا الطيران فطروا ، وهام أولاد يتنون عقولا أرقى من هذه العقول ، ويسعون لكسبها فسيروا مع الناس بل أنتم أولى ، فان إشارات القرآن تبعث السلم على العمل .

داود وسليمان عليهما السلام

وَإِذْ كُرِّهَ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ^(١) إِنَّهُ أَوَّابٌ ^(٢) «١٧» إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ^(٣) «١٨» وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ^(٤) كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ ^(٥) «١٩» وَشَدَدْنَا ^(٦) مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ ^(٧) الْخِطَابِ ^(٨) «٢٠» وَهَلْ أَمَّاكَ نَبَا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا ^(٩) الْمَخْرَابَ ^(١٠) «٢١» إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْضٌ فَأَخَكُمُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ ^(١١) الصِّرَاطِ ^(١٢) «٢٢» إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْمُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي ^(١٣) فِي الْخِطَابِ ^(١٤) «٢٣» قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْتِكَ إِلَى نِسَابِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَعَلَى دَاوُدَ أُنْمِئْنَا فَتَنَهُ ^(١٥) فَأَسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ^(١٦) «٢٤» فَفَعَّرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ^(١٧) وَحُسْنَ مَآبٍ ^(١٨) «٢٥» يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَأَخْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ

[١] القوة فى الدين . [٢] مجموعة « أواب » مسج . كانت ترجع التذليل معه . [٣] قوتناه .

[٤] الخطاب : الفصل فى القضاء ، وتدابير الملك والشورى . [٥] قصصوا سورة ، والمخرب :

غرة داود . [٦] وسطه ومجته : ضربه مثلالين الحق ومجته . [٧] غلبى فى الحاجة والمطالبة .

[٨] ابليناه وامتنانه . [٩] خطوة « مآب » مرجع .

عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ «٢٦» وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا
 بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ «٢٧» أَمْ
 نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْفُسَيْدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ
 كَالْفُجَّارِ «٢٨» كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ
 أُولُو الْأَلْبَابِ «٢٩» وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ «٣٠» إِذْ
 عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّغِفَتُ ^(١) الْجِيَادُ «٣١» فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ
 عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ «٣٢» رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَافِقْ ^(٢) مَسْحًا
 بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ «٣٣» وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ^(٣)
 ثُمَّ أَنَابَ «٣٤» قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي
 إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ «٣٥» فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ^(٤) حَيْثُ
 أَصَابَ «٣٦» وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ «٣٧» وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ ^(٥) فِي
 الْأَصْفَادِ «٣٨» هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ «٣٩» وَإِنَّ لَهُ
 عِنْدَنَا لَإِزْنًا وَحُسْنَ مَآبٍ «٤٠» م

شرح وعبرة

(١) بعد أن أقسم الله لنعيه محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن أن الكفار ما كفروا به عن
 خلل في دينه ، بل لأنهم في استكبار ومشاقة لله تعالى ، وبعد أن هددهم بما أهلك من قبلهم
 من القرون فاستنأوا حين حلّ الهلاك بهم ، ولم يصكّن الوقت وقت فرار من عذاب الله تعالى ،
 وبعد أن أخبرهم أنهم يحبوا أن يجيئهم رسول من بني جلدتهم ، وقالوا في شأنه : هو ساحر كذاب ،

[١] الخيول التي تحف على ثلاثة قوائم ، وقد أقامت الرجل الأخرى على طرف حافر ، ولا يكاد يكون ذلك
 إلا في الرباب الخلس . [٢] جبل . [٣] بسبب مرض ألمّ به نصار جسدًا لا قوّة فيه ، وأناب : رجع
 إلى قوّمه . [٤] لينة طيبة لا تزعزع ، وقيل طيبة له .

[٥] مسلمين في القيود حيث يقرّون بعضهم ببعض .

وانطلق أشرا فهم وسادتهم يمرّون بالقوم أن امشوا على ما أنتم عليه ، واصبروا على آلهكم ، وأنهم
ما سمعوا بما قاله محمد في الله التي وجدوا عليها الآباء والأجداد ، وأن ذلك أمر مختلف .

و بعد أن ذكرهم الله بقوم نوح وعاد وثمود ، وفراعون صاحب القوة والبطش ، وأنهم جميعهم
لما كذبوا الرسل حقّ عليهم عقاب الله .

بعد ذلك كله يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (اصبر على ما يقولون واذكر
عبدنا داود ذا الأيد إنه آوَاب) .

يأمره الله تعالى أن يصبر على أذامهم ، ويحتمل غلظتهم ، وأن يذكر عبد الله داود ليكون
له فيه الأسوة الحسنة ، وقد وصفه بقوله (ذا الأيد إنه آوَاب) أي صاحب القوة في الدين ، والقوى
في دينه لا يهين لشدة ، ولا يصف لاضطهاد ، بل يقابلهما بالحزم والعزم ، ويتلقاهما بقلب لا يعرف
الضعف سبيلا إليه ، وفؤاد في غاية الثبات ، لأنه يعلم أن الشدة التي حلت به ما لها إلى رضاء ،
والإيذاء الذي أوقعه به أعداء الحقّ والدين هو إعلاء لشأنه ، ورفع لمزله ونقصه في سبيل الله
وسبيل الإصلاح العالم ، وأيّ إصلاح أعظم من نشر دين يهدي الناس إلى سعادتهم ، ويثبت
عقائده ومبادئه ترشد القوم إلى صلاح دينهم ودنياهم ، وإذا جهل الناس قيمة هذا الدين اليوم
فسيعرفونها بعد ، ويتجلى لهم ما فيها من عناصر للحياة الحقة ، وأصول لا يسعد العالم بدونها ،
ومن يحمل دعوة هذا أسامها ، وتلك غايتها ، فخير به أن يصبر على إيذاء القوم وجهلهم ، وأن
لا يقابل السفه بسفه مثله ، وإنما يقابله بالأنابة والحكمة ، والتأسي برسول الله في ذلك الباب ،
والتخلق بأخلاقهم في هذا السبيل .

والله تعالى لم يقصّ على رسوله قصص الأنبياء إلا ليقوّي به يقينه ، ويثبت به فؤاده ، لم
يقصه عليه ليكون أساوا من أساليب اللهو ، أو ضريا من ضروب التفكك (وكلا قصص عليك
من أنباء الرسل ما ثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » ١٢٠) (١) .

يذكر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بيده داود صاحب القوة في دين الله ، ليكون
كذلك قويا في دينه كما كان نبيّ الله داود ، مطمئنا لنصر الله له كما نصر عبده داود وأبيه ، ثم
وصف داود بقوله (إنه آوَاب) أي رجاع إلى الله تعالى ، رجاع إليه في شدته ورخائه ، رجاع إليه
في سرّه وعلايته ، رجاع إليه كلما حزبه أمر ، أو جدّه به الجدة ، يستغفره ذنبه ، ويستعين به
على شدائده ، ويستنصره على خصومه ، ويطلب منه ما لا يقدر عليه غيره ، ولا يستطيعه سواه .

ثم عقب ذلك بقوله (إنا صخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق) وذلك من آثار
اكثاره من العبادة ، وشغفه بتسبيح الله تعالى وتقديسه ، وولوعه بتزنيه الله عن كل ما يليق ،
فكانت الجبال تسبح الله معه على وجه لانرفعه نحن ، وقد لا يعلمه داود ، وإنما يعلمه الله تعالى ،
ولا عجب فإن كل شيء يسبح الله تعالى ولا نفقه تسبيحه ، وعدم فهمنا تلك التسبيح لم يخرجها
عن كونها مسبحة لله معنا .

والظاهر من أن الطير كفلك كانت تسبح الله مع داود وأنه علم منطقها ، أنه يفهم كيف تسبح ، وكفلك الجبال .

وعلى الجملة فالتعالى يصف داود بأنه صاحب قوة في دينه ، ويعلم ذلك بقوله (إنه آوآب) وأنه من أجل ذلك أعطاه ما أعطاه ، ووهبه ما وهبه ، وسخر له ما سخر ، فسخر له الجبال والطير كل يسبح الله لأجل تسبيحه ، وقوى ملكه ، وأعطاه العلم النافع ، وأقدره على فصل الخصومات والقضاء بين الناس ، وغفر له ما ظنه ذنباً حين تحاكت إليه الخصوم ، ووهبه سليمان ، ونعمت الهبة . كل هذا لأن داود قوى في دينه ، صلب في عقيدته ، شديد في ثقته بربه وخلقه ، كثير الرجوع الى مولاه في حاجاته وعبادته ، فلتكن يا محمد كما كان ، وليكن الناس كداود في قوة إيمانهم ، ورجوعهم الى ربهم ، ليكن الناس أقوياء القلوب ، واثقين بنصر الله لهم ، وتأيدته حقهم على باطل سوام ، وأنهم إذا كانوا على هذه العقيدة لأن لهم الحديد ، وسخر لهم الجبال على قوتها وصلابتها ، وسخر لهم الرجح على عصفها وشدها .

والمراد أن الله تعالى يذل لهم كل صعب ، لأن قوة الإرادة تعمل مالا تعمله الحروب والدفاع وقوة الإرادة تصهر الحديد ، وتذيب النحاس ، وتنسف الجبال ، وتضطر العقور الجبار ، والخصم الألد أن يلدن ويخضع ، ويذل ويخضع ، أجلاً لقوة العزم ، وشدة الحزم ، وتزولا على الشدة التي لا تجد هواده ، والتصميم الذي لا يعرف انحلالاً ولا تردداً .

(٢) (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) .

يذكر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه شد ملك داود وقواه ، وهى نعمة عظيمة من الله تعالى يكافئ بها نبيه داود على قوته في دينه ، ورجوعه الى ربه وخلقه ، وهو كقوله في سورة طه (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى « ٣٠ » أشد به أزرى « ٣١ » وأشركه فى أمرى « ٣٢ ») . وقوة الملك نعمة عظيمة ، وذلك إنما يكون بتوفيقه الى أسباب البقاء ، وإبعاده عن عوامل الخراب والفساد ، فجعل في دولته من رجال العلم والسياسة ، والفنون والصناعة ما تستطيع به أن تعيش منيعاً الجانب ، حصينة الأطراف ، كما جعل فيها من يقيمون العدل ، ويتحرون الصواب والصلحة ، وجعل فيها من القوة الحربية ما يهرب الأعداء ، ويخيف الغير ، ومن أراد ملكاً قوياً في دولة قضت فيها الرشا ، وفسدت فيها الأخلاق ، وأصبح الناس أسراء شهواتهم وأهوائهم ، من أراد ملكاً قوياً في بلد مقهر من العلم النافع ، والصناعة المفيدة ، والحريية القوية — من أراد ملكاً قوياً في بلد ذلك حاله ، وتلك أخلاقه ، إنما يتطلب محالاً ، لأنه طلب ما لا يتفق وسنة الله في حياة الأمم وموتها ، وضعفها وقوتها ، وقيامها وسقوطها ، ولا يمكن أن يبدل الله سنة أو يهزم نظامه .

ولعل المسلمين يظنون الى أن أهم شيء في أسباب شد الملك وتقوية السلطان : هو الخلق الطيب الذي يعتمد على الدين ، ويرتكز على الفضيلة ، لعلهم يظنون لهذا فيستعيدون بدينهم ونشاطهم محمد ويترددون باستقامتهم هزم ، لعلهم يظنون الى أن الملك لم يكن في وقت ما طريقاً لجمع المال من طريقه المعروف وغير المعروف ، ولم يكن سلباً لمتبذع النفس بلذاته وشهوات من شأنها أن ترى بإسحابها ، وتضعه في موضع لا يليق ، ولم يكن للملك وسيلة من وسائل ظلم

الضعفاء ، أو الفتنك بالأرياء .

(وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) نعمة أخرى على نبي الله داود عليه السلام ، هي نعمة الحكمة ، وهي العلم النافع الذي يحمل صاحبه على العمل ، ويسوقه الى التخلق بأخلاق طيبة وقد بين ذلك في آية أخرى إذ يقول (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين «١٥»)^(١) ويصح أن يراد بالحكمة النبوة ، أو الحكمة التي تقابل العتس ، أو يراد بها كل أولئك للعاني ، لأنها غير متنافية (وفصل الخطاب) أي الخطاب الفاصل بين الحق والباطل ، والمراد أن الله تعالى أعطاه مقبرة على ذلك ، سواء كان ذلك في القضاء بين الناس ، أو في الجدل والنزاع في أمور العلم والدين ، أو غير هذا ، وكذلك أعطاه فصل الخطاب في سياسة الدولة وشؤونها العاتقة .

كل ذلك لأن داود صاحب الأيد أواب ، ومنه تعلم أن التقوى تنفجر بها ينابيع الحكم ، وأن القلب المعمور بطاعة الله وتقواه جدير بذلك الفضل الكبير ، وقد ورد «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» وكذلك تعلم من الآية أن نبي الله تعالى كان قوله الفصل ، لأنه بعيد عن الشهوة ، بعيد عن الهوى ، وكل قاض عنده من الاستعداد للقضاء بين الناس ما يؤهله لأن يحكم بينهم ، وتجرد عن الهوى ، فإن قوله يكون هو القول الفصل ، وقضائه هو القضاء الأخير ، وإنما يباعد بين الناس وبين الحق الشهوات والأهواء والأغراض والأمراض . حانا الله منها ، وعصمنا بفضلہ وكرمه .

(٣) (وهل أذاك نبؤا الخصم إذ تسوروا المحراب) الخ .

يأبى المفسرون إلا أن يتأثروا بالاسرائيليات ومادسه اليهود على الذين من قصص ، ويأبى المفسرون إلا أن يشحنوا سيرة الأنبياء بما يتبرأ منه القرآن الكريم ، ولا يتفق وكرامتهم في هذه الحياة الدنيا ، وما أقدم الله له من عمل ، وما هيأهم له من منصب ، فترام لأجل فهم قصة الخصمين الذين تسوروا المحراب يذهبون مذاهب شتى ، وترام في جلتهم يذهبون الى أن قصة الخصمين لم تكن قصة حقيقية ، بل هي قصة تمثيلية ، قام بها ملكان ليلفتا نظر داود الى ما كان منه ، ثم يذكرون في بيان سبب هذه القصة ما لا يرضاه لنفسه رجل من عامة المؤمنين فضلا عن خاصتهم ، وترام يختلقون على نبي الله داود الأكاذيب والأباطيل .

وكذلك نرى للمفسرين يأبون إلا أن يضربوا [النعجة] بالمرأة ، ومن لنا باسماع رجال العصر الذين لم يرضوا للمرأة من الحقوقي مريضه الاسلام لها ، بل يريدون أن يجعلوها كالرجل حتى فيها لاتهاودها عليه فطرتها وطبيعتها - من لنا بقبليخ أولئك العصريين أن القرآن الكريم يعبر عن المرأة بالنعجة ، ويسمبها باسم حيوان أعجم ، لترى ماذا يقابلونها به ، وماذا يصنعون معهم إزاء ذلك الفهم العجيب ، والوصمة المنكرة التي يصمون بها للمرأة شريكة الرجل في الحياة ، والعضو العامل في تكوين الأسرة ، وهل يتفق ذلك مع قول القرآن في شأن جماعة النساء (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة)^(٢) فجعل للمرأة من الحق على الرجل مثل ماله عليها بناء على ما قضى به العرف ، وميز الرجل عليها بدرجة الرياسة في البيت .

ولا ندرى ما هو الداعي الى تأويل النعجة بالمرأة ، والحطّ من قيمة للرأى الى ذلك الحدّ ، ولستى ذلك بالقرآن الكريم ، وما الداعي الى اعتبار القصة من ملكين لامن رجلين ؟ واعتبارها رمزاً لحادثة وقعت من نبيّ الله داود .

لماذا ذلك كله والأصل في الكلام الحقيقة دون المجاز ، والنعجة هي الأني من الصنّان لا المرأة ، ولماذا لا تكون القصة حقيقة من خصمين تحاكى الى داود وشرحا له قضيتهما ، فأفتى صاحب النعجة أنه مظلوم ، وأن صاحب النعاج هو الظالم ، ثم عقب ذلك بأن الشأن في الخلطاء أن يبنى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقد اضطرب المفسرون في تأويل قوله (وظنّ داود أنما فتناه) والآية كفيّة بيان هذه الفتنة ، فانها ترينا أن نبيّ الله داود أفتى لمجرد سماعه قول صاحب النعجة ، ولم يسمع اقوال صاحب النعاج ، والواجب على القاضي أن يسمع الحجتين ، ويوازن بينهما ، وبعد ذلك يقضى .

ولعلّ صاحب النعاج رأى أن أمر النعجة لا يستقيم بوجودها وحدها ، وبقاتها منفردة عن أخوتها ، لأنها بذلك تكون عرضة لسطو الذئب عليها ، فمن مصلحة ومصلحة نفعته أن تعيش مع أخوتها ، ولعلّ ذلك هو الذى جعله يقول (وعزنى في الخطاب) ولعلّ صاحب النعاج ومصلحة النعجة ؟ وماله ومصلحة صاحبا ؟ وهل جعله الله قيا عليه حتى يطلب منه أن يدفع إليه ماله ، ليشره له ويرعاه بما يعود عليه وعلى ماله بالخير ؟ وهل يجبر الرجل على تسليم نعجته لصاحبه مادام بقاؤها وحدها لغير مصلحتها ؟ .

وقد يجوز أن تكون حجة صاحب النعاج أن غنمه في حاجة إليها ، وأن حياتها متوقفة على حياة غنمه أو حياة طائفة منها ، فطلبها منه لمصلحة تعود على غنمه لا لمصلحة لصاحب النعجة ، كل ذلك محتمل في توجيه حجة صاحب النعاج ، والفتنة التي ظنها داود هي فتنة في تلك الفتوى ، وسماعه لحجة واحد دون سماع حجة الآخر ، وفي الأمثال الشهيرة [إذا جاءك رجل قد فقت عينه فلا تقض له حتى ترى خصمه ، فلهله قد فقت كلتا عينيه] .

ذلك هو احتمال في بيان الفتنة ، وهو احتمال قريب ، وهناك احتمال آخر هو أن داود عليه السلام وزع وقته ، فجعل وقتاً للمادة ، ووقتاً للقضاء بين الناس ، فجاء الخصمان في وقت كان متفرغاً فيه للعبادة في محرابه ، فنتلقى الخصمان جدار المحراب ، وتصعدوا سوره ، وبذلك فزع منهم ، لأنه لم يألف أن يجيئه الناس من ذلك السور .

فكانت فتنة أنه حجب نفسه عن الناس ، والواجب على القاضي أن يعدّ نفسه للقضاء دائماً ولا يضيع بينه وبين المتخاصمين حجبا .

فالفتنة التي ظنها داود أحد أمرين [الأول] قضاؤه بين الخصمين بعد أن سمع حجة أحدهما وقبل أن يسمع حجة الآخر . [الثاني] أن حجب نفسه عن الناس مما أدّى الى تسوّر الخصمين المحراب ، ويجوز أن يراد أنه فتن بالأمرين جميعا .

(٤) وفي الآية أن للخصم أن يعط القاضي ، ويذكره بما أوجه الله عليه من العدل ، وكذلك كان شأن الناس في الزمن الأول ، يعط بعضهم بعضا ، ولم يألف نبيّ الله داود وهو رسول

الله ومصطفاه أن يعظه الخصمان ، ويقول له (فاحكم بينا بالحق ولا تنشط) والراد لانجر ، بل عليك أن تقضى بيننا بالحق (واهدنا إلى سواء الصراط) أى أرشدنا بقضائك العادل إلى عين الحق ومحضه .

كان ذلك في العهد الأول ، يتناصح فيه الناس ، ويطلب الخصوم من القاضى - ولو كان رسولا - أن يقضى بينهم بالحق ، أما وقد صار القضاء مهنة ، وأصبح وظيفة لطائفة من الأمة ، قد اعتدت لتلك العمل تحت رعاية القانون وحمايته ، - فلا يستطيع الخصم أن يطالب القاضى بمثل ماطوب به نبي الله داود ، ولو صدر ذلك من خصم لأحد القضاة في العصر الحاضر لتقدم إلى المحكمة ، واعتبر ذلك انتهاكا لحرمه القضاء وتعرضا بالقاضى .

وإذا كان المجال لم يتسع للخصم أن يقول للقاضى يجب عليك أن تعدل بين الخصوم ، وأن لاتحاي أحدًا ، وعليك أن تطبق القانون على الناس على السواء - فإن للواعظ البصير أن ينوب عن الخصوم في وعظ القاضى وإرشاده إلى طريق الصواب ، والبعد به عن الهوى والفساد ، وحينما أن الله تعالى يقول لنبيه داود وهو ذلكم النبي المصوم ، وهو الذى وصفه في الآية السابقة بقوله (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه آوَاب) (ياداوود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .

ذلك خطاب الله لنبيه المصوم ، ورسوله المختار ، فلماذا لا يخاطب به من هم دونه في المنزلة ؟ لماذا نهاب أن تقول لحكامنا ما قاله الله لنبيه داود ؟ وهل هم أحرص على دينهم منه ؟ وأقرب إلى الحق منه ؟ أم ذلك سنة الله في التعليم ، ونظامه في نشر العدل ، يرسم لنا فيه الطريق ، ويهديننا إلى ما ينبغي أن يكون ، فيرينا واجب القاضى ، ويرينا ثقل المهمة الملقاة على عاتقه وعاقبتنا ، واجبنا الإرشاد ، وواجهه أن يسمع ، لنعلم أن الأمة متضامنة في أداء واجبها ، متكافلة في القيام بمهمتها ، وعلى كل طائفة من طوائف الأمة أن تكون صلتها بالآخرى صلة نصيح وإرشاد ، لاصلة غش وفضيل ، وأن يكون الحق فوق الأشخاص ، والعدل بغير الجحج ، ووصول الناس إلى حقوقهم غاية ليس بعدها غاية .

(وإن كثيرا من الخطأ ليعنى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل مالم) يريك الله أن الشأن في السواد الأعظم من الناس إذا كثروا شركة من الموائى أو من الأموال الآخر أن يمتدى بعضهم على بعض (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فلم يكن ذلك شأنهم ، بل شأنهم وقوف كل واحد منهم عند مرسوم له ، وأن يرضى بما قسم الله له من رزق ، ومن ذلك نعرف أن الإيمان والعمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس وبين ظلم بعضهم بعضا ، وأن يكون حاجزا بينهم وبين الشرور .

أما الإيمان فلائنه إيمان بالجزاء ، وإعلان بالثواب على الطاعة ، والعقوبة على العصية ، وما دام الرجل واقفا بالمسئولية ، مؤثما بالله وعمله ، فلا يقع في ظلمه للناس ، وإن ظلم كان ظلمه

على غير عادته ، فلا يقع منه إلا نادرا ، كما قال في شأن المؤمنين (ولم يصبروا على ما فعلوا وم يعلمون « ١٣٥ » ^(١)) .

وأما العمل الصالح فلأن من شأنه أن يهذب النفوس ، ويظهرها من الخبث ، ويحول بينها وبين المحرمات ، لأن العبادة تربطه بالله ، وتخيفه منه ، وتجعله يخشاه في سره وعلايته ، فالعمل الصالح يثبت العقيدة ، ويحيي الإيمان ، ويعطيه الغذاء الصالح ، فيثمر ثمرة الرجوة ، ويؤدي وظيفته كاملة غير منقوصة ، ولا غنى للمؤمن عن الإيمان الصحيح ، والعمل الصالح .

ولذلك ترى القرآن الكريم لم يعد للمؤمنين بالجنة إلا قرن لإيمانهم بعملهم ، واشترط مع العقيدة عملا صالحا (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة « ٩٧ » ^(٢)) . وقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إننا لا نضيع أجر من أحسن عملا « ٣٠ » ^(٣)) (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا « ١٠٧ » ^(٤)) وغير ذلك كثير وكثير ويشير بقوله (وقليل مأم) إلى أن ذلك الصنف القليل يقرن الإيمان بالعمل الصالح قليل في جانب الأصناف الأخر .

وما أكثر الذين قنعوا من الإيمان باسمه ، واكتفوا من الدين بعنوانه ، وظنوا أن الله يحاسبهم على أسماء ، لا على حقائق ، وما داموا يسمون أنفسهم مؤمنين فليعملوا من المنكرات ما شاءوا ، وليقتصروا في الطاعات ما زينت لهم النفوس ، وما أكثر أن يمدعوا أنفسهم بأنهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي خير أمة أخرجت للناس ، وبأن الله واسع الرحمة ، وأن الإنسان لا يأس من رحمة الله ، إلى غير ذلك من الحق القبيح الذي أريد به الباطل (ليس بأمانيك ولا أمانى) أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا « ١٢٣ » ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون تقبرا « ١٢٤ » ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا « ١٢٥ » ^(٥)) .

(وظن داود أنما قبضه فاستغفربه . وخز راكما وأتاب ففزعنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب .

غلب على ظن داود أن الله قد ابتلاه واختبره في أمر الخصمين ، ولجود ذلك الظن استغفر ربه ليرينا أن الإنسان ينبغي أن تكون معاملته لربه معاملة أساسها الاحتياط والحذر ، وأنه يكفي لأن يستغفربه أن يظن الخطأ ، فما بالك بمن ييقن الزلة ، ويعلم أنه قد عصاه وخرج على أمره ونهيه ؟ ويظهر أن هذه حكمة التعبير بالظن .

ومن جهة أخرى فإن المسألة ليست من الخطأ الواضح الجلي ، بل هي خطأ من شأنه أن يقع للخاصة ، فالفتنة إذا مظنونة لا مقطوع بها ، ومع أنها مظنونة لم يرص بها داود ، فاستغفربه وخز راكما ^(٦)) (وأتاب) رجع إلى ربه ففزعنا له ما ظنه ذنبا ، وإن له عند الله الخطوة وحسن المرجع في الآخرة .

(٥) (يادود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .
تأديب من الله تعالى لئيه داود ، وتعليم له كيف يحكم بين الناس ، ويقضى بينهم ، فيناديه أولاً بقوله (يادود) ليفتحه إلى أن ما يليه إليه أمر عظيم ، يجب أن يقبضه له ثم يقول (إنا جعلناك خليفة في الأرض) أى صيرناك خليفة عن الله في أرضه ، تقيم العدل وتنفذ الإصلاح ، أو جعلناك خليفة لمن سبقك من الأنبياء في ذلك ، وجدير بمن جمعه الله خليفة أن يظن للهمة للمقابلة على عاقبه ، ويعنى بها العناية اللطيفة .

ثم إنه جدير بمن يشعر من نفسه أنه نائب عن الله تعالى في عمارة الأرض ، والقيام على مصالح الناس ، أن يقدّر ذلك للركز الكبير ، وهذا النصب الجليل ، ولو أن الناس فطنوا إلى مراكمهم ، وإلى مقدار المسؤولية للمقابلة على عاقبتهم ما فرتوا في عمل ، ولم تلب عليهم الشهوات ، وكأن الله تعالى يريد أن ينهنا إلى طريق لفت الحاكم إلى واجبه ، وأنه ينبغي دائماً أن يضع ذلك نصب عينيه ليكون ذلك وقاية له من التقصير ، وحماية له من الشطط .

(فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

يأمره أن يحكم بين الناس بالحق ، لأنه خليفة عن الله في ذلك ، وهو رسوله الأمين وخليفته في الحكم بين الناس ، وأن داود لو فرض أنه شطّ وحكم بين الناس بغير الحقّ لكان ذلك مدعاة لظلم الناس على دينه وربه ، لأنه خليفة ونائب عنه ، والحقّ الهى يدهو الله إليه مقابل الباطل وقد يكون الحقّ صريحاً لا يحتاج إلى بحث أو تمحيص ، وقد يكون الحكم بين الناس في أمور اجتهدية لم يتضح فيها وجه الحقّ .

والواجب على القاضي أن يحكم بين الناس بما يعتقد أنه الحقّ ، فإن كان الحقّ واضحاً تبعه ، وإن كان اجتهدياً بذل وسعه في تعرف الحقّ ، واجتهد في الوصول إلى الصواب ، وإذا أخطأ بعد ذلك فهو معذور مأجور ، كما وقع له في قصة الغنم التي انتشرت في الحرث فأهلكته .

اجتهد داود عليه السلام فيما يجب لصاحب الزرع على صاحب الغنم ، لحكم بما رأى ، ثم اجتهد سليمان حكماً آخر ، وكان حكم سليمان هو الصواب ، لأن الله تعالى يقول (فهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً) كما تقسم في سورة الأنبياء من التقصّة .

فانه تعالى عذر نبيه داود ، وإن كان سليمان هو للوفق في الحادثة المذكورة ، وشهد لكل من داود وسليمان بأنه أتاهما حكماً وعلماً : أى أعطاهما مقدرة على الحكم ، ومنه فلم أن المجتهد معذور في خطئه ، وحسبه أنه بذل طاقته في الوصول إلى الحقّ ، وذلك ما في وسعه ، وهو الهى يكفه الله به .

وكذلك اتقضة الأحكام يحكون بالحقّ للنصوص الهى لم يشك أحد في حقيقته ، ولا عذر لهم في الخطأ إذا كانت المسألة بدعية ليس فيها جدل أو نزاع ، ولم تشبه فيها الأنظار ، أما للأسائل الاجتهادية التي تختلف فيها وجهة النظر ، وتحتمل أحكاماً مختلفة ، فليهم أن يحضروها بحسب ما يرى

بيداهن الشهوة والهوى ، ثم بعد البحث يصدر عن أحكامهم ، وسواء عليهم بعد ذلك أصابوا أم أخطأوا ، لأنهم أدوا ما عليهم من واجب .
(ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

ينهى الله نبيه داود أن يكون تابعا للهوى في قضائه وحكمه . والهوى : ما تهواه النفس وتميل إليه بما يخالف الحق والصواب ، سواء كان هوى للحاكم أو للحكوم له أو عليه ، أو كان هوى لهما معا ، ولم يكن ذلك الوعظ خاصا بنبيه داود ، بل وعظ الله به خاتم الرسل ، فقال (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروا أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك «٤٩» (١)) . ويقول (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتسكن للخاصين خسبا «١٠٥» واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما «١٠٦» ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أي «١٠٧» . وقال تعالى (فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق «٤٨» (٢)) .

فتراه قد أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يحكم بين الناس بما أراه الله سواء كانت الازمارة ببيان الحق الذي عرفه له أو كانت من طريق اجتهاده ، فإن الأمور الاجتهادية قد أراه الله إلهامها ، وعرفه طريقها وأصولها التي تبني عليها ، فما أراه الله أهم من الحق الصريح والحق الاجتهادى ، ونهاه الله تعالى أن يخاصم لأجل خائن ، وأن يجادل عن الذين يختانون أنفسهم بالصبيان والفسوق ، كما نهاه أن يبيع في أحكامه أهواء القوم التي تلاويه عما جاءه من الحق .
فاذا قال لنبي الله داود (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) فقد قال مثل ذلك لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وكذلك يأمر الله المؤمنين أن يحكموا بالعدل إذا كانوا حكاما إذ يقول (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ثم يعقب ذلك بقوله (إن الله نهما يظلمكم به إن الله كان سميعا بصيرا «٥٨» (٣)) ليرينا أن ما يأمر به الحكم من العدل هو مصلحة تعود علينا ، وأن أمر الناس لا ينتظم بدونه ، فإذا لم يكن للامة عاصم من القضاء ، وسبيل من العدالة في أشخاص الحاكمين ، اختل أمرها ، واعتل نظامها ، وسادت فيها الفوضى ، وكثر فيها الفساد ، وانتشرت الجرائم ، ثم يعقب ذلك الأمر بتهديد لمن يخرج عنه ، ووعيده لمن لا يراعاه إذ يقول (إن الله كان سميعا بصيرا) .

(٦) (فيضلك عن سبيل الله) يرينا أن من شأن الهوى الذى يقود صاحبه أن يعميه عن الحق ، ويحول بينه وبين الصواب .

وجدير بمن يتبع هواه في قضائه وحكمه ، ويعرض عن هداية ربه ، ولا يهنيه أن يصل إلى الحق ، بل همه أن يصل إلى شهوته ، ويرضى ميوله ، أن يضل الطريق ، ويعمى عن الحق .
ثم بين منة الضالين بقوله (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) أى ينسيانهم اليوم الذى يحاسبهم الله فيه : أى تركه وراءهم ظهريا كالشيء المنسى ، كما

قال (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون « ١٩ ») (١) وكما قال (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى « ١٢٤ » قال رب لم حسرتي أعمى وقد كنت بصيرا « ١٢٥ » قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم نفسى « ١٢٦ ») (٢) .

فالنسيان في كل هذه الواضع هو الإهمال والترك ، وجعل التروك كالنسي . الذى من شأنه أن ينسى فلا يعأ به ، ولا يهتم له .

وتريك الآية من ناحية أخرى أن التذكر لملك اليوم الذى يحاسب فيه الناس لا تطفى عليه الشهوة ، ولا يملكه الهوى ، بل يلب عليه الخوف من الله والخشية منه ، فإذا قضى بين الناس ذكر أن الله محاسبه على قضائه ، وإذا حدثته نفسه بظلم تذكر سلطان الله عليه ، وأنه سميع لقوله بصير بسمه ، مطلع على نياته وخطرات قلبه ، ومن لنا بمن يذكر الناس دائماً يوم الحساب حتى لا يظلموا إذا حكموا ، ولا يظنوا إذا اتهموا ، ولا يطمئنون إذا قدروا ، ولا ينفروا إذا علموا . من لنا بمن يضع هذه العقيدة في نفوس قضاتنا وحكامنا ، وينزع من قلوبهم حب المال والحرص عليه ، وحب الجاه والتزلف لأصحاب السلطان والتفؤد .

من لنا بتربية القضاة على هذه المبادئ ، وإشراهم حب العدالة والانصاف ، وإكبارهم للحق وأهل الحق ، واحتقارهم للباطل وأنصار الباطل ، من لنا بذلك كله وقد حيل بين القضاة وبين الواعظ ، فقام يبيدين عن الوعظ ، ومجالس التذكير ، إذا دعاهم الله إلى الجمع والجلعات لا يجيبون ، وإذا طالبتهم بالصلاة لا يؤتون ، وإذا أخذ الوعظ في عمل محاضرات للوعظ في أماكن صالحة لا يحضرون ، وإذا نشروها بالصحف لا يقرءون .

نم إن الأمر مشكل ، والعلاج صعب ، لا يستقيم أمر الناس ببلدين يهيمن عليهم ، وعقيدة يصدرون عنها ، ومبدأ يتقادون له ، والقانون الذى أعد لحماية القضاة من الهوى لا يكتفى لردعهم وتأديبهم ، وما هو القانون الذى يعاقب الرأى والرئى قائم في ممالك العالم ، ومع ذلك لم يؤد القاضى كل ما يجب عليه ، ويوجد في أسرة القضاة في العالم من يلوئون سمته ، ويتهكئون قدسبه بما في نفوسهم من شهوة ، وما في قلوبهم من مرض .

وتجد القضاة يتفادون في أهوائهم وشهواتهم ، فضيم للريض بالنساء وجاهل ، وذلك الصنف من القضاة يجد من سمارة السوء من يرشيه من ذلك الطريق القذر ، ويشبع شهوته من هذه الناحية ، بأساليب تتفقد لها النفوس الآية ، وتضع لها الكرامة ومنهم للريض بالتفرد والمكيفات ومنهم للريض بجمع المال والحصول عليه ، ومنهم للريض بالقمار ، ومنهم ، ومنهم .

وكل هذه الشهوات يتقم بها أرباب القضاة أو سمارة السوء إلى ذلك الصنف من الحكام ليكونوا في صفهم في القضاة ، ولصلحتهم في الحكم .

وأخف أمراض القاضى أن يكون جباناً يخشى السلطة ، ويتخوف من له عليه سيطرة ذلك النوع إذا بلغه توصية من صاحب سلطان عليه اضطرب أمره ، واختل نظامه ، وأخذ

يضرب أحماساً لأسداس ، وقد يكون فيه من خوف الله ما يحمله على الشجاعة ، ويجعله لا يبالى
بإشارة الرئيس ، وقد يثلب عليه الضعف فيجيبه الى ما يطلب ، ويتلمس لنفسه العاذر بأنه يدفع
بذلك عن نفسه ، وينود عن مصلحته ، وقد يكون فقيراً فيزين له الشيطان أن يخطره له في أن
يسير مع القوم حيث ساروا ، حتى لا يضطهدوه بإبعاد أوفصل ، وللعصوم بعد ذلك الجهاد الطويل ،
والشادة بين وازع الخبر وولزع الشر - من عصمة الله وحفظه .

وهناك نوع من الجبن يلجأ إليه بعض القضاة ، ويرى لنفسه العذر في اللجوء إليه ، ويظن
أنه بذلك الأسلوب قد أَرْضَى العادلة ، وأَدَّى ما عليه من حق : هو أن يحسن القاضي من بعيد
أن للسلطة الحاضرة ميلاً خاصاً في القضية المنظورة ، واتجاهها معيناً ، وهو لا يريد أن يجارها في
ذلك الاتجاه ، ولا أن يسددها ، فيعبد الى التخلص من القضية كي ينظرها غيره .

وهو تخلص حسن لو أنه عرف أن من تسند إليه سوف يقضى فيها بما يتطلبه الحق ، أما
وهو يعلم أنها ستسند الى رجل يقضى فيها بما تحبه السلطة ، ويتجه كما أرادت - فذلك شريك
للقاضى في الاثم ، ونصيره في الظلم ، واعداد للفساد ، فهو آثم بذلك العمل ، وإن ظن أنه يرى .
والواجب عليه أن يترك ذلك النوع من القضايا لقضاة عاجزين ، بل يتولاه بنفسه ، ويقضى
فيه بما يرى ، ويعمل بين القضية وبين اللعب جهد المستطاع ، مادام نظره للقضية لا يجعله مدنياً
أمام القانون ، أو مسئولاً أمام واجبه .

وعلى الجلة فهمة القضاء مهمة شاقة ، وهي ابتلاء من الله تعالى أى ابتلاء ، واختبار للقاضى
بكل أنواع الاختبار ، ولا سيما في العهد الحاضر الذى يابح فيه للقاضى بشهوات شتى ، يابح له
بالنساء ، ويابح له بالمال ، ويابح له بالبرجات والترقيات ، ومال الى ذلك ، فلم يكن غريباً أن
يهتم الله بالقضاء الى ذلك الحد ، ويعط فيه نبيه داود بما ترى ، ويحذره من اتباع الهوى ،
ويعط نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأكثر مما وعظ نبيه داود ، فالأمر جد خطير ، والعصوم
فيه مجاهد في سبيل الله يستحق من الأجر الشيء الكثير .

(٧) وقد رأيت بعد أن أطلعت القارئ على رعاية القرآن الكريم بالقضاء بين الناس ووعظه
داود في ذلك أن أختتم البحث بكتابتى عمر في القضاء لأبى موسى الأشعرى وشرح القاضى .

كتابه الى أبى موسى

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى (١) إليك ، فإنه لا ينفع تكلم
بحق لا نقاد له ، أس (٢) بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطعم شريف في حيفك (٣)
ولا يخاف ضعيف من جورك ، والبيئة على من ادعى ، واليمين على من أنكرو ، والصلح جائر بين
المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً ، ولا يمنك قضاء قضيتك بالأمس راجعت فيه
نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم ، وصراحة الحق خير من التماضى

في الباطل ، الفهم الفهم عند ما يتجلى (١) في صدرك بما لم يملك في كتاب الله ، ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم .

اعرف الأمثال أو الأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد الى أحبا الى الله وأشبهها بالحق فيها ترى ، واجعل الدعى حقا غائبا أو بينه أمدا (٢) ينتهى إليه ، فان أحضر بينته أخذته بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فان ذلك أنفى للشك ، وأجلى للعلمى ، وأبلغ في العذر .

السلوك عدول بعضهم على بعض ، إلا مجاودا في حد ، أو مجزيا عليه شهادة زور ، أو ظننا (٣) في ولاء أو قرابة ، فان الله قد تولى منكم السرائر ، ودوا عنكم بالشبهات ، ثم إياك القلق والضجر ، والتأذى بالناس ، والتسكير للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها التخر ، فانه من يخلص نية فيها بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره ، وأبدى فعله ، والسلام .

كتابه لشرح القاضى

أما بعد فإذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يفتنك عنه الرجال ، فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت ، ان شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وان شئت أن تأخر فتأخر ، ولا أرى التأخير إلا خيرا لك اه (٤) .

(٨) (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) .

لما عرض الله لجزاء الضالين عن سبيله ، وأنهم يحاسبون الحساب الشديد بنسيانهم يوم الحساب ، عقب ذلك ببيان أنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما خلقا باطلا بعيدا عن الحكمة والغرض ، بل أوجدهما لحكم ومصالح ، وهو كقوله (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعين « ٣٨ » ما خلقناهما إلا بالحق (٥)) . وقوله (أخلصتم أنفسكم عما عبنا وأنكم إلينا لاترجعون « ١١٥ » فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم « ١٦٦ » (٦) أى تزه أن يخلق الناس عابثا في ذلك الخلق ، وأن يتركهم سدى يعتدى بعضهم على بعض ، ويظلم القوى الضعيف ، ثم لا يكون لهم حياة وراء هذه الحياة ، يحاسب فيها كل أحد على ما قدم من خير أو شر .

ومن ذلك نعرف أن الجزاء في الآخرة أمر تقضى به الحكمة ، ولا يمكن لاله حكيم أن يخلق الناس ذلك الخلق الواسع من سماء وأرض ، وما بينهما ، وما فيهما ثم لا يجعل للناس حياة يوضع

[١] يتردد . [٢] وقتا محمدا . [٣] متها بيب ولاء أو قرابة .

[٤] انظر أشهر مشاهير الإسلام في تلخيص عمر . [٥] النخل . [٦] المؤمنون .

فها الميزان للقسط، ينقلب فيها القوى ضعيفا، والضعيف قويا ، وترجع فيها كفة العمل الصالح على كفة الفساد .

ذلك ما تقتضيه الحكمة ، وتتطلبه الصلحة ، ومتى آمن الانسان بأن هناك إلها قادرا حكما كان من لوازم ذلك أن يكون هناك ثواب وعقاب ، وهناك جنة ونار ، وهناك الفرق بين المطيع والمطيع ، والمحسن والسوء .

(ذلك خلق الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) الاشارة الى إنكار الجزاء في الآخرة ، وعدم الايمان بتلك الحياة ، وبيان أن ذلك الزعم هو خلق الذين كفروا ، وسماه خلقا لأنه لم يكن على دليل ، بل هو قول توارثوه عن آباؤهم وأجدادهم ، ثم قال (فويل للذين كفروا من النار) أى بسبب إنكارهم البعث والجزاء .

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) . استفهام يراد به الإنكار ، والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاسوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد ، واتفق وخبر ، ومن سوى بينهم كان سفيها ولم يكن حكما ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

والآية تلفتتا الى أن صفة العدل والحكمة يقضيان بأن يحاسب الناس ، ويوضع كل أحد حيث وضعه عمله ، فالجزاء الحق مظهر من مظاهر أسماء الله وصفاته ، وأثر من آثار عمل الله وحكمته . وفي الآية إشارة الى خطأ من يقول : انه يجوز على الله تعالى أن يدخل من أطاعه النار ولو كان رسولا ، ويجوز عليه أن يدخل من عصاه الجنة ولو كان مشركا ، والسبب في هذا الخطأ الذي وقعوا فيه أنهم يأخذون عقائدهم عن كتب الكلام لاعن كتاب الله تعالى ، ولم تعرض كتب الكلام المشهورة بين الناس الى صفى الحكمة والعدل . وإن كانت عرضت لعموم قدرة الله تعالى وسعة مشيئته ، فكان من آثار الايمان ببعض الصفات دون بعض ذلك القول ، على أنه قد وجد في للتكلمين من أنكر عليهم ذلك الجواز ، لأنه يؤدى الى جواز أن يفسى الله تعالى حكمته ، ويدع عدله ، ومحال على الله أن يتجرد عن حكمته كما يستحيل عليه أن يعرض له نقص في قدرته أو مشيئته ، ويدل ذلك قول الله تعالى (أفجعل المسلمين كالمجرمين ۝٣٥) مالك كيف تحكمون (٣٦) (١) .

ينكر عليهم أولا أن يسوى المسلم بالمجرم ، ثم يعقب بقوله [مالك] أى شئ جعلكم تنسبون حكمه الله وعدله ، وهو فى المعنى إعادة للإنكار ، ثم قال (كيف تحكمون) تعجب من حكمهم بأن الله يجعل المسلم كالمجرم ، وإذا كان الله تعالى لم يجعل للناس يوما للجزاء إلا لاقامة العدل بين الناس ولم يرض أن يدعهم بدون جزاء ، لأن تركهم فى معنى القسوة بين المسلم والمجرم ، والمصلح والمفسد ، فكيف يجوز على الله تعالى أن يحاسب الناس ويقف منهم ذلك الموقف الذى أنكره على نفسه على فرض أنه ليس هناك جزاء ؟

فإنه تعالى لم يرض لنفسه أن يقف من خلقه موقفا سلبيا ، فيتركهم بلا جزاء لأن ذلك الموقف

السلبى مناف للعدل والحكمة ، وفيه تسوية بين المحسن والسيئ ، فكيف يرضى أن يقف الله من خلقه موقفاً إيجابياً ويحاسب الناس على أساس غير عادل ، وقاعدة بعيدة عن الحكمة .

وجلة القول أن الآيات تدلنا على أن الله تعالى أقام البرهان والدليل على أنه لم يخلق الناس عبثاً ، ولم يتركهم سدى ، وأن ذلك مناف للحكمة ، ولاغنى لهم عن حياة وراء هذه الحياة ، ولو لم يكن هناك جزاء لكان ذلك تسوية بين الخبيث والطيب ، وللصلح والفسد ، تعالى الله عن ذلك .
وهي تدل بالفحوى على استحالة أن الله تعالى يجوز عليه أن يحاسب الناس ، ثم يقف منهم الموقف الذى لم يرضه لنفسه إذا هو لم يحاسبهم .

ومنه نعرف أن مقتضى الحكمة والعدل أن يحاسب الله الناس ، وأن يكون حسابهم على قاعدة العدل وأساس الانصاف (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أينما بها وكفى بنا حاسبين « ٧٧ ») (١) .

(٩) (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) .

أى هذا كتاب أنزلناه إليك كثر البركة والخير ، لأنه يحمل في طياته سعادة الناس وهدايتهم .
وبرسدهم الى خيري الدنيا والآخرة (ليدبروا آياته) بيان للثانية من ذلك الكتاب ، وهو التفكير في آياته والنظر فيما تؤول إليه من وعد ووعد ، وترغيب وترهب ، ولم ينزله الله تعالى لنجعله تملأ وتوايد ، وكذلك لم ينزله ليقراء على القبور ، ونشره بين اللقى ، وإنما أنزله للعظة ، أنزله للذكرى ، والمسلمون ماداموا يقفون من القرآن هذه المواقف ، ولا يتخذونه إماماً لهم ، في أمره ونبيه ، وقائدهم في إرشاده وتعاليمه .

مادام المسلمون على ذلك الحال فلا تقوم لهم قائمة ، ولا يرجى لهم حياة ، وقد ختم قصة داود بهذه الجملة لأن هذه هي الثانية من ذكر قصة داود ، والذي يقرأ أول السورة يعرف ذلك ، وفيها فوق ذلك أن ذلك الكتاب الذى أنزله الله مباركاً ليتدبر الناس ما فيه من معان ، وما حواه من حكم وأحكام ، دل في جلته وتفصيله على أن جزاء الله في الآخرة واقع ولا بد ، وأن ذلك الجزاء هو جزاء عادل حكيم . وقوله (وليتذكر أولوا الألباب) أى أصحاب العقول أى ليتعظوا بذلك الكتاب ويتفهموا بما فيه ، وهو يلفتنا إلى أن العرضين عنه قد ألغوا عقولهم ، كما عطلوا أسماعهم وموابهم .
ألا ترى إلى أهل جهنم يقولون وهم يصطرخون فيها (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير « ١٠ ») فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير « ١١ ») (٢) .

فالذين ينتفعون بالقرآن هم الذين حكوا عقولهم ، واتفقوا بأسماعهم وأبصارهم ، والذين عطلوا ما وهبهم الله من حواس ، وما منحهم من نعم هم الذين حرموا الانتفاع بالقرآن والاهتداء به .
وقد ورد عن الحسن « قد قرأ القرآن عبيد وصبيان ، لاعلم لهم بتأويله ، وحفظوا حروفه ، وضيعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، والله ما هو يحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء . ولا الوزعة لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء » اهـ .

ويظهر أن أكثر المسلمين اليوم هم أولئك العبيد والصبيان ، الذين لا علم لهم بتأويله ، إن حفظوا حروفه فقد ضيعوا حدوده ، وإن حافظوا على شكله فقد فوّطوا في جوهره ، وإن حذفوا ألفاظه فقد أغفلوا معانيه ، وإن قال أحدهم : والله ما أسقطت منه حرفاً واحداً فقد أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلقه أو عمل ، فإن للسألة ليست حفظ حروف مع إضاعة حدود ، وقد أقسم الحسن أن هؤلاء مأم بحكماء ولاوزعة عن التشرع ، ودعا الله أن لا يكثر في الناس مثل هؤلاء .

وكان الحسن رحمه الله كان ينظر الى طائفة القراء في زماننا هذا وهو يقول كفته :

وإن من يطلع على أحوال هذه الطائفة ، ولا سيما الذين عرفوا [بالصيتة]^(١) يرى منهم من الخلق السيئ والسيرة النسيمة ما يبتأ منه القرآن ، تراهم يدعون الناس الى حسن الخلق وهم أسوأ الناس خلقاً ، وإلى ترك باحرم الله وهم منغمسون فيه ، وإلى القناعة والرضا وهم أسوأ الناس نفوساً ، يدعون الناس الى الخوف من الله والخشية منه وهم أفسى الناس قلباً ، يتأون كتاب الله لا يتجاوز حناجرهم ، ولم يصل الى قلوبهم ، ولا عجب فانهم لم يقرءوه للمداية والعظة ، وإنما يقرءونه للطرب والكسب .

وما نزل القرآن للطرب به السامعين ، أو تفكه به الحضور ، وإنما نزل ليكون إماماً للناس ، يعرفون به كيف يسعدون ويتعلمون منه كيف يصلحون دينهم ودنياهم ، وكيف يعتزّون على أعدائهم ، وينتصرون على خصومهم ، وإن القرآن ما سجد به سلفنا الصالح إلا لأنه عكف على دراسة معانيه قبل دراسة ألفاظه ، ونهفهم أغراضه قبل حذف كلماته ، كما ورد عن إحدى أمتهات المؤمنين « كانت الآية تنزل علينا فنعرف حلالها وحرامها قبل أن نحفظ ألفاظها » .

اللهم وفق المسلمين لحفظ كتابهم ، وفقه القرض منه ، وللعمل به في أنفسهم وبيوتهم ودولهم حتى يقبل حالهم من شقاء الى سعادة ، ومن ضعف الى قوة .

(١٠) (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب) .

بعد أن قصّ الله علينا قصة داود ، عرفنا أنه وهب لداود سليمان ، ثم عرفنا قيمة هذه الهبة . وأنها هبة عظيمة فقال (نعم العبد) أي سليمان ، ثم عقب ذلك بقوله (إنه أواب) أي رجع إلى الله تعالى كما هو حال أبيه داود ، فهو يشبه آياه في التقوى ، وهو ييان لسبب مدح الله له .

(إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) .

كلمة (إذ) ظرف لمخوف أي اذكر الوقت الذي عرض عليه فيه الصافنات الجياد ، والمراد أن يذكر هذه القصة ، وهي قصة عرض الخيل الجياد عليه كما هي عادة الملوك الذين يهتمون بما عندهم من مظاهر القوة ، ويستعرضونها ليتعرفوا قيمتها ، ليكون ذلك الاستعراض تفقداً لها ، ومظاهراً من مظاهر فضل الله تعالى ، وإرهاهاً للعدو . وقوله (بالعشي) ييان الوقت الذي عرضت فيه الخيل .

(فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) أي قال سليمان عند عرضها عليه إني أحببت

[١] الذين اتخذوا قراءة القرآن حرفة يمتشون بها .

حب الخير حبا ناشئا عن ذكر ربي ، فكلما ذكرته ذكرت فضله وإحسانه ، فان أحبتها فذلك لأني أحب مصيرها ، وان تعلقت بها فبن هذه الجهة .

أولاً أحببت حب الخير الذي منه هذه الخليل لأجل أن أذكر بها ربي ، فأنا أحبها لأمر الله وتقوية دينه ، ولا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النسي .

يرينا نبي الله داود أن ذلك هو الذي ينبغي للؤمن كلما أحب شيئاً في هذه الحياة ، ينبغي له أن يحبه لأنه يعينه على ذكر الله تعالى وشكره ، ويساعده على إقامة دين الله وإعلاء شأنه ، فإذا أوتي ولها أحبه طمعا في أن يكون له من ذلك الولد القربة الصالحة ، التي تعبد الله تعالى وتشكره ، وإذا أحب جها أو نفوذ يحبه لأنه يستعين به على نصر الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، وإذا أحب علما أحبه لأنه طريق لنشر الفضيلة ومحاربة الجهالة ، وإذا أحب مركزا من مراكز الحياة أحبه لأنه يمكنه من الإصلاح ، ويساعده على ما يحبه الله تعالى ويرضاه .

والمراد أن نبي الله سليمان لم يفتن بذلك المال الذي أعطاه الله ، بل كان يشهد فيه دائما مصوره ومنشأه ، ويقرأ في صفحاته وأهبه وماتحه ، فلم يبطره المال يوما ما ، ولم ينسه أن يشكر ربه عليه ، ويحفظ له فضله وإحسانه ، وذلك مكان العبرة من قصة الخليل (حتى توارت بالحجاب) غاية لقوله (إذ عرض عليه بالعني الصافنات الجياد) .

والغرض أن الخليل لما عرضت عليه أجروها أمامه ليعتوها للزوء ، وما زالت كذلك حتى غابت عن بصره ، ثم أمر برتقا إليه ، فأخذ يمسح سوقها وأعناقها تشريفا لها ، لسكونها للجهاد ، والجهاد من أعظم أمور الدول ، وليبائر الأمور بنفسه ، ليقننى به الوزراء ورجال الدولة ، وكذلك كان صلاح المؤمنين الأيوبي ، كان ينقل الأحجار بنفسه في بناء الأسوار أيام الحروب الصليبية .

(١١) (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) .

للمفسرين روايات كثيرة في فتنة سليمان وبيان الراد بها : منها ما لا يتفق ومركز سليمان عليه السلام ، ومنها ما هو ضعيف من جهة سنده وروايته ، وإن كان صالحا في جلته أن ينسب إلى سليمان . ومن ذلك ما روى أن سليمان عليه السلام قال « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة من نساؤه تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فظاف عليهم فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل ، فوالذي نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فرسانا » .

فهذا قوله (ولقد فتنا سليمان) ابتليناه (وألقينا على كرسيه جسدا) هو شق الطفل المذكور جيء به على كرسيه (ثم أناب) رجع إلى الله عما فعل وهو أنه لم يقل إن شاء الله ، والأنياء يحاسبون على ما لم يحاسب عليه سواهم لشدة قلوبهم من ربه .

وحديث طواف سليمان على نساؤه وإغفاله للثبته صحيح من جهة سنده ، وإن كان غريبا في معناه ، ولكن اعتبره تفسيرا للآية لم يصح .

وهذا صاحب [فتح الباري] يقول بسد أن ساق حديث طواف سليمان على نساؤه : [حكى النقاش في تفسيره أن الشق المذكور هو الجسد الذي ألقى على كرسيه - والنقاش : صاحب منكير] اه .

وكثير من المفسرين يقع في ذلك الخطأ الذي وقع فيه النقاش ، فيفسر الآية بمحدث قد يصح في نفسه ، ولكن لم يثبت أنه تفسير للآية ، ويان لها ، وليس كل ما صح من الأحاديث يصح تفسيرا .

وقد اختار الفخر في بيان فتنة سليمان وجوها : أمثلها الوجه [الثالث] وهو أن الله فتن سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه وألقى على كرسيه منه جسدا لثقة المرض ، والعرب تقول في الضعيف : انه لحم على وضم ، وجسم بلا روح (ثم أناب) رجع الى الصحة . و [الرابع] وهو أن الله ابتلاه بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجدب الضعيف الملقى على ذلك الكرسي ، ثم أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعاد الى ما كان عليه من القوة وطيب القلب .

أما قوله (رب اغفر لي) فوجهه : أن الانسان لا ينفك ألبنة عن ترك الأفضل والأولى . وحينئذ يحتاج الى طلب المغفرة ، لأن حسنات الأبرار سيئات للقرّين . ولأن الأنبياء أبدا في مقام هضم النفس وإظهار النلة والخصوع ، كما قال صلى الله عليه وسلم وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة . ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى . والله أعلم .

وقد عرض الفخر لوجوه أخرى في الفتنة كما عرض غيره من المفسرين . فصرح عنها صفحا لأنها لا تهم القارىء . ولا تتفق مع مركز سليمان الذي قال الله فيه (نعم العبد انه أواب) . أما تفسير الفتنة بالمرض فهو معقول ، لأن المرض الذي يحلّ بالانسان في هذه الحياة ابتلاء من الله تعالى ، واختبار للعبد ، وكذلك تسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات ، ولا سيما اذا كان الخوف شديدا فانه يجعل صاحبه جسدا لارواح فيه ولا حراك به ، وان كانت كلمة (أناب) قد كثرت استعمالها في الرجوع الى الله من الذنب ، ولكن المعنى الأول للكلمة هو الرجوع . قال الراغب : الوب رجوع الشيء مرة بعد أخرى ، يقال ناب نوبا ونوبة ، وصي النحل نوبا بالرجوعها الى مقارها ، ونابته نابة : أى حادثة من شأنها أن تنوب دائما ، وفلان يقاب فلانا : يقصده مرة بعد أخرى اه . فلا مانع أن نفسر (أناب) بمعنى رجع الى محبته ، أو أمنه الذي كان عنده . أما حديث الغزيران فقد تكفل الفخر بالإجابة عنه ، ونستطيع أن توجه طلب الغفران بوجه آخر ، وهو أن المرض الذي حلّ بنبي الله سليمان قد يكون ناشئا عن تقصير كما يقع لبعض الناس الذين يخرطون في محبتهم ، أو يصرفون في أعمالهم المجهدة المضية ، فإذا حلّ بالانسان مرض ، وكان له دخل في حلول ذلك المرض تنبه الى الخطأ الذي وقع فيه . وطلب من الله الغفرة ، لأن الله أوجب عليه أن يحفظ محبته ، ومحول بينها وبين الأمراض ، ولا سيما إذا كانت محبة نبي من الأنبياء ، أو ملك من ملوك الأرض المصلحين . فإذا مرض فقد مرضت للملكة جميعها . وإذا سلم سلم الناس عامة .

ومثل ذلك يقال في ابتلاء الله له بتسليط خوف أو توقع بلاء . فقد يكون له يد في تسليط ذلك الخوف أو توقع البلاء ، بسبب تقصير في حيطة للملك ، أو اغفال لتحصين البلاد . فسلط الله عليه

ذلك الخوف ابتلاء له واختبارا ، وليكون ذلك الابتلاء تعلما له ودروسا نافعا في الحياة ، حتى لا يقع في ذلك التقصير مرة أخرى .

ومنه نستطيع أن نفهم كلمة [أناب] وهو أنه رجع الى الله وأحسن ذلك التقصير الذي وقع منه من جهة محبته ، أو من جهة ملكته .

(قال رب اغفر لي) أي ما فرط مني مما سب لي ذلك الرض أود ذلك الخوف ، أو اغفر لي ما بين شأنه أن يكون من مخالفة الأفضل وترك الأولى .

(١٢) (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي انك أنت الوهاب) .

قدّم طلب المغفرة على طلب الملك ، لأن مهام الدين فوق مهام الدنيا ، ثم طلب من الله ملكا لا يصلح لأحد من بعده لظلمته ، أو لا يستطاع أحد أن يسلبه مني بعد هذه الفتنة ، أو لا يشغل لغيري من البشر : بأن يكون معجزة لي . ودليلا على صدق ونبؤي .

(انك أنت الوهاب) تهب الملك والنبوة لمن تشاء ، وقد أحب أن يحصه الله تحاصة ، كما خصّ أباه داود بالآلة الحديد ، وعيسى بإحياء الموتى .

وقد روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان عفرينا من الحق تفلت على الباردة ليقطع صلاتي ، فأمكنني الله منه ، فأخذته فأردت أن أربطه الى سارية من سواري للمسجد [عمود] حتى تنظروا إليه كالكم ، فذكرت دعوة أخي سليمان - رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي - فردده خاسئا » .

(فسخرناه للريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) أي أجاب الله دعوته ، وأعطاه سلطانا لم يعطه لأحد من بعده من الرسل ، وأول شيء من السلطان سلطانه على الريح ، وقدرته عليه . فجعله يجري بأمره حيث قصد ، وأنى أراد ، ووصف الريح بأنها رخاء : أي لينة للإشارة الى أن هذه الريح التي جعلها الله عاصفة شديدة قد ألتها ولطفها لئيبه سليمان ، فصارت رخاء تسير به ، وتحت سلطانه الى المكان الذي يقصد ، وقد وصف الله سرعتها في سورة سبأ بقوله (غدورها شهر ورواحها شهر) .

(والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد) أي وسخر الله له الشياطين وفيهم البلاء ، والتواص الذي يستخرج اللؤلؤ من البحر ، وسخر آخرين من حمدة الشياطين يقرن بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكفة عن الفساد . والصفد : التقييد ، وربما كانت الأصفاد تمثالا لكفة شرم وجسمهم حجابا يناسب أجسامهم النارية .

(هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بنير حساب) أي هذا الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة عطاؤنا ، فأعط منه ما شئت ، من المنة ، وهى العطاء (أو أمسك) عن العطاء (بنير حساب) حال من عطاؤنا أي هو عطاء كثير لا يكاد يقدر على عدّه (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ، أي ذلك عطاؤنا بإياه في الدنيا ، وله عندنا فوق ذلك الخطوة وحسن الرجوع ، وهو الجنة ، ولله (أكثر) من هذا . عن أن يقول قد أمتنا دعوته بطلب المغفرة ، لأن من له عند الله الخطوة وحسن الرجوع هو مغفور

الذنب . وبلغنا بالسكوت عن غفران ذنبه الى أنه لم يكن هناك ذنب لسلطان كدنوب عاتة الناس ، وانما هو ظن منه واحتياط كظن داود ، فاستغفر لذلك ربه فغفر الله له .

دعوة عيسى

إلى الله تعالى

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ «٤٥» وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ «٤٦» قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٤٧» وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ «٤٨» وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ ^(١) وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٤٩» وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا «٥٠» إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ «٥١» فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْجَوَارِثُ ^(٢) نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «٥٢» رَبَّنَا ءَامِنَا

[١] التي يولد مطبوس اللبن . [٢] أصحاب عيسى وخرواصه .

وهو يصدق بالآيات المتعددة .

ثم سرد الآيات فقال (أتى أخاؤكم من الطين كهية الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله) وهو اخبار من الله تعالى أن أعطاه ذلك السر ، وهو أن يصور من الطين كهية الطير فينفخ في هذه الصورة فيكون طيرا ، ويرى الأكه والأبرص ويحيى الموتى ، وقوله (باذن الله) أى بيسيره وإعانه ، لا بقدرة عيسى ولا بكسبه ، لأن ذلك شأن الآيات التى يؤيد الله تعالى بها رسله .

وقد امتن الله تعالى على نبيه عيسى عليه السلام بهذه النعم إذ يقول (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وإذ تخلق من الطين كهية الطير باذن فتنفخ فيها فتكون طيرا باذن وتبرى الأكه والأبرص باذن وإذ تخرج الموتى باذن « ١١٠ » (١)) والظاهر من ذلك الامتنان وقوع هذه الآيات ، وقوله (وأنبتكم بمانا كلون ومانه خرون فى بيتوكم) فالمراد أن فى استطاعتى أن أخبركم بحصاة أسماك التى لا يحصى سواكم وهى أقل آيات عيسى عليه السلام ، وقد أعطاه الله لمن دون الأنبياء .

ثم عقب ذلك كله بقوله (ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) فيه علامة واضحة على صدق عيسى فيما يخبر به عن الله تعالى ، ان كنتم مؤمنين انتقم بهذه الآيات واعتبرتم بها ، (ومصقفا لما بين يدي من التوراة) أى وسيرسلنى الله مصقفا لما بين يدي من كتاب التوراة التى أنزلها على موسى ، فهى تعتبر شريعة له كما كانت شريعة لموسى (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) فقد كان حرم على بنى اسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكفرهم فأحلها عيسى ، وهو نسخ لبعض أحكام التوراة الفرعية (فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) ذلك من تمام البشارة : أى وسأقول لهم بعد هذه الآيات : اتقوا الله وأطيعون فانه ربي وربكم ، فاعبدوه وحده ، هذا صراط مستقيم لا عوج فيه ولا أمت .

(٢) (فلما أحسن عيسى منهم الكفر) الخ انتقال من البشارة بعيسى عليه السلام الى ذكر خبره مع قومه ، وطوى القرآن ما بينهما من خبر ولادته ونشأته وبشته مؤيدا بتلك الآيات ، وهو من إيجاز القرآن الذى تقرر به ، وكأنه يقول : فلما ولد عيسى وترى وبش ، وأحسن من قومه الكفر (قال من أنصارى الى الله) الخ : أى فلما شعر عيسى من قومه بنى اسرائيل الكفر بالعداد والمقاومة ، والتصد بالأيذاء ، توجه بالبحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه فى دعوته منخلعين عما كانوا فيه ، منزوين الى الله ، منصرفين الى تأييد رسوله وفصره على خاذليه .

وجدير بكل من يدعو الى الله ويحسن من قومه ذلك الاحساس أن يبحث عن القوم الذين يشاركونه فى العقيدة ، ويعتقون معه الاسلام حتى ينصرف بهم على من عاداهم ، ويؤمن بهم كيد الكاذبين ويطش الباطنين ، وحتى يكونوا حزابا لهم يأمنونهم ويأمنونهم ، ويسارروهم ويساررونهم ويشاورونهم فى كل خطوة يخطوها وكل عمل يقوم به ، وقد يظن الانسان عدوه ناصر له فى دين الله فيخذه عند حاجته الى النصر ، لذلك كان من الحزم تحسس ذلك النوع من الأنصار ،

والوقوف على جلية أمره ، حتى إذا جهدهم الشدائد ولعبت بهم الفتن كانوا كالجبال ثباتا وقوة ، والله ما أحلى هذه الكلمة ، وما أربطها على قلوب المؤمنين حينما يوجهها لهم رسول من رسل الله كعيسى عليه السلام (من أنصاري إلى الله ؟) أنها لتهز القلوب إلى الله هزاً ، وتحوكها إلى مولاهم وخالقها ، وترى المستمع لما أن رسل الله لم يكن لهم حظ من الدعوة سوى أن يصدعوا بأمر ربهم ، وينصاعوا لنصرة خالقهم ، ولم يطلبوا الناس ليؤدوا لهم عملاً يعود نفعه على شخصهم حسب ، وإنما يدعون الناس ليجيبوا داعي الله ويصلحوا في الأرض ، وكان على الناس أن تظن مثل ذلك ، ولكن الغناد غلب عليهم ، والتقاليد طمست على قلوبهم .

(قال الحواريون نحن أنصار الله) قد اختلفنا من تقاليدنا القديمة ، وأخذنا بتعليم عيسى عليه السلام ، وبمثل منتهى الطاعة في تأييده ، فإن نصر الله لا يكون إلا بذلك ، قيل لفظ الحوارى مأخوذ من الحوارى [بضم الحاء وتشديد الواو] وهو لباب الحقيق وخالصه لأنه من خيار القوم ونصفتهم ، وفي حديث الصحيحين « لكل نبي حوارى وحوارى الزبير » ومن هنا قيل هو خاص بأنصار الأنبياء (آمنّا بالله واشهد بأنا مسلمون) مخلصون له متقادون لأمره ، وفي الآية دليل على أن الاسلام دين الله على لسان كل نبي وان اختلفوا في بعض صوره وأشكاله ، وأحكامه وأعماله (ربنا آتينا بما أنزلت اتبعنا الرسول فاكفينا مع الشاهدين) صدقنا بما أنزلت من الانجيل بعد تصديقنا بك ، واتبعنا الرسول عيسى ابن مريم عليهما السلام ، وقد أضافوا إلى الايمان العمل لأنه أثره ونتيجته ، وبرهانه الذى يدل عليه ، كما قال (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم « ٣١ ») (١) (فاكتبنا مع الشاهدين) للرسول ببلوغ الدعوة ، وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود .

(٣) (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) دبروا قتل عيسى عليه السلام خفية ، ودبر الله نجاته من حيث لم يحتسبوا ، فكان مكر الله خيرا من مكروهم ، لأنهم دبروا للشر ، والله تعالى دبر للخير ، فأما يدبر لأقامة السفن واتمام الأحكام ، وكأها خير في نفسها ، أما مكروهم فكان سيئا ، وإن كان المكرو في نفسه فيه الحسن والسيئ ، ولذلك يقول (استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يخفى المكسر السيئ إلا بأهله « ٤٣ ») (٢) (إذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعتك إلى ومطورك من الذين اكفروا) أى مكر الله بهم ، إذ قال لنبيه (إنى متوفيك) قيل معناه مستوفى أجلك ، ومعناه أنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل صكته لك ويميتك حتف أفك ، لا قتلا بأيديهم (ورافعتك إلى) إلى صاى ومقر ملائكتى (ومطورك من الذين كفروا) من سوء جوارم وخبث محبتهم . وقيل متوفيك : فاضك من الأرض . وقيل : يميتك في وقتك بعد النزول من السماء ، ورافعتك الآن ، والراد أن الله تعالى لا يسلط الكفار عليه فيقتلوه وسيهدم عليهم مكروهم (وجناح الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيمة) هى فوقية روحانية دينية ، وهى كونهم أحسن أخلاقا وأكمل آدابا وأقرب إلى الحق والفضل .

ثم بعد ذلك قال ان مرجع الجميع إلى الله تعالى وهو الذى سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه فيعطى

كل فرقة جزاءه (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم) الخ .

بعد أن بين خلق عيسى وبجته بالآيات وما كان من أسرقومه معه كشف لنا شبهة الفتونين عطفه على غير السنة المعتادة والمحاجين فيه بنير علم فقال (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم) صفة في خلق الله إياه على غير مثال سابق كصفة آدم في ذلك ، ثم فسر ذلك المثل بقوله (خلقه من تراب) . فقرر أوضاعه وكون جسده من تراب حيث أصابه الماء فكان طينا لازبا فيه لزوجة (ثم قال له كن فيكون) كقوته تكويننا آخر بنفخ الروح فيه : أي ثم قال له كلمة التكوين التي تتألف من (كن فيكون) فهل يعزى على صاحب هذه الشبهة أن يخلق عيسى من غير أب ؟ (الحق من ربك) أي ذلك هو الحق الذي لا شك فيه من ربك (فلا تكن من المترين) بعد بيان الله تعالى

عيسى عليه السلام

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَفْقَهُوا هَذَا يَقُولُوا تَسْمُنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّامَةَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ اتِّي بُوتُفَكُونُ ﴿٧٥﴾ المائدة

شرح وعبرة

(١) (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) الخ .

قد كانت عقيدة التثليث شائعة عند براهماة الهند والبوذيين ، وقدماء المصريين ، وبعض الفرس ثم انتقلت من البراهمة والبوذيين ، وقدماء المصريين إلى النصارى ، أما كتب العهد القديم والجديد فلا يوجد فيها ما يصلح أصلا لهذه العقيدة الوثنية ، بل وجد في الأناجيل ما يدل على التوحيد الخالص . وقد اختلف المفسرون في أنه هل كان يوجد في النصارى فرق ثلاثة : فرقة تقول : إن الله هو

السيح ، وأخرى تقول : إن الله ثالث ثلاثة فيها السيح ، وثالثة تقول : للسيح ابن الله ، أو هي فرقة واحدة تقول : إن هناك أقانيم ثلاثة ، وأن كل واحد منها عين الآخر ، فألاب عين الابن ، وعين روح القدس .

ولما كان للسيح هو الابن كان عين الآب وعين روح القدس ، فذهب ابن جرير إلى أن الذي كان عليه جواهر النصارى قبل أن يفرقوا إلى بقوية وملكانية ونسطورية أن الإله القديم جوهر واحد يتم ثلاثة أقانيم : أباً والداً غير مولود ، وابناً مولوداً غير والد ، وزوجاً متقبعة لهما ، وأن الذين يقولون : إن آلهتهم ثلاثة هم غير الفرقة التي تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم . وأن فرقة ثالثة تقول : إن المسيح هو ابن الله ، وليس هو الله ولا ثالث ثلاثة .

وكلام ابن جرير يظهر أنه حق في متقدمي النصارى ، أما متأخروهم فانهم يقولون بالأقانيم الثلاثة ، وأن كل واحد منها عين الآخر ، فإذا قال الله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) كان منطبقاً عليهم ، لأنهم قائلون بأعداد كل أقنوم مع غيره من الأقانيم ، وإذا قال (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) كان كذلك ، لأنه ثالث أقانيم ثلاثة ، وإذا قال : إن النصارى قالت (المسيح ابن الله) كان ذلك حقا .

والقرآن يرينا أنهم كفروا بكل فرقة من هذه الفتريات وأشركوا ، كفروا بآلهتهم اتحاد الله مع عيسى ، وآلهتهم بقوة عيسى عليه السلام لله تعالى ، وآلهتهم أن الله ثالث ثلاثة فيهم عيسى ولذلك عقب قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) بقوله (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) وعقب قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) بقوله (وما من إله إلا إله واحد) .

فكل هذه الأقوال ناقضة للتوحيد مقتضية للكفر ، وهو ما عليه مذاهب نصارى اليوم حتى [البروتستانت] الذين أصلحوا النصرانية منذ ثلاثة قرون ، والذين لم يستطيعوا أن يردوا النصرانية إلى أصلها من التوحيد الصحيح ، ولا يزالون يقولون بألوهية السيح ، وبالتثليث . ويعتدون الواحد غير مسيحي ، كما يقول بذلك الفرقان الأخريين الكبيرتان من فرق النصارى . وهم : الكاثوليك ، والأرثوذكس ، لجميع فرق النصارى في هذا العصر تقول : إن الله هو السيح ابن مريم ، وأن للسيح هو الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

والتثليث عند النصارى عقيدة يخطب فيها جهلاؤهم ويتحجب عناؤهم ، ثم يتهنون إلى الاعتراف بأنهم يعتقدون ولا يفهمون ، ويكفون بها الناس ولا يستطيعون إقناعهم بها ، وسأذكر لك قصة من كتاب [إظهار الحق] لرحمة الله المندى يقول فيها : تنصر ثلاثة أشخاص ، وعلمهم بعض التيسيين عقيدة التثليث ، وكانوا في خدمة القسيس ، فجاء محب من أحياء هذا القسيس ، وسأله عن تنصرهم ، فقال : ثلاثة أشخاص تنصروا . فسأل هذا المحب هل تعلموا شيئاً من العقائد الضرورية فقال : نعم . وطلب واحداً منهم ليرى صاحبه ، فسأله عن عقيدة التثليث فقال : انك علمتني أن الآلهة ثلاثة ، أحدهم الذي في السماء ، والثاني تولد من بطن مريم العذراء ، والثالث الذي نزل في

صورة الحمام على الاله الثاني بعد ماضا ابن ثلاثين سنة غضب القسيس وطرده . وقال هذا مجهول ثم طلب الآخر منهم وسأله فقال : انك علمتني أن الآلهة كانوا ثلاثة ، وطلب واحد منهم ، فالباقى إلهان ، غضب القسيس عليه أيضا وطرده ، ثم طلب الثالث وكان زكيا بالنسبة للأولين ، وحرصا في حفظ العقائد ، فسأله ، فقال : يامولاي حفظت ماعلمتني حفظا جيدا ، وفهمت فهما كاملا بفضل الرب المسيح ، ان الواحد ثلاثة ! ! والثلاثة واحد ! ! وطلب واحد منهم ومات ، فأتى الكل لأجل الاتحاد ، ولا اله الآن ، وإلا يلزم نفي الاتحاد اه .

قال الشيخ رحة الله الهندي : لا تقصير للسؤولين ، فان هذه العقيدة يخطئ فيها الجهلاء هكذا وينحبر علماءهم ، ويستفرون بأننا نفتقد ولا نفهم ، ويعجزون عن تصويرها وبيانها اه وهكذا الباطل لا ينسفه العقول ، ولا تطمئن له النفوس ، ولا يستطيع صاحبه أن يقيم عليه برهانا .

(٢) (ما للشيخ ابن مريم الإرسول قد خلت من قبله الرسل) ماهو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله ، يجرى عليه مايجرى عليهم ، قد جاء بآيات من الله كما جاءوا ، فلم يكن إله ولا جزء من الاله ، فأمر عيسى عليه السلام محصور في الرسالة لايتقدمها الى الالهية بحال من الأحوال (وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) وأمه من الأتمهات الصدقات المصطفاة ، لأن تكون أمنا لعيسى كما قال (وإذ قالت لللائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين «٤٣» (١)) .

وتأمل الكناية المؤدبة في قوله (كانا يأكلان الطعام) ومن كان كذلك كان عبدا تجرى عليه نوااميس العيد ، فمن اخطأ اتفاده إلهما ، لأن الاله غنى ، وعيسى وأمه محتاجان الى الطعام والشراب ، ولانجتمع الوهية واحتياج ، (انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أئى يؤفكون) تعجب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه النظر لهؤلاء القوم بين لهم الله آياته واضحة ، دالة على وحدته وقدرته . ثم هم مع ذلك يصرفون عن الحق بعد البيان الواضح .

عيسى عليه السلام

إِذ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ

هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «١١٠» وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَابْتَغُوا لِي
 قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «١١١» إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ
 يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ «١١٢» قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَقْلُتُهَا قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقَتْنَا
 وَنَكُونُ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ «١١٣» قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ
 عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَأَوْزُقْنَا
 وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ «١١٤» قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَرَنْ يَكْفُرَ بَعْدُ
 مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذُّبُ عَذَابًا لَا أَعَذُّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ «١١٥» وَإِذْ قَالَ اللَّهُ
 يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ الْهَيْدِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ
 سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ
 مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلمُ السُّعُوبِ «١١٦» مَا قُلْتُ
 لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا
 مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 شَهِيدٌ «١١٧» إِنْ أَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَقَرَّرْتَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ «١١٨» المائدة

شرح وعبرة

(١) يذكر الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام نعمته عليه وعلى والده مريم إذ أبده روح
 القدس ، وهو جبريل عليه السلام لأنه الملك الذي يؤيد الله تعالى به رسوله بالتعليم الإلهي والتثبيت
 في الواطن التي من شأن البشر أن يضلوا فيها . قال تعالى في شأن القرآن (قل نزل به روح القدس
 من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبنرى للمسلمين «١٠٢» (١) وكان كلامه في الهدى
 والقبولة نعمة على والده لأنه برآها بذلك القول من كلام الآئمين الذين أنكروا عليها أن يكون

لها غلام بدون أب ، أما كونه نعمة عليه فظاهر ، فمن كلامه في المهد (انى عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا » ٣٠) وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » ٣١) وبرأى بالذي ولم يجعلني جبارا شقيا » ٣٢) (١) .

أما كلامه كجلا فهو كلامه بعد الرسالة ولقائه الحجة على خصومه وأعدائه (وإذا علمتكم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) يذكره بنعمته عليه بتعليمه الكتاب ، والبراد به ما يكتب أى علمتكم قراءة الكتاب : أى ما يكتب ، أو علمتكم الكتابة بالقلم ، ووقفتم لتعلمها (والحكمة) هي العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة الى العمل النافع ، بما فيه من الاقناع والعبرة ، والبصيرة وفقه الأحكام . والتوراة هي الشريعة الموسوية .

ومنه تعلم أن التوراة كانت شريعة لعيسى عليه السلام ، كما كانت شريعة لموسى قبله . والانجيل : ما أوحاه الله إليه من الحكم والأحكام والبشارة بخاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وجعل هذه النعم فيما مستقلا وفصلها بكلمة (إذ) لأنها نوع آخر من النعم بخالف النوع السابق ، إذ كان النوع السابق انعاما على نبي الله عيسى وعلى أمه ببراءتها من الفاحشة التي رماها بها الأفاكون ، أما هذه فهي نعم ترجع الى تعليم الله تعالى له الكتابة والعلم النافع ، وشريعة التوراة وكتاب الانجيل .

(وإذا تخلق من الطين) الخ انتقال الى نوع آخر من النعم وهو نعمته عليه بالخوارق والمعجزات . والخلق في أصل اللغة التقدير ، وجعل الشيء بمقدار معين ، يقال خلق الاسكافي النعل ثم فواء : أى عين شكله ومقداره ثم قطعه . قال الشاعر :

ولأن تفرى ما خلقت و به * ض القوم يخلق ثم لا يهرى

يريد إذا قدرت شيئا وأعددته أمشيته ولم تردد فيه ، وبعض القوم يقدر ثم لا ينفذ ما أراد . والمعنى اذكر نعمتي عليك إذ جعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرا باذن الله ومشيعته ، أو بتسهيله وتكوينه ، فأنت تفعل التقدير والنفخ والله هو الذي يكوّن الطير ، و (الأكه) من ولد أعمى ، ويطلق على من عمى بعد الولادة واخراج الولد الى الحياة ، وقد صرح بذلك في آية آل عمران ، وكرر كلمة (باذن) عقب كل معجزة حتى لانفى أن هذه المعجزات ليست من صنع عيسى عليه السلام بل هي من صنع الله تعالى على يد رسوله شأن سائر المعجزات (وإذا كفت بنى اسرائيل عنك) الخ انتقال الى نعمة أخرى وهي حمايته من بنى اسرائيل عندما أرادوا قتله وصلبه ، وكان ذلك الذي أرادوه في الوقت الذي جاءهم فيه بالآيات الواضحة الدالة على صدقه في دعوى الرسالة ، فقال الكافرون منهم ان الذي جاء به من المعجزات هو من جنس السحر ، والتمويه الذي يرى الشيء على خلاف حقيقته .

(٢) (وإذا أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى ورسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) يذكر نبيه عيسى عليه السلام بنعمة أخرى عليه : هي إلهامه الحواريين الايمان به ورسوله عيسى وتوفيقه لهم لذلك الايمان - في الوقت الذي كذب فيه جمهور بنى اسرائيل ، فجعل الحواريين

أنصاراً له يؤيدون حجته ، وينشرون دعوته ، والحواريون جمع حوارى ، وهو من جنس لك وأخلص سرا وجهراً في مودتك ، وقيل (أوحيت الى الحواريين) أنزلت على أنبيائهم أطالهم بالإيمان بنى ورسولى ، فأجابوا داعى الله تعالى وقالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون : مدعون لما يترتب على الإيمان من الأسم والتهى ، وقد حكى الله عنهم في سورتي آل عمران والصف أنهم حين قال لهم للسبح (من أنصارى الى الله) قالوا (نحن أنصار الله) .

(إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) أى هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سأله لنا ذلك ؟ والمائدة : الخوان الذى عليه الطعام .

(قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى قال عيسى لهم : اتقوا الله أن تقترحوا أمثال هده الاقتراحات التى كان سلفكم يقترحها على موسى ، لئلا تكون فتنة لكم ، فإن من شأن المؤمنين الصادق أن لا يجرب ربه باقتراح الآيات ، أو أن يعمل ويكسب ، ولا يطلب من ربه أن يعيش بخوارق العادات ، وعلى غير السفن التى جرت عليها معاش الناس (قالوا زبد أن نأكل منها) الخ : أى نحن نطلبها لأننا في حاجة إلى الطعام ، أو زبد أن نأكل منها أكل تبرك ، وزيد أن تطمن قلوبنا بشاهدة خرق الله تعالى للعادة ، فنضم علم الشاهدة إلى علم النظر والاستدلال ، ونظم بهذه المشاهدات أن قد صدقتنا فيما وعدتنا من ثمرات الإيمان كالاستجابة للدعاء ولو بخوارق العادات . وأن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بنى إسرائيل ، فيؤمنوا بالصدق للإيمان ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً .

ذلك كله على القول بأن الحواريين بقوا على إيمانهم بعيسى عليه السلام ، وأن الطلب كان بحسن نية ، فلم يكن قسنا منهم ، ولا إخراجاً لعيسى باقتراح آية للمائدة ، ويكون قول عيسى عليه السلام لهم (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) تذكيراً لهم بأثار الإيمان وثمرته ، وهى أنهم لا يقترحون على الرسول آيات ، وإنما يكتفون بما أيد الله به رسوله .

أما إذا قلنا إنهم آمنوا بآدى الأسم بعيسى إيماناً سوريا وقالوا : نحن أنصار الله ، ثم كفروا بعيسى بعد ذلك باقتراح الآيات كما كان يقترحها كفار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه الله عنهم في سورة الاسراء (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً « ٩٠ » أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تصبوا « ٩١ » أو تنشق السماء كما رزمت علينا كسفاً أو تأتى بلابة وللائكة قبلا « ٩٢ » أو يكون لك بيت من زخرف أو ترى فى السماء . ولن نؤمن (ربك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً « ٩٣ ») . وكما حكاه الله عنهم في سورة الفرقان (وقال الذين لا يرجون لقاء ما لولا أنزل علينا اللاتكة أو ترى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً « ٢١ ») .

إذا كان أولئك الحواريون من ذلك الصنف المتنعت تعين أن يكون وحى الله للحواريين بالإيمان مطالبهم به من طريق الرسل ، ويكون قولهم (آمنا) فى أول أمرهم ، أو قول نفاق وملتق وتعين أن يكون الفرض من القصة تذكيره بنفاق قومه معه . وإخراجهم له حين سألوه مائدة

من السماء ، والشأن في الموائد أن تطلب من الأرض لامن السماء ، وأن الله تعالى أجابهم إلى المائدة ليقطع أعذارهم ، ويخلص رسوله من إغاثتهم إياه . أو أنه أجابهم إلى ذلك الطلب بشرط ، وهو أن من يكفر بعد نزول المائدة يمتن به الله عذابا لم يعذبه أحدا من الناس . فلما رأوا ذلك الشرط وعرفوا أنهم لا قبل لهم بالعذاب أعرضوا عن طلب المائدة . وقالوا لاحاجة لنا بها على ما سأتى من آراء العلماء في المائدة التي اقترحها أصحاب عيسى عليه السلام .

(٣) (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) الخ .

طلب عيسى من الله تعالى إزال المائدة ، فتداه باسم اللغات الجامع لمعنى الألوهية والقدرة ، والحكمة والرحمة وغير ذلك ، فقال (اللهم) ثم باسم الرب المبالى على معنى الملك والتدبير والتربية والاحسان خاصة ، فقال (ربنا) وقد طلب من الله تعالى أن ينزل عليهم مائدة سماوية يراها هؤلاء القفرحون بأبصارهم ، وتتغذى بها أبدانهم وأرواحهم ، ثم وصفها بقوله (تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا) ولفظة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور ، وبمعنى الموسم المديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معين من أيام السنة للعبادة أو لشيء آخر من أمور الدنيا (وآية منك) علامة منك على حجة نبوتى ودعوتى (وارزقنا) أى من هذه المائدة أو من غيرها ما ننزى به أجسادنا أيضا (وأنت خير الرازقين) ترزق من تشاء بحساب وترزق من تشاء بغير حساب ، وقيل وارزقنا الشكر عليها .

(قال الله ائى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) وعد من الله تعالى لعيسى أن ينزلها عليهم ، ولكنه رتب على هذا الوعد شرطا أى شرط ، فقال (فمن يكفر بعد منكم) الخ والثاء لترتيب ما قبلها على ما بعدها ، والمعنى أن من يكفر منهم بعد هذه الآيات التي اقترحوها فإن الله تعالى يعذبه عذابا شديدا لا يمتدب مثله أحدا من سائر ~~كفار~~ العالمين كاهم ، أو على أمتهم الذين لم يعطوا مثل هذه الآية .

وقد اختلف مفسرو السلف في المائدة أنزلت بالفعل أولا ؟ فروى عن بعضهم أنها نزلت . واختلف هؤلاء في الطعام الذى نزل - أى على وجه المعجزة من الله - فأبهم بعضهم ، وعينه آخرون ، ورجح ابن جرير نزولها انجازا للوعد ، وأنه كان عليها ما كول لافئنه ، وقال : ان العلم به لا ينفع ، والجهل به لا يضر . وقال آخرون : انها لم تنزل أبته ، فروى لىث بن أبى سليم عن مجاهد فى قوله (أنزل علينا مائدة من السماء) قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وكذلك روى ابن جرير عن الحسن أنها لم تنزل ، وأنه لما قيل (فمن يكفر بعد منكم فإى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) قالوا لاحاجة لنا فيها ، فلم تنزل . روى ذلك بأسانيد صحيحة الى مجاهد والحسن .

(٤) (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأئى إلهين من دون الله) الخ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عطف على قوله تعالى (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك) الخ . والمعنى اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم عما أجابهم به أنهم إذ يقول لعيسى : اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك الخ ، وإذ يقول له بعد ذلك :

«أنت قلت للناس اتخذوني وأبى الهين من دون الله؟» أى يسأله أقالوا ذلك القول بأمر منك أم افترؤهم وابتدعوه من عند أنفسهم؟ ويعلم الله أن عيسى عليه السلام لم يقل لأحد اتخذنى إلها أو اتخذ أى إلها ، ولكن حكمة السؤال فى ذلك الوقت أن تظهر براءة عيسى من الشرك ، وإقامة الحجة على المشركين الذين ظلموا عيسى وأمه ذلك الظلم ، لأن رسل الله جميعهم جاءوا بالتوحيد الخالص .

ولايلىق بهم وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقولوا للناس: كونوا عبادا لنا من دون الله كما قال (ما كان لبشر أن يؤتبه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرون » ٧٩ » ولا بأسكم أن تتخفوا الملائكة والنبیین أربابا یاأسكم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون « ٨٠ » (١) . وسؤاله لعيسى عليه السلام فى الآخرة هو كسؤاله للرسول بعد أن يجمعهم ويقول لهم (ماذا أجبت ؟) فيقولون (لا علم لنا إلك أنت علام الغيوب) أى إلك أعلم منا بمن أجاب دعوتنا ومن لم يجب ، ونحن لا نعلم من الناس الذين عاصرونا سوى الظاهر منهم ، أما من لم يعاصرنا من الأقوام فلا نعلم من أسمرهم شيئا ، أما أنت فتعلم ظاهرم وباطنهم ، وتعلم من كان فى عصرنا ومن جاء بعدنا وقوله (من دون الله) أى حال كونكم متجاوزين بذلك اتخاذ توحيد الله وإفراذه بالعبادة . وهو يصدق باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى ، وهو الشرك ، سواء اعتقد المشرك أن هذا اتخذ ينفع ويضر بالاستقلال وهو نادر ، أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله تعالى إياه ، وفويض بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب ، أو بالوساطة عند الله وحده تعالى بما له من التأثير والكرامة على النفع والضرر ، وهو الأكثر الذى كان عليه مشركو العرب عند البعثة كما حكى الله عنهم فى قوله (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ١٨٥ » (٢) وقوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ٣٣ » (٣) .

وقلما يوجد فى متعلی الحضرة من يتخذ إلها غير الله متجاوزا لعبادته الايمان بخالق الكون ومديره ، فان الايمان الفطرى للفروس فى غرائز البشر هو أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك أحد كنهها .

أما اتخاذ المسيح إلها فلائهم قالوا (المسيح ابن الله) أو (إن الله هو المسيح ابن مريم) أو (إن الله ثالث ثلاثة) فيهم المسيح ، ومن كانت له هذه العقيدة فقد اتخذ المسيح إلها من دون الله : أى أنه أشرك به ، ولذلك سعى الله أصحاب هذه العقائد مشركين بالله تعالى فى الألوهية التى لا تأنى إلا لله تعالى .

أما أمته فبإدتها كانت متفقا عليها فى الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين ، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التى حدثت بعد الاسلام بقرن ، وهذه العبادة التى توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح عليهما السلام : منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء ، واستغاثة واستشفاع ، ومنها صيام ينسب إليها ويسمى باسمها ، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولبيورها

وتماثيلها ، واعتقاد السلطة القبية لها التي يمكنها بها في زعمهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة
بنفسها أو بواسطة ابنها .

وقد صرّحوا بوجوب العبادة لها وإن لم يطلقوا عليها كلمة [إله] بل يسمونها [والدة الآلهة]
ويصرّح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لا يجاز ، والقرآن يقول هنا : [إنهم اتخذوها إلهين لا
والاخذوا غير التسمية .

ومن النصوص الواردة على عبادة النصارى لمريم قول [الأب لويس] في مقالة له عن الكنائس
الشرقية [أن تعبد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور] . وقوله [قد امتاز به
الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المتبوعة أم الله] .

(٥) (قال سبحانه) بدأ عليه السلام جوابه بتزييه إلهه وربّه عز وجلّ عن أن يكون
معه إله. ثم انتقل من هذا الى ثبوت نفيه العالمة بالحقّ عن قول لا يذنب لمثلّه أن يقوله ، فقال
(ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) لأنك أيّدني بالصحة من مثل هذا الباطل ، وهو أبلغ في
البراءة من نفي ذلك القول وانكاره انكارا مجردا ، لأن نفي الشأن يستلزم نفي الفعل نفا مؤبدا
بالدليل ، ثم أكد هذه النتيجة بحجة أخرى قاطعة فقال (ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في
نفسى ولا أعلم ما في نفسك) أى ان كان ذلك القول وقع مني فرضا فقد علمته ، لأن علمك محيط
بكل شيء ، تعلم ما أسرّه وأخفيه في نفسى ، فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه فعله مني
غيري ؟ ولا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا تهدى إليها بنظر استدلال كسبي إلا ما تظهرني
عليه بوحى وهى (انك أنت علام الغيوب) أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك ، لأن علمك المحيط
بكل ما كان وما يكون علم ذاتي غير متزعزع من صور المعلومات ، ولا مستفاد بتلقين ونظر واستدلال
(ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم) وهو التوحيد الخالص ، وهو أمرهم
بعبادتك وحدك ، واعلامهم بأنك ربي وربهم وأننى عبد من عبادك مثلهم ، لا مهزلة في عليهم
إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) كنت قائما عليهم أراقبهم
وأشهد على ما يقولون ويفعلون ، فأقرّ الحقّ ، وأنكر الباطل مدة وجودى بينهم (فلما توفيتني
كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كلّ شيء شهيد) فلما توفيتني إليك كنت أنت المراقب لهم
وحبك إذا انتهت مدة رسالتى فيهم ، فلا أشهد عليهم ، وأنا لست معهم ، وأنت شهيد عليهم ،
وشهيد بيني وبينهم .

ولما كان المراد من السؤال الذى أجيب عنه بذلك الجواب هو إقامة الحجة التي يظهر بها عدل
الله تعالى يوم القيامة - فوّض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى بحسب ما تقتضيه شهادته تعالى
وصفاته ، فقال (ان تعذبهم فاعذبهم عيادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) أى ان تعذب
أولئك الناس الذين أرسلتني إليهم ، فلعنهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك وحدك ، فضل
من ضلّ منهم ، وقالوا ما لم أقل لهم ، واهتدى من اهتدى منهم ، فلم يعبدوا معك أحدا من دونك
فاتهم عبادك وأنت ربهم ، ولست أنا ولا غيرى من الخلق بأرحم بهم ، ولا بأعلم بحالهم ، وإنما
تجز بهم بحسب علمك بطواهرهم وبواطنهم ، فأنت أعلم بالمؤمن الموحّد ، وللمشرك المثلث ، والطائع

الصالح ، والماضى الفاسق ، والمقرب للكفر والفسق والمنكر لهما ، ولا نظم أحدا متقال ذرة .
 فلماذا إذا ان تعذب فأما تعذب من يستحق التعذيب منهم ، ولا يمنع إرادة هذا المعنى إطلاق
 الضمير الرابع إلى جملتهم ، فإنه ضمير الجنس الذى يصدق ببعض الأفراد ، وهو لم يرد بصيغة
 الموصوف ، ولذلك المطلقة فى المقابل وهو قوله (وإن تعذبهم) الخ : أى إن تعذب فأما تعذب من يستحق
 للنفرة منهم (فانك أنت العزيز) القويّ القالب على أسمه (الحكيم) فى جميع تصرفه وصنعه
 فيضع كل حكم وجزاء فى موضعه ، وهو أعلم بموضع العدل ، وموضع الرحمة والفضل ، وفى تعقيب
 الآية بقوله (فانك أنت العزيز الحكيم) إشارة إلى أن الله تعالى إذا منحهم مغفرة فلا يستطيع
 أحد حرمانهم منها بحوله وقوته ، لأنك أنت العزيز الذى يظلم ولا يظلم ، ويمنع من شاء ما شاء
 ولا يمنع ، ولا يتحوّل عن إرادتك ، فانك أنت الحكيم الذى تضع كل شئ فى موضعه ، فلا يمكن
 لأحد غيرك أن يرجعك عنه بناء على أن غيره أولى منه ، فمن ذا الذى يستطيع الاستدراك أو
 الانتيات عليك ؟ وللقام مقام تقييد مطلق إلى الله تعالى وحده ، لا مقام شفاعة ، ولذلك ختم
 الآية بصفتي العزة والحكمة ، ولم يهتمها بصفتي الضمان والرحمة .

وفى جزاء الشرط الأول إشارة إلى أن تعذيب من يظن المخلوقون أنهم يستحقون المغفرة ان
 وقع من الله فلا يكون إلا عدلا ، وفى جزاء الشرط الثانى إشارة إلى أن المغفرة إن أصابت من يظن
 الناس أنه يستحق العذاب فلا تكون من الله إلا لثبته اقتضتها عزة الألوهية ، وحكمة الربوبية
 فلا عبرة بالظواهر التى تبدو للمخالفين بالنسبة إلى علم علام النيوب وحكمته ، ولا سيما فى ذلك اليوم
 فالواجب أن يفوض إليه الأمر كله : يعذب من يشاء ، ويفغر لمن يشاء .

ومن ذلك كله نعرف أن الضمير فى قوله (إن تعذبهم) وقوله (وإن تعذبهم) ليس
 للمشركين حتى يفترض بأنه كيف يفترسه لمشرك وهو يقول (إن الله لا يفرأ أن يشرك به «٤٨»)^(١)
 ويقول فيما حكى عن عيسى عليه السلام (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة
 وماواه النار وما للظالمين من أنصار «٧٣»)^(٢) بل المراد جنس القوم الذين فيهم للمشرك والموحد ،
 والصالح والطالح كما تقدم .

عيسى عليه السلام

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ^(٣) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا
 فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا «١٧»
 قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا «١٨» قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ
 لِأَهْبِ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا «١٩» قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ

[١] انباء . [٢] للسنة .

[٣] اتخذت من أهلها إلى مكان شرف ، « سويًا » . حسن الصورة مستوى الخلق .

أَلَيْكَ نَبِيًّا «٢٠» قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْمَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا «٢١» فَحَمَلَتْهُ فَأَثْبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا «٢٢»
فَأَجَاءَهَا «٣» الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْسَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا
مَنْسِيًّا «٢٣» فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْحَرُزِيُّ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا «٢٤»
وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا «٢٥» فَكُلِّي وَأَشْرَبِي
وَقَرِّي عَيْنًا فَلَمَّا تَرَيْنِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ
أَكْلُمُ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا «٢٦» فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُكُمْ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا
فَرِيًّا «٢٧» يَا بِنْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ
بَعِيًّا «٢٨» فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ مُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا «٢٩»
قَالَ إِنِّي عِمْدُ اللَّهِ ءَاتِيَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا «٣٠» وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ
مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا «٣١» وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ
يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا «٣٢» وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ
حَيًّا «٣٣» ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ «٣٤» مَا كَانَ
لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٣٥»
وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ «٣٦» فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ
مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ «٣٧» مريم

شرح وعبرة

(١) يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ نَبِيٌّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَذْكُرَ لَهُمْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ وَحُثَهَا

[١] بعيداً . [٢] أَلْمَأَا وَاضْطَرَّهَا ، « سَرِيًّا » : جِدْوَلًا ، لِأَنَّ الْمَاءَ يَسْرِي فِيهِ .
[٣] الذَّمُّ الطَّرِيقُ . [٤] مَجِيئًا عَلَى غَيْرِ الْمَادَّةِ وَقَبْلَ مُتَكَرَّرٍ . [٥] يَشْكُونُ .

الصحية في حلقها بعيسى عليه السلام (إذ اقتبنت من أهلها مكانا شرقيا) أى في الوقت الذى تباعدت فيه عن أهلها في مكان شرقى ، وقد اختارت مكانا بعيدا عن الناس لتعبد فيه ، والعبادة في حاجة الى مكان منعزل عن الناس ولا سيما من المرأة ، أو أن الله تعالى ألهمها أن تفنى عن القوم وتتخذ حجابا من دونهم تمهيدا لارسال جبريل عليه السلام إليها ، ولذلك عطف على الجملة قوله (فأرسلنا إليها روحنا) بالفاء (فتمثل لها) جبريل بشرا كامل الخلقة ، سوى الصورة ، فاتزجت من رؤيته ، وقالت (إني أعوذ بالرحمن منك ان كنت نبيا) وهو دليل على عفاها وورعها ، ونفرتها من الرجال ، وقولها (ان كنت نبيا) أرادت ان كان برحى منك أن تتق الله فاني عائدة به منك ، لعلها أن الاستعاذة لا تؤثر إلا في النقي ، وهو كقوله (ونهوا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين «٢٧٨»)^(١) أى ان شرط الايمان بوجوب هذا ، وليس الفرض أن الله تعالى يغشى في حال دون حال .

(قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) تطمين من جبريل لها ، وإيناسها بأنه لم يكن من جنس البشر ، بل هو من جنس الملائكة ، أرسله الله تعالى إليها ليهب لها الغلام بواسطة فنح جبريل عليه السلام ، وقوله (لأهب لك) قرأ نافع وابن عامر [ليهب] بياء مفتوحة والضمير يرجع الى الله تعالى : أى ليهب الله تعالى لك غلاما طاهرا من الذنوب ناميا ، أما على قراءة [لأهب] فيكون الضمير لجبريل .

وقد أضاف الهبة إليه على سبيل المجاز ، لأن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذى فنح فيها كان جبريل كأنه الذى وهبها ، وإضافة الفعل الى سببه سائغ وكثير ، كقوله (رب انهن أضلان كثيرا من الناس «٣٦»)^(٢) أو لأن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة (قالت أتى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك نبيا) .

استغربت أن يولد لها غلام والحال أنها لم تتزوج بيشر ، وتمسك به اتصال الأزواج ، لأن ذلك هو الطريق المألوف ، فالس كناية عن الزواج الحلال ، كقوله تعالى (من قبل أن تمسوهن «٣٧»)^(٣) وقوله (أولمستم النساء «٦»)^(٤) والزنا ليس كذلك وإنما يقال فيه : بغيرها ، وخبت بها وما أشبه ذلك ، وهو لا يستحق أن تراعى فيه التكتليات والآداب (ولم أك نبيا) أى فاجرة ، تتحدث عن نفسها باللعنة ، وقد تحدثت الله عنها بذلك قبل أن تتحدث هي فقال (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين «٤٢»)^(٥) .

وإذا كانت السيدة مريم عليها السلام لم تتزوج بيشر ، وليس من شأنها الفجور بل شأنها الطهارة والعفة ، فكيف يكون لها غلام ؟ (قال كذلك) أى الأمر كما قلت لك ، لاشك فيه ولا ارتياب (قال ربك هو على هين) ومتى قال الله تعالى للنبي كنى يكون ، فلا تستعري أن يولد لك انسان بدون أن يمك بشر ، مع عفتك وإحسانك ، وهو كقوله في سورة آل عمران (كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فأنما يقول له كنى فيكون «٤٧») وقوله (ولنجعل آية للناس)^(٦) علة لمحدوف : أى فعلنا ما فعلنا لنجعل عيسى آية للناس على قدرتنا (ورحمة منا) أى ولنجعل

عيسى عليه السلام رحمة للناس صادرة منا ، عليهم يهتدون بهديه ، ويقتدون به (وكان أمرا مقضيا) أى وكان اتيانك بعيسى عليه السلام بدون أن يسلك بشر أمرا مقدرا فى علم الله تعالى لاغنى لك عن رؤيته .

(٢) (حمله فالتفتت به مكانا قصيا) طوى عملية النفخ ، وانتقل الى الاخبار بالمثل ، وقد بينها فى سورة أخرى ، إذ يقول فى سورة التحريم .

(ومريم ابنت عمران التى أحضنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ١٢٥) .

طوى القرآن ذلك ، لأن للمعنى واضح جلى ، ومن شأن القرآن أن يوجز حيث وضع المعنى ، وكأنه يقول : فاطمأت مريم عليها السلام الى قول جبريل ، فدنا منها ، فنفخ فيها ، فوصلت النفخة الى بطنها فحملت ، وقوله (فالتفتت به مكانا قصيا) فيه إيجاز آخر ، وهو فطنت عليها مدة الحمل ، وكبرت بطنها كما تكبر بطون النساء عند قرب الوضع ، فتنحت عن أهلها ، واختارت مكانا بعيدا عن الناس ، لأنها لاتزال مهمومة من ذلك الحادث من جهة قومها .

(فأجاءها المخاض الى جذع النخلة) ألبأها الطلق ومقدمات الوضع الى جذع النخلة لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة شأن النساء عند الوضع ، وهنالك قالت (بالبنى مت قبل هذا) الخ لأكراهة منها لحكم الله تعالى ، بل لما لحقتها من فرط الحياء من اللباس على حكم العادة البشرية (فناداهن من تحتها أن لا تحزنى) الضمير لجبريل عليه السلام : أى ناداهن من مكان هو أسفل من مكانها مطمئا لما يقوله لها (لا تحزنى) من ذلك الحادث ، لأن الله تعالى لم ينسك بفضلها وإحسانه لجعل تحنك نورا تطهرين منه وتشربين ، وما أحوج النساء الى الماء ولاسبا فى الأماكن المظفرة ثم قال لها (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) تسلية أخرى بتسخير الله لها طعاما بعد تسليتها بالشرب ، لتعرف مريم عليها السلام من هاتين البشارتين أن الله تعالى الذى تولاهن بذلك المطف هو الذى سيدفع عنها أفك القوم وتعييرهم لها ، وسيقيم الليل والنهار على برائتها من الزنا ، وعفها وإحسان فرجها .

ثم أمرها بالأكل من الرطب والتشرب من النور وزاد على ذلك قوله (وقوى عينا) والمراد أبعدى عن نفسك الرعب والخوف ، واطمئنى لفعل الله تعالى ، ولا تكلمى أحدا من الخلق أيام فطسك ، وإذا رأيت أحدا من البشر فاعتذرى له عن الكلام بقولك (انى نذرت للرحمن صوما) امساكا عن الكلام (فلن أكلم اليوم أنسا . فأنت به قومها تحمله) أى فضت مدة فأت بعيسى عليه السلام قومها وهي حاملة له (قالوا يا صميم لقد جئت شيئا فريا) عجيبا منكرا (يا أخت هارون) قيل كان أخا لها من أبيها من أمثل بنى اسرائيل ، وهو غير هارون أخى موسى عليه السلام ، وقيل انهم عنوا هارون الذى ، وأرادوا بأخته شيبته فى الخلال والتقوى ، وكثيرا ما يسمى الشبه أخا ، والنبي يامن أشبهت أنبياء الله فى التقوى والصلاح (ما كان أنوك أصرا سوء وما كانت أمك نبيا) يريدون أن عمران أبها لم يكن رجلا سوء ، وكذلك أمك لم تكن فاجرة فلماذا جئت بذلك المنكر وخالفت سنة أبوك ؟

ومن عادة الناس إذا رأوا أحدا جاء على غير طريقة أبيه أن يستبروا منه ذلك (فأشارت إليه) أى هو الذى يجيبكم إذا أتم ناطقتموه ، فقالوا (كيف نكلم من كان فى المهد صيا) ، ونكلم حكاية حال ماضية : أى كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صيا فى المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا .

(٣) (قال انى عبد الله آتاني الكتاب) الخ ، وقوله (آتاني الكتاب) الخ : أى إن ذلك سبق فى قضائه ، أو جعل الآتى لاحالة كأنه قد وجد ، وكثيرا ما يعبر عن المستقبل بصيغة الماضى كقوله (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذونى وأبى الهين من دون الله «١١٦»^(١)) وإنما يكون ذلك القول فى الآخرة يوم يجمع الله الرسل ويسألم عن أقوامهم (وجعلنى مباركا أينما كنت) أى نفاعا حينما حلت أو معلما للخير ، وهى نعمة على نبي الله عيسى أن جعله مباركا حينما حلّ تحلّ البركة ويكثر الخير .

وبدأ قوله بعبوديته لله تعالى ليعلم الناس أنهم جدّ خاطئين فى اخراجه عن هذه العبودية ، وزعم بؤنه لله تعالى ، و (الكتاب) يحتمل أنه صنعة الكتابة كما قال فى سورة آل عمران (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل «٤٨») لجمع الكتاب مع التوراة والانجيل فهو غيرها ، ويحتمل وهو الظاهر أنه التوراة والانجيل ، والمراد بالنبي هنا الرسول الجامع لصفة النبوة والرسالة كما قال فى سورة آل عمران (ورسولا إلى بنى اسرائيل) وفى قوله (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) إشارة إلى أن الصلاة والزكاة من الشرائع القديمة ، وهما من أهم أنواع العبادات البدنية والمالية (وبرأ بوالدنى) عطف على قوله (بالصلاة) أى وأوصانى أن أكون برأ بوالدنى ، والبرّ كلمة جامعة لأنواع الخير (ولم يجعلنى جبارا شقيا) أى من فضل الله عليه أنه لم يجعله جبارا غليظ القلب ، بل جعل فى قلبه رافة ورحمة ، ولم يجعله شقيا بعصيان ربه ، بل جعله سعيدا باصطفائه له ، واجتبائه إياه (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) .

قال صاحب الكشاف : الصحيح أن يصحكون هذا التعريف : أى تعريف السلام بلام الاستفراق - تعريضا بالعلن على من اتهم مريم بالزنا ، وتحقيقه أن اللام للاستفراق فإذا قال : والسلام على . فكأنه قال : وكلّ السلام على وعلى أنباى ، فلم يبق لاعداء إلا اللعن . ونظيره قول موسى عليه السلام (والسلام على من اتبع الهدى «٤٧»^(٢)) ذلك هو ماتكم به عيسى عليه السلام وهو فى المهد ، وهو خلق للعادة من ناحيتين .

[الأولى] أن مثله لا يكون إلا من رجل كبير مفكر ، فصدوره من صغير يجعله خارقا .
[الثانية] إخباره عن أمور غيبية مستقبلة كإخباره عن إعطائه الكتاب ، وجعله نبيا وإنصاه بالصلاة والزكاة ، وهما من العبادات التى لا يأمر بها إلا الأنبياء ، أو الأخذون عنهم ، فدلّ ذلك على براة مريم بما رميت به من الفاحشة ، لأن ابنها رسول من رسل الله ، وكيف يكون رسول الله الذى أبده بمعجزاته من أولاد الزنا ؟ .

(٤) (ذلك عيسى ابن مريم) أى صاحب هذه القصة فى ولادته العجيبة ، وكلامه فى المهد ،

هو عيسى ابن مريم ، وهو عبد الله ورسوله (قول الحق الذى فيه يمترون) خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف : أى القول فيه هو قول الحق لا قول الباطل ، وقرئ (قول الحق) بالنصب على الفعلية : أى يقول الله تعالى فى شأنه قول الحق ، أو على اللوح ان فسر بكلمة الله ، وإنما أطلق على عيسى (كلمة الله) ، و(قول الحق) لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها ، وهى قوله (كن) من غير واسطة أب ، تسمية للسبب باسم السبب ، كما سمى العشب بالسما (الذى فيه يمترون) من الرية ، وهى الشك ، أو يجارون ويتلاحون فيه ، قالت اليهود : انه ساحر كذاب ، وقالت النصارى : ابن الله وثالث ثلاثة .

(ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه) أى ليس من شأن الله ولا مما يليق به أن يتخذ من ولد حتى يتخذ عيسى ولدا له ، لأن الله خالق وعيسى مخلوق ، والصلة بين عيسى وبين ربه كلمة سائر الخلق ، وهو نفى للولد بطريق أبلغ ، لأنه نفى منه دليل ، وهو مخالفة ذلك لشأن الله تعالى وصفته ، وقوله (سبحانه) تنزيه له عن ذلك الاتخاذ (إذا قضى أمرا) أى يقول له كنى فيكون (إذا أراد أمرا) أى خلق عيسى بدون أب ، وحل أمه به بدون أن يمسها بشر ، لا يتعاضى شيء على إرادته ، ولا يكون إلا الطاعة والامتثال (وان الله ربى وربكم فاعبدوه) .

قيل : هذا من كلام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : أى وقل لهم يا محمد (وان الله ربى وربكم) الخ . وقيل : من كلام عيسى عليه السلام عطف على قوله (انى عبد الله) أى وقال لهم عيسى (ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) لا اعوجاج فيه ولا أمت ، ويكون قوله (ذلك عيسى) الخ جلا مترضة بين كلام عيسى عليه السلام .

(فاختلف الأحزاب من بينهم) أى مع ذلك البيان اختلف الأحزاب فى شأن عيسى عليه السلام ولم يفتوا عند قول الله : إنه عبد الله ورسوله ، فن مسرف فى الطعن والبذاهة ينسب إلى الزنا لبعض اليهود ، ومن متعال فى تعظيمه وتوقيره ، حتى جعله ابنا لله ، وثالث ثلاثة فهم الله ، ولكن القرآن يحدثنا أنه عبد أنم الله عليه بالرسالة والاصطفاء ، كأنهم على أمه الصديقة بالطهارة والاجتباء ، وجعله وأمه آية للناس ، ودليلا على كمال القنرة ، وسعة السلطان .

ثم توعد الذين كفروا برسالة بما ينالهم عند شهود يوم الجزاء وقال (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) .

عيسى عليه السلام

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقُولُوا هَلْ نَحْنُ
خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا

عَبْدُ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا ^(١) لِبَنِي إِسْرَائِيلَ «٥٩» وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ «٦٠» وَإِنَّهُ لِمَعْلُومٌ ^(٢) لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمُتْرُنَ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ «٦١» وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ «٦٢» وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا «٦٣» إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ «٦٤» فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِّ «٦٥» الخوف

شرح وعبرة

(١) (ولما ضرب ابن مريم مثلاً) الخ . روى أنه لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قریش (إنكم وما تبعون من دون الله حسب جهنم أُنتم لها واردون «٩٨» ^(٣)) انمضوا من ذلك امتعاضاً شديداً ، فقال عبد الله بن الزهري : يا محمد أخاصة لما ولأهلتا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولأهلتكم ولجميع الأمم ، فقال : خضمتك ^(٤) ورب الكعبة ألت ترع من أن عيسى ابن مريم نبىً ونبىً عليه خيراً وعلى أمته ؟ . وقد علمت أن النصارى يعبدونها ؟ وعزير يعبد ؟ والملائكة يعبدون ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضيانا أن نكون نحن وأهلتنا معهم ، فزحوا وفتحوا ، فرد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ما أجلك بلة قومك ، أما فهمت أن ما لما لا يعقل ؟ فلم يدخل فيها عيسى ولا عزير ولا الملائكة ، كما روى أنه ردة عليه بقوله : بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك . ويستدل المفسرون لذلك بقول الله تعالى في سورة سبأ (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون «٤٠» قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الحق أكثرهم بهم مؤمنون «٤١») وذلك إنما ينفي عبادتهم للملائكة ، أما عبادتهم لعزير وللإسح فلم يقيموا دليلاً على نفيهما .

وإذا قلنا : إن عبادتهم للإسح عليه السلام ولعزير ترجع في الحقيقة لعبادة الشياطين لأنهم هم الذين أمرهم بها فأطاعوهم . قلنا مثل ذلك في عبادة الأصنام : إن الشياطين هي التي أمرتهم بعبادتها ، وعليه فهم لم يعبدوا الأصنام .

وقد أخبر الله عنهم بأنهم عبدوها ، وإنما لم يخص النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحكم

بآلهم حين سألهم ابن الزبير عن الخصوص والعموم مادامت كلمة (ما) خاصة بغير العاقل ، لأن إخراج بعض العبودين عن هذا الحكم عند الحاجة مومم للترخيص في عبادته في الجلة فعممه عليه السلام للكل .

ثم بين بقوله [بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك] أن الملائكة والمسيح يعزل من أن يكونوا معبودهم ، ومنهم من يذهب إلى أن الله تعالى أجاب عنه حيناً وجه إليه ذلك السؤال فأنزل (إن الذين سبق لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون « ١٠١ ») (١) وأولئك سبق لهم من الله الحسنى فهم خارجون من عموم الآية الأولى على فرض شمولها لهم .

ومعنى الآية : ولما ضرب عبد الله بن الزبير عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه (إذا قومك) قرئش من هذا المثل (يصدون) ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وجذلاً ، وفحماً بما سمعوا منه كما يرتفع لجب القوم وجدلهم إذا أعوزتهم الحاجة ثم عثروا عليها ، وقرئ (يصدون) بضم الصاد من الصدود : أى من أجل هذا المثل وبسببه يصدون الناس عن الحق ويعرضون عنه (وقالوا أآلهتنا خير أم هو) يريدون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ، وإذا كان عيسى من حسب النار وللربى به فيها كان أمر آلهتنا هيناً .

وقيل : لما سمعوا قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون « ٥٩ ») (٢) قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدمياً ، ونحن نعبد الملائكة فنزلت . وقوله (أآلهتنا خير أم هو) على ذلك القول تفضيل لآلهم على عيسى ، لأن المراد بهم الملائكة .

(٣) (ماضربوه لك لإجلد لا بل هم قوم خصمون) يريد أن حاجة ابن الزبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقصد منها سوى الجدل والمغالبة ، ولم يرد بها إحقاق حق أو إبطال باطل ، لأن ابن الزبير لا يجهل أن آية (إنكم وما تعبدون من دون الله حسب جهنم) خاصة بالأصنام ولا يجهل أن كلمة (ما) لما لا يعقل ، وأن العموم الذى دل عليه ظاهر كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عند الحاجة لم يرد به عموم اللفظ لميسى والملائكة عليهم السلام ، وإنما هو عموم لما يناوله لفظ (ما) من الأصنام في جميع الأمم لا في قرئش وحدها .

يعلم ابن الزبير ذلك كله ولا يجهله ، ولكن الرجل الذى شغف بالجدل يتحكك في كلمة فيجنى عليها من التصور ما شاء له الهوى وما زينه له الشيطان .

والله تعالى يريدنا أن أولئك القوم ماضربوا لك هذا المثل لإلتناء الجدل ، وقد أباح الله الجدل ليكون وسيلة لكشف الحقائق أما أن يصير الجدل غاية لا وسيلة ، ومقصداً لا مقدمة ، فذلك ما يذمه القرآن الكريم ، ويستقبحه العقل السليم .

والقرآن يريدنا أن الجدل بالطريق التى هي أحسن لإمانع منه ، وقد طالبنا به مع أهل الكتاب إذ يقول (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون « ٤٦ ») (٣) .

ينها القرآن الكريم أن نجادل من خالفنا في الدين من أهل الكتاب إلا بالطريق التي هي أحسن للخلق والتفضيلة ، والوصول إلى الحق ، وأن من علم منهم وتخطى الحدود ، ولم يرد الحق ، ندعه ولا نجادله ، لأن الجدل لا يجدى معه ولا يفيد ، وقد يكون ضرره أكبر من فقهه .

وقال تعالى وهو يبين لنا آداب الدعوة إلى الله تعالى (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) » (١)) ومن ذلك نعلم أن الجدل فيه الممود والمذموم ، وأنه وسيلة لا مقصد ، وطريق لتعرف الحق ومعرفة ما عند المتخاصمين من شبهة أو حجة ، فإذا صار غاية للرجل وكلف به ، وأصبح خلقا من أخلاقه يلمسه أذى وجد ، ويخلق له حيث حل كان مذموما تمجده النفوس كما تمجج صاحبه ، لأنه يصبح لا م له إلا الكلام والنب ، وسواء عليه أكان محقا في ذلك الجدل أو مبطلا .

ولعل في ذلك عبرة لطائفة المحامين الذين تتودوا التفاف عن بوكلوهم وإن كان الوكيل مجرما سفاكا ، ويجادلون خصومهم بالحق والباطل ، ولا هم لهم إلا إقناذ موكلهم وإن كانوا يعلمون أنهم مجرمون . وقد نهى الله أن نخاص من أجل خائن ، أو ندافع عن مجرم ، إذ قال (ولا تسكن للخائنين خصبا واستغفر الله إن الله كان عفورا رحما » (١٠٦) » ولا تجادل عن الذين يخانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أتيا » (١٠٧) » (٢) .

وإذا علم المجرم أن من ورائه من رجال الحمارة يستطيع إقناذه من جريمته ، فانه لا يبالي بأعراض الناس ولا بدسائهم أو أموالهم ، يتجوأ على الأعراض فينتك حرمتها ، وعلى الآماء فريقتها ، وعلى الأموال فيسلبها أصحابها ، ولو علم أن لا يوجد في رجال الحمارة من يرضى بالافاع عن مجرم ، أو الجدل عن خائن ما أقدم على مخالفة القانون إلا وهو خائف وجل ، ولكانت الأمة أسعد منها اليوم .

وما أوج رجال الحمارة إلى أن يكتبوا هذه الآية الكريمة على صفحات قلوبهم (ولا تجادل عن الذين يخانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أتيا) .

ولكن ماذا نضع وقد أصبح المال مشكلة للشا كل ، وعقدة العقد ، وأصبح طلب العيش عنرا لدى الناس يستقيسون في سبيله ما حل وما حرم : رزقا الله العفة ، وحينما فيها عنده من ثواب ، وزهدنا فيما يفضيه من مآثم . وقوله (بل هم قوم خصمون) أى لله ، شدة الخصومة ، وأهم اللجاج ، وهو معنى لم يعرف مما سبقه من الآيات ، فقد يكون الرجل مجادلا في حادثة من الحوادث ، ولكن الجدل لم يصر خلقا من أخلاقه ، فانه يرينا أن هؤلاء أصبحت الخاصة خلقا من أخلاقهم ، وصار الجدل غرضا من أغراضهم .

(٣) (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) الخ : أى بالتبوة (وجعلناه مثلا لبني إسرائيل) أى مثلا في الصلاح والتقوى ، أو أمرا عيبيا يسير ذكره كالأمثال السائرة ، والفرض من ذلك تنزيهه عليه السلام من أن ينسب إليه ما نسب إلى الأصنام ، وأن يضربه ابن الزبرى مثلا ويقول فيه (ما ألهتنا خير أم هو) وفيه كذلك تنبيه على بطلان رأى من رضة عن رتبة العبودية ، فكلا

الرايين خطأ وباطل الزول به الى مرتبة الأصنام ، والصعود به إلى رتبة المعبود ، وما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة ، فلم يتخط ذلك الحد حتى يكون إلها ، ولم ينزل عن عبد أنعم الله عليه حتى يكون في منزلة الأصنام ، وفيه تمر يض أيضا بفساد رأى من يرى رأيهم في شأن الملائكة صلوات الله عليهم وسلامه .

وعلى التفسير الثاني لقوله (ولما ضرب ابن مريم مثلا) وأنهم لما سمعوا قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن عبدنا الملائكة - على ذلك التفسير يكون لبيان أنه قياس باطل بباطل ، فعبادتهم للملائكة باطلة كعبادة النصارى لعيسى ، ولا فرق بين الملائكة وبين عيسى في بطلان عبادتهم ، لأن الكل عبيد لله تعالى ، فقوله (إن هو إلا عبد أقمنا عليه) الخ: أى شأنه كسائر العبيد قصارى أمره أنه عن أمر الله عليه النبوة ، وخضع لبعض الخواص بأن خلقه بوجه بديع ، وقد خلق آدم بوجه أبديع منه ، فأين هومن رتبة الربوبية ؟ ومن أين يتوهم الناس صحة منذهب من يصدده حتى يفتر عبدة الملائكة بأنهم أهدى منهم ؟ أو يعتنروا بأن حالهم أخف من حالهم . ووجه القول أنه نسفيه لأصحاب ذلك القول ، وتخطئة لهم في ذلك القياس ، وأنه قياس باطل بباطل ، وأن بطلان عبادة المسيح لم يحج من ناحية أنه أقل من الملائكة ، وإنما جاء من ناحية أنه عبد خاضع لله تعالى ، فكل من شاركه في العبودية لا يستأهل أن يعبد ، وإنما الذى يستحق العبادة هو الخالق ، وتخطئة لهم في قولهم : أنهم أهدى من عبدة المسيح ، لأن الهداية قد حرما الله عابدى المسيح وعابدى الملائكة ، فلم يكن فيهم أصل الهداية ، بل فيهم الضلال البعيد (ولو نشاء جعلناكم ملائكة فى الأرض يخفون) أى لو شئنا أن نزيك أن عيسى عليه السلام ليس ببدعة من قدرة الله ، وأنه تعالى قادر على أبديع من ذلك وأبرع (جعلنا) خلقنا بطريق التوالف (مكم) وأتم رجال (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الإبداع (فى الأرض) مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين فى السماء (يخفون) أى يخفونكم فيها تأتون وتذرون ، ويباشرون الأفاعيل للنوطة بكم ، مع أن شأنهم التسبيح والتقديس فى السماء ، فمن كانت له هذه القدرة على الخوارق إلى ذلك الحد كيف تنسونه وتعبدون عبدا من عبيده ، وخلقنا من خلقه ، لأنه جاء على خلاف المؤلف من سنة البشر ؟ وما كان من حكم أن تفتنوا ببيسى هذه الفتنة ، وتركوا خالقه ومنشئه ، وما مثلهم فى ذلك إلا مثل من فتن بالكواكب السيارة ، وما أودعه الله فيها من خصائص ومزايا ، فعبدها ونسى خالقها ومسخرها . ويقول القرآن الكريم فى ذلك (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ٣٧٧) (١) .

فمبىى لم يعء أن يكون آفة على قدرة الله وفؤؤ سلطانه ، وذلك لا يقتضى أن يعء ، إءاء الذى يستحق العبادة خالق عىبى وغيره كآءم وخالق الشمس والقمر وغيرهما من الآباء .

(٤) (وإنه لعلم الساعة) أى شرط بفتح الراء ، من أشرطها ، وقرئ علم بفتح اللام : أى علامة ، وكان علما الساعة لحصول علم الساعة به ، أو أنه باعتبار خلقه بغير آب وإحائه للموتى

بإذن الله كان دليلاً على صحة البعث الذى ينكره الكفرة ، وكأن الله تعالى يريدنا أنه إذا قدر على بدء الخليقة وفهم عيسى على ذلك الوجه العجيب فكيف لا يقدر على الاعادة ؟ أو إذا أعطى عبداً من عباده قوة على إحياء اللوى بأذنه فكيف لا يقدر هو على إعادتها بعد الموت ؟ (فلا تترن بها) لا تشككن فى وقوعها مادام الدليل على صحة البعث قائماً ، والحجة ناهضة (وانبعون) انبعوا هداى (هذا صراط مستقيم) موصل الى الحق بعيد عن الضلال (ولا يصدنكم الشيطان) عن اتباعى (إنه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة .
(ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة) .

بعد أن تكلم على نشأة عيسى العجيبة ، وتنبه القوم الى عدم الافتتان بها ، ونخطتهم فى تفاهيم فى عيسى عليه السلام قال : ان عيسى لما جاءهم بالمعجزات الواضحة أخبرهم أنه جاءهم بالحكمة والعلم النافع الذى يسعدون به فى دينهم وديارهم ، والحكمة التى جاء بها عيسى هى مافى التوراة من تشريع ، وما فى الانجيل من مواظ وأحكام (ولأين لكم بعض الفنى تختلفون فيه) عطف على محذوف : أى لأعلمكم إياها (ولأين لكم بعض الذى تختلفون فيه) من أمور الدين ، لأن شأن الرسل أن يرسلهم الله ليعينوا للناس ما اختلفوا فيه ، ويمرّفونهم الحق لياخذوه ويعملوا به .
ثم أمرهم بتقوى الله وطاعته ، ثم ختم القصة بقوله (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه) ولست ربا لكم ولا معبودا ، وإنما أنا عبد من عبيد الله خاضع لنظام العبودية العامة إلا ما اختصنى به من أمر الحمل والولادة ، وإذا ظهر على يدى خارق للمادة قائما هو بأذنه وتيسيره ، ولا طاقة لى به بدون معاونته (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى دعوتكم إليه من أنه ربى وربكم ، وأنه هو الذى يعبد منى ومنكم ، وأنتى عبد لله خاضع لنظامه ، وقانون عبادته هو الطريق المستقيم لا يضلّ سالكه ، ومع ذلك البيان الواضح اختلف الأحزاب فى شأن عيسى من اليهود والنصارى ، وقد توعد الله الظالم منهم عذابه وسخطه فى يوم الجزاء .

عيسى عليه السلام

ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَاَرَعَوْهَا حَقَّ رِأْيَانَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾ . الحديد

شرح وعبرة

(١) (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم) الخ .

يرينا الله تعالى بهذه الآيات أنه أتمتع نوحا وإبراهيم ومن كان من الرسل في ذريتهم رسلا آخرين ، وفقى بعيسى ابن مريم ، وأعطاه الإنجيل (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة) أى وفقهم للتراحم فيما بينهم فلم يجعلهم جبارين ولا غلاظ القلوب ، لأنسهم برسولهم عيسى عليه السلام الذى قال الله فيه (ولم يجعلنا جبارا شقيا » (١)) وهو كقول الله تعالى في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (٢) (٣)) وقوله (ورهبانية ابتدعوها) مفعول لفعل محذوف : أى واخلقوا من عند أنفسهم رهبانية ، ولا يصح عطفه على قوله (رافة ورحمة) لأنه يقتضى أن الله جعل الرهبانية فيهم ووفقهم لها ، وهو لا يفتق وقوله (ابتدعوها) .

ومنه نعلم أن دين المسيح لم يكن فيه رهبانية ، وإنما هي مبتدعة فيه كسائر البدع التى يحدثها أهل الأديان ، وبدل لذلك قوله (ما كتبناها عليهم) بل هم الذين فرضوها على أنفسهم فرضا وقوله (إلا ابتغاء رضوان الله) استثناء منقطع : أى أنهم ما ابتدعوها واخلقوها لإطلاقها لرضاوان الله وزيادة ثوابه لهم ، شأن سائر البدع ، فإن أصحابها يفتشونها ويؤيدونها في الدين لا بقصد الزيادة والاستغراء على المشرع ، بل بقصد التقرب الى الله تعالى ، كصلاة الرغائب التى ابتدعوها في أول أسبوع من رجب ، وصلاة الظهر بعد الجمعة ، وكزيادة الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم بعد ألفاظ الأذان ، إلى غير ذلك من البدع التى أحدثت بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه الراشدين ، لم يقصد بها أصحابها إلا زيادة الثواب والزلفى إلى الله تعالى ، فإلانة حسنة ، ولكن حسن النية لا يكفي عنرا للابتداع في دين الله تعالى ، ولاغنى للسلم عن الوقوف عند حد الوارد ، وأخذ العبادة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى أخبرنا قبل انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى أنه أكل لنا الدين ، وأتم نعمته علينا ، وقد روى عن مالك رضى الله عنه أنه قال : من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لأن الله تعالى يقول (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) وما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً .

وان أكثر البدع التى نشأت في الأديان كانت بحسن نية ، وبقصد التقرب الى الله تعالى ، وجاءت من المبالغة في التعظيم والافراط في الشئ ، ألا ترى إلى بعض المؤذنين الجهلة وهو يزيد في ألفاظ الأذان والاقامة عند قوله (وأشهد أن محمدا رسول الله) كلمة [سيد] والذى حمله على ذلك محبة في رسول الله صلى الله عليه وسلم واكباره له ، وفاته أن الله تعالى أحرص على توقير الرسول وتعظيمه من حرصه هو ، ولذلك قرن اسمه باسمه في ألفاظ الأذان والاقامة ، ولم يقبل من أحد الشهادة بالاسلام إلا حيث شهد له بالوحدة ، ولحمد بالرسالة ، وأن المسألة مسألة عبادة وتقرب إلى الله تعالى ، فينبغى الوقوف عند ماورد ، ولا تصح الزيادة عليه بحال ، ولو أبقنا لكل مخلص في نيته أن يزيد في أنواع العبادات ماشاء لفتحنا على الدين بابا من الابتداع لا يمكن أن يخلق ، ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبونه فوق محبتنا ، ويحجون فوق إجلالنا حتى

ليقت الواحد منهم في الحرب درأة له يتلقى دونه الخراب ، ومع هذه الحجة المادقة لم يستيجروا لأنفسهم أن يتدعوا في دينه ، وأن يحتلقوا أمورا ويستلوكوا على الشرع ، فكيف وقد نهانا رسول الله عن الابتداع ، وأمرنا أن نتبع سنته وسنة خلفائه الراشدين ونفرض عليها بالتواجد .

ولعل في ذلك عبرة لقوم يعتفرون عن بدعهم بأنهم لا يريدون بما سوى مرضات الله تعالى ، والتكثرت من ثوابه ، وبأنهم حسنوا النية في ذلك العمل ، لأن الله لم يعف أصحاب عيسى من الاثم لأنهم ابتدعوا الرهبانية ابتداء مرضات الله ، ولم يعف الأم الجاهلة التي تقدم لابنها المريض الطعام الفليظ من الاثم ابتداء انتفاعه بذلك الطعام ، ولم يعف الطبيب الجاهل الذي أودى طبه بحياة رجل من الناس من العقوبة لأنه كان حريصا على شفائه مشغوقا بمصلحته ، ولم يعف القانون من خالفه لأنه كان حسن النية طيب السيرة .

كل ذلك دليل على أن حسن النية وحده لا يكفي عذرا في الابتداع في دين الله ، والاستدراك على التشريع .

ولعل منشا ابتداع النصارى للرهبانية تأثير مواعظ المسيح عليه السلام عليهم في الزهد والاعراض عن لذات الدنيا ، مع العلم بأن كل رسول يحرض الناس على الزهد والاعراض عن لذات هذه الحياة والاسراف فيها ، وإن كانوا يتفاوتون في هذه الدعوة على حسب تفاوت أقوامهم في الأمراض النفسية والخلقية ، فبالنوا في هذه الأمور التي صدرت من المسيح عليه السلام ، ولجئوا إلى الجبال وتركوا النساء جانباً ، وقيل الذي حطهم على الرهبانية فرارهم من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعادة ، لأن الجبارة ظهروا على المؤمنين بدع عيسى عليه السلام ، فقاتلهم حتى لم يبق منهم إلا القليل ، نفاقوا أن يقتنوا في دينهم ، فاختاروا الرهبانية ، ومعناها : الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف ، فعلم من رهب تخشيان من خشى ، وقرئ : ورهبانية بالضم ، كأنها نسبة إلى الرهبان جمع واهب كراكب وركبان .

(٢) وكما نهى دين المسيح عليه السلام عن الرهبانية ، واعتبرها القرآن بدعة لهم في ذلك الدين : نهى الدين الاسلامي عن الرهبانية في الاسلام والانتطاع عن النساء ، وأمر المؤمنين أن يتزوجوا ماداموا قادرين على الزواج ، وقال : إن الزواج سنته صلى الله عليه وسلم ، ومن رغب عن سنته فليس منه .

روى البخارى في صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه يقول « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تملها ، فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا . وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر أنا أعزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (فارعوها حق رعايتها) أى مع أن أتباع المسيح هم الذين فرضوا الرهبانية على أنفسهم فرضا ونظروها ، وأن الله لم يكتبها عليهم - مع

ذلك مارعوها حق رعايتها كما يجب على الناذر رعاية نذره ، فكان فيهم الصادق والكاذب ، ولتلك عقبه بقوله (فأتينا الذين آمنوا منهم أجرم) وهم سلفهم المخلصون (وكثير منهم فاسقون) وهم خلفهم المرءون .

(٣) وهناك وجه آخر في فهم الآية هو أن قوله (ابتدعوها) لم يسبق مساق الفهم لألئك الأقوام ، بل لارادة أن أولئك الأقوام كانوا أنفسهم مشاقق ، فابتدعوا الرهبانية في المسيحية ، ولم يكتبها الله عليهم في أصل الدين ، وإنما فرضها عليهم بعد أن استحدثوها ، وأنه ما كتبها عليهم إلا ليتبنوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ، فكتبها عليهم ليتخلصوا بها من الفتن في دين الله ، فمارعوها حق رعايتها ، وإنما الذي رعاها بعضهم ، فأتينا المؤمنين للرعاين منهم للرهبانية (أجرم وكثير منهم فاسقون) وهم الذين لم يرعوها .

والعبرة في الآية على الوجه الأول وهو الذي أميل إليه وأختاره النهي عن الابتداع في الأديان والوقوف عند مارسم الشارع لنا ، والامتنان على أتباع المسيح بأن جعل في قلوبهم (رافة ورجة) وكأن غلاة المستعمرين في وقتنا الحاضر ليسوا من أتباع المسيح ، ولا يتصلون به في قلب أو كثير ، وإلا فأتين رحمتهم بالناس ورافتهم بهم ؟ وأين آثار تعاليم المسيح في قلوبهم ؟ أتباع المسيح جعل الله في قلوبهم (رافة ورجة) ولكن غلاة المستعمرين قتلت قلوبهم من حديد ، وأكبادهم من غولاذ ، يستبيحون تيتيم الأطفال وتخريب البيوت ، وإراقة النساء في سبيل الاستعمار الجشع ، والاحتلال الممقوت ، وأين هم من أسلافهم الذين تأثروا بمواعظ المسيح حتى انقطعوا عن ملاذ الحياة ، وحرّموا على أنفسهم ما كان مباحا ؟ أين هم من تلاميذ المسيح الذين فروا بدينهم إلى قم الجبال ، وغليظ العيش ، حتى لا يظلمهم أحد ولا يظلمون أحدا ؟ إن المسيح عليه السلام ليبرأ إلى الله من ذلك العمل الوحشي ، ويقول لربه وخالقه حين يسأله عن قومه (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به) ودعوتهم إليه من الرحمة بالناس وإقامة العدل ، والاصلاح في الأرض ، والبعد عن الفساد والظلم ، ولكن المستعمرين الذين يدعون في كتاباتهم أنهم أشياعى يفسون كل تعاليمى إذا هم وضعوا أقدامهم في بلد أجنبي منهم ، فتبدّل رافتهم قسوة ، ورحمتهم غلظة ، وعدلهم ظلما ، وصلاحهم فسادا ، وتآليفهم بين الأفراد والجماعات تفريقا ، يحرصون على أن ينشروا فساد الأخلاق في البلد الذي أخذوه ، ويمسكون لأهله وسائل الشهوة ، ليشتاقوا الناس بشهواتهم عنهم ، وحتى لا يفسدوا في عمل جدى يعود على البلد بالخير ، كما يحرصون على تأليب الناس بعضهم على بعض وجعلهم شيعا وأخبا ، ليندق بعضهم بأس بعض ، فيصبح للمستعمر هادئ النفس قار الضمير ، لا تقف أمام أغراضه الاستعمارية عقبة من العقبات ، ويألبتهم يعاملون الناس معاملة الانسان لأخيه الانسان ، وإنما يعاملونهم كقطع من الفحم ، لا يقيمون لارادتهم وزنا ، ولا يعاملون لنصيبهم حسابا ، وكانهم وكلاء الله في الأرض وأوصاؤه على الشعوب ، لا يخرج شعب من الوصاية إلا حيث اعترفوا له بالرشد ، وأقرّوا له بالثقافة ، وهيات أن يسترفوا لشب من الشعوب ذلك الاعتراف ، وكان الناس ليسوا من أولاد آدم ، فيهم عقل وارادة ، وفيهم رشاد وحزم ، وكان العلم الذي يركى النفوس ويتقف المقول وقب عليهم وعلى أبناء جلدتهم ، أهؤلاء أبناء الذين جعل الله في قلوبهم

(رأفة ورحمة) أهؤلاء سلافة ذلك السلف الطيب القلب الذي لم يقطع بتكاليف الشريعة فأضاف إليها الرهبانية ؟ أم هم سلافة الناسقين الجاحدين ، وأبناء الظالمين المعتدين ؟ وسوف يحاسبهم الله على ذلك العدوان الصارخ ، والظلم البين ، واضطهاد الشعوب بلا ذنب لها في ذلك الظلم إلا أن الله وهب المستعمر القوة ، وسلها تلك الشعوب الضعيفة ، ومنى عن الله على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أمة لإصلاح وتهذيب ، ويرى أولئك الظالمين جزاء سوء تصرفهم ، ومغبة استبدادهم ، إن رحمت الله قريب من المحسنين .

عيسى عليه السلام

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا
 مَنَ يَدَى مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي أَتَمُّهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ٦٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٦٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا
 نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
 رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٩
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَى تَجْرَةِ تُنَجِّيَكُمُ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ ١٠
 تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ
 لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١١ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَرِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَذْيٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٢
 وَآخِرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ١٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى
 اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ قَامَنْتَ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرْتَ
 طَائِفَةً قَائِدًا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَالِمِينَ ١٤ السف

شرح وعبرة

(١) (وإذ قال عيسى ابن مريم) الخ: أى اذكر لهم يا محمد الوقت الذى قال فيه عيسى ابن مريم (يا بنى اسرائيل إني رسول الله إليكم) .

ثم بين ما جاء به عيسى عليه السلام فى قوله (مصداقاً لما بين يديّ من التوراة) فهو معترف بشرية موسى وكتابه الذى أنزله الله عليه وهو التوراة ، فكان شريعة له كما كان شريعة لموسى (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

وقد ثبت ذلك فى الانجيل فى عدة مواضع (١) فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) أى فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الظاهرة الواضحة أنكروا عليه الرسالة ، وقالوا ان ماجئت به سحر واضح ، وليس من المعجزة فى شيء ، فالتة يأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر الوقت الذى دعا فيه عيسى قومه إلى الله وقابلوا دعوته بالانكار ، وآياته يجعلها سحراً وتخويلاً لاحقيقة له اذكر يا محمد ذلك لتتلى ببسبى كما تسليت بمن سبقه من الرسل ، وتصاب على ابداء قومك كما صبر عيسى على ابداء بنى اسرائيل وبهتهم له ، وتكذيبهم اياه ، فلم يقل لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك .

(ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام) أى لا أحد أظلم من رجل يحتلق الكذب على الله تعالى ويدعى أنه أوحى إليه وهو لم يوح إليه شيئاً ، والحال أنه يدعى الى الاسلام ، وينسب الى الاقتياد لله تعالى ، ولا يعقل أن يكون عيسى أو غيره من الرسل من أولئك الطائفة التى أفرطت وبالت فى الخروج عن الحدود ، وادّعت على الله أنه أرسلها وهو لم يرسلها ، أو أنه أوحى اليها ولم يوح اليها شيئاً .

ثم عقب ذلك بقوله (والله لا يهدي القوم الظالمين) وكأنه يقول : ولو كانت الرسل من ذلك الصنف ما هداها الله لحق ، ولا وفقها لاقامة حجة أو برهان ، مع أن التوفيق رائد الرسل ، والهداية حظهم فى كل زمان ومكان ، فدل ذلك على أنهم ليسوا قوماً ظالمين بدعوى الرسالة ، وانما هم مؤيدون من الله تعالى .

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) .

رجوع الى خصوم محمد صلى الله عليه وسلم وأعدائه الذين يحاولون بعدائهم للرسول صلى الله عليه وسلم أن يقتضوا على ما جئت الله به من حق ، وما جعل على يده من هداية بكلمات تصدر من أفواههم ، كقولهم : ان الرسول ساحر أو كذاب ، وهيهات أن تؤثر هذه الكلمات على ذلك النور الساطع ، وهذا الهدى الذى طبق الأرض ، وقوله (بأفواههم) تمك بهم وتعرض بضاوتهم ، وأن مثلهم فى ذلك مثل من ينفخ فى نور الشمس بنية ليطفئه ، فاذا كان هذا الالفخ يأمل النجاح فى اطفاء نور الشمس فكذلك هؤلاء (والله متم نوره) أى ان الله تعالى أخذ على

نفسه أن يؤيد دينه وينصر رسوله ، ويعطى كلمة الحق (ولو كره الكافرون) ذلك الاتعام بغير لهم أن لا يصادوا ذلك الدين ، ولا يعاربوا الحق ، لأنهم يحاولون عبثا ، ويجهدون أنفسهم في غير جدوى .

ثم أكد ذلك بقوله (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وهى بشارة من الله تعالى باظهار هذا الدين على ما سبقه من الأديان جميعها ، لأنه ملائم للقطر ، متفق وحاجات العصر ، وستخطر الناس الى العمل به اضطرارا (ولو كره المشركون) ذلك الظهور ، وهذه اللبلة ، فان الله تعالى لا يبالى كراهتهم ، ولا يعمل حسابا لتألمهم ، ثم طالب الناس بتجارة نافعة وعمل نافع مفيد ، هى أن يؤمنوا بالله ورسوله ، ويجهادوا فى سبيل الله واعلاء دينه بأموالهم ، فيذلوا بها عن طيب نفس ، وأنفسهم فلا يشحوا بها فى سبيل الدعوة والرجل الذى يجود بنفسه وماله وما أعز عزيز له هو المؤمن حقا ، ولذلك قال (ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم) وأى فوز أعظم من هذا ؟ ثم قال (وأخرى تحبونها) ومزية أخرى تحبونها من قرارة نفوسكم (نصر من الله) على الأعداء (وفتح قريب وبشر المؤمنين) الذين يجودون بنفوسهم وأموالهم فى سبيل مرضات ربهم .

(٢) (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) الخ .

بحث الله تعالى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بأن يكونوا أنصار الله كما كان أصحاب عيسى من الحواريين حين قال لهم من أنصارى إلى الله ، فقل الحواريون : نحن أنصار الله : أى انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين عند ما قال لهم ذلك ومناصرة الله تعالى تكون فى العمل بدينه ، والدفاع عن بيئته ، والوقوف عند ما رسم من الحدود ، وفى دعوة أصحاب محمد ومن بلغتهم دعوته الى مناصرة الله كما كان الحواريون ينصرون عيسى عليه السلام - فى ذلك ما يدل على أن الحواريين أصحاب عيسى كانوا مؤمنين حقيقة ، ولم يكونوا منافقين ، وكان طلبهم مائدة من السماء عن اخلاص وحسن نية ، ولم يكن الترضى اخراج عيسى أو اغتياله ، وهو أحد الرأيين فى من طلبوا من عيسى مائدة من السماء ، ولو كانوا متعتين فى طلب المائدة لما طالب الله أصحاب محمد أن يكونوا مثلهم فى مناصرة الله تعالى ، وما جعلهم مثلا صالحا يتأسى بهم ويتقيد بعملهم ، وقوله (فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة) بيان لسنة الله مع كل رسول ، وهى أن يؤمن به فريق ويكفر به فريق (فأبدا الذين آمنوا على عقوبهم فأصبحوا ظاهرين) ترغيب فى الايمان وبيان لعاقبة المؤمنين ، وهى تأييد الله لهم ، وتمكينهم فى الأرض كما قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين « ١٧١ » انهم لهم المنصورون « ١٧٢ ») ولان جندنا لهم الغالبون « ١٧٣ » (١) .

وهذه سنة الله مع أنصار رسوله فى كل زمان ومكان ، وهى لا تختلف ولا تتخلف ، جلنا الله تعالى من أنصار دينه ، للتأييد لرسوله .

دعوة خاتم الرسل



صلى الله عليه وسلم

إلى الله تعالى

(١) أراى وأنا قادم على ذلك القسم مقبلا على عمل من أشق الأعمال ، إذ أن غايى من ذلك القسم أن أصور للقارىء كيف كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى ، وقد كان لهذه الدعوة عدوان لعدوان : عدو بمكة ، وهم مشركو العرب وصناديد قريش ، وعدو بالمدينة ، وهم اليهود ، وكيف انتصر محمد صلى الله عليه وسلم عليهما جميعا ، ومكن الله له في الأرض بفضل اعتصامه بالحق ، وصبره على الأذى ، وتأديب الله تعالى له .

نم هى مهمة شاقة أن يتناول مثلى الدعوة المحمدية فيحيط بأطرافها ، ويجلبها للناس قضية خالصة ، ولكن الذى هوّن على المهمة أننى لم أرد أن أعرض للدعوة من الناحية التى عرض لها علماء السير ، وإنما أريد أن أعرض لها من طريق القرآن نفسه ، كما عرضت الدعوة من سبته من الرسل من هذا الطريق .

أما الأحداث التاريخية التى وقت له صلى الله عليه وسلم ولأصحابه بمكة والمدينة فقد كفانى مؤونة الكتابة فيها أولئك العلماء ، وبذلك تهون المهمة نوعا ما ، وتسهل على مثلى ، فقد نقلنا من تاريخ الرسل الذى حدثنا به القرآن الكريم قصا كبيرا ، وشرحناه للقراء شرحا يجلب غايته ، ويقت بالقارىء له على شئ كثير من العبر فيه ، ويطلعه على سفين الله فى المصلحين ، وكيف يؤيدهم الله وينصرهم على الرغم من وضع العقبات فى سبيلهم ، ويطلعه على سننه فى الفسدين ، وكيف يخذلهم ويخزيهم ، ويجعلهم عبرة ومثلا لمن يأتى بعدهم .

وكذلك حالنا في دعوة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى نبين لهم فيها مآلقاته من قومه من عنت وما صلاخه من عقبات ، وكيف اخترق ذلك كله بما آتاه الله من صبر وحكمة وما هداه الله اليه من آداب وتعاليم شأن بقية الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

وسأجل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في الدعوة الى الله تعالى قسمين : قسما منها قبل هجرته الى مكة ، وقسما بعد الهجرة ، ثم أين كيف كانت طريقة الرسول في مكة ، ثم في المدينة ثم أين ماذا دعا اليه في مكة وماذا دعا اليه في المدينة ، وما الذي لاقاه في حياته الأولى وحياته الثانية ، مستشهدا بآيات من القرآن الكريم على كل ذلك .

محلى صلى الله عليه وسلم دعوته في مكة

(٢) بعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة على رأس الأربعين ، ومدة اقامته بمكة بعد البعثة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما من ١٧ رمضان سنة ٤١ من ميلاده الى أول ربيع الأول سنة ٥٤ ، وما نزل من القرآن في هذه الفترة يقال له المكي .

ومكث بالمدينة للثورة بعد الهجرة تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، من أول ربيع الأول سنة ٥٤ الى تاسع ذى الحجة سنة ١٣ وما نزل من القرآن بعد الهجرة يقال له المدني .

المكي والمدني من القرآن

مجموع القرآن الكريم أربع عشرة سورة ومائة : أولها الفاتحة ، وآخرها الناس ، والسور المدنية هي : البقرة - آل عمران - النساء - المائدة - الأنفال - التوبة - الحج - النور - الأحزاب - القتال - الفتح - الحجرات - الحديد - المجادلة - الحشر - المتحنة - الصف - الجمعة - المنافقون - النباين - الطلاق - التحريم - إذا جاء نصر الله .

جملة أولئك السور المدنية ثلاث وعشرون ، وماعدائها وهو مائة وإحدى وتسعون مكية ، والمختار عند العلماء أن المدني ما نزل بعد الهجرة ، وإن كان في غير المدينة ، كالنبي نزل في فتح مكة ، والليكي من السور ما نزل قبل الهجرة وإن لم يكن في قصص مكة .

والغالب في السور للمكية أن تكون آياتها قصارا ، ولعل حكمة ذلك أن الخطابين بها مشركو العرب وهم أبغ العرب وأفصحهم ، وعلى الإعجاز مدار البلاغة عندهم ، ومعظم السور المكية زواجر وبيان لأصول الدين بالاجال .

أما السور المدنية ففي أساليبها شيء من الاسهاب ، ولا سيما في مخاطبة أهل الكتاب . لأنهم أقل بلاغة وفهما من العرب اخلص ولا سيما قريش ، وفيها بيان مآلاته منه من الأحكام العملية في العبادات والعاملات الشخصية والمدنية ، والسياسية والحربية ، ولأصول الحكومة الاسلامية والتشريع فيها كما تراه في طوال الفصل منها كالبقرة والنساء والمائدة .

المكي من القرآن

(٣) أما المكي من السور فهو يدور حول أصول الدين من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتوحيده في الألوهية والربوبية ، والإيمان بالبعث والجزاء ، والعمل الصالح والدعوة إلى الأخلاق .

وقد أفاض القرآن الكريم في الكلام على أولئك الأئمة ، لأنها أصل الدين وعماده ، فهي جديرة بالعناية ، ولأن من فقد هذه العقيدة ، وهي العقيدة في الله تعالى وحدثه وجزائه فقد فقد الخير كله ، وليس من دين الله في شيء ، وفي اعتقادي أن الذي يجري الناس على التهاون في العبادات ، ويوقعهم في المعاصي ضعف عقيدتهم في الله من جهة وعده ووعيده ، واعتقادهم على الشفعاء والوسطاء .

ولو أن الناس فهموا عقائد الدين فهما صحيحا ، وتمكنت هذه الأصول من نفوسهم نقيصة خالصة لكان لهم حال أحسن من ذلك الحال الذي نراه اليوم .

والعبرة للقارئ في ذلك أن يتأسي بالقرآن الكريم في عنايته بالعقائد والأئمة ، وجعلها في المحل الأول ، والعمل على تطهيرها من كل شيء يخالفها ، فانها متى كانت كذلك أنت أكملها كل حين باذن ربها ، وبسط أشعتها على جوارحه ، فتنبض للخير راضية مطمئنة ، وتبعد عن الشر كذلك ، وكيف لا تكون العقيدة في تلك المكانة وهي في القلب الذي جعله الله مهيمنا على الجسد كله ، ورئيسا عليه بصرفه كما يريد ، ويستخدمة كيف شاء .

أليس القلب رئيس الجوارح تصلح بصلاحه وتفسد بفساده ، نعم هو رئيسها وقائدها ، وهو هو الذي يوحى إليها الخير والشر بعد أن يتلى بنور الخير أو ظلمة الشر ، فكان من الخير للناس أن يعنى القرآن الكريم بتثبيت عقائدهم ، وتخليصها من الشبه والشكوك ، وجعلها بحيث تقود صاحبها إلى سعادته في دينه ودنياه .

وحدة الله تعالى

(٤) قد أفاض القرآن الكريم في الكلام على وحدة الله تعالى في خلقه ورزقه وإحيائه وإماتته كما أفاض في الكلام على وحدته في العبادة ، وأن لا يصح أن نعبد غيره أو نلجأ إلى سواه . ولما كانت العرب يعترفون بأنه تعالى هو الذي خلق السموات والأرض ، لم يشأ أن يذكر ذلك النوع من التوحيد إلا على سبيل التذكير بتلك الوحدة ، وجعل القوم على الاعتراف بها . لينتظم من ذلك الاعتراف إلى توحيد الله تعالى في العبادة ، وإفراده بإسلام الوجه له في هداية قلوبنا ، وإغاثة لللهوف منا ، وإجابة للمضطرب ، ومادام الناس موحدون لله تعالى في خلقه ورزقه ، وإحيائه وإماتته فلماذا لا يوحدهونه في عبادته والتوجه إليه ؟ وإني ذاك نموذجنا من دعوة القرآن إلى التوحيد وتبحيح الشرك وتصفية أصحابه .

الآيات

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِيرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ
إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٤» قُلْ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٥» مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ قَدْ
رَجِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ «١٦» وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ
وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١٧» الأنام

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا^(١) لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ يَتَّبِعِ عَلَيْهِمُ شُبْحَهُ
وَتَعَلَّى عَمَّا يُصِفُونَ «١٠٠» بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ
تَكُنْ لَهُ صُحْبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «١٠١» ذَلِكُمْ اللَّهُ
رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
وَكَيلٌ «١٠٢» الأنام

أَيُّشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ «١٩١» وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ
نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ «١٩٢» وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَا
عَلَيْكُمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صُمُتُونَ «١٩٣» إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
عِبَادُ أُمْنَانِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «١٩٤» أَلَهُمْ
أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أُذُنٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَاتَنْظُرُونَ «١٩٥» إِنَّ
وِلَايَ اللَّهِ الَّتِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ بِتَوَلَّى الصَّالِحِينَ «١٩٦» وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ «١٩٧» وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى
الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ «١٩٨» الأعراف

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَبِّحُوا لِلَّهِ
اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٣١» فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا
الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ «٣٢» كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ «٣٣» قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ
يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ «٣٤» قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ
لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ «٣٥» وَمَا يَتَّبِعُ
أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا
يَفْعَلُونَ «٣٦» يونس

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا
مِنَ الظَّالِمِينَ «١٠٦» وَإِنْ يَسْتَسْكِنُ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ
يُرِيدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ «١٠٧» يونس

يُصْحِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٣٩»
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً تَمَيِّزُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

سُلْطَنِي إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يوسف

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَلْبُغُهُ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَلْسَلٍ ﴿١٤﴾ وَفِيهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْقًا وَكَرْهًا وَظُلُمَلَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ ارمز

أَفَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَوَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَسْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُنْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ قَالَتِ الَّذِينَ لَا يَوْمُؤُنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ النحل

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ قُلْ إِنِّي قَارِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ ﴿٥٢﴾ وَاصْبِرْ أَفْصَحَ اللَّهُ تَقْوَى ﴿٥٣﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّهُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الضُّرِّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّهُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الضُّرِّ ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمُ يُنْفِرُ كُنْ ﴿٥٤﴾ النحل

أَفَاصْفِيكُمْ^(٤٠) رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا لِّتَقُولُوا
قَوْلًا عَظِيمًا «٤٠» وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا
شُورًا «٤١» قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَتَقُوا إِلَى دِيَارِهِمْ
سَبِيلًا «٤٢» سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا «٤٣» الاسراء.

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ
وَلَا تَحْوِيلًا «٤٤» أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا «٤٥» الاسراء.

وَإِذْ كُنْ فِي الْكَتَابِ بِإِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا «٤٦» إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا
يَا بَتِّ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا «٤٧» مريم.

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ يُنْشِرُونَ^(٤٨) «٤٨» لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ
إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ «٤٩» لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ
وَهُمْ يُسْأَلُونَ «٥٠» أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ
مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ «٥١»
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ «٥٢»
وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ «٥٣» لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ
وَهُمْ بِأَنْهَارٍ يَعْمَلُونَ «٥٤» يَتْلُمَ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَنْشَفُونَ إِلَيْنِ
أَرْتَضَى وَمِنْ دُونِهِمْ خَشِيئَتُهُمْ مُشْفِقُونَ «٥٥» وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ
فَذَلِكُمْ تَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ «٥٦» الأنبياء.

قُلْ مَنْ يَكْفُلُكُمْ ^(١) بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ تُفْمِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ
مُعْرِضُونَ «٤٢» أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَخْلَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ
وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ «٤٣» بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ
أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ «٤٤» الْآيَاتُ

بِآيَاتِهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ
يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ اللَّهُ ذَاتَهُمْ لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ
الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ «٧٣» مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرِمَ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ «٧٤» الْمَجْ

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٤» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٨٥» قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ «٨٦»
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٨٧» قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَائِكَتُهُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ
يُحْيِي ^(٢) وَلَا يُمِيتُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٨» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى
نُسْحَرُونَ ^(٣) «٨٩» بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ «٩٠» مَا اتَّخَذَ اللَّهُ
مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّى بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ سُبْحَتَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ «٩١» عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ «٩٢» الْوَسْوَ

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ «٥٩»
أَمِنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا
ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ «٦٠»

أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلْفَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوِاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «٦١» أَمِنْ يُحِيبُ
الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَحْمِلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا
مَاتَدَّ كُرُونُ «٦٢» أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُزِيلِ الرِّيحَ
بُشْرًا يَنْتَ بَدَى رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «٦٣» أَمِنْ يَبْدُوا
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «٦٤» النمل

مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ
أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِثَتْ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ «٤١» إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٤٢» العنكبوت

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ «٢٢» سبا

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ
مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٢» يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتِي
تَوَافَكُونَ «٣» طاهر

يُوجِلُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوجِلُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ^(١) «١٣» إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا
مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يُبْنِتُكَ مِنْهُ
خَيْرٍ ^(١٤) طهر

قُلْ أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْمَعُونَ لَهُ أَنْدَادًا
ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ «٩» وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا
أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ «١٠» ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ
فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا نِيطَانًا طَائِعِينَ «١١» فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا
ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ^(١٢) نعمك

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ
فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أُتِرَ ^(١) مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ «٤» وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ «٥» وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا
بِعِبَادَتِهِمْ كُفَرِينَ «٦» الأحقاف

الرسالة والجهد فيها

(٥) ان من يقع نصوص القرآن الكريم يرى أن الجهد في الرسالة بدأ منذ عهد نبي الله
نوح عليه السلام ، ثم انتقل من بعده الى قوم هود ونمود ، ومازال كذلك حتى وصل الى عهد
نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان جدهم فيها مبنيًا على شبهة توارثها بعضهم عن بعض ،
هي أن الرسول لا يصح أن يكون بشرا يأكل الطعام كما يأكل الناس ، ويمنى في الأسواق
كالمعتقون ، ويجب أن يكون من صف اللاتسكة ، وإذا لم يكن منهم فليكن معه ملك ليدلنا على
صدق ذلك الرسول من البشر .

وقد تكفل القرآن الكريم بالرد على هذه الشبهة الواهية ، وبيان أن سنة الله في جميع الأزمنة أن يرسل الى الناس واحدا منهم ، يختاره لذلك النصب ، ويصطفيه لهذا العمل .
أما الملائكة فليس من سنته أن تكون رسالة الله للناس على أيديهم من طريق على واضح ، لأن الله تعالى لو جعل الرسول من الملائكة لجعل على شكل الرجل ليناسب مع القوم الذين أرسل إليهم ، وحين ذاك يرجعون الى جدهم فيه ويلتبس الأمر عليهم .
على أن من سنة الله تعالى أن ينزل الملائكة عند إرادة العذاب بالقوم ، لذلك كله عنى القرآن الكريم بذكر هذه الشبهة والرد عليها في سور كثيرة منه .
على أن المسألة مسألة جدل وعناد ، لا مسألة شبهة استولت على نفوس القوم فلم يستطيعوا الخلاص منها ولكن الله تعالى لم يرد أن يتركهم وشأنهم ، بل عرض لها ولما يدحضها ، وبين أنهم جدد متعنين ، ليس من مهمهم الوصول الى حق ، أو الفرار من باطل ، وهذه طائفة من آي الذكر الحكيم تريك مقدار تشبههم بتلك الشبهة ، كإترك قيمة الشبهة في ذاتها .

الآيات

وَلَوْ تَرَرْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ مِثْنِ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا
لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ
مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ الأمام

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ نَشْرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ
أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قِرطاسٍ ^(١)
يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آباؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ
ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ
أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ

الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ «٩٣» الأنا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ «١» أَكَانَ لِلنَّاسِ عِجَابًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِيقٍ ^(١) عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ «٢» يونس

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتَى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ «٢٥» أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ «٢٦» فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَى إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَى إِلَّا أَنْفُسَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفَكُوا ^(٢) بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ تَنْظُرُونَ كَذِبِينَ «٢٧» هود

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَهَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَنِ شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ «٩» قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنُتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ ^(٣) مُبِينٍ «١٠» قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ

[١] قدم صدق : منزلة رفيعة . [٢] أَرَادُوا : فَرَادُوا ، بَادِيَ الرَّأْيِ : بِلَا بَحْت .

[٣] سلطان : برهان .

إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ إبراهيم

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعٍ ^(١) الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ^(٢) فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ^(٣) ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ ^(٤) أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ الحجر

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَشَرًا يَكُونُ رُسُلًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْنُونَ مَطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ الاسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا

[١] شيع : فرق . [٢] نسله : نسله . [٣] يرجون : يصدقون .

[٤] سكّرت : تمتت عن الابصار بالسكر .

التَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ
تُبْصِرُونَ «٣» الانبياء

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ بِقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٢٣» فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا
فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ «٢٤» إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَمَا تَبْصِرُونَ «١» بِهِ حَتَّى
حِينَ «٢٥» قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ «٢٦» الزُّمَر

وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ
إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا «٧» أَوْ يُنَزِّلُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ
يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّ تَدْبِيرُهُمْ إِلَّا رَجُلٌ مَسْحُورًا «٨» أَنْظِرْ كَيْفَ
صَبَرُوا لَكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَظِيمُونَ سَبِيلًا «٩» تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ
جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ
قُصُورًا «١٠» الفرقان

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ
فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا «٢٠» الفرقان

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ «٤»
أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ «٥» وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ

أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْأُولَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾ أُنزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ كُنَّ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ ﴿٨﴾ مَ-

البعث والجـزاء

(٦) وكذلك من أصول العقائد التي أجمعت عليها الشرائع السماوية بعث الناس وجزاؤهم على ما قدموا في هذه الحياة .

وقد كان النزاع في ذلك الأصل كبيراً ، ولا يزال فريق من الناس ينكرون أن يكون لهم حياة وراء هذه الحياة ، وقد أكثر القرآن الكريم من الرد على هذه الطائفة التي تنكر البعث ، وأقام عليهم الحجة نالو الحجة ، وأراهم أنهم يشاهدون عملية البعث تتكرر على مصأى منهم كل يوم ، إذ يرينا أن من آيات الله أن ترى الأرض خاشعة يابسة ، فلذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأن ذلك حياة لما بعد الموت ، وأن الذي أحياها هو الذي يحيي للموتى .

ثم أضاف إلى هذه حجة أخرى ، هي أن الحكمة تقضى أن يكون للناس حياة ينصف فيها للظالم من الظالم ، والضعيف الذي استغل ضعفه في هذه الحياة الدنيا ، من القوى الذي ناله شيء من آداء ، والله تعالى يرينا أن ترك الناس بلا بعث ولا نشور هو ضرب من السفسفة الذي يتزعمه الله تعالى عنه ، فكان من الواجب بمقتضى حكمة الله وعقله أن يفنر أجسام الناس من قبورهم ، ويبعدهم إلبهم حياتهم ، ليحصلدوا في تلك الحياة ما زرعوا في الدنيا ، ويجنوا ثمار ما قدموا (أبحسب الإنسان أن يترك سدى ﴿٣٦﴾ ألم يك نطفة من منى يعني ﴿٣٧﴾ ثم كان علقة تفلح فسوى ﴿٣٨﴾ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴿٣٩﴾ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴿٤٠﴾) . من سورة القيامة .

الآيات

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْتَشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَوِّرٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانًا وَغَيْرِ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَيْنُهَا عَلَى بَيْنٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَا يَأْتِي لِقَوْمٍ يَتَفَلَّحُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَقَجِّبْ قَوْلَهُمْ أَوَدَا كُنَّا رَبًّا أَوَدَا
لَبَّى خَلَقْ جَدِيدِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَى فِي أَغْثَاهِمِ
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾ الرعد

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ^(١) لَا يَتَّبِعُ اللَّهُ مَنْ يُمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا
وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيَبْئِثَنَّ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ النحل

وَقَالُوا أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفَاتًا ^(٢) أَوَدَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ
كُونُوا حِجَارَةً ^(٣) أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ
فَسَقِوْهُمْ مِمَّا يُبْدِيهِمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ
وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ
بِحَمْدِهِ وَتَنْظُرُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ الاسراء

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نُبَيِّنُ فَأَنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ رُابٍّ ثُمَّ
مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ ^(٤) وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَنَبَيِّنَنَّ لَكُمْ وَنُفِّرَنَّ
فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ اتَّيَلَّعُوا أَشَدَّكُمْ
وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَتَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمِهِ
شَيْئًا وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ

[١] جد إيمانهم : مجتهدين فيها . [٢] وفاق : فاقا .

[٣] كونوا حجارة الخ : أي فلا تتعاملون على الحياة فكيف إذا كنتم عظاما .

[٤] ينضجون : يخرجونها تعبيا واستعدادا . [٥] علقه : علقه من اليبس ، (أرذل العمر) : الهرم
والخرف ، (هامة) : ميتة يابسة ، (بهيج) : حسن سلو .

كُلَّ زَوْجٍ بِبَيْعِهِ «٥٠» ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٥١» وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ «٥٢» المجمع

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ «٥٣» قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ «٥٤» لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءِ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ «٥٥» قُلْ لِيِنَّ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٥٦» سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٥٧» قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّنِجِ وَرَبُّ الْمَرْشِ الْعَظِيمِ «٥٨» سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٥٩» قُلْ مَنْ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ «٦٠» وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٦١» سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ فَأَنَّى تُنصَرُونَ «٦٢» بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ «٦٣» المؤمنون

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٦٤» الروم

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا «٦٥» فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ «٦٦» وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ «٦٧» فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنْ ذَلِكَ لَخَيِّ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٦٨» الروم

[١] أساطير : أكاذيب . [٢] يجير : يقيت ، ولا يجار عليه : لا يبيث أحد منه أحدًا .

[٣] تسرعون : تفتدون عن توحيد وطاعته . [٤] كسفاً : قطعاً ، الودق : المطر .

[٥] مبلسين : من الابلأس ، وهو الحزن المترس من شدة اليأس .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُكُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْبَشِكُمْ إِذَا مُرِفْتُمْ كُلُّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتُغْرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَقَلَّمْ يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا يَمِينُ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَاءُ نُخَفِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا ^(١) مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ ﴿٩﴾ سبَا

فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَأَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ^(٢) ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ^(٣) ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أءَاذَانِنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَسَمٌ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ^(٤) ﴿١٨﴾ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ ^(٥) وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أءَاذَانِنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ ^(٦) بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ^(٧) ﴿٥﴾ أَقَلَّمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ^(٨) ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ^(٩) ﴿٩﴾ وَالتَّخْلُ

[١] كسفا : قطعا «منيب» راجع إلى الله . [٢] لازب : تفرج .

[٣] يستسخرون : يبالغون في السخرية . [٤] داخرون : صاغرون . [٥] زجرة : صيحة .

[٦] رج : العودة إلى الحياة : [٧] مرج : مضطرب .

[٨] فروج : فواصل . [٩] الحصيد : الزرع الذي يحصد .

بِاسْمِهِ ^(١) لَهَا طَلَعٌ نَضِيدٌ ^(٢) «١٠» رِزْقًا لِلْعَالَمِينَ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ «١١» ق

العمل الصالح

(٧) من مقاصد القرآن الكريم دعوة الناس الى العمل الصالح ، وهي من آثار الايمان بالله تعالى وجزائه ، والعمل الصالح من دلائل العقيدة الصحيحة ، فان من يقتنع بوعده الله ووعيده ، ولا يتخلجه شك في ذلك الاعتقاد لا يقع في مصيبة ، وان وقع فيها كان ذلك على تدور ثم يتوب من قريب ، والقرآن يحدثنا أن الشأن في المؤمنين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بشيء ينضب الله تعالى ذكره والله تعالى في وعده ووعيده ، وما أعدّه للعصاة من عذاب ، فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا على فاحشتهم ، وهم يعلمون أنها تنضب الله تعالى وتستوجب مقته ، فإذا رأينا رجلاً مدمناً لمصيبة من المعاصي ، وهو مطمئن الى عمله هذا راض به ، كان ذلك الايمان أمانة أنه ليست له عقيدة في الله صادقة ، وإذا رأينا آخر خلقه الاستقامة ، وإذا وقعت منه سيئة لسبب من الأسباب تاب من قريب ، دلّ ذلك على أنه صحيح الايمان سليم الاعتقاد .

وجاء القول أن العمل الصالح رهان على صحة العقيدة ، وثمرة من ثمارها فهي تمتد منه قوتها وثباتها ، فكلما أكثر المؤمن من العمل الصالح قوى اعتقاده في الله ، وكلما كان اعتقاده في الله قوياً جله ذلك على العمل الصالح .

وحسبنا أن الله تعالى جعل سعادة المؤمن في الايمان والعمل الصالح ، ولم يجعلها لصاحب العقيدة ، وهذه آيات القرآن الكريم تدلّ على ذلك ، وترشدك الى أن العمل ضروري للمؤمن ، وأن الجنة لا تنال بغير العمل وأن من يدعى الايمان بالله ثم يصبه ، ويدمن على ذلك المصيان ، لا يباي الله تعالى بإيمانه ولا يقيم لعقيدته وزناً ، لأنها من الوهن والضعف بمكان .

الآيات

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ «١٣٣» الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْفَيْضِ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٣٤» وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ يَصْرُحُوا عَلَى

مَا قَالُوا وَمَنْ يَمْلِكُونَ «١٣٥» أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنُفِيتُ عَنْهُمْ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ «١٣٦» آلام مرار

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِغْنَاهُمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ «٩» دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٠» بوس

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٩٧» النحل

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا «١٠٧» خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا «١٠٨» العنكب

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ «٥٥» النور

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذِلَّكُمْ عَلَى تَجَرَّةٍ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِهِمْ «١٠» تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «١١» يَقْرِ لَكُمْ دُؤُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١٢» وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «١٣» الصد

فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ «٢٨» يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّنَائِي «٢٩» وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ، وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «٣٠» التَّائِبِينَ

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا «٣١» إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا «٣٢» وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا «٣٣» إِلَّا الْمُسْلِمِينَ «٣٤» الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأِئُونَ «٣٥» وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَثْلُومٌ «٣٦» لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ «٣٧» وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ «٣٨» وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ «٣٩» إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ «٤٠» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْوَابِهِمْ يَحْفَظُونَ «٤١» إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُنَّ غَيْرُ مَلُومِينَ «٤٢» قُلْ أَتَنْهَى النَّاسَ عَنِ عَذَابِكُمْ إِنْ كَانُوا عَنِ الدِّينِ غَافِلِينَ «٤٣» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْوَالِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ «٤٤» وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ «٤٥» وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٤٦» أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ «٤٧» الدَّارِجِ

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ «٤٨» قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٤٩» وَلَمْ نَكُ نَطْعُ الْمُسْكِينَ «٥٠» وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَائِضِينَ «٥١» وَكُنَّا تُكَذَّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ «٥٢» حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ «٥٣» قَالُوا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ «٥٤» الدَّرِ

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ «٥٥» ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ «٥٦» إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ «٥٧» التَّائِبِينَ

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ «٥٨» وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

[١] التَّائِبِينَ : يَتُوبُونَ فِي الْإِسْلَامِ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ . [٢] هَلُوعًا : يَهْرَعُ مَا يَجِدُهُ .

[٣] مَنُوعٌ : مَنُوعٌ . [٤] حُنَفَاءَ : مُسْتَقِيمِينَ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ .

وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ^(١) «٥٥» إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ «٥٦» إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ «٥٧» جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ
يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ
خَشِيَ رَبَّهُ «٥٨» البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ «١» إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ «٢» إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ «٣» المص

الأخلاق

(٨) من أهم مقاصد القرآن نشر الأخلاق والدعوة الى الفضيلة ، وهو يشمل الدعوة الى
العمل الصالح والنهي عن المنكرات الظاهرة والباطنة ، كما يتناول آداب الدعوة الى الله تعالى ،
وآداب البيوت والمنازل ، وآداب الخدم مع مخدومهم .

وانك لترى من عبادة القرآن الكريم بذلك القسم ما يحقر أمانك ما عليه التمدنيون من أدب
قل لى ربك أى أدب يتناول ذلك الأدب الدينى الذى يلقنا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى
(يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من
قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم
ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) .

يطلب الى المخدومين أن يعلموا بمالكهم والذين لم يبلغوا الحلم من أولادهم وخدمهم الاستئذان
عليهم فى أولئك الأزمنة الثلاثة ، من قبل صلاة الفجر ، وحين يخلعون ثيابهم للراحة عند الظهر ،
ومن بعد صلاة العشاء ، لأن الشأن فيهم فى هذه الأوقات أن يكونوا على هيئة لاتسمح برؤيتهم
وقد يقع نظر الخادم أو المالك على عورة لهم ، ومن أجل ذلك أمروا بالاستئذان عليهم ، لأنها
أوقات عورة ، وبعد هذه الأوقات يدخلون عليهم بلا حرج لأنهم مستمتعون لمروهم بهم .

قل لى ربك أنتستطيع للدين الحاضرة أن تله لنا مثل ذلك الأدب أو ما يقرب به ؟ ولذلك
يعقب الله عليه بقوله (كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) نعم هى آيات انه أدب المحي
وضمه عليهم لايجهل ، وحكيم لايبت .

الآيات

قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ^(١) نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(٢) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(٣) الأعم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ^(٤) ثَوَاتِي أَكُلَهَا كُلٌّ حِينَ يُرِيدُ يَلِذْنَ بِهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ^(٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ^(٦) مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ^(٧) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ^(٨) إبراهيم

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ^(٩) فِيهِ الْأَبْصَارُ^(١٠) مُهْطِعِينَ^(١١) مُقْنِعِي^(١٢) رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَالٍ^(١٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِيبَ دَعْوَتِكَ وَتَفِيعَ الرَّسُلِ أَوْ لَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ^(١٤) وَمَسْكَنَتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا

[١] إِمْلَاقٌ : فقر . [٢] اجْتَنَبَتْ : استَوْصَتْ ، وَأَخَذَتْ بِجَنَّتِهَا كَلِمَةً .

[٣] تَشْخَصُ : لَا تَهْوِي أَمَا كُنْهَا . [٤] مُهْطِعِينَ : مُسْرِعِينَ إِلَى الْبَاحِ .

[٥] مُقْنِعِي : رَافِعِي . [٦] هَوَالٍ : خَلَاةٌ مِنَ الْهَمِّ لِقَرَارٍ الْعَصَةِ .

أَفْهَمَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا
مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِيَرْوِلَّ مِنْهُ أُلْبَابُ (٤٦) فَلَا
تُحْسِبَنَّ اللَّهُ مِخْلَافَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ
غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُقَرَّبِينَ (١) فِي الْأَصْفَادِ (٢) (٤٩) سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَشْأَى وُجُوهُهُمْ
النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيدٌ الْحِسَابِ (٥١)
هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ (٥٢) المجر

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعْطِكُمْ لَمَلِكُمْ تَذَكُّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا
عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
اللَّهَ يَنْهَى مَا تَعْمَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَعَّضْتُمْ عَنْهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ
أَنْتُمْ (٣) تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا (٤) يَنْتَكُمُ أَنْ تَكُونَ (٥) أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى
مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُوءُكُمْ (٦) اللَّهُ بِهِ وَلِيَيْنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ
دَخَلًا يَنْتَكُمُ فَتَرَوْا قَدَمَ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ

[١] ممرين : قرن بعضهم يسي . [٢] الأصْفَادُ : القيود .

[٣] أُنْكَأ : جمع نَكَت ، وهو حل طافات فتلها . [٤] دَخَلًا : مضيدة .

[٥] أَنْ تَكُونَ الخ : أى بسبب أن كانت أمة ، أوفر عددا من أمة أخرى تصرون في عهدكم .

[٦] يَبُوءُكُمْ : يهتكم .

خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٩٥» مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ
الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٩٦» النحل

أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمْ يَأْتِيهِمْ
أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «١٢٥» وَإِنْ
عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبِلُوا بِمِثْلِ مَا عُوْذْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ «١٢٦»
وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ «١٢٧»
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ «١٢٨» النحل

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ
أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا تنهرهما وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا «٢٣»
وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ^(١) مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبُّ أَرْزَقَهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا «٢٤»
رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ
غَفُورًا «٢٥» وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ
تَبْذِيرًا «٢٦» إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ رِبِّيًّا
كَفُورًا «٢٧» وَإِنَّمَا تُمْرِسُونَ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ
قَوْلًا مَيْسُورًا «٢٨» وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ
فَتَقْعَدَ مَكُومًا مَحْسُورًا^(٢) «٢٩» إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ^(٣) إِنَّهُ
كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا «٣٠» وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ^(٤) نَحْسٌ
تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا «٣١» وَلَا تَقْرَبُوا الرِّئْيَ إِنَّهُ كَانَ

[١] جناح الذَّلِيلِ : جناحه القليل . [٢] إِنْ تَكُونُوا إلخ : كلام جديد لاصلة له بما قبله ، الأَوَّابِينَ :
الرجاعين إليه . [٣] مَحْسُورًا : فاقماً . [٤] يَحْدَرُ : يضيئ . [٥] إِمَّا لَكُمْ : فخر .

فُجِشَتْ وَسَاءَ سَبِيلًا «٣٢» وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا ^(١) فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا «٣٣» وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا «٣٤» وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمُ وَزَنُوا بِالْقَيْسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ^(٢) «٣٥» وَلَا تَقْفُ ^(٣) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا «٣٦» وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ^(٤) إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا «٣٧» كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا «٣٨» الامراء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ «١» الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ «٢» وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ ^(٥) مُعْرِضُونَ «٣» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَا يَتَّبِعُهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ «٤» فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَادُّونَ ^(٦) «٥» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ «٦» وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٧» أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ «٨» الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ «٩» المؤمنون

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ^(١) وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ «٢٧» فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا

[١] سلطاناً : سلطاناً . [٢] تأويلاً : مأية . [٣] تقف : تتبع .

[٤] مرها : اختيالا ، إنك لن تخرق الأرض الخ : تبكم به وإشارته بأنه ضعيف .

[٥] اللغو : ما لا يعني من قول وعمل . [٦] المادون : الكاملون في العيوان .

[٧] تستأذنوا : تسألوا .

فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَمْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكىٰ لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَمْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴿٣١﴾ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ ﴿٣٢﴾ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنَ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَمَلَكُومٌ ﴿٣٣﴾ التَّوْبَةُ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْهِدْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ ﴿١﴾ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْهِدُوا كَمَا اسْتَفْهَدَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

[١] أزكى : أظهر . [٢] جيوين : فتحة الثوب التي تدخل فيها الرأس .

[٣] الأربة : الحاجة إلى النساء ، لم يظهروا ، يستلطوا لها لضيق أو صغر .

[٤] ثلاث عورات : من شأن الإنسان أن لا يحتمل فيها ، وذلك أعظم تأديب من الله لنا حق مع الأطفال والمالك .

حَكِيمٌ ٥٥٩» وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَقْضَيْنَ فِيمَا يَبْهِنُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهِنَّ وَأَلَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٦٠» الدور

إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ذُرِّيَّةً مِنْ السُّكُوتِ مَا إِنْ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوتُوا بِالْمُغْصَةِ ^(١) أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ^(٢) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ «٧٦» وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ «٧٧» قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ^(٣) أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَهْدَى مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمًّا وَلَا يُسْئَلُ ^(٤) عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «٧٨» فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ «٧٩» وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ «٨٠» تَخَسَّفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ «٨١» وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّعُوا بِمَكَانِهِ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ ^(٥) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاهُ وَيَكَآئُ لَا يُلَاحِظُ الْكَافِرُونَ «٨٢» تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ «٨٣» النحل

وَإِذْ قَالَ نُوحٌ لِبَنِيهِ وَهُوَ يَمْطُرُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ ^(١)

[١] لتتروا بالصعبة الخ : أى تنزل على الجماعة الأقوياء فكيف بنهم . [٢] تفرح : تبطر وترهو .

[٣] على علم عتدى : أى علم بطريق جمع للدال ينكر فعل الله عليه فيه .

[٤] ولا يسأل الخ : بل يأتيهم العذاب بنتنة . [٥] وى : كلمة تسجب ، كأن : حرف تنبيه .

[٦] ظلم : مجاوزة للحد ، وهو تسمية بين خالى وعلاق .

عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَعِنَّا عَلَى وَهْنٍ (١٤) وَفَصَّلْهُ فِي
حَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ إِلَى الْمَصِيرِ (١٥) وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ
بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ
مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بَنِي
إِسْرَءِيلَ إِنَّا كُنَّا نَمُوتُ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ فَتَكُنْ فِي صَعْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي
الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنْ أَرَادَ لَطِيفٌ خَيْرٌ (١٦) يَدْعُنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآتِ
بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَضْمِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ
الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تَصْمُرْ (١٨) خَذَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَنْفِسْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا (١٩) إِنْ أَرَادَ
لَا يَجِبُ كُلُّ مُخْتَلِفٍ نُفُورٍ (٢٠) وَأَقْصِدْ (٢١) فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ (٢٢) مِنْ صَوْتِكَ
إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ أَصَوْتُ الْحَمِيرِ (٢٣) لَقَاتِ

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٢٤)
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (٢٥) فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَيَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٢٦) وَمَا يُلْقِيهَا (٢٧) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا
إِلَّا دُوحًا حَظِي عَظِيمٌ (٢٨) وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ (٢٩) مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَمِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٠) فَكَلِّ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا

[١] وهنا على وهن : تضعف ضعفا فوق ضعف ، فعالة : فطامة .

[٢] عزم الأمور : معزوماتها التي يعزم عليها لوجوبها . [٣] تصغر : تكل تكبرا . [٤] مرعا : اختيلا .

[٥] أقصد : توسط بين الديب والإسراع . [٦] اغضض : اغمض .

[٧] بالتي هي أحسن : أي بالطريق التي هي أحسن في الدفع . [٨] يلقاها : يعمل تلك الحصة .

[٩] ينزغتك : من نزغته نخسه ، شبه الوسوسة بالنفس .

نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنْ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا^(١) أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا
بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَئِمَّةُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ^(١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ
إِنَّمَا وَلَا يَجْسُسُوا^(٢) وَلَا يَنْتَبِ بِمُضْكُمْ بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهَتْهُمُ^(٣) وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ^(١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا
خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ^(١٣) المبررات

عجل صلى الله عليه وسلم

وظيفته

(٩) بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كما بعث غيره من الرسل ليقم حجة الله على
الناس بتبليغ دينه ، وتخويف الناس من عذاب الله تعالى ، وتبشيرهم ، وتعرفهم أنه مابعث
ليحول قلوبهم من ضلال الى هدى ، فان ذلك الى الله وحده ، وكما بعث صلى الله عليه وسلم
للاذكار والتبشير بعث ليكون قدوة سالحة في الخير والفضيلة ، تناسى به الناس في عبادة الله تعالى ،
وتأثر طريقه في حسن الخلق ، لأن الناس من شأنها أن تنظر في أعمال من يدعوها إلى الخير ،
فان رأيت منهم وقوفهم عند حدود ما يدهون إليه اتبعهم ، وان رأيت عملهم يخالف قولهم نبذتهم
ولذلك يقولون ان تأخير العمل على الناس فوق تأخير القول .

فوظيفة الرسول جمعت الى القول بالعمل الصالح ، والسيرة الطيبة الرضية ، ومن ذلك فعل أنه
من الحق أن يطلب من الرسول أن يكون له كنز أو ملك من ملائكة الله تعالى ، فان ذلك
خارج عن حدود وظيفته ، وهي الدعوة الى الله تعالى والصبر عليها ، والصلابة في الحق ليهلك من
هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة .

الآيات

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

- [١] تلمزوا : تبيوا ، تنازروا بالألقاب : ينادى بعضهم بعضاً بما يكره ، بعد الإيمان : أى مع الإيمان .
[٢] تجسسوا : تبحثوا عن عوراتكم ، أحب أحداكم الخ : تميل لما ياله الكتاب من أخيه على الخش
وجه وأبسه .

لَا تَسْتَكْبِرُتُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ الأعراف

فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَنَصْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاتِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مِنْهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ مود

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَايَا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السُّجُودِ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ النمل

إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَاهُ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَإِنِ اهْتَدَىٰ فَلَا غَيْرَ لِي فِي نَفْسِي وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ النمل

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تَطْعَمِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْهَبَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ الأعراف

قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ لِيَأْتِيَنَّكُمْ لِيُعْلَمَ فَعَلْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ الزمر

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
لِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ
مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ «١٣»
وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ مُّمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُتِنْتُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنْ يَشْكُرُوا
مِنْهُ مُرِيبٌ «١٤» فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ
ءَاَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ إِنَّا
أَعْمَلْنَا وَأَنْتُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ «١٥» الثَّوْرِي

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ «١٦» إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ «١٧» هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ «٢٠» المجابية

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا «٢٠» قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ
ضَرًّا وَلَا رَشَدًا «٢١» قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ
مُلْتَجِدًا «٢٢» إِلَّا بَلَّغْنَا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا «٢٣» حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْمَفَ
فَاصِرًا وَأَقْلَ عَدَدًا «٢٤» المجن

مجلد صلی اللہ علیہ وسلم

وتريسة الله له

(١٠) ان من يتصدى لذلك المنصب الجليل ، منصب الرسالة ، ودعوة الناس الى الحق ، في حاجة كبرى الى أن يربي أحسن تربية ، ويهذب بأفضل أنواع التهذيب .
وقدرى الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تربيته ، فقصر عليه من سيرة الرسل السابقين ما فيه العبرة ، وأراه من سلوكهم مع أقوامهم ما يكفي لتهذيب نفس المصلح ، وترويضها على الخير .

ثم أسره أن يقتدى بهم في الهدى ويتأسى بهم في الصبر والاحتمال ، وأن يقول لقومه كما قال أولئك الرسل ، وهو أنه لا يسألهم على تبليغ رسالات الله أجرا ، وإنما يطلب الثوبة من الله تعالى ، ورسول ذلك شأنه من حق الناس أن تصفى إليه .

وحسبه أن يقول الله له (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین «١٩٩» واما يئزغناك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم «٢٠٠» الأعراف) .

ومن وسائل تربية الله تعالى له تزيده في زخرف هذه الحياة ، فلا يمدد عيذه الى مامتع الله به أصنافا من الخلق ، فان رزق الله له من الحكمة العالية ، والقناعة والرضى ، والآداب ، هو خير له وأبقى من أولئك الزخارف .

وما أخرج الواعظ الى تدبر ذلك النوع من التربية ، وترويض نفسه على الزهد في هذه الحياة حتى لا يكون همه محصورا فيها ، وحتى لا تفرق عليه شمله ، وتضعف عليه غايته ، وهي الدعوة الى الله تعالى .

وقد تضمن ذلك الباب آداب الدعوة ، وهي أن تكون بالحكمة والمواظب الحسنة ، وأن يكون الجدال بالتي هي أحسن ، وأن يعصم صاحبها بالصبر على ما يناله من القوم من أذى ، ويعلم أن الله تعالى معينه وناصره ، وأنه يبرأى منه ومسمع ، متأشيا بأصحاب الزم من الرسل .
ولعل في ذلك العبرة لدعاة اليوم وورثة الرسل ، فلا يياسون ، ولا يتضجرون إذا حل بهم مكروه أو نالهم شيء من جراء الدعوة .

الآيات

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا أَنْ ذَكَّرْتُ لِلْعَالَمِينَ «٩٠» الأنعام

خُذِ الْقَوْ^(١) وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ «١٩٩» وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ
مِنَ الشَّيْطَانِ تَرْغ^(٢) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٢٠٠» إِنَّ الَّذِينَ أَتَقُوا إِذَا
مَسَّهُمْ طَائِفٌ^(٣) مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ «٢٠١» وَإِخْوَانُهُمْ^(٤)
يَعِدُّوهُمْ فِي النَّارِ ثُمَّ لَا يَفْعِلُونَ «٢٠٢» وَإِذَا لَمْ يَنْتَهِبْ يَتَابَعُوا قَالُوا لَوْلَا
أُجْبِيتُمْ^(٥) قُلْ إِنَّمَا أُتِيَ سَعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائرُ^(٦) مِّنْ رَبِّكُمْ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٢٠٣» الأعراف

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَتَانِي^(٧) وَالْقُرْآنَ الْمَظِيمَ «٨٧» لَا تَعْدُدْ عَيْنُكَ
إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمُؤْمِنِينَ «٨٨»
وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ «٨٩» كَمَا أَنْزَلْنَا^(٨) عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ «٩٠» الَّذِينَ جَعَلُوا
الْقُرْآنَ عِضِينَ^(٩) «٩١» فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْتَنَّهُمْ^(١٠) أَجْمَعِينَ «٩٢» عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ «٩٣» فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ «٩٤» إِنَّا كَفَيْنَاكَ
الْمُسْتَضْرِينَ «٩٥» الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَسَوْفَ يَعْلَمُونَ «٩٦»
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ «٩٧» فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ
السَّاجِدِينَ «٩٨» وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ^(١١) «٩٩» الحجر

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْهُمْ يَأْتِيهِ هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «١٢٥» وَإِنْ

[١] القفو : الهر من أخلاق الناس ولا تبت عنها العرف : السطح . [٢] ترغ : وسوسة .

[٣] طائف : فئة ألم بهم . [٤] إخوانهم : إخوانه الشياطين الذين لم يهتوا .

[٥] اجبيتها : طلبتها من الله تعالى . [٦] بصائر : يصر بها الحق .

[٧] المتاني : الفاتحة لأنها تكرر ل كل صلاة . [٨] كما أنزلنا الخ : أي خصصناك بانزال القرآن كما

خصصنا أولئك بانزال العقاب بهم . [٩] عضين : جمع عضه كعده الفرقة ، أي جعلوه أجزاء آمنوا

بعض وكفروا بعض . [١٠] اليقين : الموت .

عَاقِبْتُمْ فَمَا قَبِلُوا بِمِثْلِ مَا عُوِذْتُمْ بِهِ، وَلَسُنَّ صَابِرِينَ لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ «١٢٦»
وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَيْقِلٍ مِمَّا يَتَكَبَّرُونَ «١٢٧»
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ «١٢٨» التحل

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا
تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا «٢٨» العكهف

فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ بَيْنَ يَدَيْهَا «٢٩» الْبَلَدِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى «١٣٠» وَلَا تَعْدُ
عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ «٣١» فِيهِ وَرِزْقُ
رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى «١٣١» وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا
نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَةُ لِلتَّقْوَى «١٣٢» ط

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَتَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي
أُمْنِيَّتِهِ «١» فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ «٥٢» لِيَجْزَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً «٥٣» لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ «٥٣» وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ «٥٤» لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «٥٤» وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ «٥٥» مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ «٥٥» الحج

[١] فرطاً : تهدأ على الحقّ ونبدأ له . [٢] آتاه : ساءت ، جمع آتاه بالكسر والقصر ، أو آتاه
بالفتح واللدّ . [٣] لنفتنهم : لنختبرهم . [٤] أمْنِيَّتُهُ : ما يجهنم من نصر الحقّ ، ينسخ : يزيل .
[٥] فتنة : ابتلاء . [٦] فتخت : تنحس . [٧] مرية : شك .

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِئِنْ أَنْتَبَكْ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى الْمَرْزُوقِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلَبَكَ فِي
السُّجُودِ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ الشعراء

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا
ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ النعكبوت

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ ^(١) اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ ^(٢) الَّذِي
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾ الروم

فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِتَغْيِيرِ سُلْطَانٍ ^(٣) أَنْتُمْ إِنْ فِي
ضُدُّورِهِمْ إِلَّا كِبْرُ مَا هُمْ بِبِلَغِيهِ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ غافر
فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا الْأَوَّلَ الْعَزِمِ مِنَ الرَّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ
مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ قَوْلَ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ الأحقاف

كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

[١] يطبع : يحول بينها وبين الحق جزءا تماثيا عنه . [٢] يستخفك : يمحواك على الحق والطيش
بعد العجز . [٣] سلطان : حجة .

أَتَوَصَّوْا بِهِ ^(١) بَلْ لَمْ يَكُنْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّوْكَ عَنْهُمْ فَأَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾
وَذَكَرْنَا لِلَّهِ أَنْ تَكْرِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ القاريات

وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ^(٢) وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٥٨﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٥٩﴾ الطور

محمد صلى الله عليه وسلم

وتعنت المشركين معه

(١١) لقد كان تعنت المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واحراجهم له بالآفة أشدّه
فمرة يقولون له ائت لنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدله ، فيعتذر لهم أن ليس في استطاعته أن
يقبله من تلقاء نفسه ، لأنه متبع لما يتدبّر ، ويرىهم أنه لولا مشيئة الله أن يكون رسولا مانلاهم عليهم
ويستشهد على ذلك بأنه مكث فيهم دهورا طويلا قبل النبوة لم يحققهم فيه بشيء ، وذلك برهان
أن ذلك الكتاب من عند الله لا من عنده .

وأحيانا يقرحون عليه أن يأتيهم بلائكة تشهد له بالصدق ، وتدلّ الناس على أنه رسول
من عند الله ، فيرىهم أنه ليس من سنة الله تعالى أن يبعث مع الرسل ملائكة يمشون مطمئين
على الأرض ليكونوا دلائل صدق الرسل .
وصمرة ينكرون أن يكون الرسول من جنس البشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ،
فيرىهم أن ذلك هو سنة الله تعالى في الرسل للماضين .

وأونة يقولون له لن نؤمن لك حتى تفجر لنا ينبوعا من الأرض ، أو تكون لك جنة من نخيل
وعنب ، أو تسقط السماء قطعا على أعقابك ، أو تأتي بالهلال واللائكة ليقاتلوا الناس ، أو يكون
لك بيت من زخرف ، أو تصعد إلى السماء ، ثم بعد صعودك تنزل علينا كتابا نقرؤه ، ويكون مؤيدا
لصدوك ، فيجيبهم الرسول بقوله (سبحان ربّي هل كنت إلا بشرا رسولا) وهذه الآيات لا يعملها
إلا إله ، فليست من عملى .

دع ما يرمونه به من السحر والجنون ، وأنه نقل كتابه من خرافات الأولين وأساطيرهم .
وقد أخبر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن أولئك اللعاندين ميؤوس من إيمانهم
فلا تطمع في هدايتهم ، وأنه تعالى لو أنزل عليهم كتابا في قوطاس كما طلبوا فامسوه بأيديهم لقال
الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين ، وكذلك لو أجابهم إلى ما طلبوا من تنزيل لللائكة ، بل

[١] أتوصوا به : أى أوصى أولئك المفسدون بضمهم بعضا بالاستعزاء بالرسول والطمع عليهم بالسحر والجنون .

[٢] بأعيننا : تحت رعايتنا فلا تنسك ولا نلطمع عليك .

لأوحى الله التوحي وشهدت بصدق محمد ، وجمع لهم من الأدلة والبراهين كل شيء طلبوه ، ما كانوا يؤمنوا ، لأنهم معاندون ، وللعاند لا يقنع بشيء ، لأنه لا يطلب حقا ، وإنما يفتي الاعنات والاحراج ولو كان يطلب الحق لكفاه ما نصبه الله من الأدلة ، وما أيد الله به رسوله من البراهين ، وحسبه أنه أحمى نشأ بين الأحمين ، ومكث أربعين سنة على ذلك الحال ، ثم أنطقه الله بالحكمة العالية ، وذلك الكتاب المعجز الذي تحدى الله به العرب ، وسجل عليهم المعجز عن الاتيان بمثله ، بل بعشر سور منه ، ثم تحدىهم بسورة واحدة .

كان يكفهم ذلك لو كانوا يطلبون الحق ، ولكنهم قوم خصمون كما وصفهم الله تعالى ، والمجادل الذي يحب الجدل للجدل لا للحق ليس في طاعتك اقتناعه .
وهذه طائفة من القرآن الكريم تريك مقدار نعمت القوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتريك أن أولئك لا يبيل الى هدايتهم بحال .

الآيات

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ ^(١) فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ أَقَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ^(٢) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ
لَقُضِيَ الْأَمْرُ ^(٣) ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ^(٤) ^(٥) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا
عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ^(٦) وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ خَافَ الَّذِينَ سَخِرُوا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ^(٩٨٠) ^(٩٨١) ^(٩٨٢) ^(٩٨٣) ^(٩٨٤) ^(٩٨٥) ^(٩٨٦) ^(٩٨٧) ^(٩٨٨) ^(٩٨٩) ^(٩٩٠) ^(٩٩١) ^(٩٩٢) ^(٩٩٣) ^(٩٩٤) ^(٩٩٥) ^(٩٩٦) ^(٩٩٧) ^{(٩٩}

وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّهُ بَقَرَةٌ إِنْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌّ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْقَائِي تُقَسَّى إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ «١٥» قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَايَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِغْتُ فِيكُمْ عُمَرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ «١٦» قُلْ أَكْثَرُكُمْ مُنْكَرٌ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بُيَاتُهُ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ «١٧» يوس

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «١٨» لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «١٩» مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ «٢٠» إِنَّا نَحْنُ نُزِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ «٢١» وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعٍ ^(١) الْأَوَّلِينَ «٢٢» وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ «٢٣» كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ^(٢) فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ «٢٤» لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ «٢٥» وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَفَلَّوْا فِيهِ يَعْزُجُونَ «٢٦» لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ ^(٣) أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مُنْجَمُونَ «٢٧» مَسْحُورُونَ «٢٨» الحبر

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوتًا «٢٩» أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلْمًا فُتَجِيرًا «٣٠» أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زُخُمَتْ عَلَيْهَا كِسْفًا ^(٤) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَكَةِ قِيْلًا «٣١» أَوْ يَكُونُ لَكَ يَنْتُ مِنْ زُخْرَفٍ ^(٥) أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزَيْدِكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا

[١] شيع : فرق ، جمع شيعه . [٢] كذلك نسلك : على هذا النحو ، ندخله ، ونفسره بقوله : لا يؤمنون به . [٣] سكوت : سدت عن الابصار من أجل السر . [٤] كسفا : قطا ، قيلا : جامات . [٥] زخرف : ذهب .

كَيْتَبًا تَقْرَوُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَتَّعْنَا النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مِثْلُكُمْ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴿٩٥﴾ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِبِعَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِّنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ﴿٢﴾ إِلَّا اسْتَمَوْهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٣﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ بَلْ قَالُوا أَضَلُّتُمْ أَخْلَجُمْ ﴿٦﴾ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٧﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿١١﴾ الأنبياء

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿١٢﴾ وَقَالُوا أَطُيَّرُوا لِلْأَوَّلِينَ أَمْ كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْمِلُوا بِهِ عَثَرًا ﴿١٣﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِئُ فِي الْأَسْوَاقِ

[١] مطمئنين : ساكنين كالبحر . [٢] محدث : جديد لم يألوه .
[٣] أضغان أحلام : تخالطها جمع ضغ ، وهو مايج من أخلط النبات .

لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧٧﴾ أَوْ يُنْفِقُ إِلَيْهِ كَثْرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ
جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٧٨﴾ أَنْظَرُ كَيْفَ
سَرَبُوا إِلَيْكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا ﴿٧٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٨٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ
لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿٨١﴾ الفرقان
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي
الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴿٨٢﴾ أَتَنْصَرُّونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٨٣﴾
وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ
أُسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلِكَةَ لَا بُشْرَىٰ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٨٥﴾ الفرقان

وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَلْهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٨٦﴾
إِنْ كَادَ لَيَفْتِنُنَا عَنْهُ الْهَيْتَانِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ مَنْ أَصْلَحَ سَبِيلًا ﴿٨٧﴾ الفرقان

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا
أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٨٨﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ
فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ عَيْنًا وَبَيْنَكُمْ
شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ
هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ النجم

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَهِ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ

[١] فضلو : ضرب من الأفعال ، ومنها أنه مسحور العقل ، وفيه رد لحديث السحر ، ودليل على عدم صحته لأنه يخالف الآية . [٢] فتنة : ابتلاء . [٣] لا يهري : لخلول العذاب بهم . [٤] حبراً محجوراً : كلمة استضافة تقال عند لقاء عدو أو مكروه يطلبون بها من الله أن يمنع لقاءه منها .

عَمَّا كَانَ يَسْتَدْعِيهِمْ ، وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ ^(١) مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ^(٢) وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كِتَابٍ
يَذَرُسُونَهَا ^(٣) وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ^(٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَمَا بَلَّغُوا ^(٥) مِمَّنْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ^(٦) ^(٧)
قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ^(٨) ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا
مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ^(٩)
قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ^(١٠) ^(١١) قُلْ إِنْ رَأَيْتُمْ يُكَذِّفُ بِالْحَقِّ ^(١٢) عِلْمُ الْقُيُوبِ ^(١٣) ^(١٤) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ
وَمَا يَنْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ^(١٥) ^(١٦) قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَأِنَّمَا أَصَلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ
أَهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ^(١٧) سَبَا

كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ^(١٨) ^(١٩) بَشِيرًا وَنَذِيرًا
فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ^(٢٠) ^(٢١) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ^(٢٢) مِمَّا
تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ^(٢٣) وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا
نَعْمَلُونَ ^(٢٤) نَصَحَتْ

وَلَوْ لَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ^(٢٥) ^(٢٦) أُمٌّ
يَقْسِمُونَ رَحِمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

[١] إفك : كذب . [٢] من كتب يدرسونها : أى تدلهم على شبهة فى كفرهم .

[٣] وما بلغوا : الضمير لكفار مكة . [٤] نكير : إنكارى .

[٥] مثنى وفرداى : جماعات ووحداً . [٦] يكذب بالحق : يرمى به الباطل فيدفعه .

[٧] أكنة : أغلفة ، جمع كنان . [٨] وفر : صمم . [٩] نظيم : بالهاء واللام .

فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ^(١) وَرَزَقْنَاهُ رَبُّكَ خَيْرًا مِمَّا
يَحْكُمُونَ ^(٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ^(٣) لَجَعَلْنَاهُمْ لِبَنٍ يُكْفَرُ
بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْقًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَكَرِجَ عَلَيْهِمْ يَظْهَرُونَ ^(٤) وَلِيُؤْتِيَهُمْ أَزْوَاجًا
وَسُرُورًا عَلَيْهِمْ يَتَكَبَّرُونَ ^(٥) وَزُخْرُفًا ^(٦) وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ^(٧) الزخرف

مجلد صلی اللہ علیہ وسلم وتسلية الله تعالى له

(١٢) بعد ذلك العنت الذي لقيه من قومه ، واقتراح الآيات ، كان في حاجة الى تسليية الله تعالى له ، وبيان أن ذلك سنة الله مع كل رسول ، ومتى عرف أن ذلك لم يكن خاصا به ، وإنما هو عادة الناس مع كل رسول ، فانه يصبر ويتسلى .

ثم أراه أنه ان كان قد عثر عليه اعراض للمشركين عن دعوته ، وانكارهم لبوته ، فلاغنى له عن الصبر والاحتبال ، ولواستطاع أن يطلب سربا في الأرض يحصل به من أولئك القوم ، أو سلبا في السماء فيأتيهم بأية تخضع لها أعناقهم فليقبل ، نفيها أن يرضى ، وأن لا تذهب نفسه عليهم حسرات .

ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لفضل ، ولكن حكمة الله قضت بأن يضل أمثال أولئك المتعنتين ، لأنهم لا يريدون الحق ، ولا يعملون للوصول إليه ، وعطوا مواهب الله فيهم ، وأعلموا سمعهم وأبصارهم وعقولهم ، فكانوا أحق بذلك العقاب في الدنيا من حرمانهم من الهدى ، والشقاء في الآخرة بتقدم السعادة .

وما أحوج المصلح الى تدبر ذلك النوع من الكتاب الكريم ، ليتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصبر على إيذاء القوم وبلائهم ، لأن ما يصيب الرسل من جرأ الدعوة الى الله يصيب أتباعهم ، فلذا كان من حقهم أن يتبعوا طريقهم ، ويسألوا تسليتهم ، ويوقنوا بأن هذه سنة الله فيمن سبقهم .

الآيات

قَدْ أَعْلَمَ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ

[١] - سُخْرِيًّا : يسخره في معالجه . [٢] - أُمَّةً وَاحِدَةً : على ملة واحدة ، وهي الكفر .

[٣] - زُخْرُفًا : ذهباً .

بَيَّاتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ «٣٣» وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبْدَلٍ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّيِ الْمُرْسَلِينَ «٣٤» وَإِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطَقْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا^(١) فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْظَالِمِينَ «٣٥» إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ «٣٦» الأَنَام

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءَاتُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ^(٢) وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ^(٣) «٩» قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُقَفِّرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوَخِّرَ كُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ^(٤) مُبِينٍ «١٠» قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «١١» وَمَا آتَانَا إِلَّا تَنَوُّكٌ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَدْرَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ «١٢» وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ اأُتَخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعْمُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَنَّهُ لَيَكُنَّ الظَّالِمِينَ «١٣» وَتَأْسُكِنَتُكُمْ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ «١٤» إبراهيم

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَعَنَّى^(٥) أَلْتَى الشَّيْطَانُ^(٦)

[١] نفقاً : منفذاً . [٢] في أفواههم : الضمير الرسل ، أي أسكتهم عن الكلام .
[٣] مرِب : موقع في الزينة . [٤] سلطان : حجة . [٥] تعنى : أي نصر المني .
[٦] الشيطان : شيطان الإنس ، أميته : ما يتناه .

فِي أَمْنَتِهِ، فَيَنْسَخُ ^(١) اللَّهُ مَا يُبْلِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْتَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٥٢» لِيَجْعَلَ مَا يُبْلِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ^(٢) لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ «٥٣» وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ ^(٣) لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «٥٤» الحج

وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنَّا قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا «٣٠» وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا «٣١» الفرقان
وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ «٣٤» وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ «٣٥» قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٣٦» وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ «٣٧» وَالَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ «٣٨» ب

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ «٤» طاهر

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ كَرِهُوا أَيْدِيَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ لَا يَأْتِيهِ الْبَطُلُ مِنْ يَمِينِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «٤٢» مَا يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَعْفُورٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ «٤٣» فصل

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ الزخرف

وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿٦٩﴾ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴿٧٠﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالَ أَأَوَّلُو جِحْشِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَتَيْنَاهُمُ مِنْهُمْ فَانظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٧٣﴾ الزخرف

كَذَٰلِكَ مَا آتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٧٤﴾ أَنُؤْمِنُ بِهِ ﴿٧٥﴾ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٧٦﴾ قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِعَلِيمٍ ﴿٧٧﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِهُ أَنْ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ الفرقان

الصلاة

(١٣) فرضت الصلاة للمعرفة قبل الهجرة بقليل في مكة ، وقد اهتم القرآن بها فوق اهتمامه بسائر للأُمُور ، وبين افتراضها بأساليب شتى ، فتارة بالأمر الصريح ، وتارة بالثناء على فاعليها والقم لتاركها ، ولم يبين القرآن صريحا أعداد الصلوات ولا أعداد الركعات ، وإنما ذكر أوقاتها اجالا ، وقد بينت السنة السكيفة عملا ، فكان عليه الصلاة والسلام يصلي بالمسلمين الصلوات الخمس والمسلمون وراة جعلات ، وقال لهم «صَلُوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصِلُ» .

ولأن الصلاة لها أهميتها لم يسقطها الله عن المسلمين لافي أمن ولا في خوف ، فأوجبها في ساحة القتال ، ليدكروا بها ربهم ، وتقوى بها عزيمتهم ، وأباح للمسافر أن يقصرها ، وللحارب أن يصلي كيف أمكنه (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يقتلكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ١٠١) وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فلذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم - فإذا طمأننت فاقموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (١٠٣) (١٤) .

[١] مثل الأولين : صفتهم في إهلاك الله لهم ، قولك كذلك . [٢] مترفوها : متنبوها .

[٣] أمة : قلة . [٤] أنؤمنوا به : كأن الأولين والآخرين أوصى بعضهم بعضا بذلك القول حتى قالوه جميعا ، بل م إلخ : إضراب نظرا لبعد الزمنين . [٥] النساء .

ولعلّ فيه عبرة لقوم يتكاسلون عن الصلاة ، لأنهم لا يعرفون لها من الأهمية ما جعله الله لها ، فلم يسقطها حتى في حالة الحرب .

ثم أوجب لها الطهارة من الحدث والخبث ، وأمرنا أن نأخذ الزينة عند كلّ مسجد ، وقد اهتمّ القرآن بذكر صلاة الجمعة لأنها شمعة كبرى ، ورا بطة من أكبر الروابط بين المسلمين ، وقد شرط لها الجماعة ، لتكون مظهرا من مظاهر الوحدة ، وأمر الناس أن يسعوا إليها إذا نودي لها من يوم الجمعة ويتركوا ما بأيديهم من عمل (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون «٩» (١)) .

وكانت فرضية الجمعة بالمدينة بعد استقرار أمر المسلمين واستتباب الأمر لهم ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ركعاتها وخطبتها بالعمل ، وكان يوم الجمعة في ذلك العهد يوما عظيما للمسلمين تستعرض فيه أعمالهم ومصالحهم الدينية والدنيوية ، وشئونهم في الحرب والسلام ، فكانت المساجد مجمعا عاما يحضر فيه الناس ، ويسمعون ما ينفعهم ويفيدهم .

فكان الرجل من المسلمين يقصد الى المسجد في ذلك اليوم ، فيخرج منه وقد تزود بنصائح غالية وشهد مجمعا من مجامع المسلمين الحافلة بالعظات والعبر ، فيشعر وهو خارج من المسجد أنه قد ازداد ذلك الجمع إيمانه ، وقوى بيقينه ، وعلت همته ، لأنه يرى قومه على أحسن ما ينتظر لهم ، من تأسيهم بإمام واحد يصلون الى قبلة واحدة ، ويعبدون الها واحدا ، على ملة رسول واحد ، وذلك العمل بتكرره كلّ أسبوع من شأنه أن يوحد القلوب ، ويربط بين الأشخاص المختلفة ، وبذلك يصبحون عبادا لله اخوانا ، لا يتباغضون ، ولا يتحاسدون .

محل صلى الله عليه وسلم

هجرته

(١) لقد أفاض علماء السير في الكلام على هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة الى المدينة المنورة وأسبابها ، وهي على كثرتها ترجع الى تنابع أذى قريش عليه وعلى أصحابه من جرّاء دينهم وعقيدتهم ، ودعوة الناس الى ذلك الدين ، حتى اضطروهم الى أن يهاجروا الى الحبشة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين .

ولما اشتدّ بهم الأذى ، وضيق قريش عليه وعلى أصحابه الخناق ، حتى أصبحوا يحاربونهم في أرزاقهم ، ويحملون قريشا على مقاطعتهم في وسائل الحياة ، ودبروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤامرة ليقتلوه ، وإن كان تدير الله فوق تديرهم (وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ «٣٠» (٢)) .

حين ذلك أذن الله له بالهجرة ومعه صديقه الأكبر أبو بكر رضي الله عنه فأجابه الله من مكرهم ،

وكان له من المعجزة خير نصير على اعلاء دين الله ، وحماية الحق (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعها^(١) كثيبا وسعة «١٠٠»^(٢)) .

عجل صلى الله عليه وسلم

دعوته بالمدينة ، لليهود والنصارى

(٢) لقد أفاض القرآن في القسم للكي منه في حاجة المشركين من العرب وتصفية أحلامهم في عقائدهم الوثنية ، وأقام الأدلة على وجوب توحيد الاله في العبادة كما هو واحد في الخلق والرزق . وكذلك أفاض في الكلام على الشبه التي لاكتها ألستهم في الرسالة ، والكلام على البعث والحزاء ، وقد أريناك مقدار رعاية القرآن بأولئك الأقسام في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة ، أما في المدينة فكان أكبر همه التشريع المدني والدني والسياسي ، وبيان نظام للمعاملات ونظام الأسر والبيوت وما الى ذلك .

غير أنه لما كان في أهل الكتاب من اليهود والنصارى فريق دخل عليه الشرك في العقيدة كما دخل على مشركي مكة ، وكان فيهم من يتعالى في رسول الله عيسى حتى أخرجه من صفته البشر ، وكان يتخذ من الآيات التي أيده الله بها في صغره وفي نشأته تسكأة يقول عليها في ذلك الشرك ، وكان من اليهود أيضا من تعالى في بعض البشر كالعزيز حتى قال انه ابن الله (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) .

لما كان فريق من اليهود والنصارى دخل عليهم الشرك ولم يبق لهم توحيد صحيح ، اهتم القرآن الكريم ببيان أمر أولئك ، فرة يلينهم العقيدة بأسلوب بين واضح على طريقته في بيان العقائد ، ومرة يحاججهم ويناقشهم فيهم عليه علمهم يفقهون أمر التوحيد ، وقيمونه كما أمره الله ، ومرة يوجه أسئلة لنبي الله عيسى في الآخرة يسأله فيها - وهو أعلم بما عند نبي الله عيسى - . أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ؟ فيجيبه بكلمات التفرقة والتفديس ، ويقول له ما أمرتهم إلا بعبادتك وحدك ، وأنا برى من كل شرك يقع من أحد توابي .

وهاك طائفة من القرآن الكريم يتخاطب الله بها أهل الكتاب ، ويسصح بها أخطاءهم ، ويرشدهم بها الى التوحيد الصحيح .

الآيات

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٥٩» الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ «٦٠» آل عمران

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَآلَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا
أَتَعْبُدُونَ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ آ ٣ مراد

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ
كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ ﴿٦٥﴾ بِمَا كُنْتُمْ تُمَلُّونَ
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ آ ٣ مراد

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ﴿٦٥﴾ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا
بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ
يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ
يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِهُ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَريدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا
وَأَسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ النساء

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ

[١] متخلفين بأخلاق الرب . - [٢] كلمة البشارة من جبريل لأمه ، أطلق عليه كلمة ، لأنه ليس له أب
فنسب إلى كلمة البشارة ، وروح : رحمة من الله .

شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُنْصِلَكِ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَفِيهِ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١٧»
وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ
أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَمْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَفِيهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ «١٨» الثالثة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي
إِسْرَءِيلَ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَا أَوْفَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ «٧٢» لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ
ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ «٧٣» أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ «٧٤» مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ اتِّي
يُؤْفَكُونَ «٧٥» قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٧٦» قُلْ يَاهُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ
الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ
السَّبِيلِ «٧٧» الثالثة

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ
دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ
فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلمُ الْغُيُوبِ «١١٦»

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا
مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ «١١٧» الثالثة

محفل صلى الله عليه وسلم ، والقتال

(٢) مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة قائما بالدعوة الى دينه ، وهو
يصبر على صنوف الأذى ، والفتنة له ولأصحابه ، مما اضطر المسلمين الى أن يهجروا مكة فرارا
بدينهم الى بلاد الحبشة ، الى أن أذن الله له بالمهجرة الى المدينة المنورة ، ثم أذن الله له بالقتال بعد
أن مضى الشطر الأول من حياته الدينية ولا سلاح له سوى اعتصامه بالصبر ، وتسليته بمن سبقه
من الرسل ، والسور المكية حافلة بضروب السلوى ، وقد عرضنا لها في الكلام على الدعوة
في مكة .

وانك لو تأملت مايقصه الله عليه من أسباب القتال لعلمت أنه لم يشرع له القتال محبة في اراقة
الدماء ، أو تخريب البيوت ، أو تيتيم الأطفال ، وإنما شرعه على علمه تعالى بما فيه من اضرار
لدفع ضرر أشد .

شرعه الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليدفع عن نفسه وفس أصحابه أنواع التعذيب
التي كان يلقيها المسلم من جراء عقيدته ، ليرجع عن دينه الفنى اعتنقه واختاره لنفسه ، كما وقع
لعمارين يأسروا وبلاذ ، وكثير من الصحابة الذين أسلموا أيام قلة المسلمين ، فكانوا يذيقونهم ألوانا
من العذاب ، ويقولون لهم لا تزالون هكذا حتى تكفروا بمحمد ودين محمد ، فشرع الله القتال
ليكون الناس أحرارا فيما يختارون لأنفسهم من العقائد ، لا لاكرامهم على الدين كما يظن فريق
من الناس ، لأن الله تعالى يقول (لا اكره في الدين «٢٥٦» (١) .

ولولا أن الله تعالى أباح للناس أن يدفخوا الشر بالشر ، والعدوان بالعدوان ، ماثبت حق
في الأرض ، وماعبد الله بنوع من أنواع العبادة .

أذن الله لنبيه أن يقاتل قوما أخرجوه من بلده ، وحالوا بينه وبين وطنه ظلما وعدوانا ،
ولاذنب له إلا إيمانه بربه ، واعتصامه بالحق الذى بعث به (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن
الله على نصرهم لقدير «٣٩» الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع
الله الناس بعضهم بعضا لهدمت صوامع وبيع وصوامع ومساجد يذكرفها اسم الله كثيرا ولينصرن
الله من ينصره إن الله لقوى عزيز «٤٠» (٢) .

أذن الله لرسوله بالقتال حتى تكون الدعوة الى الله حرة ، لا يقف أحد في سبيلها ، وحتى

يكون الناس آمنين على أنفسهم وعقائدهم من سلطان البطل ، وزلزلة الطغيان ، ولذلك جعل الله للقتال غاية ، ومن أن لانكون فتنة للناس في عقائدهم ويكون الناس أحرارا فيا يختارون (وقاتلوا حتى لانكون فتنة ويكون الدين كله لله «٣٩»^(١)) فلا يقف شيء في سبيل الدعوة إليه .
وآية أن القتال لم يرد منه إكراه الناس على الدين أن الله تعالى خصه بالمعتدين إذ يقول (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين «١٩٠») .
ثم يختم الآية بقوله (فان قاتلوكم فقاتلوا كما كان ذلك جزاء الكافرين «١٩١») فان اتهموا فان الله غفور رحيم «١٩٢»^(٢) الخ الآيات ، ويقول (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم «١٩١»^(٣)) وقال (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤوا منهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين «٨») انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون «٩»^(٤)) .
وجلة القول أن القتال لم يشرع لحل الناس على الاسلام بسلطان القوة ، فان العقيدة ليس من شأنها أن تعتمد الاكراه ، وإنما تعتمد الاقتناع ، ولو كان طريق الدعوة الى الاسلام هو السيف كما يزعم خصوم الاسلام فليحدثونا أين كان ذلك السيف أيام اقامة الرسول بمكة وسيف التعذيب مصلت على رقاب أصحابه من قريش ، والناس تدخل في دينه على الرغم من ذلك البطش القاهر ، وأين كان ذلك السيف وهو يمر بأصحابه وهم يذبون فلا يستطيع أن ينقذهم من العذاب ، وبأسهم بالعبر ، وبعدم الحجة ، كما وقع لعمار بن ياسر ، صر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش تعذبه فقال «صبرا آل ياسر صبرا آل ياسر ان موعدكم الجنة» .
نعم كان مع محمد صلى الله عليه وسلم في ذلك الحين قوة فوق قوة السيف ، وسلطان لا يعاوه سلطان ، ألا وهو قوة الحق الذي أتى به ، وسلطان الحجة والبرهان الذي تملك القلوب ، فاستخفت بكل شيء بناه في ذلك السبيل ، فان كان هناك إكراه على الدين فهو ذلك الإكراه ، وان كان في يد محمد سيف فهو ذلك السيف الصارم الذي لا يستطيع قوة الأرض أن تقف في سبيله ، والى القارىء طاقة من آى القرآن الكريم في القتال والغاية منه .

الآيات

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ «١٩٠» وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ^(٥) وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ^(٦) وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ «١٩١» فَإِنْ أَتَيْتُمُوهَا فَإِنَّ اللَّهَ

[١] الأعداء . [٢] البررة . [٣] الأعداء . [٤] الليتنة .

[٥] تقتلهم : وجدتمهم . [٦] الفتنة : صرف الناس من عقائدهم بأنواع المذاب .

غُفُورٌ رَحِيمٌ ١٩٢ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ١٩٣ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ ١٩٤ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ١٩٤ البقرة

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ٧٥ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ٧٦ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦ النساء

وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ بَيْنَ الْمُتَّقِينَ ٣٩ الأعراف

إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ فَإِذَا تَقَفَّيْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّذْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ٥٧ لَعَلَّكُمْ يَذْكُرُونَ ٥٨ وَإِذَا تَحَاقَفْتُمْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ٥٩ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ٥٨ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنْهُمْ لَا يُعْزِزُونَ ٥٩ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ٦٠ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِمُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ

[١] الحرمان : ما يجب احترامه ، قصاص : يقتل بمثله إذا انتهك . [٢] الطاغوت : الباطل .

[٣] ففرّد بهم من خلفهم : أزهقهم هزيمة منكورة ليكونوا عبرة لمن وراءهم من العدو .

[٤] على سواء : مستويًا أنت وهم في المجهود المجهود . [٥] قوة : نكر القوة لأنها تختلف باختلاف

الزمان والمكان ، أما الخيل فهي عظيمة في كل وقت تمتاز بها الأمم ، ولذلك ذكرها بالنسب .

لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَسْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ «٦٠» وَإِنْ جُنَحُوا لِلْإِسْلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٦١» الأعداء

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمِنُ لَهُمْ نَعْلَهُمْ يَقْتُولُونَ «١٢» أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْخَشَوْهُمْ فَلَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٣» التوبة

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ «٣٩» الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيٍ فَإِنْ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمُوعُ ^(١) وَيَبْعَثُ وَسَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَنَّهُمْ اللَّهُ كَثِيرًا وَإِنْ نَصَرَهُ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ «٤٠» الحج

لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ «٨» إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا ^(٢) عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «٩» النجدة

التحريض على القتال

(٣) علم الله أن القتال ضرورة من ضرورات حماية الدين لصدا عدوان الباطل، وكبح جاح الشهوة، فأذن به وأوجبه، وعلم أنه شاق على النفوس، فدعا إليه، وجب الناس فيه.

[١] ص. اجمع : معابد الربان ، يبع : كائنات النصارى ، صلوات : كائنات اليهود بالمعربة .

[٢] ظاهروا : حاولوا .

وقد سلك القرآن الكريم في سبيل الدعوة إليه أساليب شتى ، ووسائل مختلفة ، فترة يلجأ الى العواطف فيحركها ، والى النفوس فيلهب فيها النيرة ، والحية ، ويربها أن ليس من الكرامة أن يقب الناس من أولئك الاهانت التي تقع على المستضعفين من الرجال والنساء والولدان موقف الخور والجلين ، بل عليهم أن يدفخوا عنهم كل ماينالهم من أذى ، ويعترضهم من ضرر ، إذ يقول (وما لكم لا تقاوتون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لندك ولنا واجعل لنا من لندك نصيرا (٧٥)) .

ومرة يضرب لهم الأمثال يقوم تركوا ديارهم على كفرتهم خوفا من الموت . فغضب الله عليهم الغلة ، وأماتهم موتا أدبيا ، ولما تنهوا لما يجب عليهم ، وأخنوا في وسائل الحياة ، وحاجية الحق والحقيقة أحياء حياة طيبة (ألم ترالى الذين خرجوا من ديارهم وهم آلاف فحزن اللوت فقال لهم الله موتوا ثم أحياءم إن الله لنو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٢٤٣)) .

وأحيانا يعمد الى مشيطات النفوس والمشغلات عن الجهاد ، من آباء وأبناء ، وإخوان وأزواج ومال مكتسب ، وتجارة يخشى عليها الكساد إذا تركها صاحبها ، فيرينا أن أولئك المشغلات لا ينبغي أن تكون أحب إلينا من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، ويهددنا إذا نحن تأثرنا هذه المشغلات أن نفتقر عذاب الله وبطشه (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترغتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فمربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين (٢٤٤)) .

ومرة يمدنا بالنصر ويرينا أن الأيام دول ، وأن الشيف قد يصبح قويا ، والقوى يصبح ضعيفا ، وأن لا يصح لنا ونحن الأعلون أن نصف أمام البطل ، أو نحزن لعد أولئك المفسدين ، وأنه ان منا ألم من القتال غفوسنا كذلك .

ومرة ينهانا أن نصنى لوساوس الشيطان ، وأن نقول لمن قتل من أصحابنا أو أبنائنا في سبيل الله (لوكانوا عندنا ملأنا وماقتلوا) ليكون ذلك القول حسرة في النفوس .

ومرة يرينا أن الذين قتلوا في سبيل الله لم يموتوا ، وإنما هم أحياء عند ربهم ، يرزقون رزقا معنويا يلبق بعملهم وجهادهم .

ومرة يرينا أن علة النصر - بعد أن تعد للقوم ما استطعنا من قوة مادية - أن تثبت أمام العدو ، ونذكر الله لتقوى فينا العقيدة ، وأن نطيع الله ورسوله ، ولا نتنازع فتنشل ونذهب قوتنا ، وأن نصبر على ماينالنا من أذى .

وتلك هي القوة المعنوية التي يحتاجها المسلم بعد القوة المادية ، وهي قوة العقيدة ، والإيمان بالله تعالى ، ولجوائه العادل ، وثابته للجاهدين المؤمنين .

ومرة يرينا أن هناك فرقا كبيرا بين المؤمن الذي يجاهد في سبيل الله ، والكافر الذي يقاتل في سبيل الطاغوت ، على اشتراكهما في الآلام الحسية - هي أن لتاعقيدة في الله ، وليست لهم هذه العقيدة ، ولنا رجاء في ثواب الله تعالى ، أما هم فليس لهم ذلك الرجاء ، وذلك الفرق هو الذي يجعل للمؤمن أقوى ما يصكون في الحرب ، وكما قوى في نفسه ذلك الرجاء قويت روحه ، وآتى

بمخوارق العادات في الحروب. (ولاشكوا في ابتداء القوم ان تكونوا تآلمون فتم يآلمون كما تآلمون
وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليا حكيا «١٠٤»)
ولعل في ماضي السليبي ما يرشدك الى ذلك كله .

الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ^(١)
اللَّهُ مُوْتَايَمٌ أَخِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضِل عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ «٢٤٣» وَقِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٢٤٤» البردة

وَلَا تَمْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٣٩» إِنْ
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ^(٢) بَيْنَ
النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ «١٤٠»
وَلِيُمَحِّصَ ^(٣) اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ «١٤١» أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسْلَمْ ^(٤) اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ «١٤٢» وَلَقَدْ
كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ «١٤٣»
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَتُغْلِبُكُمْ ^(٥)
عَلَى أَغْغِبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّكِرِينَ «١٤٤» وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ^(٦)
وَمَنْ يَرِثْ قَوَابِ الدُّنْيَا فَوَثَمَ مِنْهَا وَمَنْ يَرِثْ قَوَابِ الْآخِرَةِ فَوَثَمَ مِنْهَا وَسَنَجْزِي

[١] قال لهم الخ : أي ضرب عليهم القلة ، وهو موت أدنى جزء جسيم وخوفهم من الموت .
[٢] قرح : جرح . [٣] نُدَاوِلُهَا : تَصَرَّفُهَا وَتُجَلِّدُهَا دَوَالِ يَوْمًا لَفَرَّةً ، وَبِمَا لِأُخْرَى لِيَجْزُوا .
[٤] يَمْحَقُ : يَمْحُو لِيُجْزِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ . [٥] وَلَمَّا يَسْلَمْ : أَي عَمَ ظُهُور .
[٦] أَهْلَمَ : رَجَمَ إِلَى الْكَفَرِ . [٧] كِتَابًا مُؤَجَّلًا : أَي كَتَبَ فَكَانَ كِتَابًا مُؤَجَّلًا لَا يَهْتَمُّ وَلَا يَخْشَى .

الشَّكِرِينَ «١٤٥» وَكَانَ^(١) مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَيْبُونَ^(٢) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا^(٣)
لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ «١٤٦»
وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «١٤٧» فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ
الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٤٨» آل عمران

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا
فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى^(٤) لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْمَلَ اللَّهُ^(٥)
ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١٥٦» وَلَئِنْ
قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْتُمِعُونَ «١٥٧» وَلَئِنْ
مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ «١٥٨» آل عمران

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُزْزِقُونَ «١٦٩» فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ
يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ «١٧٠» يَسْتَبْشِرُونَ
بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ «١٧١» الَّذِينَ اسْتَجَابُوا
لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ
عَظِيمٌ «١٧٢» الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِعْنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ «١٧٣» فَاقْبَلُوا نِيعَةَ اللَّهِ
وَفَضْلَهُ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُلُوءٌ وَاتَّبَمُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ «١٧٤» إِنَّمَا

[١] كان : كم . [٢] ريبون : جمع ربي ، وهو الرباى النخلق بأخلق الرب .

[٣] وهنا : فتروا . [٤] غزى : جمع غاز ، كلف وحى .

[٥] ليجمل الله الخ : علة القول ، أى السبب فى ذلك القول أن يجمل الله ذلك القتل حسرة فى قلوبهم .

ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ آل عمران

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ﴿١﴾ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ النساء

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْنَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَأِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ وَتَزُولُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَزُولُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ النساء

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴿٣﴾ فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٠﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ بُرْءٌ إِلَّا مَتَرَفًا لِقَاتٍ ﴿٤﴾ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴿٥﴾ فَقَدْ بَاءَ ﴿٦﴾ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ ﴿٣﴾ إِذْ رَمَيْتَ ﴿٣﴾ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَيُؤَيِّدُ الْوُحُودَ مِنْ بَلَاءٍ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ ﴿٩﴾ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ الأعداء

[١] أولياء الشيطان : حزبه وأصاره . [٧] زحفاً : زاحزين عليكم .

[٣] فلا تولوهم الأدبار : لا تفرّوا من القتال . [٤] متحيزاً لقاتل : أى لمصلحة حرب .

[٥] أو متحيزاً إلى فئة : جماعة من المسلمين يستنجد بها . [٦] باء : رجع .

[٧] وما رميت : أصبت مقاتل القوم . [٨] إذ رميت : أنبت بصورة الرمي .

[٩] موهن : مضعف .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا فِئَةً ثَغُفُوا وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ الأعداء

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤٥﴾ الثَّنِ ﴿٤٦﴾ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَخْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ الأعداء

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴿٤٧﴾ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٨﴾ التوبة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّمَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَتَّقُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا شُرَكَاءَ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ

[١] رَجَعَكُمْ : قوتكم ، ساعداً رعيماً لأن الرجح قوة عظيمة تدرس كل شيء بأسرها ، وهي التي سلطها على الملائكة ، وكذلك الاتحاد قوة عظمى . [٢] الْآن : أي وقت ضيقكم ، والآية بشارة من الله بأن المؤمنين تقوى نفوسهم حتى يكون الواحد مقاوماً للعشرة بما أعطاه الله من قوة العبيدة ، وقد يؤيد ذلك بعض الفروقات . [٣] فَتَرَبَّصُوا : انتظروا . [٤] يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ : كما هي سنة الله في أن يرث القوى الضعيف .

أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ^(١) وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ التوبة

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِندَ ^(٢) عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ التوبة

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ^(٣) حَتَّى إِذَا أَخِثَّتْهُمْ ^(٤) فَشَدُّوا الْوُثَاقَ ^(٥) فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ^(٦) ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَهَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّ ^(٧) بَعْضَكُمْ بَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤٤﴾ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ خُزُنًا وَيُضْلِعُ بَالَهُمْ ﴿٥٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ ^(٨) وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ

[١] خِفَافًا وَثِقَالًا : أهله عيالكم وكثرتها . [٢] وعداً : أى وعد بذلك الجزاء وعداً .

[٣] فضرب الرقاب : قاضوا الرقاب ضرباً . [٤] اخثثتم : اكثرتم قتلهم .

[٥] فشددوا الوثاق : فأوردوا . [٦] تضع الحرب أوزارها : آلتها وأعمالها كالسلاح ، والمراد

حتى تنتهى . [٧] ليلو : ليختبر . [٨] فتعسا لهم : فتشورا وعطلا .

اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ «٩» أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ^(١) وَلِلْكَافِرِينَ أَمْلُهُمْ «١٠» ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ «١١» إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَنوًى لَهُمْ «١٢» وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ
أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ «١٣»

يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ «٢» كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ «٣» إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُشًى
مَرَّصُونَ «٤» الصف

الإيمان ، والكفر ، والنفاق

(٤) سنة الله في الخلق أن يصير الناس أحوالاً وشيئا إذا دعاهم إلى الإصلاح ، ففريق يناصر
الداعي سرا وعلاية ، وذلك هو الفريق الذي آمن بالدعوة ، واطمأننت نفسه إلى صدق حاملها ،
ولم يوجد في نفسه من الأمراض ، ما يحول دون قبولها ، ورأى عنده من الشجاعة ما يجعله على
مناصرة الداعي ، والتعاون معه ، وأولئك الذين يسميهم القرآن المؤمنين .
وفريق آخر شب على حب الأنفة ، والتأني على الإصلاح ، وصرخت نفسه بالظلمة الكاذبة
واستولت عليه التقاليد للورثة ، فبقاوم الدعوة وحامل الدعوة ، على الرغم من قيام الأدلة
الكثيرة على خطئه في هذه المقاومة ، وذلك هو الصف الكافر .
وهناك فريق لم يجد عنده من الجرأة ما يجعله مع فريق الكفار ، ولم يجد عنده من سلامة
الصدر وطهارة النفس ما يجعله مع طائفة المؤمنين ، فأخذ يولب ويدأجى الفريقين : فريق المؤمنين
وفريق الكفار ، فإذا شئت أن تحكم عليه بالعداوة للمؤمنين خدعك ظاهره ، وإن أردت أن تضمه
إلى المؤمنين حال دون ذلك فساد قلبه .

وقد عرفنا الله تعالى أوصاف المؤمنين وأعمالهم ، ثم أوصاف الكفار ، وأوصاف المنافقين ،
وعلى المؤمن أن يبنى نفسه فيعرضها على أولئك الأوصاف التي ذكرها الله في كتابه لكل من

[١] دمر الله عليهم ؛ أهلك طيهم ما اختصهم به من أهل ومال . [٢] كآين : كم .

هذه الفرق ، فقد يكون مخدوعا في نفسه ، ويرى نفسه مؤمنا وهو عند الله كافر أو منافق ، وقد يكون عنده شعبة من النفاق ، وهو لا يعلمها ، فيبالغ نفسه حتى يصير مؤمنا حقا .

الآيات في المؤمنين

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ^(١) وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ^(٢)
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِمَّا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ^(٣)
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(٤) البقرة

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ
ءَامَنَ ^(١) بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى
حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ^(٢)
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ
فِي الْبَأْسَاءِ ^(٣) وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ ^(٤) البقرة (١٧٧)

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرَّقُ يَنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ^(١) البقرة (٢٨٥)

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ
لِالْمُتَّقِينَ ^(١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُطَيْبِ الْغَنِظِ وَالْمَافِقِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ^(٢) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا

[١] النبي : ما غاب عنهم كالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر . [٢] من آمن : فعل من آمن .
[٣] وفي الرقاب : فكها من الأسر . [٤] البأساء : الضراء ، الضراء : المرض ، البأس : الشدة في القتال .

أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ تَنْبَغِ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا
عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ «١٣٥» أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتُ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ «١٣٦» آل عمران

وَكَانَ «١» مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِثْيُونَ «٢» كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا «٣» لِمَا أَصَابَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ «١٤٦» وَمَا كَانَ
قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «١٤٧» فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الْبِرِّ فِي الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ
الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٤٨» آل عمران

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ «١٧١»
الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ «١» لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ
وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ «١٧٢» الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ «١٧٣» فَاقْبَلُوا
بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسِّنْهُمْ سُوءَ وَابِعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ
عَظِيمٍ «١٧٤» آل عمران

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي
الْأَلْبَابِ «١» «١٩٠» الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ
فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ «١٩١» رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

[١] كَأَيْنَ كَمْ . [٢] دِيُون : جَمْعُ دِيٍّ ، وَهُوَ الرِّبَاي . [٣] وَهَنُوا : جِينُوا عَنِ الْقِتَالِ .

[٤] الْفَرَح : الْجَرْح . [٥] الْأَلْيَاب : الْقَوْل .

أَنْصَارِ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّكَ سَمِعَنَا مُنَادِيَكَ يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا
رَبَّنَا مَا غَفِرْنَا ذُنُوبَنَا وَكَفَّرَ غَنَايَاتِنَا وَفَنَّا مَعَ الْأَزْوَاجِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا
مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)
فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفِي بَعْضِكُمْ
مِنْ بَعْضٍ (١) قَالَتِ ذِينَ الْهَابِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيرِهِمْ وَادُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَتْلُوا وَقَتْلُوا
لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سِيَائِهِمْ وَلَا ذِلَّةَ لَهُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) آل عمران

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
الطَّاغُوتِ (٢) وَقَتْلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) النساء

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَمْسُ
رَزَقَهُمْ يَمْشُقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) الأهل

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
أَقْوُوا (٢) وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا
مَالِكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْزَعُوكُمْ فِي الدِّينِ فَمَلِكُكُمْ
النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَبْغُونَ بَيْنَكُمْ وَيَبْغُونَ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ

[١] يَحْكُمُ مِنْ بَيْنِ : م سواء في الجزاء على الأعمال . [٢] الطاعات : الباطل .

[٣] أقوا : ضوا إليهم المهاجرين ، ومنه : أقوى إليه أخاه : ضمه إليه .

[٤] أولياء بين : نصراء بين .

كَفَرُوا بِمَعْصُمِ أَوْلِيَائِهِ بَعْضٍ إِلَّا تَقَمَّلُوهُ ^(١) تَكُنْ فِتْنَةً ^(٢) فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَثِيرٌ «٧٣» وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَانصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ «٧٤» وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بِمَعْصُمِ أُولَى بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «٧٥» الْأَعَال

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِمَعْصُمِ أَوْلِيَائِهِ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٧١» وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينٌ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «٧٢» التوبة

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ مَنْ أُوْفِيَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْبِئِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١١١» الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَمَلُودَ الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ ^(٣) الرَّكُوعَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «١١٢» التوبة

أَفَن يَنْفَعُ أُنْمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذِرُ كُرْ

[١] إلا تقملوه : من تواصى المؤمنين ومقاطعة الكافرين . [٢] فتنة : بلاء وعنة . [٣] الساجدون : أى فى الأرض فيجربوا بمن سبقهم كما قال : (أظلم يديروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يضلون بها) الخ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِمَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ الْمُنْتَقَى (٢٠) وَالَّذِينَ
يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
وَيَذَرُونَ (٢٢) بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ (٢٣) جَنَّتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ (٢٤) مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٥) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٦) الرعد
وَبَشِّرِ الْمُصْطَفِينَ (٢٧) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ
عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٢٨) الحج

وَلَيَبْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٩) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي
الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ
عُقُوبَةُ الْأُمُورِ (٣٠) الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ الْغَوَىٰ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ (٦) فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْتَمِسِينَ (٧)
فَمَنِ ابْتَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَكَادُورُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ (٩) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (١٠) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١١)
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٢) المؤمنون

[١] الفائز . المهدي . [٢] يذرون : يزيلون .

[٣] ومن صلح : أي دون من فقد فلا يدخلها لأنها دار استحققت بالسل . [٤] المحبين : المتواضعين .

[٥] ما ملكك أيعابهم : التناء للولكات . [٦] العادون : المتجاوزون الحد .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ^(١) وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ^(٢) «٦٣» وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ^(٣) «٦٤» وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ^(٤) «٦٥» إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا «٦٦» وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ^(٥) وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ^(٦) «٦٧» وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنقُصْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُذْ فِيهِ بِمَا نَكَهَ ^(٧) «٦٨» إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ ^(٨) سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا «٧٠» وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ^(٩) «٧١» وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّو بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ^(١٠) «٧٢» وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِبَآئِتٍ رَبِّهِمْ لَمْ يُجِرُوا عَلَيْهَا صِمًّا وَمُعْصِيَانَا ^(١١) «٧٣» وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ^(١٢) وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ إِمَامًا ^(١٣) «٧٤» أُولَئِكَ يُخْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا «٧٥» خُلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا «٧٦» قُلْ مَا يَعْبُوهَا ^(١٤) بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ^(١٥) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ^(١٦) «٧٧» الفرقان

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

- [١] هونا : هينين . [٢] سلاما : سداداً من القول يسلون به من الأذى .
 [٣] سجداً وقياماً : خاضعين قائمين له بحق ربوبيته . [٤] غراما : شدة ومصيبة .
 [٥] يقتروا : يضيئوا . [٦] قواما : وسطا . [٧] نكحاً : جزاء إثم .
 [٨] يبدل الله الخ : يبدل ملكة للعصية و النفس ملكة الطاعة .
 [٩] يتوب إلى الله متاباً : يرجع بذلك إلى الله متاباً مرضياً . [١٠] كراماً : مرضيين مكرمين أنفسهم .
 [١١] صبا ومعصيات : غير واعين ولا متبصرين بما فيها .
 [١٢] قرة أعين : ما تدرى به العين لتوفيقهم للطاعة . [١٣] إماما : قدوة صالحة للأتقياء .
 [١٤] يسأ : يستد . [١٥] دعاؤكم : عبادتكم . [١٦] لازماً : لازماً بحق بكم ولا بد .

وَمَنْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ ^(١) جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ^(٢) وَيَمَازُجُفُهُمْ يَتْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ الجنة

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ^(٣) مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ^(٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ الأحزاب

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهَهُمْ ^(٥) فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَوَّلِ الشُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَنَسَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ الفتح

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ المبرات

[١] تتجافى: ترغم وتتنهى عن الفرس . [٢] خَوْفًا: من الخوف ، وطمعًا: في التواب .

[٣] صدقوا: وفوا . [٤] قضى نحبه: مات .

[٥] سياههم: علامتهم ، نسلهم: صنفهم ، شططه: فترته ، وهو ما خرج منه وتفرع إلى جانبيه ، والمراد أنه برز إلى وجه الأرض وصار له جوانب ، فكازره: قواه . فاستغلظ: غلظ . فاستوى على سواده: استقام عليها ، ليغيظهم بالزوع في زكاته واستحكامه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ «١٥» اخْذِينَ مَاءَ اتِّمُّهُمْ رَبِّهِمْ لَّهُمْ كَأُتُوا
ذَلِكَ مُحْسِنِينَ «١٦» كَأُتُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ «١٧» وَبِالْأَسْحَارِ
ثُمَّ يَسْتَفْرِوْنَ «١٨» وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ «١٩» الداريات

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا «١٩» إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا «٢٠» وَإِذَا مَسَّهُ
الْحَيْرُ مَنُوعًا «٢١» إِلَّا الْمُصَلِّينَ «٢٢» الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأَعُونَ «٢٣»
وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّالُومٌ «٢٤» لِلْسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ «٢٥» وَالَّذِينَ
يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتٍ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ «٢٦» إِنَّ
عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ «٢٧» وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْجَاهِهِمْ حَفِظُونَ «٢٨» إِلَّا عَلَى
أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ «٢٩» فَمَنْ أَتَقَى وَرَاءَ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ «٣٠» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْثَلِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ «٣١» وَالَّذِينَ هُمْ
بِشَهَادَتِهِمْ قَاعُونَ «٣٢» وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٣٣» أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ
مُكْرَّمُونَ «٣٤» المارج

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا «١» كَأُفُورًا «٢» يَتَنَايَشْرَبُونَ
بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا «٣» يُفُوقُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُسْتَطِيرًا «٤» وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ «٥» مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا «٦»
إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا «٧» إِنَّا نَخَافُ مِنْ
رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا «٨» قَطَرِيرًا «٩» فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمُ «١٠»

[١] يهيجون : ينامون . [٢] هلوعا : شديد الحرص قليل الصبر .

[٣] المخرج : الذي لا يسأل له تصفيا . [٤] مزاجها : ما يخرج به . [٥] مستطيرا : فاشيا منتفرا .

[٦] على حبه : أي الله أو الطعام . [٧] أسيرا : مملوكا . [٨] عبوسا : يشبه الأسد العبوس ،

قطريرا : شديد العبوس . [٩] لثام : أعطام .

نَصْرَةً^(١) وَسُرُورًا^(٢) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا^(٣) مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا كُفْمًا وَلَا زُمِيرًا^(٤) «١٣» وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ^(٥) قُطُوفُهَا تَذِيلًا^(٦) «١٤» الْإِنْسَانُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّصْرِ «١» إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ «٢» إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ «٣» السَّعِيرِ

تعلیق وعبارة

(٥) ان قلب الانسان ليضطرب حينما يقرأ الآيات السابقة في بيان أوصاف المؤمنين ثم يسائل نفسه هل أنا مؤمن ذلك الإيمان الذي بينه الله في كتابه أو أن الذي عندي إيمان يغاير ذلك الإيمان؟ ولا سيما عند ما يقرأ قول الله تعالى (إِمَّا لِلْمُؤْمِنِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وهو لم يجاهد ولم تعذته نفسه بالجهاد ، وكيف يتخلص من قول الله تعالى (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) ومعناه أن إيماننا لم يكن على ذلك النحو هو إيمان كاذب ، لأنه هو الذي يقابل الصادق .

وكذلك يقف الانسان مبهورا حينما يقرأ قول الله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) - الى قوله (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ليسائل نفسه هل أنا من أولئك المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح وجعلهم من ورثة الجنة ، وهل أنا خالض في صلاتي ، معرض عن اللغو ، مؤد للزكاة ، حافظ للفرجى ، راع لأمانتي وعهدي ؟

وهل أنا قدمت لربي ثمن الجنة الذي فرضه على وهو الجود بالنفس والمال ، أو أنا بنجل بمالي وشحيح بنفسي ؟ وهل الرجل الذي لم يدفع ثمن الجنة وقد طلبه الله منه يحصل عليها ؟

نعم ان الذي يؤمن بالقرآن إذا تدبر هذه الآيات التي وصف الله بها المؤمنين ويريناها كيف يكون المؤمن مؤمنا حتى يدخله إيمانه الجنة - لاغنى له عن أن يفكر من جديد في إيمانه ، ليزنه بذلك اللبزان العادل ، وهو القرآن الكريم ، فان رآه مؤمنا كما وصف القرآن الكريم فليحمد الله على ذلك ، وليزداد إيمانا الى إيمانه .

وان رأى نفسه في ناحية ، وأولئك المؤمنين الذين أراها إياهم القرآن الكريم في ناحية أخرى

فليرجع الى الله تعالى ، ويستعنه في أن يتخلق بأولئك الأخلاق ، ويأخذ نفسه بذلك العمل ليدخل في عداد المؤمنين عند الله تعالى .

ومن عجيب أمر بعض علمائنا اليوم أن يسلخوا الإيمان عن العمل ، والخلق الطيب الكريم فيرضون للمؤمن أن يكون خائر المزيج جباناً ، كما يرضون له أن يكون شحيح النفس مقترأ ، وأن يكون قاصي القلب ، لا يلبس لموعظة ، ولا تدمع عينه لتذكير .

رضوا للمؤمن بذلك كله ، وقالوا ان الإيمان الذي وصفه الله تعالى في كتابه بمثل هذه الآيات هو الإيمان الكامل ، وكأنهم لما عرضوا أولئك الأوصاف التي ذكرها الله تعالى للمؤمن وفيها الجهاد بالنفس والمال والخلق بمكارم الأخلاق - ورأوا أنهم لم يكونوا مؤمنين على ذلك النحو ، لأنهم أشحاء جبناء ، يكذبون ، وينافقون ، ويؤثرون - لما رأوا أنفسهم كذلك ، تأسوا لأنفسهم ذلك المخرج ، حتى لاتأخذ الناس عليهم ذلك النقص ، ولا ندرى ماقيمة ذلك الإيمان الناقص إذا لم يدخل صاحبه الجنة ، وماقيمة ذلك الإيمان الناقص إذا كان إيماناً كاذباً ؟ ولماذا يرضون لأنفسهم بإيمان غير حق ؟ اللهم انا آمنا بكتابك الذي أنزلته على رسولاك المصوم ، وآمنا بأن من شهد له بأنه المؤمن حقاً فهو المؤمن ، ومن لم يشهد له كتابك بالإيمان فلا قيمة لإيمانه وان سمى نفسه مؤمناً ومؤمناً ، وان سماه أهل الأرض جيعهم مؤمناً ، أو إماماً للمؤمنين .

الآيات في الكافرين

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾
خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ البقرة

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْقُوعُ ۖ يَمَّا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاً ۖ ﴿٨﴾
وَنِدَاةً ۖ ثُمَّ يَكُفُّ عَنِّي قَتْمٌ لَّا يَقُولُونَ ﴿١٧١﴾ البقرة

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ
الطُّغْمَةِ ۖ ﴿٩﴾ فَقَتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ ﴿١٠﴾ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ النساء

[١] ختم الله على قلوبهم الخ : حال بينها وبين الحق بسبب تعاميم عنه بإختياره .

[٢] غشاوة : غطاء . [٣] مثل الذين كفروا الخ : صفهم ومن يدعوهم الى الهدى .

[٤] ينق : يصوت . [٥] لاداءه . بدون فهم . [٦] الطاغوت : الباطل .

[٧] أولياء الشيطان : حزبه وأنصاره .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُهْرَقُوا مِنْ أَلَيْهِمْ
وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ مَا نُنْفِخُ وَيَكْفُرُ بِبَعْضِ مَا يُنْفِخُ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ ذَلِكَ
سَبِيلًا «١٥٠» أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
مُهِينًا «١٥١» النساء

قَدْ تَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
بِبَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَمْحُذُونَ «١٥٣» الأنعام

فَإِنْ يَرِدْهُمُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُمُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ
صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ^(١) كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ ^(٢) فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ ^(٣)
عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ «١٥٥» الأنعام

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ
أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنفُمْ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
أُولَئِكَ هُمُ النَّفِلُونَ «١٧٩» الأعراف

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٢٢» وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ
فِيهِمْ خَيْرًا ^(١) لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ^(٢) لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ «٢٣» الأعراف

إِنَّ شَرَّ النَّوَائِبِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «٥٥» الَّذِينَ عَاهَدْتَ
مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ «٥٦» الأعراف

[١] حرجا : شديد الضيق . [٢] يصعد : يحاول الصعود .

[٣] الرجس : العيب . [٤] خيرا : انتفاعا ، لأصمهم : سماع تفهم .

[٥] ولو أصمهم : مع علمه علم الخير فيهم لتولوا : من الحق .

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ «٩٦» وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ «٩٧» يونس

أَلَا إِنَّهُمْ يَقْتُونَ «١» صُدُّوا عَنْهُمْ ائْتَسَفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَفْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٥» هود

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا «٢» وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ «١٩» أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ «٢٠» أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ «٢١» لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسِرُونَ «٢٢» هود

إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ «٢٢» لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ «٢٣» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ «٣» الْأَوَّلِينَ «٢٤» لِيُخْلِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَرَبَّرُونَ «٢٥» قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَمَهُمْ «٤» مِنَ الْقَوَاعِدِ تَفَرَ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ «٢٦» ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ «٥» فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى

[١] يقتون صدورهم : يلونونها عن الحق ويشرفون عنه .

[٢] يبغيونها عوجا : يطلبونها موجة تنفق وهوام . [٣] أسطير : أباطيل .

[٤] فأى الله ببيانهم الخ : تصور لهم تدميرهم من أساسه . [٥] تفاقون : تهادون المؤمنين بسببهم .

الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ لِلنَّكَاحِ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامُ ﴿٢٨﴾ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَوْءٍ عَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْفَ لَمَنَ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ النحل

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ ^(١) بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَآ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ ^(٢) أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ النحل

وَمَا نَرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمَجَادِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا ^(٣) بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا إِلَيْنَا نُذِرُوا هُزُوعًا ^(٤) ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَمَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ^(٥) أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ^(٦) وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ الكهف

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْآخِرِينَ أَفْعَمَلًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَمْعُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِنُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ

[١] فأنفروا السلم : سالوا حين طائروا الموت . [٢] من كفر : بدل من الذين وما فيها معترض .

[٣] لا جرم : لا شك . [٤] يدحضوا : يزيلوه عن مقره . [٥] هزوعاً : استهزاء .

[٦] أكنته : أغشية . [٧] وقراً : تعاماً عن الحق .

رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، خَفِطَتْ^(١) أَعْمَلُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ^(٢) يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا «١٠٥»
ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَعَلَهُمُ بِمَا كَفَرُوا وَأَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُرُوءًا «١٠٦» الكهف

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ «٣»
كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ «٤» الحج

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ «٨»
ثَانِي عِطْفِهِ^(٣) يُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ
الْحَرِيقِ «٩» الحج

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ^(١)
يَسْكَاذِبُونَ يَسْتَلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَُم
النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَمْسُ الْمَصِيرُ «٧٢» الحج

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ^(٢) يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوءًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ «٦» وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَتِلَى
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَنَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ «٧» لقمان

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ «٢٠»
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا نَا أُولَئِكَ كَانُوا
الشَّيْطَانِ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ «٢١» لقمان

[١] خبطت : بطلت فلا يبايون عليها . [٢] فلا تقيم لهم الخ : أى تزدريهم ولا تعبرهم .

[٣] ثانى عطفه : تكبراً . [٤] المنكر : الفيض والحق .

[٥] يستلون : يبطشون ، والآية تحمل عداوة الباطل للحق .

[٦] لهو الحديث : ما ينلهي به كفضول الكلام والمضاحك .

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِمَنَئِرٍ سُلْطَانٍ ^(١) أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ
إِلَّا كِبَرُ مَا هُمْ بِبَلِيغِهِ ^(٢) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٥٦» فاطر

أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ^(٣) وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ ^(٤) وَقَلْبِهِ
وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٥٧» وَقَالُوا
مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا اللَّهُمَّ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ
عِلْمٍ ^(٥) إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ «٥٨» وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعُ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ
إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُتْلَا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «٥٩» المجانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ^(٦) «١» وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ^(٧) «٢» ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبُطْلَانَ وَأَنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ «٣» محمد

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغِيَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ^(٨) وَأُصْغَتُوا
يَكْفُرُوا وَأَصْرُوا وَأُصْغَتُوا وَأُصْغَتُوا أَسْتَكْبَرُوا «٧» نوح

[١] سلطان : حجة . [٢] يبالغ فيه : واصله . [٣] على علم : أى من الله بأن استحق الانحلال .

[٤] وختم على سمعه الخ : أى حال بينه وبين مواهبه جزاء طاعته الهوى .

[٥] وما لهم بذلك من علم : أى حجة ودليل ، لأنهم يقولونه خليداً .

[٦] أضل أعمالهم : عدل بها إلى طريق غير مستقيم لكفرهم وصدوم .

[٧] أصلح بالهم : وفقهم للخير . [٨] في آذانهم : ليدعوا سامعهم عن استماع الدعوة ، واستغفروا

نبيهم : فغطوا بها حتى لا أمرهم .

تمليق وعبرة

كما يستفيد العاقل من أوصاف المؤمنين بعرضها على نفسه ليعرف ان كان مؤمنا حقا ، أو كاذبا في الإيمان - كذلك يستفيد من بيان الله تعالى أوصاف الكافرين ، فعمل كثير من صفاتهم غالى بنفسه وهو لا يدري ، وأن الله تعالى ماعرض لصفات الكافرين إلا ليرينا أن أولئك الصفات هي التي حالت بينهم وبين الإيمان ، فاستحقوا الخلود في جهنم ، وأن الكفار على تباينهم في أسباب الكفر واختلافهم في دراجته ، فقيمهم من يكفر بنسبة الشريك الى الله تعالى ، ومنهم من يكفر بإنكار البعث ، ومنهم من ينكر الرسالة ، الى غير ذلك - انهم على تفاوتهم في ذلك فان لهم خصائص تكاد تجمعهم وتحيط بهم .

[الأولى] تطيلهم ماوهبهم الله من عقل وسمع وبصر ، مما أدّى بهم الى غلظة القلوب ، وإبطال فائدة السمع والبصر ، حتى وصفهم الله في كثير من الآيات بأنهم شر الدواب ، وبأنهم الصم البكم الذين لا يعقلون .

وقد أرانا الله تعالى أنه ذرأ جهنم كثيرا من الحق والانس ، وعلامتهم أن لهم قلوبا لا يعقلون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، وأن أولئك الأقوام هم أهل النار الذين خلقوا لها وخلق لهم ، وأولئك هم الذين يندمون في الآخرة حيث لا ينفعهم الندم ، ويقولون (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) .

وعلى كل أحد حين يسمع هذه الأوصاف أن يختبر نفسه ، ويستفتى استعداده ومواهبه ، أهو ممن يستحقون القول فيقيمون أحسنه ، ويعمل فيه عقله واستعداده ، أم هو ممن ختم على سمعه وقليه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا يسمع إلا بأذن غيره ، ولا يبصر إلا بعين من تقدمه ، ولا يعقل إلا بقلب من سبقه .

[الثانية] حنقهم على الرسل وأتباع الرسل ، وامتلاء قلوبهم غيظا منهم ، حتى وصفهم الله بأنهم إذا نلت عليهم آيات الله بينة واضحة تعرف في وجوههم الفظ والحق ، عداوة وفضلا لأهل الحق يكادون يبسطون بهم ، وقد ترى ذلك الوصف في فريق من أهل العلم الذين نشئوا على البدع والضلالات في عقائدهم وعبادتهم ، إذا دعاهم داع الى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، وأخذ يتلو عليهم شيئا من آى القرآن الكريم ، فانك ترى حية الجاهلية سمرت في عروقهم ، وتراهم قد ضاقوا به ذرعا ، وقد ينتهى بهم الفظ والحق الى مقابله بما لا يرضاه الله من العنف والشدة وضروب الإيذاء [الثالثة] فرارهم من الدعوة الى الحق ومن الداعي إليه ، حتى انهم يثنون صدورهم ويلوونها عن الداعي ليستخفوا منه ، وماءعوا أن الله تعالى يعلم سرهم وعلايتهم ، وذلك لأن الحق يعمل زلزلة في قلوبهم ، واضطرابا في أقدسهم .

وقد مثل الله لنا فرار قوم نوح من دعوته في قوله (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستشكوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ») .

[الرابعة] دفعهم عن الباطل وقتلهم في سبيل الشيطان ، وأكبر مظهر لذلك الدفاع جدلهم في الله فيبر علم ولاهدى ولاكتاب منير .

وما أوحى أهل العلم الى التخوف من تلك الصفة فانهم قد أصيبوا كثيرا بالجلد ، وقد يصل الجدل بهم الى الشقاق عن الباطل بدون حجة ولا برهان ، معتمدين على زلاقة لسانهم أو قوة ينانهم ، وقد وصف الله الكفار بأنهم قوم خصمون ، يحبون الجدل للجدل ، لا للحق ، ولا للوصول إليه ، يجادلون أهل الحق لمرض في قلوبهم ، وكبر يحاولون أن يصلوا إليه ، وهم تغلبهم على الداعي وظفرهم به ، ولن يجدوا الى ذلك سبيلا .

تلك هي خصائص الكافرين ، وصفات أعداء الحق ، وعلى كل مؤمن أن يحاسب نفسه حسابا عسيرا ، قلل فيه صفة من أولئك الصفات أو طائفة منها ، فتكون أخلاقه أخلاق الكافرين وهو يحسب نفسه من عداد المؤمنين .

الآيات في المنافقين

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ «٨»
يُخَذِّعُونَ ^(١) اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ «٩» فِي
قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ^(٢) فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ «١٠»
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ «١١» أَلَا إِنَّهُمْ
هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ «١٢» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ
النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ «١٣»
وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ يُسْمِعُونَ ءَامِنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ ^(٣) قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ
إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَعِزُّونَ «١٤» اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَسْمُحُونَ ^(٤) «١٥» أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ «١٦» البقرة

[١] يخذعون : من خدع الضب إذا تورى في جحره ، يوم المائدة اقبله عليه ، ثم يخرج من باب آخر .

[٢] مرض : شك ، وغلق يحول بينها وبين وطنها . [٣] شياطينهم : رؤسائهم .

[٤] يسمعون : من السه ، وهو الحيرة .

وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّامَ ^(١) «٢٠٤» وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
الْحَرْثَ ^(٢) وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ «٢٠٥» وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ
الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ^(٣) فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ «٢٠٦» البقرة

وَمَا أَصْبَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ ^(٤) فَيُؤْذِنُ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ «١٦٦»
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَوْا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَذِقُوا ^(٥) قَالُوا لَوْ
كُنَّاهُمْ ^(٦) قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ
يَأْفُوهُمْ مَالِئِينَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ «١٦٧» الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
وَقَعَدُوا ^(٧) لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلَّ فَأَذَرَهُ ^(٨) عَنِ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ «١٦٨» آل عمران

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
يُرِيدُونَ أَنْ يُخَاجُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ^(١) وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ
أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا «٦٠» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ
رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا «٦١» فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا «٦٢»

[١] الذَّ الْخَصَّامُ : شديد الخصومة . [٢] الحَرْث : الزرع .

[٣] أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ : حلتها الأثرة على الإثم ضرارا ولجبا . [٤] يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ : يوم أحد

فَيُؤْذِنُ اللَّهَ : فضائه . [٥] أَوْ أَذِقُوا : عن الأثس والأموال .

[٦] كُنَّاهُمْ : لو سلم الخ : أي لو سلم أنكم تقاتلون لقاتلنا معكم لكنكم تلقون بأيديكم إلى التهلكة .

[٧] وَقَعَدُوا : أي م عن القتال . [٨] فَأَذَرَهُ : أذفوا .

[٩] الطَّاغُوت : غير الله ، من الطغيان ، وهو التمدي .

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ^(١) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ^(٢) «٦٣» النساء.

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِضَنَّ ^(٣) فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْتَمُ اللَّهُ عَلَى إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا «٧٢» وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ ^(٤) يَنْصِبْكُمْ وَيَبْتَغِ مَوَدَّةَ يَلِيْقَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا «٧٣» النساء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآؤُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَعَ اللَّهُ قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْتَ لَا تُظْلَمُونَ قَلِيلًا ^(٥) «٧٧» النساء.

سَجِدُونَ لِأَخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ ^(٦) وَيَأْمَنُوا قَوْلَهُمْ كُلِّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أَرْكَسُوا ^(٧) فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَنْتَرِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ ^(٨) وَيَكْفُوهَا أَيْدِيَهُمْ نَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ ^(٩) وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ مَلَكُطًا ^(١٠) مِيدَنًا «٩١» النساء.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ^(١١) ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا

[١] ما في قلوبهم : من مرض وفاق . [٢] بليغاً : يبلغ منهم ما تريد ويؤثر فيهم .

[٣] يلبغض : من بطن بطناً ، أى تناقل عن الجهاد ، أو ربط غيره عنه .

[٤] كأن لم تكن الخ : جملة مترجمة بين القول ومقوله . [٥] قتيلاً : ما يكون في شق النواة يضرب به اللؤلؤ في النوى الحفيرة ، أى لا يتقوسون شيئاً من ثوابهم وإن قل . [٦] أن يأمنوكم : بإظهار الإسلام ، ويأمنوا قوتهم : بالكفر . [٧] أركسوا : تكسوا واغلبوا . [٨] السلم : بترك القتال .

[٩] تقفتم : وجدتم . [١٠] سلطاناً : حجة على جواز قتالهم .

[١١] آمنوا ثم كفروا : آمنوا بإسلامهم إذا كانوا المؤمنين ، ثم كفروا إذا كفروا الكفار .

لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَتَقَرَّرَ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا «١٣٧» بَشَرِ الْمُنْفِقِينَ بِأَنَّهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «١٣٨» الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ^(١) مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْتَمُّونَ عِنْدَهُمُ الْمِرَّةَ فَإِنَّ الْمِرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا «١٣٩» وَقَدْ تَرَكَّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ، أَيْتَ اللَّهُ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنْفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا «١٤٠» الَّذِينَ يَتَرَضَّوْنَ بِكُمْ ^(٢) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ^(٣) قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ ^(٤) عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم ^(٥) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ^(٦) «١٤١» إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخِذُونَ اللَّهُ ^(٧) وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا «١٤٢» مُذَبَذَبَيْنَ ^(٨) بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى مَوْلَاءَ وَلَا إِلَى مَوْلَاءَ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا نَبْجِدَ لَهُ سَبِيلًا «١٤٣» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا إِلَهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ^(٩) مِثْلَنَا «١٤٤» إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا «١٤٥» إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ

[١] أولياء : نصراء . فيما يخالف مصلحة المسلمين . [٢] يتراضون بكم : ينتظرون ما يحدث لكم من كسر أو نصر . [٣] نصيب : حظ من الظفر . [٤] نستحذو : نستول . [٥] ونمنعكم : نحمكم . [٦] سبيلا : غلبة مادام المؤمنون قاطنين بحقوق الإيمان ، ويبشرون هدي ، ويمشون سننه في الحق . [٧] يخادعون الله : يخادعونهم لرسوله وللمؤمنين ، وهو خادعهم : ما كرمهم فيجزهم على نيتهم وقلوبهم . [٨] مذذبين : مضطربين بين المؤمنين والكافرين . [٩] ساطأنا : حجة .

يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا قَوْلُ اللَّهِ ﴿١٤٧﴾ بِمَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
وَعَامَلْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ النساء.

انْفِرُوا خِفَافًا ﴿١٤٨﴾ وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ لَكُمْ
خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٤٩﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا ﴿١٥٠﴾ قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴿١٥١﴾
لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَّدْتَ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ ﴿١٥٢﴾ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٣﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴿١٥٤﴾ لَمْ
أَذْنَبْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنِي لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴿١٥٥﴾ لَا يَسْتَنْذِنُكَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٥٦﴾ إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ ﴿١٥٧﴾
قُلُوبُهُمْ فَأُولَئِكَ فِي رَيْبٍ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١٥٨﴾ التوبة

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿١٥٩﴾
لَوْ يُجَاهِدُونَ مَلْجَأًا ﴿١٦٠﴾ أَوْ مَعْرَاضٍ أَوْ مُدْخَلًا ﴿١٦١﴾ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿١٦٢﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴿١٦٣﴾ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا
إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿١٦٤﴾ التوبة

-
- [١] ما جيل الله الخ : لاحظ أنه في أن يذب أحدا ما دام مؤمنا شاكرا .
[٢] خفافا : لله عيالكم ، وثقالا : لكثرتها . [٣] عرضا : مغنا دنيويا .
[٤] قاصدا : متوسطا . [٥] الشقة : الساقة تطع بحقة .
[٦] عفا الله عنك : كناية عن غفلة في الأذن لهم بالتخلف . [٧] ارتابت : مرضت بالريب والافتاق .
[٨] يفرقون : يخاصونكم فيظهرون الإسلام تقية . [٩] ملجأ : حصنا .
[١٠] مدخلا : تقا في الأرض ، ولولا : ألبوا . [١١] يجمعون : يسرعون كالفرس الجوح .
[١٢] يلمز في الصدقات : يبيك في قسرتها .

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ^(١) يَأْتِرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ^(٢) نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ «٦٧» وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ «٦٨» التوبة

وَمِنْهُمْ مَنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ اٰتٰنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنُ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ «٧٥» قَلَمَآءُ اٰتٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لِيَحْلُوْا بِهِ وَيَوْفُوْا وَعُمْ مُّزٰوْنًا «٧٦» فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيْ قُلُوْبِهِمْ اِلٰى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا اَخْلَفُوا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ «٧٧» اَلَمْ يَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ عَلٰمُ الْغُيُوْبِ «٧٨» الَّذِيْنَ يَلْمِزُوْنَ الْمُطَوّٰعِيْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فِي الصَّدَقٰتِ وَالَّذِيْنَ لَا يَجِدُوْنَ اِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُوْنَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّٰهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ «٧٩» التوبة

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ ^(٣) خِافَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُوْنَ «٨١» فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَسْكُوا كَثِيراً جِزَاءَ مَا كَانُوا يَكْسِبُوْنَ «٨٢» فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَنْذَوَكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ^(٤) «٨٣» وَلَا تُضِلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَّتًى أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ «٨٤» وَلَا تُعْجِبَكَ

[١] بعضهم من بعض : متحابين في البدن عن الإيمان كإيمان بني الزنادقة .
[٢] ويقبضون أيدهم : عن الخير . [٣] بمقعدهم : قعودهم عن الغزو ، خلاف :
[٤] الخلفاء : المتخلفين .

أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَقْسُمَهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِهَا فَعَدُّوا مَعَ رَسُولِهِ
أَسْتَنْذَنتُكُمُ أُولَئِكَ الطَّوْلِ ﴿٨٦﴾ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا ^(١) نَكُنْ مَعَ الْقَائِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا
بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ التوبة

يَسْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدُوا لَنْ تُوَفَّقُوا لَكُمْ قَدْ
نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ
وَاللَّهِ فَتَبِّشُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيُخَافِقُونَ بِأَمْرِ اللَّهِ لَكُمْ إِذَا
أُتْقِنْتُمْ ^(٢) إِلَيْهِمْ لَتَرْضَوْنَهَا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ ^(٣) وَنَاسٌ جَاهِلُونَ
جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ التوبة

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَمَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ^(٤)
كَذَّابٍ كَذَّابٍ اللَّهُ وَلَيْسَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ
بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَيَسْلَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَسْلَنَّ
الْمُنَافِقِينَ ﴿١٠١﴾ النعكبوت

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ^(٥)
وَذُكِّرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ^(٦) يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَطَارَ الْمُغَشَّى

[١] الطول: الفخ والسمعة . [٢] فرنا : دعنا : [٣] اقلهم : عدم .

[٤] رجس : قذر يباع في ثوبت هوسهم ولعادها حتى جعلها الفجارة غسبا .

[٥] فتنة الناس : إقامتهم كذاب الله : بؤله كناية عن ضعف إيمانه وحقيقته .

[٦] مريضة : مريضة لاسباب فيها . [٧] مرض : ضعف .

عَلَيْهِ ^(١) مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِي لَهُمْ «٢٠» طَاعَةٌ ^(٢) وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ^(٣) فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ «٢١» ۝

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْنُهُمْ ^(٤) «٢٢» وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ ^(٥) فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ^(٦) وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ «٣٠» وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ «٣١» ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ «١» اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ^(٢) فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٢» ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ «٣» وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْهُمْ قُلُوبُهُمْ خُشْبٌ مُمْسَكَةٌ ^(٤) يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ ^(٥) فَآخِذْهُمْ فَتْلَهُمْ اللَّهُ أُنَّى يُؤْذِكُونَ «٤» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُءٌ وَسَهُمٌ ^(٦) وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ ^(٧) وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ «٥»

[١] اللغزى عليه : المسمى عليه جيناً وعلماً . [٢] طاعة : خبر عن قوله : (فأولى) .
[٣] عزم الأمر : فرض القتال . [٤] أيمانهم : أعتادهم . [٥] لأريائكم : عرفناكم
فعرفتم بعلامتهم . [٦] لحن القول : أسلوبه ولفظه من أساليبهم أنهم لا ينطقون بالحق وانحطت دأبهم
الراوعة والواربة . [٧] جنة : وقاية وستراً لما في نفوسهم من ضغف وتفاق ، ولأنهم لا يثقون بأنفسهم
فيسارعون إلى الإيمان . [٨] خشب مسندة : شبههم بالخشب المسندة إلى الحائط بدون نفع لأنهم استباح
خالية عن العلم والظن ، أو جمع خشب ، وهى الخشبة التى تخر جوفها ، شهوا بها في حسن المنظر ووقع الخبر .
يخسبون كل صيحة عليهم : لجبتهم وضغف قلوبهم ، وذلك شأن من ليست له عقيدة .
[٩] م العدو : جملة مرفة الطريقين تفيد المصير : أى لاعدو المسلمين إلا م فالكفار في جانبهم ليسوا شيئاً .
[١٠] لواء رؤوسهم : طغفوها إعرافاً وتكبراً . [١١] يصدون : يمرضون .

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ «٦» ثُمَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(١) وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ^(٢) «٧» يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ^(٣) مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٨» لِلْمُؤْمِنِينَ

كبريات العبر في المنافقين

(٧) أَرَأَيْتَ قَدْ أَطْلَعْتُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْقَارِئُ فِي آيَاتِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا لَمْ تَعْلَمْ مِنْهُ فِي أَبْوَابِ آخِرِ، وَلَوْ عَلِمْتَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ شَرٌّ مُسْتَطَعِرٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ عَلَى كُلِّ إِصْلَاحٍ فِي الْأَرْضِ لَعُدْتَنِي فِي هَذِهِ الْإِطْلَاعَةِ، بَلْ وَتَطْلُبُ فَوْقَهَا .

إِنَّكَ لَوْ تَقَبَّلْتَ أَيُّ إِصْلَاحٍ فِي الْأَرْضِ، وَأَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ كَيْفَ يُقَابَلُ ذَلِكَ الْإِصْلَاحُ مِنْ طِبْطَبِ النَّاسِ، لَرَأَيْتَ رَأْيَ الْعَيْنِ أَنَّ النَّاسَ أَمَامَ ذَلِكَ الْإِصْلَاحِ أَقْسَامٌ ثَلَاثَةٌ : قِسْمٌ رَجَبٌ بِهِ وَيُنَاصِرُهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَيَضْحَكُ فِي سَبِيلِ مُنَاصَرَتِهِ النَّفْسُ وَالنَّفْسُ، وَقِسْمٌ آخَرُ يُعَادِيهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا .

وَقِسْمٌ ثَالِثٌ يُعَادِيهِ فِي الْبَاطِنِ وَيُصَرِّهُ فِي الظَّاهِرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنَافِقُونَ الْمُخَادَعُونَ . وَنَظَرَةٌ وَاحِدَةٌ فِي هِضَابِ الْبِلَادِ وَجُرْثُمَاتِهَا أَعْدَائُهَا الْغَاصِّينَ لَهَا، تَرِيكَ كَيْفَ تَقْسِمُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ، وَكَيْفَ يَكُونُونَ أَحْزَابًا وَشُعَبًا، وَكَيْفَ تَنْجَلِي أَخْلَاقَهُمْ، وَتَنْظُرُ عَخَائِبَ نَفْسِهِمْ، تَرَى الْفَرِيقَ الَّذِي ضَلَّ نَفْسَهُ، وَطَهَّرَتْ عَنْ خَلْقِهِ، يَرْجُبُ بِذَلِكَ الْإِصْلَاحِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، نَاسِبًا مَاوَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ آلَامٍ وَمَشَاقِّ . وَتَرَاهُ يَنْدَفِعُ إِلَى تَرْوِيجِ الْعِمَامَةِ لِلْجِدِّ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَيَرَى سَعَادَةً فِي أَنْ يَنْفَقَ مَالَهُ وَجِيَانَهُ فِي ذَلِكَ السَّبِيلِ، وَهُوَ الْفَرِيقُ الْمُؤْمِنُ .

وَتَرَى فَرِيقًا آخَرَ كَبُرَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِذَلِكَ الْإِصْلَاحِ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، وَيَصْبَحُ وَلَهُ ذَلِكَ الْأَثَرُ الْخَالِدُ، وَالصِّبْتُ الدَّائِمُ، فَيَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ وَقَدْ امْتَلَأَتْ حَقْدًا وَحَسَدًا، وَكِبْرًا وَغُرُورًا، فَيَسْأَلُ نَفْسَهُ مَاذَا أَتَتْ فَاعَلَتْ ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ وَمَاذَا أَعْدَدَتْ لَهُ مِنْ عَمَلٍ؟ فَتَجِيبُهُ : أَعْدَدْتُ لَهُ خِذْلَانًا لَا يَقُومُ بَعْدَهُ، وَمَوْتًا لَا يَحْيَا مَعَهُ، أَعْدَدْتُ لَهُ أَنْوَاعًا مِنَ الْإِهَانَةِ، وَضُرُوبًا مِنَ الْإِذْيَاءِ، وَأَصْنَافًا مِنَ الْعَنْتِ وَالْإِجْحَاجِ، أَعْدَدْتُ لَهُ تَحْقِيرًا أَمَامَ مُوَاطِنِيهِ، وَتَسْفِيفًا لِعَمَلِهِ، وَتَنَاقُلًا لَأَبْنَاءِهِ عَنِ الْآبَاءِ . وَذَلِكَ هُوَ الْفَرِيقُ الْكَافِرُ بِذَلِكَ الْإِصْلَاحِ الْعَادِي لَهُ سِرًّا وَعِلَانِيَةً .

[١] مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ : لِلْمُهَاجِرِينَ . يَنْفَضُوا : مِنْ حَوْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
[٢] خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : يَدُهُ الْأَرْوَاقُ كُلُّهَا . [٣] يَفْقَهُونَ : يَفْهَمُونَ ذَلِكَ لِمَجْلَمِهِمْ بِهِمْ .
[٤] الْأَعَزُّ : يَمُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ . . الْأَذَلُّ : يَرِيدُونَ الْمُؤْمِنِينَ .

وترى فريقا ثالثا ، وهو شرّ من الفريق الثاني يشترك معه في خبث النفس ، وفساد الطوية والحنق على ذلك الصلح ، ويمتاز عنه بالجبن والخور ، وضعف القلب ، فلا يستطيع أن يصارع الصلح بأنه عدوه اللدود ، ولا أن يظهر أمام المؤمنين بذلك الظهر ، فيضطره ضعف عقيدته ، وفقدانه للجرأة أن يدارى ويورب ، فيكون بين الصديق والعدو ، والناصر والمحارب : إذا رأى المؤمنين أظهر لهم الإيعان ، وإذا لقي الكافرين قال لهم : إني معكم .

المنافق حيوان خبيث

ومثله في ذلك مثل حيوان خبيث وهو الضبّ ، يعمل له جحرا في الأرض يسمى النافقاء ، له بابان ، إذا أراد سائده أن يدخل إليه من أحد البابين لوح له بذنبه أنه مقبل عليه ليطعمه ، ثم يخرج من الباب الآخر ، يخدعه بذلك العمل ، وهكذا المنافق ، واشتقاقه من النافقاء وهو ذلك الجحر الذى يعمل الضبّ ، أو هو إحدى جحرة البربوع التى يعملها في الأرض ظاهرة يراها الناس ، حتى إذا ذهبوا إليها ليطلبوه ، إذا به قد أعد جحرا آخر قد أخضاه عن الناس ليكون فيه ذلك هو المنافق الذى يخادع الناس ويخادع المصلحين في كل زمان ، وهذامثله في خداعه ونفاقه .

الفن والشذائد

(١) يتألم كثير من الناس للفن والشذائد التى تقع على الأمم الناهضة ، ولو عرف الحكمة في هذه الشذائد ، والغاية من هذه الفن لعلم أنها تنطوى على حكم ومصالح لاغنى للإصلاح عنها . وأضرب لهم مثلا الشذائد التى تقع بالمسلمين من خصومهم في الدين والعقيدة والحروب الطاحنة بين حزب الله وحزب الشيطان ، فانها تمحص من نفوس المؤمنين ، وتظهر قلوبهم حتى يكون إيمانهم قويا خالصا ، فلا يكون للشيطان حظ من أولئك النفوس . ومن ناحية أخرى إن الشأن في المتاعى أو الصلح أن يقبل الناس عليه في بادئ الأمر ، وفيهم المؤمن والمنافق ، ولولا الشذائد لقي جيش ذلك الصلح خليطا من أنصاره وأعدائه ، فقضت حكمة الله أن يبتليهم بالشذائد ، ويختبرهم بالحن والخلطوب ، ليمتاز المؤمن من المنافق ، والصادق من الكاذب .

وهذا تاريخ المنافقين في الاسلام يربنا أنهم دخلوا في الدين مع من دخل من المسلمين ، وكفروا سواد المسلمين ، وبعد أن فرض الله القتال على المسلمين ظهر ما عندهم من ضعف ، وانكشف ما انطوا عليه من نفاق ، وأخذوا يتفرون عن الحرب مع المؤمنين ، والكفاح في سبيل الله ، وقد كانت فرضية القتال فضيحة لهم وخزيا وعلا ، ولا عجب فان بذل النفس لا يمكن أن يكون من منافق ، إنما يكون من مؤمن قوى إيمانه ، وازداد في الله يقينه ، فانه لا شيء أعلى من النفس ، فمن له رجاء في الله ، وعقيدة خالصة ، لا يمتورها شيء من الوهن يسهل عليه أن يضحي بنفسه في سبيل دينه ، ولذلك كلن أكبر دليل على الإيعان الجهاد في سبيل الله ، وقد

نلونا عليك من آيات الذكر الحكيم ما يريك مقدار فرار المنافقين من التتال ، واعتذارهم عنه وقد أنزل الله تعالى فيهم آيات لأخصى فضحهم بها ، وأبان جنهم وخورهم ، وأكثر سورة التوبة في ذلك النوع ، ولذلك سماها بعض السلف الفاضحة والخزبة ، لأنها خزي ووبال على أولئك القوم والمبرة في ذلك أن ما ينال الصالحين من أذى وما يعترض خزبهم من عقبات ، سواء في ذلك ما يتعلق بمالمهم أو نفوسهم - كل ذلك من شأنه أن يحص الصالحين ، ويخلصهم من السخيل ، ويعدم من الضعف ، حتى يكونوا جسما قويا على الشدائد ، فيه مناعة تحول بينه وبين المؤثرات (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب « ١٧٩ »)^(١) (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون « ٢ » ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين « ٣ »)^(٢) .
ولولم يكن من آثار الشدائد سوى أن يميز الله بها الخبيث من الطيب ، ويعمل الخبيث بعضه على بض لكفى .

وقديما قالوا [جرى الله الشدائد كل خير] فإذا أخرجت الشدائد فريقا من الذين كانوا مع الصالح في بادئ أمرهم ، فأنما أخرجت مرضا كينا ، وداء دفين فإسواد المؤمنين أصبح الجسم بعده سليما قويا ، يستطيع أن يكفح وينافح ، ويستطيع أن يأمن على أسرارهم أن تداع بين الأعداء والخصوم ، فرص ثم مرض لهذه الشدائد .

أخلاق المنافقين

(٢) يرينا الله تعالى في كتابه الكريم - وهو العالم بخفايا النفوس وما تكنه الضمائر - أن للمنافقين خصائص وأخلاقا بها يمتازون عن غيرهم ، ثم أرانا أن العلة في أولئك الأخلاق هي مرض القلب ، واضطراب العقيدة ، ولو كان قلبهم سليما من المرض ما كانوا على ذلك الخلق .
[الأولى] من صفاتهم أنهم يمايلون الله معاملة المخادع ، لامعاملة المخلص ، ومادروا أنهم بذلك العمل يخدعون أنفسهم ، وأن وبال خداعهم راجع إليهم ، ولو قدروا الله حق قدره ماعاملوه ، تلك المعاملة ، (يخادعون الله والذين آمنوا ويخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) ولو كان عندهم شيء من العقل لاستحووا من ذلك العمل ، فإن الرجل العاقل يستنكف أن يخادع مخلوقا مثله إذا كان يعلم أن عنده من اليقظة والعلم ما به ينكتف خداع صاحبه ، فكيف إذا كان ذلك الذي فعامله إله له العلم الشامل ، والهيمنة على النفوس .

ومن آثار خداعهم لله أنهم يمايلون بأجسامهم لابقاوبهم ، فهم يمايلون صلاة رياء لاصلاة إخلاص (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وكأنه ينشر بكلمة (إذا) الدالة على التحليق إلى أن الشأن فيهم أن لا يمايلوا ، ولو فرض أنهم قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، فلم يأخذوا التكاليب بقوة ، كما هو الشأن فيمن يعمل العمل وهو مقتنع بأنه نافع

مفيد ، بل يؤدونها كإهين متناقلين ، لأنهم يرايون الناس بصلاتهم ، ولا يبتغون بها وجه الله ، ومن كان كذلك لا يقوم الى صلاته بجدّ ونشاط ، وهم الذين قال الله فيهم (فويل للأصلين «٥» الذين هم عن صلاتهم ساهون «٦» الذين هم يراون «٧» ويمتنعون للماعون «٨» «١») .

وقل مثل ذلك في كلّ عبادة يقومون بها ، يؤدونها غافلين عن سرّها ، فاقدين لروحها ، وما أحوجنا الى تدبير ذلك الخلق الذى وصف الله تعالى به المنافقين ، وعرضه على نفوسنا ، فكثير من يتقون أنفسهم مؤمنين إذا قاموا الى صلاتهم قاموا متباطئين متكاسلين ، ساهين عن حكمتها غافلين ، لا يبالي الواحد منهم أن يترك وقتا من صلاته أو أوقاتا ، وإذ اصلى أدى صلاته ناقصة مبتورة وقهرها كما تنقر الديكّة ، وتراه وهو يصلى لم يأنس في صلاته بربه ، ولم يطمئن الى مناجاة خالقه وبارئه ، وكأن الصلاة عنده حركات جسمية كتمرين من تمارين وياضة الجسم لا أكثر ولا أقل ولو درى أن روح الصلاة إخلاص ذلك العمل لله تعالى وأنها صلة بين العبد وربّه ، وطهارة للمصلى من الأوزار والأرجاس ، وتهذيب للنفس من كلّ فاحشة ومنكر - لودرى المصلى أن ذلك هو حكمة الصلاة وسرّها لأدّاها كاملة في شكلها وحقيقتها ، وقام إليها وهو مطمئن الى أن الوقت الذى يقضيه في أدائها هو أسعد وقت عنده ، وأفضل زمن يقضيه بين يدي ربه وخالقه ، وحسبه أن يناجيه بأنّه عبده الخاضع ، وهو ربه الرحيم به ، ويبنى عليه بما هو له أهل ، ويخصه بالعبادة والاستعانة على شئون دينه ودنياه ، ويطلب منه الهداية الى صراطه المستقيم ، ويقيم البرهان العملي على أنه عبده المطيع الذى لا يخل على مولاه بوضع أشرف أعضائه على الأرض .

ولكن من لنا باقناع طائفة المنافقين بذلك وأمثال ذلك ، وهم قوم لم يدقوا للايمان طعما ، ولا للأعمال الدينية حلاوة ، هم قوم تجار في تدينهم ، مخادعون مواربون ، لم تسل قلوبهم من المرض ، ولا عقائدهم من الشك ، ومن أجل ذلك مرضت أعمالهم .

وعلى كلّ مؤمن أن يتهم نفسه ويحاسبها ذلك الحساب الدقيق ، فقد يكون فيه خلق النفاق وهو لا يدري ، ومن السهل عليه أن يعرف وهو يؤدى صلاته أهو نشط أم كسلان ، وهل هو يرائى الناس بصلاته أم هو مخلص لربه وخالقه ، وهل هو يفرّ من الصلاة إذا دخل فيها فرار الكاره ، أم يطمئن إليها ويتمنى أن تطول ، عليه أن يستفتي نفسه في ذلك كله ، فإذا وجد نفسه مريضة عاجلها ، وان وجدها سليمة من ذلك المرض حمد الله وطلب منه أن يزيد إيمانه الى إيمانه ويقينا الى يقينه ، ذلك هو شأن المؤمنين ، أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ويراقبوا أعمالهم قبل أن يراقبوا .

بقى أن الله وصف المنافقين بعد ذلك بقوله (ولا يذكرون الله إلا قليلا) لا يذكرونه إلا جهرا حتى تسمعهم الناس فيقولوا: هم مؤمنون ، أما فيما بينهم وبين أنفسهم فلا يذكرون ربهم ، لأن الصلاة بينهم وبينه منقطعة ، ولورضوه لهم ربا مانسوه في قيام ولا قعود ، ولاليل ولانهار ، كما هو الشأن في المؤمنين ، يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، أو المعنى أنهم لا يذكرون الله بقلوبهم

إلا على ندور ، كأن يهوا في مصيبة أو تحمل بهم كارثة ، فتلجئهم للصائب أن يرجعوا إلى ربهم ، ويتذكروا خالقهم .

ولله ما أدق تحليل القرآن الكريم لنفوس البشر ، وإتيانه على عجزاتها وخصائصها ، لتكون موضع العبرة ومكان الدأكلر ، فقد نرى يفض الناس ليعاوه ذكر الله إلا أمام الناس ، فإذا صرّ على قبر أكثر من ذكر الموت وما بعد الموت بصوت يسمعه من معه ، وإذا جاءت مناسبة رأيت يتحرق أسفا على تقصير الناس في دينهم وحقوق خالقهم ، وتراه يكثّر من هذه التفتة ليرى صاحبه أنه جدّ حريص على أن يكون الناس صالحين مصلحين ، وعلى ربهم مقبلين ، وإذا خلى ونفسه لم يحفل بشيء من ذلك ، ورأيت على أبشع الأخلاق وأسفل الرذائل .

{ الثانية } من صفات المنافقين التذبذب والاضطراب بين حزب المؤمنين وحزب الكافرين ، فلا يستطيعون أن يكونوا مع أحد الفريقين ظاهرا وباطنا ، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلاوا إلى شياطينهم وروّس الكفر منهم قالوا لهم إنا معكم ، وما أظهرنا الإيمان مع الحزب الأول إلا ليهكم بهم ، وقد بين الله ذلك النفاق وهذه التذبذب بقوله (في قلوبهم مرض) ومن مرض قلبه مرض كل شيء فيه ، فإن القلب هو رئيس الجوارح ، والمهيمن على الإنسان كله ، وفساد الرئيس يفسد للمردوس ، وذلك للمرض لا يشركهم فيه الكافر وإن كان قلبه مريضا بحب الجاه ، وكراهة الحق ، والحدق على المصلح ، لأن قلبه لم يمرض بالضعف والخور والشرور ، فكان جريئا في معاداة الحق ، وخذلان الإصلاح .

أما المنافق فكان خبيثا في عداوته ، محتالا في إفساده ، شأنا الضعيف الذي لا يستطيع أن يشفي غيظه ، يكره ويخادع ، ويدأجى ويوارب ، مرض قلب ذلك النفاق فلم يثق بالله في وعده ووعيده ، ولم يؤمن به في ثوابه وعقابه ، فرض بذلك المرض صاحبه ، ولم يفض على الجسم نورا يسير به في الظلمات ، ويهتدى به في اللغات ، وكان مثل ذلك الجسم كجيش اعتل قائده ، فهو يسير بلا قيادة ، وهبات أن يهتدى أو يصل إلى غاية .

{ الثالثة } من أخلاق المنافق أن يحبك قوله ، ويسوؤك عمله ، قوله قول الصوفية ، وعمله عمل الجبارة ، إذا تكلمت معه في الإصلاح والصلحين ، والافساد والفاسدين ، أفاض معك في القول ، وأراك أن قلبه يتفطر حسرة لتلك الفساد ، الذي زاه كل يوم ، وأنه يخشى أن لوصلح أمر الناس ، وقد يصف لك طريق الخلاص من ذلك الفساد ، كطبيب ماهر ، وعالم خير ، وإذا ولى عملا من أعمال المسلمين رأيت شيطانا من الشياطين ، رأيت ظم العباد والبلاد ، وعاث في الأرض الفساد (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو أئثم الخصاص « ٢٠٤ » وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد « ٢٠٥ » وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس اللهاد « ٢٠٦ ») (١) ولا يحب ، فإن قوله لم ينشأ عن عقيدة ، ولم يصدر عن إيمان صحيح ، وهو يريد أن يعيش مع الكافر والمؤمن ، والبر والفاجر ، فإذا كان لسانه لسان مصلح فلا تبه يريد أن يكون بظاهره مع

للمؤمنين ، وإذا كان عمله عمل مفسد فلا تَنْ قلبه فاسد ، وطوبى له خيثة ، فعمله عنوان قلبه ، ولسانه عنوان خداعه ومواربه .

[الرابع] أنهم فعليون ، لا يريدون إلامصلحتهم الدنيوية ، وغايتهم المادية ، وهم من أجلها يواربون ويخادعون ، وللاصول عليها يدورون . يحاولون أن يرضوا الفريقين ، ويصادقوا الخصمين ، لأنهم يخشون إذهام ساروا الداعي إلى الإصلاح ، وأصبحو من حزبه سرا وعلاية أن يصكون حظه الفضل والاختراق ، وإذا انضموا إلى أعدائه فقد تكون له الغلبة فيهلكون مع الهالكين .

نظروا في مستقبلهم على ذلك الأساس ، وفكروا في عاقبتهم ذلك التفكير ، لا يريدون أن ينضموا إلى حزب يتحملون غرمة وغنمه ، شأن الأحزاب في هذه الحياة ، بل أرادوا أن يكونوا مع الأحزاب كلها في النعم ، ويبعدن عن الأحزاب كلها في الغرم . وفريق ذلك حاله ، وتلك غايته ، هو فريق غريب عجيب ، يريد أن يربح دائما وإن خسر الناس ، وأن لا يضحى بشيء . وإن ضحى الناس محطتين أو مصيبين ، ولا أدلة على تمكن ذلك الخلق في نفوسهم من وصف الله لهم في محكم كتابه إذ يقول (يتجددون آخرون يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) يريدون أن يأمنوكم فيظهروا أمانكم بالإيمان ، حتى لا تاملوهم معاملة الكفار المحاربين ، وحتى لا تفتكوا بهم إذا كانت لكم الدولة ، ويأمنوا قومهم بقولهم لهم (إنا معكم إيماناً نحن مستهزون) إذا قدر لهم القلب ، وقوله جل شأه (الذين يترسبون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) .

فترى أن أولئك الأقوام ينظرون للمؤمنين ما يحدث لهم من كسر أو نصر ، أو خير أو شر ، فإن نصرهم الله قالوا لهم : ألم نكن معكم فنتسحق أن تشارككم في نعمتكم ، ونسألكم معكم في غنمكم ، وإن كان للكافرين نصيب من الظفر لأن الحرب سجل مشوا إليهم ، ومنا عليهم بأنهم كانوا عوناً لهم على المؤمنين بتخذيذهم ، والتواني في الحرب معهم ، يقولون لهم : إنا قد استحوذنا عليكم ، وتمكننا من الإيقاع بكم ولم نفعل ، بل منعناكم وحفظناكم من المؤمنين .

ذلك هو الفريق السفى الذى لا يعنى إلا بمصلحته ، ولا يهتم إلا بمصولة على شهوته ، وإنك لو نظرت ملياً فيها حولك وما يحيط بك لرأيت فريقاً كبيراً من الناس على ذلك الخلق الردى ، ترى ذلك الفريق مع كل الأحزاب السياسية وسواء عليه الحق في نظره والباطل ، لأن مصلحته في هذه الحياة تتطلب أن يكون مع الجميع . فهو يريد أن يضم ولا يفرم ، ويحاول من أجل ذلك أن يرضى كل الأحزاب ، ويربح في كل زمن ، إن كان من أصحاب الأموال حفظ ماله وثروته ، ونمائها واستمرارها ، وإن كان من طلاب الوظائف له أوليئنه حصل عليها أيا كان لون الحكومة ، وأيا كان القائم على الأمور والمهيمن عليها ، وقد صدق فيهم قول زعيم سياسى كبير [يدورون القلاع لكل ربح] .

وبقدر افساد المنافقين أمر الدين على المؤمنين ، يكون افساد المنافقين في كل العصور على الناس أمر دنياهم ، فإن الغاصب يمتحن لتصبح الأمة كلها منافقة مخادعة ، لا يهيمها إلا أن تخلص

بطونها ، وتشبع شهواتها وأطماعها ، وإن أكبر خاذل للصلح السياسى ذلك الصنف الخبيث ، الذى يراوغ وروغان الثعلب ، فلا تعرف له لونا ، ولا تستطيع أن تجد له حزبا ، ظاهره معك ، وباطنه حرب عليك ، إذا أردت أن تحلوه تظاهر بأنه من حزبك ، وإذا شئت أن تصادقه لم يخلص لك المودة ، وإذا كان الله تعالى قد توعد المنافقين بشر مما توعد به الكافرين إذ يقول : (إن المنافقين فى البرك الأسفل من النار) فلا هم شر مستطير على الإصلاح ، وهمض وييل فى جسم الأمة فى كل زمان ومكان ، وإذا قال فيهم (هم العدو فاحذرهم قائلهم الله) فعلينا أن نتخذهم أعداء لنا فى أمور ديننا ودنيانا ، لأنهم هم العدو فيهما كما قال الله ، وعلينا أن نتقيهم ونقول فيهم كما قال الله (قاتلهم الله) .

وإذا كان الله تعالى قد كشف أمر المنافقين فى صدر الاسلام بفرضية القتال ، وفضح أسرارهم بذلك التكليف الشاق ، فإن الحوادث والفن التى تحل بحزب الإصلاح فى كل زمان كفيلا بأن تميز الخبيث من الطيب ، والصادق من الكاذب .

[الخامس] من أخلاق المنافقين جبنهم وخورهم ، فلا تجد لهم شجاعة أدبية ، يتجلى ذلك الجبن الخالغ فى تخلفهم عن القتال ، وتلسمهم العاذر ، حتى لا يكونوا مع المؤمنين فى شدائهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا « ٧٧ » (١)) .

ومع كونهم جبناء لم يقف ضررهم عند حد أن منعوا أنفسهم عن القتال ، بل يعوقون غيرهم عنه ، ويخذلونهم عن قيامهم بلواجب ، ودفاعهم فى سبيل الحق والحقيقة (قد يعلم الله الموقنين منكم والقاتلين لآخائهم هم) إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا « ١٩ » أشجع عليكم فإذا جاء الخوف رأيتم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يشئى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشجع على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا « ٢٠ » (٢) . فانت ترى من هذه الآية كيف تملكهم الجبن ، واستولى عليهم الضعف ، فإذا جاء الخوف وطولوا بالقتال رأيتم وقد دارت أعينهم ، واضطربت أبصارهم ، ينظرون إليك نظر من حلت به غشية الموت ، فإذا ذهب الخوف وتوجه المسلمون للقتال وتركوهم سلقوا المؤمنين بالسنة حداد ، ذلك هو حالهم فى أنفسهم إذا جد الجد ، وطولوا بالاندماج مع المؤمنين فى حروبهم ، وهم فوق ذلك يعوقون المؤمنين ويشطونهم عن القتال ، ويقولون لآخائهم هم إلينا ودعوا اشتراككم مع للقاتلين ، يشحون بأنفسهم عن المساعدة ، ويبخلون عن القتال فى سبيل الله ، ثم علل الله ذلك الشح والتقيط بقوله (أولئك لم يؤمنوا) وما داموا غير مؤمنين فلا تسبق ذلك منهم .

[السادس] من أوصاف المنافقين أنهم لم يرضوا الله ورسوله حكما فيما يعرض لهم من خلاف ، فحكومتهم غير حكومة المؤمنين ، وصرجههم غير صرجههم ، فإن الله تعالى ربنا أن حكومة

المؤمنين عند النزاع هي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفيها يقول (فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » ٥٩ « (١)) .

أما هؤلاء فيتحاكون إلى غير كتاب الله المصوم ، وسنة رسوله الصحيحة ، يتحاكون إلى طواغيتهم وأوليائهم ، ويعلمونهم علل المصوم ، وإذا طالبتهم بالمحاكمة إلى الله ورسوله صدوا عنك صدوداً (أم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) .

وقد بين الله علل إعراضهم عن المحاكمة إليه في قوله (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) أي من مرض ونفاق ، وهو علل ذلك الاعراض ، وهو يرينا بذلك أن المؤمن الذي سلم قلبه من النك والنفاق لا يمكن أن يعرض عن حكومة المؤمنين

وما أشد هذه الآية على أنصار التقليد الذين يدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة ، ويعتقدون أنهم يدافعون عن دين الله . نعم ما أشدها على المقلدين الذين إذا طالبتهم بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ألقوا رموسهم ، وهزوا أكتافهم ، وقالوا لك : أين نحن من كتاب الله وسنة رسوله . ومن لنا بمن يهنا هذه الآيات وأولئك السفن كما فهمها أئمتنا وشيوخنا .

ولو عرفوا أن الاعراض عن حكومة المؤمنين شأن من شئون النافقين ، وأن هذه الحكومة قد نصها الله لتتوهم بين الناس بالقسط إلى قيام الساعة - لو عرفوا ذلك لفكروا في الأمر ، وتدبروا العاقبة ، ولكن من لنا بوصلهم بالقرآن وفتيهم لعانيه وأسراره . حتى يعرفوا أنه حجة عليهم فيما ادعوا . وشاهد عليهم عند الله ، وهم لا يقرءون القرآن إلا غافلين ، ولا يتلونه حتى تلاوته : اللهم اهد قومي فانهم ضالسون .

[السابع] من صفات المنافقين : اتصارهم بأعداء المؤمنين ، وموالاتهم إياهم ، وابتغاؤهم العزة منهم . ولو كانوا مؤمنين حقاً لعلموا أن أعداء الحق لا يملكون العزة لأنفسهم ، فكيف يملكونها لغيرهم ؟

نعم لو كانوا مؤمنين لعلموا أن مصدر العزة الحق وحزبه ، لا الباطل وجنده (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندما العزة فان العزة لله جميعاً) فاتخاذ الكافر ولياً وانصاراً فيما يعود على المؤمنين بالأذى هو شأن من شئون النافقين .

نعم يقسم القرآن الكريم عن أسباب ذلك الانخاذ ، أهو ابتغاء العزة عندما ؟ أم هو شئ آخر ؟ فان كل من اتخذهم لطلب العزة منهم فان العزة جميعاً لله وحده . فلاتال إلا من طريق طاعته ولا يحصل عليها الرجل إلا بوقوفه عند حدود الله وسنة .

وكما خطأهم القرآن في ابتغائهم العزة من أعداء الحق وأنصار الباطل - خطأهم في ادعائهم

العزة لأنفسهم ، والقلة للؤمنين (يقولون لأن رجنا إلى المدينة ليخرجنا الأعرنة منها الأذلّ وثمة العزة ورسوله وللؤمنين ولكن للنافقين لا يملكون » (١)) .

والعبرة في ذلك أن فريقا من مدّعون الإيمان في زماننا هذا يوالون الناصبين للبلاد ، ويصافونهم لا يستعينوا بهم على تثبيت حقّ أو إبطال باطل ، بل يوالونهم ليكونوا عظماء أعزّاء ، أصحاب مكانة ومنزلة ، ويفخر الرجل بأنه صديق فلان أو محسوبه ، وقد تجرّبه هذه الصداقة إلى أن يصور أتمته لذلك الناصب بصورة حقيرة متهمّة ، بل قد يصل به إخلاصه لذلك الصديق أن يصبح خربا على أتمته ، معوانا للناصب عليها ، وحظه من ذلك دراهم معدودة يصل إليها ، أو رتبة يحصل عليها وذلك عنده هو المرء الدائم ، والعظمة الخالصة ، ولو دوى أن ذلك المستعمر مخلص لأتمته ووطنه قبل أن يكون مخلصا له ، وأنه لا يسطيه شيئا إلا حيث أخذ منه الثمن أضماضا مضاعفة - لو عرف ذلك هذا المسكين لعم أن العزة في احترام نفسه ، وامتهان العظمة الكاذبة التي لم يكن مصدرها الخلق والكرامة ، وأن العزة لا تنال من عدوّ يترصّ به الفوائر ، ويفترس به الفرس ، وأن الخبر له في أن لا يصابى عدوّا له ولبلاده ، بل يصابى من ينصره على الحقّ ، ويتعاون معه على البرّ والخير .

ولو شئت أن تجعل موالة الناصب هي موالة المنافق للكافر المحارب لسهل عليك الأمر ، ووضع أمامك السبيل .

وأية ذلك أن أولئك الناصبين لبلاد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لا تطيب لهم الإقامة ببلاد المسلمين إلا حيث عطلت حدود الله في الأرض ، واتهكت الحرمات ، وأبيح منها ما كان حراما ، وحرم ما كان حلالا ، ولولا ذلك ملطابت لهم إقامة ، وما استطاعوا أن يعيشوا مع المسلمين .

وإلا فقل لي بريك أيّ بلد من بلاد المسلمين يحلّ بأجنبي تقطع فيه يد سارق ؟ أو يقتل فيه زان محصن ؟ أو تحترق فيه الخمر ؟ بل أيّ بلد من بلاد المسلمين لا يباح فيه الزنا العاني ؟ ويحلّ فيه التشريع الوضعي محلّ التشريع السماوي ، ويجد فيه الفاسق والمجرم مباءة سالحة للجرائم والفساد ، وعونه على كلّ اللوثات والمحرّمات ، ولو شئت أن تطلب بإقامة الحدود ، وتحريم الحرمات ، والرجوع إلى دين الله في التشريع لقامت لذلك الدنيا وقضت ، لامن الناصب وحده ، بل من الناصب وأذئاب الناصب ، وعرضت نفسك لحرب شعواء لا قبل لك بها .

وحظّ الناصب من ذلك معروف جليّ ، وهو شغل الناس بشهواتهم وأهوائهم ، وصرفهم عن العمل الجدى المفيد ، ولو أن الناس صلحوا في دينهم ، وتهنّبوا في أخلاقهم ، ما استطاع الناصب أن يعيش بينهم يوما واحدا ، ومن أجل ذلك يعمل وسعه على إفساد الأخلاق ، وفتريق الجمع وإضرار نار الحسد بين الأفراد والجماعات ، فهو يغزو للمسلمين بجيوش من الفاسد والمحرّمات فوق غزوه لهم بجيوش من الاحتلال ، وآلاف من المدمرات والمهلكات ، وهي جيوش محيية للنفس يتقدّم بها الناصب للآئمة التي يحتالها باسم المدينة والرقّ ، لأن قطع يد السارق وحشية لا تليق

في القرون العشرين ، ونحريم الزنا العلني لا يتفق والحرية التي كفلها القانون ، ونحريم السكرات .
جود وتأخر ، تلك هي سمومهم القتالة ، وآلاتهم الفتاكة ، التي بها يعيشون ، وعليها يعتمدون .
لو عرف الوالي لهم أنهم يعيشون على ذلك الحساب ، ويعتمدون على أولئك للماول الهدامة
للدين والخلق والفضيلة ، ان لم يكن من طريق مباشر فن طريق غير مباشر - لو عرف ذلك
المسلم لكان أن موالاته لهم هي شر مستطير على المسلمين ، وحراب فتاكة بأثمة وشعبه ، ويمكن
لهم في الأرض ، وتعاون على الاتم والعدوان .

قد يوالهم بعض الناس ليأخذ منهم لا يعطيهم ، وينفع بهم لا يضر ، ويستغل نفوذهم
لمصلح الناس - نعم قد يوالهم بعض الناس لذلك ، وقد تكون نيته صالحة في هذه الموالاة ،
ولكن الذين خبروهم وسبروا غورهم عرفوا أنهم لا يرجعون لصديقهم عهدا ، ولا يرقبون له أخوة
ففي الوقت الذي يحسون منه أنه خصم لاستعمارهم وسياستهم يقبلون له ظهر المجن ، ويضجون به
وبصداقته ، ومن ناحية أخرى لا يمكن أن يسلطوا صديقهم شيئا إلا حيث تقاضوه الثمن غالبا ، فهم
يسامون في كل شيء ، ويتجرون حتى على حساب الصداقات الشخصية ، فلا يسلطون إلا وقد
أخذوا ، ولا ينفعون إلا وقد أضروا ، ولو أن ضررهم وقف عند حد الوالي لهم لمكان الأمر ،
ولكنهم يضررونه في أمته ، يأخذون منه الثمن على حساب شعبه ، فانهت المسألة بمصلحة
شخص واضرار أمة ، وإلحاق من صفقة خاسرة . وتجارة بائرة ، ومن لم يعرف خبث الغاصبين
والستمرين فليسل من خبرهم ، ووقف على نواياهم ، وبعد ذلك يختار لنفسه ما يحلو .

[الزامن] من صفاتهم إكثارهم من الحلف ، فترام كثيرى الأيمان ، وكثيرى الكذب
والقرآن الكريم يحذتنا عنهم وعن أيمانهم فيقول (ويحلفون بالله إنهم لمنكم ومما منكم
ولكنهم قوم يفرقون ^(١)) وزاء يقول (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد
إسلامهم وهو ما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغنام الله ورسوله من فضله «٧٦» ^(٢)) وزاء يقول
(سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ^(٣)) ومأواه
جهنم جزاء بما كانوا يكسبون «٩٧» يحلفون لكم لترضوا عنهم فان رضوا عنهم فان الله لا يرضى
عن القوم العاصين «٩٨» ^(٤)) .

وسبب إكثارهم من الأيمان أنهم لا يتقون بأنفسهم ، ولا يعتقدون أنهم صادقون ، والشأن
فيمن فقد الثقة في نفسه أن يشعر بفقد ثقة الناس فيه ، فيجد نفسه في حاجة الى أيمان عله
يعوض شيئا من هذه الثقة ، أما الرجل الذي يصدق ، ويعتقد في نفسه أنه صادق فما أغناه عن
تأكيد أحاديثه بالأيمان ، وتقويتها بالحلف .

ولو أنك تأملت ذلك الخلق الرديء الذي يحليه الله عن المنافقين لتكشف لك عن خلقين
كاذبين في نفوسهم .

[أولهما] : الكذب . [وثانيهما] : محاولة تغطية الكذب ، والتلبس على الناس .

حتى لا يظنوا أنهم كاذبة ، ولو كانوا كاذبة غير مدلسين لمان الأمر ، ولكنهم كاذبة يريدون أن يروا الناس أنهم صادقون .

ولا ندري كيف يستطيع الكاذب أن يلبس على الناس ويربهم أنه صادق ، وأن الكاذب الذي يحسن من نفسه الكذب ، وضاعت عنه نفسه ، لا يستطيع أن يحمل الناس على تصديقه ، وإن اتخذ لنفسه ما اتخذ من فنون وأساليب ، وكما بالغ في ترم ما عنده من خلق كذا اقتضح أمره ، بهتك ستره ، فأولئك المنافقون الذين يكثر من الأيمان ليستروا ما انطوت عليه نفوسهم من نفاق ، يتقدمون إلى الناس يبرهان على كذبهم ، وإضاعة الثقة بهم ، ذلك البرهان هو إكثارهم من الحلف ، ولو أنهم كانوا صادقين أمام ضمايرهم ما احتاجوا إلى أولئك الأيمان ، وحسبنا أن الله تعالى يقول فيهم (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون) .

والمراد أنهم ما اتخذوا الأيمان تعظيلا لاسم الله ، وتقديسا له ، كما هو وضع الأيمان ، من قطع النزاع بين المتخاصمين بالرجوع إلى اسم الله العظيم ، بل إن هؤلاء اتخذوا الأيمان وقاية لهم من كشف حالهم ، وفضيحة أممهم ، فدنسوا اسم الله بذلك التصرف ، وامتنوه بوضعه في غير وضعه اللائق ، كما اتخذوا نطقهم بكلمة الشهادة جنة لهم من حرب المؤمنين بإيمانهم ، واتخذوا صورة الصلاة وقاية لهم من عذاب التاركين للصلاة في الدنيا ، وما كانت كلمة الشهادة لتقي صاحبها من العذاب في الدنيا ثم يحل به العذاب في الآخرة ، وكذلك الصلاة ، ما شرعها الله لتكون وقاية للناس من اللوم في الدنيا ، وإنما شرع الله ما شرع من كلمة الشهادة والصلاة وغيرها من أعمال الإنسان ليسعد بها الإنسان في الدنيا والآخرة ، ولكن المنافقين مرضت قلوبهم ففرض فيهم كل شيء ، وصرفوا الأشياء عن حقيقتها ، وحولوها إلى غير وجهها الصحيح

وجلة القول أن الشأن في النافق أن يكون كاذبا ، وأن يستر كذبه بالحلف ، وبقى نفسه من الفضيحة بالأيمان الباطلة ، لأنه يحسن بأنه كاذب ، ولولا إحساسه ذلك أمام نفسه ما احتاج إلى هذه الأيمان ، والشأن في المؤمن أن يكون صادقا .

ومن أجل ذلك لم يكن في حاجة إلى تأييد قوله باليمين ، وإذا حلف فائما يحلف لقطع النزاع معظما لله تعالى واسمه ، ومقدس له حتى التقديس . وقوله (فصدوا عن سبيل الله) أى إن المنافقين يمنعون الناس عن دين الله بذلك السيرة السيئة ، لأنهم معدودون من المؤمنين ومحسوبون عليهم ، فكل عمل يصدر عنهم من شأنه أن يشوه سمعة المسلمين ويؤذيهم ، ولذلك يقول الله بعد ذلك (إنهم ساء ما كانوا يعملون) فاللهم باعد بيننا وبينهم ، وطهرنا من أخلاقهم وأوزارهم .

[التاسع] من أخلاقهم : كذبهم وتهاونهم بالصدق ، وامتنانهم لأنفسهم وكرامتهم ، وجدير بقوم فقول الشجاعة الأدبية ، ولم يكن لهم منعب معين في الحياة أن يكونوا كاذبة ، لا يمتنون بحق ، ولا يحفلون بصدق ، وهذا الخلق وهو الكذب كالأصل للخلق السابع ، وهو إكثارهم من الحلف ، واتخاذهم الأيمان جنة ووقاية .

وقد كشف الله عن كذبهم في دعوى الاسلام ، فعرف نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن المنافقين إذا جاءوك وقالوا لك نشهد انك رسول الله فلا تصدقهم ، لأنهم لم يقولوا ذلك عن يقين

واقترع ، كما هو الشأن في الشهادة ، وإنما يقولون ذلك تقية منك ومن أصحابك ، وإن الله تعالى يشهد بكذبهم ، ومن شهد الله بكذبه لأحد يصدقه (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) .

ولم يكن كذب المنافقين قاصرا على المؤمنين أعدائهم في الدين والعقيدة ، بل هو خلق متاصل فيهم لأنه أثر من آثار مرض القلب ، ولذلك تراهم يكذبون حتى على الكافرين الذين يقولون لهم إذا خلوا إليهم إنا معكم ومن أنصاركم .

ألا ترى إلى قول الله تعالى وهو يحكي عن المنافقين يعرضهم الكافرين على قتال المؤمنين (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معهم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتكم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون « ١١ ») لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون « ١٢ » لأنهم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون « ١٣ » (١) .

فأنت ترى أنهم كذبة حتى مع حزبهم ، وجنائه حتى مع أنصارهم ، ومن صار الكذب خلقا له يكذب مع نفسه ، فكيف يصدق مع غيره ؟ وتأمل قول الله تعالى حكاية عنهم (لئن أخرجتم لنخرجن معهم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، كيف يؤكدون الوعد ، ويوثقون القول ، وكيف يفعأهم الله بقوله (والله يشهد إنهم لكاذبون) ثم يقول (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم) لأنهم كذبة (ولئن قوتوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار) فلا يثبتون على القتال ، لأنهم لا يقاتلون بقاومهم وعقائدهم ، بل بأجسامهم ، ثم قال الله (ثم لا ينصرون) أي أنه كتب عليهم الخذلان في النهاية .

[العاشر] من أخلاقهم : نقضهم العهد ، وإخلافهم الوعد ، وهو من فروع الكذب ، غير أنه نوع خاص منه يتعلق بالعهود واللوائق ، وهو من أضرب أنواع الكذب ، وأفكها بمصالح الناس ، ولذلك لا يتفق والإيمان في شيء ، وقد جعل الله من أخلاق المؤمنين أنهم يراعون العهود واللوائق ، كما جعل من صفات المنافقين نقضهم لها .

ومن عجيب أمر ذلك الخلق أنه علامة من علامات النفاق ، وهو في الوقت نفسه يزيده في النفس ويثبته ، فهو أثر من آثاره ، وسبب من أسبابه .

ألا ترى إلى قول الله تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) فتراهم يصد هذه الطائفة التي عاهدت ربها ثم أخلفت من المنافقين ، ثم يقول (فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه) ثم يسل ذلك بقوله (بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) فالكذب والاختلاف أثر من آثار النفاق ، وكلما دأب عليه صاحبه تمكن فثاقه من النفس واستحكم .

وما أقرب ذلك الخلق خلق الكذب والاختلاف الى رجال السياسة ودعاة الاستعمار ، قترام يملون ويخلفون ، وياهدون ويضرون ، وقد تمت لهم العشرات من الوعود ثم لا تكاد ترى لهم شيئا من الوفاء ، لأن الرجوع عندهم مصلحةهم الدائمة ، وأغراضهم الاستعمارية ، ولا سيما مع الشعوب الضعيفة التي لا تستطيع أن تحاسبهم على ذلك الغدر حساب الله للذات ، والنظر للغير ، فتجد المعاهدات عندهم قصاصات من الورق ، تلصق بها القوة ، وترام ان صدقوا معك في أجل العهد كذبوا في فهمه وتطبيقه ، قترام يفسرونه كما شاءت لهم القوة وحسن لهم الاستعمار ، ويندم في ذلك التأويل الذي يمسح العهد مسحا ما عندهم من قوة ، وما عليه معاهدتهم من ضعف وما أحوج الأمم الى خلق يحفظ الضعيف من القوى ، ودين يضع حدا لأولئك الغلاة الذين لا هم لهم سوى ملء بطونهم ، وإشباع شهواتهم ، حتى يعيش الناس آمنين مطمئنين .

ولو أن أولئك الناضحين للعهود ، الناكثين للإيمان ، عرفوا أنهم يخشرون بكذبهم فوق ما يكذبون ، ويضعون على أنفسهم من قلة الشعوب بهم أكثر مما يرجحون - لو أنهم علموا ذلك لأثروا الصدق على الكذب ، والوفاء على الغدر ، وبنوا سياستهم على الخزم والعزم ، والعمل والعمل ، وهناك يكون لهم شأن غير ذلك الشأن ، وهناك يستريحون ويرجعون ، وهل احتاج المسلمون في سياستهم الناس في الصدر الأول الى الكذب والخداع ؟ أم لجأوا الى ما يلجأ إليه المستعمرون من قنص وخيانة ، حتى استطاعوا أن يفشروا راية الاسلام على نصف المعمورة في نصف قرن ؟ لم يحتاجوا الى شيء من ذلك ، بل رأوا أنفسهم في حاجة الى العدل والصدق والوفاء حتى أصبحوا مضرب الأمثال عند خصومهم من رجال الغرب ، وشهدوا أن الأرض مارأت فاحما كالاسلام في عدله ورحمته ، ومارأت منصفين كسلطاننا الصالح أيام قوتهم وحكمهم .

[الحادى عشر] من أخلاقهم أن بعضهم من بعض ، والمراد أنهم متشابهون في الباطل كما قال في آية أخرى (ذرية بعضها من بعض) وقال في المؤمنين (بعضهم أولياء بعض) فترى أن الله جعل من صفات المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضا ، أما المنافقون فقد فقدوا تلك الصلة القلبية التي بها يتناصرون ، فهم متباغضون متخاذلون (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ١٤٤) (١) .

وجدير بمن كان مهمهم مصالحهم الدائمة أن يكونوا على ذلك الحال من التفرق والتخاذل ، نعم من كان همه في هذه الحياة أن يعيش مع كل الأحزاب ، وأن ينضم من كل الظروف أن لا يتصل قلبه بقلب غيره على أساس الدين والخلق ، بل يكون قلبه دائما مع شهواته ، ومانهوا نفسه ، أما المؤمنين فقد وجد الدين بينهم ، وجعلهم حزب الله ، يهتمون لما يهتم به ، ويتألمون لما يفضبه ، فإذا انتهكت حرمة من حرمت الدين وأبنتهم غلاظا شدادا على من يقع منه ذلك العمل ، فلابدين والعقيدة الفضل الأول في ترابط المسلمين وتأزرهم ، وأخذ بعضهم بساعد بعض .

وقد وصف الله المنافقين بقوله (يأمرون بالنكر وينهون عن المعروف ويقضون أيديهم) كما وصف المؤمنين بضد ما عليه المنافقون فقال (يأمنون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله) .

أما ان المؤمنين من أخلاقهم ما وصفهم الله به فظاهر ، واما ان المنافقين يأمرؤن بالمنكر وينهون عن المعروف فلائهم يأمرؤن بتخذيل المؤمنين وهو منكر ، وينهون عن معاونتهم وهو معروف ، وقد سبق لك أنهم يعزقون عن القتال مع المؤمنين ، ويقولون لآخوانهم هلم إلينا ، وإنهم أشجة على الخير .

وقد حكى الله عنهم أنهم يقولون لآخوانهم من أغنياء المدينة (لاتتفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) وهو طريق لاذلال المؤمنين ، يحاولون به أن يصرفوم عن دين الله .
وقد رد الله عليهم بقوله (ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) أى لا يفقهون أن بيد الله خزائن السموات والأرض ، وهو الذى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، ومن أراد الله غناه لا يستطيع أحد إذلاله بحال .

ولقد ذكرت هذه الآية عند ما حاول بعض الحكام الظالمين الحيولة بين مال العولة القدى أعد لتفيس كربات المأذومين وبين رجال لا يوافقونه في لونه السياسى ، ويعطيه بسخاء لمن يعاونونه على ظلمه ، ويؤازرونه في سياسته ، عند ذلك قلت صدق الله وصدق كتابه الكريم ، الذى لا يزال جديدا نفسره الحوادث ، فأولئك المنافقون في صدر الاسلام كانوا يوصون أغنياء المدينة حتى لا يساعدوا المهاجرين الفقراء ، الى أن ينفضوا من حول محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك الوزير الظالم جاء ليوصى بحرمان خصومه في السياسة من سراقى العولة ، حتى ينفضوا من حزمهم الذى يفتنون إليه ، وما علم أن لله خزائن السموات والأرض واسكن الحكام الظالمين لآعقلان شيئا من ذلك ، وأى فرق بين منافق زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وبين منافق زماننا وظالميه ، طلاب المادّة ، وأعداء الحق والحقيقة ، وللعثنين على الحرمات ، وللصبيحين اكل الجرائم صدق الله وصدق كتابه .

(المنافقون والنافقات بعضهم من بعض) وان تراخى الزمان وبعدت المسافة ، وإذا شئت أن ترى فريقا من الناس يشبه أولئك المنافقين في أمرهم بالمنكر ، ونهيهم عن المعروف ، فإن ذلك يسير عليك ، غير أن ذلك للسكر الذى يأمرؤن به لآيخضون الناس عليه من جهة أنه منكر ، وكذلك المعروف الذى ينهون الناس عنه ، لا ينفرونهم منه بصفة أنه معروف ، ولو فعلوا ذلك ماسمع لهم أحد ، وما تنجحوا في مهمتهم ، فلا غنى لهم عن تحسين المنكر للناس حتى يصير عندهم في لون المعروف ، وتشويه المعروف حتى يصير كالمنكر ، وبذلك يستطيعون أن يصلوا لغايتهم ، ويحصلوا على غرضهم .

ألا ترى الى شبانا اليوم يحسنون الجزر للناس ، ويقولون لهم إنها تفيد الصحة ، وتحدث عند شاربها تفريحا ونشوة ، وتباعد بينه وبين الأحران ، وهى شراب على القوم وأحباب المكاة من الأمة ، ويحملون آخوانهم بمختلف الأساليب على غشيان أماكن الشرب ، وبيوت القمار والزنا ، باسم أن ذلك مدنية ورقّة ، وللقصد منهم في ذلك التملك يقول لصاحبه نشرب وتبوب الى الله تعالى بعد وإذا شابا يذهب الى مسجد من المساجد أو ناد من أندية الوعظ والارشاد . فبطوره عن ذلك العمل ، وحالوا بينه وبينه ، مرة من ناحية أن هذه أعمال [رجعية] لاتليق

بالمقتنين ، وصمة من جهة أنه يجهد نفسه ويكلف نفسه أعمالا شاقة وهو شاب في مقتبل حياته ، والأولى بمثل هذه الأعمال الشيوخ دون الشبان ، كالذي ينهى صاحبه عن بذل المال في عمل من أعمال البر ويحبه في البخل من جهة أنه حرص على مصلحته ، ويهيم أنه يكون من أغنياء الناس لامن فقرائهم ، فهو يدعو إلى البخل باسم الاقتصاد ، ويحثه على التقدير باسم المصلحة ، ويدهم بالفقر إذا هو استمر على ذلك الحال .

وقد وصف الله الشيطان بأنه يمد الناس الدقر إذا هم بذلوا أموالهم في سبيل الخير ، ويأمرهم بالفحشاء من طريق تتبع النفس وإطاعتها في عفو الله وغفرانه ، فهو يهون على الناس الفاحشة وينفرهم من الصدقة ، فهم شياطين في ذلك العمل ، وخشاء بذلك الأسلوب ، وما أكثرهم في كل زمان ، فأولئك هم المنافقون وأولئك أعمالهم السيئة وآثارهم الخبيثة ، وهذه ذرائعهم وذريتهم نسأل الله السلامة منهم ومن شرورهم .

[الثاني عشر] من أخلاقهم لينهم في القول ، ودهانهم في الحديث ، وهو ما يشير له القرآن الكريم في قوله (ولتعرفنهم في لحن القول) فترى لهم لحنًا خاصًا ، وأسلوبًا يمتازون به عن سواهم ، ذلك اللحن هو ما تلحظه عليهم من الضعف عند ما يطلب إلى الرجل منهم أن يقول حقا ، أو يشهد على حادث ، فترام مضطرين ، لا يستطيع الواحد منهم أن يواجه الحقائق ، ويشهد بما يعتقد ، وإنما يتذبذب ويضطرب ، فلا تدري أهو معك أم عليك ، ولا تعرف في أي ناحية هو ، وفي أي صفة يريد أن يكون .

ولاجئ ، فإن ضعف العقيدة ومرض القلب جعلهم على ذلك الحال ، ولا تنتظر من قلب ضعيف أن يصدر منه كلام فيه قوة ، لأن الضعيف لا يلد إلا لضعيفا ، ولو صحت قلوبهم لصحت ألسنتهم . أما المؤمن فقد اختار له خطة يسير عليها ، وأخذ على نفسه أن ينصر الحق ، ولا يخشى إلا الله ، فتجد فيه شجاعة أدبية تضطره إلى أن يجاهر بالحق وإن تألم له الناس ، لأن غاية إرضاء الله ، فلا يهيمه أغضب الخلق أم رضى ، ومن كان همه إرضاء الله هان عليه كل شيء في ذلك السبيل ، وكثيرا ما يضحى للمؤمن في سبيل قول الحق ، وشهادة الحق ، وقوله للخطيئ أنت خطيئ ، وللعيب أنت مصيب .

أما المنافق فلأنه يعنى كثيرا : ضاء الناس ، ويحاول أن لا يكون له عدو ، تراه يداجي و يراب ، ويخادع ويخال ، ومن أجل ذلك كان حديثه مختا ، ليس فيه شيء من القوة ، ولا شبيه من الوضوح ، وما أكثر ذلك الخلق في كثير من ينقسمون للإسلام ، بل وفي كثير من علمائهم وخاصتهم ، تجدهم لا يجربون على قول الحق والصدق به ، إما استبقاء على مركزهم أمام العامة ، أو حرصا على مكانتهم لدى الجاهل ، وإما مواربة لأمير أوحاكم ، وقد يكون للاثير أو الحاكم شهوات فيفسخ بعض العلماء ليؤيده فيما يريد ، ويعاونه فيما يشتهي ، فيجد منه الخادم للطمع ، وأقل ما يجدهم الحاكم الظالم من علمائنا اليوم أن يكون موقفهم منه سلبيا إن لم يكن إيجابيا فيما يشبه من باطل : ويحرص عليه من ظلم ، ولو أنهم علموا أن الله كافهم قول الحق ولو على أنفسهم ، وطالبهم أن يصدعوا به في وجه الحاكمين والمحكومين ، وطالبهم أن يعاونوا على

غاربة الظلم والظالمين - لوعلموا ذلك ، وعلموا أن الله تعالى محاسبهم على هذه المواقف المريبة مارضوا لأنفسهم أن يكونوا قدوة سيئة ، وأسوة غير سالحة ، ولو أنك أخذت تلومهم على ذلك العمل لسمعت فتاوى طويلة عريضة ، ومعاذير واسعة ، وكثيرا ماتسمع منهم « داورم مادمت في داورم » وأمثال هذه الكلمة كقول الشاعر :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بنفسم

ناسين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » . رواه النسائي ، وقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين « ١٣٦ » (١) .

وإذا كان علماء الأمة ذلك موقفهم من قول الحق وتهادة الحق فإذا يصنع العامة ، اللهم ارزقنا شجاعة على عمل الحق وقول الحق ، وبعده يتنا وبين الضعف ، واجمل هنا رضاك ، وغايقتا الوصول إليك ، وصبر أمانا كل شيء في ذلك السبيل ، ولافتنا بزخارف هذه الحياة ، وبعده يتنا وبين الفاق كما باعدت بين للشرق والغرب .

[الثالث عشر] ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله (وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

والظاهرة العامة لأولئك الصفات أنهم قوم يهتمون بظاهرهم ، فيصلحونه أمام الناس ، ولا يحفلون بقلبيهم وباطنيهم ، فإذا رأيتم تعجبك أجسامهم ، لاهتمامهم بها ، وعنايتهم بإصلاحها ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، لأنهم يلبنون القول ولا يلاحظون فيه ، ويهمهم أن يكونوا فصحاء باقلاء ، ثم أراد الله أن يرينا أن ذلك الإصلاح الظاهر هو غايتهم التي يرمون إليها ، فقال (كأنهم خشب مسندة) فتشبههم بالخشب المسندة الى الحائط ، وليس من شأن الخشب أن تسند ، بل الشأن فيها أن توضع للأعروش ، فتقام عليها البيوت واللباني ، ولكن هؤلاء مثلهم في أنهم أشباح قد خلت من العلم والنظر ، وعطلت من وظيفتها في هذه الحياة مثل الخشب التي عطلت عن عملها ، وأسندت الى الحائط ، أو يريد الله أن يشبههم بالخشب التي تنخر جوفها ، وتظهرها سليم أمام الناس فهم كهذه الخشب في حسن المنظر ، وقبح الخبر ، لأنهم لأقارب لهم ولا عقائد ، بل هم مذبذبون مضطربون ، لأن من لاعتقيدة له لاتفق فيه ولا غناء .

وقد وصفهم الله بقوله (يحسبون كل صيحة عليهم) ليؤكد لنا الناية من التشبيه بالخشب للسندة ، ويرينا أنهم جناء ضعاف القلوب ، ومن أجل ذلك يظنون أن كل صيحة تقع هي عليهم وحدهم ، ومن كان كذلك لا يستقر له حال ، ولا ينتظم له شأن ، وإنما حسبوا كل صيحة عليهم لأنهم يتوهمون عند كل حدث من الأحداث أن سياستهم قد كشفت ، وخداعهم قد فضح ، والرجل الذي يعيش مع الناس عيشة للواربة ، ويعاملهم معاملة المخادع ، لا يأمن أن يكشف ستره ويفضح أمره ، فهو دائما مضطرب ، ودائما يتوقع الحزى والنكال .

وحسبنا أن الله تعالى يقول فيهم (هم العدو) فيحصر العداوة فيهم ، وكأنَّ الكافرين في جانبهم ليسوا شيئاً يذكر ، لأن الكافر قد ظهر بـداوته للؤمن ، فيستطيع أن يأخذ منه حفره ، أما المنافق فهو السم في صورة المصل ، والعدو في ثوب الصديق ، والتخاذل في شكل الناصر ، ولو لم يكن من وصف الله لهم سوى هذه الجملة لكفت في التنفير منهم ، والحض على كراهتهم ، وكما كان للمنافق في دين الله عدواً للحق وأنصار الحق ، هو عدو للإصلاح في كل شأن من بشئون الحياة ، هو عدو الإصلاح في السياسة ، وعدو الإصلاح في الاقتصاد ، وعدو الإصلاح في العلم ، وعدو الإصلاح في الصناعة ، وعلى الناس أن تحذره وتتق شره ، ومن يقتبغ تاريخ الإصلاح السياسي في كل أمة من الأمم يجد فيها المؤمنين والكافرين والمنافقين ، ويجد أن المنافقين هم أضرَّ عليها من أعدائها الكافرين .

ومن أجل ذلك أطال القرآن في صفاتهم ، وأكثر من ذكر فضائحهم ، ليحذرننا من التخلق بخلقهم ، ويباعد بيننا وبين الانسحاب إليهم ، ولم يكنف القرآن الكريم بذلك القدر من التحذير بل قال (فانلهم الله) وهو دعاء عليهم بالمهلك بعد أن حذرنا منهم ، وعزفتنا عنهم هم عدو الأمة الدود ، وداؤها الضال ، وهم طريق نكبتها ، وسبب استعباد العدو لها ، وشقاها في هذه الحياة .



﴿ أشهر الغزوات ﴾

غزوة بدر ^(١) الكبرى

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَفَانَةِ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ «١٣» آل عمران

وَإِذْ يَمِذُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ^(٢) أَنَّهُمَا لَكُمْ وَتَدُونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّرَكَّةَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ «٧» لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ «٨» إِذْ تَسْتَفِيضُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ^(٣) «٩» وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «١٠» إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغُصْنُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ ^(٤) الشَّيْطَانِ وَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ «١١» إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ

[١] محلّ بين مكة والمدينة ، وهو الى المدينة أقرب في الجنوب الشرقى منها على الطريق السطحي ، وكان به سوق تعدد كل سنة ثمانية أيام ، وكانت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة في رمضان .
[٢] العير ، وهي الإبل تحمل الطعام والقمح القوم ، الفوكة : القوة . [٣] تابعين .
[٤] وسوسته ، يربط : على قلوبكم : يثبتها .

فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَاقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا مَوْقِيَ الْاَغْثَاقِ
وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا (١١) اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَمُ فَدُوقُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ (١٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفَا (١٥) فَلَا
تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ ذُرَّةً إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ (١٦) أَوْ
مُخَيَّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ (١٧) فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ (١٨) إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ
وَالْيَسِيلُ (١٩) الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ مَبِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ
مُوهِنٌ (١٨) كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَ كُفُّ الْفَتْحِ وَإِنْ تَنْتَهُوا
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ
وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) الْأَعْمَالُ

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ (١) يَوْمَ اتَّخَذَ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ
بِالْعُدُوِّ (٢) الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ
لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ
يَتَنَّهُ وَيُخَيَّرَ مَنْ حَيَّ عَنْ يَتَنَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ

[١] مادوحا . [٢] زاحين لقاتكم . [٣] لانفروا منهذين . [٤] لمصلحة قتال .

[٥] جماعة من المؤمنين . [٦] ما سددت رمية ، ولكن لله هو الذي سددته وجبهه
يصيب مقاتل القوم . [٧] يختبر . [٨] مضرب .

[٩] الفرق بين الحق والباطل . [١٠] جانب الوادي الأقرب إلى المدينة ، والقصى : البعيد ،
الركب : البر في مكان أسفل منكم وهو ساحل البحر .

فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَايَكُمْ كَثِيرًا لَفَسَلْتُمْ وَاتَّخَذْتُمْ فِي الْأَنْزِلِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٤٣» وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ «٤٤» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلُظْ وَادْعُ إِلَى تَقْوَى اللَّهِ وَآذِكُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «٤٥» وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَازَعُوا فَعَشَلُوا وَتَذَهَبَ رَيْحُكُمْ «٤٦» وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ «٤٧» وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا «٤٨» وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَمْشُلُونَ مُحِيطٌ «٤٩» وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ «٥٠» لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ «٥١» إِذْ يَقُولُ الْمُبَغِّضُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَبَنُوا دِيَارَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٥٢» الْأَهَال

تمليق وعبرة

(١) يرينا الله في آية آل عمران (قد كان لكم آية في فتنة النقا) الخ الآية أن لنا عبرة عظيمة في جماعتين القتال للقتال : إحداهما فئة تقايل في سبيل الله لأدى شرعه ، وهو إعلاء التوحيد وإحقاق الحق ، وفئة أخرى كافرة تقايل في سبيل الطاغوت والباطل ، قيل : هو إشارة إلى قتال المؤمنين للشركيين في غزوة بدر ، وما حصل فيها من النصر المؤزر للمؤمنين على قهتهم ، كما قال في سورة آل عمران (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) .

والعبرة في هذه الواقعة التي ترشدنا إليها الآية الكريمة هي قوله (يرونها مثلهم رأى العين) أى أن المؤمنين يرون الكافرين مثلين لهم مع أن الكافرين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين ، ونظيره قول الله تعالى في سورة الأنفال (إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراهم كثيرا لفتنتهم ولتتنازعتم

[١] قوتكم ، وصحابكم ، لأن الرمح أكبر قوة . [٢] غرأ واستعلاء ، رثاء الناس : بقصد الرياء . [٣] مجير .

في الأمر ولكن الله سلم إنه علم بذات الصدور « ٤٣ » وإذ يريدكم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقلاكم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور « ٤٤ » .

يشرح الله لنا هذه الآيات الحكمة من إرادة الله لهم قليلا في أعينهم ، وإرادة الرسول لهم في منامه قلائل ، تلك الحكمة أنهم يتشجعون على اللقاء ولا يجبنون ، كما كان من تشجيع الكفار على قتال المؤمنين أن قلل المؤمنين في أعينهم كما هو الواقع ، ليدخلوا معهم في حرب ، فيكون من أمر خذلانهم ما يكتب الله به أعداء الحق ، وينصر به المؤمنين ، وهو ما أشار إليه بقوله (ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) .

أما قوله تعالى (والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لبرة لأولي الأبصار) فهو يريدك أن ذلك ليس بمعجب أن تكون هذه الآية في الفتيين اللقاتين ، يؤيد من تقاتل في سبيله ، ويخذل من تقاتل في سبيل الشيطان ، لأنه يؤيد بنصره من يشاء تأييده ، وهو ما قضت الحكمة تأييده لتحميه مع السنن ، ودفاعه عن الحق والحقيقة ، واعتصامه بالصبر والثبات .

وفريق ذلك حاله جدير بأن يؤيده الله بشتى الوسائل ، فيقلل عدوه في نظره ، ويربط على قلبه ، ويذهب من نفسه وساوس الشيطان ، وتكون له العاقبة ، وهو يريدنا بذلك أن ذلك هو الشأن في كل حرب تكون بين حزين ، يؤيد الله فيها حزب الحق ، ويخذل فيها جند الباطل ، ولذلك ختم الآية بقوله (إن في ذلك لبرة لأولي الأبصار) .

(٢) (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) الخ الآية : أى واذكروا وعد الله لكم أن تحصوا على إحدى الطائفتين ، العبر أو النضير ، وتودون أن الطائفة التي لم تكن لها شوكة وقوة تكون لكم وهي العبر ، لأن فيها غنائم وليس فيها إلا فوارس قليلة ، وهو عرض بكواهتهم للقتال ، وطمعهم في اللال .

يقول الزحشرى : يعنى انكم تريدون الفائدة العاجلة ، وسفاسف الأمور ، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم ، والله عز وجل يريد محالى الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، والفوز في المارين ، وشتان ما بين الرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزكم وأذلهم .

وقوله (إذ تستغيثون ربكم) الخ بدل من قوله (وإذ يعدكم الله) أى هو يعدكم إحدى الطائفتين في الوقت الذى يطلبون فيه الثوث من ربكم ، وللواد بالوقت هنا : الزمن للفتح الذى وقعت فيه هذه الحوادث ، وهو الزمن الذى كانت فيه غزوة بدر ، وليس المراد أن اللحظة التى وقع فيها وعد الله لهم ، هي تلك اللحظة التى طلبوا فيها الثوث من الله تعالى ، يذكركم بذلك استنصارهم بالله تعالى في وقت قتلهم وكثرة عدوهم ، ووعد الله لهم بالنصر والامداد بألف من الثلاثة .

ثم بين الغاية من ذلك الوعد فقال (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) ففسكن بعد الزلزال والخوف ، فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر .

ثم أرانا الله في آية أخرى أنه سيلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، وبذلك تعرف مقدار نصر

الله المؤمنين ، وخذلانه للكافرين ، يثبت الله للمؤمنين ، ويشرم بأنه معينهم وانصرهم ، وعدمه بالملائكة ، ولا شك أن تثبيت القلوب في وقت الزلزال نعمة كبرى ، يكرم الله بها أنصاره المؤمنين ، وإلقاء الرعب في قلوب الكفار نعمة يخذل الله بها الكافرين .

وقوله (وما النصر إلا من عند الله) يرينا أنه تعالى الفاعل للنصر مهما تكن أسبابه للمادية والمعنوية ، إذ هو المسخر لها ، وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتحضير الملائكة تحالط المؤمنين فقتلهم وأرواحهم منها الثابت والاطمئنان ، ثم علل ذلك بقوله (إن الله عزيز حكيم) ومن كان غالباً على أمره ، ولا يضع شيئاً في غير موضعه لا يكون النصر إلا منه .

(٣) (إذ يشكك الناس أمانة منه) الخ الآية بيان لثمة أخرى على المؤمنين هي إلقاءه تعالى الناس عليهم ، حتى غشيم وغلب عليهم فكان كالناشية تستر الشيء ، تأمينا لهم من الخوف الذي كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم وبين عدوهم في العدد والعدد وغير ذلك .

ثم أشار إلى ثمة ثالثة هي قوله (و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) أى من الأحداث التي تعرض لكم والأرباس (ويذهب عنكم رجز الشيطان) وسوسته كأن يقول لهم : أتزعمون أن فيكم نبيا وتصلون عهدين مجبين ؟ (وليربط على قلوبكم) يثبتها بما تعبدون في ذلك الماء من نفع (ويثبت به الأقدام) حتى لا تسوخ في الأرض وقد يقاتل الرجل منكم راجلاً لاراكبا ، وبذلك يكون قويا ثابت القدم (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فتبتوا الذين آمنوا) متعلق بقوله (ويثبت به الأقدام) .

والمنى أنه تعالى يثبتها في الوقت الذي يوحى فيه إلى الملائكة أسماء لهم أن يثبتوا به الأنفس بعبادتهم لها ، واتصالهم بها ، والمعية في قوله (أنى معكم) معية إعانة كقوله (إن الله مع الصابرين) وإذا كان الله هو الموحى للملائكة بأنه معهم ومعينهم ، وهو الذي أمرهم بتثبيت المؤمنين ، فهو يرينا بذلك مقدار نعمته على المؤمنين وضله عليهم ، ولم يكن ذلك الفضل تكريماً لأشخاصهم ، بل لأنهم يقاتلون في سبيل الله ، ولأن أعداءهم يقاتلون في سبيل الطاغوت ، ومن أجل ذلك نصر المؤمنين ، وخذل الكافرين .

(٤) (سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب) هو وعد من الله تعالى أن يخيف الكفار من المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوبهم حتى لا يقووا على محاربة المؤمنين بعد أن أصاب الملائكة بتثبيت المؤمنين ، وقد علل ذلك في سورة آل عمران إذ يقول (سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً « ١٥٢ ») فهي عقوبة للكافرين على شركهم وإهمالهم لعقولهم ومواجههم ، والمراد أن أولئك لا يحاربون عن عقيدة ، ولا يصرون عن قلوب ، ومن كان كذلك كان ضعيف القلب ، مضطرب البال ، فإذا ألقي الله الرعب في قلبه ، وهزم أمام خصمه كان ذلك متمشياً مع السنن الإلهية العادلة ، وجارياً على مقتضى الحكمة .

وقد أرانا الله تعالى أن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله ، والكافرين يقاتلون في سبيل الباطل وشتان بين من يقاتل في سبيل الله ، ومن يقاتل في سبيل الهوى والشهوة ، وأرانا الله أن من يقاتل في سبيل الباطل لا يعمل له حساب ، ولا يقام له وزن (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله

والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » ٧٦ (١) .

وقوله (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) إرشاد من الله لمقاتل القوم ووسائل تعجزهم ، ثم علل ذلك بقوله (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) وكأن الله يرينا السبب في إهدارهم لحياتهم ، وتسليط المؤمنين عليهم ، وكذلك يرينا السبب في إلقاء الرعب في قلوبهم ، وتقويت المؤمنين خصوصهم ، ذلك السبب أنهم عادوا الله ورسوله والله لا يريد لهم إلا الخير ، ولا يشرع لهم إلا ما فيه حياتهم وسعادتهم ، فهم حق بذلك العداء ، وسفهاء جاهلون بهذه المشاقة .

وجدير بمن وقف من ربه ذلك الموقف أن يعذبه في الدنيا بمثل ذلك العذاب ، ويعذبه في الآخرة عذابا أخزى منه وأشق ، جدير بطائفة يأتيها الرسول ، ويقيم لها الأدلة والبراهين على صدقه ، فقبالة لهمزه والسخرية ، ونقول (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ٧٣ (٢) .

جدير بطائفة هذا حالها أن يذلها الله على أيدي نفر قليل من المؤمنين الذين أذاقوهم الأمرين وعذبوهم بالولان من العذاب واضطروهم إلى الهجرة فرارا بدنيهم وعقيدتهم (وزيد أن نحق على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » ٥ (٣) .

(٥) (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار) .

إرشاد من الله تعالى لعباده المؤمنين أن لا يفروا إذا زحف عليهم الكفار ، لأنه مرة وجبن لا يليق بمؤمن ، بل لا يليق برجل يحترم نفسه ورجولته ، ويتوعد الله المؤمنين إذا هم فروا من وجه العدو أن يرجعوا من عملهم هذا بنضب عظيم من الله ، وأن تكون عقابهم جهنم ، ومصيرهم شر مصير .

(فلم يقتلوه ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) تذكير آخر بفضل الله تعالى على المؤمنين في هذه الواقعة ، يريهم أنهم ما قتلوا الكفار بعدد رميهم ولا بعدد رميهم ، لأنهم كانوا في قلة ، ولكن الذي سخر لهم أسباب القتل الذي نصرهم به هو الله تعالى ، فثبت قلوب المؤمنين وألقي الرعب في نفوس الكافرين ، وغشاهم النعاس ، ليبدل خوفهم الذي كانوا فيه أسنا ، وأنزل عليهم من ماء السماء ما طهر به أبدانهم وأحداثهم ، وأذهب عنهم وساوس الشيطان ، كل ذلك ليحقق الحق ويبطل الباطل ، وليبقى التوحيد في الأرض عزيزا متبعا هو وأصحابه .

(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبض كفا من الحصى ورمى به في وجه قريش ، وقال «شاهت أوجوه» فلم يبق مشرك إلا شغل بيديه عن القتال ، وانهمزموا ، فيكون المعنى (وما رميت) ذلك الرمي للشد الذي أصاب أعين القوم (إذ رميت) كفا من الحصى ، ولكن الله هو الذي سدد رميك ، حتى كان من أثره تعجز القوم واشتغالهم بأعينهم عن القتال ، وقيل ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصى ، ولكن الله رمى ،

ويصح أن يراد من الرمي القتال الذي وقع منه ومن أصحابه في ذلك اليوم ، والمراد ما تقدمت في ذلك اليوم حينما قاتلت القوم ، ولكن الله هو الذي جعل عملك وعمل أصحابك مسددا منكلا بصناديد قريش . وأضاف الرمي الى الرسول مع أنه كان منه ومن أصحابه لأنه قائم الأعظم ، وقادتهم في الحرب والسلام ، ومهما يكن من شيء فهو من الله عليه وعلى أصحابه في ذلك النصر الذي أحرزوه ، والنعيم الذي حصلوا عليه .

(وليلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أى ان الله تعالى فعل ما ذكر لاقامة حجته ، وتأيد رسوله ، وليلى المؤمنين منه بلاء حسنا بالنصر والقيمة وحسن السمعة . والبلاء : الاختبار بالحسن والسيئ (ونبأكم بالشر والخير فتنة «٣٦») (ان الله سميع) لما كان من استغاثه المؤمنين مع رسولهم لرهبهم (عليهم) بصدقهم وخلصهم .

(ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) أى ذلكم هو الذي سمعتموه ، ويضاف إليه شيء آخر ، هو أن الله مضعف كيد الكافرين ، ومكروهم بالبيئ ، ومحاولتهم القضاء على دعوته .

(٦) (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنهوا فهو خير لكم وان تمودوا نعد) قبل : إن الكافرين أعداء محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه استقصروا الله ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفتيين ، وخير القبيلتين ، فهكم الله بهم ، وقال لهم إن تطلبوا الفتح والصبر فقد جاءكم الفتح بذلك الخذلان الذي رأيتم ، وهو تهكم لاذع ، وكأنه يقول : لقد طلبتم من الله أن ينصر أعلى الجندين ، وأكرم الفتيين ، وخير القبيلتين ، وقد فعل ، فنصر محمدا وأصحابه ، وهم الأعلون ، والأكرمون والخيرون .

(وإن تنهوا فهو خير لكم) إن تكفوا عن حرب الحق وحربه فهو خير لكم ، تحفظ به دماؤكم وكرامتكم ، ثم توعدهم إذا هم عادوا الى مثل ذلك العمل الذي قاموا به في غزوة بدر فقال (وإن تمودوا نعد) ان تمودوا لمحاربة الله ورسوله عدنا لنصر الله المؤمنين عليكم .

ثم أراد أن يرهبهم أن يعتزازهم بأنفسهم ، واغترارهم بكبريائهم لا يجديهم ، فقال (ولن نفنى عنكم فتكم شيئا ولو كنتم مع المؤمنين) بالنصر والوعنة ، ومن كان الله معه لا يستطيع أحد أن يخذه ، وهى عبرة للكافرين ، وذكرة للمؤمنين ، وسأوى للصالحين الذين يطمعون دائما في أن ينصر الله حقهم على الباطل غيرهم وإن كانوا قليلي العدد ، ويغفل أعداؤهم وإن كانوا كثيرين .

(٧) (واعلموا أنما غنمتم من شيء) الخ . يرينا الله تعالى بهذه الآية كيف قسم الغنائم ، وأن هذه الغنائم تكون أربعة أخماسها للقاتلين ، والثلث الباقي يقسم على هذه الأقسام . وقوله (إن كنتم آمنتم بالله) أى فاضعوا لهذه القسمة التي فرضها الله تعالى على عباده ، لأن الشأن في المؤمن أن يخضع لحكم الله كما قال في سورة النساء (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلووا تسليما «٦٥») وكما قال في سورة الأحزاب (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا «٣٦») .

وقوله (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) عطف على لفظ الجلالة : أى وأمتم بما أنزلنا على عبدنا من الآيات ولللائكة والفتح ، والمراد بالانزال الايصال : أى إن كنتم أمتم بالله ، وأمتم بما أوصله الى نبيه من إمداده باللائكة لتثبت قلوب المؤمنين ، ومن نصرهم على عدوهم على قلوبهم ، ومن الآيات القرآنية والكونية - فاعلموا أن الذى أنزل ذلك كله هو الذى قسم الغنيمة بينكم على ذلك النحو الذى رأيتم .

وقوله (يوم الفرقان) للراد به يوم بدر الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وقد كان يوما شديدا على للشركيين ، أيد الله فيه التوحيد ، وخذل فيه الشرك . والجعان : هاجم المؤمنين والكافرين .

وقوله (والله على كل شئ قدير) دفع لاستغراب ما حصل من نصر المؤمنين على قلوبهم وضعفهم (إذ أتم بالعدوة الدنيا) الخ ، بدل من قوله (يوم الفرقان) وفائدة ذكر هذا ذكر الفريقين الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته ، وصف شأن المسلمين ، وأن غلبتهم فى ذلك الحبل لم تكن إلا صنعا من الله تعالى ، وبحوله وقوته ، فان العدو القصوى التى أناخ بها الشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضا لأبأس بها ، ولأما بالعدوة الدنيا ، وأرضها رخوة تسوخ فيها الأرجل ، ولا يتيسر المشى فيها إلا بمشقة وتعب ، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حيتهم .

(ولو تواعدتم لاختلتم فى العياد) أى لو تواضعتم مع أهل مكة على مكان تلقون فيه لخالف بضعكم بضعاً ، فبضعكم فلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وبطهم تبيهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتفق لكم من التلاقي ما رفق الله وسببه (ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) هو نصر أوليائه وقهر أعدائه .

دبر ماذبر (لهلاك من هلاك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) أى دبر ماذبر لهلاك من هلاك من الكفار عن حجة واضحة بأن النبى وأصحابه على حق فيما دعوا إليه ، وأن أعداءه كانوا على باطل فيما دافعوا عنه ، ويحيى من حى من المؤمنين عن حجة واضحة ، هى أن الله تعالى سدد رسوله فيما وعده إياه من النصر (وإن الله لسميع عليم) لا يخفى عليه شئ من أقوال أهل الإيعان والكفر وأعمالهم وعقائدهم ، وهو مجازهم عليها .

(أ) (يا أيها الذين آمنوا إذا قاتلتم فئة فاثبتوا) الخ إرشاد من الله تعالى إلى أسباب الظفر ووسائل النصر :

[أولها] : الثبات وعدم الفرار ، وقد بين فى أوائل هذه السورة عقوبة الفرار من العدو [ثانيها] : ذكر الله تعالى ليقوى قلب المحارب بما أعده الله للجاهدين من ثواب ، ومن جهة أخرى فان للمؤمن متى ذكر الله تعالى فقد ذكر سفته التى يعقها النصر ، وفيها الاستعداد للالقاء باليد والذوق بالعدو ، وقد بين ذلك فى جلة آيات كقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم « ٦٠ ») (١) .

وقد أشار إلى فائدة ذكر الله تعالى والثبات في قوله (لعلكم تفلحون) إبرينا بذلك أن الاستعداد للفلاح طريقه ذلك .

[الثالث] : طاعة الله ورسوله بالوقوف عند حدود الله تعالى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو إمام المسلمين وقائدهم الأعظم ، ولا شك أن طاعة القائد لها أثرها في النصر .

[الرابع] : عدم التنازع لأنه مدعاة التفرق ، وهو مدعاة الفشل ، وذهاب القوة .

[الخامس] : الصبر على مشاق القتال ، وقد بين عاقبة الصبر في قوله (إن الله مع الصابرين) ثم أشار إلى أدب آخر من أدب القتال وهو أن يخرج الإنسان غلصا في خروجه ، محسبا به وجه الله تعالى ، فلا يخرج للقتال بطرا ولا رياء ، لأن الله تعالى يعلم ما تكن النفوس ، وأن الذي يخرج للقتال لا يحمله على خروجه إلا البطر ومهابة الناس ليس أهلا لأن ينصره الله تعالى .

غزوة أحد

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ^(١) الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٢) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ^(٣) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ يَذَّرُ^(٤) وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ^(٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ^(٦) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ^(٧) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ^(٨) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ^(٩) لِيَقْطَعَ طَرَقًا^(١٠) مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ^(١١) فَيَقْلَبُوا خَائِبِينَ^(١٢) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ^(١٣) آل عمران

[١] جيل مشهور بين وبين المدينة ثلاثة أميال ، وهو في الشمال الشرق منها ، وكانت الغزوة في شوال سنة ثلاث من الهجرة . [٢] نزل . [٣] بقية العدد والصلاح .

[٤] بكسر الواو من سوم على القوم : أظفر عليهم ، ويطلع الواو مكسبة بتثنية قلوب المؤمنين أو مكسبة فيها يملكون بالنفوس من التثيت والربط عليها . [٥] طاعة . [٦] يذلهم .

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ « ١٣٩ » إِنْ
يَسْأَلُكُمْ قَوْمٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوَاهُ^(١) بَيْنَ النَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ « ١٤٠ »
وَلِيُمَحِّصَ^(٢) اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ « ١٤١ » أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتَّخَلَّوْا
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ « ١٤٢ » وَلَقَدْ كُفِّتُمْ
تَمَنُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ « ١٤٣ » وَمَا
مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى
أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ
الشَّاكِرِينَ « ١٤٤ » وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ^(٣) كَتَبْنَا مُوَجَّلَاءَ وَمَنْ
يُرِذُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِذْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي
الشَّاكِرِينَ « ١٤٥ » وَكَأَيُّ^(٤) مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ « ١٤٦ »
وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَنَبِّتْ أَفْئِدَتَنَا
وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ « ١٤٧ » فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ
الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ « ١٤٨ » يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ
كَفَرُوا يَرْذُوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ « ١٤٩ » بَلَى اللَّهُ مَوْلَاكُمْ
وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ « ١٥٠ » سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا
بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ « ١٥١ » وَلَقَدْ
صَدَّقَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحْسُرُونَهُمْ^(٥) بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ

[١] جرح . [٢] نصرناها فنديل تارة هؤلاء ، وتارة هؤلاء . [٣] يخلصهم من كل عيب .
[٤] مشيئة . كتابا مؤبدا : أى كتب ذلك كتابا مقروناً بأجل معين لا يخطأه .
[٥] كثير . ويدين جمع ربي ، وهو الرأى . [٦] تغلبونهم قتلا خفياً .

وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أُرِيكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
 الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ «١٥٢» إِذْ تُصْعِدُونَ ^(١) وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي
 أُخْرَايَكُمْ فَأْتِبْكُمْ غَمًّا بَغَمٍّ لَكِنَّا تَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ
 خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ «١٥٣» ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشَى
 طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ
 يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ
 مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ
 فِي يُبُوْتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ^(٢) اللَّهُ
 مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «١٥٤» إِنَّ
 الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِمَّا اسْتَلْزَمَهُمْ ^(٣) الشَّيْطَانُ بَيْنَ خِصَمَائِهِمْ
 وَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ «١٥٥» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا
 كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا
 عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١٥٦» وَلَنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ
 وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَحْكُمُونَ «١٥٧» وَلَنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ «١٥٨»
 فَمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ
 فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ

[١] يبعدون في الأرض هارين ولا ترجون على أحد . [٢] يجبر .

[٣] تحرى زلتهم واستجرح لها .

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ «١٥٩» إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَنْزِلْكُمْ
فَرَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «١٦٠» آل عمران

أَوْ لِمَا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ «أَنْتَ هَذَا» قُلْ هُوَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١٦٥» وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجُنُودُ
فَإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ «١٦٦» وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ
مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَا أَيُّهُمْ بِأَفْوَهِهِمْ مَا آتَيْنَا فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ «١٦٧»
الَّذِينَ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ قَادَرُوا «عَنْ أَنْفُسِكُمْ
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «١٦٨» وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا
بَلْ أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ «١٦٩» فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ «١٧٠» يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُؤْمِنِينَ «١٧١» الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرُّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ «
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ «١٧٢» الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ «١٧٣»
فَاتَّقَلَّبُوا فِي نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسِّنْهُمْ سُوءًا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَظِيمٍ «١٧٤» إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ «فَلَا تَخَافُوهُمْ
وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٧٥» آل عمران

تعليق وعبرة

(١) (وإذ غدوت من أهلك نبؤى المؤمنين مقاعد للقتال) أى اذكر يا محمد الوقت الذى غدوت فيه من أهلك بالدينة نزل المؤمنين مقاعد للقتال ، ونزولهم أن لا يبادروا مكانهم الذى أنزلهم به ، ولورأوا الطير تحطف المسكر (والله سمع عليم) لم يخف عليه شئ مما قيل فى مشاورتك لمن معك فى أمر الخروج إلى لقاء المشركين فى أحد ، أو انتظارهم فى المدينة ، وعلم فيه كل قائل ، وإن منهم المخلص فى قوله ، وإن أخطأ فى رأيه ، ومنهم غير المخلص فى قوله وإن كان صوابا كعبد الله بن أبى المنافق .

(إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) هما بنوسمة وبنو حارثة ، والهم : حديث النفس وتوجهها إلى الشئ ، والفشل : ضعف مع جبن ، وسبب مهمما بالفشل تأثرهما برجوع عبيد الله ابن أبى المنافق وأصحابه ، وقوله : [علام قتل أنفسنا وأولادنا] .

ومنه تعلم كيف أن أعمال المنافقين وهزيمتهم من شأنها أن تترك أثرا فى نفوس المؤمنين ، وأن القدوة السيئة فى العمل لها أثرها ، والقدوة الصالحة كذلك ، وأن الكلمة الخبيثة قد تترك فى نفوس الناس أثرا عظيما من الفشل ، والكلمة الطيبة قد تكون من أسباب النصر والغاب . (والله وليما) أى متولى أمورها بصدق إيمانها ، كذلك صرف الفشل عنها فلم يجيبا داعى الضعف الذى ألم بهما عند رجوع ثلث المسكر (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ليشقوا به دون غيره . (ولقد نصركم الله بدير وأتم أذلة) الخ : يذكركم بنصره لهم يوم بدر وهم فى قلة من جهة عددهم وسلاحهم (فاتقوا الله لعلكم تشكرون) نعمته عليكم بذلك النصر .

(إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يدرككم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) الخ بدل من قوله (وإذ غدوت من أهلك) أى أنك غدوت من أهلك تنزل كل واحد من القوم منزله من القتال فى الوقت الذى تعد فيه المؤمنين بأن يحكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، ولم تكف بذلك العدد ، بل وعدتهم إذا هم صبروا واثقوا وأتوا القوم فى سرعة أمدهم الله بخدمة آلاف من الملائكة مكافئين من الله بالنصر ، والشيث للمؤمنين ، والربط على قلوبهم (وما جعله الله إلا بشرى) أى ما جعل هذه العدة إلا بشرى للمؤمنين (ولطمأنن) بذلك الوعد قلوبهم (وما النصر إلا من عند الله العزيز) الغالب الذى لا يضع نصره إلا فى الموضع الذى يستحقه . (ليقطع طرفا من الذين كفروا) الخ يقضى على طائفة من الكفار أو يذهب بالهزيمة فينقلبوا خائبين ، ولما كسرت رابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وشج وجهه يوم أحد وقال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بهم - نزل قول الله تعالى (ليس لك من الأمر شئ) . وقوله (أو يتوب عليهم) الخ عطف على قوله (ليقطع طرفا من الذين كفروا) .

(٢) (ولاتهتوا ولا تحزنوا) الخ : يحرض الله تعالى على القتال بأساليب شتى ، فمرة يريهم أنهم أعلى من الكفار نفسا ، وأشرف غاية وقصدا ، ولا يلبق بهم والحالة هذه أن يهتوا أو يحزنوا وصمة يقول (إن يسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) ليريههم أن الشدائد التى يلاقونها من

الحروب هي شذائد مشتركة ، لا يختص بها فريق دون فريق ، وأحيانا يريهم أن الأليم دول ، فيوم لهم ويوم عليهم ، وصمة يريهم أن هذه الشذائد هي ابتلاء من الله تعالى واختبار ، يظهر بها المؤمنين من المنافق ، ويتخذ بها منهم الشهداء ، ويمحص بها قلوب المؤمنين ، ويظهرها من كل ضعف يحمل بها ، ويمحق الله بها الكافرين .

ثم يريهم أنهم إذا ظنوا أنهم يدخلون الجنة قبل أن يقيموا البرهان على صدقهم في إيمانهم وإقامة الدليل على يقينهم في دينهم - إذا ظنوا ذلك فهم مخطئون ، وهو ما أشار له بقوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وفي العلم هنا معنى نفى للمعلوم ، كنفى اللازم وإرادة نفى للزوم ، وللعنى : أظنتم أن تدخلوا الجنة ولم تجاهدوا ولم تصبروا وصمة يذكرهم بأنهم كانوا يحنون الموت قبل غزوة أحد ، فلماذا تحبنون عند لقاءه ؟ .

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الخ : نزلت هذه الآية حينما أشيع يوم أحد أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد مات ، وقد تركت هذه الاشاعة أثرا في نفوس أكثر المسلمين ، وقال قوم من المنافقين : لو كان محمد نبيا ما قتل ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم . فأرأهم الله تعالى بهذه الآية أن محمدا لم يعد أن يكون رسولا قد مضت الرسل من قبله فأتوا ، وقتل بعض النبيين ، ولم يكتب لأحد منهم الخلافة ، ولا بد أن تحكم عليه سنة الله بالموت ، فيخلو كما خلوا من قبله ، إذ لا بقاء إلا لله وحده .

(أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) ينكرو عليهم أن يرجعوا عما كانوا عليه من أمر الإيمان بسبب إشاعة موت أو قتل ، ثم يهدم بقوله (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) .

وفي هذه الآية إرشاد لنا إلى أن لا نجعل الصائب الشخصية دليلا على كون من نصيبه على باطل أو على حق ، وزينا أن لا نتمد في معرفة الحق والخير على وجود العلم ، بحيث نتركهما بعد ذهابه أو موته ، وإنما نعتمد على معرفتهما ، والسبر على منهما في حال وجود العلم بعده .

ولقد كانت الآية المذكورة مقدمة وإرهاصا بين مدى موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظهر أن توبيخ الذين ارتدوا على أعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولانباتي هذه الحكمة كون الوقعة قبل وفاته بضع سنين ، فإن توطئ نفس الأمة الكبيرة على الشيء ، وإعدادها له لا يكون قبل وقوعه بيوم أو أيام أو شهور ، بل لابد من زمن يكفي لتعميمه فيها ، وأن يصير من الأمور السهلة المشهورة عندها ، حتى لا يغيب عن الأذهان .

(وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن الله) الخ : رجوع إلى تطمين المؤمنين ، وتخبرهم على القتال ، إذ يريهم أنه ما ينبغي لنفس كائنة ما كانت أن تفارق هذه الحياة إلا بمشيئة الله تعالى ، سواء أكانت نفس رسول ، أو نفسا أخرى من نفوس المجاهدين ، فالجهاد لا يضيع شيئا من الأجل ، والتخلي عن القتال لا يعد لصاحبه في الحياة ، ثم عقب ذلك ببيان أن من يعمل للدنيا يحصل عليها ومن يعمل للآخرة يعطيه الله ثوابها ، وسيجزي الشاكرين على شكرهم .

(٣) ثم عاد وأرأنا أن كثيرا من النبيين قاتل معهم جوع كثيرة من المؤمنين ، فما ضفوا

لما أصابهم في سبيل الله وما استكانوا للذلّ والخنوع (وما كان قولهم) وهم يحاربون أعداء الحق إلا أن طلبوا من الله أن يفرّ لهم ذنوبهم ، وإسرافهم في أموالهم ، وأن يثبت أقدامهم أمام عدوهم وينصرهم على خصومهم ، وكانت عاقبتهم أن أعطاهم الله ثواب الدنيا بالفضيلة والعلب ، وحسن ثواب الآخرة (والله يحبّ المحسنين) .

يريدهم الله أن لهم سلفاً في ذلك الجهاد ، وأن سلفهم كانت عاقبته النصر ، وستكون عاقبتهم كذلك إذا هم صبروا وأخلصوا (ستلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) وعد من الله بالقائه الرعب في قلوب أعدائهم بسبب شركهم بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، فلا تعملوا لهم حساباً (وأوامهم النار) في الآخرة (وبئس مثوى الظالمين) جهنم (ولقد صدقكم الله وعده) الخ : يريدهم أن وعد الله لهم بالنصر قد صدقهم الله فيه ، ولم يتخلف وعده لهم إلا بعد أن فشلوا وتنازعوا ، وخرجوا على وصية رسولهم الأعظم ، وقائدهم الأكبر ، وتطلّعوا لعرض هذه الحياة ، وانتظروا الغنيمة .

وقد قال الرسول لهم حيناً يؤامّ مقامد للقتال : لا تتركوا هذه الأماكن وإن تحطفكم الطير . ليريدهم أن هذه عاقبة الخروج على نصيحة القائد ، ومغبة التطلع لعرض هذه الحياة ، فمنعكم نصره حيناً فشلتم وتنازعتم في الأمر : منكم فريق يطلب الدنيا فتترك مركزه الذي وضع فيه للغنيمة ، ومنكم من يطلب الآخرة ، ثبت حتى قتل (ثم صرفكم عنهم) بردكم للهزيمة (ليبتليكم) يمتحنكم فيظهر المخلص من غير الخلل ، ويريك عاقبة اختلافكم وخروجكم على نصيحة رسولكم (ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين إذ تصعدون) تبعدون في الأرض هاربين ، ولا تخرجون على أحد (والرسول يدعوكم) من ورائكم (فأتاكم غمّاً) بالهزيمة (بئس) المخالفة (الكيلا) تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم (لأنكم الذين تسببتم في ذلك ، ومن كان سبباً في نكبتة لا يلومن إلا نفسه) .

(٤) (ثم أنزل عليكم من بعد الفمّ أمانة نفاهاً) الخ يعرفهم فضله عليهم بعد هزيمتهم وهو ، لإرساله الناس عليهم ، حتى لا يفكروا فيما حلّ بهم ، وقد أنزل هذا الناس على المؤمنين ، أما للناقضون فلم يفارقهم همهم ، لأنهم لاهمّ لهم إلا نجاة نفوسهم وبعدها من الشاق .

وقد وصف الله هذه الطائفة بأنها تظنّ برّها غير الحقّ ظنّ الجاهلية ، ويقولون في أنفسهم (هل لنا من الأمر من شيء) يريدون أصمّ النصر الذي وعدوه كما وصفهم أنهم يخشون في أنفسهم ما لا يبدون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد حلّهم الجهل أن يقولوا (لو كان لنا من الأمر شيء) ماقتلنا ههنا) أي لم نخرج فلم نقتل ، لكننا أخرجنا كرها ، ومن أجل ذلك قتلنا ، فبرّد الله عليهم بقوله (لو كنتم في بيوئكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) مصارعهم فقتلوا ، ولم ينجمهم قعودهم كما قال في آية أخرى (أبئنا نكونوا يدرّكم الموت ولو كنتم في بروج^(١) مشيدة) . (وليتلى الله ما في صدوركم وليحس ما في قلوبكم) أي فعل ما فعل من أجل هذه الحكمة والصالح (والله عليهم بذات الصدور) لا يخفى عليه شيء منها .

(٥) (إن الذين تولوا منكم يوم التقي الجمان) الخ أسلوب آخر من أساليب التحريض ، يرهم فيه أن الذين فروا يوم أحد إنما استجروهم الشيطان للفرار ، وكان ذلك بسبب ما كسبوه من السيئات ، غرهم من فضل الشهادة ، ومن فضل الثبات على الجهاد ، بما قدموه من سيئات (واقعد عفا الله عنهم) ما قدموه .

(يا أيها الذين آمنوا لانكروا كالذين كفروا) الخ : ينفر الله للمؤمنين أن يقولوا ما قاله الكفار في اخوانهم ، وهي قولهم (لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) .

وكثيرا ما يحمل الشيطان للمؤمن على مثل ذلك القول الفاحش ، وحظّ الشيطان من هذه الكلمة أن تصير حسرة في قلوب المؤمنين ، تملؤها بالحزن والأسى ، والله تعالى هو المالك لحياة الناس وموتهم ، لا يمتهم إلا بقدر ، ولا يحبهم إلا بقدر ، وهو العليم بأعمال الناس ونواياهم .
(ولئن قتلتم في سبيل الله أو متهم لضرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) ترغيب آخر في القتال بأن عاقبته غفر الذنوب ورحمة الله ، وهي خير مما يجمعون من مال .

(٦) (أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) ينكر عليهم اسفكار أن يدال لهم مرة وعليهم مرة أخرى ، نصروا يوم بدر ، وهزموا يوم أحد ، وكان غنهم يوم بدر أكثر من غرمهم يوم أحد ، ومع ذلك ينكروا ذلك ، فيقول الله لهم (قل هو من عند أنفسكم) نسيتم فيه بطلانكم إلى الدنيا ، ومخالفتكم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما كم على هذه المخالفة ، ثم أراهم أن ما أصابهم يوم التقي الجمان من الهزيمة هو بأذن الله ومشيئته .

ومن حكمه أن يعلم المؤمنين الذين يصبرون على السراء والضراء ويفتحون بهذه الشدائد ، ويعلم المنافقين الذين آمنوا بلسانهم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم الذين قالوا للمؤمنين (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) وهم الذين قالوا في شأن إخوانهم الذين قتلوا (لو أطعونا ما قتلوا) وقد ردّ الله عليهم في قوله (فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) .

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا) الخ : أسلوب آخر من أساليب التحريض على الجهاد ، يرهم فيه أن الله تعالى قد أعدّ لمن يقاتل في سبيله من الحياة ما لم يعدّه لغيره مما لا يعلم كنهه غيره ، ولا يقف عليه سواه ، كما أعدّه من الرزق النقيّ عنده كذلك ، ولم يبين الله لنا هذه الحياة ، ولا ذلك الرزق ، فليتنا أن نقف عند ما ورد بدون بيان ولا شرح ، فهي حياة غيبية ، ورزق غيبى ، أخبر الله بهما (فرحين بما آتاهم الله من فضله) أى فوق أجورهم التي استحقوقها بعملهم .

(وإستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) أى يتوقعون أن يبشروا بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم بقدمهم عليهم مقتولين في سبيل الله كما قتلوا ، مستحقين من الرزق والفضل الإلهي مثل ما أوتوا . وقوله (من خلفهم) أى الذين هم من ورائهم يقتلون أثرهم ، ويحذون حذوهم قدما بقدم ، وهو أسلوب من أساليب الترغيب في الشهادة ، ولئلا يسل على الحياة

البرزخية . وقوله (ألا خوف عليهم) أى بسبب أن لا خوف عليهم من شرّ يتوقع (ولام يحزنون) من شرّ واقع .

(يستبشرون بنعمة من الله وفضل) أى أن أولئك الشهداء يستبشرون بما يتجدد لهم من نعمة وفضل ، وبأن الله لا يضيع على المؤمنين أجرهم ، وإنما يجزيهم عليه جزاء أوفى ، ثم وصفهم بقوله (الذين استجابوا لله والرسول) الخ .

ثم وصفهم وصفا آخر هو الشجاعة والجسارة فقال (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وقوم هذا حالهم لابد أن نكون عاقبتهم كما قال الله تعالى ، وهى أن يعودوا بنعمة من الله وفضل وهى نعمة السلامة ، ونعمة التلب والفوز ، وانبعوا ما يرضى الله ولا يسخطه ، والله ذو فضل عظيم ، يضعه فى المكان اللائق به .

ثم أرانا الله أن التلبط عن القتال ، وإيقاع الرعب فى نفوس المقاتلين من عمل الشيطان من الانس أو من الجن ، يخوف به أنصاره وحزبه (فلا تخافوهم) أى لاتخافوا من يحاربونكم ، لأنهم يقاتلونكم بدون قلوب ، وفى سبيل الباطل ، أما أنتم فتقاتلون فى سبيل الله والحق ، فليسوا أهلا لأن يخاف منهم ، وإنما الغنى يستحق أن يخاف هو الله تعالى ، لأن بيده ملكوت كل شيء . ثم ختم الآية بقوله (إن كنتم مؤمنين) أى فقفوا عند ما أمرتكم به ، لأن فيه حياتكم وسعادتكم ، وإن شقّ على نفوسكم .

غزوة الأحزاب (١)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٩٠ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٣١ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ٣٢ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ١٢ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ

[١] وتسمى غزوة الخندق ، وكانت فى شوال فى السنة الخامسة من الهجرة .

[٢] اضطربت ومالت عن سنها حيرة وشغوصاً . [٣] جمع حنجرة ، انتهى الحلقوم ، وهو مثل فى

اضطراب القلوب . [٤] المدينة .

لَكُمْ فَأَرْجِعُوا وَاسْتَغْفِرُوا مِنْهُمْ التَّيَّ يَقُولُونَ إِنَّ يُوتِنَا عَوْرَةً^(١) وَمَا مِنْ
 بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا «١٣» وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا^(٢) ثُمَّ
 سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَا تُوتُوا وَمَا تَلَبَّثُوا إِلَّا يَسِيرًا «١٤» وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ
 لَا يُولُونَ الدَّبْرَ^(٣) وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا «١٥» قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ قَرَرْتُمْ
 مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْتَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا «١٦» قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَصْنَعُكُمْ
 مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا «١٧» قَدْ يَنْهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ^(٤) مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ
 هَلْ إِلَى اللَّهِ وَلَا يَأْتُونَ النَّاسَ^(٥) إِلَّا قَلِيلًا «١٨» أَشِجَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ
 رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ
 الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَادٍ أَشِجَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ
 أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا «١٩» يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ
 الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ^(٦) فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا
 فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا «٢٠» لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوءَ حَسَنَةٍ لِمَنْ
 كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا «٢١» وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ
 الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا
 إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا «٢٢» مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ
 قَضَى نَجْبَهُ^(٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا «٢٣» لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ
 بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا

[١] غير حصينة . [٢] تواجها ، الفتنة : الشرك . [٣] للتبطين .

[٤] القتال . [٥] كائتون في البداية . [٦] ملت .

رَحِيمًا ٢٤» وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْظِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ٢٥» وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
مِنْ صِيَاصِيهِمْ ^(١) وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْمُرُونَ قَرِيبًا ٢٦»
وَأُورِثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
قَدِيرًا ٢٧» الأحزاب

تمليق وعبرة

(١) (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) الخ : يذكر الله المؤمنين بنعمته عليهم في
غزوة الخندق التي أثارها اليهود لما وأوا انتصار المشركين على المؤمنين يوم أحد ، فخرج أشرافهم
إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابتهم قريش ثم خرجوا
إلى غطفان ، وطافوا في قبائل العرب ، فخرجت قريش في أربعة آلاف تحت قيادة أبي سفيان ،
ووافهم بنو سليم وأسد وفزارة وأشجع ، ووافي الخندق من الكفار عشرة آلاف فكانت جنود
الباطل كثيرة .

(فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) . قيل هي ريح الصبا أهلك الله بها من الكفار من
أهلك ، والجنود التي أرسلها الله على المشركين واليهود يحتمل أن تكون جنودا من الرعب ألقاه
الله في قلوبهم ، وهي جنود ليس من شأنها أن ترى للمؤمنين ، وإنما يحس بها الكافر ، كما قال
في قصة بدر وأحد (سألني في قلوب الذين كفروا الرعب) . ثم علل ذلك بأنهم أشركوا بالله ما لم
ينزل به عليهم سلطانا ، ويحتمل أن تكون الجنود ملائكة أنزلها الله لتثبيت قلوب المؤمنين كما
كان ذلك في غزوة بدر .

(وكان الله بما تعملون بصيرا) ومنه حفر المؤمنين للخندق الذي أشار به سلمان الفارسي
ليتحصنوا به من الكفار .

(إن جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم) تصوير لكثرة الكفار (وإذ راغت الأبصار وبلغت
القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) .

يذكرهم الله بنعمته عليهم في وقت اضطربت فيه الأبصار ، وخرجت عن سفتها في النظر لشدة
الأسمر ، وبلغ الشدة حدا عظيما ، حتى ليخيل إلى أحدهم أن قلبه قد وصل إلى منتهى حلقة ،
كأنه قارب أن ينخلع منه .

(هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا) أي في ذلك الوقت اختبر المؤمنون بذلك

الهرس القاسى ، واضطربت نفوسهم اضطرابا لا يقف عنده حد ، وهالك يقول المنافقون والذين صرحت نفوسهم (ما وعدنا الله ورسوله) النصر الا قهرنا بنا (و) هنالك (قالت طائفة منهم يا أهل المدينة (لامقام لكم) بذلك المكان الذى تحاربون به ، فدعوه وارجعوا إلى بيوتكم (و) هنالك (يستأذن فريق) من المنافقين النبي (يقولون إن بيوتنا) غير محصنة وعرضة لأن يهاها العدو ، فدنعا نذهب إليها (وماهى) كذلك (إن يريدون) بذلك القول (إلا فرارا) من الجهاد .

(ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا) لو دخلت أعداؤهم الذين يخشونهم عليهم بيوتهم من نواحيها المختلفة ، ثم سئلوا في ذلك الوقت أن يرتدوا عن الإيمان إلى الكفر لفعلاوا ، وما انتظروا بعد السؤال إلا يسيرا من الزمن .
ولمضى أنهم كاذبون في تظاههم بعدم تحصين بيوتهم ، لأنهم لو هوجوا فيها من الأعداء ، وطلب منهم أن يكفروا في ذلك الوقت لفعلاوا ، وكانوا على المسلمين اقنهم الاسلام ، وشدة بغضهم لأهلهم ، وجهم الكفر (واقدا كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأعداء) .

يذكرهم الله بعهودهم السابقة بعدم الفرار عند لقاء العدو ، وأنه محاسبهم على عهدهم ، ثم أراهم أن فرارهم من الموت أو القتل لا يجديهم ، وأنهم إذا عاشوا بعد فاعما يعيشون مدة وجيزة ، ثم ذكرهم بأنه لأحد يصممهم من الله إن أراد بهم سوءا أو أراد بهم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا .

(٧) (قد يعلم الله المؤمنين مكبر) الخ : تهديد من الله للمطيعين عن القتال بأنه يعلم تثبيتهم للمؤمنين ، وسيحاسبهم عليه ، وتصوير حالة المنافق إذا جد الجدة ، تراه في ذلك الوقت لا يستقر له بصر ، فتجد عينه تدور في القوم من أقصاهم إلى أقصاهم وكأن عليه غشية الموت ، فاذا ذهب الخوف سلم المؤمن بالأسنة حداد ، وتجد شحيحا بنفسه أن يقال ، وشحيحا بالخير أن يفعله ثم علل ذلك بقوله (أولئك لم يؤمنوا) ولذلك فعل ما فعل من التقيط ، وحل به ما حل من الزلزال والفتنة ، ولو أنهم كانوا مؤمنين ما فعلوا شيئا من ذلك ، وقد كانت عاقبة أمرهم أن أحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك الاحباط يسيرا على الله تعالى .

(يحبسون الأحزاب لم يذهبوا) أى لم ينهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما حل بهم من الخوف (وان بات الأحزاب) مرة ثانية (يوقوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون) كل قادم منكم (عن أنباكم ولو كانوا فيكم) ولم يرجعوا إلى المدينة (ماقاتلوا إلا قليلا) تملأ ورياء .
(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) الخ : يرهم أن الشأن فيهم يرجو الله واليوم الآخر أن يتأسى برسوله صلى الله عليه وسلم ولا يتأخر عما أمره به من الطاعات ، وأن أولئك قد تحلفوا عن القتال ، لأنه لم يكن لهم رجاء في الله واليوم الآخر .

(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) الخ وهو شرح لحال المؤمنين بعد أن بين حال المنافقين والفريقين بين الفريقين عظيم ، وقد عقدنا أبوابا خاصة للفرق بين المؤمنين والكافرين وللمنافقين فارجع إليها إن شئت للزيد .

الزكاة

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَلَمْ نُذَنْبِكُمْ فِي الدِّينِ وَنُقَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ ﴿١١﴾ التوبة

إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي
أَرْقَابِ وَالْفَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ التوبة

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ
سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَإِذَا أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خُشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ الْغَوْرِ مَعْرُضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ المؤمنون

شرح وتعليق

(١) فرض الله الزكاة على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة ، وأرانا في الآية من سورة
التوبة أن الأخوة في الدين لا نكون إلا من قوم أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، بعد توبتهم من
الشرك ، فالذي يؤمن بالله ولا يؤدي ذلك الركن لا يكون أخاً للمؤمنين في دينهم .
ولعل في ذلك عبرة لمنهى الزكاة من المسلمين الذين يظنون أنهم ناجون من عذاب الله لمجرد
صلاتهم ، وإن تجلوا بأموالهم ، ناسين أن الله تعالى يتلى الناس بإحباب جزء من مالهم ، يؤخذ
من أغنيائهم ليرد على فقرائهم ، وأن للمؤمن لا يكون صادقا في دعوى الإيمان إلا حيث أدى حق
الله في ماله ، كما يؤديه في صلاته وصومه وحجه ، وأن اختبار الناس بالمال فوق اختبارهم بالصلاة
من السهل على الرجل أن يؤدي أعمالا لا تنكفه سوى حركات يتقزم بها كل يوم ، وليس
من السهل أن يبذل نصيبا من ماله للفقراء والمساكين ومصالح المسلمين عن طيب نفس ورضا ،

ولذلك نجد المسلمين والمسلمين أكثر من الزكيات ، على أن الصلاة التي لا تردها صاحبها في المال ، ولا تردها إلى حق الفقراء والمساكين ، ولا تردها أن ذلك المال هو مال الله استخلفه فيه ، لينظر أيقوم بحقه أم يبخل به على المصالح - هي صلاة لا يقيم الله لها وزنا ، ولا يبالي بعمل صاحبها ، لأنها صلاة الغافلين والساهين ، لا صلاة للمؤمنين الناكزين (أرايت الذي يكذب بالدين « ١ » فذلك الذي يدع اليمين « ٢ » ولا يحض على طعام المسكين « ٣ » فويل للمسلمين « ٤ » الذين هم عن صلاتهم ساهون « ٥ » الذين هم يراون « ٦ » ويمنون بالمعون « ٧ » .

ومن سنة الله في القرآن الكريم أن يجمع بين الدعوة إلى الصلاة ، والدعوة إلى الزكاة ، ليرينا أن الصلاة من شأنها أن تحمل على الزكاة ما دامت قد أدت على وجهها الكامل في صورتها ومعناها ، ولذلك قرن الزكاة بالصلاة في سورة المؤمنين وأرانا الله أن المؤمنين هم الذين يحشون في صلاتهم وهم الذين يؤدون زكاة أموالهم .

(٢) (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها) إرشاد من الله تعالى لحكمة ذلك الركن الذي أنشأه للمسلمين ، وهي طهارة نفوسهم من الشح ، والبعد بها عن البخل ، وهو داء دفين في الناس ، إذا استحكم في قوم حلهم على منكرات وفضائح لا تقف عند حد . روى أبو داود والحاكم « إياكم والشح ، فإما هلك من قبلكم بالشح ، أسرمم بالبخل فيخاوا ، وأسرمم بالقطيعة فقتلوا ، وأسرمم بالفجور ففجروا » . وروى البخاري في تاريخه وأبو داود « شر ما في الرجل : شح هال «^(١) وجبن خال » .

وأن أمة من الأمم لا تقوم لها قائمة إذا كانت بخيلة على مصالحها ، شحيحة على طرق الخير فيها ، وإلا فكيف يبنى فيها المآهد ، وتشيد فيها دور الصناعة ، وترقى فيها وسائل العمران مع الشح ، وكيف ينظم حال الناس ، ويؤدى بعضهم حقوق البعض ، إذا لم يكن لهم نفوس طيبة ، وقلوب ملؤها القناعة والرضا .

ولعل من آثار الشح في زماننا هذا امتلاء دور الحكومة بقضايا الوارث ، والنزاع على الحقوق المدنية ، ولا سيما بين الأقارب ، ولعل الإحصاء يرينا أن أكثر هذه القضايا بين ذوى الأرحام بعضهم مع بعض .

فكان من حكمة الله أن يمزج للمؤمن على بذل شيء من ماله لمصالح المسلمين ، ليجتث الله بذلك البذر عرق الشح من نفسه ، ويصبح رجلا صالحا للحياة ، إذا دعى إلى بذل ماله في سبيل الخير أجاب داعي المصلحة ، وإذا استبكت مع بعض قراباته في تركه خلفها له أبوه أو أحد أقاربه خضع لقسمة الله في الوارث ، ولم يلجئ أقاربه لمقاضاته ، وتغف عن الغنايا التي يرتكبها بعض الناس ليصل بها إلى حرمان أخته من ميراث أبيه ، كتزوير عقود البيع ، أو انتحال دين لبعض الناس على أبيه ، وغير ذلك مما تأباه اللزوة ، وقد فتى السألة بصرفه على القضاء أكثر مما كانت تأخذه أخته عن طريق اليراث ، بل قد انتهى بفقر الطرفين للمتقاضين وحرمانهما من مال أبيهما .

كل ذلك لأن في النفوس شحا مطاعاً ، وعدم رضا بقسمة الله في اللواريث .
وكما أن من آثار الزكاة تطهير النفوس من الشح ، من آثارها أنها تستل من نفوس
المقراء والمعوذين حقهم على أبواب الأموال وحسدهم للأغنياء ، فإن الاحسان من شأنه أن
يملك القلوب ، ويستعيد النفوس ، فيصبح النقي محبوباً لدى الفقير ، والفقير خادماً للنقي ، يحرس
ماله ، ويدافع عنه ، لأن له نصيباً فيه ، فيهم أن يخو ويزيد ، وأن الناس يقاسون اليوم من
شروط الشيوعية للمقونة مالا يقف عند حد ، وسبب ذلك أنهم لم يأخذوا بالاشتراكية التي
فرضها الاسلام بالزكاة ، فكان عاقبة بخلهم أن سلط الله عليهم من يقض مضاجعهم ، ويزعجهم في
حياتهم ، وتطرف بعض الشعوب فاستولى على رموس الأموال ، وجعلها حقاً شاملاً للناس ،
وأخذ يحارب الاستقثار بالثروة ، ونسى أن ذلك العمل من شأنه أن يعيت الروح المعنوي في العامل ،
ويقضي على غريزة تنازع البقاء ، والتنافس في الحياة .

وقد فطنوا بعد لشروط ذلك العمل ، وأخذوا ينظمونه ليصاوا به الى ما يزعمون من سعادة ،
وهيات أن يصالوا الى شيء مما أرادوا ، فإن السعادة فيما شرعه الله ، وفي أن يبقى لكل عامل
نتيجة عمله ، وتصير الحياة ومرافقتها حقاً مشاعاً ، يقنافس الناس فيها ويقاربون (نحن قسمنا بينهم
معيشتهم في الحياة الدنيا ورضنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة
ربك خير مما يجمعون «٣٢» (١)) .

(٢) (إعما الصدقات للفقراء) الخ ، بيان من الله تعالى لمصارف الزكاة ، فجعل من مصارف
الزكاة الفقراء والمساكين ، كأرباب العاهات الذين قدمت بهم عاهاتهم عن الكسب ، وكالصناع
الذين لا يجدون طريقاً للعمل ، ولا يستطيعون أن يعيشوا على حساب عمل آخر ، أما الأقوياء
على الكسب فلا معنى لاعطائهم من الزكاة .

(والعاملين عليها) بيان لصف آخر من تعطي لهم الزكاة ، وهم الجباة للزكاة ، والكتائب ،
والحراس عليها الذين وكل إليهم أمر الزكاة ، وقد أباح الله تعالى لهؤلاء أن يأخذوا من الزكاة
مقابل عملهم في بيت مال المسلمين لايصفة أنهم فقراء أو مساكين .

(والوئمة قلوبهم) المراد بهم من يكون إعطاؤهم سبباً في قوة المسلمين ، سواء أكان ذلك
الاعطاء لقوم ضعيفي الايمان لأنهم حديثو عهد به ، أو لقوم لم يسلموا ولكنهم يتطلعون الى
الاسلام ، أو لشرك ذلك .

(وفي الرقاب) أي فكها من الرق : أي إن من أغراض الزكاة التعاون على فك الرقاب
من الرق ، كإعانة الأرقاء الذين اتفقوا هم وملاكهم على أن يدفعوا لهم شيئاً من المال في نظير
عتقهم ، وتسمى هذه مكاتب شرعية ، وتسمى الأقساط التي يدفعها الرقيق لسيده ليعتقه
نجوم الكتابة .

ومنه تعلم أن الشرعية ما ألحقت الرق إلا للضرورة ، ومع أنها ألحقت فهي تعمل على تضيق
دائرته بشئ الوسائل ، ولا أدلة على ذلك من أنها أعدت قسماً من بيت مال المسلمين لإعانة

الأرقاء الذين يريدون الخلاص من الرق باخاقهم هم وصادتهم على أن يذلوا لهم شيئا من المال ، ويكون ذلك بمثابة شرائهم أنفسهم منهم ، وتعدت الشريعة الى اللالك أن يبسروا على الأرقاء ، ويسهلوا عليهم مهمة العتق ، بتقليل المال الذى يطلبونه منهم ، وحط شيء منه ، حتى لا يعجزوا عن الأداء (والغارمين) وهم الذين استدانوا لغير معصية ، سواء أكان ذلك الدين لاصلاح بين طائفتين ، أو كان لعمل من الأعمال العامة ، كأن استدان الرجل لانشاء مصنع من الصانع التى تعود على الناس بالخير .

ويقول المفسرون : ان من استدان لاصلاح ذات البين يعطى من الزكاة لأداء دينه ولو كان غنيا ، وقد يدلّ لذلك عدّ الغارمين قسما مستقلا عدا قسم الفقراء والمساكين ، والمراد أنهم يعطون لغرامتهم في عمل شريف ، نصحيا للناس على عمل الخير ، وأنهم إذا غرموا في ذلك السبيل لا يصحّ أن يتركوا بدون دفع لغرامتهم .

ويدخل في ذلك القسم التجار الذين استدانوا في سبيل تجارتهم ، ثم أصبحوا فقراء فانهم يعطون من الزكاة من ناحية أنهم غارمون في غير معصية ، ومن جهة أنهم فقراء (وفي سبيل الله) أى طريقه الذى يحبه وبرضاه كالجهاد ، وطلب العلم ، وترقية الصناعات ، والمعارف ، وغير ذلك من كل ما يرضى الله تعالى ، ويعود على الناس بالخير في دينهم ودينام ، لأن الله تعالى لا يريد للناس إلا سعادتهم في الدارين ، كبناء المسشفيات ، والجمعيات الخيرية التى ترقى الناس في أخلاقهم ودينهم ، وتحفظ عليهم عزم وكرامتهم ، كل ذلك سبيل الله الذى يرضيه ويحبه . (وابن السبيل) أى للسافر يعطى من مال الزكاة ليستعين به على سفره ، وان كان له مال في بلدة للمستوطن له ، فيعطى لسفره ، ومنه تعلم كيف أن الدين يحث الناس على الأسفار بأعداده جزاء من الزكاة للسافرين .

وقد عرف الغريبون قيمة الأسفار ، ومقدار تأثيرها عليهم في علومهم ومعارفهم ، وصناعاتهم فعنوا بها عناية عظيمة ، وقد حثّ القرآن الكريم على السير في الأرض .

(أفلم يسروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها «٤٩» (١)) وقد أصبح من الأوليات ارتباط العالم بعضه ببعض في المصالح والرافق ، حتى صار كالأسرة الواحدة ، ولاسيما بعد تسهيل أهم المواصلات والمحابر ، فالأمة التى تجمد على الإقامة في بلدها ، ولا تتصل بغيرها من الشعوب لتستفيد من معارفها وعلومها - لا يمكن أن تعيش ، أو تأخذ منزلتها في الحياة ، والفضل الأول في الحثّ على الأسفار وصلة العالم ببعضه بعضا إنما هو للشريعة التى تكافئ للسافر وتنق عليه مادام مسافرا ، وتحمل له نصيبا من بيت مال المسلمين - ومن العلماء من يفسر ابن السبيل بالقيط لأنه لا يعرف له أب ، والآية تحتمل القسمين جيها ، وتشملهما معا .

الصيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ^(١) تَتَّقُونَ «١٨٣» أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَمِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ^(٢) فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ «١٨٤» شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ إِنَّ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن نَّهَى^(٣) عَنْهُ مِّنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «١٨٥» وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ «١٨٦» أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرِّقْتُ^(٤) إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ^(٥) وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلَّمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ^(٦) فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ^(٧) وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ^(٨) الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنتُمْ عَكِيفُونَ^(٩)

[١] لعلكم : لئلا تكونوا . [٢] يطيقونه : يؤدونه بمشقة . [٣] بينات من الهدى : آيات واهجات من الهدى . الفرقان : الفرق بين الحق والباطل . [٤] شهد : حضر . [٥] الرقت : كلمة جامعة لكل ما يريد له رجل من المرأة . [٦] من لباس لكم الخ : لباس مصدر لابس بمعنى خالعه ، وعرف دخاله . [٧] تختانون أنفسكم : تنقصونها بعض ما أجل لها ، أو تخونونها بالعدل على خلاف ما تعتقدون . [٨] ما كتب الله لكم من النسل . [٩] حتى يتبين لكم الخ : أى يظهر الفجر المادق ، وهو ضوء النهار . [١٠] ما كفون : مقيون .

فِي الْمَسْجِدِ نِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ البقرة

شرح وتعليق

(١) فرض الله علينا الصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وهي السنة التي فرض علينا فيها الزكاة ، وأرانا الله تعالى أنه كتبه علينا كما كتبه على من سبقنا من الأمم إرشادنا :
[أولاً] إلى أن ذلك الركن من أركان الدين لاغنى عنه في تهذيب النفس وإصلاح الخلق ، ومن أجل ذلك شرعه لمن قبلنا كما شرعه لنا ، فنحرص عليه لأنه علاج ضروري ، وإصلاح لاغنى عنه .

[وثانياً] أنه أسلوب من أساليب إيناس النفوس وترغيبها في قبول التكليف ، ولم يبين لنا القرآن الكريم أن الله فرض علينا الصوم كما فرضه على من قبلنا في كنيته وكيفيته ، بل سكت عن ذلك ، واكتفى ببيان أنه فرضه علينا وعلى من سبقنا ، وقد يكون الصومان متفقين ، وقد يكونان مختلفين حسب ما تقتضيه الحكمة ، واختلاف الزمن .

(لعلكم تتقون) بيان لحكمة الصوم وسرّه ، وأن هذه الحكمة ليس من شأنها أن تعود إلى الشرع ، وإنما حكمة العبادات لإصلاح حال للكلف ، وإعدادة للحياة الحقة ، كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكيكم ﴿٢٥﴾) .

فالغنى أنه فرض علينا الصوم ليعدنا بذلك لتقوى الله ، والبعد عن محارمه ، والرغبة في طاعته ، وبذلك يسعد الكلف ، ويقوم بنصيبه في الحياة ، ويسهل السعادة الدارين .

أما الإعداد لترك ما نهى الله عنه فلا أن الصوم حبس النفس عن الطعام والشراب الذي أحله الله تعالى في غير ذلك الوقت الذي فرض فيه الصوم ، وجسبها كذلك عن مباشرة النساء اللائي كنّ حلالاً في غير نهار رمضان ، والذي يملك نفسه ويصبر عن طعامه وشرابه ، وعن امرأته في الوقت الذي حثه الله له طامعاً مختاراً - جدير به أن يترك ما نهى الله عنه مما يفسد فطرته ، أو يضرب ماله وصحته ، ويبعد أن ينف الرجل عن امرأته وهي حلال له ، لأن الله أمره أن ينف عنها في نهار رمضان ، ثم يتطلع إلى امرأة غيره ، وكذلك يبعد أن ينف الإنسان عن طعامه الذي هو حلال له لأن الله طالبه بذلك ، ثم يأكل مال غيره بالباطل ، كأكله من طريق الرشوة ، أو من طريق الربا أو السرقة ، أو غير ذلك .

وأما إعداد الصوم النفوس للطاعات فلا أنه سرّ بين العبد وربّه ، لا يطلع عليه غير الله تعالى وهو من هذه الناحية يكسبه ملكة الرقابة لله تعالى والخوف منه ، فتقوى فيه داعية الخير ، وتضعف منه داعية الشرّ ، يذكره بحاجة الفقير والمسكين ، وأن هناك أناساً يجوعون راغبين غير

مختارين ، يجوعون لأنهم لا يجدون ما يستحقهم ، وحين ذاك يفكر في أن يواسيهم بشيء من ماله ، فهو مذكر بالزكاة والصدقة ، كما يذكر الإنسان بضغفه أمام دواحي الفطرة الملحة ، سواء أ كان ذلك الضغف من جهة حاجته الى الطعام والشراب ، أم من جهة حاجة الى المرأة ، وهناك يتذكر أن البد ضعيف أمام هذه الدواحي ، وأن الله تعالى غنى عن الطعام والشراب ، وغنى عن الضاحية .

وهناك حكمة كبرى من حكم الصوم ، هي تقوية الإرادة في السلم ، وشحذ العزيمة . حتى يكون الرجل رجلا كاملا لاستهويه الشهوات ، ولا تستولى عليه الكيوف ، وأن الناس يتفاوتون في قوة الإرادة تفاوتا كبيرا ، وقد تضعف إرادة الرجل حتى تذهب بكل فضيلة فيه ، فيصبح أسير الشهوات والهوى ، لا يخلص من شهوة إلا وقد استولت عليه شهوة أخرى ، ومصيبة المسلمين بضعف الإرادة : هي مصيبة كبرى ، فإذا تصورت قاضيا ضعيف الإرادة ، مكبلا بالشهوات سواء أ كانت شهوات نسائية ، أو شهوات خيرية ، أو شهوات مالية - إذا تصورت قاضيا على ذلك الحال - وما أ كثرهم - فهل تستطيع أن تأمن ذلك القاضى على دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ؟ وهل تطمئن الى العدالة في أيدي أولئك الضعفاء ؟

وهل يستطيع زعيم من الزعماء أن يقف من خصوم البلاد موقفا مشرفا إذا لم يتحصن بقوة الإرادة ، ويفسح بشدة العزم والحزم ؟ وهل إذا كان مريضاً بالحكم وحب الساطة مثلا يستطيع أن يصل بأمنه الى حيث يحب ؟

نعم لا يستطيع ضعيف الإرادة أن يقوم بعمله في الحياة كاملا غير منقوص ، وإنما الذى يستطيع ذلك سواء أ كان رئيسا أم مرءوسا ، حاكما أو محكوما ، هو ذلكم الرجل الذى قوى عزمه وصلبت إرادته ، من أجل ذلك كله قضت حكمة الله أن يفرض على الناس في كل سنة أن يصوموا شهرا ، يمتنون فيه أنفسهم على الصبر ، ويؤدونها الحزم والعزم ، حتى يصبروا عن شهواتهم ، ويصبروا على مصائبهم التى تنالهم في الحياة ، ويصبروا على طاعتهم التى كلفهم الله بها ، ويصبروا على أعمالهم التى لا غنى لهم عنها ، وبالجملة يصبرون على كل عمل نافع مفيد ، ويصبرون على ترك كل خلق ذميم أو عمل ضار . وذلك جامع التقوى التى أجلها القرآن الكريم في قوله (لعلكم تتقون) .

(٢) (أياماً ممدودات) أى قلائل ، وهو ترغيب في الصوم من طريق تقليل زمنه (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) بيان للأسباب التى تبيح للكل أن يفطر [أولها] المرض ، وقد أطلقه القرآن الكريم ولم يقيد بالمرض الشديد الذى يصرمعه الصوم ، وقد روى هذا عن عطاء ، وابن سيرين ، وعليه البخارى ، والجمهور من العلماء قيدوا بالمرض الذى يصرمعه الصوم ، واستدلوا لذلك بقول الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وهو دليل لأصل رخصة الافطار ، وكألها أن لا يكون فيها تضيق ، والمؤمن يحتاط لنفسه مادام حريصا على أداء ذلك الركن ابتغاء مرضاة الله تعالى ، ومادام مرضه لا يسقط عنه صومه

الى النهاية ، بل يجب عليه القضاء ، وربّ قضاء هو أشقّ على صاحبه من الأداء ، فإدام الصوم ميسورا له مع مرضه ، ولم يفلح على ظنه أن صومه يضعف مرضه أو يطيل زمنه بالأحوط أن يصوم .

[ثانيها] السفر وهو يشمل الطويل والقصير ، وقد جاء في السنة ما يؤيد ذلك الإطلاق . روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس أنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » . ويرجح كون الرواية ثلاثة أميال حديث أبي سعيد عند سعيد بن منصور قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فرسخا يقصر الصلاة » والفرسخ ثلاثة أميال ، بل روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يقصر الصلاة في الليل الواحد ، ولا خلاف بين المسلمين في أن السفر الذي يباح فيه قصر الصلاة يباح فيه الفطر . وللعنى أن للسافر من حقه أن يفطر ، وكانت الصحابة تسافر في الجهاد والغزو فيفطر البعض ، ويصوم البعض ، ولا يجب الفطر على الصائم ، ولا الصائم على المفطر ، وقد يرجح الإفطار إذا كان في الصوم مشقة وكان الفطر أقوى للسافر وأعون له على أداء مهمته .

(وعلى الذين يطبقونه فدية) بيان لعذر آخر من أعذار الصوم ، وهو أدائه بمشقة وصعوبة يقال أطلق الشيء : إذا كانت قدرته عليه في غاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة ، وتلك لا يقال لغة : أطقت حمل العسا . بل يقال : أطقت حمل الصخرة ، وهو يشمل الشيخ السقيم ، والحوامل والمرضع يخفف على الأجنة والأطفال ، ويشمل للرضى بالعدة مرضا لا يمكنهم من مصابة الجوع .

وقد سألني بسور يارجل عمل عملية جراحية بالعدة فصرّت حتى لاتسع من الطعام لا مقدارا صغيرا ، ولا يستطيع أن يصبر عن الطعام طول النهار ، فقلت له : عليك الفدية ، وذكرت له الآية ، وقلت له ان الدين لم يترك لأعنان الناس ، وإنما نزل لحياتهم ، ففرح وسرّ بذلك القول ودعا لي بخير ، كما تشمل الآية الفضلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة ، كاستخراج الفحم الحجري من مناجم ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فهو يشمل أيضا سائقي قطارات السكك الحديدية الذين يقفون نهارهم أمام النار . ويشقّ عليهم الصبر عن الماء في اليوم الشديد الحرّ ، والعرابين الذين لا يستطيعون الصوم في أيام الصيف في البلاد الحارة - ونكفهم ترك أعمالهم لا يتفق وبسر الدين في شيء ، لأن الفروض في التشريع أن يكون صالحا لجميع الطبقات وفيهم العمال وأصحاب الأعمال الشاقة ، فمن رجة الله بهم أن يقبل منهم الفداء ، وهو إطعام مسكين عن كل يوم ، ومن أخذ منهم نفسه بالشفّة ، ولزمها الصوم ، وتحمل في ذلك المشاقّ فهو أمير نفسه ، فإن الله لم يفرض عليه الفطر ، وإنما أباح له ، وهو صاحب الشأن فيه ، والله سائعه عن دينه وصومه وعفوه ، وهو أعلم به ان كان همه التخلص من التكاليف ، أو همه إرضاء ربه ، والمحافظة على حياته ومصالحته .

(٣) شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) الخ .

يرينا الله أن الأيام للمعدودات هي شهر رمضان ، وقد اختاره الله لتلك لأنه أنزل فيه القرآن

أى كان بدء نزوله فيه ، وهو نعمة عظيمة على الناس ، لأنه هدى للناس ، وآيات وانجحات من الهدى ، وكل كتب الله هدى ، وكذلك هو آيات في الفرق بين الحق والباطل .

(فمن شهد منكم الشهر فليصمه) : يرشدنا الله تعالى بذلك الأسلوب الى أن من الناس من يشهد الشهر كأصحاب المناطق المعتدلة والمنطقة الاستوائية ، فأولئك فرضهم أن يصوموا الشهر ، ومن الناس من لا يشهد الشهر كأصحاب المناطق القطبية ، فإن نهارهم نصف سنة وليلهم كذلك ، فهؤلاء لم يشهدوا الشهر ، ولذلك يرى العلماء أنهم يقتدرون مدة توازى الشهر ويصومونها اجتهادا ويقول الأستاذ الامام : ان هذه الآية من دلائل كون القرآن من عند الله لا من وضع محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشأ بجزيرة العرب ، وإلا فمن الذى أعلمه أن من البلاد من لا يشهد الصوم ولذلك قيد الحكم بمن شهد الشهر .

(ومن كان منكم مريضا) الخ ، أعاد الرخصة اهتماما بشأنها ، وإيدانا بأن الله تعالى يحب أن يتعد برخصه كما يحب أن يتعد بزمائمه ، ولأن من شأن الناس أن تزهد في الرخصة وتحرص على الزمائم ، فالتعالى يكررها كأنه يحث على العمل بها ويرغب فيها .

ثم عقب ذلك بقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ليؤكد ذلك الطلب (ولا تكفوا العدة) عطف على قوله (يريد الله بكم اليسر) أى ويريد أن تكفوا العدة فمن لم يكفها أداء لعذر أو أكملها قضاء (ولتذكروا الله على ما هداكم) إليه من الأحكام النافذة لكم بأن تذكروا عظمته وجلاله (ولعلكم تشكرون) له هذه النعم بالقيام بها على وجهها فتكونوا من الكاملين .

(٤) (أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى النساء فى أى ليلة من ليالى رمضان ، لأن ليلة مفرد مضاف فيم ، وقوله (حق لباس لكم وأتم لباس لحق) بيان للسبب في إباحة الافضاء الى النساء فى الليل أى إذا كان بينكم وبينهن هذه اللابسة والمخالطة فإن اجتنابهن عسر عليكم ، فلهذا رخص لكم فى مباشرتهن .

(علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تنتقصونها بعض ما أحل الله لها من اللذات توها منكم أن من قبلكم كان كذلك (فتاب عليكم) ببيان هذه الرخصة (وعفا عنكم) حيث أخطأتم فى اجتهادكم الذى أدى الى التضيق على النفس وإيقاعها فى الجرم .

ويحتمل علم الله أنكم كنتم تخونون أنفسكم إذ تعتقدون شيئا ثم لا تلتزمون العمل به ، فهو مبالغة من الخيانة التى هى مخالفة مقتضى الأمانة ، وقوله (فتاب عليكم) الخ : أى قبل توبتكم وعفا عن خيانتكم أنفسكم ، وأذن لكم الآن إذا صريحا بأن تباشروا النساء بالنية الصالحة طالين ما كتبه الله لكم من الفسل ، لا لحرمة الشهوة .

(وكلوا واشربوا) الخ ، بيان لغاية الوقت الحلال ، وأنه ينتهى بظهور المجر الصادق ، والآية مثل ، وليست حقيقة .

وقد غفل عن ذلك بعض الصحابة ففهم أنها حقيقة ، فأتى بمقالين : أبيض وأسود ، وجهلهما تحت رسادته ، وكان يقوم بأبيل وينظر إليهما فلا يقين له الأبيض من الأسود ، فلما أصبح غدا

الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره فضحك ، وقال : إنك لمرضى القفا ، إنما ذاك يياض النهار ، وسواد الليل . فلهذا تعالى يبيح للانسان أن يأكل الى طلوع الفجر ، أما تركه للأكل والشرب قبل الفجر بنحو ثلث ساعة ، فهو احتياط من صنع الناس .

(ثم آمنوا الصيام إلى الليل) بيان للمدة التي يحك فيها الصائم ، فالآية تريدنا أن اتيان الفساء والأكل والشرب مباحة للمسلم من غروب الشمس الى طلوع الفجر ، وهذه هي المفطرات التي نصّ عليها القرآن الكريم .

(تلك حدود الله فلا تقربوها) الاشارة الى الأحكام التي تقدمت ، وسميت حدودا لأنها حددت الأعمال وبينت أطرافها وغايتها ، وقوله (فلا تقربوها) أبلغ في التحذير من قوله في آية أخرى (فلا تعتدوها) لأنه يرشد الى الاحتياط ، فمن قرب من الحد أوشك أن يعتديه ، كالشباب يداعب امرأته في النهار لاثني بالوقوف عند حدّ الباح له ، وقيل لا تقربوها بالتأويل ، ولا بالمهوى والرأى ، بل اقبلوها كما هي (كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) على ذلك النحو من البيان يبين الله لهم آياته ليعدهم للتقوى .

الحج

وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا وَمَنْ كَفَرَ فَاِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِيْنَ (٩٧) آل عمران

جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا^(١) لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَذِي وَالْأَمْثَلِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَاَنَّ اللّٰهَ يَكْلُ شَيْءٌ وَعَلَيْهِمُ (٩٧) السائدة

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ^(٢) يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٩٧) لِيَشْهَدُوا مَنَفْعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ فِيْ اَيَّامٍ مَّعْلُوْمَةٍ عَلَى

[١] يقوم به أمر الناس في دينهم وديانهم . الهدى : ما يجده الغرم من الايل ، أو البقر ، أو النعم الفقراء الحرم . القلائد جمع قلادة : ما يجعل في عنق الهدى حتى لا يجرّسه أحد .

[٢] ضامر : خفيف اللحم من السبل لا من الهزال . فج عميق : طريق بعيد .

مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْتَةٍ الْأَنْعَمِ ﴿٢٨﴾ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴿٣٠﴾ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْمَتِينِ ﴿٣١﴾ الحج

شرح وتعليق

(١) فرض الله الحج في السنة التاسعة من الهجرة وقد خرج عليه السلام للعمرة في السنة السادسة فصعدته قريش عن البيت ، وقضى تلك العمرة في السنة السابعة ، وفي السنة التاسعة حج بالناس أبو بكر رضى الله عنه ، وفي العاشرة خرج النبي صلى الله عليه وسلم ، وحج بمجموع المسلمين حجة الوداع ، وفيها بين للناس كيفية الحج ، وقال لهم «خذوا عني مناسككم» . وقد أَرانا الله بقوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) أنه أوجب على مستطيع الحج أن يحج إلى بيت الله لأداء هذه الفريضة ، ولم يبين الله لنا أحد الاستطاعة ، لأن كل أحد يعلم من نفسه أن كان يستطيع الحج أولا يستطيع ، وإن كان عاميا ، لأنها عبارة عن القدرة على الوصول إلى بيت الله ، وهي تختلف باختلاف الناس في أنفسهم ، وفي بعدهم عن البيت وقربهم منه .

واننا نرى جماهير المسلمين يذهبون إلى الحج في كل عام بدون أن يستفتي واحد منهم العلماء عن نفسه أهو مستطيع أم غير مستطيع ؟ فدل ذلك على أن الاستطاعة أمر موكل للشخص وهو أدرى بنفسه - وإن كان عاميا - من غيره وإن كان عالما بخبرها .

وقد استنبط بعض العلماء من الآية أن حج البيت من فروض الكفايات التي يجب أن يقوم بها طائفة من المسلمين في كل عام ، وإذا عطلوا هذه الشعيرة آثموا جميعهم ، والدليل على ذلك أنه وجه الوجوب في الآية إلى الناس عامة ، فتكون الآية دالة على وجوب الحج وجوبا كفاثيا على عامة المسلمين ، على معنى أنه يجب على عامة المسلمين أن يقوم فريق منهم ، وهو للمستطيع - بأداء ذلك الركن ، وتدل فوق ذلك على وجوبه وجوبا عينيا على كل مسلم مستطيع ، وإذا تركه آثم ، وذلك الاستنباط لا يتم إلا حيث اعتبرنا (من استطاع) فاعل لقوله (حج) أما إذا قلنا إن (من استطاع) بدل من الناس وبيان له فلا تدل الآية على أن الحج فرض كفاية على عامة الناس .

بل يكون معناها : والله على الناس الذين استطاعوا الوصول إلى بيت الله أن يقصدوا إلى ذلك البيت لأداء النك ، فتكون الآية بيانا لمن يجب عليهم الحج وجوبا عينيا - أما وجوب أحياء هذه الشعيرة كبقية شعائر الدين فهو مأخوذ من أدلة أخرى . (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) أي من لم يذعن لوجوب ذلك الركن وما فرض الله

من حج ذلك البيت فإنه لا يضرب بذلك الجحود إلا نفسه ، فإن الله غنى عن العالمين ، لا يستفيد من عبادتهم ، ولا يتألم لعصيانهم ، ومنهم من حل الكفر هنا على ترك الحج ، وأيد رأيه بأحاديث منها مارواه ابن عدى عن أبي هريرة مرفوعا « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا » وهو بعيد ، والحديث لم يصح ، وكذلك ماروى بمعناه .

(٢) (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) الخ : أى صير الله الكعبة التى هى البيت الحرام أمرا يقوم به أمر الناس ويتحقق ، أو يستقيم ويصلح بإدخال تعظيمها فى القلوب ، وجذب الأفئدة إليها ، وصرف الناس عن الاعتداء فيها وعلى مجاوريها وحجاجها ، وتسخيرهم لطلب الأرزاق إليها .

ويدل لذلك قول الله تعالى (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » ٢٧) (١) .

وفى معناه قول الله تعالى (وقالوا ان تدع الهدى معك تنتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لنا ولكم أكثرهم لا يعلمون » ٥٧) (٢) وكذلك الشهر الحرام ، وهو ذو الحجة الذى تؤدى فيه مناسك الحج ، أو المراد به جنس الأشهر الحرم التى كانوا يتكئون فيها القتال ، جعل حرمتها قياما للناس ومصلحة لهم - وجعل الهدى الذى يساق الى الحرم ، والقلائد التى يسمون بها الهدى حتى لا يعتدى أحد عليه هى مصلحة للناس فى الجاهلية والإسلام ، أو القلائد التى كانوا يقلدون بها أنفسهم وهم راجعون من الحج ليأمنوا على أنفسهم فى عهد الجاهلية هى أيضا مصلحة لهم ، وكان الناس إذا رأوا هدبا عليه القلائد لا يقر بونه ولو كانوا فى شدة الجوع ، كل ذلك يعمل إعظاما لبيت الله وما يتصل به ، ذلك هو الجعل للتكويين الذى هو من خلق الله وتصديره .

ولك أن تقول (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) أى بما شرعه من القصد إليها ، وتعبد الناس بأجلها وتعظيمها ، وجعل حج ذلك البيت أصلا من أصول الدين ، وشعيرة من شعائره ، فجعلها بذلك الفتريع قياما للناس يقوم بها أمر دينهم ودينام ، لأنها عبادة بدنية ، مالية ، روحية ، اجتماعية ، يجتمع فيها المسلمون على اختلاف ألوانهم ، وتباعد مساكنهم ، ليكون ذلك الجمع مؤثرا عاما لهم ، يفكرون فيه فيما يصلحهم ، ويتشاورون فيما يحيط بهم ، وطرق التخلص من أمراضهم .

وقد أظن لذلك أعداء الاسلام من زمن بعيد ، فأخذوا يضعون العقبات فى سبيل حجهم ، ويضيقون الخناق عليهم فى زعمهم وإيادهم ، ولكن المسلمين غافلون عن كل ذلك ، فحل بهم ما حل ، وحاق بهم ما حاق .

غير أن الذى يذهب إلى بيت الله ويختلط بأخوانه المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، يعلم أن هناك عقبة كشودا تحول دون انتفاع المسلمين بحكمة الحج ، وهى تفرقهم فى اللغة ،

وتباينهم في وسائل التفاهم ، فتجد الهندوس تسود فيهم اللغة الأوروية ، وفريق منهم يحسن اللغة الانجليزية ، وتجد الغاربية والسوريين يحسنون اللغة الفرنسية ، وتجد للصريين جاهريهم يحسن اللغة العربية ، وتجد الأتراك يعرفون اللغة التركية ، وهكذا . . .

ولو أن المسلمين فطنوا لذلك الاشكال الذى يعترضهم ، وفكروا في طريق الخلاص منه لجالوا لهم لغة رسمية قومية ، تجمع بين أشتاتهم ، وتوحد طريق التفاهم بينهم ، وهى لغة القرآن والدين وهى التى بها يفهم القرآن ، وفهم السنة على الوجه الصحيح ، وبها نزل التشريع السماوى .
لو أنهم عملوا على ذلك ، واحتموا بدراسة اللغة العربية في جميع بلادهم ، لأفادوا من هذه الدراسة فائدتين :

[أحداها] : انتفاعهم بحكمة الحج ، واتصال بعضهم ببعض لاتفاقهم في اللهجات واللغة بدون حاجة إلى مترجمين .

[ثانيتهما] : انتفاعهم بهذه اللغة وخصائصها في فهم الدين من ينبوعه الصحيح ، والوقوف عليه من مصادره الأولى ، بدل أن يأخذوه عن تراجم كثيرا ما تشوه جلاله ، ولا تفي بأغراضه ومقاصده .

نعم ان الذى يذهب إلى الحج يفهم مقدار ذلك الاشكال الذى سببه اختلاف الناس في لغاتهم وصعوبة وقوف كل شعب من الشعوب على أغراض الشعوب الأخرى ، والله ولى التوفيق .
وكما يستفيد المسلمون من اتصال بعضهم ببعض في قلوبهم وأخلاقهم كذلك يستفيدون من جهة اقتصادهم ومتاجرم ، وكذلك يستفيد المؤمنون من ذلك المؤتمر الذى يجتمع إليه الناس طائعين في كل عام قوة إيمانهم ، ولرباط غلبهم بغيرهم ، وشرقيهم بغيريهم ، وشمالهم بجنوبيهم حتى يشعر المؤمن بأن كل أولئك المؤمنين هم إخوان له في السراء والضراء ، وأعوان له على الشدائد التى تفتابه ، وبذلك يقوى عنده الأمل في الإصلاح ، والرغبة في العمل الجدى النافع الذى يعود على المسلمين بالخير في الدين والدنيا .

ولم يكن ذلك الاجتماع الذى دعا إليه الدين أول اجتماع إسلامي ، فان الدين يدعو إلى الجماعة في كل صلاة ، والجماعة في كل جمعة ، ويدعو إلى الجماعة في كل سنة في العيدين ، كل ذلك لينمي في المسلمين عاطفة الاجتماع ، ويقوى فيهم غريزة حب الصالح العام ، وكثيرا ما تكون ضعيفة في السلم ، فمن المصلحة أن تنمي .

من المصلحة أن يجتمع الناس على هذه الشعيرة شعيرة الحج الأكبر لابسين لباسا واحدا في إحرامهم ، طائعين حول بيت واحد ، مصلين خلف إمام واحد ، ساعين بين السفا واللروة في مكان واحد ، واقفين للتعارف على مكان واحد ، يمدون إلها واحدا على ملة أبيهم ابراهيم عليه السلام كل ذلك مما يغني في المؤمن شعوره برحلة المسلمين في أغراضهم ومقاصدهم ، ويبرز فيهم ملكة الشعور بهذه الوحدة ، وأنهم ينبغي أن يكونوا سواسية في صرافق الحياة ، لأفضل لأحد على الآخر إلا بالقوى ، ولا ميزة لمرئهم على أعجميهم ، ولا لثنين على قيرهم ، حتى ان الرجل الذى كبل

بالمميزات في حكومته ليشعر وهو يحجّ إلى بيت الله الحرام أنها قيد قبيل على نفسه وعلى أمته يجب الخلاص منها .

هذه حجة الحجّ العامة ، وعلى السلم أن ينظر إليه من هذه الناحية ، ويعرف أن الله تعالى قد اختار هذه الأماكن المقدّسة لأداء ذلك النسك ، وجعل ذلك النسك على أساوبه الخاصّ الذي شرعه ، لأنّه يرى فيها من الخصائص ما لا يوجد في غيرها ، وإذا جهل الناس الحكمة الخفية بهذه النسك وكيفيتها فلا يمنعهم ذلك من اقتناعهم بالحجّ ، لأنهم يعرفون حكمته العامة . ومثل الرجل الذي ينكر الحجّ لأنّه لم يعرف الحكمة في أن الله جعل عرفة بخصوصه مكانا لاجتماع الناس فيه ، ولم يعرف لماذا كان الطواف ببيت الله سبعا ولم يكن ثلاثا ، أو أربعا ، ولا الحكمة في أن السعي بين الصفا والمروة بذلك الأسلوب الذي نعرف .

مثل ذلك الرجل مثل مريض وثق بطبيب فقدم له نفسه ليفحص مرضه ، ويصف له الدواء وبعد أن فرغ من الفحص وكتب له الدواء قال له : لا أتعاطى دواءك إلا إذا علمت كيف تركب ذلك الدواء ، ومقدار نسب التركيب ، ولماذا أخذت من العقاقير بهذه النسب ، ولماذا لم تكن النسب على نحو آخر ، فهل يشكّ أحد في أن ذلك للمريض وجل أحق ؟ .

فكذلك المؤمن الذي رضى الله ربا ، واقتنع بأنه حكيم في تشريعه ، وفوّض له أمر دينه ودنياه ، وفهم الحكمة العامة في الحجّ ، لا يضرب أن يجهل الحكمة الخاصة بالتفاصيل ، لأنّه لا بدّ من التعمّد في صور العبادات ، وأشكالها وكيفيتها وكميتها ، ويكفي أن تكون معقولة في جلّتها ، ألا ترى الصلاة ، فرضها الله لأنّها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، ولكن لماذا كانت خمسا في كلّ يوم وليّة ؟ ولماذا كان الصبح ركعتين والظهر أربعا ؟ ولماذا كانت الركعة الواحدة فيها ركوع وسجودان دون العكس ؟ كلّ ذلك تعبدى لا يضرب للمؤمن أن يجهله ، وإذا فهم حكمته فذلك فضل من الله تعالى ، وكذلك فرض الله الصوم ليعتد به للتقوى ، ولكنه جعله شهرا في كلّ سنة لماذا ؟ أليس ذلك متروكا إلى الله تعالى ؟

فكذلك الحجّ عرفنا الله حكمته العامة في الآية المذكورة ، وكذلك عرفنا في قوله (ليشهدوا منافع لهم) وسكت عن حكمة التفاصيل ، لأنّ ذلك متروك لله تعالى نأخذ منه ، كما يأخذ المريض دواءه من الطبيب ، لأنّه وثق به ، ورضيه طبيبا له ، وهو أدري بشكوكين الدواء ، ونسب الأجزاء بعضها إلى بعض ، وكذلك الاله - وله المثل الأعلى - رضيناه ربا ، وعرفنا الحكمة العامة من التكليف ، وترك الحكمة الخاصة لأن علمها عنده وهو المحيط بها .

أصول المعاملات

لم يقف الإصلاح الحمدي عند دعوة الناس إلى العبادات التي تصلح نفوسهم كالصلاة والصوم أو اجتماعهم كالزكاة والحجّ ، بل تناول الإصلاح في المعاملات ، ووضع نظاما صالحا لما يحول بين الناس وبين الفساد .

حل البيع وحرمة الربا

(١) ألا ترى القرآن الكريم محلّ لفاس البيع ، ويحرّم عليهم الربا ، لأنه لاغنى لهم من البيع ، والربا لا يتفق ورحمة الانسان بأخيه الانسان ، وهو استغلال لحاجة الفقير .

وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا (٢٧٥) البقرة

ثم يقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٨) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدُوْنَا وَعُظْمَا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) النساء

ويقول : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) البقرة

ليرينا أن أكل أموال الناس بدون مقابل قد حرّمه الله إلا حيث كان ذلك المال كسبا في تجارة ، وكانت التجارة عن تراض من للتبايعين فانه يصير حلالا ، ويرينا الله تعالى بقوله (ولا تقتلوا أنفسكم) أن أكل مال الناس بالباطل من ذرائع القتل ووسائله الموصلة إليه ، والذي يرجع إلى بلاد الریف ويعرف آثار أكل المال بالباطل لا يشك في أن ذلك العمل قتل للنفس .
قضى الرجل يشح بمرثأه على أخته ، ويجهتد في حرمانها من ذلك الميراث ليأكل مالها بالباطل ، فيبرز له زوجها وأولادها ، ولا يزالون به حتى يقتلوه ، إن لم يكن قتلا حسيا فقتل أدبي .
ينتهي فقر الطرفين وسوء الحال بينهما .

فنه ما أحكم هذه الآية ، وما أبعد مداها ، دع ما تدلّ عليه الآية من أمور ظاهرة ، كأخذ مال الغير من طريق الغصب أو السرقة أو التزوير ، فان هذه الحوادث من شأنها أن تجرّ إلى القتل ، فان السارق إذا اضطرّ إلى الخطف عن نفسه يسفيع في ذلك السبيل القتل .
وكذلك صاحب المال يسفيع أن يقتل السارق في سبيل حفظه لماله ، وتأمل قول الله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) ولم يقل : ولا يقتل بعضكم بعضا ، ليرينا أن الرجل الذي يقتل أخاه للسلم هو قاتل لنفسه .

وكذلك الرجل الذي يأكل مال غيره بالباطل هو مضيع لماله بذلك العمل ، فالآية ترشدنا إلى وحدة الأمة وتكافلها ، في الخير والشر ، وأن الاعتداء على الغير اعتداء على النفس ، وما أحسن قول الله تعالى بعد ذلك (إن الله كان بكم رحيما) .

ومن رحته بنا أن وضع لنا ذلك التشريع العادل ، ثم توعدنا إذا نحن لم نسمع لذلك النصيح بقوله (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً) ليرينا أن من الناس من يأكل مال غيره وهو يعتقد خطأ أنه ماله ، ورجل ذلك حاله ليس له هذا الوعيد .

تحريم الرشوة

ثم تراه في آية البقرة ينهانا عن الرشوة ، وأن نتقدم بمالنا إلى الحكام لنستعين بذلك المال على أكل فريق من أموال الناس بالإثم ، لأن ذلك مفسد لأداة الحكم ، ومنى فسدت أداة الحكم كانت الطاقة الكبرى ، والأمة لا تزال بخير مادام قضاؤها نزيها ، وحكامها لا يخضعون للوزرات ، وأن الأمة التي تقسو فيها الرشوة هي أمة قد تودع منها .

كتابة الدين

(٢) ثم أرشدنا القرآن إلى العناية بالدين ، وأنه ينبغي أن يكتب ، وأن الكاتب ينبغي أن يكون عدلا ، حتى لا يكون موصفا للتجريح عند التقاضي ، وينبغي لذلك الكاتب العدل أن يكتب على النحو الذي علمه الله ، وأن للدين هو الذي على الكاتب ، وليتق الله في ذلك الاملاء ، فلا ينقص شيئا من دينه ، وأن الدين إذا كان سفيا أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يعل فليمل عليه بالعدل والانصاف ، وينبغي أن تستشهدوا على ذلك الدين شهيدين من رجالكم ، فان لم يوجد رجلان فليشهد رجل وامرأتان ، مخافة أن تغفل إحداها فتذكر إحداها الأخرى ، وأنه ينبغي للمشاهد أن لا يكتب شهادته إذا دعي إليها ، ولا ينبغي احتقار الدين وترك كتابته لصغره ثم بين حكمة ذلك كله بأن ذلك العمل أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى أن لا توجد ريبة بين المتعاملين ، ثم استنتى من ذلك التحارة الحاضرة ، فلا بأس من عدم كتابتها .
أرشدنا الله تعالى إلى هذه المصالح في القرآن الكريم إذ يقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيحًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْلِلَ هُوَ فليُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَغُفَلَ لِحَدِيثِهِمَا فَتُكْرَ إِحْدَهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَلِكُمْ

أَفَسَطَ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْرَبَ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَلَا فُسُوقَ بَكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «١٨٢» البقرة

العهود والمواثيق

(٣) من الأصول العامة التي وضعها القرآن الكريم لاصلاح المعاملات: الوفاء بالعقود والمواثيق وقد نعت على ذلك نصوصاً مؤكدة ، فمنها ما هو عام ، ومنها ما هو خاص ، فمن العام قول الله تعالى في أول السائدة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ «١»

وقوله تعالى في سورة النحل :

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ «٩١»

وقوله تعالى في سورة الاسراء :

وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا «٣٤»

وأما العهود الخاصة فمنها قوله تعالى في سورة التوبة بعد أن أعلن البراءة من المشركين .

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ «٤»

فأرانا بهذه الآية الكريمة أن العهد محترم حتى مع المشركين المخالفين لنا في الدين والعقيدة ، ماداموا قاطعين بشروط العهد ، ولم يعاونوا علينا أحدا من الكفر ، وأرشدنا إلى أن الوفاء بالعهد من التقوى التي يحبها الله تعالى ، ولا يصح لمسلم أن يتعرض لسخط الله تعالى بنقض العهد . وقال الله تعالى في السورة نفسها :

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

فتراء بحث على الوفاء مادام المشركون لم ينقضوا العهد ، ثم كرر الحث على ذلك الوفاء في قوله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

ثم ترى القرآن الكريم ينفر من النقض أشد تنفير ، ويصف الناقضين بأنهم شر الدواب على وجه الأرض ، ويبيح لنا - إذا علمنا من المعاهدين أنهم يريدون بنا الشر ، ولا يحافظون على العهد - أن ننبذ إليهم عهدهم ، وفعلتهم الحرب والعداء ، على علمنا ومنهم بذلك النقض إذ يقول :

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِذَا تَفَفَّهُنَّ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبْذِلْ بِهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ الْأَعَال

بل إن القرآن الكريم أعلى من شأن العهد واليثاق إلى أبعد حدود الاعلاء ، فتراء يرشدنا إلى أن المؤمنين الذين لم يهاجروا معكم إذا استنصروكم في دين الله فليكم النصر لهم على الكفار ، إلا إذا كان الكفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروا المؤمنين عليهم ، قياما بحق العهد ، فجعل حق الميثاق فوق حق الأخوة في الدين .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينُكُمْ وَيَبِينُهُمْ مِيثَاقٌ

ثم هددهم إذا لم يبرعوا حق الميثاق بناية إذ يقول بعد ذلك :

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ الْأَعَال

فهل فطن لذلك أعداء الاسلام والمسلمين ؟ وهل عرفوا مقدار عناية القرآن بحفظ العهد واليثاق ؟ .

اليتيم والعناية به

(٤) علم الله أن اليتامى إذا أهمل شأنهم ، وتركوا بدون تربية كانوا مرضا في جسم الأمة يفسد عليها كل إصلاح ، فأمر القوامين عليهم أن يربوهم تربية صالحة في أخلاقهم ودينهم ، وأن يهتموا بما ترك لهم الآباء من مال فيتموه لهم ، حتى إذا بلغوا وأنسوا منهم الرشد دفعوا إليهم أموالهم كاملة غير منقوصة .

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا ^(١) كَبِيرًا «٢» النساء .

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ ^(٢) مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا ^(٣) أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا «٦» النساء .

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا «٩» إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ غُلًا يَأْكُلُونَهَا فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا «١٠» النساء .

ولعل في ذلك عبرة لجماعة الأوصياء الذين هم كالوحوش الضارية ، لعل لهم عبرة في قول الله تعالى (وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ) حتى لا تتبدلوا الخبز من أموالهم بالطيب من أموال اليتامى ، سواء أكان ذلك في العقار أو اللواشى ، ولعلمهم يعتبرون بقول الله تعالى (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ) وتضموها إليها ، ثم عقب ذلك النهى بقوله (إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) .

ولعل في القرآن الكريم عبرة لجماعة الأوصياء الذين يريدون أن تكون وصايتهم على اليتامى الدهر كله ، يأمرهم الله أن يختبروهم في الشئون المالية ، حتى إذا أبصروا فيهم الرشد لتدير المال

والاحتفاظ به دفعوا إليهم أموالهم ، ولكن أولئك الأوصياء لا يعترفون بالتمنى برشد ، وإن أقاموا آلف دليل ودليل على رشدهم ، حتى يكونوا بقرة حلوبا يستندون أموالهم ، ويعيشون على حسابهم ، ومثلهم في ذلك مثل المستعمرين الذين احتلوا البلاد بحجة أن أهلها لم يستعقوا لحكم أنفسهم بأنفسهم ، فهم في حاجة إلى قوم راشدين يهيمون على مصالحهم وشؤونهم ، يأخذون البلاد ويحتلوها بذلك الاسم ، ثم يضربون الرقعة على أهلها ماداموا قادرين عليهم ، وفي استطاعتهم أن يحتلوهم ، وإن أقاموا الأدلة على رشدهم ، وقدرتهم على تصرف شؤونهم ، فالأوصياء على التامى ، والأوصياء على الولايات الضعيفة سواء في الظلم ، واستغلال الضعف ، ووضع العقبات والعراقيل في سبيل انتفاع الناس بما أعطاهم من مال ومواهب ، وحسبنا الله في الترفيق .

وتأمل قول الله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بالباطل) لتعلم أن من الناس من يأكل مال اليتيم ، والحامل له على ذلك الاسراف والبلوغ ، والخوف من أن يبقى ذلك المال تحت حيازة اليتيم إلى أن يكبر ، فلا يستطيع الوصي أن يأكله بعد الكبر ، فيبادر بأكله وهو صغير ثم يأمر الله من كان غنيا منهم أن يتعفف عن الأكل من مال اليتيم ، ويحفظ له ماله بدون أجر ، ومن كان فقيرا منهم أباح له أن يأكل من مال اليتيم بالطريق المعروف ، فلا يسرف في ذلك . ثم يأمر الأوصياء بأن يشهدوا على الأيتام إذا دفعوا إليهم أموالهم بعد الرشد ، حتى لا يوجد نزاع ، ثم يعقب ذلك بقوله (وكفى بالله حسيبا) وهو تهديد شديد لجماعة الأوصياء إذا هم غلطوا اليتيم في ماله ، يريهم به أن الله تعالى رقيب عليهم ، حسيب على أعمالهم ، وما أشد قول الله تعالى في سورة النساء .

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهُمْ «٩»

يهدد به الأوصياء ، ويريههم أن كل واحد منهم عرضة لأن يموت ، وتصبح أولاده يتامى في حاجة إلى عطف الناس ورعايتهم ، فهل يرضيه إذا كان أولاده كذلك أن يظلمهم الناس ، ويضيحوا أموالهم ، ويحولوا بينهم وبين الحياة ؟ ذلك هو الوعيد الذي توعد الله به القوامين على التامى ، والناس جد غافلين عن التامى وعن حقوقهم ، ولا يعاملهم الأوصياء إلا شرعا معاملة . وإنك لتجد واحدا في الأب يحصر على حق اليتيم وماله ، ويسمل على تدمير ثروته والبقاء عليه .

نظام البيوت

لما كانت الأمة لا تقوم إلا على أسرى بيوت ، وضع الله نظاما للبيوت يكفل حياتها وبقائها ، ويعد هذه الأسر للقيام بوظيفتها في هذه الحياة .

الزواج

(١) فشرع الزواج وحث عليه ، وامتقن على الناس أن جعل بين الزوجين مودة ورحمة ، وخلق لنا من أنفسنا الأزواج لتسكن إليها نفوسنا ، وتطمئن إليها أفئدتنا .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ الروم

وقال تعالى :

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ النور

وهو خطاب لأولياء البنين والبنات ، يطالبهم الله فيه أن يزوجوا من لازوج له ، والصالح للزواج من العباد والاماء . وقوله (إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله) ترغيب في النكاح وتسهيل لأصممه ، ورد على من يشك في أمر الزواج ويرغب عنه بعلة الفقر ، وكأن الله يرزق أن الزواج من أسباب الثنى ووسائل الاقتصاد .

وكثيرا ما يكون الرجل مسرفا لا يستطيع أن يحافظ على ماله ، لأنه لم يكن له امرأة تحافظ على ذلك المال ، واضطره معيشته إلى إضاعة ماله في سبيل مأكله ومشربه ، فإذا اقترن بزوجة صالح للزوجية من جهة خلقه وتدبيره حفظ ماله ، ونمت ثروته .

ثم يرينا الله أنه لا غرابة في ذلك إذ يقول (والله واسع عليم) وليس المراد بالفقراء : الذين لا يجدون مؤنة النكاح من مهر أو نفقة على الزوج ، بدليل قوله بعد (وليستغف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) .

تعدد الزوجات

(٢) ولم يكن عند العرب حد يرجعون إليه في تعدد الزوجات ، فوضع القرآن الكريم لذلك حدا وسطا ، وأباح التعدد لمن أمن الجور في معاملة النساء . قال تعالى في سورة النساء :

فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ ﴿١﴾ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

تَمْدِلُوا قَوَاحِدَهُ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَتَوَلَّوْا ۝٤٤

فأنت ترى القرآن الكريم أباح للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة ، وشروط في ذلك أن يأمن الجور النسي من شأنه أن يفسد على الرجل بيته ، ويفرق بين بنيه ، وأوجب عليه امرأة واحدة إذا خاف الجور ، فضلا عن يتيقنه .

ثم ختم الآية بقوله (ذلك أدنى أَلَّا تَتَوَلَّوْا) أى أقرب من ألا تفتقروا ، من عال الرجل عيلة : افتقر ، يريد أن اكتفاء الرجل بامرأة واحدة من أسباب غناه وعدم فقره ، فإن الشأن في المرأة إذا رأت زوجها قد تزوج امرأة أخرى أن تفرط في ماله ، وتعمل على تبديده ، لأنه لم يكن خالص لها ولأولادها ، فلا أصل في الزواج أن يكون للرجل امرأة واحدة ، والزيادة على ذلك لابد أن تكون لحاجة ماسة من شأنها أن ترجع على مافي التعبد من أضرار مالية ومنزلية ، وتفرق بين الأبناء ، ولا سيما إذا كانت النساء جاهلات ، كأن يتزوج الرجل امرأة ويقين أنها عاقر لانه ، وهو يحبها ويحبها ، فمن الخير لها وله أن يتزوج عليها ولا يفارقها ، وكأن تكون حاجة الرجل الطبيعية لاكتسفتي بالمرأة الواحدة ، فبدلا من أن يعرض الرجل نفسه للزنا ، أو غشيان امرأته في أيام الحيض والنفاس ، مما يسبب له أمراضا ، يبيع الله له أن يتزوج امرأة أخرى ، وكأن يطرأ على امرأته من الأمراض ما يحول بين استمتاع الرجل بها ، ويرى أنها امرأة فقيرة لا تجد من ينفق عليها ، فيسبقها الرجل على أن تكون ضرة وهو خير من أن يدعها وهي على ذلك الحال المؤلم .

هذه وأمثالها أسباب خاصة لتعدد الزوجات ، وهناك اعتبار آخر يبيع التعبد ، وهو أن الشأن في الرجال أن تكون عرضة دائما للنقص عن النساء بواسطة الحروب والأسفار ، وهذه الحرب الكبرى قد تركت أياحي كثيرات من النساء .

فلو أن الله تعالى حرم على الرجل تحريما باتا أن يتزوج بأكثر من واحدة لتمرص كثير من النساء للتاجار بأعراضهن ، وتفتش الزنا إلى حد كبير ، وخير المرأة أن يكون لها ضرة أو ضرات ، ولا تتجر بأعرى شيء لديها وهو خلقها وعفتها ، فسبحان الحكيم في تشريعه ، العليم بحاجات خلقه وضروراتهم .

وقد بين القرآن منزلة الرجل من المرأة من جهة الحقوق ، حتى ينظم البيت وتسعد الأسرة بقيام كل منها بما أوجه الله عليه ، فقال :

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ۝٢٢٨ البقرة

وهي درجة الرياسة التي بينها الله تعالى في سورة النساء .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ

أَمْوَالِهِمْ «٣٤»

فترى القرآن الكريم أوجب للمرأة من الحقوق على الرجل مثل ماله عليها في حدود المعروف بين الناس ، حسب البيئة التي تعيش فيها ، والوسط الذي تكون فيه ، وفضل الرجل على المرأة بدرجة الرياسة ، لأنه لاغنى لليت عن رئيس يرجع أمره إليه ، وأولى الزوجين بالرياسة هو الرجل بسبب تفضيل الله للرجال على النساء بالعلم ، والمقل الراجح والولاية ، وبسبب ما أنفقوا عليهن من أموالهم .

الطلاق

(٣) علم الله تعالى أن الصلات بين الزوجين قد تسوء إلى حد كبير ، حتى لا يمكن معه إصلاح فوضع نظاماً للفرقة كما وضع نظاماً للاجتماع ، ذلك النظام الذي وضعه للفرقة هو الطلاق ، ولو كانت صلة الرجل بالمرأة ضربة لازب لاسبيل إلى الخلاص منها بحال من الأحوال لكان في ذلك من إحراج الزوجين وإعانتها ما لا يتفق والحياة الطيبة ، ولأدى ذلك الإلزام إلى انتحال أسباب من شأنها أن تكون طريقاً للتخلص من الزوجية ، وإن كانت الأسباب لا يرضاها الله تعالى ، ولا ترضاها المروءة ، فكان من رحمة الله بالزوجين مشروعية الفرقة بينهما ، وهي الطلاق .
لم يجعل الله الطلاق فوضى ، بل حاط عقد الزوجية بما يحفظه من التمرّض للانتهال الوقتى بوسائل شتى .

[أولها] أن الله تعالى شكك المراء في وجدانه عند حصول نفرة ، فقال في سورة النساء .

وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَرْوَفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسِي أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ

أَلَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا «١٩»

[ثانياً] أنه رغب كلا من الزوجين في الصلح عند وجود مقدمات النفرة ، حتى لا يستفحل الأمر ويسع الحرق ، فقال في سورة النساء :

وَإِنْ أَرَأَيْتُمْ خَافَتْ مِنْ بَئِلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا

بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُخْصِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ

أَلَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا «١٢٨»

[ثالثها] أمر الله تعالى بالتحكيم عند خوف الشقاق ، فقال يخاطب المؤمنين في سورة النساء :

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْشِرُوا بَحَكْمٍ مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنَّ
يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّي أَفْقَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا «٣٥»

[رابعها] أنه جل الطلاق مرة بعد أخرى ، حتى إذا طلق الرجل امرأته لسبب عارض ، ثم زال ذلك السبب راجعها ، فلما طرأ من الأسباب ما يقتضي الطلاق مرة ثانية طلقها ، وفي المرة الأخيرة لاحق له في أن يرجع إليها حتى تنكح زوجها آخر . قال تعالى في سورة البقرة :

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ «٢٢٩»

أي الطلاق الذي بعده رجعة مرتان .

التيسير على المطلقة

(٤) إذا لم يكن للرجل بد من الطلاق بعد علاج الأمر بما ينبغي أن يصالح به وجب أن يكون في ابتداء العدة : أى في طهر لم يمسه فيه حتى لا تطول العدة على المرأة . قال تعالى في سورة الطلاق

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِدِثَيْنِ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا
اللَّهَ رَبَّكُمْ

ووجب على الرجل أن لا يخرج المرأة من بيته وهي في العدة لقوله تعالى في سورة الطلاق :

لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ
ذَلِكَ أَمْرًا «٩»

وكذلك إذا بلغت المرأة الأجل للتقدم لها عليه أن يمكها بالمعروف أو يفارقها بالمعروف .

فَإِذَا بَلَغَتِ الْأَجَلَ لَتَفْتَرِهَا عَلَيْهِ أَنْ يَمْكُهَا بِالْمَعْرُوفِ أَوْ يَخَارِقَهَا بِالْمَعْرُوفِ «٢» الطلاق

ثم أمر الإحاح ، بالرفق بالمرأة وهي في عدتها ، فقال في سورة الطلاق :

أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُمْ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ
وَإِنْ كُنْ أُولَئِكَ جَمِلًا فَاتَّقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَضَعُوا حِمْلَهُمْ فَإِنْ أَرْضَعْنَا لَكُمْ فَتَاتُوهُمْ
أَجُورَهُمْ وَأَتَمِّرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَمَاَسَرْتُمْ فَتَضَعُوا لَهُ أُخْرَى «٦»
لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُتَّقِ بِمَاءِ أَنْيَةِ اللَّهِ لَا يُكَلِّفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً إِنَّهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا «٧»

وأمر للزوجة إذا طلقت قبل التخيول ولم ينفق لها على مهر أن تتح بما تنعزى به ، وجعل ذلك حقا واجبا لها ، فقال في سورة البقرة .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً
وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ «٢٣٦»

ونهى الرجل أن يأخذ شيئا مما آتاها فقال في سورة النساء :

وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَانَيْتُمْ لِخَدْنَةٍ قِنطَارًا فَلَا
تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبْدَا «٢» وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ
أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا «٢١»

نظام التوريث

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوَقَّ
أُمَّتَيْنِ فَلَهنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ
الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ

ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لهنَّ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُّوصِينَ بِهَا أَوْ دِينٍ وَلَهُنَّ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُّوصُونَ بِهَا أَوْ دِينٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ أَمْرًا وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَمَدَّدْ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾ النساء.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ^(١) إِن أَمَرُوا هَلَاكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ النساء.

تعلق وشرح

(١) بين الله تعالى لنا في هذه الآيات نظام توريث المال بين الأقارب ، وهو نظام عادل حكيم ، وصدره بكلمة الوصية إذ قال (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ) الخ ليرينا أن التخلص من ذلك النظام الذي وضعه الله تعالى هو خروج على وصيته التي أوصى بها الآباء لينفذوها للأبناء ، ثم جتم هذه الوصية بقوله :

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١٣» وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ «١٤» النساء

فتراه وعد من يطيع الله ورسوله بوقوفه عند هذه الحدود التي رسمها القرآن الكريم بجنتات تجري من تحتها الأنهار مخلدا في أولئك الجنات ، وتوعد من يعصى الله ورسوله ، و يتعد حدوده التي وضعها في هذه الوصية نارا خالدا فيها ، وتوعده مع ذلك العذاب الهين .
ومع ذلك الوعيد الشديد تجدد الناس يخرجون على هذه الحدود ، ويعملون للخلاص من هذه الوصية الحكيمة .

أما الآباء فمرة يخرجون من هذه الوصية من طريق حبس الأرض على أبنائهم الذكور وحرمان بناتهم من التركة ، بحجة أن المال ملك لهم وهم أحرار في ذلك المال ماداموا على قيد الحياة ، وإن ذلك النظام إنما يجب بعد الموت . وفاتهم :
[أولا] أن الله تعالى وجه الوصية إليهم فلو لم يكونوا مكلفين بانفاذ هذه الوصية ما كان هناك معنى لتوجيهها إليهم .

[ثانيا] أنهم مكلفون أن لا يستقوا الباب على من يقدم من المكلفين بانفاذ هذه الوصية ، إذ كانت الآية خطابا للأمة متكافئة متضامنة بانفاذ ذلك النظام ، فإذا أبغنا للآباء أن يصنعوا بحالهم ذلك الصنع ، وأمثال ذلك الصنع تعطلت الوصية بالنسبة لغير الآباء ، وتعذر إنفاذها بعد الموت ، وإلا فما الذي يصنع المؤمنون بركة حبسها صاحبها قبل الموت على أبنائه دون بناته ؟ .
وهل يشك أحد في أن ذلك العمل تعطيل لنظام التوريث ، وهدم لوصية الله تعالى إن لم يكن من طريق مباشر فن طريق غير مباشر ؟ وهل ذلك يتفق وذلك العدل الذي أوجبه الله على الآباء للآباء ؟ وهل البغى التي حرمت من مال أبيها على ضعفها وحاجتها إلى المال في حياتها تتركز على الصلات بينها وبين أخيها الذي استبقه بمال أبيها ؟ .

وأحيانا يخرج الآباء على وصية الله تعالى من طريق الكذابة للآباء ، وحرمان البنات ، ناسين ما يترك ذلك العمل في نفوس البنات من أثر سيئ ، وشقاق مستمر ، ولو علموا أن ذلك مدعاة لتقطيع أواصر المودة بين البيوت والأسر ، وتأثير في العدواة والبغضاء بين ذوى القربات - ملجأوا لشيء من هذا .

(٢) وأما الأبناء فكثيرا ما يخرجون على هذه الوصية من طريق حل الآباء على أن يكتبوا لهم التركة وهم في حال المرض ليستقوا بها ، وقد يحملهم ذلك الحرص على أن يزوروا على آبائهم وناقوا ليحرموا بها البغى من الميراث الذي تستحقه عن أبيها ، فقتل الأخ بآخها وتقاضيه في ذلك الميراث ، وتنتهي المقاضاة بحرمان البغى والولم وانقاع دور القضاء ورجال المحاماة ، والذي لا يستقيح لنفسه من الأبناء أن يزوروا على أخته لا يتعفف أن يطعم في نصيبها ، وكلما طالبت

نصيبيها من مال أبيها بماطل ويسوف ، وقد تكون أخته في غاية الفقر ، ولكنه لا يرجعها بإعطائها نصيبها من المال ، ويضطرها إلى أن تجمع له الجوع ، وتوسط بينها وبينه من تحب ومن لا تحب . وبعد الجهد الجهد يسلموها على نصيبها ، ويطلب إليها أن تنزل عن مقدار منه ، وإذا لم تسمح نفسها بذلك عدّها الناس قاسية قليلة الدّوق ، وكأنّ الله فرض عليها أن تشطر نصيبها شطرين فتدع شطره لأخيها ، وشطره الآخر للهى تسمح به نفسه تأخذه ، وكثيرا ما يكون الأخ شرها في ذلك الشطر ، فلا يقنع إلا أن يأخذ ثلث نصيبها إن لم يكن نصفه ، وقلمًا ينصف أخ أخته ، ويدعها تأخذ نصيبها كاملا غير منقوص ، كل ذلك لأنه لم يظن لو وصية الله في اللوارث ، ولم يرض الله تعالى قاسما لمال أبيه ، ولو رضى الله ربا وامتلأ قلبه بحكمة الله وعدله في قسمته ما طمع ذلك الطمع .

ولو علم الأبناء أن الرجل المتنوع الراضى يبارك الله له في نصيبه وإن قلّ ، وأن الرجل الشره ينزع الله البركة من ماله - لو علم الأبناء ذلك وعلموا أن أصهارهم هم أعوان لهم ، ولا طريق إلى تأليفهم بهم سوى الاحسان ، وإعطائهم نصيب أزواجهم ، وأن البنت لا تكون عجة لأخيها إلا حيث أعطاهم حقها وواساها طول حياتها ، وأن البيوت لا تصلح ولا تلتم إلا من طريق الاحسان إلى الأقارب ، وأعظم وسائل الاحسان أن يعطى كلّ ذى حقّ حقه ، وأكبر وسائل القطيعة أن يحال بين الناس وبين حقوقهم .

لو علم الناس ذلك لحرصوا على إنفاذ وصية الله تعالى كاملة غير منقوصة .

(٣) ومن عجيب أمر الناس أنهم حيال قصة الله تعالى للوارث صفنان :

[صنف] يدخل على البنت بمال أبيها ويحاول أن يحول بينها وبين حقها بمختلف الأساليب . [صنف آخر] لا يقنع البنت بهذه القصة التي فرضها الله لها في قوله (الذكر مثل حظّ الأنثيين) ويرى أن البنت يجب أن تأخذ مثل أخيها ، وليس بعجيب أن يوجد ذلك من قوم لا دين لهم ولا عقيدة ، إنما العجيب أن يكون ذلك من قوم مؤمنين ، يعلمون أن الله تعالى حكيم في تشريعه ، عادل في قسمته .

ولو تدبروا الأمر قليلا لعلموا أن الله تعالى قد أنصف البنت بهذه القصة ، وأكرمها فوق إكرام أخيها ، ذلك لأن البنت تأخذ حقها من مال أبيها وهي غير مكلفة أن تنفق ذلك المال على بيتها وبنيها ، لأن نفقتها واجبة على زوجها ، وكذلك نفقة أبنائها . أما زوجها فيأخذ حقه من مال أبيه لينفق منه على نفسه وزوجه وأولاده ، فأى الولدين أسعد بمال أبيه ؟ : الولد الذى يأخذ نصيبه لينفق منه على نفسه وغيره ، أم البنت التى تأخذ مالها لتدخره ؟ فإذا كان هناك محالة في التورث فهي محالة للرأى ، وإذا كان هناك مواساة فهي مواساة البنت ، واساها الله بذلك حتى يكون عندها مال احتياطيّ تنفع به عند الطوارئ ، كأن يموت زوجها فتتألم ، وقد يكون لها من الأولاد من يحتاج إلى النفقة ، لذلك أعطاه الله نصيبها من مال أبيها لتدخره لأمثال هذه الطوارئ .

ولو فطن الناس لقصة الله تعالى لعلموا أنها وسط بين الإفراط والتعريط ، وسط بين طريق

القضاء البخلاء الذين يحرمون البنت من مال أبيها ، وبين الغلاة الجاحدين الذي يريدون أن يسطروها مثل مال الرجل ، ناسين ظروفها ، وما يجب على الزوج من نفقة لأولاده وبيته ، ولو أنصفوا وصححو التعبير لقالوا [نحن نطلب أن يضاعف الله تمييز البنت على الولد] لأن هذه اللواسة لا تكفيها . أما نحن معشر المسلمين فتؤمن بعدل الله وحكمته في تشريعه وقسمته .

الحكومة في الاسلام

(١) لما كان الاسلام ديناً ودولة وضع أساساً للحكم هو نظام الشورى ، وقد عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلفاؤه الراشدون ، على ما تسمح به طبيعة القوم في ذلك الظرف . وقد وصف الله المؤمنين بأن الشورى في شئونهم الدنيوية والدينية شأن من شئونهم ، كالصلاة وغيرها من أمور الدين . قال تعالى :

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ الشورى

وقال تعالى : مخاطباً لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ آل عمران

والأمر هنا أمر الدولة ، لأمر الدين : من عقائد وعبادات وما إلى ذلك ، فإيه يعتمد الوحي الصريح . أمر الله رسوله أن يستشير أصحابه في الشئون العامة كالحرب والسلام ، وعقد الماهدات ، وأسرى الحرب ، كما وقع في أسرى بدر ، وأمثال ذلك من الأمور العامة ، ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن يعد للأمر عقده من الشورى (فإذا عزم فتوكل على الله إن الله يحب للتوكلين) ليريه أنه لا يصح له بعد أن يصحح النية ، ويبحث المسألة من جميع وجوهها أن يرجع عما عزم عليه ، لأن ذلك الخلق خلق للتردد لا يلبق برئيس دولة .

هذا هو الأساس الذي وضعه الدين للشورى ، وترك نوع الشورى للزمن ، لأن كل زمن يناسبه نوع من الشورى قد لا يتفق وزمن آخر ، والذي يرى كيف تطورت الشورى في البلاد النيابية ، ويرى كيف كان نظام الشورى في صدر الاسلام أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، يجد الفرق جلياً واضحاً ، ويعرف حكمة الله تعالى وعلمه المحيط ، حيث لم يحدد

نظاما خاصا للشورى ، بل أمر بها ، وترك نوعها للزمن ، وذلك من أدلة أن ذلك القرآن من كلام الله الذى يعلم الحاضر والمستقبل ، لامن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

أما قسم العقائد ، وأما قسم العبادات ، وأما ما يشبهها من أئمة الأخلاق والفضائل ، ونظام التورث ، ونظام البيوت من زوجة وطلاق ، فهى من الأمور التى لا تختلف باختلاف الزمان ، ومن أجل ذلك حثدها ، وبين ما يبنى أن يبين منها ، ولم يدعها للعقول ولا للزمن ، لأن ذلك حقه وحده ، فهو الذى يحثده ويتبعنا به .

لم يكلف القرآن الكريم بوضع نظام للحكم وهو الشورى ، فنصح إلى الحكم أن يحكموا بين الناس بالعدل ، وأن يتحرروا الحق والانصاف :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَاىَ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ «٩٠» النحل

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا «٥٧» النساء

أسرى الحرب فى الاسلام

(٢) قد أريناك فيما سبق أن القتال فى الاسلام لم يكن لأكراه الناس على عقيدة ، وإنما الغرض منه حماية الدعوة الإسلامية من المؤثرات ، حتى يكون المؤمنون آمنين على أنفسهم وعقائدهم ، وحتى يكون الداعى حراً بأمن الاعتداء عليه من أبدى المخالفين له ، فهو قتال دفاع لا قتال هجوم ، وأن ما وقع من جاعة المسلمين ضد أعدائهم فى مختلف النزوات كان لتأديب المعتدى ، أو حماية الداعى ، لا يمدو شيئا من ذلك فى جوهره .

وآية أن القتال قد شرعه الله تعالى لحماية الدعوة ومصلحة الاسلام دون أشخاص المسلمين اختلاف الصحابة فى أسرى بدر ، فترى كان يرى قتلهم وعلى رأسهم عمر رضى الله عنه ، قال يارسول الله : أولئك الأسرى قد كذبوك وقاتلوك ، وأخرجوك من بلدك ، فأرى أن تملكنى من فلان قريب له فأضرب عنقه ، وتمكن حزة من أخيه العباس ، وعليها من أخيه عقييل ، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس فى قلوبنا مودة للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى ، فأضرب أعناقهم هؤلاء صناديدهم وقادتهم .

وقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله : هؤلاء أهلك ، وقومك ، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تسبيهم ، وتأخذ الفداء منهم ، فيكون مأخذنا منهم قوة على الكفار ، وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضدا ، قتال عليه السلام : إن الله ليلين قلوب أقوام

حتى تكون ألبين من اللين ، وان الله يشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة ، وان ملك يا أبابكر مثل ابراهيم . قال :

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ابراهيم

وان ملك يا عمر مثل نوح . قال :

رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَبَابًا ^(١) ﴿٣٦﴾ نوح

ورأى عليه السلام رأى أبى بكر بعد أن مدح كلا من الساحبين ، لأن الوجهة واحدة ، وهى إعزاز الدين ، وخذلان أعداء الحق المحاربين .
وقد نزل الوحي بتصويب رأى عمر رضى الله عنه فى شأن أسرى بدر ، فقال :

مَا كَانَ إِنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْعِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ
الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابُ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ
لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ الأغال

نهى سبحانه وتعالى عن اتخاذ الأسرى قبل الامتحان فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله
و يمنعون دينه من الانتشار ، وعاب بعض المسلمين على ارادة عرض الدنيا ، وهو الفدية ، ولولا
حكم سابق من الله أن لا يعاقب مجتهدا على اجتياحه مادام للقصد خيرا - لكان العذاب .
وحادث الأسرى مثل من أمثلة الشورى فى أمور الدولة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم
كان قدوة صالحة فى امثال أمر الله ، وأن الرسول قد يخطئ وقد يصيب فى مثل هذه الشئون ،
ولكن الله تعالى لا يقره على الخطأ ، بل يبين له الحق .

غنائم الحرب فى الاسلام

(٣) كانت العرب قبل الاسلام تنعم وتوزع الغنيمة على المحاربين ، وتجعل للرئيس قسما
كبيرا منهم ، أشار إليه أحد شعرائهم فقال :

لَكَ الرِّبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا وَحَكَمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ

والرباع : ربع الغنيمة ، والصفايا : ما يسطيه الرئيس نفسه مما يستحسن ، والنشيطه :

ما يقع في أبدي المقاتلين قبل الوقعة ، والفضول : ما يفضل عن القسمة ، فلما جاء الاسلام كانت أول الغنائم ما وصل للمسلمين في غزوة بدر ، فقال الله في شأنها .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ «١» الأنفال

أى أمهرها في توزيعها الى الله والرسول ، ثم بين ذلك بقوله :

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ «٤١» الأنفال

جعل خمس الغنيمة موزعا بين مصالح المسلمين ، ومنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقربائه من بنى هاشم ، وبني المطلب الذين نصروه ، دون أقاربه الذين خذلوهم ، ولصالح اليتامى ، والمساكين ، والمسافرين ، وأربعة أخماس الغنيمة للمقاتلين : للفارس سهمان ، وللراجل وهو المحارب على قدميه سهم واحد ، فانظر الفرق بين الجاهلية والاسلام .
وهناك نوع من المال ينضمه المسلمون من أعدائهم الكفار بدون حرب ، وهو الذى يسميه القرآن الكريم بالفيء ، وهو موزع على مصالح المسلمين توزيع خمس الغنيمة .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ^(١) عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَالْكِرَىٰ اللَّهُ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٦» مَا أَفَاءَ اللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ
وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ «٧» المحر

وقوله (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) بيان لحكمة توزيع الفيء على ذلك النحو الذى ترى ، وهو أن يصرف في مصالح الدولة ، ولا يكون متداولاً بين الأغنياء من المسلمين .

العقوبات في الاسلام

لما كانت طبائع الناس متفاوتة ، وكان فيهم من يكفيه الترفع في ثواب الله والتهرب من عقابه ، وفيهم من لا تكفيه هذه الأساليب ، ولترك بدون عقوبة لأفسد في الأرض ، وجراً

[١] أسرع من أجله خيلاً ولا إيلاً : أى لم تتحلبوا فيه معقة .

غيره على الفساد ، وأصبحت دماء الناس وأموالهم وأعراضهم عرضة للضياع .
لما كان ذلك شأن الناس قضت الحكمة الالهية أن يكون في دين الله من الزواج ما يكفي
لحماية الضعيف من يد القوى ، والابقاء على مصالح الناس ، والاحتفاظ بسلطان الحكومة وحرمتها
في النفوس ، من أجل ذلك شرع الله عقوبات مختلفة على الجرم التي من شأنها أن تهدد الناس
في مصالحهم وأعراضهم ونفوسهم ، فشرع :

القصاص

(١) وقد كان القصاص قبل الاسلام غير قائم على أساس العدل والمساواة ، فكانت القبيلة
كلها مسئولة عن جناية فرد منها ، إلا إذا أعلنت خلعه في المجتمعات العامة ، وقبلها كان ولي الجاني
عليه يكتفي بالقصاص من الجاني ، ولا سيما إذا كان الجاني عليه شريفا أو سيدا في قومه ، وكثيرا
ما كانت قبيلة الجاني تحميه فتتولى من ذلك شرور وحروب بين قبائل ، لجاء القرآن الكريم
محددًا للمسئولية في القصاص ، وقصرها على الجاني وحده ، فقال في سورة البقرة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ
بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى

بين الله بذلك أن الجاني وحده هو الذي يؤخذ بجريمته دون قبيلته ، وكان نظام الديات
معمولا به عند العرب فأبقاه القرآن ، وأشار إليه في قوله بعد :

فَمَنْ عَفَى عَنْهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّهِ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ
تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بِمَدِّ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ «١٧٨»

فترى القرآن الكريم جعل الأصل في العقوبة القصاص والمساواة إلا إذا عفا أولياء الم
عن القاتل ، وطابت نفوسهم بذلك العفو ، ورضوا بأخذ الدية بدون تأثير عليهم (فاتباع بالمعروف)
لذلك العفو واجب ، (وأداء إليه بإحسان) أى أداء الدية الى ولي المقتول واجب كذلك
بإحسان لا بخلطة .

ثم أشار الى تيسير الله علينا في إباحة دفع الدية بقوله (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) ولو
أن الله تعالى لم يجعل لولي المقتول حق الضعف عن الجاني لكان في ذلك إعنت للناس .
ثم يرينا أن من يعتدى بعد العفو سواء أكل ذلك الاعتداء من أولياء المسم ، أو كان من
أقارب الجاني (فله عذاب أليم) في الآخرة .

ذلك هو ما يجب في القتل العمد . أما ما يجب في القتل الخطأ كما يقع كثيرا من الناس ، فقد بينه الله تعالى في قوله :

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ يَبْغُونَ نَفْسَكُمْ فَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا «٩٢» النساء

فأنت ترى القرآن الكريم لم يعف القاتل من العقوبة وإن كان قتله خطأ ، فأوجب عليه في القتل الخطأ عقوبة مالية : هي اعتاق رقبة مؤمنة ، ودفع الدية إلى أهله ، وقد كانت الديار معروفة قبل الاسلام فأقرها ، وابتدأ السنة أنها مائة من الإبل على عصبة القاتل ، إلا أصله وفرعه ، موزوعة عليهم في ثلاث سنين إلا أن يصدق أولياء المقتول بإسقاط الدية فذلك حقهم . وإن كان من قوم محاربين للمؤمنين ، وكان القاتل مؤمنا فلا تجب له دية ، لأن الدية حتى مالى يجب لأولياء القاتل ، وهم محاربون للمؤمنين ، فلا تدفع له دية ، ويجب أن يعق الحاني رقبة مؤمنة ، كفارة لاديه ، ابقاء على حرمة المؤمن ، وإن كان من قوم بيننا وبينهم عهد كأهل الذمة ، وجبت الدية ، وتحرير رقبة مؤمنة ، احتراماً للعهد ، غير أن دية اليهودى أو النصرانى على الثالث من دية المؤمن ، ودية المجوسى ثلث عشر دية المؤمن . ومن لم يجد الرقبة المؤمنة فصيام شهرين متتابعين ، ليكون ذلك توبة من الله عليه من قتل المؤمن التابع لقوم محاربين ، ومن قتل النمسى أو الماهد .

وقد أوجب الله في قتل المؤمن خطأ عتق الرقبة المؤمنة والدية [أولاً] احتراماً للنفس ، حتى لا يفهم الناس هوانها ، حتى إن من قتلها خطأ يعاقب على القتل عقوبة مالية ، و [ثانياً] لحل الناس على الاحتياط في مسألة النفوس والدماء ، و [ثالثاً] سداً لترايع الفساد ، حتى لا يقتل أحد من الناس من يريد قتله ، ويفسر بأنه قتله خطأ .

أما التفاصيل في الأطراف فينبه القرآن الكريم في قوله من سورة المائدة :

وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «٥٥»

حكمة القصاص

(٢) أَرَأَيْتَ إِنْ تَمَلَّكَ أَنْ مَصْلَحَتُنَا فِي ذَلِكَ الْقَصَاصُ ، وَأَنْ حَيَاتِنَا الْمَادِّيَّةَ وَالْأَدْبِيَّةَ فِي مَشْرُوعِيَّةِ الْقَصَاصِ ، وَلِلْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ جِلَّةٌ - هِيَ مُضِرُّبُ الْأَمْثَالِ فِي بَلَاغَتِهَا وَعِلْوُ أَسْلُوبِهَا ، وَخِزَارَةُ مَعَانِيهَا ، وَسَهُولَتُهَا عَلَى اخْتِصَارِ لَفْظِهَا هِيَ قَوْلُهُ مِنْ - سُورَةِ الْبَقَرَةِ :

وَأَكْمَرَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

والذي يريد أن يعرف قيمة هذه الجِلَّةِ الْعَظِيمَةِ ، ومالها من أثر ملموس يوازن بين أرقى حكومات العالم اليوم ، وبين حكومة المسلمين في الصدر الأول ليرى الفرق جلياً بين الحكومتين ، ويعرف أن حفظ دماء الناس وأموالهم لا يمكن أن يكون بدون إقامة حدوده ، وأن القوانين الوضعية فشلت على طول الخط في علاج الأخطار التي تتهدد الناس ، والحكومات المدنية تنفق اليوم على الأمن قناطر مقنطرة من الذهب والفضة ، ومع ذلك هو مجهود ضائع ، وكلما ضاعفوا الجهود في تنقيح القوانين ، ومضاعفة القوات ، ضاعف المفسدون جهودهم في السلب والنهب ، وازداد الساء ، وما إلى ذلك .

ولماذا نذهب بعيداً ونوازن بين الحكومات الحاضرة ، وحكومة المسلمين في الصدر الأول ؟ وهذه حكومة الحجاز في عهدها الحاضر ، وهي ليست شيئاً يذكر في جانب حكومات أوروبا ، ومع ذلك الأمن فيه مستقر ، والمهدوء شامل محيط ، على ما في طبيعة البلاد العربية من صعوبات ، وما في نفوس أصحابها من خشونة وغلظة ، وهي آية من آيات الله في أن الناس لا تصلح بلادين ، وأن قوانينها الوضعية ، وعظمتها في حريتها وصناعتها ، وأساطيلها لا تنفيها شيئاً عن إقامة الحدود الشرعية.

سَبِّحِيهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ فَعَلَتْ

حدّ قطاع الطريق

(٣) فرض الله جزاء قطاع الطريق الذين يتهمدون الحكومات ، فقال في سورة المائدة :

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾

بين الله تعالى لنا في هذه الآيات عقاب المخربين للفسدين في الأرض ، ويعملون في بلاد الاسلام أعمالاً عظيمة بالأمن على الأفسس والأموال والأعراض ، معتمدين في ذلك بقوتهم ، غير مدعنين للشرية باختيارهم ، فيجب على الحكام أن يطاردوهم ويتبعوهم ، فإذا قدروا عليهم عاقبهم بتلك العقوبات بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ، ومراعاة المصلحة العامة وسد ذريعة الفساد ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما في هذه الآية ، وإنما حكمه حكم سائر الناس . وتأمل قول الله تعالى (من قبل أن تقدروا عليهم) لتعرف أن التائب قبل القدرة عليه مخلص في توبته ، أما التائب بعد أن قدر عليه فلا فضل له في التوبة ، وإنما هي توبة للرجاء والمضطر .

حد السارق

(٤) قد وضع الله عقوبة السارق فقال في سورة المائدة :

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَامًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

ذلك هو حكم الله العليم بأمراض النفوس وطريق علاجه . حكمه العادل ، وقضاؤه الحكيم وتشريعه المحكم : أن تقطع يد السارق والسارقة ، لأن اليد من شأنها أن تبشر السرقة ، فكان جزاؤها القطع ، وقد بين الله لنا أن ذلك القطع هو جزاء عادل للسارق والسارقة بما كسبا من خيانة ، وقوله (نكالا من الله) من نكات به بتشديد الكاف . إذا ضلت به ما يذكل به غيره ، ومنه قوله تعالى في سورة البقرة :

فَجَمَانُهَا نَكْلًا لِمَا يَنْ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

أي ان الله تعالى شرع قطع يد السارق ليكون عبرة لغيره ، فلا يحرج غيره على مثل ذلك العمل وبذلك يحفظ المال ، وقد ختم الآية بقوله (والله عزيز حكيم) ليرينا أن الله تعالى حكيم في ذلك التشريع ، فرضه له مصلحة ، وأنزله لحفظ أموال الناس ، وأن من يعيب على الشريعة قطعها يد السارق هو رجل قصير النظر ، يضحى بمصلحة المجموع في سبيل حفظ يد خاتمة مهينة ، ويجعل أموال الناس عرضة للخطر ، لأنه يرى في قطع يد السارق وحشية لا تليق بأصحاب القرن العشرين ، ولا يليق أن يعطل رجل أو رجل من الناس عن أن ينتفعوا بأيديهم ، ويصبروا مثله في هذه الحياة أيا كانت المردى لمثل ذلك العمل ، وفاتهم أن الحيلولة بين هؤلاء الخونة وبين انتفاعهم بأيديهم غرض من أغراض التشريع ، والتمثيل بهم أمام الجماهير هو نكال بهم وعبرة لغيرهم ، فان الناس متى رأوا أن ذلك هو مصير السارق لا يقعون في مثل ذلك العمل ، ولماذا

نحصر على صفة المجرم مادام هو لم يحرص عليها ، وقائم له أكثر من تأله لنفسه ؟ وإذا كان التريون ومن حذا حذوم يرون قطع يد السارق وحشية لانتلق ، ومثله لانفقي ، فاننا معشر المسلمين زاهوا حكمة وعدلا ، وننمدها إصلاحا لاغنى للناس عنه ، وضعه الله العالم بأفراض النفوس ، ومادام صلاح المجموعة في تأديب أولئك الأذنياء أدبا وانما مكشوها ، فان للصلحة في صلاح المجموعة ، وإن ضاع في سبيلها مصلحة الفرد .

وقد ظن أصحاب هذه الشبهة أن قطع يد السارق إذا لجأت إليه الحكومات من شأنه أن يكثر الساطلين ، وهم في ذلك جد واهمين ، فان يدا واحدة إذا قطعت من شأنها أن تحول بين الناس وبين جرائم السرقة ، والذي يكثر السرقة بين الناس هو الجزاء للممول به اليوم ، وهو لا يبعد وضع السارق في السجن ، وقد يكون السجن أحب إليه من الأعمال خارج السجن ، وهذه بلاد الحجاز تقام فيها الحدود ، وقد يمضي العام يتلوه العام ولا تقطع يد واحدة .

وإذا كان فريق من الناس لا يزال بعد ذلك مصرا على أن القطع وحشية ، وحفظ يد المجرم مدنية ، فاننا نرجب بوحشية من شأنها أن تحفظ على الناس أمنهم ومالهم وحياتهم ، وتزدري مدنية تعرض الأمن إلى الخلل ، وتسبب له اضطرابا دائما ، واختلالا لا ينقطع ، وأى فرق بين يد خائنة ، وبين عضو مريض في الجسم ، إذا بقي سبب للجسم مرضا يقضى عليه القضاء الأخير ؟ ولماذا لا ينازعنا أحد في أن العضو المريض ينبغي بتره ليسلم الجسم ، وينازعنا الذين يعدون أنفسهم مهذبين ومتقنين في يد خائنة ، هي مرض ينخر في عظام الأمة ، ويهدد حياتها الطبية ، وسببها الرجوة لها . اللهم انه تصب ظاهر وتقليد أعشى ، جرته المدينة الكلابية ، وحرمان بلاد المسلمين من حكومات تقيم دين الله وحدوده في الأرض على ما يحبه الله ، وتقضى به المصلحة .

حد الزاني

(٤) كما وضعت الشريعة عقوبة للخونة الفنين يفتانون على أموال الناس وضعت عقوبة للذين يصدون على الأعراض ، فنص القرآن الكريم على عقوبة الزنا في سورة النور إذ قال :

الرَّائِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ «٢»

ونأمل قول الله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) الخ لتعرف أنه لا نصح الموادة في إقامة الحدود ، وأن ذلك لم يكن من شئون المؤمنين بالله واليوم الآخر ، وأن الزناة ليسوا أهلا للرأفة والرحمة ، لأن جريمة الزنا متى تفتت في أمة من الأمم قضت عليها القضاء للبرم ، وحسبته أن الله تعالى يقول فيه :

وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٣﴾ الإسراء.

ولولم يكن فيه سوى تعطيل النفس والصدع عن الزواج الذي فيه بقاء الأمة وحفظ كيانتها لكفى .
والقرآن الكريم يرشدنا إلى النسوية بين الناس في تطبيق قانون العقوبات ، لأن المحاباة
في تطبيق القانون أضرت شيء على الأمة في أخلاقها وكرامتها (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين)
إرشاد إلى حكمة ذلك الحق ، وهو أن العذاب إذا اطلع عليه فريق من الناس أثر ذلك في نفس
المجرم تأثيرا غير محدود ، وبذلك يقلع عن ذلك العمل ، ذلك هو حد الزاني الذي لم يتزوج .

أما الزاني المتزوج فقد وردت السنة بنته رجلا ، لأن عنده من وسائل العفة ما يحول بينه
و بين الزنا ، ومع ذلك يمدد إلى انتهاك الحرمات : مما يدل على خبث نفسه ، وولوعه بالفساد ،
ومثل ذلك ينبغي أن تظهر منه الأرض ، ذلك هو حكم الله في الزناة المتزوجين وغير المتزوجين .

أما حكوماتنا اليوم فتعد للزناة دورا يسرحون فيها ويمرحون ، وأماكن رسمية للذعارة على
حسابها يفسقون ويقتمون ، وتعطي صاحبات هذه الدور شهادة مبهورة بتوقيع الحكومة ، على
حساب هذه الشهادة تبيع محاربة لله ولرسوله ، وإذا تعرض أحد لهذه البغي أو لصاحب من
أصحابها بسوء فقد عرض نفسه لأشد العقوبات ، وتعرض هذه الأمور التي تقوم على الفسق
والفجور كما تعرض البيوت الطاهرة النقية .

فاطر الفرق بين حكومة الاسلام والمسلمين ، وحكومات العهد الحاضر . حكومة المسلمين
تجمل الزناة وترجمهم حتى يموتوا ، لتطهر البلاد منهم ، وحكومات العهد الحاضر تعطيهم وثيقة
بواسطتها يزنون علنا تحت حراسة الحكومة وإشرافها ، ولا تستحي من الله أن تعطيهم هذه
الوثيقة ، وهي تعلم أن ذلك لإغضاب الله في قوانينها وتشريعها ، وإذا طالبت الحكومة بالغاء ذلك
الترخيص أخذت تلمس لهملها للمعاذير ، وتفتحل الأسباب .

والعلة الأولى في ذلك الوباء : الامتيازات الأجنبية ، وأن البلاد محتلة ، وليس من مصلحة
المحتل أن يحفظ على البلاد أخلاقها ودينها ، فهو يحارب بنا بجيوش من الرذائل والفسادات ، قبل
أن يحارب بنا بجيوش الاحتلال حتى نقي مشغولين عنه بشهواتنا ، منغمسين في ملاذنا . فلاحقهم أشد
البلاد والعباد من ذلك الخزي ، وطهرها من العار الذي شوه سمعتها وقضى على كرامتها .

حد القاذف

(هـ) فرض الله في القرآن عقوبة لقاذف لتبقى الأعراض مضمونة ، والحرمات محفوظة ، فقال
في سورة النور :

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ

جَلَّةٌ ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ «٤» إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٥» النور

إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ «٢٣» يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ «٢٤» يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَمْلِكُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
الْمُبِينُ «٢٥» النور

فأنت ترى أن الله تعالى جعل عقوبة الذين يرمون العفيفات بالزنا ثم لم يأتوا بأربعة شهداء
على زناهم ثمانين جللة كالزناة ، وذلك لخطر الرمي بالزنا على المرأة العفيفة ، لأنه طعن في عفتها ،
وجرح لكرامتها وعزتها ، وفوق ذلك فإن من شأن ذلك الرمي بالزنا أن يبه النفوس الغافلة لتلك
الفاحشة ، فالذي يرمي الغافلة بالزنا يسيء إليها من ناحيتين : [الأولى] طعنه عليها .
[الثانية] تنبيه الغافلة إلى هذه الفاحشة وجعلها على التفكير فيها ، ولذلك يقول في الآية
الثانية (والذين يرمون المحصنات العافلات) . والمراد بالعافلات : من لم توجه نفوسهم إلى هذه
الفاحشة ، فهم في غفلة عنها ونسيان لها ، ولذلك جعل لهم عقوبة في الدنيا فوق الحد : هي لعنهم
فيها ولطردهم من رحمة الله ، وعقوبة في الآخرة هي لعنهم كذلك ولهم عذاب عظيم .

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب : « دعوة الرسل إلى الله تعالى » مصححاً بمعرفتي بعد
مراجعة آياته القرآنية بمعرفة الأستاذ : علي محمد الضباع « مراجع المصاحف الشريفة »
أحمد سعد علي
أحد علماء الأزهر ورئيس التصحيح

[من يمن الكتاب أنه تم طبعه في يوم الأحد غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هـ / ٢ يونيو
سنة ١٩٣٥ م]

مدير الطبعة
رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ للطبعة
محمد أمين عمران

فهرس إجمالى لأهم ما فى الكتاب

دعوة نوح إلى الله تعالى	١٨ — ١
دعوة هود إلى الله تعالى	٢٦ — ١٨
دعوة صالح إلى الله تعالى	٣٩ — ٢٦
دعوة إبراهيم إلى الله تعالى	٦٤ — ٣٩
دعوة لوط إلى الله تعالى	٧٢ — ٦٤
دعوة يوسف إلى الله تعالى	١٥١ — ٧٢
دعوة شعيب إلى الله تعالى	١٧٥ — ١٥١
دعوة موسى وهارون إلى الله تعالى	٢٨١ — ١٧٥
دعوة داود وسليمان إلى الله تعالى	٣٣٩ — ٢٨١
دعوة عيسى إلى الله تعالى	٣٦٩ — ٣٣٩
دعوة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى	٥٢٩ — ٣٦٩
دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) بمكة	٤١٦ — ٣٧٠
وحدة الله تعالى	٣٧١ — ٣٧٨
الرسالة والجدل فيها	٣٨٣ — ٣٧٨
البعث والجزاء	٣٨٧ — ٣٨٣
العمل الصالح	٣٩٠ — ٣٨٧
الأخلاق	٣٩٨ — ٣٩٠
وظيفة الرسول	٣٩٨
تربية الله له	٤٠١
تعنت المشركين معه	٤٠٥
تسليية الله له	٤١١

هجرة صلى الله عليه وسلم الى المدينة	٤١٥
دهوته بالمدينة	٤١٦ — ٥٢٩
محاجته لليهود والنصارى	٤١٦ — ٤١٩
محمد (صلى الله عليه وسلم) والقتال	٤١٩ — ٤٢٩
الايمان والكفر والتناق	٤٢٩
صفات المؤمنين	٤٣٠ — ٤٣٩
صفات الكافرين	٤٣٩ — ٤٤٦
الآيات فى المنافقين	٤٤٦ — ٤٥٤
كبريات العبر فى المنافقين وأخلاقهم	٤٥٤ — ٤٧٠
أشهر الفزوات	٤٧١ — ٤٩٠
الزكاة	٤٩١
الصيام	٤٩٥
الحج	٥٠٠
أصول المعاملات	٥٠٤
نظام البيوت	٥١٠
الزواج	٥١١
الطلاق	٥١٣
نظام التوريث	٥١٥
الحكومة فى الاسلام	١٩٥
المقوبات فى الاسلام	٥٢٤

مراجع الكتاب

- تفسير المنار ... : للأستاذ الكبير السيد رشيد رضا
 التفسير الكبير ... : للفخر الرازي
 تفسير الكشاف ... : للزمخشري
 تفسير الجواهر ... : للشيخ طنطاوي جوهري
 إرشاد العقل السليم ... : المشهور بأبي السعود العماد
 المفردات في غريب القرآن ... : للراغب الأصفهاني
 قصص الأنبياء ... : للأستاذ عبد الوهاب النجار
 زاد المعاد ... : لابن قيم الجوزية
 نور اليقين ... : لمحمد بك الحضري
 تاريخ التشريع الاسلامي ... : « « «

للمؤلف :

- ١ - آيات الله في الآفاق - أو - طريق القرآن الكريم في المقائد
- ٢ - التوحيد - أو - المقائد الاسلامية .
- ٣ - أصول : في البدع والسنن .

